

-6-

ما وراء مبدأ اللذة

الأنا والهذا

الكفّ ، العرَض، الحصر

مختصر التحليل النفسي، الأنا وآليات الدفاع

مكتبة
الفكر الجديد
12-07-2017

سيغموند فرويد

ترجمة:
جورج طرابيشي



ما وراء مبدأ اللذة



الكتاب: **ما وراء مبدأ اللذة- الأنا والهذا- الكف ، العرض، الحصر مختصر التحليل النفسي الأنا وآليات الدفاع**

المؤلف: **سيغموند فرويد**

ترجمة: **جورج طرابيشي**

التصنيف: **علم نفس**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: نوفمبر (تشرين الثاني) 2015

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 971 - 5



www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة

Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.






Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing



سيغموند فرويد

المؤلفات شبه الكاملة
المجلد السادس

ما وراء مبدأ اللذة
الأنا والهذا
الكفّ، العرَض، الحصر
مختصر التحليل النفسي
الأنا وآليات الدفاع

ترجمة جورج طرابيشي




مكتبة
الفكر الجديد

فهرس المجلد السادس




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

ما وراء مبدأ اللذة




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

كتب فرويد هذا النص في النصف الأول من عام ١٩٢٠، وكان قد شرع بالتحول في فكره النظري من الطبوغرافيا التحليلية النفسية الأولى كما شادها على الثلاثي الشعور/ما قبل الشعور/ اللاشعور إلى الطبوغرافيا الثانية كما شادها بدورها على الثلاثي الهذا /الأنا/ الأنا الأعلى، الذي يشتغل وفق مبدأ اللذة ومبدأ الواقع ومبدأ المثال. ولئن أطلق على هذا النص عنوان: **ما وراء مبدأ اللذة**، وهو المبدأ الذي كان صاغ معالمه في نصّه **من أجل إدخال النرجسية**[1]، فلأنه بات يميل إلى الافتراض بأن الدوافع الغريزية لدى الإنسان، بل لدى الكائنات الحية بإطلاق، تشفّ أيضاً عن وجود دافع غريزي إلى الموت كضمانة لبقاء النوع على حساب فناء الفرد. ولعله يدين بحدسه بهذه الفرضية ـ ولا نقول النظرية بملء المعنى للكلمة ـ إلى واقعتين أساسيتين عاشهما في تلك الحقبة من حياته: أولاهما إقدام فكتور تاوسك ـ الذي كان تلميذه وصديقه المقرَّب إليه قبل أن تتوتر العلاقات فيما بينهما ـ على الانتحار، وثانيتهما بدء معاناته الطويلة الأمد من سرطان الفكّ الذي كان أول تظاهره في ربيع عام ١٩١٩ والذي لن تنجح أكثر من عشرين عملية أجريت له في استئصاله. وهذا فضلاً عن واقعة عامة تمثَّلت بالحرب العالمية الأولى التي كانت إلى حينه أكبر حرب في تاريخ البشرية والتي أدت إلى مقتل تسعة ملايين نسمة، بمعدل ستة آلاف قتيل في اليوم الواحد. وقد كنا شرعنا بنقل هذا الكتاب إلى العربية عام ١٩٨٤، ولكن ظروف الهجرة إلى باريس حالت في حينه دون استكمال الترجمة التي ما كانت تعدَّت أصلاً الفصل الأول. ولكن نظراً إلى أهمية كتاب فرويد هذا من المنظور الطبوغرافي

١ ـ انظر مقالة فرويد: **أفكار لأزمنة الحرب والموت**. انظر النص في المجلد السابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».



الجديد الذي آل إليه تطور التحليل النفسي في مطلع العشرينات من القرن الماضي، فقد اغتنمنا الفرصة التي أتاحتها لنا دار مدارك لإعادة نشر مؤلفات فرويد شبه الكاملة هذه في ثمانية مجلدات كبيرة لنستكمل ترجمة الفصول الستة التالية. وقد كان معتمدنا في ذلك على الترجمة الفرنسية التي قام بها الاختصاصيان الكبيران في المصطلح التحليلي النفسي جان لابلانش وجان برتران بونتاليس والتي كانت صدرت عن منشورات بايو عام ١٩٨١ والتي أعادا نشرها، مع بعض التعديلات الطفيفة في المجلد الخامس عشر من أعمال فرويد الكاملة الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية. ونظراً إلى صعوبة النص وغموض العديد من فقراته وجدّة بعض المصطلحات المقتبسة من علم الأحياء، وحصراً منها المتعضِّيات اللامتناهية الصغر، ولا سيما في الفصلين الخامس والسادس اللذين مدارهما على غريزة الموت تحديداً، فقد رجعنا أيضاً إلى الترجمة التي قام بها جون ستراتشي، المترجم المعتمد من قبل فرويد نفسه لمؤلفاته الكاملة إلى الإنكليزية.

باريس في ٢٠١٥/٦/٢٠

ج . ط



ـ ١ ـ

إننا نسلّم بلا تردد، في النظرية التحليلية النفسية، بأن مبدأ اللذة ينظّم بصورة آلية مسار السيرورات النفسية؛ أو نعتقد، بعبارة أخرى، أن هذا المسار ينشأ في كل مرة عن توتر وأنه يتخذ لنفسه سبيلاً يفضي في خاتمة المطاف إلى انخفاض في ذلك التوتر، أي إلى تحاشٍ للكدر أو إنتاج للذة. وحينما نأخذ في اعتبارنا هذا المسار من خلال دراسة السيرورات النفسية نكون قد أخذنا في عملنا بوجهة النظر الاقتصادية. ونحن نعتقد أن مثل هذا التوصيف الذي يأخذ في اعتباره العامل الاقتصادي إلى جانب العاملين الطبوغرافي والدينامي هو أكمل توصيف نستطيع الوصول إليه حالياً، وأنه يستأهل بالتالي أن نبرزه للعيان بنعته بأنه **ميتاسيكولوجي**[١].

ولا يهمّنا هنا على الإطلاق أن نتحرى، من خلال قولنا بمبدأ اللذة، عن مدى اقترابنا أو أخذنا بهذا المذهب أو ذاك من المذاهب الفلسفية المشهود لها تاريخياً. ذلك أننا لم نتوصل إلى مثل هذه الفروض النظرية إلا من خلال مسعانا إلى توصيف الوقائع التي كانت تعرض لملاحظتنا اليومية في المضمار الذي نعمل فيه وإلى شرحها وتفسيرها. والحق أن العمل التحليلي النفسي لا يسعى وراء الأسبقية والابتكار، والمعطيات التي تبيح لنا أن نقول بمبدأ اللذة هي من البداهة بحيث يستحيل ألا تقع تحت النظر والإدراك. وبالمقابل، لن نكون إلا معترفين بالجميل

١ ـ نحت فرويد مصطلح الميتاسيكولوجيا، أي حرفياً: ما بعد علم النفس، عام ١٩١٦ على المنوال نفسه الذي كان مؤرخو الفلسفة نحتوا به مصطلح الميتافيزيقا، أي ما بعد الفيزيقا (= ما بعد الطبيعة)، وذلك بالإحالة إلى كتاب أرسطو: «الطبيعة= الفيزيقا». وقد كان مرمى فرويد هو التوكيد على النقلة من علم النفس الكلاسيكي المتمحور حول الشعور إلى علم النفس الجديد كما يتمثل بالتحليل النفسي المتمحور حول اللاشعور. «م».



لأية نظرية فلسفية أو سيكولوجية قمينة بأن تفسّر لنا دلالة أحاسيس اللذة والكدر التي هي في نظرنا بالغة الأهمية. ولكن مما يؤسف له أنه لا يُعرض علينا من هذا المنظور أي جديد ذا جدوى. ذلك أن هذه المنطقة من الحياة النفسية هي المنطقة الأكثر غموضاً والأكثر استعصاء على النفاذ إليها. وما دام من المتعذَّر علينا أن نتجنَّب التعرض لها فإن الفرضية الأكثر مرونة وارتخاء ستكون، في نظري، هي الأصلح. ولقد ارتأينا بالتالي أن نربط بين اللذة والكدر وبين كمّ الاستثارة الماثل في الحياة النفسية وغير المقيَّد بأي قيد. وعلى هذا النحو وجدنا أن الكدر يناظر ارتفاعاً في كمّ الاستثارة، وأن اللذة يناظرها انخفاض في هذا الكمّ. ولسنا نرمي من هذا إلى القول بوجود محض ارتباط بدائي بين شدة الإثارات وبين التغيُّرات التي نربطها بها ـ على نحو ما تفيدنا به الفيزيولوجيا السيكولوجية ـ ولا نحن نتصور أن علاقة كهذه هي علاقة تناسبية مباشرة. وإنما يتراءى لنا أن العامل الحاسم في شدة الإحساس هو مقدار النقصان أو الزيادة في كمّ الطاقة في لحظة معيَّنة. وليس من المستبعد أن يكون لدى الباحث التجريبي هنا ما يمكن أن يقوله، غير أننا، نحن المحللين النفسيين، لا نرتئي الغوص في هذه المسألة ما لم تتوفر لنا مشاهدات ثابتة قمينة بتسديد خطانا.

لكن هذا لا يعني طبعاً أن نبقى غير مبالين عندما نجد باحثاً، يتمتع بمثل ذلك القدر من نفاذ البصيرة الذي يتمتع به باحث مثل غ. ث. فخنر[2]، يصوغ تصوراً عن اللذة/ الكدر يتوافق في جوهره مع التصور الذي يفرضه علينا العمل التحليلي النفسي. ولقد أفصح فخنر عن ذلك التصور في كتابه الصغير: «**بعض أفكار حول تاريخ تخلُّق المتعضِّيات وتطورها**» (١٨٧٣، القسم الحادي عشر، التذييل، ص ٩٤) بالمفردات التالية: «بقدر ما تكون الإثارات الشعورية ذات صلة دائمة باللذة أو الكدر، جاز لنا أيضاً أن نعتبر اللذة والكدر مرتبطين فيزيولوجياً

٢ ـ غوستاف فخنر: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٠١ ـ ١٨٨٧). مؤسس الفيزياء النفسية التي ترمي كعلم إلى القياس الكمّي للظاهرات النفسية. وقد صاغ القانون المعروف باسم قانون فيبر ـ فخنر والقائل إن كمّ الإحساس يتناسب ولوغاريتم شدة الإثارة. وقد تراءى له أنه مستطيع عن هذا السبيل أن يهتدي إلى حل للغز الفلسفي القديم: لغز العلاقة بين الروح والجسد. «م».



بشروط الثبات وعدم الثبات. وهذا ما يبيح لنا أن نصوغ الفرضية التالية التي سأشرحها بالتفصيل في موضع لاحق: إن كل فعل نفسي بدني يتخطى عتبة الشعور يكون مصحوباً بمقدار من اللذة يتناسب وقربه ـ زيادة على حدّ معيَّن ـ من التوازن التام، ويكون مصحوباً بمقدار من الكدر بقدر ابتعاده عن حدٍّ معيَّن. وإنما بين هذين الحدَّين اللذين يسعنا أن نعتبرهما عتبتَين نوعيتين للذة والكدر يكون ثمة وجود لمنطقة من عدم الاكتراث الجمالي [...]».

إن الوقائع التي قادتنا إلى الاعتقاد بهيمنة مبدأ اللذة على الحياة النفسية تجد أيضاً تعبيراً عنها في الفرضية التي تقول إن الجهاز النفسي ينزع إلى خفض كمّ الاستثارة الماثلة فيه إلى أدنى حدٍّ ممكن أو إلى إبقائه على الأقل ثابتاً لا يتغيَّر. وليس هذا سوى صياغة أخرى لمبدأ اللذة؛ ذلك أنه إذا صحّ أن عمل الجهاز النفسي يهدف إلى إبقاء كمّ الاستثارة منخفضاً، فإنه يترتب على هذا أن كل ما هو قمين بزيادة هذا الكمّ يُستشعر بالضرورة مناوئاً لوظيفة الجهاز النفسي، أي مولِّداً للكدر. وعلى هذا يكون مبدأ اللذة مشتقاً من مبدأ الثبات. غير أن مبدأ الثبات قد تمّ الاهتداء إليه هو نفسه بدءاً من الوقائع التي أرغمتنا على القول بمبدأ اللذة[٣]. ولسوف يظهِر لنا أيضاً نقاشٌ أكثر تعمقاً أن ذلك الميل الذي عزوناه إلى الجهاز النفسي يمكن اعتباره حالة خاصة من المبدأ الذي قال به فخنر عن **الميل إلى الاستقرار**، والذي به ربط أحاسيس اللذة والكدر.

بيد أنه يتوجب علينا أن نؤكد أنه ليس من الصواب، إذا شئنا الدقة في التعبير، أن نتكلم عن هيمنة لمبدأ اللذة على كل مجرى السيرورات النفسية. إذ لو كان لمثل هذه الهيمنة وجود لتوجَّب على الغالبية العظمى من سيروراتنا النفسية أن تكون مصحوبة باللذة أو مؤدية إليها. والحال أن الخبرة المألوفة تتناقض تناقضاً صارخاً مع مثل هذا الاستنتاج. ومن ثم ليس أمامنا بدّ من التسليم بما يلي: إن في النفس البشرية ميلاً قوياً إلى مبدأ اللذة، ولكن بعض القوى أو الشروط الأخرى تقف موقف المعارضة من هذا المنزع بحيث أن المآل النهائي لا يمكن أن يكون

٣ ـ صاغ فرويد مفهوم مبدأ اللذة لأول مرة في مقاله: **من أجل إدخال النرجسية**، ١٩١٤. «م».



مطابقاً في الأحوال كافة للنزوع إلى اللذة. ولنسترجع هنا الملاحظة التالية التي كان أبداها فخنر بصدد مسألة مشابهة (المصدر نفسه، ص ٩٠): «لكن نظراً إلى أن النزوع إلى هدف بعينه لا يعني بعد أن هذا الهدف قد تمّ بلوغه، ونظراً إلى أن الهدف لا سبيل إلى الوصول إليه إلا عن طريق التقريب [...]»[٤]. وعليه، إن طرقنا الآن مسألة معرفة ما الظروف القمينة بمنع مبدأ اللذة من الاشتغال، وجدنا أنفسنا من جديد فوق أرض ثابتة ومعروفة منا ويكون في مقدورنا بالتالي أن ننهل على سعة من تجربتنا التحليلية لنصوغ جواباً.

إن أول حالة تطالعنا بمثل هذا الكفّ لمبدأ اللذة معروفة لدينا جيداً: فهي متواترة ومنتظمة الحدوث. وبالفعل، نحن نعلم أن مبدأ اللذة يتوافق مع نمط بدائي في عمل الجهاز النفسي وأنه لا يعود قابلاً للاستخدام، هذا إن لم يغدُ خطراً منتهى الخطورة، في مواجهة الصعاب التي ينصبها العالم الخارجي في وجه النمو البدني ـ النفسي للإنسان. ذلك أنه، تحت تأثير دوافع «الأنا» الغريزية إلى المحافظة على البقاء، تتمّ الاستعاضة عن مبدأ اللذة **بمبدأ الواقع**. وصحيح أن هذا الأخير لا يتخلى عن مقصد الفوز باللذة في خاتمة المطاف، لكنه يتطلب إرجاء هذا الإشباع والعزوف عن جميع احتمالات الفوز به والقبول المؤقت بالكدر خلال كل المسار الملتوي الطويل الذي يقود في نهاية المطاف إلى اللذة. بيد أن مبدأ اللذة يبقى لأمد طويل من الزمن هو نمط اشتغال الدوافع الغريزية الجنسية الأصعب قابلية لـ«التربية والتهذيب». وكثيراً ما يتفق لمبدأ اللذة أن يطيح بمبدأ الواقع إما انطلاقاً من هذه الدوافع الجنسية وإما في داخل الأنا نفسه، وهذا على حساب الكيان الحيّ بجملته.

بيد أنه لا مجال للشك في أن حلول مبدأ الواقع محلَّ مبدأ اللذة لا يمكن أن يُحمَّل سوى مسؤولية قسط يسير من أحاسيس الكدر وليس أشدَّها إيلاماً. والواقع أن ثمة مصدراً آخر لتمخُّض الشعور بالكدر، لا يقلّ عن الأول تواتراً، ومردّه إلى ضروب النزاع والتشاحن التي تحدث في الجهاز النفسي في أثناء

٤ ـ إن فرويد هو نفسه من يورد هذا الشاهد من كتاب فخنر الآنف الذكر مبتوراً على هذا النحو. «م».



انصراف الأنا إلى إنجاز مسار نموّه وتطوره نحو أشكال أرقى وأكثر تمايزاً من التنظيم. ومن الممكن القول إن معظم الطاقة التي ينطوي عليها هذا الجهاز تنبع من الحاثات الغريزية الفطرية، ولكن من غير أن يكون مقيَّضاً لها جميعاً البلوغ إلى درجة متماثلة من التطور والنموّ. إذ كثيراً ما يتفق، في أثناء هذا المسار، أن تدلّل بعض الدوافع الغريزية المنفردة أو بعض العناصر منها على عدم توافقها في هدفها أو مطلبها مع الدوافع الغريزية الأخرى الأقدر منها على الانضواء تحت لواء الوحدة الشاملة للجميع. وفي مثل هذه الحال تتدخل عملية الكبت لتستبعدها من هذه الوحدة. وعلى هذا النحو تبقى هذه العناصر متوقفة عند مستويات دنيا من النمو النفسي، ويحال، ولو بصفة مؤقتة، بينها وبين القابلية للإشباع. ولئن اتفق لها لاحقاً ـ وهذا ما يحدث بسهولة بالنسبة إلى الدوافع الغريزية الجنسية ـ أن تشقّ طريقها، من خلال سُبل ملتوية، إلى الفوز بإشباع مباشر أو غير مباشر، فإن هذه النتيجة، التي ما كان لها في غير هذه الحالة إلا أن تتولد عنها لذة، لا تتمخض إلا عن كدر بالنسبة إلى الأنا. وعلى هذا النحو يكون مبدأ اللذة، الذي كانت قد طالته يد الكبت في سياق النزاع القديم، قد مني بالهزيمة من جديد، وهذا في الوقت عينه الذي كانت فيه بعض الدوافع الغريزية تعمل جاهدة، طبقاً للمبدأ ذاته، على الفوز بلذة جديدة. والعملية التي يحوّل بها الكبت احتمالاً من احتمالات اللذة إلى مصدر للكدر ليست معروفة لنا بعد بتفاصيلها ولا قابلة للتشخيص بالوضوح المطلوب. ولكن لا مجال للشك في أن كل كدر عصابي هو من القبيل التالي: لذة لا سبيل إلى استشعارها على أنها لذة[٥].

إن مصدري الكدر اللذين تقدَّم بنا الكلام عنهما بعيدان كلاهما عن تغطية غالبية الخبرات المولِّدة للكدر عند الإنسان. ولكن بوسعنا التوكيد، ولو بظاهر من الحقّ، أن باقي هذه الخبرات لا يطعن في هيمنة مبدأ اللذة. فالشطر الأكبر مما يساورنا من كدر هو بالفعل كدر تستحدثه فينا إدراكات معيَّنة. ومن قبيل ذلك إدراكنا للضغط الذي تمارسه الدوافع الغريزية التي لم تفز بالإشباع، أو إدراكنا

٥ ـ حاشية أضيفت سنة ١٩٢٥: النقطة الأساسية هي أن اللذة والكدر مرتبطان، من حيث أنهما إحساسان شعوريان، بالأنا.



لواقعة خارجية، مهما تكن شاقة بحدّ ذاتها، أو مهما أيقظت في الجهاز النفسي من توقعات مكدِّرة ومهما تعرَّف فيها هذا الجهاز مصدراً «للخطر». ومن الممكن في هذه الحال لردّ الفعل على تلك المطالب الغريزية وعلى هذه التهديدات بالخطر، وهو ردّ الفعل الذي يتظاهر من خلاله النشاط الذاتي الفعلي للجهاز النفسي، أن يُوجَّه عندئذ توجيهاً صحيحاً من قبل مبدأ اللذة أو من قبل مبدأ الواقع الذي يكون قد أدخل عليه ما أدخله من تعديل. وعلى هذا قد لا يتبدى لنا أنه من الضروري أن نسلِّم بوجود قيد آخر يحدّ من فاعلية مبدأ اللذة أكثر من ذلك القيد؛ ومع ذلك، إن دراسة ردّ الفعل النفسي على الخطر الخارجي هي وحدها التي من شأنها أن تزوِّدنا بمادة جديدة وأن تحدِث تعديلاً في الكيفية التي نصوغ بها مشكلتنا.



ـ ٢ ـ

في أعقاب الصدمات الآلية العنيفة وكوارث السكك الحديدية وغيرها من الحوادث التي تعرِّض الحياة للخطر، غالباً ما تطرأ حالة أُطلق عليها منذ وقت بعيد اسم «العصاب الرضّي». ولقد أدّت الحرب المرعبة التي انتهت أخيراً[١] إلى وقوع عدد كبير من مثل ذلك النوع من الإصابات، أو هي وضعت على الأقل حداً لإغراء ردِّها إلى محض أذيَّة عضوية خطيرة يحدثها في الجهاز العصبي فعلٌ آلي عنيف[٢]. واللوحة السريرية للعصاب الرضّي تضارع اللوحة السريرية للهستيريا من حيث غناها بالأعراض الحركية المشابهة؛ ولكنها بوجه الإجمال تتجاوزها من حيث شدة العلامات الظاهرة للألم الذاتي، مما يجعلها قريبة الشبه بالهجاس المرَضي أو السويداء، ومن حيث ما يرافقها من علامات على إعياء أكبر أو خلل أعمّ في الوظائف النفسية. وإلى يومنا هذا لم يتوصل العلم إلى أن يفهم تمام الفهم الأعصبة الحربية أو الأعصبة الرضّية لزمن السلم. ومما يزيد الموقف تعقيداً في الأعصبة الحربية، سواء أرافقتها أم لم ترافقها صدمة آلية جليّة للعيان، طروء لوحة باتولوجية متماثلة واحدة. أما في العصاب الرضّي العادي فثمة سمتان بارزتان قمينتان بأن تقدِّما لنا منطلقاً لبحثنا: أولاهما أن العامل الأهم في أسباب نشوء هذا العصاب، فيما يبدو، هو عامل المفاجأة والذعر؛ وثانيتهما أنه إذا ما لحق بالفرد أذى أو جرح وقف ذلك بوجه عام عائقاً أمام تمخُّض العصاب. **الذعر والخوف والحصر**: تلك هي مفردات يساء استخدامها كمترادفات، وصلتها بالخطر هي التي تتيح لنا أن نميِّز فيما بينها تمييزاً دقيقاً

١ ـ يقصد الحرب العالمية الأولى. «م».

٢ ـ انظر كتاب: **عن التحليل النفسي للأعصبة الحربية** بأقلام فيرنزي وأبراهام وسيمل وجونز، منشورات المكتبة التحليلية النفسية الدولية، ١٩١٩.



واضحاً. فلفظ الحصر يطلق على حالة من توقع الخطر والتأهب له، حتى وإن يكن هذا الخطر مجهولاً. ولفظ الخوف يفترض وجود شيء محدد يخاف منه المرء المعني. أما لفظ الذعر فهو يطلق على الحالة التي تعرض للمرء عندما يجد نفسه في موقف خطِر لم يكن يتوقعه، وهو يؤكد على عامل المفأجاة. ولست أعتقد أن الحصر يمكن أن يولِّد عصاباً رضِّياً، إذ ثمة في الحصر شيء يقي من الذعر، وبالتالي من عصاب الذعر أيضاً. ولسوف تكون لنا عودة لاحقاً إلى هذا الموضوع.

وإن من شأن دراسة الحلم أن تشقّ لنا أوثق طريق إلى استكشاف طبيعة السيرورات النفسية العميقة. والحال أن الحياة الحلمية للمُعاني من العصاب الرضِّي تتميَّز بكونها تردّه على الدوام إلى الموقف الذي أصيب فيه بالصدمة، وهو موقف يعاود فيه استيقاظه وهو أسير الذعر مرة أخرى. وإن هذه لواقعة لا تقابل دوماً بما تستأهله من الدهشة. ذلك أن إصرار الحادثة الرضِّية على معاودة ظهورها حتى في أثناء نوم المريض لا يُفسَّر عادة إلا على أنه دليل على شدة الأثر الذي تركته في نفسه. فلكأن المريض قد تثبّت نفسياً، إن جاز القول، على الرضّة. ومثل هذا التثبيت على التجربة التي كانت هي السبب في المرض معروف لدينا منذ عهد بعيد في حالات الهستيريا. فلقد أفصح بروير وفرويد منذ عام ١٨٩٣ عن اعتقادهما بأن المهسترين يعانون، أشدّ ما يعانون، من رواسبهم الذاكرية[٣]. وفي مضمار الأعصبة الحربية أيضاً أمكن لمراقبين من أمثال فيرنزي»[٤]

٣ ـ يحيل فرويد هنا إلى مقاله المشترك مع جوزف بروير: **بعض تأملات برسم دراسة مقارنة عن الشلل الحركي العضوي والهستيري**، ١٨٩٣. «م».

٤ ـ ساندور فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣). كان يقيم في بودابست، وأسس فيها فرعاً لرابطة التحليل النفسي، وارتبط بصداقة حميمة مع فرويد. أسهم في تطوير التقنية التحليلية، وكان له تأثير واضح على المدرسة الإنكليزية، وبالأخص على إرنست جونز وميكائيل بالنت. صار صديقاً لفرويد بعد أن تولى هذا الأخير تحليله. وتولى بنفسه تحليل ميلاني كلاين وجيزا روهايم. ولكنه ابتداء من عام ١٩٢٠ أبدى شكوكاً بصدد الفعالية العلاجية للتحليل النفسي، وندد برياء معاصريه من المحللين النفسيين الذين كانوا يبررون فشلهم في معالجة مرضاهم بذريعة المقاومة والتحويل السلبي. من أشهر مؤلفاته: **الرضة، تأملات حول المازوخية، الأعصبة الحربية، طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية**، فضلاً عن مراسلات مع فرويد في ثلاثة أجزاء. «م».



وسيمّل[٥] أن يفسروا عدداً من الأعراض الحركية على أنها تثبيت على اللحظة التي وقعت لهم فيها الرضّة.

ومع ذلك، وعلى حدّ علمي، لا يولي المرضى الذين يعانون من العصاب الرضّي اهتماماً في أثناء صحوهم وقبل نومهم لذكرى الحادث الذي وقع لهم. بل لعلهم في الغالب يجاهدون كيلا يفكروا به. ومن يفترض أنه أمر بدهي أن يزجّ بهم الحلمُ من جديد في أثناء نومهم في الموقف الذي تسبَّب في مرضهم فإنما يدلّل على جهله بطبيعة الحلم. وإنما من الأصحّ بالنسبة إلى طبيعة الحلم هذه أن يقال إن الحلم يعرض للمريض صوراً تعود إلى الزمن الذي كان فيه سليماً معافى أو صوراً من الشفاء المأمول. وإذا كنا لا نريد لأحلام العصاب الناجم عن الحادث الرضّي أن تعكّر علينا صفو أطروحتنا عن كون الحلم هو بمثابة تحقيق لرغبة، فقد لا يبقى أمامنا من سبيل سوى أن نقول إن وظيفة الحلم في مثل هذه الإصابة الرضّية، كما في العديد من الحالات الأخرى، تكون قد طرأ عليها خلل وتمّ تحويلها عن أهدافها، هذا إذا لم نلتمس تفسيراً إلى ذلك بالإحالة إلى الميول المازوخية الملغزة التي تساور الأنا[٦].

بودّي الآن أن أدع موضوع العصاب الرضّي بكل ما يحيط به من غموض لأدرس نمط اشتغال الجهاز النفسي في واحد من أولى أنشطته العادية: لعب الأطفال.

لقد قام مؤخراً س. بفايفر باستعراض مختلف نظريات اللعب وتقييمها من وجهة نظر التحليل النفسي في مقال له في مجلة **إيماغو** (١٩١٩، المجلد ٥)[٧]،

٥ ـ إرنست سيمّل: طبيب أعصاب ومحلل نفسي ألماني من أصل يهودي (١٨٨٢ ـ ١٩٤٧). لفت نظر فرويد إليه من خلال معالجته، أثناء الحرب العالمية الأولى، للمرضى المصابين بالعصاب الرضّي بطرائق تحليلية نفسية. وقد شارك سيمل مع كارل أبراهام وماكس آيتنغون عام ١٩٢٠ في تأسيس **معهد برلين للتحليل النفسي** الذي كان بمثابة أول عيادة تحليلية نفسية في العالم. وقد ترأس **جمعية الأطباء الاشتراكيين** بين ١٩٢٤ و١٩٣٣، ومن بعدها **جمعية برلين للتحليل النفسي** بين ١٩٢٦ و١٩٣٠، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية هرباً من الاضطهاد النازي. من مؤلفاته: **حول التحليل النفسي للأعصبة الحربية، التحليل النفسي والجماهير، اللاسامية: مرض اجتماعي**. «م».

٦ ـ أضيف الشطر الأخير من هذه الجملة عام ١٩٢١. هامش الترجمة الفرنسية.

٧ ـ يحيل فرويد هنا إلى مقال سيغموند بفايفر المعنون: **تظاهرات الدوافع الغريزية الجنسية عند الطفل في اللعب**. هامش الترجمة الفرنسية.



وإليه أحيل قرائي. فهذه النظريات تسعى إلى استشفاف دوافع الأطفال إلى اللعب، ولكن من دون أن تسلّط الضوء في المقام الأول على الناحية الاقتصادية كما تتمثل بمكسب اللذة. وبدون أن يكون في نيَّتي أن أتناول جملة هذه الظاهرات، فقد انتهزت فرصة سنحت لي لأفسّر أول لعبة ابتكرها صبي صغير ليس له من العمر سوى عام ونصف عام. ولم تكن تلك ملاحظة عابرة، إذ كنت أمضيت عدة أسابيع تحت سقف واحد مع الطفل ووالديه، وقد تصرّم قدر غير قليل من الزمن قبل أن ينجلي لي معنى تلك الفعلة الملغزة التي كان لا يفتأ يكرّرها باستمرار.

لم يكن ذلك الطفل سابقاً لسنّه من حيث نموّه العقلي. وما كان له، وهو في الشهر الثامن عشر من العمر، أن يتلفظ بأكثر من بضعة ألفاظ مفهومة، إلى جانب عدة أصوات ذات دلالة بالنسبة إلى من يتولون أمره بالرعاية. وقد كانت علاقته على كل حال جيّدة بوالديه وبخادمتهما الوحيدة، وكان الجميع يشهدون له بـ«حسن» السلوك. فهو ما كان يزعج والديه ليلاً، وكان يتقيَّد بدقة بالأوامر التي تنهاه عن لمس بعض الأشياء أو عن الدلوف إلى بعض الغرف، ثم إنه، على الأخصّ، ما كان يبكي بتاتاً عندما كانت والدته تخرج تاركة إياه في البيت لمدة ساعات، وهذا رغم ما كان عليه من شديدِ تعلُّقٍ بتلك الأم التي ما كانت قد أرضعته من ثدييها فحسب، بل عُنيت أيضاً بتربيته ورعايته بدون معونة أي شخص آخر. ومع ذلك كان من عادة هذا الصبي الصغير الوديع ـ وهي عادة قد تكون مزعجة لغيره ـ أن يرمي بكل ما يمكن أن يقع تحت يده من أشياء صغيرة إلى ركن من أركان الغرفة، أو تحت السرير،إلخ، علماً بأنه لم يكن من السهل على الدوام العثور على ما تقذفه يداه وإعادة تجميعه. وكان يطيب له، وهو يقذف بتلك الأشياء، أن يطلق صيحة عالية وطويلة «أو أو أو» ما كانت، بحسب تقدير أمه وتقدير من يراقبه، صيحة تعجُّب، بل فقط: «رحْ»[8]. وقد لاحظت أخيراً أن هذه مجرد لعبة وأن الطفل لا يستخدم جميع لعبه إلا ليلعب معها لعبة «رح». وذات مرة تسنى لي أن ألاحظ شيئاً أكَّد ما ذهبت إليه من تفسير. فقد

٨ ـ بالألمانية: FORT. يقصد: اذهب بعيداً. «م».



كان لدى الطفل بكرة من الخشب التفّ حولها خيط، ولكن لم يخطر له قط في بال، مثلاً، أن يسحبها خلفه ليلعب لعبة العربة؛ لكنه بالمقابل كان يرمي الكرة بمهارة كبيرة ـ وهو ممسك بالخيط ـ فوق ستارة سريره الصغير فتغيب عن النظر، وهو يردِّد عبارته الغنية بالمعنى «أو أو أو». ثم لا يلبث أن يشدّ الخيط ليسحب البكرة خارج السرير وليحيِّي ارتدادها إليه بصيحة فرح: «ها»[٩]. تلك كانت إذاً لعبته بتمامها: غياب ورجوع. ولكن لم يكن بادياً للنظر منها بصفة عامة لمن يشهدها سوى الفعل الأول الذي كان الطفل يكرره بلا كلل لحسابه الخاص كلعبة، بالرغم من أن متعته الكبيرة كانت ترتبط بلا أدنى شك بالفعل الثاني[١٠].

على هذا النحو لا يعود تفسير اللعبة صعباً. فقد كانت ذات صلة بما توصَّل إليه الطفل من نتائج مهمة على صعيد التكيُّف التربوي، بما أنجزه من عزوف عن مطلب غريزي أتاح له أن يقبل بغياب أمه عن البيت بدون أن يبدي اعتراضاً. وقد عوَّض عن خسارته ـ إن صحّ هذا التعبير ـ بإخراجه المسرحي لمشهد الغياب والعودة بواسطة ما هو في متناول يده من الأشياء. ومن المؤكد أنه يستوي هنا، إذا كنا نريد أن نحكم على القيمة الفعلية لتلك اللعبة، أن يكون الطفل هو نفسه من اخترعها أو أن يكون قد استوحاها من شيء ما أو شخص ما. والحق أن مدار اهتمامنا هو على نقطة أخرى، إذ من المؤكد أن غياب الأم ما كان له أن يكون موضع ترحاب لدى الطفل ولا أن يكون مما لا يأبه له. فكيف السبيل، والحال هذه، إلى التوفيق بين مبدأ اللذة كما نقول به وبين تكرار الطفل لتلك الخبرة المؤلمة في شكل لعبة؟ قد يطيب لنا هنا أن نجيب عن هذا السؤال بتوكيدنا أن غياب الأم كان لا بدّ من تمثيله في اللعبة كشرط مسبق للغبطة بعودتها، وأن الهدف

٩ ـ بالألمانية: DA. ويقصد: ها قد رجع. «م».

١٠ ـ أكدت هذا التفسير ملاحظة لاحقة. فقد اتفق ذات يوم أن بقيت الأم غائبة عن البيت عدة ساعات، فلما عادت حيّاها الولد بهتاف: «بيبي، أو، أو، أو». وما بدا هذا التعبير في أول الأمر مفهوماً. لكن ما لبث مدلوله أن اتضح، إذ إن الطفل كان اهتدى أثناء انفراده الطويل بنفسه إلى وسيلة للاختفاء هو نفسه: فقد كان رأى صورته منعكسة في مرآة مرتفعة قليلاً عن أرض الغرفة، فما كان منه إلا أن قرفص فإذا صورته في المرآة قد «راحت».



الحقيقي للعبة يكمن في هذه الغبطة بالعودة حصراً. بيد أن الملاحظة العيانية تتنافى وهذا التفسير: فالفعل الأول، أي غياب الأم، كان هو وحده الذي يُخرَج مسرحياً، وبتواتر أكبر بكثير من المشهد بجملته بما فيه خاتمته وما يتولد عنها من لذة.

وبديهي أن تحليل مثال واحد من هذا النوع لا يبيح لنا أن نجزم ونخلص إلى نتيجة حاسمة ونهائية. فلو نظرنا إلى الأمر دونما تحيُّز مسبق لخامرنا بكل تأكيد شعور بأن الطفل قد حوَّل تجربته إلى لعبة بدافع من سبب آخر. فقد كان في أول الأمر في وضعية سالبة وأسيراً للحدث بما هو كذلك، ولكنه ما عتم، عندما كرّره كلعبة على ما فيها من تنغيص له، أن اضطلع بدور إيجابي. وحالة كمثل هذه الحالة يمكن أن تعزى إلى دافع غريزي إلى السيطرة له استقلاليته عما تتصف به الذكرى من طابع لاذّ أو مكدِّر. لكن في وسعنا أيضاً أن نقترح تعليلاً آخر للأمر. فلعلّ الطفل، بقذفه بالشيء حتى يذهب بعيداً، يشبع حفزة، اعتاد على قمعها في حياته اليومية، إلى الانتقام من أمه لابتعادها عنه. وفي مثل هذه الحال تكتسب فعلته دلالة تحدٍّ، وكأنما لسان حاله يقول: «طيب! طيبٌ! اذهبي، فأنا لست بحاجة إليك، بل أنا نفسي من يودّ أن تبتعدي عني!». وهذا الطفل الذي كنت شهدت لعبته الأولى يوم لم يكن له من العمر سوى عام ونصف عام هو عينه الذي بات من عادته، بعد عام واحد لا أكثر، أن يرمي أرضاً دمية وهو يخاطبها بالقول غاضباً: «هيا إلى الجبهة!». وبالفعل، كان ذووه قد رووا له يومئذ أن والده غائب في الجبهة، وقد طاب له من ثم، ومن دون أن يبدي أي تأسف على غياب أبيه، أن يظهر كامل ارتياحه إلى انفراده بالاستحواذ على أمه[١١]. وفي حوزتنا أمثلة أخرى على أطفال يعبّرون عن خلجات داخلية عدائية مماثلة بقذفهم بعيداً عنهم بالأشياء بدل الأشخاص[١٢]. وهذا ما حدا بنا إلى أن نتساءل عما إذا لم

---

١١ ـ يوم بلغ هذا الطفل الخامسة والتسعة أشهر من العمر توفيت والدته. ولكن بما أنها هذه المرة قد «راحت» فعلاً (أو، أو، أو)، فإن الصغير لم يبدِ أي حزن عليها. وربما كان السبب في هذا أنها كانت أنجبت أثناء ذلك طفلاً ثانياً، مما أيقظ فيه غيرة شديدة.

١٢ ـ انظر: **ذكرى من الطفولة وردت في «الشعر والحقيقة»**(*)، في مجلة **إيماغو**، المجلد الخامس، ١٩١٧.

(*) **الشعر والحقيقة**: هو عنوان السيرة الذاتية التي كتبها غوته بين ١٨٠٨ و١٨٣١. «م».



يكن نزوع الفرد إلى أن يعيد نفسياً إحياء تجربة مؤثرة توكيداً لسيطرته التامة عليها قابلاً لأن يتظاهر تلقائياً وباستقلال عن مبدأ اللذة. بيد أن الطفل، في المثال الذي نحن بصدده، قد لا يكون كرّر في لعبته خبرة مؤلمة بعينها إلا طلباً لمكسب من اللذة من نوع آخر، ولكن مباشر، وذي صلة بذلك التكرار.

ومهما تعمقّنا في دراسة لعب الأطفال، فلن يكون في وسعنا أن نتوصل إلى رأي حاسم من شأنه أن يضع حداً لترددنا بين ذينك التصورين. فنحن نشاهد بالفعل الأطفال يكررون في لعبهم كل ما خلّف لديهم في الحياة وقعاً وأثراً كبيراً، وهم يخفّفون بذلك من قوة ذلك الانطباع ويسيطرون بالتالي على الموقف. لكن من الواضح تمام الوضوح بالمقابل أن كل نشاطهم اللعبي واقع تحت تأثير الرغبة التي تهيمن في العادة على تلك الحقبة من العمر: أن يكونوا كباراً وأن يكون في مقدورهم أن يفعلوا ما يفعله الكبار. ومن المُشاهَد أيضاً أن الطابع الكدري للتجربة المعاشة لا يحول على الدوام دون معاودة استخدامها في اللعب. ولو أن طبيباً فحص حنجرة طفل أو أجرى له عملية جراحية بسيطة، فلنا أن نكون على ثقة أن هذه التجربة المؤلمة ستكون هي مضمون اللعبة التالية. ولكن ليس يحقّ لنا من جانب آخر أن نغفل عن وجود مكسب من اللذة متأتٍ من مصدر آخر. فالطفل إذ ينتقل من سلبية التجربة إلى إيجابية اللعبة، يبادر إلى أن يُنزل برفيق له في اللعب ما عاناه هو نفسه من مرارة، ويثأر على هذا النحو لنفسه من خلال هذا الشخص البديل مما نزل به من ألم.

وأياً ما يكن من أمر فإن ما يمكن استخلاصه من النقاش الذي تقدم هو أن فرضية وجود دافع غريزي قائم في ذاته إلى التقليد والمحاكاة من شأنها أن تفسّر الحافز إلى اللعب هي فرضية فائضة عن الحاجة. ويتعيَّن علينا أيضاً وأخيراً أن نعيد إلى الأذهان أن اللعب والمحاكاة الفنية اللذين يتوجهان، خلافاً لما يحدث لدى الطفل، إلى شخص المشاهد لا يعفيان هذا الأخير، كما في المأساة مثلاً، من أشدّ المشاعر إيلاماً، ولكن مع القدرة على إيصاله في الوقت نفسه إلى درجة عالية من المتعة. وهذا لنا بمثابة الدليل على أنه ثمة وجود، حتى في ظل هيمنة مبدأ اللذة، لأكثر من طريق وأكثر من وسيلة لكي يصير ما هو مكدِّر وباعث على الأسى



بحدّ ذاته موضوعاً للتذكر وللاستيعاب النفسي. والحق أن هذه الحالات وهذه المواقف التي يمكن أن يكون مآلها النهائي إلى كسب مقدار من اللذة قابلة لأن تكون موضوعاً لعلم جمال ذي منزع اقتصادي. ولكن ليس من شأنها أن تقدِّم لنا ـ نحن ـ شيئاً لأنها تفترض مسبقاً وجود مبدأ اللذة وهيمنته، ولا يسعها أن تقيم البرهان على وجود ميول فاعلة فيما وراء مبدأ اللذة، أي ميول أعرق منه زمناً ومستقلة عنه.



ـ ٣ ـ

لقد كانت نتيجة خمس وعشرين سنة من العمل الدائب أن الأهداف المباشرة التي تنزع إليها التقنية التحليلية النفسية قد غدت اليوم مغايرة تماماً لما كانت عليه في بداية الأمر. فالطبيب المحلِّل ما كان له في البدء أن يهدف إلى أكثر من التكهُّن بطبيعة اللاشعور الكامن لدى المريض من غير معرفة له به، ثم أن يكاشفه به في الوقت المناسب بعد أن يكون قد جمَّع شتى عناصره. فالتحليل النفسي كان يومئذ محض فن للتأويل. ولكن بما أنه ما كان من الممكن على هذا النحو الإيفاء بالمهمة العلاجية، فقد خطونا خطوة إضافية بأن جعلنا مهمتنا سَوْق المريض إلى توكيد صحة ما توصل المحلِّل إلى بنائه بالإحالة إلى ذكرياته الشخصية. ومسعانا هذا هو ما جعلنا نولي اهتمامنا الأول لمقاومات المريض؛ وعلى هذا النحو باتت مهمة الفن التحليلي اكتشاف تلك المقاومات في أبكر وقت ممكن، ومكاشفة المريض بها، وحضّه على التخلي عنها، متوسلين إلى ذلك بالتأثير الذي يمكن لإنسان أن يمارسه على إنسان آخر (وهنا يتدخل عنصر الإيحاء الذي يفعل فعله عن طريق «التحويل»[1].

لكن كلما تقدمنا في هذا السبيل غدا يتضح لنا أكثر فأكثر أن الهدف الذي حدّدناه لأنفسنا يتعذر الوصول إليه عن هذا الطريق. فالمريض ما كان يتأتى له أن يتذكر كل ما هو مكبوت لديه، ولا سيما الجانب الأساسي منه؛ وعلى هذا النحو ما كان يتولد لديه ثابت الاقتناع بصحة ما نزوّده به من معلومات. والحق أنه كان يجد نفسه ملزماً بالأحرى بأن يكرر ما هو مكبوت كتجربة معاشة في الحاضر بدلاً من أن **يستحضره إلى ذاكرته** كشذرة من الماضي، على نحو ما كان يتمناه

١ ـ التحويل: هو، في التحليل النفسي، إسقاط الشخص قيد التحليل لمشاعره الحبّية أو العدائية، كما كانت تراوده في طفولته، على شخص الطبيب الذي يحلله. «م».



الطبيب[٢]. وهذا الاستنساخ، الذي كان يطرأ بأمانة ما كنا لنتمناها، لا يكون له من مضمون على الدوام سوى شذرة من الحياة الجنسية الطفلية، أي من عقدة أوديب وتشعباتها. وقد كان هذا كله يدور في مدار التحويل، أي من خلال العلاقة مع الطبيب. وقد كان يسعنا أن نقول، عندما يصل العلاج إلى هذه النقطة، إن العصاب السابق قد أخلى مكانه لعصاب جديد، هو العصاب التحويلي. وهنا يبذل الطبيب قصاراه للتضييق بقدر الإمكان من نطاق هذا العصاب التحويلي، وللدفع بأكبر قدر ممكن من المضمون إلى مجال التذكر وبأقل قدر ممكن إلى مجال التكرار. والعلاقة التي تنعقد على هذا النحو بين التذكر والاستنساخ تختلف بين حالة وأخرى. وبصفة عامة، لا يستطيع الطبيب أن يجنِّب المريض المحلَّل هذا الطور من العلاج؛ بل يجد نفسه مرغماً على تركه يعيش من جديد جانباً من حياته المنسية، وإن يكن ملزماً بالحرص على احتفاظ المريض بقدر معيَّن من الطاقة على التنائي عن الوضع الذي هو مستغرق فيه بحيث يتاح له أن يعي أن ما يتبدى له وكأنه هو الواقع الفعلي لا يعدو أن يكون انعكاساً متجدداً لماضٍ منسي. ومتى ما توصلنا إلى ذلك فزنا باقتناع المريض وبلغنا إلى النتيجة العلاجية التي ترتهن بهذا الاقتناع.

وحتى نتوصل إلى حسن فهم هذا «المنزع القهري إلى التكرار» كما يتجلى في المعالجة التحليلية النفسية للعصابيين، يتوجب علينا في المقام الأول أن ننعتق من تلك الفكرة المغلوطة التي قد تجعلنا نتوهم أن ما يواجهنا، ونحن نتصدى للمقاومات ونكافحها، هو مقاومة من جانب «اللاشعور». فاللاشعور، أي «المكبوت»، لا يبدي أي ضرب من المقاومة تجاه الجهود العلاجية؛ بل إنه، والحق

٢ ـ انظر بحثنا: **الاستذكار والتكرار والمداءبة**(*)، ١٩١٤.

(*) المداءبة: بالألمانية DURCHARBEITUNG ، مصطلح تحليلي نفسي ليس له ما يقابله بحرفه في اللغات الأخرى، فضلاً عن أنه متعدد الدلالات وغير محدَّد المدلول بدقة حتى عندما يداوره فرويد نفسه. وقد نحت المترجم الفرنسي كمرادف له مصطلح: PERLABORATION، والمترجم الإنكليزي مصطلح: WORKING - THROUGH. والمقصود بالمداءبة المجهود المضاعف والمعاد تكراره الذي يتوجب على المحلِّل أن يبذله كيما يتغلَّب على معاندة المحلَّل في التشبُّث بأعراضه وفي الصدود عن التأويل الذي يكاشفه به. «م».



يقال، لا يرمي إلا إلى التغلّب على الضغط الذي يرزح تحته كيما يتمكن من أن يشقّ لنفسه طريقاً إلى الشعور أو إلى تفريغ ما يرزح تحت وطأته عن طريق عمل فعلي. والواقع أن المقاومة التي نجابه بها أثناء العلاج تصدر عن نفس تلك الشرائح والنُظم العليا للحياة النفسية التي كانت اضطلعت في حينه بعملية الكبت. ولكن بما أن التجربة علَّمتنا أن الدوافع إلى المقاومات، بل المقاومات عينها، تكون في بادئ الأمر لاشعورية في أثناء العلاج، فإننا نرانا مدعوين إلى إدخال تصحيح على مفرداتنا. فمما هو قمين بأن يجنِّبنا الغموض أن نقيم المعارضة لا بين الشعوري واللاشعوري، بل بين **الأنا**، بما هو عليه من تلاحم، وبين **المكبوت**. ومن المحقق أن شطراً كبيراً من الأنا يكون هو نفسه لاشعورياً، ويتمثَّل تحديداً بما يمكن أن نسمِّيه نواة الأنا؛ أما مصطلح **ما قبل الشعور** فلا يغطي سوى نزر يسير من الأنا. وبعد أن نكون قد استبدلنا على هذا النحو معجمنا الوصفي المحض بمعجم منهجي أو ديناميكي، يسعنا أن نقول إن مقاومة المريض المحلَّل تصدر عن أناه، وهذا ما يتيح لنا أن نفهم للحال أن الدافع القهري إلى التكرار ينبغي أن يعزى إلى المكبوت اللاشعوري. ومن المرجح في هذه الحال أنه لا يتأتى له أن يتظاهر قبل أن يكون المجهود العلاجي قد أفلح في التواصل معه من خلال تخفيف قبضة الكبت[٢].

وليس ثمة من شكّ في أن مقاومة الأنا الشعوري وما قبل الشعوري تعمل في خدمة مبدأ اللذة؛ فمقصودها الأول الحؤول دون الكدر الذي قد يتسبَّب فيه تحرر المكبوت، بينما تنزع جهودنا إلى التوصل إلى إفساح المجال لتقبُّل هذا الكدر باللجوء إلى مبدأ الواقع. ولكن ماذا تكون في هذه الحال علاقة الدافع القهري إلى التكرار، الذي هو بمثابة تظاهر لقوة المكبوت، بمبدأ اللذة؟ من الواضح أن الشطر الأكبر من التجارب، التي يعيد إحياءَها الدافعُ القهري إلى التكرار، لا يمكن أن يتأتى عنها بالنسبة إلى الأنا سوى كدر نظراً إلى أن هذا الدافع القهري

٣ ـ حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣: لقد أوضحت في مكان آخر(*) أن ما يعضد هنا الدافع القهري إلى التكرار هو «المفعول الإيحائي» للعلاج التحليلي، أي خضوع المحلَّل للطبيب، وهو الخضوع الذي يضرب جذوره عميقاً في العقدة الأبوية اللاشعورية.

(*) يشير فرويد هنا إلى مقاله: **ملاحظات حول نظرية تأويل الحلم نظريةً وممارسةً**، ١٩٢٣. «م».



يتيح للحاثات الغريزية المكبوتة أن تتظاهر وتنشط؛ بيد أن كدراً كهذا ليس من شأنه، كما تقدَّم بنا البيان، أن يناقض مبدأ اللذة لأنه لا يمثِّل كدراً إلا بالنسبة إلى أحد النسقين بينما هو مصدر إشباع ومتعة للنسق الآخر. على أن الواقعة الجديدة الجديرة باسترعاء انتباهنا تتمثل بما يلي: إن الدافع القهري إلى التكرار يسترجع أيضاً خبرات من الماضي لا تنطوي على أية إمكانية للذة، وما كان لها أن تتأدى إلى أي ضرب من الإشباع حتى للحاثات الغريزية التي سبق كبتها.

إن التفتح المبكر للحياة الجنسية الطفلية مقيَّض له الأفول لأن الرغبات الصادرة عنها ليست بقابلة للتوافق مع الواقع ولأن الطفل لا يكون قد بلغ قدراً كافياً من النمو. ويكون مآل ذلك التفتح إلى الانطفاء في ظروف شاقة للغاية وفي سياق مشاعر وأحاسيس بالغة الإيلام. ففقدان الحب والفشل في الحصول عليه ينزلان بالشعور بقيمة الذات ضُرّاً دائماً يبقى فاعلاً كندب نرجسي؛ وذلك هو ما يسهم أكبر الإسهام، طبقاً لخبرتي ولوجهة نظر ماركينوفسكي[٤]، في «الشعور بالدونية» الشائع كثيراً لدى العصابيين. ذلك أن التقصي الجنسي، الذي يكون نمو الطفل البدني قد رسم له حدوداً، لا يتأدى إلى أي نتيجة تبعث على الرضى؛ ومن هنا يفصح العصابي في زمن لاحق عن الشكوى التالية: «إنني عاجز عن النجاح في أي أمر، ولست أصلح لشيء». وفضلاً عن ذلك، إن وثاق المحبة الذي كان يربط الطفل بوالده، الذي من الجنس المقابل بوجه خاص، يعتريه الوهن، وقد ينقطع، بفعل الخيبة وعدم الإشباع، فضلاً عن الغيرة التي يبتعثها لديه مولد طفل جديد يرى فيه دليلاً لا لبس فيه على خيانة الأب المحبوب أو الأم المحبوبة. وإن حاول هو، وبمنتهى الجدّ، أن ينجب طفلاً، أخفق إخفاقاً ذريعاً ومذلاً. وهذا بالإضافة إلى أن تضاؤل مقدار ما كان يحظى به من محبة، وتزايد مقتضيات التربية وما قد يستتبع ذلك من التأنيب وقوارص الكلام، بله من القصاص أحياناً، من شأنه

٤ ـ يوهان ياروسلاف ماركينوفسكي: طبيب ومحلل نفسي ألماني من أصل تشيكوسلوفاكي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٥). عمل كطبيب أعصاب في عدة مراكز طبية قبل أن ينشئ عيادة لحسابه الخاص. وقد أشاد به فرويد في كتابه **حياتي والتحليل النفسي** لأنه فتح بابها أمام التحليل النفسي في مبادرة منه غير مسبوقة. وفي عام ١٩١٩ انتمى إلى **الجمعية الفيناوية للتحليل النفسي**، وألقى عدة محاضرات عن التحليل النفسي. من مؤلفاته: **الإنسان العصبي**. «م».



أن يُظهر له مدى ما آل إليه نصيبه من الازدراء. وتلك هي جملة من الأحوال المألوفة التي تشهد نهاية عهد المحبة الذي يكون قد عرفه الطفل في تلك الحقبة من العمر.

والآن، هانحنذا نجد المعصوبين يكررون في أثناء التحليل ويعيدون إلى الحياة بمهارة فائقة جميع تلك الظروف المستكرهة، وجميع تلك المواقف الانفعالية المؤلمة. ونراهم يتطلعون إلى وضع حدّ للعلاج مع أنه لم يكتمل بعد، وهم يعرفون كيف يتدبرون لنفسهم الشعور من جديد بأنهم موضع زراية واحتقار، وكيف يرغمون الطبيب على توجيه قارص الكلام إليهم وعلى معاملتهم ببرودة، وكيف يوجدون لغيرتهم ما هو قمين من الأشياء بإثارتها، ويستعيضون عن الطفل الذي طالما تحرقوا إلى إنجابه بمشروع أو بوعد بهدية ثمينة، غالباً ما تكون بعيدة عن الواقع بُعْدَ ذلك الطفل المشتهى إنجابه. وليس في هذا كله ما يمكن أن يكون قد تمخَّض في الماضي عن لذة. بل قد يسعنا أن نفترض أن مثل هذه الأمور قد لا تتمخض اليوم إلا عن قدر أقلّ من الكدر فيما لو انبجست كذكرى في الذاكرة أو كحلم في المنام بدلاً من أن تتجسد في تجربة معاشة جديدة. والمفروض بطبيعة الحال أن يكون مدار الأمر كله هنا على فاعلية الدوافع الغريزية التي من شأنها في حالة السواء أن تتأدى إلى الإشباع والرضا؛ ولكن واقع الحال أن مريضنا لم يستخلص أي درس من كونها لم تتمخض حتى في الماضي إلا عن كدر بدلاً من الإشباع المتوقع(٥). ورغم ذلك كله فإن تلك الدوافع الغريزية يعاد تفعيلها تحت ضغط الدافع القهري إلى التكرار.

إن ما يكشف عنه التحليل النفسي في الظاهرات التحويلية لدى المعصوبين يمكن له أن يكتشفه أيضاً لدى بعض الأشخاص من غير المعصوبين. فهؤلاء يوحون إلينا وكأن ثمة قدَراً مقدَّراً يلاحقهم، أو كأن خطة شيطانية تتحكم بوجودهم، ولكن التحليل النفسي لم يتأخر ليدرك أن مثل ذلك القدَر إنما رسمه، في الجانب الأكبر منه، المريض نفسه، وفرضته مؤثرات الطفولة الأولى. والمنزع

٥ ـ جملة أضيفت سنة ١٩٢١.



القهري الذي يتظاهر في مثل هذه الحال لا يختلف عن الدافع القهري إلى التكرار لدى العصابيين حتى وإن يكن الأشخاص المعنيون هنا ما أظهروا قط علامات على كونهم يعانون من صراع عصابي قمين بأن تتمخض عنه أعراض. وعلى هذا النحو تسنى لنا أن نتعرف إلى أفراد كان متماثلاً لديهم المآل الذي آلت إليه علاقاتهم الإنسانية كافة. فمنهم ذلك المحسن الكريم الذي يجحد من أحسن إليهم إحسانه في أجل قصير وبقلب مليء بالحقد، وكأنما كتب عليه أن يتجرع كأس نكران الجميل حتى الثمالة؛ ومنهم ذلك الرجل الذي تؤول جميع صداقاته إلى الخيانة من جانب الصديق؛ ومنهم ذلك المرء الذي لا يتوانى، المرة تلو الأخرى في حياته، عن أن يرفع فلاناً أو علاناً إلى أعلى مركز، سواء أفي حياته الخاصة أم في علاقته مع الناس، فلا يلبث هذا الأخير أن يطيح هو نفسه بتلك المكانة ليستبدلها بأخرى؛ ومنهم أيضاً ذلك العاشق الذي تمرّ كل علاقة غرامية له بالنساء بالمجرى نفسه لتنتهي به كل مرة إلى النهاية عينها، إلخ. وليس لمثل هذه «العودة الدائمة إلى الحالة ذاتها» أن تثير دهشتنا فيما لو كان مردّها إلى مسلك إيجابي من جانب الشخص المعني، وفيما لو تأتّى لنا أن نكتشف في شخصيته سمة طبعية ثابتة مكرهة على أن تتظاهر كلما تكررت الخبرات والتجارب عينها. غير أن أكثر ما يثير فينا العجب الحالات التي يبدو فيها الشخص المعني وكأنه يعيش سلبياً خبرة ليس له فيها من حيلة، ومع ذلك نراه لا يفعل من شيء آخر غير أن يعيش مكرراً الحالة نفسها. فليذهب بنا الفكر مثلاً إلى قصة تلك المرأة التي سقط أزواجها الثلاثة المتعاقبون ضحية المرض بعيد زواجها منهم فاضطرت إلى معالجتهم إلى يوم وفاتهم(٦). ولعل تاسو(٧) هو من قدَّم لنا في ملحمته الرومانسية **القدس محررةً** وصفاً شاعرياً وأخاذاً إلى أقصى حدّ لمثل هذا القدر الغريب. فالبطل تانكريد يقتل حبيبته كلورندا بدون أن يدري بحقيقة

---

٦ ـ انظر في هذا الخصوص الملاحظات السديدة التي أبداها ك. غ يونغ في مقالته: **«أهمية الأب في أقدار الابن»**، المنشورة في **حولية التحليل النفسي**، المجلد ١، ١٩٠٩.

٧ ـ توركاتو تاسو: شاعر إيطالي (١٥٤٤ ـ ١٥٩٥). اشتهر بملحمته **القدس محررةً**، ومدارها على المعارك التي دارت بين الصليبيين والمسلمين في الحملة الصليبية الأولى. أصيب وهو في الثلاثين من العمر بمرض عقلي وقضى نحبه فيما كان البابا يتهيأ لتعميده «ملك الشعراء». «م».



شخصها في مبارزة ارتدتْ فيها درع فارس من فرسان العدو. فبعد جنازتها يدلف إلى الغابة المسحورة التي كانت تبثّ الذعر في صفوف جيش الصليبيين، وهناك يشقّ بسيفه جذع شجرة كبيرة، فإذا ما يتدفق من جرح الشجرة هو دم كلورندا التي كانت روحها قد لاذت بحمى تلك الشجرة، وإذا صوتها يعلو شاكياً من أنه طعن مرة ثانية حبيبة قلبه.

إن مشاهدات كهذه، مستخلصة من مسلك المحلَّلين أثناء التحويل ومن مقادير بني الإنسان، تشجِّعنا على التسليم بوجود فعلي في حياتهم النفسية لدافع قهري إلى التكرار يعلو شأناً فوق مبدأ اللذة. وهنا نجدنا ميالين إلى أن نردّ إلى هذا الدافع القهري أصل الأحلام في حالة العصاب الناجم عن صدمة ما، وكذلك شهوة اللعب لدى الطفل. بيد أنه يتوجّب علينا أن نقول إننا لا نتوصَّل إلا فيما ندر إلى معاينة مفاعيل الدافع القهري إلى التكرار في شكل نقيّ خالص بدون معاونة دوافع أخرى. وقد سبق لنا، فيما يتصل باللعب عند الأطفال، أن ألمعنا إلى تأويل أخرى ممكنة لتظاهر الدافع القهري إلى التكرار. فهذا الدافع والإشباع الغريزي الذي يتأدى مباشرة إلى اللذة يبدوان هنا وكأنهما قد عقدا حلفاً وثيقاً. وظاهر أيضاً للعيان أن تظاهرات التحويل تعمل هنا في خدمة مقاومة الأنا الذي يحرص كل الحرص على إبقاء حالة الكبت قائمة. وعلى هذا النحو قد يجوز لنا القول إن الدافع القهري إلى التكرار، الذي يسعى العلاج إلى توظيفه في خدمته، قد وقع تحت سيطرة الأنا المتشبث بقوة بمبدأ اللذة. أما ما قد يكون مباحاً لنا أن نطلق عليه اسم التكرار القهري للأقدار المقدَّرة فإن جانباً كبيراً منه يتبدى لنا قابلاً للفهم عقلانياً بدون أن تساورنا حاجة إلى الاستعانة بدافع قهري جديد من طبيعة غامضة. أما الحالة الأقل إثارة للشك فقد تكون هي حالة الحلم بوقوع حادث اصطدام، ولكن عندما نمعن في التفكير عن كثب في غير ذلك من الأمثلة نجدنا مضطرين إلى التسليم بأن مفعول الدوافع المعروفة لنا من قبل ليس من شأنه أن يقدِّم لنا تفسيراً مطابقاً للوقائع. إذ تبقى ثمة رسابة كافية لتبرر فرضيتنا عن الدافع القهري إلى التكرار الذي يتبدى لنا أكثر بدائية وأعرق فطرة من مبدأ اللذة الذي لا يعتم أن ينحّيه جانباً. ولكن إذا كان ثمة وجود بالفعل في النفسية البشرية لمثل



ذلك الدافع القهري إلى التكرار فلسنا نخفي رغبتنا في أن نعرف شيئاً ما عنه: إذ ما الوظيفة التي يضطلع بها، وما الشروط التي يتاح له فيها أن يعلن عن نفسه، وما علاقته بمبدأ اللذة ـ وهو المبدأ الذي كنا نسلّم حتى الآن بهيمنته على مجرى سيرورات الإثارة في الحياة النفسية؟



ـ ٤ ـ

إن ما يلي لا يعدو أن يكون فرَضاً نظرياً، فرضاً قد يغلو بعيداً أحياناً، ولكل قارئ أن يأخذه أو ألا يأخذه بعين الاعتبار تبعاً لمنزعه الشخصي. كما أنه بمثابة محاولة لاستغلال فكرة بعينها والمضّي بها بكيفية منطقية، وذلك من قبيل الفضول إلى معرفة ما يمكن أن يتمخَّض عنها.

إن نقطة الانطلاق للاستدلال التحليلي النفسي هي ما يستخلصه من التنقيب في السيرورات اللاشعورية: والحال أن الشعور ليس هو الصفة الأعمّ للسيرورات النفسية، وإنما هو وظيفة خاصة من وظائفها. ولنا أن نقول، إذا اعتمدنا مصطلحات ميتاسيكولوجية، إن الشعور هو وظيفة نسق خاص نطلق عليه اختصاراً اسم **شع**[1]. وما يزوِّدنا به الشعور يتمثل في المقام الأول بإدراكات للإثارات المتأتية من العالم الخارجي وبأحاسيس اللذة والكدر التي لا يمكن أن تتأتى إلا من داخل الجهاز النفسي. وبناء على ذلك يكون في وسعنا أن نعزو إلى النسق **قشع ـ لشع** تموضعاً في المكان. فهذا النسق لا بدّ أن يتواجد عند الحدّ الفاصل بين الخارج والداخل، وأن تكون وجهته هي العالم الخارجي، وأن ينطوي في ذاته على سائر الأنساق النفسية. ولنلاحظ هنا أننا إذ نصوغ هذه الفرضيات لا نبتكر جديداً، وإنما نردد ما تقوله النظرية التشريحية عن التموضعات المخِّية بتحديدها «مركز» الشعور في لحاء المخ، أي القشرة الخارجية التي تغلِّف العضو المركزي. والحال أن التشريح المخي ليس ملزماً بأن يتساءل لماذا يتموضع الشعور في سطح المخ تحديداً بدلاً من أن يتخذ مقراً له في موضع أمين ومحميّ في أعمق طبقاته. أما فيما يتعلق بنا نحن فقد يكون في مقدورنا

١ ـ يطلق فرويد على الشعور وما قبل الشعور واللاشعور تسميات مختصرة: **شع**، **قشع**، **لشع**. «م».



أن نمضي إلى أبعد من ذلك في مسعانا إلى تحديد الموقع المفترض للنسق **قشع ـ لشع**.

إن الشعور ليس هو الخاصية الوحيدة التي نعزوها إلى سيرورات هذا النسق. فبالاستناد إلى ما نستخلصه من انطباعات من تجربتنا التحليلية النفسية نرانا نسلّم بأن جميع سيرورات الإثارة التي تحدث في الأنساق الأخرى تتخلف عنها آثار دائمة تقدِّم للذاكرة الأساس الذي تقوم عليه. وليس لمثل هذه البقايا الذاكرية أي صلة بالصيرورة الشعورية. وكثيراً ما تكون قوتها وديمومتها أكبر إذا لم تكن السيرورة التي تخلفت عنها هذه البقايا قد اجتازت قط عتبة الشعور. ولكن من العسير علينا مع ذلك أن نفترض أن مثل هذه الآثار الدائمة للإثارة تتظاهر أيضاً في النسق **قشع ـ لشع**. إذ لو بقيت شعورية بصفة دائمة لحدَّت بسرعة قصوى من قدرة هذا النسق على استقبال إثارات جديدة[٢]. أما لو غدت على العكس لاشعورية، لأرغمتنا على تفسير وجود سيرورات لاشعورية في نسق يترافق نظام اشتغاله من جهة مقابلة بظاهرة الشعور. وعلى هذا النحو لا نكون، إن صحّ القول، قد غيَّرنا شيئاً أو كسبنا شيئاً عندما صغنا فرضيتنا التي تموضِع الصيرورة الشعورية في نسق خاص قائم بذاته. ولكن حتى ولو لم تكن افتراضاتنا هذه حاسمة وقاطعة البتة، فإن من شأنها مع ذلك أن تحدو بنا إلى افتراض وجود تنافٍ داخل النسق الواحد بين واقعة الصيرورة الشعورية وواقعة ما يتخلف عنها من أثر ذاكري. وعلى هذا النحو قد يكون في مستطاعنا القول إن سيرورة الإثارة في النسق **شع** تغدو شعورية، ولكنها لا تخلِّف وراءها أي أثر دائم. ذلك أن جميع آثار هذه السيرورة، التي على أساسها تقوم الذاكرة، لا تعتم أن تستقرّ في الأنساق الداخلية المجاورة متى ما امتدت إليها الإثارة. والمخطط الذي رسمته في القسم النظري من كتابي **تأويل الحلم** (١٩٠٠) ينحو

٢ ـ إن ما أعرضه هنا يستعيد ما كان بروير أبانه في القسم النظري من **الدراسات حول الهستيريا**(*).

(*) هو الكتاب الذي وضعه كل من بروير وفرويد بالتشارك عام ١٨٩٥. وقد كان فرويد ارتبط بجوزف بروير (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥)، الذي اشتهر في تاريخ التحليل النفسي بتحليله للمريضة الهستيرية آنا أو (واسمها الحقيقي برتا بابنهايم)، برابطة صداقة منذ عام ١٨٧٨، ولكن طريقهما ما لبث أن افترق بعد ما أصابه التحليل النفسي على يد فرويد من تطور نظريةً وممارسةً. «م».



هذا المنحى عينه. وإذا أخذنا بعين الاعتبار قلة ما تمدّنا به المصادر الأخرى من معلومات عن تظاهر الشعور، فلن يكون في وسع مُنْكِرٍ أن ينكر وضوح مقولتنا ودقَّتها عندما نؤكد أن **الشعور يتظاهر كبديل عن الأثر الذاكري**.

إذاً فالنسق الشعوري يتميَّز بخاصية محددة ـ لا نقع على نظير لها في سائر الأنظمة النفسية الأخرى ـ تتمثل في أن سيرورة الإثارة لا تخلّف وراءها تغييراً دائماً في عناصر النسق، بل تتشتت وتتلاشى ـ إن جاز القول ـ في ظاهرة الصيرورة الشعورية. والحال أن مثل هذا الاستثناء للقاعدة العامة يقتضي أن يُفسَّر بعامل لا وجود له إلا في هذا النسق؛ وليس من المستبعد أن يكون هذا العامل، الذي ليس ثمة أمامنا من محيص عن نفي وجوده في الأنساق الأخرى، هو الموقع المكشوف للنسق **شع**، والمتصل اتصالاً مباشراً بالعالم الخارجي.

فلنتصور الكيان الحيّ في أبسط أشكاله الممكنة، أي كحويصلة غير متمايزة من مادة قابلة للإثارة. فسطحها المتجه نحو العالم الخارجي سيتمايز عن بقيتها بحكم موقعه هذا وسيضطلع بدور عضو ذي وظيفة محددة هي استقبال الإثارات. وبالفعل، إن علم الأجِنَّة، باعتباره علماً يكرر تاريخ النشوء والتطور، يظهر لنا أن الجهاز العصبي المركزي ينشأ من الأدَمة البرانية؛ أما المادة السنجابية للحاء المخّ فتبقى هي المتولدة عن قشرته البدائية ولا يستبعد أن تكون ورثت منها خصائصها الرئيسية. ويتأتى لنا بسهولة في هذه الحال أن ندرك أن المفعول المتواصل للإثارات الخارجية على سطح الحويصلة يحدِث تغييراً متواصلاً بدوره في مادتها بلوغاً إلى عمق معيَّن بحيث أن عملية الإثارة لا تعود تجري فيها بالكيفية عينها التي تجري بها في الطبقات الأعمق من الحويصلة. وعلى هذا النحو تكون قد تكوّنت قشرة مهيَّأة بحكم كل الحتّ والتخريم الذي استحدثه فيها مفعول الإثارات الحارق ـ إن جاز لنا القول ـ لتوفير أحسن الشروط لاستقبال المثيرات، وهذا إلى حدٍّ يغدو من المحال معه أن يطرأ عليها أي تعديل أو تغيير لاحقاً. ولو طبّقنا فرضية كهذه على النسق **شع**، لكان هذا معناه أن عناصر هذا النسق لا تعود قابلة لأن يطرأ عليها أي تعديل دائم بفعل مرور الإثارة لأن هذه



العناصر عينها يكون قد طرأ عليها من قبل تعديل جذري. لكنها تكون قد اكتسبت المقدرة في الوقت نفسه على جعل الشعور يتظاهر. فما كنه هذا التعديل الطارئ على مادتها وعلى سيرورات الاستثارة فيها؟ قد يكون في مقدورنا أن نفترض بعض الفروض بصدد ذلك ولكن بدون أن يكون متاحاً لنا التحقق من صحتها في الوقت الراهن. ففي وسعنا أن نذهب إلى أن الإثارة، عند مرورها من عنصر إلى آخر، تكون مطالبة بالتغلب على مقاومة ما، وأن ما يستتبع ذلك من تناقص في المقاومة هو تحديداً ما يمثِّل الأثر الدائم للإثارة (المعبر الذي شُقَّ). ومن ثم لا يعود ثمة وجود لمقاومة تحول دون المرور من عنصر إلى آخر. ومن الممكن أن نقارب على هذا النحو بين رؤيتنا هذه للأمور وبين ما اعتمده برويير من تمييز في عناصر الأنساق النفسية بين الشحنة الساكنة (المقيَّدة) والشحنة الطليقة. فعناصر النسق **شع** لا تبثّ طاقة مقيَّدة، بل فقط طاقة قابلة بطلاقة للتفريغ. لكني أعتقد أنه خير لنا، ولو مؤقتاً، أن نتحاشى القطع برأي جازم في مثل هذه الأمور. ومهما يكن من أمر فإن تأملاتنا قد أتاحت لنا أن نعقد صلة ما بين تظاهر الشعور والوضع في النسق **شع** والخصائص التي يفترض بنا أن نعزوها إليه فيما يتعلق بسيرورات الإثارة التي تحدث فيه.

على أنه في وسعنا أن نتكلم بتفصيل أكبر عن الحويصلة الحيَّة وقشرتها اللحائية المستقبِلة للإثارات. فهذا الجسيم الحيّ غاطس في عالم خارجي مشحون بطاقات قوية للغاية، وما كان له إلا أن يهلك تحت دفق المثيرات الصادرة عنها لو لم يكن مجهَّزاً **بدرع واقٍ من الإثارات** يتحصل عليه على النحو التالي: فقشرته السطحية تتجرد من البنية التي تكون للمادة الحية، وتغدو شبيهة بالمادة غير المتعضِّية، وتصير تعمل مذ ذاك فصاعداً كمحض غلاف أو كمحض عضو لا شأن له غير تحاشي الإثارة. وعلى هذا النحو لا يعود في مقدور طاقات العالم الخارجي أن تنقل سوى قدر طفيف من قوتها إلى الطبقات المجاورة التي بقيت محافظة على حياتها. ويكون في مستطاع هذه الطبقات عندئذ، وقد احتمت بذلك الدرع الواقي من الإثارات أن تكرِّس نفسها لاستقبال ما يسمح بمروره من مقادير الإثارة. وعلى هذا تكون الطبقة الخارجية، بأيلولتها إلى الموت، قد حالت دون أن تنتهي سائر



الطبقات العميقة إلى المصير نفسه، وهذا على الأقل ما دامت الإثارات لا تتدفق بقوة تتمكن معها من اختراق الدرع الواقي. والحق أن وظيفة الدرع الواقي من الإثارات تكاد تكون بالنسبة إلى الكيان الحيّ أكثر أهمية من استقبال الإثارات. فهذا الكيان يحوز في ذاته على احتياطيِّه الخاص من الطاقة، ويترتب عليه، أول ما يترتب، أن ينزع بكل جهده إلى أن تبقى تحولات الطاقة، الفاعلة فيه طبقاً لكيفيات محددة، في منجى من تأثير الطاقات الطاغية الفاعلة خارجه ومن تأثير مفعولها الذي من شأنه أن يقود إلى تعادل القوى، ومن ثم إلى الفناء. والواقع أن استقبال الإثارات يفيد في المقام الأول في الإعلام عن اتجاه الإثارات الخارجية وعن طبيعتها، ويكفي لهذا الغرض أن تقتطع عينات صغيرة من العالم الخارجي وأن تُختبر منها أصغر المقادير. ذلك أن الطبقة اللحائية المستقبِلة للإثارات في الكيانات الحية الأكثر تطوراً، وهي الطبقة التي كانت تغلِّف فيما مضى الحويصلة، تكون قد انسحبت منذ وقت بعيد إلى الأعماق الداخلية للجسم، غير أن أجزاء من هذه الطبقة، تبقى مباشرة على سطح الجسم تحت الدرع الواقي له من الإثارات. وتلك هي أعضاء الحسّ التي تشتمل، في أهمّ ما تشتمل عليه، على أجهزة لاستقبال ضروب معيَّنة من الإثارات، ولكن كذلك على ترتيبات خاصة من شأنها مضاعفةُ الحماية من المقادير المجاوزة للحدّ من الإثارة وتنحيةُ الأشكال غير الصالحة منها. ومن خصائص أعضاء الحسّ هذه أنها لا تستقبل سوى كميات ضئيلة للغاية من الإثارة الخارجية، ولا تأخذ من العالم الخارجي سوى عينات صغيرة حتى ليمكننا تشبيهها بملامس الحيوانات الدنيا التي يقتصر دورها على محاولة الاقتراب من العالم الخارجي ثم لا تعتم أن تبتعد عنه.

وإني أبيح لنفسي، وقد وصل المطاف بنا إلى هنا، أن أتطرق لموضوع يستأهل دراسة أكثر تعمقاً. ذلك أن بعض المعطيات التي يضعها التحليل النفسي بين أيدينا تأذن لنا أن نطرح على بساط النقاش الموضوعة الكانطية القائلة إن الزمان والمكان هما شكلان ضروريان لفكرنا[٣]. فالتجربة قد أفادتنا أن السيرورات

٣ ـ صاغ عمانوئيل كانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) ـ وهو من كبار الفلاسفة الألمان ومن رواد عصر التنوير ـ هذه الموضوعة في كتابه **نقد العقل الخالص**. «م».



النفسية اللاشعورية هي بحدّ ذاتها «لازمنية». وهذا معناه أولاً أنها ليست متراتبة زمانياً، وأن الزمان لا يُحدِث فيها تعديلاً البتة، وأن مفهوم الزمان لا يمكن أن ينطبق عليها. وهذه جميعها صفات سلبية لا سبيل لنا إلى تكوين فكرة واضحة عنها إلا عن طريق المقارنة مع السيرورات النفسية الشعورية. أضف إلى ذلك أنه يلوح أن تصوُّرنا المجرَّد عن الزمن مستمدّ بتمامه من نمط اشتغال نسقنا **قشع - شع**، وهذا يعني أنه يتطابق وإدراكنا الذاتي لنمط هذا الاشتغال. وقد يسعنا أيضاً أن نهتدي في نمط عمل هذا النسق إلى نوع آخر من الدروع الواقية. وإني لأعلم أن ما أذهب إليه هنا قد يبدو شديد الغموض، ولكن لست أملك إلا أن أقتصر على ما ألمعت إليه من التلميحات.

لقد كان مدار عرضنا حتى الآن على فكرة أن للحويصلة الحية درعاً واقياً من إثارات العالم الخارجي. ولقد كنا قبل ذلك أسلفنا البيان أن الطبقة اللحائية المجاورة لهذا الدرع مباشرة لا بدّ أن تتمايز لتصير عضواً وظيفتُه استقبال الإثارات الخارجية. لكن هذه الطبقة اللحائية الحساسة - التي ستصير لاحقاً هي النسق **شع** - تستقبل أيضاً إثارات من الداخل. وهذا التواجد للنسق بين الخارج والداخل، وهذا الفارق في الشروط التي تحدث فيها الإثارة تبعاً لصدورها عن هذا الجانب أو ذاك، يكون لهما تأثير حاسم على عمل النسق ومعه عمل الجهاز النفسي بأسره. فمن الخارج ثمة درع واقٍ، ومقادير الإثارة التي تتوصل إلى شقّ طريقها لا يكون لها سوى قدر محدود من الفاعلية. أما من الداخل، حيث لا يمكن أن يكون ثمة وجود لدرع واقٍ، فإن الإثارات الصادرة عن أعمق الطبقات تنفذ مباشرة إلى النسق بدون أن يطرأ عليها نقصان، وهذا في الوقت نفسه الذي تتولد فيه عن بعض خصائص مسارها ضروب شتى من أحاسيس اللذة والكدر. ولا شك في أن الإثارات الداخلية تكون، بحكم شدتها وبحكم خصائص كيفية أخرى (ربما من حيث اتساع مداها)، أكثر موافقة لنمط اشتغال النسق من تلك التي تتدفق من العالم الخارجي. والحال أنه تترتب على ذلك نتيجتان حاسمتان هنا: أولاً غلبة أحاسيس اللذة/ الكدر، بما لها من دلالة على سيرورات الجهاز الداخلية، على سائر الإثارات الخارجية؛ وثانياً نزوع إلى مسلك من شأنه التصدي



للإثارات الداخلية القمينة باستحداث زيادة كبيرة في الكدر. ومن هنا كان الميل إلى التعاطي مع هذه الإثارات كما لو أنها تفعل فعلها من الخارج، لا من الداخل، وذلك حتى يكون في الإمكان استخدام الدرع الواقي كوسيلة دفاعية ضدها. وذلك هو أصل **الإسقاط** PROJECTION الذي يضطلع بدور كبير في حدوث السيرورات الباتولوجية.

يتراءى لي أن هذه الملاحظات الأخيرة قد يسَّرت علينا فهم هيمنة مبدأ اللذة، ولكن بدون أن تلقي لنا أي ضوء على الحالات التي تناقضه. فلنخطُ إذاً خطوة أخرى إلى الأمام. فنحن نطلق صفة **الرضّية** على الإثارات الخارجية التي تكون على قدر كافٍ من القوة لتخترق الدرع الواقي. وأعتقد أنه لن يتأتّى لنا أن نفهم دلالة الرضّة بدون أن نربط بينها وبين احتمال أن يكون قد حدث صدع ما في ذلك الدرع الذي كان دلَّل من قبل على نجعه في استبعاد الإثارات. فحدث مثل الصدمة الخارجية من شأنه بكل تأكيد أن يحدِث خللاً واسع النطاق في طاقة اشتغال الكيان الحيّ وأن يستنفر بالتالي جميع وسائل الدفاع. ولكن العطالة تصيب أول ما تصيب في هذه الحال مبدأ اللذة، فإذا بمقادير ضخمة من الإثارة تقتحم الجهاز النفسي، وإذا بمهمته تتحول من صدّ الإثارات إلى محاولة السيطرة عليها والسعي إلى تقييدها نفسياً، بعد فلاحها في اقتحام سور دفاعه، بحيث يتمكن من تصفيتها لاحقاً.

ومن المرجَّح أن ما يلازم الألم البدني من كدر لا يعدو أن يكون نتيجة للتصدع الذي أصاب الدرع الواقي في جانب محدَّد منه. فمن خلال هذه الثغرة الجانبية تتدفق عندئذ الإثارات باتجاه الجهاز النفسي المركزي تدفقاً متواصلاً، وهو أمر لا يقع في العادة إلا في حال تدفق مثل تلك الإثارات من داخل الجهاز(٤). فما ردّ الفعل الذي يمكن لنا أن نتوقَّعه من جانب الحياة النفسية في مواجهة مثل ذلك الاختراق؟ إن كل ما يمكن توظيفه من الطاقة يُستدعى في هذه الحال من كل جانب لتطويق ثغرة الاختراق بشحنات من الطاقة تكون على القدر الكافي

٤ ـ انظر بحثنا: **الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية** (انظر ترجمة هذا النص في المجلد الخامس من **المؤلفات شبه الكاملة**). «م».



من القوة. وعلى هذا النحو تتوطد ركائز «شحن مضاد» شديد القوة على حساب الضعف الذي يطرأ على جميع الأنظمة النفسية الأخرى، مما يستتبع شللاً أو تناقصاً كبيراً في نشاط هذه الأنظمة. وإنما عن طريق أمثلة كهذه نحاول أن نهتدي إلى نماذج متخيَّلة، تؤيِّد ما نذهب إليه من فروض ميتاسيكولوجية. وعلى هذا النحو يتسنى لنا أن نستخلص من سلوك النسق النفسي في مواجهة الألم البدني النتيجة التالية: إن هذا النسق، متى ما كان مشحوناً هو نفسه بالقدر الكافي من الطاقة، يقتدر على استقبال قدر إضافي من الطاقة، وعلى تحويله إلى شحنة كامنة، أي «تقييده» نفسياً. وكلما كانت الشحنة الكامنة في النسق المعني أكبر كانت قدرته على التقييد أكبر هي أيضاً؛ وبالعكس، كلما كانت هذه الشحنة أضعف كانت قدرته على استقبال دفق إضافي من الطاقة أضعف هي الأخرى، وكانت نتائج ذلك الاختراق للدرع الواقي أعنف وأفدح.

ويخطئ من قد يعترض على هذا التصور بالقول بأن تعاظم قوة التوظيف والشحن حول ثغرة الاختراق قابل للتفسير، بيسر أكبر، بأنه نتيجة مباشرة لتدفق مباشر لمقادير كبيرة من الإثارات من الخارج. فلو صحّ أن هذا هو واقع الحال، لما كان الجهاز النفسي قد طرأ عليه سوى زيادة في طاقته التوظيفية، ولكان المفعول الشالّ للألم والضعف الطارئ على بقية الأنساق قد بقيا بلا تفسير. كذلك ليس من شأن الأفعال التفريغية البالغة العنف التي يتأدى إليها الألم أن تطعن في صحة تفسيرنا، لأنها تحدث على سبيل ردّ الفعل الانعكاسي، أي بدون وساطة الجهاز النفسي. أما ما تتسم به هذه التأملات التي نصفها بأنها ميتاسيكولوجية من قدر من الإبهام فمردّه بطبيعة الحال إلى كوننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة سيرورة الإثارة في عناصر الأنساق النفسية، وإلى كوننا لا نأذن لأنفسنا بأن نصوغ فرضية ما، أياً كانت، حول هذا الموضوع. فنحن نعمل على الدوام هنا بالاعتماد على مجهول س كبير بدون أن يكون أمامنا مناص من أن ندرجه في كل صيغة جديدة. وبوسعنا بسهولة أن نسلِّم بأن سيرورة الإثارة تلك يمكن أن تتمّ بطاقات متفاوتة كمياً، كما أنه ليس من المستبعد أن يكون لهذه السيرورة أكثر من كيف واحد (من ناحية مدى الاتساع مثلاً). ولقد عدنا هنا إلى تبني تصور بروير القائل بأن



أي نسق من الأنساق النفسية يمكن أن يتزوّد بالطاقة وفق نمطين متباينين: فبروير يميّز هنا بين انشحانين للأنساق النفسية (أو لعناصر هذه الأنساق)، أولهما حرّ التدفق وبه حاجة عاجلة إلى التفريغ، وثانيهما كامن. وقد يكون مباحاً لنا أن نسلِّم بأن «تقييد» الطاقة التي تتدفق في الجهاز النفسي يتمّ عن طريق تحويلها من حالة التدفق الطليق إلى حالة الكمون.

ومن الممكن، على ما يتراءى لي، أن نعتبر العصاب الرضّي المألوف عقبى لاختراق كبير تعرَّض له الدرع الواقي. وبذلك نكون قد أعدنا الاعتبار إلى النظرية القديمة والساذجة عن الرضّة، التي تتناقض في ظاهر الأمر مع نظرية أحدث عهداً ومع ادعاءات سيكولوجية أوسع مدى تعزو الدور الإتيولوجي لا إلى مفعول العنف الآلي، بل إلى الذعر والشعور بتهديد للحياة. بيد أن وجهات النظر المتعارضة هذه لا تستعصي على التوافق فيما بينها، تماماً كما أن التصور التحليلي النفسي عن العصاب الرضّي لا يستعصي على التوافق مع الشكل الأكثر فجاجة من نظرية الصدمة. فهذه النظرية تعزو ماهية الصدمة إلى الانجراح المباشر للبنية الخلوية أو حتى للبنية الهستولوجية للعناصر العصبية، في حين أننا نسعى، من جهتنا، إلى فهم مفعول الصدمة في الجهاز النفسي من منطلق الصدع الذي يصيب الدرع الواقي من الإثارات، وبالتالي من منطلق المهام التي تترتب على ذلك. كذلك إننا نولي نحن أيضاً الذعر أهمية. فالذعر ينشأ من عدم التأهب للخطر بالجزع والحصر، هذا التأهب الذي يقتضي استنفار الأنساق التي تكون هي السباقة إلى استقبال الإثارة. ذلك أن ضعف شحونة هذه الأنساق لا يهيئ هذه الأخيرة لتقييد مقادير الإثارة الآتية من الخارج، مما يسهِّل الطريق أمام تمخض النتائج المترتبة على اختراق الدرع الواقي. ومن هنا نرى أن التأهب بالجزع والحصر مع ما يقتضيه ذلك من زيادة في شحن الأنساق المستقبِلة هو آخر خط من خطوط دفاع الدرع الواقي. وعليه، إن العامل الحاسم فيما يتعلق بمآل عدد كبير من الصدمات هو الفارق بين الأنساق التي لم تتأهب والأنساق التي تأهبت بمضاعفة انشحانها. وهذا مع العلم أن هذا العامل نفسه يفقد فاعليته إذا ما تخطت قوة الرضّة عتبة معيَّنة. ولئن تكن أحلام العصاب الرضّي غالباً ما تردّ



المرضى إلى الموقف الذي حدثت فيه الحادثة الرضِّية، فمعنى ذلك بكل تأكيد أن هذه الأحلام لا تكون في هذه الحال عاملة في خدمة تحقيق رغبة، حتى وإن يكن التمثيل الهلوسي لهذه الرغبة قد صار هو وظيفتها في ظلّ هيمنة مبدأ اللذة. وفي وسعنا الافتراض أنها تضع نفسها بحكم تكررها في خدمة مهمة أخرى يتوجب إنجازها قبل أن يتاح لهيمنة مبدأ اللذة أن تشرع بفرض نفسها. وهدف هذه الأحلام السيطرة البعدية على الإثارة من خلال تمخُّض الحصر، هذا الحصر الذي كان غيابه هو العلة في العصاب الرضِّي. وعلى هذا النحو تهدينا أحلام العصاب الرضِّي إلى وظيفة للجهاز النفسي مستقلة عن مبدأ اللذة حتى وإن لم تكن مناقضة له، وتبدو أكثر قدامة من طلب مكسب من اللذة وتحاشي الكدر.

وقد تكون هذه هي اللحظة المؤاتية لنسلِّم بوجود استثناء عن القاعدة القائلة إن الحلم تحقيقٌ لرغبة. وليست أحلام الحصر ـ كما بيَّنت ذلك مراراً عدة بالتفصيل ـ هي ما يشكِّل هذا الاستثناء: فهي لا تفعل سوى أن تُحِلّ محلّ تحقيق الرغبة المحظورة حظراً قاطعاً العقابَ الذي تستأهله، وهي بالتالي تحقيق لرغبة في استحداث شعور بالذنب كردّ فعل على الرغبة المنبوذة. بيد أن أحلام عصاب الصدمة التي تقدَّم الكلام عنها لا تعود قابلة للإرجاع إلى المقولة القائلة بأن الحلم تحقيق لرغبة، ولا كذلك الأحلام التي تراود المحلِّلين أثناء الجلسات التحليلية والتي تعود بهم القهقرى إلى ذكرى الرضّات النفسية التي عانوا منها في طفولتهم. والأرجح أن هذه الأحلام تخضع بالأولى للدافع القهري إلى التكرار، وهو الدافع الذي يهتدي أصلاً، في أثناء التحليل، إلى سندٍ يرتكز عليه في الرغبة، المحضوض عليها إيحائياً، في إعادة بعث ما هو منسيّ ومكبوت. وعلى هذا، لا تكون الوظيفة الأصلية للحلم سوى تحاشي الأسباب التي قد تتأدى إلى قطع النوم عن طريق تحقيق رغبة الحاثات المبلبلة له. وليس للحلم أن يضطلع بهذه الوظيفة الجديدة قبل أن تقبل الحياة النفسية بمجملها بسيادة مبدأ اللذة. ولئن يكن هناك «ما وراءٌ لمبدأ اللذة»، فمن المنطقي أن نسلّم في هذه الحال، حتى بالنسبة إلى نزوع الحلم إلى تحقيق الرغبة، بوجود فترة سبقت هذا النزوع. وهذا لا ينقض الوظيفة اللاحقة للحلم. ولكن متى رأى النور النزوع إلى تحقيق رغبة وجدنا



أنفسنا أمام سؤال جديد: ألا يتأتى لنا أن نصادف، حتى خارج نطاق التحليل النفسي، أحلاماً تخضع للدافع القهري إلى التكرار وتكون عاملة في الوقت نفسه في خدمة التقييد النفسي للخبرات الرضّية؟

لقد كنت عرضت في نص آخر فكرة مفادها أن «الأعصبة الحربية» يمكن أن تكون ـ بقدر ما أن هذا المصطلح يتضمن معنى أبعد من محض الإحالة إلى ظروف وقوع المرض ـ أعصبة رضّية هيأ لها السبيل صراع يعتمل داخل الأنا[٥]. والواقعة التي نوَّهت بها فيما تقدم، وهي أن احتمالات ظهور العصاب تتضاءل إذا ما تأدت الصدمة إلى إصابة بدنية خطيرة ـ لا تعود مستعصية على الفهم إذا ما أخذت بعين الاعتبار واقعتان سلَّط عليهما الضوء التحليل النفسي. أولاهما أن الاهتزاز الآلي ينبغي أن يعتبر واحداً من مصادر الإثارة الجنسية (انظر الملاحظات حول مفعول الاهتزاز والسفر بالقطار في **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**)[٦]؛ وثانيتهما أن المرض الموجع والمترافق بحمّى يكون له تأثير بالغ على توزيع الليبيدو. ومن ثم، إن من شأن العنف الآلي الذي تتسبب فيه الرضة أن يحرر مقداراً من الإثارة الجنسية يكون له مفعول رضّي نظراً إلى عدم التأهب وعدم الاستعداد له بالحصر والجزع؛ ولكن إذا ما طرأت في الوقت نفسه إصابة بدنية كان لها، بحكم ما تقتضيه من زيادة في الشحونة النرجسية للعضو المصاب، قدرة أكبر على تقييد الإثارة المفرطة في شدتها (انظر مقالي: **من أجل إدخال النرجسية**)[٧]. ومن المعلوم أيضاً ـ رغم أن نظرية الليبيدو لم تأخذ ذلك بعين الاعتبار الكافي ـ أن الاضطرابات الخطيرة في توزيع الليبيدو، كمثل تلك التي تصاحب السويداء، قد تختفي مؤقتاً من جراء إصابة بدنية طارئة؛ بل حتى الخبل المبكر في أقصى درجاته قد تتراجع أعراضه مؤقتاً في مثل تلك الظروف.

٥ ـ انظر المدخل في نصّنا عن «**التحليل النفسي والأعصبة الحربية**»، ١٩١٩. (انظر ترجمة هذا النص في المجلد السابع من **المؤلفات شبه الكاملة**). «م»

٦ ـ انظر ترجمتنا لهذا الكتاب في المجلد الرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».

٧ ـ انظر ترجمتنا لهذا النص في المجلد الرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».



مكتبة
الفكر الجديد

ـ ٥ ـ

إن افتقار قشرة المخ اللحائية إلى درع واقٍ من الإثارات الداخلية المصدر يترتب عليه كنتيجةٍ تعاظمٌ في الأهمية الاقتصادية للتحول في مجرى الإثارة الداخلية، وكثيراً ما تستتبع ذلك اختلالات اقتصادية شبيهة بالأعصبة الرضِّية. وأغزر منابع هذه الإثارة الداخلية هي ما يسمى بغرائز الكيان المتعضي التي تمثّل جميع القوى الفاعلة في الجسم والمحوَّلة إلى الجهاز النفسي؛ وذلك هو تحديداً العنصر الأهم والأكثر غموضاً في آن معاً في البحوث السيكولوجية.

ولعلنا لا نغامر كثيراً إذا ما افترضنا أن الحاثات التي تصدر عن الغرائز[١] تكون مطابقة لطراز السيرورات العصبية الطليقة في حركتها والطالبة لتفريغ شحنتها، وليس لطراز السيرورات العصبية المقيَّدة. وخير ما يتوفر لنا من معرفة بصدد هذه السيرورات يأتينا من دراسة عمل الحلم. فقد بيَّنت لنا هذه الدراسة أن السيرورات التي تجري في الأنساق اللاشعورية تكون مختلفة اختلافاً جذرياً عن تلك التي تجري في الأنساق الشعورية وما قبل الشعورية. ففي اللاشعور يمكن بسهولة للشحنات المفرطة أن تُحوَّل أو تُنقل أو تُكثَّف، بينما إذا حدث شبيه ذلك في النسق اللاشعوري تأدى إلى نتائج مغلوطة؛ وهذا أيضاً ما يفسّر لنا الخصائص

١ ـ لقد كنا اعتمدنا في كل ما ترجمناه لفرويد من نصوص تعبير «الدافع الغريزي» بدلاً من «الغريزة»، وذلك كمقابل للمفردة الألمانية TRIEB التي يؤثر فرويد استخدامها بدلاً من مصطلح الغريزة INSTINKT الدارج في الاستعمال. وقد كان مردّ خيارنا هذا إلى أن مصطلح الغريزة يبدو أكثر انطباقاً على غريزة الحيوان التي لا يملك لها دفعاً أو كبتاً منه على غريزة الإنسان الذي يملك إزاءها قدراً من الحرية في كبتها أو في إرجاء إشباعها. بيد أننا وجدننا مضطرين في هذا الفصل والفصل الذي يليه إلى اعتماد مصطلح الغريزة بإطلاق لأن مداره، كما سيتبيَّن للقارئ تواً، على غريزة الحياة والموت لدى المتعضِّيات الحية البدائية سواء منها الأحادية الخلية أو المتعددة الخلايا، وهذا في عالم النبات وعالم الحيوان قبل عالم الإنسان. «م».



المعروفة للمضمون الظاهر للحلم بعد أن تكون البقايا النهارية ما قبل الشعورية قد تشكلت طبقاً لقوانين اللاشعور. وقد أطلقتُ اسم «السيرورة النفسية الأولية» على هذا النمط من السيرورات التي تجري في اللاشعور بالتمايز عن السيرورات الثانوية التي تجري في حالة اليقظة العادية. وبما أن موضع فاعلية جميع الحاثات الغريزية هو في الأنساق اللاشعورية، فلسنا نأتي بجديد إذا قلنا إنها تابعة للسيرورة الأولية، كما يكون من السهل علينا من جهة أخرى أن نؤكد أن السيرورة النفسية الأولية تتطابق والشحنة الطليقة الحركة، وأن السيرورة الثانوية تتطابق والتغيرات الطارئة على الشحنة المقيَّدة أو الثابتة كما قال بها بروير[٢]. وإذا كان الأمر كذلك كانت مهمة الطبقات العليا من الجهاز النفسي أن تقيّد الإثارة الغريزية متى ما حدثت في شكل سيرورة أولية. والحال أن فشل هذا التقييد من شأنه أن يُحدِث اضطراباً يشبه العصاب الرضِّي؛ وإنما عندما ينجح التقييد يتأتَّى لمبدأ اللذة (ولمبدأ الواقع الذي هو شكل معدَّل منه) أن يفرض سيطرته دونما عائق. وإلى أن يتمّ ذلك تكون المهمة الأخرى للجهاز النفسي أن يسيطر على الإثارة أو أن يقيِّدها، بدون أن تتعارض هذه المهمة في أرجح الظن مع مبدأ اللذة، ولكن باستقلالية عنه وبدون أن تقيم له اعتباراً إلى حدٍّ ما.

أما تظاهرات دافع بعينه من الدوافع القهرية إلى التكرار، على نحو ما تقدّم بنا وصفها في الأنشطة الأولى للحياة النفسية عند الأطفال كما في التجارب المعاشة أثناء العلاج التحليلي النفسي، فتشفّ بوضوح وقوة عن طابعها الغريزي، وحيثما تعارضت مع مبدأ اللذة شفّت عن طابع يمكننا وصفه بأنه «شيطاني». وفي لعب الأطفال يتراءى لنا أن الطفل يكرر الخبرة المعاشة حتى ولو كانت مكدِّرة لأنه يقتدر بفاعليته هذه على السيطرة عليها بقوة أكبر من تلك التي تكون في متاحه إذا ما اكتفى بموقف منفعل سالب. ويبدو لنا أن كل تكرار جديد من شأنه أن يزيد في قدرة الطفل على إحكام تلك السيطرة؛ وإذا كانت الخبرة من طبيعة لاذّة نراه لا يكلّ ولا يملّ من تكرارها مستعيداً على هذا النحو ما كان خامره من لذة. لكن هذه السمة من سمات الطبع لا تلبث أن تؤول إلى زوال في وقت لاحق.

٢ ـ انظر الفصل السابع من كتابي **تأويل الحلم**.



فالنكتة التي نسمعها للمرة الثانية ينعدم مفعولها أو يكاد، والعرض المسرحي لا يخلِّف في نفس المشاهد في المرة الثانية الأثر العميق الذي كان خلَّفه في المرة الأولى. ويكاد يكون من المتعذر، في الحقيقة، أن نغري شخصاً راشداً استمتع بقراءة كتاب أن يعاود قراءته بتمامه مرة ثانية. فالجِدَّة شرط لازم على الدوام للاستمتاع. بيد أن الطفل لا يتعب ولا يكلّ أبداً من مطالبة شخص راشد بأن يعاود لعب لعبة دلّه عليها أو لعبها معه، وهذا إلى أن يطفح كيل هذا الأخير. وعندما تُروق للطفل حكاية جميلة يطلب إعادة تلاوتها على مسمعه تكراراً بدلاً من أي حكاية جديدة أخرى. وهو يتمسك بعناد بأن تأتي الإعادة مطابقة للمرة الأولى، فإن أخطأ الراوي وأدخل تعديلاً ما على روايته للحكاية بادر الطفل إلى تصحيح قوله، مع أنه ليس من المستبعد أن يكون الراوي قد قصد من ذلك أن ينوبه من قبل الطفل تقدير إضافي. ولا شيء في هذا يناقض مبدأ اللذة؛ فمن الواضح أن التكرار واستعادة الشيء ذاته هما بحدّ ذاتهما مصدر للذة. وبالمقابل، إن الحال هي غير هذه الحال لدى الشخص الذي يكون قيد تحليل، إذ من الواضح أن دافعه القهري إلى أن يكرر في أثناء التحويل الخبرات التي عرضت له في طفولته يحتل موقعه في الأحوال **جميعاً** خارج مبدأ اللذة وفوقه. فالمريض يسلك أثناء التحويل سلوكاً طفلياً خالصاً، ويظهِر لنا أن الآثار الذاكرية المكبوتة لخبراته المعاشة المبكرة لا تمثُل له في حالة مقيَّدة، ولا تكون في الواقع صالحة، إلى حدّ ما، للإخضاع للسيرورة الثانوية. وإنما لعدم التقييد هذا تدين بقدرتها، إذا ما تضافرت معها البقايا النهارية، على تكوين أخيولةِ رغبةٍ يقع على عاتق الحلم تشخيصها. وهذا الدافع القهري إلى التكرار هو عينه الذي غالباً ما ينتصب أمامنا كعقبة في وجه العلاج التحليلي عندما نسعى، في ختام هذا العلاج، إلى حمل المريض على فكِّ القيد الذي يشدّه إلى الطبيب بصورة نهائية. ويتوجَّب علينا هنا أن نسلِّم أيضاً بأنه عندما يساور الأشخاص غير المتآلفين مع التحليل النفسي تخوّف مبهم من أن يستيقظ لديهم ما يحسبون أنه من الخير في تقديرهم لو يبقى نائماً، فإنما مردّ ذلك في واقع الأمر إلى خشيتهم من أن ينبجس لديهم ذلك الدافع القهري الذي كأنه مسّ من الشيطان.



لكن ما طبيعة العلاقة بين ما هو غريزي وبين الدافع القهري إلى التكرار؟ إننا لا نستطيع هنا أن نتملص من فكرة تراودنا، فكرة يتراءى لنا معها أننا قد اهتدينا إلى الخاصية العامة للدوافع الغريزية، وربما للحياة العضوية بجملتها، وهي خاصية ما أمكن إلى اليوم تعرُّفها بوضوح أو ما جرى التنويه بها بصراحة: **فكرة أن الغريزة هي بمثابة قوة مباطنة للكيان المتعضّي الحيّ تدفع به إلى إرجاع حالة سابقة** كان هذا الكائن الحيّ نفسه قد اضطر إلى التخلي عنها تحت الضغط المبلبل لبعض القوى الخارجية؛ أو فلنقل إنها ضرب من مرونة عضوية، أو ـ بمعنى آخر ـ تعبير عن العطالة في الحياة العضوية[٣].

إن هذا التصور للغريزة يبدو غريباً: فنحن قد اعتدنا على أن نرى في الغريزة عاملاً يدفع باتجاه التغيير والتطور، وهانحنذا مكرهون على القول بعكس ذلك بتوكيدنا على الطبيعة **المحافظة** للكائن الحيّ. كما أنه سرعان ما تحضر إلى ذهننا من ناحية أخرى أمثلة من حياة الحيوانات تؤكد فيما يظهر أن الغرائز هي متعيِّنة تاريخياً. فحينما تشرع بعض أنواع السمك بالقيام بهجرة شاقة كي تضع بيضها في مياه بعيدة غاية البعد عن أماكن إقامتها المعتادة، فإنها لا تفعل ذلك، طبقاً لما يذهب إليه العديد من علماءِ الأحياء، إلا سعياً إلى الوصول إلى الأماكن التي كان يقيم فيها أسلافها من قبل، والتي جرى لاحقاً استبدالها بغيرها. وبوسعنا أن نقول الشيء عينه عن هجرة الطيور في مواسمٍ معيَّنة. غير أننا سرعان ما نجدنا في غنى عن البحث عن أمثلة أخرى متى ما تذكّرنا أن ظاهرات الوراثة ووقائع علم الأجنَّة تقدِّم لنا ساطع الأمثلة على وجود الدافع القهري إلى التكرار لدى الكائنات المتعضِّية. فنحن نرى في هذه الحال كيف أن رُشَيم الحيوان الحيّ يكون مكرهاً على أن يكرر في نموه وتطوره ـ ولو عن طريق مختصر عابر ـ بنية جميع الأشكال التي يتحدَّر منها هذا الحيوان، بدلاً من أن يسلك أسرع طريق إلى تشكُّله النهائي. وليس في الإمكان أن نفسِّر نمط النمو والتطور هذا بعوامل آلية إلا بصورة جزئية للغاية، ولن يكون في وسعنا أن نسقط من حسابنا التفسير التاريخي. كما أن وجود طاقة كبيرة على الاستنساخ وإعادة التكوين من شأنها

٣ ـ لا يخامرني شك في أن فرضيات من هذا القبيل حول طبيعة «الغرائز» قد سبق أن صيغت مراراً عدة.



أن تتأدى إلى نمو عضو جديد يكون مطابقاً تمام المطابقة لعضو مفقود.

قد يعترض علينا بسهولة هنا معترض بقوله إنه ليس من المستبعد أن يكون ثمة وجود، بالإضافة إلى الغرائز المحافظة التي ترغِم على التكرار، غرائز أخرى تدفع نحو إعادة إنتاج أشكال جديدة ونحو التقدم. وبديهي أن اعتراضاً كهذا لا يمكن إسقاطه من الحساب. ولسوف نعود إليه في طور لاحق من تأملاتنا هذه. لكن لزام علينا أولاً أن نتتبع إلى آخر نتائجها الفرضية القائلة إن الغرائز كافة تنحو نحو إعادة إنتاج وضعية سابقة. وما قد تتمخض عنه محاولة كهذه قد يتبدى لنا وكأنه ثمرة إغراب في الخيال أو ائتخاذ بالغيبيات، لكننا واثقون تماماً في دخيلة نفسنا أننا براء كل البراء من مثل هذا المنزع. فليس مدار بحثنا، وما قد يتمخض عنه من تصورات، على اللفظيات، وليس ثمة من رغبة تراودنا سوى الرغبة في الوصول إلى نتائج موثوقة[٤].

لئن صحّ أن جميع الغرائز العضوية محافظة، وأنها مكتسبة تاريخياً، وأنها نزَّاعة إلى النكوص وإلى إحياء ما سبق من الأحوال، فإنه يتعيَّن علينا في هذه الحال أن نرجِع النتائج الفعلية للتطور العضوي إلى مؤثرات خارجية من شأنها أن تبلبل مساره وتحوِّله عن هدفه. فالكائن الحيّ الأولي لا تكون لديه منذ مبدأ وجوده رغبة في التغير، ولو كانت الظروف بقيت على حالها لما كان لمجرى حياته من شأن غير أن يكرر نفسه. ولكن لو تابعنا تنقيبنا إلى نهايته لوجدنا أن ما وسم بميسمه تطور الكائنات المتعضِّية هو تاريخ تطور الكرة الأرضية نفسها وتطور علاقتها بالشمس. فالغرائز العضوية المحافظة تمثَّلت كل ما فُرض عليها من تبدُّل في مجرى حياتها، واختزنت هذه التبدلات كيما تعيد تكرارها بحيث أنها باتت تعطينا انطباعاً كاذباً بأنها قوى تنزع نحو التغيير والتقدم مع أنها لا تسعى في واقع الأمر إلا إلى البلوغ إلى هدف قديم، متوسلةً إلى ذلك بما تقادم من السبل وما استجدّ في آن معاً. بل قد يكون في مستطاعنا أن نحدد ما طبيعة

٤ ـ حاشية أضيفت سنة ١٩٢٥: لا يغيبنَّ عن القارئ أن ما سيلي هو بمثابة متابعة لفكرتنا إلى حدودها القصوى، وأننا لن ندخل عليها ما هو لازم من التعديل والتحديد إلا عندما سيأتي الدور للكلام عن الغرائز الجنسية.



الهدف النهائي الذي يصبو إليه كل كائن عضوي. فلو كان هدف الحياة حالة لم يسبق قط الوصول إليها، لكان في ذلك تناقض مع الطبيعة المحافظة للغرائز. وإنما ينبغي بالأحرى أن يكون هذا الهدف حالة قديمة، حالة أولية سبق للكائن الحيّ أن تراجع عنها، وهو لا يفتأ ينزع إلى الرجوع إليها سالكاً كل الدروب الملتوية التي سلكها تطوره نفسه. ولئن يكن مباحاً لنا أن نسلّم، بحكم التجربة، بحقيقة لا تقبل استثناء، وهي أن كل كائن حيّ يكون مآله لا محالة إلى الموت وإلى النكوص إلى الحالة اللاعضوية، وذلك نتيجة لأسباب كامنة في ذاته، ففي وسعنا في هذه الحال أن نقول: **إن هدف كل حياة هو الموت**، وإذا عدنا إلى الوراء أن نضيف القول: **إن الكائن غير الحيّ قد وُجد قبل الكائن الحيّ.**

لقد قُيِّض ذات يوم لخصائص الحياة أن تظهر في المادة الجامدة بفعل قوة تخفى علينا إلى اليوم طبيعتُها. وقد تكون عبارةِ عن سيرورة تشبه تلك التي ستجعل الشعور ينشأ في زمن لاحق في طبقة معيَّنة من المادة الحية. ومنذئذ راح التوتر الطارئ على المادة التي كانت إلى ذلك الحين جامدة لا حياة فيها ينزع إلى التضاؤل. وعلى هذا النحو ظهرت أولى الغرائز، أي غريزة الرجوع إلى المادة غير الحية. وقد كان من اليسير عهدئذ أن تؤول المادة الحية إلى الموت. ويلوح أنه ما كان لها في ذلك الطور أن تقطع من مسيرة الحياة سوى شوط قصير تحدِّد لها اتجاهَه البنيةُ الكيماوية للحياة الغضة العود. ومن المحتمل أن المادة الحية كانت تعود إلى التخلّق من جديد بلا انقطاع لتأخذ طريقها بغدئذ إلى الموت بسهولة. وقد استمر الأمر على هذا المنوال حقبة مديدة من الزمن إلى أن حدث تبدُّل مهمّ في طبيعة الشروط الخارجية ذات التأثير الحاسم، مما أرغم المادة التي كانت لا تزال على قيد الحياة على الانحراف أكثر فأكثر عن مجراها الحيوي الأصلي، وعلى سلوك مسارب ملتوية لبلوغ هدفها الذي هو الموت. وما هذه المسارب على الطريق المفضي إلى الموت، التي كانت غرائز الحفاظ على الذات تستمسك بها وتتشبث، إلا الصورة عينها التي تتبدى لنا فيها ظاهرات الحياة. ذلك أننا إذا تمسَّكنا بما نذهب إليه من أن الغرائز هي دوماً وحصراً من طبيعة محافظة، لا يعود أمامنا من سبيل إلى افتراض غير هذه الفرضية فيما يتعلق بأصل الحياة وهدفها.



ومهما بدت غريبة هذه النتائج التي وصلنا إليها، فلن تكون أقلّ غرابة منها تلك التي يقودنا إليها تصورنا عن الزمر الكبيرة الأخرى من التظاهرات الحيوية للكائنات المتعضِّية. والغريب في الأمر أن تصورنا عن غرائز المحافظة على الذات الذي نعزوه إلى كل كائن حيّ يتعارض مع المسلَّمة القائلة إن الحياة الغريزية بجملتها تنزع إلى طلب الموت. وعلى ضوء ذلك تتلاشى أو تكاد الأهمية النظرية لغرائز الحفاظ على الذات والاعتزاز بالذات وبقوتها، إذ لا تعدو في هذه الحال أن تكون غرائز جزئية تسعى إلى أن تضمن للمتعضِّية الحية مسارها الخاص إلى الموت، وإلى أن تستبعد من سُبل العودة إلى الحالة اللامتعضِّية كل ما ليس متأصلاً فيها من البداية. أما ما يعزى إلى المتعضِّية الحية من نزوع إلى توكيد ذاتها وتحدي العالم بأسره، بكل ما يلابس مثل هذا النزوع من غموض ومن انقطاع الصلة بالواقع الفعلي للأشياء، فلنقلها بصراحة إننا في غنى عنه(٥). ومن ثم لا يبقى أمامنا من خيار إلا أن نسلِّم بأن الكائن المتعضِّي لا يبغي أن يموت إلا بطريقته الخاصة، وبأن تلك الغرائز التي تتولى حراسة حياته هي عينها التي كانت في أصلها رُسُلاً للموت. ومن هنا المفارقة التالية: إن الكائن المتعضِّي الحيّ يتصلب ويتشبَّث بكل طاقته في مواجهة الإثارات (الأخطار) التي قد يكون من شأنها أن تساعده على بلوغ هدفه الحيوي بأقصر طريق ممكن. بيد أن سلوكاً كهذا هو بالتحديد ما يتميَّز به النزوع الغريزي المحض بالتعارض مع النزوع العقلي(٦).

لكن لنستدرك فنقول: إن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك. فالغرائز الجنسية التي تفرد لها نظرية الأعصبة مكاناً على حدة تتبدى لنا مختلفة عن ذلك كل الاختلاف. فالمتعضِّيات الحية لا تخضع جميعها للإكراه الخارجي الذي من شأنه أن يدفع بها إلى مزيد من التنامي والتطور باستمرار. فالعديد منها قد أفلح في البقاء إلى يومنا هذا في مستواه المتدني؛ وما زلنا نصادف إلى يومنا هذا أيضاً

٥ ـ قد يكون مباحاً لنا هنا أن نتأول هذه القولة الأخيرة من جانب فرويد على أنها نقدة لفرضية ألفريد آدلر عن جدلية توكيد الذات والتحدي. «م».

٦ ـ حاشية كانت وردت في الطبعات السابقة لعام ١٩٢٥: «سوف نصحح لاحقاً هذه الرؤية المتطرفة لغرائز المحافظة على الذات».



كائنات حية ما زال أكثرها - إن لم نقل كلها - يشبه الأشكال الضاربة في القدامة من النباتات والحيوانات العليا. كذلك إن المتعضِّيات الأولية التي تدخل في تكوين الجسم المعقَّد لكائن حيّ من مرتبة أعلى لا تمرّ جميعها بكل التطور الذي يقود في نهاية المطاف إلى الموت الطبيعي. فبعضها، وعلى سبيل المثال الخلايا الرشيمية، تحتفظ على ما يبدو بالبنية الأصلية للمادة الحية ولا تلبث، بعد مرور بعض الوقت، أن تنفصل عن جملة الكيان العضوي حاملة معها كل ما تمثلته وما اكتسبته في آن معاً من الاستعدادات الغريزية الوراثية. ولعلها تدين لهاتين الخاصيتين تحديداً بوجودها المستقل. ومتى ما توفرت لها شروط مؤاتية تشرع بالنمو والتطور، أي أنها تكرر عين الدورة التي تدين لها بوجودها، وهو ما يتيح لجزء من مادتها أن ينجز بدوره تطوره بلوغاً إلى غايته، بينما يعاود جزء آخر منها الرجوع إلى الطور الأول من النمو والتطور في شكل رسابة رشيمية جديدة. وعلى هذا المنوال تنشط هذه الخلايا الرشيمية في اتجاه معاكس للمسار نحو موت المادة الحية وتفلح في الحصول لنفسها على ما لا بدّ أن يتبدى لنا وكأنه ضرب من قدرة على الخلود حتى وإن كان الأمر لا يتعدى في حقيقته إطالة مسافة الطريق الذي يتأدى بها إلى الموت. وتستوقفنا هنا واقعة عظيمة الدلالة: فالخلية الرشيمية تجد نفسها مضطرة، كيما يتوفر لها الشرط الضروري والقوة للاضطلاع بعبء تلك الوظيفة، إلى الالتحام مع خلية أخرى تشبهها وتختلف عنها في آن معاً.

أما الغرائز التي ترعى أقدار هذه المتعضِّيات البدائية المؤهلة للبقاء على قيد الحياة بعد هلاك الكيان العضوي المفرد، وتضمن لها الأمان ما دامت لا تمتلك القدرة على الدفاع عن نفسها في مواجهة إثارات العالم الخارجي، وتدفع بها إلى التلاقي والتلاحم مع الخلايا الرشيمية الأخرى، إلخ، أقول: أما هذه الغرائز فهي التي تؤلف مجموعة الغرائز الجنسية. وهي غرائز محافظة مثلها مثل غيرها من الغرائز لأن وظيفتها أن تردّ المادة الحية إلى أطوارها السابقة، ولكنها تكون أيضاً أشدَّ ميلاً إلى المحافظة لأنها تتميَّز بقدرة أكبر على مقاومة المؤثرات الخارجية، وكذلك، وعلى الأخصّ، لأنها تصون الحياة نفسها على مدى زمني



أطول[٧]. وتلك هي بحصر معاني الكلمة غرائز الحياة؛ فشأنها أن تعارض الهدف الذي تنشده الغرائز الأخرى التي لا يكون لها من مآل سوى الموت بحكم وظيفتها بالذات. وإنما على هذا النحو ينهض بينها وبين سائر الغرائز تعارض تأتّى لنظرية الأعصبة أن تدرك من وقت مبكر ما له من أهمية. إذ يلوح وكأن حياة المتعضِّية الحية تخضع لإيقاع متباين: فثمة مجموعة من الغرائز تندفع إلى الأمام لتبلغ في أبكر وقت ممكن إلى الهدف النهائي للحياة، بينما تكرّ المجموعة الأخرى، في مرحلة معيَّنة من المسار نفسه، إلى الوراء لتعاود، عند نقطة معيَّنة، سلوكه من جديد ولتطيل بالتالي أمده. لكن على الرغم أن الماهية الجنسية والفارق بين الجنسين ما كان لهما، بكل تأكيد، وجود في بدايات الحياة، فإنه ليس من المستبعد مع ذلك أن تكون الغرائز، التي تستأهل الوصف لاحقاً بأنها جنسية، قد شرعت بأداء دورها منذ بداية المسار الأول، كما أنه ليس من المستبعد أن تكون قد بدأت بممارسة فاعليتها في مناوأة فاعلية «الغرائز الأنوية» منذ ذلك الحين، وليس لاحقاً[٨].

فلنتوقف هنا لنعود نحن أيضاً أدراجنا إلى الوراء فنتساءل عما إذا كان ثمة أساس يؤيِّد ما ذهبنا إليه من تأملات. أفصحيح ما قلناه من أنه لا وجود، **باستثناء الغرائز الجنسية**، لغرائز أخرى غير تلك التي تسعى إلى العودة إلى حالة سابقة، ومن أنه لا وجود لغرائز تسعى إلى الوصول إلى حالة لم يسبق لها أن وصلت إليها من قبل؟ الحق أنني لا أعرف في العالم العضوي مثالاً أكيداً واحداً من شأنه أن ينقض الخاصية التي عزوناها إلى الغرائز. وبديهي أنه يستحيل علينا أن نؤكد أنه توجد في العالم الحيواني أو النباتي غريزة جامعة من شأنها أن تدفع في اتجاه درجة أعلى من التطور، حتى وإن يكن من المتعذر علينا أن نماري في وجود مثل

٧ ـ حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣: «ومع هذا، إنما إلى هذه الغرائز وحدها نستطيع أن نعزو نزوعاً باطنياً نحو «التقدم» ونحو درجة أعلى من التطور (انظر لاحقاً) ».

٨ ـ حاشية أضيفت سنة ١٩٢٥: «ينبغي أن يكون مفهوماً أن مصطلح «الغرائز الأنوية» يُستخدم هنا، وتبعاً للسياق، كمصطلح مؤقت يرتدّ في أصله إلى ما كنا نعتمده من مفردات في بدايات التحليل النفسي».



هذا الاتجاه. بيد أننا لا نكون من جهة أولى نعبّر إلا عن رأي شخصي عندما نعتبر مرحلة بعينها من التطور أعلى من مرحلة أخرى، كما أن علم الأحياء من جهة ثانية يُظهر لنا أن درجة أعلى من التطور في نقطة بعينها غالباً ما يقابلها أو يكافئها في نقطة أخرى ظهور أشكال متخلّفة.

كذلك قد يتأتّى لنا أن نتعرّف إلى عدد غير قليل من الأشكال الحيوانية التي تكون قد عرفت في شبابها المبكر تطوراً نكوصياً نحو أشكال متخلفة. وفي مثل هذه الحال لا يتعذر أن يكون المستوى العالي من التطور وظهور أشكال متخلفة في آن معاً هما نتيجة لفعل قوى خارجية تدفع باتجاه التكيُّف، وقد لا يكون من دور للغرائز في الحالتين كليتهما سوى المحافظة، كمصدر داخلي للذة، على التغيُّر الذي فرض نفسه[٩].

وقد يكون من العسير على العديدين منا أن يتخلوا عن إيمانهم بأن في الإنسان ذاته غريزة تحدو به إلى السعي إلى الكمال، وأن هذه الغريزة هي التي هيأت له الوصول في أيامنا هذه إلى ذلك المستوى العالي من التقدم العقلي والتسامي الأخلاقي، وهي التي تبيح لنا أن نتوقع أن تقوده وتسدِّد خطاه ليصير إنساناً أعلى[١٠]. بيد أنني لا أعتقد بوجود مثل هذه الغريزة الداخلية ولست أرى من سبيل لمداورة مثل هذا الوهم المستطاب على النفس. ولا يتراءى لي أن ما عرفه الإنسان من تطور إلى يومنا هذا يحتاج إلى تفسير آخر غير ذاك الذي يفسِّر به تطور الحيوان، كما أن ما تظهره قلة من بني الإنسان من نزوع جامح إلى التقدم في مراقي الكمال قابل للفهم والتفسير دونما صعوبة باعتباره نتيجة للكبت الغريزي الذي على أساسه قام كل ما هو سام ورفيع في الحضارة الإنسانية. ذلك أن الغريزة المكبوتة لا تفتأ دوماً وأبداً تنزع إلى الإشباع التام الذي قوامه تكرار

٩ ـ لقد أمكن لفيرنزي أن يصل، من طريق مغاير، إلى مثل هذا التصور في مبحثه: **«مراحل تطور حسّ الواقع»** في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، العدد الأول، ١٩١٣، ص ١٣٧. قال: «لو تابعنا هذه الفكرة إلى نهايتها المنطقية لقادتنا إلى التآلف مع الفكرة القائلة بأن ثمة نزعة إلى التكرار أو بالأحرى إلى النكوص تهيمن على الحياة العضوية، على حين أن النزعة إلى التطور التدريجي وإلى التكيُّف، إلخ، لا تتفعَّل وتنشط إلا بتأثير إثارات خارجية».

١٠ ـ SUPERMAN.



لخبرة إشباعية أولية؛ وليس من شأن أي تشكيل بديل أو أي ردّ فعل أو أي إسماء أن يكون كافياً لإلغاء التوتر الغريزي الدائم الإلحاح؛ والفارق بين اللذة الإشباعية المطلوبة وبين اللذة التي يمكن التوصل إليها فعلياً هو على ذلك العامل الذي لا يفتأ يفعل فينا ويدفع بنا إلى الأمام ولا يسمح لنا أبداً بالتوقف عند حدّ معيّن كما لو أنه، على حدّ قول الشاعر، مهماز «يحدو بنا دوماً بلا وهن ولا استكانة إلى الأمام» (مفيستو في **فاوست**، الفصل الأول، المشهد ٤)[١١]. أما طريق الرجوع إلى الوراء الذي من شأنه أن يتأدى إلى الإشباع التام فتسدّه، كقاعدة عامة، المقاومات التي تبقي على ضروب الكبت قائمة بحيث لا يبقى ثمة من مخرج آخر سوى التقدم في طريق التطور المقابل الذي لا يزال مفتوحاً، وهذا دونما أمل أصلاً في الاقتدار على إنجاز العملية والوصول إلى الهدف المنشود. وتقدِّم لنا السيرورات الفاعلة في نشأة الرهاب الوسواسي، الذي لا يعدو أن يكون محاولة للهرب من إشباع غريزي، أنموذجاً للكيفية التي تنشأ بها «غريزة طلب الكمال»، هذه «الغريزة» التي يتعذَّر علينا أصلاً أن نعزوها إلى جميع بني الإنسان. وصحيح أن الشروط الدينامية لنشوئها ماثلة لدى جميع الناس بصفة عامة، لكن الشروط الاقتصادية لا تتيح لها أن تتظاهر إلا في حالات نادرة.

ولتكن منا أخيراً إشارة مقتضبة إلى أنه ليس من المستبعد أن تنوب مناب «غريزة طلب الكمال»، التي يتعذَّر علينا القبول بها، مساعي إيروس[١٢] إلى إعادة تجميع المادة العضوية في وحدات أكبر فأكبر. وقد يكون من شأن هذه المساعي، بالتضافر مع مفاعيل الكبت، أن تفسِّر لنا الظاهرات التي تعزى إلى الغريزة المذكورة[١٣].

١١ ـ غوته. «م».

١٢ ـ إيروس: إله الحب عند الإغريق. «م».

١٣ ـ هذه الفقرة الأخيرة أضيفت عام ١٩٢٣.




مكتبة
الفكر الجديد

ـ ٦ ـ

لئن نكن قد أقمنا حتى الآن تعارضاً حاداً باتراً بين «الغرائز الأنوية» والغرائز الجنسية، وقلنا إن الأولى تدفع نحو الموت والثانية نحو مواصلة الحياة، فليس من شأن هذه النتائج أن تكون لنا نحن أنفسنا باعثة على الرضى، وهذا من نواحٍ عدة. أضف إلى ذلك أنه ما كان لنا أن نعزو إلا إلى الفئة الأولى من الغرائز الطابع المحافظ، بله النكوصي، الملازم للدافع القهري إلى التكرار. وبالفعل، إن منشأ غرائز الأنا يكمن، طبقاً لفرضيتنا، في ما يعتمل من حياة في المادة الخامدة، وفي مسعى هذه الغرائز إلى استعادة حالة الخمود. أما الغرائز الجنسية، التي لا مراء في أنها تعيد توليد حالات أولية من الكينونة الحية، فتسعى بالمقابل بكل الوسائل الممكنة إلى البلوغ إلى الهدف التالي: التحام خليتين رشيميَّتين تتميَّز كل منهما بخصائص معيَّنة تختلف عن تلك التي تتميَّز بها الأخرى. وإذا لم يتحقق هذا التلاحم ماتت الخلية الرشيمية مع سائر عناصر المتعضِّية المتعددة الخلايا. وما لم يتوفر هذا الشرط فلا سبيل أمام الوظيفة الجنسية إلى إطالة أمد حياة الخلية وإلى إضفاء مسحة من الخلود عليها. ولكن ما هو، في هذه الحال، الحدث المهمّ في تطور المادة الحية كما يكرره التناسل الجنسي أو مقدمته التي تتمثل بتزاوج متعضِّيتين من المتعضِّيات الأحادية الخلية؟ لسنا نعرف عن ذلك شيئاً؛ ولهذا قد يخامرنا شعور بالراحة إذا ما تهاوى بنيان فرضيتنا وثَبُت غلطها. وعندئذ يغدو التعارض بين غرائز الأنا (أو الموت) والغرائز الجنسية بحكم اللاغي ويفقد الدافع القهري إلى التكرار ما كنا عزوناه إليه من أهمية.

لنعد أدراجنا إذاً إلى فرضية كنا أوردناها في سياق استدلالنا، ولنفعل ذلك بأمل أن تتوفر لنا القدرة على دحضها دحضاً تاماً. فقد كنا استخلصنا جملة بكاملها من الاستنتاجات استناداً إلى ما افترضناه من أن كل كائن حيّ مآله حتماً



إلى الموت بفعل أسباب داخلية. ولئن فرضنا هذا الفرض بدون أن نطرح على أنفسنا مزيداً من الأسئلة، فهذا على وجه التحديد لأنه ما كان يتبدى لنا أنه فرض بحقّ معنى الكلمة. فهو ما كان إلا تعبيراً عن فكرة مألوفة لدينا يؤيدنا في ذلك شعراؤنا. ولعلنا ما تبنينا مثل ذلك الاعتقاد إلا لأن فيه بعض العزاء والسلوان. فلئن لم يكن ثمة مناص من أن نموت ومن أن نفقد أيضاً بالموت من هم أعزّ الأشخاص إلى قلوبنا، فقد يطيب لنا أن نكون خاضعين لقانون طبيعي محتوم لا رادّ له، أي لتلك **الأنانكيه** الكبرى[١]، بدلاً من أن نكون خاضعين لصدفة عابرة ما كان يتعذر علينا، ربما، أن نفلت من شباكها. لكن ليس من المستبعد أن يكون حتى هذا الاعتقاد بالحتمية الداخلية للموت وهماً من جملة الأوهام التي اصطنعناها لأنفسنا «كيما نتحمل عبء الوجود»[٢]. ومن المحقق أن هذا الاعتقاد لم يكن له من وجود في البداية: ففكرة «موت طبيعي» كانت مجهولة من قبل الأقوام البدائية، إذ كانت هذه الأقوام تعزو كل ميتة تطرأ بين ظهرانيها إلى تأثير عدو أو روح خبيث. فلنتحول إذاً بلا تردد نحو علم الأحياء لنضع ذلك الاعتقاد على محك الامتحان.

وما قد يدهشنا في هذه الحال أن نجد علماء الحياة على خلاف فيما بينهم حول مسألة الموت الطبيعي، بل أن نرى أن مفهوم الموت بصفة عامة يستعصي عليهم. وبديهي أن الأجل المتوسط المتاح للحياة لدى الحيوانات العليا من شأنه أن يؤيد ردّ الموت إلى أسباب داخلية؛ لكن ثمة معطى آخر من شأنه أن يطعن في صحة هذا الاعتقاد وهو أن أعمار بعض الحيوانات الكبيرة وبعض أنواع الأشجار العملاقة تمتدّ آجالاً طويلة ما أمكن إلى اليوم حسابها. وطبقاً لما يذهب إليه فلهلم فليس[٣] من تصور واسع المدى فإن جميع الظاهرات الحيوية للكائنات المتعضِّية -

---

١ - الأنانكيه: الضرورة أو تجسيد القدر في الميتولوجيا الإغريقية. «م».

٢ - من مسرحية فريدريش شيلر: **خطيبة مسّينا**. هامش الترجمة الفرنسية.

٣ - فلهلم فليس: فلهلم فليس: طبيب ألماني (١٨٥٨ - ١٩٢٨). اختص بأمراض الأنف والأذن والحنجرة وحاول أن يربط بين أمراض الأنف والأعضاء التناسلية. دارت بينه وبين فرويد مراسلات غزيرة ابتداء من عام ١٨٨٧. ولكن فليس توقف عن مراسلة فرويد في عام ١٩٠٢ متهماً إياه بأنه انتحل أفكاره بخصوص الجنسية الثنائية، فأحرق فرويد على الأثر جميع رسائل صديقه القديم واتهمه بالهذاء الهذياني



بما فيها ظاهرة الموت بكل تأكيد ـ تكون مرتبطة باستكمالها لفترات محددة من العمر تتجلى فيها تبعية نوعين من المادة الحية، أحدهما مذكر والثاني مؤنث، للسنة الشمسية. ومع ذلك، عندما نعاين مدى السهولة التي يمكن بها لقوى خارجية أن تمارس تأثيرها لتعدِّل تاريخ تظاهر الظاهرات الحياتية، ولا سيما في عالم النبات، بحيث تقدِّم أو تؤخِّر مواسمها، لا يمكننا إلا أن نقرّ بما تشكو به صيغة ف. فليس من تصلُّب، أو على الأقل أن نشكّ في أن تكون القوانين التي وضعها هي وحدها الفاعلة.

وتسترعي منا هنا أكبر الانتباه الكيفية التي عالج بها أ. فايزمان في بحوثه[٤] موضوع مدة الحياة والموت لدى الكائنات المتعضِّية. فهذا الباحث هو الذي أجرى التمييز بين نصف فانٍ ونصف خالد في المادة الحية. فالنصف الفاني هو الجسم بالمعنى الضيق للكلمة، أو البدن، وهو وحده الخاضع للموت الطبيعي، بينما الخلايا الرشيمية غير قابلة للفناء من حيث طاقتها الكامنة، وذلك بقدر ما هي قادرة، فيما إذا واتتها الظروف، على النمو والتطور ليتولد منها فرد جديد، أو بعبارة أخرى لتحيط نفسها ببدن جديد[٥].

إن ما يجذبنا في هذا التصور تشابهه اللامتوقع مع التصور الذي توصلنا إليه عن طريق مختلف كل الاختلاف. ففايزمان، الذي يدرس المادة الحية من المنظور المورفولوجي[٦]، يفرِّق في هذه المادة بين جانب تكويني مكتوب عليه الموت هو البدن ـ أي الجسم خلا المادة الحاملة للخصائص الجنسية والوراثية ـ وجانب خالد

الذي يخفي وراءه ميولاً جنسية مثلية تجاهه. أما رسائل فرويد فقد بيعت لتاجرٍ سقَطٍ فاشترتها منه ماري بونابرت، التي كان فرويد قد تولى تحليلها، ورفضت تسليمه إياها خوفاً من أن يحرقها. وقد طبعت لأول مرة عام ١٩٨٥، ثم صدرت طبعة جديدة منها غير مشذّبة عام ٢٠٠٦. «م».

٤ ـ أ. فايزمان(*): **حول أمد الحياة**، ١٨٨٢، **حول الحياة والموت**، ١٩٨٢، **الأثلة الرشيمية**، ١٨٩٢، إلخ.

(*) أوغست فايزمان: طبيب وعالم بيولوجي ألماني (١٨٣٤ ـ ١٩١٤). اشتهر بنظريته عن استمرارية الأثلة الرشيمية، وهي نظرية تنصّ على أن الصفات التي يكتسبها الفرد لا يمكن أن تُتناقل وراثياً. «م».

٥ ـ **حول الحياة والموت**(*).

(*) كتاب أصدره فايزمان عام ١٨٨٤. «م».

٦ ـ المورفولوجيا: علم بنية الكائنات الحية وشكلها الخارجي. «م».



يتمثل بالتحديد بتلك الأثَلة[٧] الرشيمية العاملة في خدمة حفظ النوع والتناسل. أما من جهتنا نحن فإن ما يعنينا ليس المادة الحية، بل القوى الفاعلة فيها، وهذا ما قادنا إلى التمييز بين ضربين من الغرائز: تلك التي تسعى إلى استياق الحياة إلى الموت، والغرائز الأخرى، أعني الغرائز الجنسية، التي تنزع دوماً وأبداً إلى تجديد الحياة والتي تصيب في ذلك فلاحاً. وهذا أشبه ما يكون بمرادف ديناميكي لنظرية فايزمان المورفولوجية.

بيد أن هذا الظاهر من التوافق يتبدد حالما نتوقف عند الكيفية التي يحسم بها فايزمان مشكلة الموت. فهو لا يطبِّق تمييزه بين البدن الفاني وبين الأثلة الرشيمية الخالدة إلا على المتعضِّيات المتعددة الخلايا. أما الكائنات الحية الأحادية الخلية فلا يكون فيها الفرد قد تميَّز بعد عن الخلية التناسلية[٨]. وعليه، إنه يعتبر أن المتعضِّيات الأحادية الخلية خالدة بالقوة[٩]، بينما لا يطرأ الموت إلا لدى المتعضِّيات المتعددة الخلايا. وموت هذه الكائنات الحية العليا هو في الأرجح موت طبيعي، موت ناجم عن أسباب داخلية، ولكن بغير ما ارتباط بأية خاصية أصلية للمادة الحية[١٠]، ولا سبيل إلى اعتباره ضرورة لا محيص عنها وضاربة الجذور في ماهية الحياة[١١]. وإنما الموت بالأحرى ضرب من تسوية مناسبة، تعبير عن التكيُّف مع الشروط الخارجية للحياة؛ ذلك أنه، بعد أن تنفصل خلايا الجسم إلى بدن وإلى أثلة رشيمية، يغدو الامتداد اللامحدود للحياة الفردية ترفاً لا جدوى منه. ومتى ما ظهر هذا التمايز لدى المتعضِّيات المتعددة الخلايا يغدو الموت ممكناً وذا جدوى. ومنذئذ يأخذ البدن لدى الكائنات الحية العليا طريقه إلى الموت في فترة محددة ولأسباب داخلية، بينما تبقى المتعضِّيات الأحادية الخلية

٧ ـ الأثلة: PLASMA: هي في البيولوجيا الجزء السائل من الدم الذي فيه تسبح العناصر الأخرى التي يتألف منها الدم. «م».

٨ ـ **حول أمد الحياة**، ص ٣٨.

٩ ـ بالقوة: بالمعنى المنطقي للكلمة، أي عكس «بالفعل». «م».

١٠ ـ **الحياة والموت**، الطبعة الثالثة، ص ٦٧.

١١ ـ **حول الحياة والموت**، ص ٣٣.



خالدة. أما التناسل فلا يظهر بالمقابل مع ظهور الموت، بل هو يمثّل بالأحرى خاصية أولية للمادة الحية مثله مثل النمو الذي هو منه مشتقّ. والحياة، منذ أن ظهرت على وجه الأرض، ما عادت تعرف انقطاعاً[١٢].

وليس عسيراً علينا أن نلحظ أنه ليس ثمة جدوى تجتدى فيما لو سلَّمنا بأن موت الكائنات العليا هو محض موت طبيعي. فلو كان الموت خاصية ما اكتسبتها الكائنات الحية إلا في زمن متأخر لما عاد ثمة مجال للكلام عن ظهور غرائز الموت مع ظهور الحياة على وجه الأرض. إذ من الممكن في مثل هذه الحال أن يكون مردّ موت المتعضِّيات المتعددة الخلايا إلى أسباب داخلية من جراء قصور في تمايزها أو خلل في أيضها[١٣]؛ وهذا أمر عديم الأهمية بالنسبة إلى الموضوع الذي يشغلنا هنا. ولكن ليس لنا أن نماري في أن تصوراً كهذا عن أصل الموت يبقى أوثق صلة بالكيفية التي يتصوّره بها الناس في العادة من فرضيتنا التي لا تخلو من غرابة عن «غرائز الموت».

أما ما أثارته آراء فايزمان من نقاش فلم يتأدَّ من أي ناحية من النواحي في رأيي إلى نتائج حاسمة[١٤]. فالكثيرون من الكتاب عادوا إلى الأخذ بوجهة نظر غوته (١٨٨٣)[١٥] الذي رأى في الموت نتيجة مباشرة للتناسل. فهارتمان لم يجعل

---

١٢ ـ **حول الحياة والموت**، الخاتمة.

١٣ ـ الأيض METABOLISME: عملية التمثل الغذائي والبناء والهدم أو التجدد والدثور في الكائن الحي. «م».

١٤ ـ ماكس هارتمان(*): **الموت والتناسل**، ١٩٠٦. ألكسندر ليبشوتز(**): **لماذا سنموت؟**، ١٩١٤. فرانز دوفلاين(***): **مشكلة الموت والخلود في عالم النبات والحيوان**.

(*) ماكس هارتمان: عالم نبات ألماني (١٨٧٦ ـ ١٩٦٢). «م».

(**) ألكسندر ليبشوتز: طبيب ألماني من أصل لاتيفي (١٨٨٣ ـ ١٩٨٠). درّس في إستونيا والتشيلي حيث أقام إلى نهاية عمره. ألّف ٢٢ كتاباً، أكثرها في علم الغدد والسرطانيات. حائز على الجائزة التشيلية القومية للعلوم. «م».

(***) فرانز دوفلاين: عالم نبات ألماني (١٨٧٣ ـ ١٩٢٤). تخصص في دراسة المتعضِّيات الأحادية الخلية. وعدا كتاباته في الطبيعيات وعلم الحيوان، ترك مذكرات عن رحلاته إلى مقدونيا وجزر الآنتيل وآسيا الشرقية. «م».

١٥ ـ غوته: **حول أصل الموت**. هامش الترجمة الفرنسية.



خاصية الموت إنتاج «جثة»، أي شطر آل إلى الموت من المادة الحية، بل عرَّفه بأنه «انتهاء نموّ الفرد». وبهذا المعنى تكون حتى المتعضِّيات الأحادية الخلية كائنات فانية، يتزامن لديها الموت مع التناسل، ولو أن من شأن هذا الأخير أن يحجب واقعة الموت بقدر ما عن العيان بالنظر إلى أن مادة المتعضِّية الوالدة تنتقل مباشرة إلى وليدها الفتيّ (المصدر الآنف الذكر، ص ٢٩).

وما لبث الباحثون أن اتجهوا إلى وضع نظرية خلود المادة الحية لدى المتعضِّيات الأحادية الخلية موضع الاختبار تجريبياً. فقد عمد أمريكي يدعى وودروف[١٦] إلى زرع نقاعية هدبية من نوع الأوالي[١٧] تتناسل عن طريق الانشطار الثنائي. وقد واصل تعقّبها إلى الجيل ٣٠٢٩ ـ حيث أوقف تجربته ـ بعزله في كل مرة أحد مواليد الانشطار الثنائي وبوضعه في حوض ماء جديد. وقد كان هذا المولود البعيد عن النقاعية الأولى لا يقلّ نضارة عن سلفه ولا يبدي عن أي علامة من علامة الشيخوخة أو الانحطاط. وعلى هذا النحو، وبقدر ما أن هذه الأرقام تقوم بذاتها مقام الدليل والبرهان، يكون قد ثبت تجريبياً خلود المتعضِّيات الأحادية الخلية.

بيد أن باحثين آخرين توصلوا إلى نتائج مغايرة. فقد وجد موبا[١٨] وكالكنر[١٩] وآخرون، أن تلك النقاعيات، خلافاً لما ذهب إليه وودروف، تضعُف ويصغر قدّها ويطرأ خلل جزئي على تنظيمها وتموت في خاتمة المطاف إذا لم تتعرض لمؤثرات تجديدية. ولئن صحّ ذلك فهذا معناه أن المتعضِّيات

١٦ ـ لوراند لوس وودروف: عالم حيوان ونبات أميركي (١٨٧٩ ـ ١٩٤٧). له عشرات من التجارب والدراسات المجهرية، وكتاب عن **تاريخ البيولوجيا**. «م».

١٧ ـ الأوالي PROTOZOA: متعضِّيات أحادية الخلية لا تُرى بالعين المجرَّدة وتعيش في الأوساط المائية المالحة أو العذبة أو كذلك في الدم. «م».

١٨ ـ إميل موبا: بيولوجي فرنسي (١٨٤٢ ـ ١٩١٦). تولى إدارة المكتبة القومية في الجزائر بعد أن كان تخصص في دراسة النقاعيات. درس «الحياة الجنسية» عند المتعضِّيات والبيوض. من مؤلفاته: **مساهمات في الدراسة المورفولوجية والتشريحية للنقاعيات الهدبية**. «م».

١٩ ـ غاري ناتان كالكنر: باحث أميركي متخصص في دراسة النقعيات البحرية (١٨٦٩ ـ ١٩٤٣). من دراساته: **تاريخ النقعيات أثناء انقسامها وتزاوجها**. «م».



الأحادية الخلية تموت بعد مرورها بطور من الشيخوخة مثلها مثل الحيوانات العليا، وهذا ما يتناقض تناقضاً مباشراً مع أطروحة فايزمان الذي ذهب إلى أن الموت هو مكتسب للمتعضِّية الحية متأخر زمنياً.

من جملة هذه المباحث نستخلص واقعتين من شأنهما فيما يبدو أن تقدِّما لنا نقطة استناد. فأولاً إذا أمكن لدويبتين مجهريتين أن تنصهرا واحدتهما مع الأخرى، أي أن «تتزاوجا» قبل أن تكون ظهرت عليهما أي علامة من علامات الشيخوخة، ثم عادتا بعد ذلك إلى الانفصال واحدتهما عن الأخرى من جديد، فإنهما تبقيان في منجى من الشيخوخة، أو بالأحرى تكونان قد «جدَّدتا شبابهما». والحال أن ذلك التسافد كان بالفعل هو رائد التناسل الجنسي لدى مخلوقات أرفع مستوى. وصحيح أنه ما كان يعني بعد تكاثراً تناسلياً، إذ كان يقتصر على المزج في المادة بين فردين اثنين (تزاوج المتعضِّيتين في تجربة فايزمان)، ولكن المفعول التجديدي للتزاوج تُمْكِن الاستعاضة عنه أيضاً ببعض العناصر المثيرة، كأن يغيَّر تركيب السائل المغذي أو ترفع درجة حرارته أو تستحدث فيه هزات. ويذكِّرنا هذا بالتجربة الشهيرة التي قام بها ج. لويب[٢٠] عندما استثار لدى بيوض توتياء البحر، وبواسطة مثيرات كيماوية، عملية انقسام تكاثري لا تحدث في العادة إلا بعد الإخصاب.

ثانياً: من المحتمل، على الرغم من ذلك كله، أن يكون مآل النقاعيات إلى الموت الطبيعي كنتيجة لسيرورتها الحياتية الذاتية. وبالفعل، إن التناقض بين النتائج التي توصَّل إليها وودروف وبين تلك التي توصَّل ليها باحثون آخرون إنما مردّه إلى أن وودروف كان يضع كل جيل جديد في سائل غذائي طازج. ولما امتنع عن فعل ذلك لاحظ، مثله مثل سائر الباحثين من بعده، علامات الهرم عينها لدى

٢٠ ـ جاك لويب: بيولوجي وفيزيولوجي أميركي من أصل ألماني (١٨٥٩ ـ ١٩٢٤). مال في أول أمره، وبعد قراءته لكتابات شوبنهاور، إلى الفلسفة، ثم تخصص في الدراسات البيولوجية، ودرَّس في جامعتي شيكاغو وكاليفورنيا، قبل أن يتولى رئاسة قسم للبحث الطبي أنشئ خصيصاً له في معهد روكفلر. له تجارب مخبرية في البيولوجيا البحرية. ورُشِّح مراراً لجائزة نوبل، ولكن بدون أن يحصل عليها. من مؤلفاته: **دينامية الظاهرات الحياتية**. «م».



الأجيال المتعاقبة. ومن ثم فقد خلص إلى الاستنتاج بأن الدوييات المجهرية قد تأذت من المنتجات الأيضية التي أفرزتها في وسطها السائل. وقد تسنى له عندئذ أن يبيِّن على نحو مقنع أن منتجات أيضها الذاتي هي السبب في هلاك أعقابها. وبالفعل، إن الدوييات المجهرية عينها هي التي يكون مآلها بكل تأكيد إلى الهلاك إذا ما تكاثرت في سائل مشبع بالنفايات المتخلفة عن نوع من الدوييات بعيد القرابة عنها نسبياً. وعلى هذا النحو كانت النقاعية، إذا تركت وشأنها، تموت موتاً طبيعياً من جراء عدم تطهير السائل من منتجات أيضها الذاتي. وليس من المستبعد في واقع الحال أن يكون مآل جميع الحيوانات العليا إلى الموت نتيجة لمثل ذلك التقصير في التنقية.

هنا قد يساورنا شك: هل ثمة فائدة ما نجنيها من محاولتنا التماس حلٍّ لمسألة الموت الطبيعي عن طريق دراسة المتعضِّيات الأحادية الخلية؟ فلعل التنظيم البدائي لهذه الكائنات الحية يحجب عن أنظارنا شروطاً هامة لو وجدت عندها هي أيضاً لما أمكن لنا أن نتعرَّفها إلا لدى حيوانات عليا تأخذ لديها تعبيراً مورفولوجياً. ولو تخلينا عن وجهة النظر المورفولوجية وأخذنا بالمقابل بوجهة نظر دينامية، لتعادل عندنا أن نعرف هل يسعنا أو لا يسعنا أن نثبت أن الموت لدى المتعضِّيات الأحادية الخلية هو موت طبيعي. فالمادة التي يتسنى لنا لاحقاً أن نعرف أنها خالدة لا تكون منفصلة البتة لدى المتعضِّيات الأحادية الخلية عن المادة الفانية. والقوى الغريزية التي تنزع إلى أن تقود الحياة إلى الموت قد يكون متاحاً لها أن تكون فاعلة فيها منذ البداية أيضاً. ولكن يعسر علينا للغاية أن نبرهن برهاناً مباشراً على وجودها بالنظر إلى أن القوى التي تصون الحياة تحجب عنا مفاعيلها. وقد كنا رأينا على كل حال أن ملاحظات المختصين بعلم الأحياء تأذن لنا بأن نفترض وجود تلك السيرورات الداخلية التي تقود إلى الموت حتى لدى المتعضِّيات الأحادية الخلية. ولكن حتى لو ثبت لنا أن المتعضِّيات الأحادية الخلية خالدة بالمعنى الذي ذهب إليه فايزمان، فإن أطروحته التي تجعل من الموت مكتسباً متأخراً لا تصدق إلا على ظاهرات الموت الجلية للعيان ولا تحول دون الأخذ بأي نظرية مغايرة بصدد السيرورات التي تدفع باتجاه الموت. وهكذا نرى أن توقعنا أن



ينكر علم الأحياء علينا الحقَّ في القول بوجود غرائز الموت لم يكن في محلّه. ومن ثم حقٌّ لنا أن نواصل التساؤل عن إمكان وجودها إذا كان لدينا أسباب أخرى للقول بذلك. والتشابه اللافت للنظر بين تمييز فايزمان بين البدن والأثلة الرشيمية وبين تمييزنا بدورنا بين غرائز الموت وغرائز الحياة يبقى قائماً ومحافظاً على كل قيمته.

لنتوقف هنيهة عند هذا التصور الثنائي المنزع عن الحياة الغريزية. فطبقاً لنظرية إ. هيرنغ[٢١] ثمة سيرورتان هما قيد الفعل الدائم في المادة الحية؛ سيرورتان متعارضتان في اتجاههما: واحدتهما تبني وتتمثل، والثانية تهدم وتردّ ما تمّ تمثُّله. فهل ستكون لنا الجرأة على أن نتعرّف في هذين الاتجاهين المتعاكسين اللذين تسلكهما السيرورات الحيوية تفعيلاً لما علمناه عن وجود حاثّتين غريزتين تتمثلان بغريزة الحياة وبغريزة الموت؟ مهما يكن من أمر فليس لنا أن ننكر أننا نكون على هذا النحو قد دخلنا، دونما فطنة منا، إلى مرفأ فلسفة شوبنهاور[٢٢]؛ فهو يذهب إلى أن الموت هو «النتيجة الحقة» للحياة، ومن ثم هدفها وغايتها[٢٣]، على حين أن الغريزة الجنسية هي تجسيد لإرادة الحياة.

ولنتجرأ هنا على التقدم خطوة أخرى إلى الأمام. فمن المسلَّم به عموماً أن اتحاد عدة خلايا في وحدة حيوية ـ وهي خاصية المتعضِّيات المتعددة الخلايا ـ قد أضحى هو الوسيلة لإطالة أمد الحياة. فليس للخلية الواحدة من شأن غير أن تكون وسيلة لإطالة أمد حياة باقي الخلايا، ومن ثم يمكن لمجموعة الخلايا المتحدة أن تواصل الحياة حتى ولو كان مكتوباً على الخلايا المفردة أن تموت. وقد سبق لنا أن رأينا أن التزاوج، أي التلاحم المؤقت لفردين من المتعضِّيات الأحادية الخلية،

٢١ ـ إيفالد هيرنغ: فيزيولوجي وعالم نفس ألماني بروسي (١٨٣٤ ـ ١٩١٨). اشتهر بنظريته عن رؤية الألوان، وتعاون مع جوزف بروير وأكد معه على دور العصب المبهم في التنفس. وكانت له مناظرات مع الفيزيولوجي هرمان هلموتز والفيلسوف وعالم النفس غوستاف فخنر. «م».

٢٢ ـ آرثر شوبنهاور: فيلسوف ألماني (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠). اشتهر بكتابه **العالم كإرادة وكتصور**. عزيت إليه فلسفة تشاؤمية تقول بأن غاية الحياة هي الموت. ولكن ذلك لا يزال موضع نقاش بين المختصين بفلسفته. «م».

٢٣ ـ **حول الغائية الظاهرية في مصير الفرد**، ١٨٥١.



يكون من نتيجته الحفاظ على حياة كل منهما وتجديد شبابهما. وعلى هذا النحو قد يكون متاحاً لنا أن نحاول تطبيق نظرية الليبيدو كما استخلصناها من التحليل النفسي على العلاقة المتبادلة بين الخلايا، وأن نتمثل الأمور على النحو التالي: إن غرائز الحياة أو الغرائز الجنسية الفعالة في كل خلية هي التي تتخذ موضوعاً لها الخلايا الأخرى، فتشلّ جزئياً غرائز الموت الفاعلة فيها، أو فلنقل إنها تشلّ السيرورات التي تنشأ عنها وتُبقي على الخلية بالتالي قيد الحياة. وعلى حين أن خلايا أخرى تقوم بالمهمة عينها بالنسبة إلى هذه الخلايا، فإن خلايا أخرى تضحّي بنفسها في أثناء أدائها لهذه الوظيفة الليبيدوية. أما الخلايا الرشيمية فإنها تسلك مسلكاً «نرجسياً» خالصاً طبقاً للمصطلح الذي نعتمده في نظرية الأعصبة لنسمّي به فعلة الفرد الذي يحتفظ في أناه بتمام شحنته من الليبيدو بدون أن ينفق أي قدر منه في توظيفات موضوعانية. والحال أن الخلايا الرشيمية تحتاج إلى أن تحتفظ لنفسها بكل طاقاتها الليبيدوية وبكل القوة الفعالة لغريزة الحياة لديها: فذلك أشبه ما يكون باحتياطي برسم ما ستبذله لاحقاً من نشاط بنّاء وهامّ. بل إنه ليس من المستبعد أن يكون مباحاً لنا أن نصف الخلايا التي تتولد منها أورام خبيثة تفتك في الجسم الحيّ بأنها بدورها نرجسية. ومعلوم لدينا أن علم الأمراض لا يماري في التسليم بأن بذور تلك الأورام فطرية وبأن خصائصها من طبيعة جنينية. وعلى هذا النحو يكون ما نقوله عن ليبيدو غرائزنا الجنسية متطابقاً مع ما يقوله الشعراء والفلاسفة عن «إيروس» الذي يحفظ ويصون تلاحم كل ما تدبّ فيه الحياة.

هنا تتاح لنا الفرصة لإلقاء نظرة إجمالية على ما أصابته نظريتنا عن الليبيدو من تطور وئيد. فقد فرض علينا أولاً تحليلُ الأعصبة التحويلية أن نقيم تعارضاً بين «الغرائز الجنسية» المتجهة صوب الموضوع، وبين غرائز أخرى لم نتعرف هويتها إلا على نحو ناقص للغاية والتي لم يكن أمامنا مناص من أن نطلق عليها بصفة مؤقتة اسم «الغرائز الأنوية». وقد تعيَّن علينا أن نضع في مقدمة هذه الغرائز تلك التي تعمل في خدمة المحافظة على حياة الفرد. وما كان متاحاً لنا حينئذ، بما كنا توصلنا إليه من معرفة، أن نقيم تمييزات أخرى. والحق أنه ما كان لنا، في مسعانا



إلى توطيد أركان علم نفس صحيح، غير أن نتوسل برؤية تقريبية للطبيعة العامة للغرائز ولخصوصياتها المحتملة. ولم يكن أمامنا مناص من أن نتلمس طريقنا تلمساً في الشق المعتم من علم النفس. فقد كان كل طارق لهذا الميدان يعدد من الغرائز أو من «الغرائز الأساسية» القدر الذي يشاء، ويتلاعب بها على نحو ما كان فلاسفة الطبيعة في اليونان القديمة يتلاعبون بعناصرهم الأربعة: الماء والتراب والنار والهواء. وبما أن التحليل النفسي ما كان بوسعه الاستغناء عن فرضية ما بخصوص الغرائز فقد تمسك، بادئ ذي بدء، بالتمييز الشعبي الذي يصادر عليه تعبير «الجوع والحب»[٢٤]. وهو بذلك ما كان، على الأقل، يضيف عسفاً إلى عسف. فقد أتاح هذا التمييز للتحليل النفسي في تحرّيه في مضمار الأعصبة النفسية أن يشقّ لنفسه طريقاً جديداً. ولم يكن هناك مناص، بطبيعة الحال، من توسيع مفهوم «الجنس» ـ ومعه كذلك مفهوم الدافع الغريزي ـ بحيث يشمل كثيراً من الأمور التي لا تدخل في نطاق الوظيفة التناسلية بحصر معنى الكلمة. ولم يكن ثمة مناص من أن يثير ذلك ضجة كبيرة في الأوساط المتزمتة، سواء منها الذائعة الصيت أو محض المرائية.

وقد خطا التحليل النفسي خطوته الثانية عندما أتيح له أن يقترب أكثر من فهم الأنا السيكولوجي الذي ما تعرَّف فيه إلى ذلك الحين سوى كونه هيئة رقابية وكابتة قادرة على بناء وسائل حمائية وعلى إنتاج تشكيلات على سبيل ردّ الفعل. والحق أن عديدين من ذوي العقول النقدية ومن أصحاب الأذهان المنفتحة على واسع الرؤى كانوا قد اعترضوا على قَصْر مفهوم الليبيدو على طاقة الغرائز الجنسية المتجهة صوب المواضيع. لكن فاتهم أن يطلعونا على المصدر الذي جاءتهم منه هذه الرؤية الأكثر نفاذاً إلى طبيعة الأشياء، كما أنهم ما عرفوا كيف يستخلصون منها استنتاجات يسع التحليل أن يستخدمها. ولما تقدَّمنا بمزيد من

٢٤ ـ قولة مشهورة من قصيدة الشاعر الألماني فريدريش شيلر **حكماء العالم**:

بانتظار أن تتكفل الفلسفة

بتحقيق تلاحم بنية العالم

تتكفل الطبيعة بتسيير الدواليب بالحب والجوع.



الحذر في فهم واقع الأشياء، كان أكثر ما استرعى انتباهنا من المنظور التحليلي النفسي مدى الانتظام من جانب الليبيدو في الانسحاب من الموضوع والتوجُّه نحو الأنا (الانكفاء). وإذ دَرَسَ التحليل النفسي الأطوار المبكرة من تطور الليبيدو لدى الطفل توصَّل إلى فكرة مفادها أن الأنا هو المستودع الحقيقي والأصلي لليبيدو، ومنه يتعيَّن على هذا الأخير أن ينطلق ليصل إلى الموضوع. وعندئذ يحتلّ الأنا مكانه في عداد المواضيع الجنسية، ليحظى من ثم بالاعتراف بأن المحلّ الأول فيها يعود إليه حصراً. وقد أطلقنا نعت النرجسي على الليبيدو الذي يستقّر على هذا النحو في الأنا[٢٥]. وبطبيعة الحال كان هذا الليبيدو النرجسي بمثابة تظاهر لقوة الغرائز الجنسية، بالمعنى التحليلي النفسي للكلمة، ومن ثم فقد وجدننا مرغمين على المماهاة بين هذه الغرائز وبين «غرائز المحافظة على الذات» التي كنا سلَّمنا من البداية بوجودها. وهكذا يكون التعارض الذي أقمناه في الأصل بين الغرائز الأنوية والغرائز الجنسية قد ثبت أنه ليس ما يبرّره. ذلك أن جانباً من الغرائز الأنوية قد تكشّف لنا على أنه من طبيعة ليبيدوية، كما اتضح لنا أن ثمة غرائز جنسية تكون فاعلة، إلى جانب غرائز أخرى، في الأنا. بيد أنه من المسوَّغ لنا أن نقول إنه لا داعي البتة لأن ننبذ شيئاً مما قلناه في الصيغة القديمة من أن العصاب النفسي يرتكز في أساسه على صراع بين الغرائز الأنوية والغرائز الجنسية. وإنما كل المطلوب الآن أن نعيد بكيفية أخرى، أي من وجهة نظر **طبوغرافية**، التمييز بين نوعين من الغرائز بعد أن كنا نعتبر الفارق بينهما كيفياً دونما مزيد من الإيضاح. ويبقى بحكم الثابت أن العصاب التحويلي بصفة خاصة، الذي عليه المدار في مباحث التحليل النفسي، هو محض نتيجة للصراع بين الأنا وبين التوظيف الليبيدوي للموضوع.

بيد أنه يتعيَّن علينا الآن أن نؤكد بمزيد من الإلحاح على الصفة الليبيدوية لغرائز حفظ الذات، وبالأخص ونحن نجازف بخطو الخطوة الجديدة التالية: ألا وهي التعرُّف في الغريزة الجنسية على الفيروس الذي من مهمَّته أن يصون الأشياء طراً،

٢٥ ـ انظر: **من أجل إدخال النرجسية**، ١٩١٤. (انظر ترجمتنا لهذا النص في المجلد الرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م»).



واعتبار ليبيدو الأنا النرجسي نتيجة لانضياف كميات من الليبيدو تتيح لخلايا البدن أن تتزاوج فيما بينها. لكن هنا تحديداً يواجهنا السؤال التالي: إذا كانت غرائز حفظ الذات من طبيعة ليبيدوية هي الأخرى، فقد لا يكون هذا معناه سوى أنه لا وجود البتة لغرائز أخرى غير الغرائز الليبيدوية، أو على الأقل قد لا يكون ثمة وجود لغرائز أخرى قابلة للوقوع تحت إدراكنا غير الغرائز الليبيدوية. ولكن هل هذا معناه أننا سنكون ملزمين في هذه الحال بالتسليم بصحة موقف منتقدينا عندما تراءى لهم من بادئ البدء أن التحليل النفسي يفسّر **كل شيء** بالجنس، أو بصحة موقف المجدِّدين من أمثال يونغ[٢٦] ممن سارعوا إلى استخدام مصطلح الليبيدو بمعنى أنه هو «القوة الغريزية» بصفة عامة؟ فهل ذلك ما يتوجب علينا فعلاً؟

إن استنتاجاً كهذا لا يتوافق البتة مع ما نرمي إليه. فنحن إنما انطلقنا بالأحرى من تمييز حاسم بين الغرائز الأنوية = غرائز الموت وبين الغرائز الجنسية = غرائز الحياة. بل كنا على استعداد لأن ندرج الغرائز المسماة بغرائز حفظ الذات في عداد غرائز الموت لولا أننا أمسكنا عن ذاك وصحَّحنا فيما بعد وجهة نظرنا. والواقع أن تصورنا كان من البداية الأولى تصوراً **ثنائياً**، وهو لا يزال كذلك إلى اليوم وبقدر أكبر من التوكيد منذ أن بتنا نرى أن التعارض ليس بين الغرائز الأنوية والغرائز الجنسية كما كنا قلنا في البدء، وإنما هو بين غرائز الحياة وغرائز الموت. أما نظرية يونغ عن الليبيدو فهي على العكس نظرية واحدية؛ فهو، إذ أطلق اسم الليبيدو على ما يمثِّل في نظره القوة الغريزية الوحيدة، ما كان له إلا أن يستحدث لبساً، وهذا بدون أن ينتزع منا مزيداً من الاقتناع[٢٧]. فنحن نفترض أن الأنا تفعل فيه غرائز أخرى إلى جانب غرائز حفظ الذات الليبيدوية. ولكن هذا يفترض منا أن نكون قادرين على إقامة البرهان على وجودها. والحال أنه مما يدعو

٢٦ ـ كارل غوستاف يونغ: طبيب نفسي سويسري (١٨٧٥ ـ ١٩٦١). عمل مع جانيه وبلولر، ثم مع فرويد، ثم قاد واحداً من أهم انشقاقين عرفتهما حركة التحليل النفسي. تخصص في دراسة تظاهرات «اللاشعور الجمعي»، وهو مفهوم اعترض عليه فرويد. من مؤلفاته: **علم النفس والخيمياء**، **الإنسان ورموزه**، **جدل الأنا واللاشعور**، **ذكريات وأحلام وتأملات**. «م».

٢٧ ـ أضيفت هاتان الجملتان الأخيرتان عام ١٩٢١، هامش الترجمة الفرنسية.



إلى الأسف أن تحليل الأنا ما أحرز إلى حدّ الآن تقدماً كافياً يتيح لنا القدرة على إقامة مثل ذلك البرهان. هذا بالإضافة إلى أن غرائز الأنا الليبيدوية قد تكون لها صلة خاصة مع غرائز الأنا الأخرى التي لا نزال على جهل بها[٢٨]. بل إن التحليل النفسي كان سبق له، حتى قبل أن نتوصل إلى فهم واضح للنرجسية، أن افترض أن «الغرائز الأنوية» اجتذبت إليها مقوِّمات ليبيدوية. غير أن هذه كلها لا تعدو أن تكون احتمالات غير مقطوع بها وليس من شأنها أن يعيرها خصومنا اعتباراً. وإنه لما يدعو إلى الأسف أن التحليل النفسي ما أتاح لنا قط إلى اليوم أن نثبت سوى وجود غرائز ليبيدوية. ولكن ما ذلك بحجة للخلوص إلى استنتاج مفاده أنه لا وجود في واقع الأمر لغرائز أخرى غيرها.

ووسط هذا الغموض الذي لا يزال يلّف نظرية الغرائز لن نكون إلا مخطئين فيما لو انتبذنا أية فكرة قد يكون من شأنها أن تلقي بصيصاً من النور بشأنها. ولقد كانت النقطة التي انطلقنا منها هي التعارض الجليّ البيِّن بين غرائز الحياة وغرائز الموت. والحال أن الحب الموضوعاني يشفّ لنا هو نفسه عن تعارض ثانٍ من ذلك القبيل، هو التعارض بين الحب (الحنّو) والكراهية (العدوان). ولكم نودّ لو كان في مقدورنا عقد أواصر الصلة بين هذين التعارضين وردّ واحدهما إلى الآخر! ولقد كنا اعترفنا من البداية بوجود مقوّم سادي في الغريزة الجنسية[٢٩]؛ ونحن نعلم أن هذا المقوِّم قادر على الاستقلال بنفسه وعلى الهيمنة من حيث هو انحراف على كامل حياة الفرد الجنسية. كذلك إنه قابل للتظاهر على شكل غريزة فرعية غلابة في واحد من «التنظيمات ما قبل التناسلية» (على حدّ تعبيري). لكن كيف يتأتّى لنا أن نشتقّ من الإيروس الذي من شأنه أن يصون الحياة الغريزية النزعةَ الساديةَ التي ترمي إلى إيقاع الأذى بالموضوع؟ أفلا يفترض بنا، والحال هذه، أن نذهب إلى أن هذه النزعة السادية ما هي في واقع الأمر

٢٨ ـ في الطبعة الأولى الصادرة عام ١٩٢٠ وردت هنا الجملة التالية: «عن طريق التصالب بين الدوافع الغريزية على حدّ تعبير آدلر». هامش الترجمة الفرنسية.

٢٩ ـ وهذا منذ الطبعة الأولى عام ١٩٠٥ لـ **«ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية»**. (انظر ترجمتنا لهذا الكتاب في المجلد الرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. **«م»**.



سوى غريزة الموت التي أُبعدت عن الأنا تحت تأثير الليبيدو النرجسي، فما عاد في وسعها أن تتظاهر وتشفّ عن نفسها إلا باتجاهها صوب الموضوع؟ وهي بذلك تبقى تعمل في خدمة الوظيفة الجنسية. ذلك أن السيطرة الحبِّية على الموضوع في الطور الفموي من تنظيم الليبيدو تتلازم مع تدمير هذا الموضوع؛ ثم لا تلبث الغريزة السادية أن تنفصل لتضطلع، في المرحلة التي تتأسس فيها الزعامة التناسلية، بوظيفة السيطرة على الموضوع الجنسي بقدر ما يكون ذلك ضرورياً لإنجاز العملية الجنسية. وفي واقع الأمر، قد يكون مباحاً لنا أن نقول إن السادية التي أرغمت على الخروج من الأنا قد عبدَّت الطريق أمام المقوِّمات الليبيدوية من الغريزة الجنسية؛ ومن ثم لن يبقى أمام هذه المقوِّمات غير أن تقفو إثرها نحو الموضوع. أما إذا لم يطرأ اعتدال على السادية الأصلية أو لم تخالطها مقوِّمات أخرى، فعندئذ تقوم تلك الحالة المعروفة لدينا جيداً من الازدواجية بين الحب والكره في الحياة الحبِّية.

لئن أبيح لنا أن نقول بمثل هذا الفرض فسنكون قد نجحنا في تقديم مثال على غريزة الموت، ولو في شكل منحرف عن موضعه. على أن تصوراً كهذا ليس من شأنه أن يكون ميسور الفهم، كما أنه ليس بعيداً عن شبهة الضرب في عالم الغيب. ومن ثم فقد وجدتنا نتساءل عما إذا لم نكن قد سعينا على هذا النحو إلى شقّ طريق لنا للخلاص من مأزق شديد الإحراج. بيد أننا نستطيع هنا أن نحتج بأن الغرض الذي ذهبنا إليه ليس جديداً كل الجدة، وأنه قد سبق لنا أن قلنا بمثله في وقت ما كان فيه من داعٍ بعد للحرج. ولقد أتاحت لنا المشاهدات العيادية في حينه أن نقرر أن المازوخية، كغريزة فرعية متممة للسادية، يمكن فهمها على أنها انقلاب للسادية على الأنا نفسه[٣٠]. لكن سواء أتحولت الغريزة من الموضوع إلى الأنا أم تحولت من الأنا إلى الموضوع ـ وتلك هي النقطة الجديدة فيما نحن بصدده هنا ـ فليس في ذلك من فارق من حيث المبدأ. وعليه، إن المازوخية، أي الغريزة التي ترتد نحو الأنا ذاته، هي في الواقع ارتداد نحو طور سابق لهذه الغريزة، أي نكوص. ومن ثم لا بدَّ لنا من إعادة النظر في الصيغة التي

٣٠ ـ انظر: **ثلاثة مباحث**، الطبعة الرابعة، ١٩٢٠، وكذلك: **الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية**.



كنت أعطيتها في ذلك الحين عن المازوخية والتي كانت ذات طابع حصْري أكثر مما ينبغي: فمن الممكن تماماً أن تكون مازوخية أولية، وهذا ما كنت أبيت القول به(٣١).

لكن لنعد أدراجنا إلى الغرائز الجنسية التي من شأنها الحفاظ على الحياة. فالبحوث التي أجريت على المتعضِّيات الأحادية الخلية كانت أظهرت لنا أن تلاحم فردين، أي تزاوجهما، بدون حدوث انقسام لاحق في المتعضِّية، من شأنه أن يكون له مفعول مقوٍّ ومجدِّد للشباب على الفردين كليهما (انظر أعلاه بحث ليبشوتز). وبعد هذا التزاوج لا تتبدى لدى الأجيال اللاحقة أي علامة من علامات الانتكاس

٣١ ـ لقد سبقتني سابينا سبلراين(*) إلى جانب كبير من هذه التأملات في بحث ثرّ بالمضمون وبالأفكار، وإن أعجزني مع الأسف أن أفهمه كل الفهم. فهي تصف المقوِّم السادي في الغريزة الجنسية بأنه «هدّام» (**الهدم كعلة للصيرورة**، في مجلة **المباحث التحليلية والطبية النفسية**، العدد الرابع، ١٩١٢). وقد سعى أ. شتاركه(**) بدوره، في تقديمه للترجمة الهولندية لبحث س. فرويد: «**الأخلاق الجنسية «الحضارية» والعصبية المعاصرة**»، إلى المماهاة بين مفهوم الليبيدو نفسه وبين المفهوم النظري الذي يفترض بعلم الأحياء أن يعتمده عن وجود نازع إلى الموت (انظر أيضاً رانك(***): **الفنان**، ١٩٠٧). وكل هذه المحاولات، بما فيها ما نسعى إليه نحن أنفسنا في نصّنا هذا، تشهد على الحاجة إلى مزيد من التوضيح لنظرية الغرائز.

(*) سابينا سبلراين: طبيبة ومحللة نفسية روسية من أصل يهودي (١٨٨٥ ـ ١٩٤٢). عانت من الهستيريا أثناء دراستها في جامعة زوريخ، فتولى علاجها كارل يونغ في عيادة بورغوزلي، فنشأت بينهما علاقة ملتبسة، لعبت دورها في الخلاف الذي سينشب لاحقاً بين فرويد ويونغ، وبعد انشقاق هذا الأخير انحازت إلى جانب فرويد. وعادت إلى روسيا حيث تزوجت وأنجبت ولدين. وإثر الاجتياح الألماني اعتقلها النازيون وأعدموها، بينما لقي زوجها وأخوها مصرعهما بدورهما في المعتقلات الستالينية. وقد أخرجت عن حياتها ثلاثة أفلام سينمائية. «م».

(**) أوغست شتاركه: طبيب ومحلل نفسي هولندي (١٨٨٠ ـ ١٩٥٤). راسل فرويد وأذاع أفكاره في هولاندا، واشتهر بقولة له: «إن ما كُبت في المدينة يعاود ظهوره في المستشفى النفسي». «م».

(***) أوتو رانك: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). متحدر من أسرة يهودية من البورجوازية المتوسطة. اصطدم مع أبيه الذي كان سكيراً فغيَّر كنيته من روزنفلد إلى رانك تيمُّناً باسم الطبيب الطيِّب القلب في مسرحية هنريك إبسن **بيت الدمية**. قرأ وهو في العشرين من العمر **تأويل الحلم** لفرويد، فانتمى مبكراً إلى حركة التحليل النفسي وصار أمين سر **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. حصل، بدعم من فرويد، على شهادة الدكتوراه واهتم بمسائل الدين والفلسفة والأسطورة. من أشهر مؤلفاته: **رضة الميلاد، إرادة السعادة، الفن والفنان، مساهمة في النرجسية، دون جوان**. «م».



أو الانحلال، بل يلوح أنها قد باتت قادرة على إطالة أمد مقاومتها ضد ضروب الأذى التي قد تلحق بها من جراء عمليات الأيض في داخلها. وإني لأعتقد أن ملاحظة هذه الحالة كافية وحدها لأن تكون مثالاً لما يترتب من مفعول على الاتحاد الجنسي أيضاً. ولكن كيف يمكن لتلاحم خليتين لا تختلفان فيما بينهما اختلافاً يذكر أن يتأدى إلى مثل ذلك التجديد للحياة؟ إن الجواب الأكيد عن هذا السؤال يمكن أن تقدّمه لنا التجربة التي تُجرى على المتعضيّات الأحادية الخلية والتي يُستغنى فيها عن التزاوج باستخدام مثيرات كيماوية أو حتى ميكانيكية (انظر المصدر الآنف الذكر): فالمفعول الذي تكلمنا عنه ينجم عن تدفق مقادير جديدة من الإثارة. والحال أن هذا ما يتفق اتفاقاً تاماً مع الفرض الذي يقول إن سيرورة الحياة لدى الفرد تتأدى، لأسباب داخلية، إلى تحقيق التعادل بين التوترات الكيماوية في داخله، أي إلى الموت، بينما يتأدى الاتحاد مع المادة الحية لفرد مغاير إلى زيادة تلك التوترات، مما يتأدى إلى نشوء **اختلافات حيوية**، إن جاز لنا القول، وهي اختلافات **تقع على عاتق الحياة مهمة تقليصها**. وبديهي أن تلك الاختلافات لا بدّ أن تشتمل على حدٍّ أو حدود مناسبة. ومعلوم أننا تعرّفنا في المنزع إلى تقليص التوتر الناجم عن الإثارة الداخلية أو إلى تثبيته أو إلى إلغائه، ذلك المنزع السائد في الحياة النفسية وربما في الحياة العصبية بوجه عام (مبدأ النيرفانا حسب تعبير بربارة لاو)[٣٢]، أقول: معلوم أننا تعرفنا فيه مبدأ اللذة. ولعل ذلك واحد من أهم دوافعنا إلى الاعتقاد بوجود غرائز الموت.

٣٢ ـ بربارة لاو: محللة نفسية إنكليزية (١٨٧٧ ـ ١٩٥٥). ناضلت في صفوف حزب العمال قبل أن تتحول نحو التحليل النفسي وتشارك في تأسيس **الجمعية البريطانية للتحليل النفسي**. وقد انتصرت لأطروحات آنا فرويد ضداً على أطروحات ميلاني كلاين. ومبدأ النيرفانا، الذي كان أول من صاغه في الثقافة الأوروبية الفيلسوف الألماني شوبنهاور، هو المصطلح المجازي الذي أطلقته ب. لاو على ميل النفس البشرية إلى تقليص كل تنبيه وكل كمّ من الطاقة الداخلية أو الخارجية إلى نقطة الصفر. وقد كان فرويد دخل في مناقشة موسعة لمفهومها هذا عن مبدأ النيرفانا في بحثه: **المشكلة الاقتصادية للمازوخية** المنشورة ترجمته في : **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي** في المجلد الرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. وعلى أي حال، إن المفهوم التحليلي النفسي عن مبدأ النيرفانا لا يطابق حرفياً المفهوم الهندوسي الذي يعني العودة إلى العدم أو اللاوجود على حين أن المعنى الذي بات له في التحليل النفسي هو انطفاء الأهواء والعودة إلى نقطة الصفر. «م».



بيد أن ما يشوِّش علينا إلى حدٍّ لا يستهان به محاكمتنا هذه للأمور هو، مرة أخرى، كوننا لا نستطيع أن نبرهن على انطواء الغريزة الجنسية على مثل ذلك الدافع القهري إلى التكرار الذي قاد خطانا في أول الأمر إلى غريزة الموت. وأرجح الظن أن مضمار سيرورات النمو والتطور لدى الأجنَّة حافل بظاهرات التكرار، كما أن تجربة اجتماع خليتين رشيميتين بهدف التناسل الجنسي وتاريخ حياتهما لا يعدوان هما نفسيهما أن يكونا تكراراً لبدايات الحياة العضوية؛ لكن يبقى أن جوهر السيرورات التي تهدف إليها الغريزة الجنسية هو تلاحم جسمين خلويين. فهذا التلاحم هو وحده الذي يضمن خلود المادة الحية لدى الكائنات الحية العليا.

بعبارة أخرى: ليس أمامنا مناص من أن نتحصل على مزيد من المعلومات حول ظهور التناسل الجنسي وحول أصل الغرائز الجنسية بصفة عامة، وهذه مهمة تستعصي بكل تأكيد على شخص من غير أهل الاختصاص، فضلاً عن أن الاختصاصيين أنفسهم ما استطاعوا إلى اليوم الاضطلاع بها إلى نهايتها. ومن ثم لنستعرض هنا، بأوجز ما يمكن، كل ما قد يتفق من هذه المعطيات ومن هذه الآراء المتناقضة مع خطّ تفكيرنا.

يجرِّد أحد هذه التصورات مشكلة التناسل من جاذبية لغزها إذ لا يرى فيها سوى حالة خاصة من حالات النمو (التكاثر عن طريق الانقسام والإنتاش والتبرعم). وقد يمكننا، من منظور أطروحات داروين الجادة، أن نتصور أصل التناسل عن طريق الخلايا الرشيمية المختلفة الجنس كما يلي: إن المكسب الناجم عن تزاوج متعضِّيتين أحاديتي الخلية قد أمكن الحفاظ عليه وتمّ استغلاله في مراحل التطور التالية[٣٣]. وعليه، لا يكون «الجنس» شيئاً ضارباً في القدامة،

٣٣ ـ ومع ذلك لا يتردد فايزمان (**الأُثلة الرشيمية**) في الذهاب إلى أبعد من ذلك نافياً وجود ذلك المكسب، فيقول: «إن الإخصاب لا يعني في حال من الأحوال إعادة للشباب أو تجديداً للحياة؛ فهو ليس ضرورياً البتة لمواصلة الحياة؛ وإنما هو محض **استعداد** من شأنه تأمين **تعاضد نازعين وراثيين مختلفين**». لكنه مع ذلك يرى أن تعاضداً من هذا القبيل يتأدى إلى زيادة قابلية الكائنات الحية للتنوع عن بعضها بعضاً.



وتكون الغرائز الفائقة العنف التي تنزع إلى الاتحاد الجنسي بمثابة تكرار لشيء حدث ذات يوم عَرَضاً ثم ثَبُت وتعضّد بحكم ما تأتّى عنه من كسب وجدوى.

وهنا لا بدّ أن نتساءل، تماماً كما في حالة الموت، عما إذا لم يكن يتعيَّن علينا أن نفترض وجود شيء آخر لدى المتعضِّيات الأحادية الخلية غير خصائصها الظاهرة، وعما إذا لم يكن في مستطاعنا أن نسلِّم بوجود قوى وسيرورات غير قابلة للوقوع تحت إدراكنا إلا لدى الكائنات الحية العليا بدون أن تكون قد تولَّدت لديها هي وحدها حصراً. ومن هذا المنظور ليس من شأن ذلك التصور للجنس الذي ألمعنا إليه أن يقدِّم لنا عوناً يذكر فيما نحن بصدد الكلام عنه. إذ يسعنا في هذه الحال أن نعترض عليه بأنه يفترض وجود غرائز حياتية فعالة حتى لدى أبسط الكائنات الحية، وإلا لما كان أمكن الحفاظ على القدرة على التزاوج وتعزيزها، بل لكان وجب على العكس تجنُّبها وتحاشيها بحكم تعارضها مع مجرى الحياة وبحكم ما تنصبه من عقبات أمام مهمة إيصال الحياة إلى نهايتها. وعليه، إذا كنا لا نشاء أن نتخلى عن الفرضية القائلة بوجود غرائز الموت فحتم علينا أن نسلِّم بأنها تكون مترابطة من بدء البدء مع غرائز الحياة. غير أنه سيتوجَّب علينا في مثل هذه الحال أن نقرّ بأننا نعتمد هنا معادلة ذات مجهولين.

وعلاوة على هذا، إن ما وصل إليه العلم عن أصل ظهور الجنس ضئيل للغاية حتى لكأننا نخبط خبط عشواء في ليل داجٍ ما تيسّر لأي فرضية أن تسلِّط عليه بصيصاً من نور. وصحيح أننا قد نظفر بمثل هذه الفرضية في مضمار مغاير تماماً، لكنها فرضية ضاربة في الغرابة ـ حتى لكأنها أقرب إلى أن تكون أسطورة أكثر منها تفسيراً علمياً ـ وما كنت لأجرؤ على الإشارة إليها لولا أنها تفي تحديداً بالشرط الذي نسعى هنا إلى استيفائه: ذلك أنها تردّ أصل كل غريزة إلى **الحاجة إلى إعادة حالة سابقة**.

المقصود هنا بطبيعة الحال النظرية التي يعرضها أفلاطون في محاورة **المائدة** على لسان أرسطوفانس[٣٤]، وهي نظرية لا تعالج فقط أصل الغريزة الجنسية، بل

---

٣٤ ـ أرسطوفانس: شاعر كوميدي إغريقي من القرن الخامس ق.م (نحو ٤٤٥ ـ ٣٨٥ ق.م). سخر من ساسة عصره. ضمّه أفلاطون إلى المتحاورين في مأدبته ليضع على لسانه صورة أخاذة عن الحب. «م».



كذلك أهمّ تظاهراتها من حيث الموضوع الذي مدارها عليه:

«في سابق الأزمان لم تكن طبيعة الإنسان مماثلة لما آلت إليه اليوم، بل كانت مختلفة كل الاختلاف. ففي بادئ ذي بدء كانت البشرية تتألف من ثلاثة أجناس، وليس فقط من جنسين، مذكر ومؤنث، كما الحال اليوم. كلا، فقد كان ثمة جنس ثالث، جنس يجمع بين خصائص الجنسين.. هو جنس الخناثى». ولقد كان كل شيء مزدوجاً لدى تلك الكائنات البشرية؛ فقد كانت لهم أربع أيدٍ وأربع أرجل ووجهان، وعورتان، إلخ. وهذا إلى أن قرّر الإله زفس أن يشطر كل مخلوق من تلك المخلوقات البشرية إلى شطرين «على نحو ما تشطر بصلة الغبيراء قبل تخليلها.. وبعد تقطيع الجسم إلى شطرين صار كل شطر يحنّ إلى لقاء شطره الآخر. فكانا إذا ما تلاقيا تلاقت منهما أذرعهما وتعانقا وهما ينهدان إلى أن يعودا واحداً كما كانا»[٣٥].

٣٥ ـ حاشية أضيفت سنة ١٩٢١: إنني أدين للأستاذ هاينريخ كومبرز، من فيينا، بالإيضاحات التالية عن أصل الأسطورة الأفلاطونية، وأسوق هنا بعضاً مما حدثني به بصورة شبه حرفية: إن لبّ هذه النظرية عينها موجود في **الأوبانيشاد**[*]. وبالفعل يرد في **الأوبانيشاد بريهادر ـ آرانياكا**[**]، الكتاب الأول، الفصل ٤ و٣، الوصفُ التالي لمنشأ العالم بدءاً من آتمان (الذات أو الأنا): «.. لكن (آتمان، الذات أو الأنا) ما كان يشعر بالفرح؛ وما كان يشعر بالفرح لأنه كان مفرداً وحيداً. ولقد اشتهى أن يكون له ثانٍ. ولقد كان بالفعل كبيراً ضخماً كما لو أنه رجل وامرأة معاً في حالة عناق. وهذه الذات التي هي ذاته هي التي شطرها إلى شطرين، فتخلّق منها الزوج والزوجة. ولهذا قال يجنافالكيا: هذا هو السبب في كون جسم الذات يشبه نصف قوقعة. ولهذا أيضاً تملأ المرأة ذلك الفراغ».

إن **الأوبانيشاد بريهاد ـ آرانياكا**[***] هو الأقدم بين سائر الأوبانيشادات، وليس لأي باحث كفؤ أن يعزو تاريخه إلى ما بعد عام ٨٠٠ ق.م.

وعلى النقيض من الرأي الشائع، لست أملك البتة أن أنفي احتمال وقوع أفلاطون تحت تأثير مثل هذه التصورات الهندية، ولو عن طريق غير مباشر. وبالفعل، إن احتمالاً كهذا لا يمكن استبعاده فيما يتعلق بنظرية التناسخ. وليس من شأن تأثير كهذا ـ تمّ تناقله عن طريق الفيثاغورثيين في المقام الأول ـ أن يقلّل من دلالة هذا التلاقي بين كلا التفكيرين؛ وبالفعل، ما كان لأفلاطون أن يتبنى لحسابه الخاص قصة كتلك القصة، وردت في مأثور شرقي ما، لولا أنها جذبته بما تنطوي عليه من حقيقة.

وفي مقال بعنوان **صيرورة البشر والعالم في الحولية الجديدة للبحوث عن العصور القديمة الكلاسيكية**، ١٩١٣، المجلد ٣١، ص ٥٢٩ وما يليها، يبيّن ك. زيغلر بالتفصيل مدى انتشار تلك الفكرة قبل أفلاطون، راداً إياها إلى أصول بابلية.



هل يتعيَّن علينا، على نحو ما يدعونا إلى ذلك الفيلسوف الشاعر، أن نجازف بالافتراض أن المادة الحية قد تقطعت أوصالاً لحظة دبّت فيها الحياة، وأن هذه الأوصال باتت تهفو منذئذ إلى الاتحاد من جديد بدفع من الغرائز الجنسية؟ وأن هذه الغرائز، التي بقي فاعلاً فيها التجاذب الكيمياوي للمادة الخامدة، أفلحت في التغلب تدريجياً، وهي تنشط في مملكة المتعضّيات الأحادية الخلية، على العقبات التي تنصبها في وجه هذا النزوع إلى إعادة توحيد ما انفصل بيئةٌ مشحونة بإثارات خطرة على الحياة وقمينة بأن تجبر الغرائز على تكوين طبقة لحائية حامية؟ وأن هذه الجزئيات المنفصلة من المادة الحية تتوصل عن هذا السبيل إلى أن تصير متعددة الخلايا بحيث ينتهي بها الأمر إلى أن تنقل غريزة معاودة الاتحاد إلى الخلايا الرشيمية في شكلها الأكثر تركيزاً؟ أعتقد أنه قد آن الآوان لوضع حدٍّ لهذه المضاربة في الغيب.

غير أنه بودّي مع ذلك أن أضيف بضع كلمات من طبيعة نقدية. فقد يسألني سائل عما إذا كنت أنا نفسي مقتنعاً، وإلى أي حدٍّ، بالفروض التي ذهبت إليها فيما تقدم. وعن هذا سأجيب بأنني أنا نفسي غير مقتنع وأنني لا أطالب غيري بالاقتناع بها. أو فلأقل بتعبير أكثر دقة: إني لست أدري إلى أي حدّ أنا بها مقتنع. ويتراءى لي أن العامل العاطفي في هذا الاقتناع لا يجوز بحال من الأحوال أن يتدخل في هذه المسألة. فقد يستسلم المرء للون ما من ألوان التفكير، ومن الممكن أن يمضي فيه إلى أقصى ما يمكن أن يوصل إليه،

(*) هاينريخ غومبرز: فيلسوف نمساوي (١٨٧٣ - ١٩٤٢). تولى فرويد نفسه تحليله. من مؤلفاته: **نقد مذهب المتعة، الإشراقية الهندوسية، مشكلة الإرادة الحرة.** «م».

(**) **الأوبانيشاد:** مجموعة نصوص فلسفية تشكل الأساس النظري للديانة الهندوسية. وتعني حرفياً بالسنسكريتية: «الجلوس باحترام عند قدمي المعلم للإصغاء إلى تعليمه». ويفوق عدد نصوصها المئة، ويعود تاريخ تأليفها إلى ما بين القرن التاسع والخامس ق.م. وقد ترجمها إلى الفارسية دارا شيكوه (سنة ١٦٥٩)، ابن الإمبراطور المغولي شاه جاهان. «م».

(***) **الأوبانيشاد بريهاد ـ آرانياكا:** هي واحدة من أقدم الأوبانيشادات، ويعود تاريخ تأليفها تقديرياً إلى نحو العام ٧٠٠ ق.م. وموضوعها يدور حول آتمان، أي الروح أو الذات، وفيها مقاطع في الميتافيزيقيا والأخلاق والرغبة في المعرفة. «م».



وهذا من قبيل الفضول العلمي لا غير أو، بتعبير آخر، إذا شاء أن ينصب نفسه محامياً عن الشيطان. بيد أن ذلك لا يعني أنه قد باع نفسه للشيطان فعلاً. ولست أجهل أنني، إذ أخطو هذه الخطوة الثالثة في مضمار نظرية الغرائز، لا أستطيع أن أدَّعي أني قد وصلت إلى عين الدرجة من اليقين التي كنت وصلت إليها في الخطوتين السابقتين: أي توسيع مفهوم الجنس وتقرير وجود النرجسية. ذلك أن هاتين الفكرتين المبتكرتين كانتا بمثابة ترجمة مباشرة للمشاهدة إلى نظرية، وما كان يترتب عليهما من احتمال الخطأ أكثر مما هو لا مناص منه عند الإقدام على أمر من هذا القبيل. ونحن عندما نؤكد الطابع **النكوصي** للغرائز نستند أيضاً، وبلا شك، إلى الوقائع التي تسنّى لنا أن نلاحظها، ولا سيما منها ما يتعلق بالدافع القهري إلى التكرار. وربما أكون أسرفت في ما عزوته إليها من أهمية. وعلى أي حال ما كان يمكن لنا أن نتتبع فكرة كتلك بدون أن نعاود كرة بعد الأخرى ربط ما يندرج في عداد الوقائع مع ما نستنتجه بمحض الفكر، وهذا بدون أن نبتعد من جراء ذلك أكثر مما ينبغي عن الملاحظة العينية. وليس يغيب عنا أننا، إذ ننحو هذا المنحى في سياق بنائنا لنظرية بعينها، يتضاءل عندنا ما يمكن أن نمحضه من ثقة للنتيجة النهائية، وهذا بدون أن يكون في مستطاعنا تقدير درجة انعدام اليقين. وقد يتفق أن نصيب الحق ونحن غارقون غرقاً معيباً في الخطأ. وفي مباحث من هذا القبيل لست أولي «الحدس» ثقة كبيرة؛ إذ طبقاً لما تسنى لي أن ألاحظه فإن ما يطلق عليه اسم «الحدس» لا يعدو أن يكون بالأحرى ضرباً من حياد العقل وعدم تحيُّزه. ولكن نادراً، مع الأسف، ما يمكننا التزام الحياد متى ما كان الأمر يتعلق بجلائل الأمور وبالمعضلات الكبيرة للعلم والحياة. وأعتقد أن كل واحد منا يكون واقعاً في مثل هذه الحال تحت أسر أفضليات ضاربة الجذور لا نملك من خيار إلا في أن نعطيها الأولوية في تفكيرنا. وإزاء مثل هذه الأسباب التي تستدعي منا أن نأخذ حذرنا لا يسعنا إلا أن ندلل على تروٍّ واعتدال في مدى رضانا عن النتائج التي قد يتوصل إليها تفكيرنا. بيد أني أسارع هنا إلى أن أضيف أن هذا النقد الذاتي لا يقتضي منا أن نبدي تسامحاً أكبر مما ينبغي إزاء



الآراء المخالفة. فمن حقنا أن ننبذ بلا شفقة كل نظرية يكون تحليل الوقائع قد أثبت بطلانها مع علمنا في الوقت نفسه أن النظريات التي نقول بها نحن أنفسنا لا تعدو أن تكون ذات صلاحة مؤقتة. وليس يسقط في أيدينا، ونحن نحاكم ما توصَّلنا إليه من نظريات حول غرائز الحياة والموت، إذا ما وجدنا أنفسنا في مواجهة سيرورات غريبة يعسر علينا فهمها من قبيل تلك الغريزة التي إذا ما طردتها غرائز أخرى بعيداً عنها ارتدَّت عن الأنا وتحولت إلى الموضوع، إلخ. ومردّ ذلك بكل بساطة إلى أننا نكون نحن أنفسنا مرغمين على العمل بمقتضى مصطلحات علمية، أي بمقتضى اللغة المجازية الخاصة بعلم النفس (أو بالأحرى علم نفس الأعماق)[٣٦]. ذلك أننا بدون ذلك سنقف عاجزين كل العجز عن وصف السيرورات موضوع بحثنا، هذا إذا لم نعجز أصلاً عن التنبُّه لوجودها. وأرجح الظن أن ما يشوب العرض الذي قدَّمناه من نواقص وعيوب سيتلاشى من تلقاء نفسه لو كان في مقدورنا أن نستبدل من الأصل المصطلحات السيكولوجية بمصطلحات فيزيولوجية أو كيماوية. وصحيح أن هذه المصطلحات الأخيرة تعتمد هي الأخرى لغة مجازية، لكنها لغة باتت مألوفة لدينا منذ عهد بعيد، وربما أكثر بساطة أيضاً.

وبالمقابل، يتعيَّن علينا أن ندرك أن ضرورة الاقتباس من مفردات علم الأحياء قد زادت زيادة كبيرة في درجة انعدام اليقين في ما نتوصل إليه من فروض نظرية. فعلم الأحياء هو بالفعل مضمار ثرّ بإمكانيات غير محدودة، وخليق بنا أن نتوقع منه إمدادنا بكشوف مدهشة، وليس يسعنا أصلاً أن نخمِّن ما سيقدِّمه لنا من أجوبة في العقود القادمة عن الأسئلة التي نطرحها عليه. وقد يكون من شأن هذه الأجوبة أن تهير كل البناء الاصطناعي لفروضنا. ولكن قد يسألني سائل في هذه الحال: ما الجدوى من كل ما شرعت به من بحوث في كتابك هذا، وما الداعي، ناهيك عن ذلك، إلى إطلاع الجمهور عليه؟ الحق أني لا أملك هنا أن أماري في أن ما سقته فيه من

٣٦ ـ علم نفس الأعماق: الاسم الذي كان يحلو لفرويد إطلاقه على التحليل النفسي. وقد كان أول من صاغه يوجين بلولر «م».



مقاربات ومماثلات وترابطات يلوح لي خليقاً بأن يُنظر فيه[٣٧].

٣٧ ـ لنضف هنا بضع كلمات لإيضاح مصطلحاتنا التي طرأ عليها، في مسار تأملاتنا، قدر من التطور. فأما «الغرائز الجنسية» فقد كنا نعرف ما المقصود بها بالإحالة إلى علاقتها بالجنس وبوظيفة التناسل. وقد تمسكنا بعدئذ بهذه التسمية حتى لما أرغمتنا النتائج التي تحصّل عليها التحليل النفسي على التخفيف من قوة العلاقة بين الغرائز الجنسية والوظيفة التناسلية. وعندما اعتمدنا مصطلح اللبيبدو النرجسي ووسّعنا مفهوم اللبيبدو ليشمل الخلايا المفردة، تحولت الغريزة الجنسية بقلمنا إلى «إيروس» الذي يسعى إلى تحقيق التلاحم بين أجزاء المادة الحية وضمان استمراريته. وقد وجدننا منقادين إلى الافتراض بأن الغرائز الجنسية كما تسمّى في العادة لا تعدو أن تكون ذلك الجانب من «إيروس» المتجه صوب الموضوع. وقد قادتنا تأملاتنا النظرية إلى الافتراض بأن «إيروس» هذا كان يفعل فعله منذ ابتداء الحياة، وبأن دوره كـ«غريزة حياة» هو أن يعارض «غريزة الموت» التي نشأت من جراء ما دبّ في المادة اللامتعضّية من حياة. وعلى هذا النحو التمسنا حلاً للغز الحياة بافتراضنا أن هاتين الغريزتين كانتا تصطرعان من بداية البداية. وقد يكون من الصعب بالمقابل أن نكوّن لأنفسنا رؤية إجمالية عن التحولات الطارئة على مفهوم «الغرائز الأنوية». وقد كنا، في بادئ الأمر، نطلق هذا الاسم على مختلف النزعات الغريزية غير المعروفة لنا كافي المعرفة والقابلة في الوقت نفسه للتمييز عن الغرائز الجنسية الميمّمة شطر الموضوع، كما كنا نقيم تعارضاً بين الغرائز الأنوية والغرائز الجنسية كما يعبّر عنها اللبيبدو. ثم ما لبثنا في زمن لاحق أن تعمّقنا في تحليل الأنا، فاتضح لنا أن شطراً من الغرائز الأنوية يكون هو أيضاً من طبيعة لبيبدوية وأنه يتخذ من الأنا عينه موضوعاً له. ومذ ذاك فصاعداً بتنا ملزمين بأن ندرج الغرائز النرجسية الساعية إلى المحافظة على الذات في عداد الغرائز الجنسية اللبيبدوية. ومن ثم تحولت المقابلة بين الغرائز الأنوية والغرائز الجنسية إلى مقابلة بين غرائز الأنا وغرائز الموضوع ـ علماً بأنها جميعاً من طبيعة لبيبدوية. ولكن بدلاً من المقابلة الأولى قامت مقابلة جديدة هذه المرة بين الغرائز اللبيبدوية (غرائز الأنا والموضوع) وبين غرائز أخرى يخلق بنا أن نعزوها إلى الأنا وأن نتعرف فيها ـ ربما ـ غرائز لا وظيفة لها سوى الهدم. وتأملاتنا النظرية هي التي حوّلت هذه المقابلة إلى مقابلة بين غرائز الحياة (إيروس) وغرائز الموت.



ـ ٧ ـ

إذا كانت الصفة الأعمّ للغرائز هي حقاً مسعاها إلى إعادة حالة بعينها إلى سابق نصابها، فلن يكون هناك ما يدعو إلى العجب إن شفَّت لنا الحياة النفسية عن وجود سيرورات تجري فيها باستقلال عن مبدأ اللذة. وأغلب الظن أن الغرائز الجزئية قاطبة تتقاسم هذه الخاصية، وذلك بقدر ما تسعى كل غريزة منها إلى الرجوع من جديد إلى مرحلة سابقة من التطور. غير أن هذا لا يعني أنها تقف بالضرورة موقف المعارضة من كل ما لم يقع بعد تحت سلطان مبدأ اللذة. ومن هنا تبقى المهمة الواقعة على عاتقنا هي تحديد طبيعة العلاقة بين السيرورات الغريزية التكرارية وبين هيمنة مبدأ اللذة.

لقد كنا رأينا أن واحدة من أبكر وظائف الجهاز النفسي ومن أهمِّها هي «تقييده» للحاثات الغريزية التي تعتمل فيه واستبدال السيرورة الأولية التي تتحكم بها بالسيرورة الثانية، وتحويل شحنتها الطليقة من الطاقة إلى شحنة كامنة ساكنة بالإجمال. وطبيعي أنه لا يمكن أن يقام اعتبار أثناء حدوث هذا التحول لما قد يتمخَّض عنه من كدر، ولكن هذا لا يعني انتفاء مبدأ اللذة وتوقفه عن العمل. بل إن التحول يتمّ بالأحرى في خدمة مبدأ اللذة؛ ذلك أن التقييد لا يعدو أن يكون عملاً تمهيدياً لتدخُّل مبدأ اللذة ولسيطرته.

ولنميِّز هنا تمييزاً أكثر دقة عن ذي قبل بين الوظيفة والنزوع. فمبدأ اللذة هو بمثابة نزوع يعمل في خدمة وظيفة، وعلى عاتق هذه الوظيفة تقع مهمة إبقاء الجهاز النفسي في منأى عن كل إثارة أو الحؤول دون أن تتجاوز الإثارة فيه حداً معلوماً وثابتاً. وليس يسعنا بعد أن نحسم فنأخذ بهذه الصيغة أو تلك، على أنه لا بدّ أن نسلِّم بأن الوظيفة كما تقدَّم بنا تحديدها تعمل في خدمة النزوع العام لكل ما هو حيّ إلى الارتداد إلى حالة سكون العالم اللاعضوي. وليس منا من لم



يختبر في نفسه أن أعظم مقدار من اللذة يمكن الوصول إليه، أقصد لذة العملية الجنسية، يترافق بانطفاء مؤقت في إثارة كانت قد بلغت درجة عليا. وعليه، إن تقييد الحاثة الغريزية يكون بمثابة وظيفة تمهيدية من شأنها أن تضع الإثارة في حالة تؤهِّلها للتصفية بصورة نهائية من خلال لذة التفريغ.

في هذا السياق نفسه قد يكون مباحاً لنا أن نتساءل عما إذا كانت أحاسيس اللذة والكدر قابلة لأن تصدر عن سيرورات الإثارة سواء أكانت مقيّدة أم طليقة. وبالفعل، لا يخامرنا شكّ في أن السيرورات الطليقة، الأولية، تتأدى إلى تمخُّض أحاسيس أكثر حدة بكثير في كلا الاتجاهين من تلك التي تنجم عن السيرورات المقيَّدة، الثانوية. كذلك إن السيرورات الأولية تكون هي الأولى من حيث الزمن؛ ففي ابتداء الحياة النفسية لا يكون ثمة وجود لسيرورات أخرى، وهذا ما يبيح لنا الاستنتاج بأنه لو لم يكن مبدأ اللذة فاعلاً فيها من البداية لما كان تأتّى له البتة أن يغدو فاعلاً في السيرورات اللاحقة. وهنا نصل إلى النتيجة المهمة التالية، وهي أن الصبوّ إلى اللذة يتظاهر في بداية الحياة النفسية بحدة أكبر بكثير من تلك التي يتظاهر بها لاحقاً، وإن بقدر من القيود أكبر. ومن ثم، من المحتَّم أن يكون مآله إلى فشل في كثرة من الأحايين. ومع مرور الزمن تتعزز سيطرة مبدأ اللذة، ولكن من دون أن يسعه، لا هو ولا سائر الغرائز، الإفلات من طوق الترويض والتدجين. وعلى أي حال، إن ما يتحكم بأحاسيس اللذة والكدر في سيرورة الإثارة لا مناص من أن يتواجد في السيرورة الثانوية تواجدَه في السيرورة الأولية.

هنا تحديداً تدعو الحاجة إلى القيام باستقصاءات ودراسات جديدة. ذلك أن الشعور ينقل إلينا من الداخل ليس أحاسيس اللذة والكدر فحسب، بل كذلك أحاسيس بضرب خاص من التوتر من شأنه أن يكون هو الآخر لاذّاً أو مكدِّراً. والحال، هل من شأن هذه الأحاسيس أن تتيح لنا أن ندرك ما طبيعة الفارق بين سيرورات الطاقة المقيَّدة وسيرورات الطاقة غير المقيّدة، أم أنه يتعيَّن علينا أن نعزو الإحساس بالتوتر إلى الكمّ المطلق للشحنة، أو ربما إلى مستواها، على حين أن سلسلة أحاسيس اللذة/الكدر تشير إلى مدى التعديل الطارئ على كمّ الشحنة في أمد محدّد من الزمن؟ ومما لا يمكن أن يغيب عن انتباهنا أيضاً أن غرائز الحياة



تكون أوثق صلة بإدراكنا الداخلي بقدر ما تكون مبلْبِلة ومعكِّرة للصفو ومولِّدة على الدوام لتوترات نستشعر لذة عندما نتحرر منها. أما غرائز الموت بالمقابل فيبدو عليها وكأنها تؤدي عملها بدون أن يقع ذلك تحت إدراكنا. وهذا، حتى لقد يلوح أن مبدأ اللذة يعمل في خدمة غرائز الموت. وصحيح أنه يسهر على مراقبة الإثارات الخارجية التي تعدّ من قبل كلا النوعين من الغرائز خطرة، لكنه يسهر أيضاً، وبوجه خاص، على مراقبة التزايد في كمّ الإثارة النابعة من الداخل لما يترتب عليه من زيادة في صعوبة مهمة الحياة. وهذا كله من شأنه أن يثير أسئلة أخرى عديدة لا قِبل لنا الآن بالإجابة عنها. ولا مناص لنا من أن نعتصم بالصبر وأن ننتظر الوصول إلى طرائق أخرى ومناسبات أخرى للبحث والتقصي، وأن نكون كذلك على أهبة الاستعداد للتنكب عن طريقٍ كنا سلكناه وقتاً ما متى ما لاح أنه لا يؤدي إلى الغاية المنشودة. ووحدهم أولئك المؤمنون الذين يطالبون العلم بأن ينوب عندهم مناب كتاب التعليم الديني الذي نحّوه جانباً هم من قد ينحون على الباحث باللائمة إذا ما طوَّر أفكاره أو بدَّلها. وإن يكن لنا من عزاء عن البطء الذي تتقدم به معرفتنا العلمية فلنلتمسه لدى ذلك الشاعر الذي قال (روكرت[1]، **مقامات الحريري**):

تعارجتُ لا رغبة في العرجْ

ولكن لأطرق باب الفرجْ

وألقي حبلي على غاربي

وأسلك مسلك من قد مرج

فإن لامني القوم قلت اعذروا

فليس على أعرج من حرج

---

١ ـ فريدريش روكرت: شاعر ومستشرق ومترجم ألماني (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦). كان يتقن ثلاثين لغة، ومنها العربية والفارسية. ومما ترجمه: **مقامات الحريري** وأشعار الحماسة وقصة رستم وسهراب من **الشاهنامه**. والأبيات التالية التي يستشهد بها فرويد هي من **المقامة الدينارية**. «م».



مكتبة الفكر الجديد

الأنا والهذا




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

يحتل كتاب **الأنا والهذا**، في جملة نصوص فرويد الميتاسيكولوجية، مكانة على حدة. ففي هذا الكتاب، الذي وضعه في عام ١٩٢٣ ـ وهو العام نفسه الذي تأكد له فيه أنه مصاب بالسرطان ـ استكمل ما كان بدأه في **ما وراء مبدأ اللذة** من إعادة نظر في الطبوغرافيا النفسية القديمة التي كان أرسى أسسها الأولى عام ١٩٠٠ في كتابه **تأويل الحلم** وقسّم بموجبها الجهاز النفسي إلى لاشعور وقبشعور وشعور. وبدون أن يتخلى عن هذه الطبوغرافيا أعاد في هذا النص العائد إلى عام ١٩٢٣ توزيع الهيئات النفسية على النحو التالي: الهذا والأنا والأنا الأعلى.

وتتمثل أهمية هذه الطبوغرافيا النفسية الجديدة في أنها أدخلت على التحليل النفسي مصطلحين أو مفهومين جديدين احتلا فيه منذ ذلك الحين حقَّ المواطنة على رحب: الهذا والأنا الأعلى. وعلى حين أن الأنا الأعلى هو، بموجب تعريف فرويد الذي بات كلاسيكياً، «وريث عقدة أوديب» والمصدر الذي منه ينشأ الضمير عن طريق استبطان السلطة الوالدية، فإن ترجمة مصطلح «الهذا» ـ والهذا هو خزان الدوافع الغريزية اللاشعورية ـ تثير إشكالاً. فقد وُجد بين المترجمين من عرَّبه بـ «الهو»، أو حمله أيضاً على محمل التأنيث فعرّبه بـ «الهي». بل قد وجد كذلك من ترجمه بالمقابلة مع الأنا الأعلى، فقال « الأنا الأسفل». ولكننا آثرنا على جميع هذه الاصطلاحات تعبير «الهذا» كمقابل لـ «DAS ES» بالألمانية، و«THE ID» بالإنكليزية، و « LE ÇA» بالفرنسية، لأن «الهذا» أقدر من «الهو» على التعبير عن الطابع اللاشخصي، شبه الغفل، وغير القابل لأن يسمَّى أو لأن يقع تحت التحديد، لما يؤلِّف مضمون «الهذا»، أي جملة القوى المكوِّنة للطاقة الغريزية اللاشعورية في النفس البشرية.



هذا عن المصطلح. أما عن النص ذاته فربما جاز القول إن «**الأنا والهذا**» هو ـ بالإضافة إلى «**ما بعد علم النفس**» الصادر عام ١٩١٥ ـ من أصعب ما كتبه فرويد قط ومن أكثر نصوصه تركيزاً ودقة مفهومية. ومما يسَّر علينا نسبياً نقله إلى العربية وجود ترجمتين له بالفرنسية. الأولى قديمة بقلم ص. يانكيليفتش، ومراجَعة بقلم أ. هينار، الرئيس السابق **للجمعية الفرنسية للتحليل النفسي**؛ وقد ظلت معتمدة في فرنسا على مدى أكثر من نصف قرن من الزمن. والثانية حديثة صدرت عام ١٩٨١ بقلم جان لابلانش الذي يعدّ من أكثر الاختصاصيين خبرة بالمصطلحات الفرويدية، إذ سبق له أن وضع، بالاشتراك مع ج. ب. بونتاليس، «**معجم التحليل الفرنسي**» (١٩٦٧) الذي أصاب شهرة عالمية وترجم حتى إلى اللغة التي كتب بها فرويد أصلاً، أي بالألمانية.

وبالإضافة إلى ذلك أمكن لنا إدخال تعديلات لا تخلو من أهمية على هذه الطبعة الجديدة للنص ضمن **مؤلفات فرويد شبه الكاملة** وذلك بالرجوع إلى ترجمة فرنسية جديدة ثالثة لنص **الأنا والهذا** بقلم كل من كاترين باليتو وألبير بلوخ وجوزيف ماري روندو صدرت عام ١٩٩١ في سياق ترجمة مؤلفات فرويد الكاملة الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية في عشرين مجلداً.

ج. ط



تمهيد

أزمع في هذا النص أن أوالي تطوير الأفكار الأولية التي كنت بدأت بصياغتها في «**ما وراء مبدأ اللذة**» (١٩٢٠)، متخذاً منها موقف حب الاستطلاع المفيد عينه الذي كان سدَّد خطاي وأنا أحرِّر هذا النص الأخير. وعلى هذا سأعود هنا إلى الأفكار عينها لأربطها بواقعات شتى مستمدة من المشاهدة التحليلية النفسية؛ وسأحاول أن أستخلص من هذا الربط استنتاجات جديدة، ولكن بدون أن أقبس هذه المرة شيئاً جديداً من علم الأحياء. ومن ثم سأظل هنا أقرب إلى التحليل النفسي مما فعلت في «**ما وراء مبدأ اللذة**». وطابع هذا النص تركيبي أكثر منه تأملياً، والهدف الذي يضعه نصب عينيه مرتفع بما فيه الكفاية فيما يبدو. على أنني مدرك مع ذلك أنني لا أتعدى بعض الخطوط العامة، وإني لراضٍ تماماً عن هذا التحديد.

فضلاً عن ذلك، إن المسائل التي أتطرق إليها هنا لم يسبق إلى يومنا هذا أن اتخذت موضوعاً للبحث التحليلي النفسي، ولا يسعني أن أمسك عن تناول عدد من النظريات التي كان تقدَّم بها باحثون من غير المحللين النفسيين، أو محللون نفسيون ارتدُّوا عن التحليل النفسي. ولئن كنت متهيئاً على الدوام للإقرار بما أدين به لمباحث الآخرين، فلا بدّ لي بالمقابل من التصريح بأنني لا أشعر، هذه المرة، بأنني أدين لكائن من كان بعرفان جميل من هذا القبيل. ولئن وُجدت أمور لم يُعنَ بها التحليل النفسي حتى الآن، فما ذلك لأنه تغافل عن نتائجها أو شاء أن ينكر أهميتها، وإنما لأنه سلك طريقاً محدداً ما كان تأدى به إليها بعد. أما وقد وصل أخيراً إلى هذه النقطة، فلا محيص عن القول بأن تلك الأمور تتبدى له في غير الصورة التي تبدت بها للآخرين.



مكتبة الفكر الجديد

١

الشعور واللاشعور

ليس لديّ في هذا الفصل الاستهلالي شيء جديد أقوله، ولا يسعني أن أتحاشى ترداد ما سبق أن قلته تكراراً.

إن تقسيم ما هو نفسي إلى شعوري ولاشعوري هو المنطلق الأساسي للتحليل النفسي: فهذا التقسيم هو وحده الذي يتيح له أن يفهم السيرورات المَرَضية في الحياة النفسية، تلك السيرورات المتواترة بقدر ما هي على جانب من الخطورة، وأن يدرجها في إطار العلم. وبعبارة أخرى، ولمرة أخرى أيضاً: إن التحليل النفسي لا يستطيع أن يعتبر الشعور جوهر الحياة النفسية، بل هو مضطر إلى أن يرى في الشعور كيفية واحدة من كيفيات الحياة النفسية، كيفية يمكن أن تتواجد مع غيرها من الكيفيات أو حتى ألا تتواجد.

لو كان لي أن أتخيَّل أن جميع أولئك الذين يهتمون بعلم النفس سيقرؤون هذا النص، لكان عليّ أيضاً أن أتوقع أن يتوقف بعض القراء ابتداء من هذه النقطة عن متابعتي، لأن هذه النقطة هي بالفعل كلمة السر[١] في التحليل النفسي. فمعظم الذين أصابوا حظاً من الثقافة الفلسفية لا يمكن لهم أن يقبلوا بفكرة وجود شيء نفسي لا يكون في الوقت نفسه شعورياً: فهي تبدو لهم ضرباً من الخُلف ومتنافية مع المنطق البسيط. ومردّ ذلك، في اعتقادي، إلى أن هؤلاء الناس لم يدرسوا قط ظاهرات التنويم المغناطيسي والحلم بكل ما لها من دلالة، تلك

١ ـ في الأصل «شيبوليت التحليل النفسي». و«شيبوليت» كلمة عبرانية استخدمها أبناء جلعاد للتعرف إلى أعدائهم من أبناء أفرايم الذين كانوا يلفظونها «سيبوليت»، فكانوا يذبحونهم. وتقابلها بالعربية حرفياً سُنبلة وشُبُلة. «م».



الظاهرات التي تفرض علينا، بصرف النظر عن أية إحالة إلى الجانب المَرَضي، أن نأخذ بمثل ذلك التصور. وبالمقابل، إن علمهم النفسي، القائم على أساس الشعور، يقف عاجزاً عن حلّ مشكلتي الحلم والتنويم المغناطيسي.

إن «الشعوري» هو، من جهة أولى، لفظ وصفي بحت، مرجعه هو الإدراك المباشر والأكثر يقينية. غير أن التجربة تدلّنا، من جهة ثانية، أن العنصر النفسي، كالفكرة مثلاً، لا يكون أبداً شعورياً بصفة دائمة. فما يميّز بالأحرى العناصر النفسية هو الزوال السريع لحالتها الشعورية. فالفكرة، التي تكون شعورية في لحظة بعينها، لا تعود كذلك في اللحظة التالية، ولكنها قد تعود فتصير شعورية من جديد في شروط معيَّنة يسهل تحقيقها. أما ما بين الحالتين، فنجهل ما تكون عليه؛ وبوسعنا أن نقول إنها تكون **كامنة**، على أن يكون المقصود بذلك أنها قابلة في كل لحظة وآن لأن **تصير شعورية**. وحتى لو قلنا إنها تكون لاشعورية، فسنكون قد صدقنا في وصفنا. وهذا اللاشعوري يتفق عندئذ في المعنى مع ما هو كامن وما هو قابل لأن يصير شعورياً. وأرجح الظن أن الفلاسفة سيعترضون علينا هنا بقولهم: كلا، إن لفظ الشعوري لا يمكن أن ينطبق على الحالة التي نحن بصددها: إذ ما دامت الفكرة في حالة الكمون فهي لا تتصف إطلاقاً بالصفة النفسية. ولو رددنا عليهم من الآن فلن نكون فعلنا سوى أننا خضنا في جدال لفظي بحت لن نجني منه فائدة.

غير أننا توصلنا إلى مصطلح **اللاشعور** أو مفهومه بطريق آخر، وذلك بالاستناد إلى خبرات يبرز فيها دور **الدينامية** النفسية. فقد دلتنا التجربة، أي أرغمتنا على التسليم بوجود سيرورات نفسية أو تمثلات بالغة القوة ـ وهنا يدخل في الاعتبار عامل كمي، أي اقتصادي ـ يمكن أن يكون لها في الحياة النفسية نتائج تماثل تلك التي تكون في العادة للتمثلات الأخرى، بل نتائج قابلة بدورها لأن تصير شعورية من حيث هي تمثلات، ولكن بدون أن تصير السيرورات التي أنتجتها هي نفسها شعورية. ولا حاجة بنا إلى أن نكرر هنا بالتفصيل ما سبق لنا شرحه مراراً عدة. وحسبنا أن نعيد إلى الأذهان أنه عند هذه النقطة تحديداً تتدخل النظرية التحليلية النفسية لتعلن أنه إن تكن مثل تلك التمثلات غير قابلة



لأن تصير شعورية فإنما لأن ثمة قوة معيَّنة تمانع في ذلك، وأنه لولا هذه القوة لكان وَسِعها أن تصير شعورية، ولكان وَسِعنا حينئذ أن نلاحظ أنها لا تختلف اختلافاً يذكر عن غيرها من العناصر النفسية المعترف بها من الجميع بصفتها هذه. وما يجعل هذه النظرية غير قابلة للدحض هو أن تقنية التحليل النفسي أمدَّتنا بالوسائل التي نستطيع بها أن نظهر على القوة الممانِعة وأن نستاق إلى الشعور التمثلات اللاشعورية المشار إليها. والحالة التي تكون فيها هذه التمثلات قبل استياقها إلى الشعور نطلق عليها اسم **الكبت**؛ وأما القوة التي تحدِث الكبت وتعمل على استمراره فنقول إنها تتبدى لنا في أثناء العملية التحليلية في صورة **مقاومة**.

إن مفهومنا عن اللاشعور مستمد إذاً من نظرية الكبت. فالمكبوت هو عندنا النموذج الأول للاشعور. لكننا نعلم مع ذلك أنه يوجد نوعان من اللاشعور: اللاشعور الذي يكون كامناً، مع قابليته لأن يصير شعورياً، والمكبوت الذي هو غير قابل بذاته لأن يصير شعورياً. وتصورنا هذا للدينامية النفسية لا يمكن إلا أن يترك أثراً في لائحة المصطلحات والتوصيف. فالكامن، الذي يكون لاشعورياً بالمعنى الوصفي وحده لا بالمعنى الدينامي، نطلق عليه اسم **القبشعور**[٢]، بينما نحتفظ باسم **اللاشعور** للمكبوت اللاشعوري بالمعنى الدينامي. وعلى هذا النحو نرانا نمتلك الآن ثلاثة مصطلحات: الشعوري (**شع**) والقبشعوري (**قشع**)، واللاشعوري (**لشع**)، ودلالة هذه المصطلحات لا تعود والحال هذه وصفية خالصة. **وقشع** في رأينا أقرب بكثير من **لشع** إلى **شع**؛ وما دمنا لم نتردد في أن نصف **لشع** بأنه نفسي، فلن نتردد بالأولى في أن نطلق الصفة نفسها على **قشع** الكامن. ولكن لماذا لم نفضل أن نبقى على وفاق مع الفلاسفة، فنفصل، على نحو متماسك المنطق في ظاهره، **قشع ولشع** على حدٍّ سواء عما هو نفسي شعوري؟ لو فعلنا ذلك لدعانا هؤلاء الفلاسفة عندئذ إلى اعتبار كل من **قشع ولشع** نوعين أو درجتين مما هو شبه نفسي، مما يتيح للوحدة أن تعود فتقوم. لكن ستنجم عن ذلك، لو فعلنا، صعوبات لا حصر لها في تصورنا؛ كما أن الحقيقة

٢ ـ اختصار لمصطلح ما قبل الشعور. «م».



الوحيدة الهامة، وهي أن هذين النمطين شبه النفسيين يتفقان في كل ناحية تقريباً مع ما هو مسلَّم به بأنه هو النفسي، لن يكون مصيرها سوى الإغفال لصالح ذلك الرأي المسبق الذي يعود تاريخه إلى زمن ما كان فيه هذان النمطان شبه النفسيين بمعروفين، في الجانب الأهم منهما على أية حال.

نستطيع الآن أن نستخدم في يسر وسهولة مصطلحاتنا الثلاثة، «**شع**» و«**قشع**» و«**لشع**»، بشرط ألا يغرب عنا أن هناك بالمعنى الوصفي نوعين من اللاشعور، بينما ليس هناك بالمعنى الدينامي سوى نوع واحد. ومن الممكن في بعض العروض التي ترمي إلى هدف محدّد غضّ الطرف عن هذه التفرقة، ولكنها تصبح ضرورية لازمة في عروض أخرى. ومهما يكن من أمر، فقد أصبحنا معتادين بما فيه الكفاية على هذا المعنى المزدوج للاشعور، ولم نعد نجد في الأمر عسراً. وما من سبيل إلى تحاشيه، في تقديري الشخصي على الأقل. والتفرقة بين الشعوري واللاشعوري هي في خاتمة المطاف مسألة إدراك، مسألة تقتضي الإجابة بنعم أو لا، علماً بأن فعل الإدراك نفسه لا يزوّدنا بأي معرفة حول سبب إدراك الشيء أو عدم إدراكه. ولا موجب للتشكي من أن العامل الدينامي لا يمكنه أن

٣ ـ انظر بهذا الخصوص **ملاحظات حول مفهوم اللاشعور**(*). وتجدر الإشارة هنا إلى اتجاه جديد في نقد اللاشعور. ذلك أن بعض الباحثين، ممن لا يأبون الاعتراف بحقائق التحليل النفسي ولا يريدون في الوقت نفسه التسليم باللاشعور، يتدبرون لأنفسهم مخرجاً بالاستعانة بهذه الحجة التي لا يجادل فيها أحد وهي أن الشعور أيضاً ـ باعتباره ظاهرة ـ يشتمل على سلَّم واسع من التدرجات في الشدة أو الوضوح. فكما أن هناك سيرورات تكون شعورية على نحو بالغ القوة وبالغ الحدة وملموس لمس اليد إذا جاز التعبير، كذلك تمدّنا الخبرة المعاشة بسيرورات أخرى ما هي بشعورية إلا على نحو موهن يكاد لا يقع تحت الإدراك؛ وأقل هذه السيرورات اتصافاً بالطابع الشعوري هي عينها في رأي أولئك الباحثين السيرورات التي يبغي التحليل النفسي أن يطلق عليها الاسم غير المناسب: «اللاشعور»، مع أنها في رأيهم أيضاً شعورية هي الأخرى، أو موجودة على الأقل «في الشعور» ومن الممكن أن تصير شعورية بقوة وبملء معنى الكلمة إذا ما أوليت الانتباه الكافي.

وبقدر ما يمكن للحجج أن تلعب دوراً ما في حل هذه المسألة المنوط أمرها باتفاق متواضع عليه أو بعوامل عاطفية، نستطيع أن نضيف هنا الملاحظات التالية: إن الإحالة إلى درجات في الوضوح في الكينونة الشعورية ليست بذات طابع إلزامي وليس لها من القوة البرهانية أكثر مما للقضايا التي من القبيل التالي: لا وجود إطلاقاً للظلام لأن النور يتدرج من الضوء الأشد سطوعاً والأكثر إبهاراً إلى البصيص الخافت جداً، أو كذلك: هناك درجات مختلفة من الحياة، وبالتالي لا وجود للموت. صحيح أن أشباه هذه القضايا يمكن أن يكون لها على نحو من الأنحاء معنى. ولكن لا مندوحة عن



يجد في الظاهرات سوى تعبير مزدوج المعنى[٣].

لكن طرداً مع تقدم المباحث التحليلية النفسية نكتشف أن هذه الفروق لم تكن بدورها كافية، ولا مقنعة من الناحية العملية. وبين جملة المواقف التي تبرز فيها هذه الحقيقة بمنتهى الجلاء، سنشير إلى الموقف التالي الذي يبدو لنا حاسماً. فقد انتهى بنا الأمر إلى أن نتصور أن السيرورات النفسية لدى الفرد تؤلف تنظيماً متلاحماً، ونحن نطلق على هذا التنظيم اسم أنا هذا الفرد. وإنما بهذا الأنا يرتبط الشعور؛ فهو يتحكم بالمنافذ إلى القدرة الحركية، أي تصريف التنبيهات في العالم الخارجي؛ وهذه الهيئة النفسية هي التي تتولى الإشراف على جميع السيرورات الجزئية الخاصة بها، وهي التي تخلِد إلى النوم ليلاً بدون أن تتوقف عن ممارسة رقابة الأحلام. ومن هذا الأنا تنطلق أيضاً الكبوتات التي تتأدى لا إلى إقصاء بعض النزعات النفسية عن الشعور فحسب، بل كذلك إلى الحؤول بينها وبين التظاهر بأية صورة أخرى من صور النشاط والتعبير عن الذات. وما يتمّ استبعاده على هذا النحو عن طريق الكبت يقف في أثناء التحليل موقف المعارضة من الأنا، ويكون من مهمة التحليل أن يذلل المقاومات التي يبديها الأنا عند التصدي للمكبوت. فنحن نلحظ في أثناء التحليل أن المريض يجابه صعوبات حينما نكل إليه بعض المهام؛ وتداعياته تتوقف لدى اقترابها من المكبوت. فنصارحه القول

انتباذها من الناحية العملية، كما نلحظ ذلك عندما نحاول أن نستخلص منها بعض النتائج المحددة مثل: إذاً فلا داعي لأن نضيء مصباحاً، أو كذلك: إذاً فجميع الأجسام المتعضِّية خالدة. ثم إننا، فضلاً عن ذلك، عندما نضع ما لا يقع تحت الإدراك في خانة الشعور، نكون قد حرمنا أنفسنا من اليقين المباشر الوحيد الذي يتصل بالحياة النفسية. فالشعور الذي لا نعرف عنه شيئاً يبدو لي أشد خُلفاً بكثير من نفس لاشعورية. أخيراً، إن محاولة المماثلة بين ما لا يقع تحت الإدراك وبين ما هو لاشعوري لا تأخذ بعين الاعتبار، على ما هو ظاهر للعيان، الشروط الدينامية التي كان لها الدور الحاسم في تكوين التصور التحليلي النفسي. وبالفعل، إن هذه المحاولة تغفِل واقعتين اثنتين: أولاهما أن إيلاء قدر كافٍ من الانتباه لما لا يقع تحت الإدراك أمر عسير للغاية ويتطلب مجهوداً هائلاً، وثانيتهما أنه متى ما أمكننا الوصول إلى ذلك فإن ما كان لا يقع من قبل تحت الإدراك لا يحظى الآن باعتراف الشعور، بل غالباً ما يظهر له غريباً جداً، ومخالفاً له، وحقيقاً بالانتباذ الفجّ. وعلى هذا، لا تعدو محاولة ردّ الشعور إلى ما لا يقع تحت الإدراك أو إلى ما لا يقع إلا تحت الإدراك الضعيف أن تكون ثمرة لذلك الرأي المسبق الذي يُصادِر على وحدة هوية النفسي والشعوري.

(*) انظر ترجمتنا لهذا النص في المجلد الخامس من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».



عندئذ إنه واقع تحت سلطان مقاومة ما، ولكن بدون أن يكون واعياً لذلك على الإطلاق؛ وحتى لو حدس، انطلاقاً مما ينتابه من مشاعر الضيق والكدر، بأن ثمة مقاومة تفعل فعلها فيه، فإنه لا يعرف كيف يسمّيها ولا كيف يصفها. ولكن بما أن هذه المقاومة تنطلق على وجه اليقين من أناه، وإليه يكون انتماؤها، فإننا نجد أنفسنا إزاء موقف غير متوقع. فعلى هذا النحو نكون قد وجدنا في الأنا نفسه شيئاً لاشعورياً أيضاً، يسلك تماماً مسلك المكبوت، أي يحدِث أفاعيل قوية بدون أن يغدو هو نفسه شعورياً ويتطلب، كيما يغدو شعورياً، مجهوداً خاصاً. والنتيجة التي تترتب على هذه التجربة بالنسبة إلى الممارسة التحليلية النفسية هي اصطدامنا بصعوبات ونقاط غامضة لا حصر لها فيما إذا تمسكنا بمفاهيمنا المعتادة، وفيما إذا شئنا، على سبيل المثال، إرجاع العصاب إلى صراع بين الشعور واللاشعور. فبدلاً من مقابلة كهذه يتعيَّن علينا أن نستعين بواحدة أخرى نابعة من تفهمنا للعلاقات البنيوية للحياة النفسية: أقصد المقابلة بين الأنا المتلاحم وبين المكبوت المنفصل عنه انفلاقياً(٤).

غير أن النتائج التي تترتب على ذلك بالنسبة إلى تصورنا للاشعور تبقى أكثر أهمية بعد. فقد كان المنظور الدينامي أمدَّنا بالتصحيح الأول، وها هي وجهة النظر البنيوية تأتينا بالتصحيح الثاني. فنحن نجدنا منقادين إلى الإقرار بأن **لشع** لا يتطابق مع المكبوت؛ ويبقى صحيحاً أن كل مكبوت هو لاشعوري، لكن ليس كل **لشع** مكبوتاً. وإن شطراً من الأنا أيضاً، والله أعلم بمدى أهمية هذا الشطر، يمكن أن يكون أيضاً لاشعورياً، بل هو على وجه اليقين لاشعوري. **ولشع** الأنا هذا لا يكون كامناً كمثل كمون **قشع**، وإلا لكان استحال تنشيطه بدون أن يصير شعورياً، ولما كنا بالتالي اصطدمنا بمثل تلك العقبات الكأداء التي نصطدم بها كلما أردنا استياقه إلى الشعور. وإذ نجد أنفسنا ملزمين على هذا النحو بالتسليم بوجود لاشعور ثالث، هو **لشع** غير مكبوت، نرى لزاماً علينا أن نقرّ بأن

٤ ـ انظر **ما وراء مبدأ اللذة**. (الانفلاق مصطلح تحليلي نفسي متعدد الدلالات ويطلق إجمالاً على الصراع النفسي الذي يحدث فيه انشطار في الأنا أو في الموضوع إلى شطرين: واحد مرغوب فيه وآخر مرغوب عنه. «م»).



صفة الكينونة اللاشعورية تفقد قدراً من أهميتها عندنا. فهي تصبح صفة متعددة الدلالات، ولا تبيح لنا، كما كنا نتمنى أن نفعل، أن نستخلص منها نتائج معممة وقطعية. لكن حذارِ مع ذلك من إهمالها، إذ إن الكيفية الشعورية أو اللاشعورية هي في خاتمة المطاف منارتنا الوحيدة في دياجير سيكولوجيا الأعماق.




مكتبة
الفكر الجديد

٢

الأنا والهذا

لقد وجهت المباحث الباتولوجية انتباهنا، على نحو حصري أكثر مما ينبغي، إلى المكبوت. وبودّنا أن نعرف المزيد عن الأنا، بعد أن بتنا نعلم أن الأنا أيضاً يمكن أن يكون لاشعورياً، وهذا بالمعنى الحقيقي للكلمة. ولقد كانت نقطة ارتكازنا الوحيدة في مباحثنا حتى الآن هي المعيار الذي يفصل بين كون الشيء شعورياً وكونه لاشعورياً؛ ولكننا انتهينا إلى أن نرى أن لذلك دلالات عدة.

والحال أن معرفتنا كلها مرتبطة دواماً بالشعور. وحتى **قشع** لا نستطيع أن نعرفه إلا إذا جعلناه شعورياً. لكن رويدنا، كيف يمكن ذلك؟ وما معنى: أن نجعل الشيء شعورياً؟ وكيف لذلك أن يحدث؟

نحن نعرف من قبل ما الحلقة التي يمكن أن نتخذها هنا مربطاً. فقد سبق أن قلنا إن الشعور هو **سطح** الجهاز النفسي، أي كنا جعلناه وظيفة لنسق هو، من وجهة النظر المكانية، الأول اتصالاً بالعالم الخارجي. نقول من وجهة النظر المكانية لا بالمعنى الوظيفي فحسب، بل كذلك، هذه المرة، بمعنى التقطيع التشريحي[1]. وعلى هذا يتعيَّن علينا، في بحثنا، أن نتخذ بدورنا من ذلك السطح الإدراكي نقطة انطلاق لنا.

إن صفة الشعوري تشمل، بادئ ذي بدء، جميع الإدراكات التي تأتي من الخارج (الإدراكات الحسية)، ومن الداخل، أي ما نسمّيه بالأحاسيس والمشاعر. لكن ما شأن تلك السيرورات الباطنة التي يسعنا أن نجمعها كلها ـ على نحو لا يخلو من الفجاجة وعدم الدقة ـ تحت عنوان السيرورات التفكيرية؟ فهذه

١ ـ انظر: **ما وراء مبدأ اللذة.**



السيرورات التي تحدث في مكان ما داخل الجهاز النفسي، كما لو أنها انتقالات في الطاقة النفسية على الطريق المفضي إلى الفعل، أهي التي تصل إلى السطح حيث يتشكل الشعور؟ أم أن الشعور هو الذي ينتقل إليها؟ لنلحظ أن هذه واحدة من الصعوبات التي نصطدم بها عندما نريد أن نحمل على محمل الجد التصور المكاني، **الطبوغرافي**، للواقعات النفسية. إن الاحتمالين كليهما يصعب تصورهما، ولا بدّ أن يكون هناك احتمال ثالث يكون هو الصحيح.

لقد سبق أن أفصحت في مكان آخر[٢] عن فرضٍ مؤداه أن الفارق الحقيقي بين التمثل **اللاشعوري** والتمثل **القبشعوري** (الفكرة) يكمن في أن التمثل الأول يتصل بمادة ما تبقى غير معروفة، بينما يقترن التمثل الثاني (التمثل **القبشعوري) بتمثلات لفظية**. وتلك هي المحاولة الأولى لتحديد معايير مميِّزة لكل من النسقين **قشع ولشع** غير علاقاتهما بالشعور. وعلى هذا يبدو أن السؤال: «كيف يصير الشيء شعورياً؟» يمكن أن يصاغ على نحو أكثر مطابقة فنقول: «كيف يصير الشيء قبشعورياً؟». ويصبح الجواب في هذه الحال: «بارتباطه بالتمثلات اللفظية المطابقة».

هذه التمثلات اللفظية هي بقايا ذاكرية، كانت من قبل إدراكات، ومثلها مثل سائر البقايا الذاكرية يمكنها أن تصير شعورية من جديد.

وقبل أن نستقصي أكثر من ذلك عن طبيعتها تحضر إلى ذهننا فكرة جديدة: لا يمكن أن يصير شعورياً إلا ما كان من قبل إدراكاً شعورياً، وإن كل ما يأتي من الداخل، باستثناء المشاعر، ويبغي أن يصير شعورياً، يتحتم عليه أن يحاول ترجمة نفسه إلى إدراكات خارجية. وهذا ما تتيح إمكانيته البقايا الذاكرية.

إننا نتصور البقايا الذاكرية محتواة في أنسقة ملاصقة بصورة مباشرة للنسق **(إد ـ شع)**، بحيث أن توظيفاتها يمكنها أن تمتد بسهولة، من الداخل، نحو عناصر هذا النسق. ويذهب بنا الفكر حالاً إلى الهلوسة وإلى كون الذكرى الأكثر وضوحاً وقوة تكون متميزة دوماً عن الهلوسة وعن الإدراك الخارجي على

٢ ـ **اللاشعور، في المجلة الدولية للتحليل النفسي**، المجلد٣، ١٩١٥، وفي **«مجموعة من المقالات في نظرية العصاب»**، المجموعة الرابعة، ١٩١٨.



حدّ سواء. ولكن للحال أيضاً يحضر إلى ذهننا الحل: فعندما نستحضر ذكرى من الذكريات يبقى التوظيف قائماً في النسق الذاكري، بينما يمكن للهلوسة، غير القابلة للتمييز عن الإدراك، أن تعلن عن ظهورها عندما لا يكتفي التوظيف بالامتداد من الأثر الذاكري إلى العنصر **إد**، بل يمرّ بتمامه فوق هذا العنصر.

إن البقايا اللفظية تأتي بصورة رئيسية من الإدراكات السمعية، بحيث يمكن القول إنه يوجد للنسق **قشع** أصل حسّي خاص. أما العناصر البصرية من التمثل اللفظي فيمكننا، في أول التحليل، أن نهملها باعتبارها ثانوية، ومكتسبة عن طريق القراءة؛ وهذا يصدق أيضاً على الصور الحركية للكلمات، تلك الصور التي تلعب، إلا في حالة الصم البكم، دور إشارات إضافية. والحق أن الكلمة هي بحصر المعنى البُقْيا الذاكرية للكلمة المسموعة.

لنحاذر أن تغيب عنا، لدواعي التبسيط، دلالة البقايا الذاكرية البصرية ـ البقايا الذاكرية للأشياء ـ أو أن ننكر كون السيرورات التفكيرية قابلة لأن تصير شعورية عن طريق رجوعها إلى البقايا البصرية، وأن نماري في أن هذا هو الطريق المأثور لدى غالبية الناس. ويمكن لدراسة الأحلام والأخاييل القبشعورية، طبقاً لملاحظات ج. فارندونك VARENDONCK[٣] ، أن تعطينا فكرة عن خصائص هذا التفكير البصري. فبصورة عامة نجد أن مادة التفكير العينية هي وحدها التي تصير شعورية في هذه الظاهرات، بينما لا يمكن للعلاقات المميِّزة بصفة خاصة للتفكير أن تحظى بتعبير بصري. ما التفكير بالصور إذاً إلا كيفية ناقصة للغاية من الصيرورة الشعورية. وهو أيضاً، وإلى حدّ ما، أقرب إلى السيرورات اللاشعورية من التفكير بالكلمات والألفاظ، وهو بلا مراء أقدم من هذا الأخير سواء أمن ناحية تطور الفرد أم من ناحية تطور النوع.

لنعد إلى موضوعنا. فإن يكن ذلك هو الطريق الذي يفضي إلى أن يصير الشيء اللاشعوري في ذاته قبشعورياً، فإن سؤالنا: كيف نجعل الشيء المكبوت (قبـ)شعورياً؟ يجب أن تأتي الإجابة عنه على هذا النحو: عن طريق إعادة وصل

٣ ـ الإحالة هنا إلى كتاب العالم النفسي البلجيكي جوليان فارندونك (١٨٧٩ ـ ١٩٢٤): **علم نفس الأحلام النهارية** الذي كتب فرويد نفسه مقدمة له. «م».



تلك الروابط المتوسطة القبشعورية بفضل العمل التحليلي. وعلى هذا يبقى الشعور في موضعه، ولكن بدون أن يعاود **قشع** الصعود بالمقابل وصولاً إلى **شع**.

وعلى حين أن علاقة الإدراك الخارجي بالأنا ظاهرة تماماً للعيان، فإن العلاقة القائمة بين الإدراك الداخلي والأنا تتطلب دراسة خاصة، وبصددها ينزغ من جديد هذا الشك: أهناك حقاً من داعٍ إلى إرجاع الشعور بتمامه إلى النسق السطحي **إد ـ شع** وحده؟

يزوِّدنا الإدراك الداخلي بأحاسيس بالسيرورات التي تجري في طبقات الجهاز النفسي الأكثر تبايناً، وكذلك الأعمق غوراً بلا ريب. ولسنا نعرف عن هذه الأحاسيس إلا الشيء القليل. وخير مثال متوفر لها عنها هو مثال أحاسيس سلسلة اللذة ـ الكدر. وهي أكثر بدائية وأكثر اتصافاً بالطابع الأوَّليّ من الأحاسيس التي تأتينا من الخارج، علاوة على أنها يمكن أن تحدث حتى في الحالات التي يكون فيها الشعور مشوَّشاً. وقد سبق لي أن بيَّنت في غير هذا الموضع[٤] مدى أهميتها الاقتصادية، وأبديت رأيي بصدد الأساس الميتاسيكولوجي[٥] لهذه الواقعة. إن هذه الأحاسيس متعددة الجيوب[٦] نظير الإدراكات الخارجية؛ ومن الممكن أن تصدر في آن معاً عن مواضع مختلفة، وأن يكون لها بالتالي خواص مختلفة، بل متضادة.

إن الأحاسيس التي تتصف بالطابع اللّذي ليس لها، في ذاتها، صفة الضغط واللجاجة، بينما تتسم مشاعر الكدر بهذا الطابع إلى أعلى درجة. فهذه الأخيرة تدفع باتجاه التغيير والتصريف. ولهذا السبب نؤوِّل الكدر على أنه ارتفاع واللذة على أنها انخفاض في التوظيف بالطاقة. فإذا فرضنا أن ما نستشعره على أنه لذة أو كدر يمثِّل، في تعاقب السيرورات النفسية، «شيئاً

٤ ـ **ما وراء مبدأ اللذة**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥ ـ الميتاسيكولوجيا (أو ما بعد علم النفس): هي عند فرويد دراسة الظاهرات النفسية دراسة نظرية ذات أبعاد ثلاثة: بعد دينامي، وبعد طبوغرافي، وبعد اقتصادي أو كمّي. «م».

٦ ـ MULTILOCULAIRES .



آخر»، شيئاً مختلفاً من الناحية الكمية ومن الناحية النوعية على حدّ سواء، فإن السؤال الذي ينطرح في هذه الحال هو معرفة ما إذا كان هذا الشيء الآخر يمكن أن يصبح شعورياً في مكانه أم يتعيَّن عليه بالضرورة، كيما يصير شعورياً، أن ينتقل قبل ذلك إلى النسق **إد**؟

تؤيد الخبرة السريرية الجواب الثاني. فهي تدلّنا على أن ذلك الشيء الآخر يسلك مسلك الحاثة المكبوتة. ففي مقدوره أن يفصح عن قوى دافعة بدون أن يتنبّه الأنا للإكراه الواقع عليه. ولا يصبح هذا الشيء الآخر شعورياً في صورة كدر إلا من جراء المقاومة التي يصطدم بها الإكراه كما من جراء تعليق ردّ الفعل التصريفي. والألم، مثله مثل توتُّر الحاجات، يمكن أن يبقى هو الآخر لاشعورياً، على اعتبار أن هذا الألم هو حلقة متوسطة بين الإدراك الخارجي والداخلي، وأنه يسلك مسلك الإدراك الداخلي حتى ولو كان مصدره العالم الخارجي. يبقى صحيحاً إذاً أن الأحاسيس والمشاعر لا تغدو هي الأخرى شعورية إلا إذا انتقلت إلى النسق **إد**؛ فإذا سُدَّ أمامها طريق الوصول إليه، لم تتحقق في صورة أحاسيس، على الرغم من أن الشيء الآخر الذي يناظرها يبقى هو هو في مسار التنبيه. ونحن نتكلم عندئذ، بطريقة مقتضبة قد لا تكون صحيحة كل الصحة، عن **أحاسيس لاشعورية**، وذلك بالمقايسة مع التمثلات اللاشعورية، وهي مقايسة غير مبررة تمام التبرير. وبالفعل، إن الفارق يتمثل بما يلي: ففي حالة التمثلات اللاشعورية لا بدّ أولاً من إيجاد الحلقات الوسطى لاستياقها إلى **شع**، على حين أنه لا ضرورة لذلك بالنسبة إلى المشاعر التي اتاقل إليه مباشرة. وبعبارة أخرى، إن التمييز بين **شع** و**قشع** لا معنى له على الإطلاق في ما يتصل بالمشاعر، على اعتبار أنه لا وجود لـ«**قشع**» في هذه الحالة، وعلى اعتبار أن الأحاسيس تكون حصراً إما شعورية وإما لاشعورية. وحتى عندما ترتبط الأحاسيس بتمثلات لفظية، فإنها لا تدين لهذه الأخيرة بصيرورتها شعورية، بل تصير كذلك بصورة مباشرة.

إن دور التمثلات اللفظية يغدو الآن واضحاً كل الوضوح. فعن طريقها



تتحول السيرورات التفكيرية الداخلية إلى إدراكات. ويكاد ذلك أن يكون بمثابة برهان على القضية التالية: إن مصدر كل معرفة هو الإدراك الخارجي. وعن طريق توظيف مضاعف لعملية التفكير، يتمّ إدراك الأفكار إدراكاً فعلياً ـ كما لو أنها آتية من الخارج ـ فتعتبر لهذا السبب حقيقية.

بعد أن أوضحنا على هذا النحو العلاقات القائمة بين الإدراكات الخارجية والداخلية والنسق **إد ـ شع** السطحي، نستطيع الآن أن نستكمل بناء تصورنا للأنا. فنحن نرى الأنا يتشكل بدءاً من النسق **إد** بوصفه نواته، ثم لا يلبث أن يحتوي النسق **قشع** الذي يرتكز إلى البقايا الذاكرية. لكن الأنا، كما بتنا نعلم، لاشعوري هو أيضاً.

هنا أعتقد أننا نفيد فائدة جلى إذا ما اتَّبعنا اقتراحات كاتب يؤكد لدوافع شخصية، ومن غير أن يقنعنا، أنه لا صلة له بالدوائر العليا للعلم الدقيق الصارم. أقصد ج. غروديك[7] الذي لا يني يلحّ على أن ما نسمّيه أنانا يسلك في الحياة سلوكاً سلبياً في جوهره، وعلى أننا، إذا شئنا أن نستخدم تعبيره، «**معيوشون**» بقوى مجهولة لا سبيل لنا إلى السيطرة عليها[8]. وقد ساورتنا جميعاً انطباعات كهذه، حتى وإن لم تطغَ علينا إلى حدّ نطرد معه سائر الانطباعات الأخرى؛ ونحن لن نتردد في أن نعيِّن لوجهات نظر غروديك مكانها في بناء العلم. وإني أرى أن نأخذها في اعتبارنا، فنطلق على الكيان الذي يتشكل بدءاً من النسق **إد**، ويكون في أول الأمر قبشعورياً، اسم **الأنا**،

---

٧ ـ فالتر جورج غروديك: طبيب ألماني (١٨٦٦ ـ ١٩٣٤). مارس الطب في بادن ـ بادن واعتمد في علاج الأمراض العصبية على الحمية والتدليك والمعالجة المائية. ثم درس كتابات فرويد بين ١٩١٣ و١٩١٧، وراح يبحث عن الظاهرات اللاشعورية الكامنة وراء الأمراض العضوية. نشر عام ١٩٢١ كتاباً بات من كلاسيكيات التحليل النفسي بعنوان **كتاب الهذا**. وكان غرضه أن يوطّد الصلات بين الحياة اليومية والتحليل النفسي وأن يجعل هذا الأخير مفهوماً للناس كافة. ولكنه ابتداء من عام١٩٢٦ شرع يبتعد عن فرويد . وعلى الرغم من رفيع تقييمه للتقنية التحليلية النفسية، راح يحذّر من أخطار الوقوع في شراك مذهب سيكولوجي كلّي يفسر كل الأمراض بالعلل النفسية. وفي سنة ١٩٣٢ نشر كتابه الأخير: **الكائن البشري كرمز**. «م».

٨ ـ ج. غروديك: **كتاب الهذا** DAS BUCH VOM ES، المنشورات الدولية للتحليل النفسي، ١٩٢٣.



ثم نطلق، على منوال غروديك، على ذلك الجزء الآخر من النفس الذي يتواصل فيه كيان الأنا والذي يسلك مسلكاً لاشعورياً اسم **الهذا**[٩].

سوف نرى حالاً ما إذا كنا نستطيع الإفادة من هذا التصور لنصف الوقائع ونفهمها. فالفرد، على ما نرى، يتألف من «**هذا**» نفسي مجهول ولاشعوري، على سطحه يوجد الأنا الذي نما بدءاً من النسق **إد** باعتباره نواته. وإذا حاولنا أن نعبّر عن هذه العلاقات بيانياً، قلنا إن الأنا لا يغطي الهذا بتمامه، بل يحيط فقط بسطحه المتألف من النسق **إد**، وهذا على نحو ما يحيط القرص الرشيمي بالبيضة. ولا ينفصل الأنا كل الانفصال عن الهذا، بل يندمج وإياه في القسم السفلي منه.

غير أن المكبوت يندمج هو الآخر مع الهذا، إذ لا يعدو في الحقيقة أن يكون جزءاً منه. وعلى حين أن المكبوت ينفصل عن الأنا انفصالاً حاداً من جراء المقاومات الصادرة عن الكبت، نراه يستطيع الاتصال معه عن طريق الهذا. وسنتبيَّن حالاً أن التمييزات التي حدا بنا علم الأمراض إلى وصفها تختصّ جميعها تقريباً بالطبقات السطحية من الجهاز النفسي، وهي الطبقات الوحيدة المعروفة لنا. وبوسعنا أن نضع رسماً لإيضاح كل تلك العلاقات، وهو بطبيعة الحال رسم تتيح لنا خطوطه أن نستحضر تلك العلاقات في ذهننا، بدون أن يلزمنا ذلك بتأويل خاص لها.

---

٩ ـ أرجح الظن أن غروديك نفسه حذا حذو نيتشه الذي يكثر من استخدام هذا التعبير اللغوي ليشير به إلى كل ما هو غير شخصي وإلى كل ما هو خاضع للضرورات الطبيعية في وجودنا.



وربما كان في مقدورنا أن نضيف أن الأنا مجهز أيضاً بـ «فصٍّ» سمعي، ومن طرف واحد كما يدل على ذلك تشريح المخ. ويمكننا القول إنه موضوع عليه على نحو منحرف.

من اليسير أن ندرك أن الأنا هو ذلك الجزء من الهذا الذي طرأ عليه تعديل تحت التأثير المباشر للعالم الخارجي بوساطة النسق **إد ــ شع**، وإنه بنوع ما امتداد للتمايز السطحي. وهو يجاهد أيضاً ليمدّ تأثير العالم الخارجي إلى الهذا وإلى مراميه، ويسعى إلى إحلال مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة الذي يسود بلا منازع في الهذا. ويضطلع الإدراك بالنسبة إلى الأنا بالدور الذي يضطلع به الدافع الغريزي بالنسبة إلى الهذا. ويمثل الأنا ما نستطيع أن نسميه العقل وسلامة المنطق، بالتعارض مع الهذا الحاوي للانفعالات والأهواء. وكل ذلك يتفق مع التمييزات الدارجة المألوفة، ولكن لا يجوز لنا أن نعتبره صحيحاً، إلا بصورة وسطية أو افتراضية.

تتجلى الأهمية الوظيفية للأنا في كونه هو الذي يتولى، في العادة، إمرة المنافذ إلى الطاقة الحركية. ومن ثم فهو يشبه، في علاقته بالهذا، الفارس الذي يتعيَّن عليه أن يلجم قوة الحصان العظيمة، مع الفارق التالي، وهو أن الفارس يحاول أن يفعل ذلك بقواه الذاتية، بينما يفعل الأنا ذلك بالاستعانة بقوة من مصدر آخر. ويذهب بنا هذا التشبيه إلى أبعد من ذلك بعد. فكما أن الفارس لا يملك غالباً، إذا لم يشأ الافتراق عن حصانه، إلا أن يقوده إلى حيث يريد الحصان أن يذهب، كذلك إن الأنا يعمد في العادة إلى تحويل إرادة الهذا إلى فعل، وكأنما هي إرادته الخاصة.

يبدو أن ثمة عاملاً آخر، غير تأثير النسق **إد**، يضطلع بدور في نشوء الأنا وفي انفصاله عن الهذا. فجسم الشخص بالذات، وفي المقام الأول سطحه كله، يمثِّل مصدراً يمكن أن تنبعث منه إدراكات خارجية وداخلية في آن معاً. والجسم يُنظر إليه وكأنه موضوع خارجي، ولكنه يصدِر في الوقت نفسه عند لمسه نوعين من الأحاسيس، يمكن تشبيه أحدهما بإدراك داخلي. وقد درس علم النفس الفزيولوجي درساً كافياً الكيفية التي يميِّز بها الجسم نفسه عن عالم الإدراك. ويبدو أن الألم يضطلع هنا بدور ما، وربما كانت الكيفية التي نكتسب بها، في الأمراض المؤلمة، معرفة جديدة بأعضائنا هي النموذج الذي على نسقه نتوصل



بصفة عامة إلى تكوين فكرتنا عن جسمنا الخاص.

إن الأنا في المقام الأول أنا جسماني، وما هو بمحض كيان سطحي، وإنما هو نفسه إسقاط لسطح[١٠]. وإذا بحثنا عن مقايسة تشريحية، فخير ما نفعله أن نشبهه بـ «القزم المخي»[١١] عند علماء التشريح، ذلك القزم الذي يوجد في لحاء المخ، ورأسه إلى أسفل، وقدماه إلى أعلى، ونظره متجه إلى الخلف، ومنطقة الكلام عنده تقع، كما هو معلوم، إلى اليسار.

لقد وُصِفت تكراراً العلاقات بين الأنا والشعور، لكن بعض الوقائع المهمة تستأهل هنا التنويه بها من جديد. فبما أننا اعتدنا أن ننقل معنا أينما حللنا وجهة نظر التقييم الاجتماعي أو الأخلاقي، فإنه لا يفجؤنا أن نسمع أن مسرح نشاطات الانفعالات الدنيا هو اللاشعور، لكننا نتوقع بالمقابل أن تنفذ الوظائف النفسية إلى الشعور بسهولة أكبر وأمان أكثر بقدر ما يكون موقعها أرفع في سلَّم القيم ذاك. لكن هنا تخيِّب الخبرة التحليلية النفسية ظننا. فنحن نملك من جهة أولى الدليل على أنه يمكن حتى لتلك العمليات الذهنية الرهيفة والمعقدة، التي تتطلب في العادة تفكيراً مركَّزاً، أن تتمّ قبشعورياً، بدون أن تصل إلى الشعور. ومثل هذه الوقائع لا تقبل مماراة فيها، وهي تحدث مثلاً في أثناء النوم، وتتجلى في أن شخصاً بعينه، بعد أن يكون كدّ ذهنه طوال النهار ليحلّ مسألة صعبة رياضية أو غير رياضية، يجد نفسه حال استيقاظه وقد اهتدى إلى حلِّها[١٢].

١٠ ـ أي أن الأنا مشتق في نهاية المطاف من الأحاسيس البدنية، وعلى الأخص تلك الأحاسيس التي يكمن مصدرها في سطح البدن. وعلى هذا يمكن اعتباره إسقاطاً ذهنياً لسطح البدن، ثم إنه يمثّل فضلاً عن ذلك، كما رأينا آنفاً، سطح الجهاز الذهني.

١١ ـ القزم المخي HOMONCULE CEREBRAL: من المعلوم أن المراكز العصبية التي تتحكم بحركة الطرفين السفليين توجد في أعلى لحاء المخ، بينما توجد المراكز العصبية التي تتحكم بحركة الطرفين العلويين والرأس في أسفل اللحاء. ولهذا تلجأ كتب التشريح، لتوضيح هذه الواقعة، إلى رسم قزم أو جنين في وضع مقلوب. «م».

١٢ ـ لقد نُقلت إلى علمي مؤخراً حالة من هذا القبيل، وقد سيقت في الواقع في صورة اعتراض على توصيفي لـ «عمل الحلم».



وهناك مشاهدة أخرى أكثر غرابة بكثير بعد. فنحن نلاحظ في أثناء التحاليل التي نقوم بها أن ثمة أشخاصاً يكون لديهم النقد الذاتي والضمير ـ وهما وظيفتان نفسيتان توضعان في مرتبة من أعلى المراتب ـ لاشعوريين ويؤتيان، من حيث أنهما لاشعوريان، نتائج في غاية الأهمية. وعلى هذا، إن المقاومة التي تبقى لاشعورية في أثناء التحليل ليست بحال من الأحوال واقعة فريدة في نوعها. غير أن التجربة الجديدة التي ترغمنا، على الرغم من كل حسّنا النقدي، على الكلام عن **شعور لاشعوري بالذنب**، تحيِّرنا أكثر بكثير بعد. فهي تطرح ألغازاً، ولا سيما عندما نستشفّ تدريجياً أن هذا الشعور اللاشعوري بالذنب يلعب دوراً اقتصادياً حاسماً في عدد كبير من الأمراض العصابية وينصب في وجه الشفاء أعتى العوائق. فإذا عدنا الآن إلى سلِّمنا للقيم وجب علينا أن نقول: ليس أعمق ما في الأنا هو وحده الذي يمكن أن يكون لاشعورياً، وإنما كذلك أرفع وأسمى ما فيه. ولكأنه قام لدينا على هذا النحو البرهان على ما كنا ذكرناه آنفاً عن الأنا الشعوري من أنه في المقام الأول أنا/ جسم.



٣

الأنا والأنا الأعلى (مثال الأنا)

لو لم يكن الأنا سوى ذلك الجزء المعدَّل من الهذا تحت تأثير النسق الإدراكي، الذي هو ممثل العالم الخارجي الواقعي في النفس، لكان الموقف في غاية البساطة. ولكن في الأمر شيئاً آخر.

لقد أوضحنا في مكان آخر[١] الاعتبارات التي حدت بنا إلى التسليم بوجود مرتبة في الأنا، ناتجة عن تمايز في داخل الأنا، يخلق بنا أن نسمّيها **مثال الأنا** أو **الأنا الأعلى**. وهذه الاعتبارات لا تزال تحتفظ بقيمتها كاملة[٢]. والنقطة الجديدة التي تستوجب إيضاحاً هي أن علاقة ذلك الجزء من الأنا بالشعور ليست وثيقة إلى هذا الحدّ.

لزام علينا هنا أن نوسع دائرة بحثنا قليلاً. فقد كنا توصلنا إلى تفسير تلك الإصابة المؤلمة التي تعرف بالسويداء بفرَض مؤداه أن الموضوع المفقود يعاود انبثاقه

١ ـ **من أجل إدخال النرجسية**(*)، وكذلك: **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**(**).

(*) انظر الترجمة العربية لهذا النص في: **الحياة الجنسية** في المجلد الرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».

(**) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب في المجلد السابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».

٢ ـ سوى أنني اقترفت غلطة تستوجب تصحيحاً، إذ عزوت إلى هذا الأنا الأعلى وظيفة امتحان الواقع. فأما أن وظيفة امتحان الواقع هذه تعود إلى الأنا نفسه، فهذا ما يتفق على أكمل وجه مع علاقات الأنا بعالم الإدراك. وقد صدرت عني أيضاً في الماضي أقوال لا تخلو من الإبهام حول **نواة الأنا**، ومن الواجب الآن تصحيح هذه الأقوال بحيث يمسي النسق **إد**(*) ـ **شع** هو وحده الذي ينبغي أن يعتبر نواة الأنا.

(*) **إد** (أو **دك**): اختصار للنسق الإدراكي. «م».

٣ ـ **الحداد والسويداء** (انظر الترجمة في **ما بعد علم النفس** في المجلد الخامس من **المؤلفات شبه الكاملة**) «م».



في الأنا، أي أن التوظيف الموضوعاني قد أخلى مكانه للتماهي[٣]. لكننا ما كنا نعرف بعد حينذاك كل دلالة تلك السيرورة، وما كنا نعلم كم هي متواترة ونمطية. وقد فهمنا منذئذ أن مثل هذا الإبدال يضطلع بدور كبير في نشوء الأنا ويسهم إسهاماً جوهرياً في تكوين ما يسمى بطبعه.

في البدايات الأولى، وفي الطور الفموي البدائي عند الفرد، يكون من الصعب في أرجح الظن التمييز بين التوظيف الموضوعاني والتماهي. وفي زمن لاحق يمكننا فقط الافتراض أن التوظيفات الموضوعانية تنطلق من الهذا الذي يستشعر الميول الإيروسية على أنها حاجات. وتكون للأنا، الذي يبقى في البداية ضعيفاً، معرفة ما بالتوظيفات الموضوعانية، ولا يكون أمامه غير أن يقبل بها أو أن يسعى إلى أن يقي نفسه منها بوساطة سيرورة الكبت[٤].

عندما يتفق أن يتخلى أحد الأشخاص عن هذا الموضوع الجنسي أو إذا ما أُكره على ذلك إكراهاً، لا يندر أن يطرأ من جراء ذلك تغيُّر في الأنا ينبغي وصفه، تماماً كما يحدث في السويداء، بأنه انبثاق للموضوع في الأنا؛ ونحن لا نعلم بعد على وجه الدقة كيف تتم عملية الإبدال هذه. وربما كان الأنا، بقيامه بهذا الاستدماج الذي هو ضرب من النكوص إلى آلية المرحلة الفموية، يسهِّل التخلي عن الموضوع أو يجعل هذا التخلي ممكناً. وربما كان هذا التماهي بصفة عامة الشرط اللازم لتخلي الهذا عن مواضيعه. ومهما يكن من أمر، فإن هذه السيرورة كثيرة التواتر، وعلى الأخص في المراحل المبكرة من النمو، مما يفسح أمامنا في المجال للافتراض بأن طبع الأنا هو من رواسب التوظيفات الموضوعانية المهجورة، ويحتوي على تاريخ هذه الاختيارات الموضوعانية. وبطبيعة الحال،

٤ ـ يمكننا أن نجد موازياً مثيراً للاهتمام للاستعاضة عن الحب الموضوعاني بالتماهي في اعتقاد البدائيين ـ وفي المحظور الذي شادوه على أساس هذا الاعتقاد ـ بأن خواص الحيوانات المستبدنة في صورة قوت تبقى كجزء من طبع الشخص الذي يأكلها. ويؤلف هذا الاعتقاد، كما هو معلوم، واحداً من جملة الأسس التي تقوم عليها عادة أكل لحوم البشر، ويظل يفعل فعله في سلسلة العادات التي تمتد من الوليمة الطوطمية إلى تناول القربان المقدس[*]. والنتائج التي تعزى، بموجب ذلك الاعتقاد، إلى السيطرة الفموية على الموضوع تصدق فعلياً فيما بعد على الاختيار الموضوعاني الجنسي.

(*) القربان المقدس: عقيدة مسيحية تقول بتناول جسد المسيح ودمه أثناء القداس. «م».



ينبغي من بادئ الأمر أن نسلِّم بأن القدرة على المقاومة تكون على درجات، وهذا التفاوت هو الذي يحدد مقدار تقبُّل الفرد لتلك التأثيرات النابعة من تاريخ الاختيارات الموضوعانية الإيروسية أو على العكس مقدار دفاعه عن نفسه ضدها. ويتراءى لنا أننا نستطيع بسهولة أن نجد لدى بعض النساء اللائي عرفن تجارب حب متعددة آثاراً في قسماتهن الطبْعية من توظيفاتهن الموضوعانية. وينبغي أن نأخذ في اعتبارنا أيضاً وجود ضرب من التواقت بين التوظيف الموضوعاني والتماهي، وبالتالي حدوث تغيُّر في الطبع قبل التخلي عن الموضوع. وفي هذه الحالة يمكن لتغيُّر الطبع أن يبقى مستمراً بعد زوال العلاقة الموضوعانية، بله أن يصونها ويحفظها على نحو من الأنحاء.

نستطيع أن نقول، من وجهة نظر أخرى، إن هذا التحول للاختيار الموضوعاني الإيروسي إلى تغيُّر في الأنا هو أيضاً طريق من الطرق التي يمكن للأنا من خلالها أن يسيطر على الهذا وأن يوثِّق علاقاته به، وإن يكن ثمن ذلك في الحق طواعية كبيرة وانقياداً إزاء تجارب الهذا المعاشة. وعندما يتبنى الأنا قسمات الموضوع يفرض نفسه بنفسه، بمعنى ما، على الهذا كموضوع للحب، ويسعى إلى تعويضه عما فقده بقوله له: «بوسعك أن تحبني أنا أيضاً، انظر كم أشبه الموضوع!».

إن تحول الليبيدو الموضوعاني إلى ليبيدو نرجسي، على نحو ما يحدث هنا، يستتبع كما هو ظاهر للعيان عزوفاً عن الأهداف الجنسية، ونزعاً للصفة الجنسية DESEXUALISATION، أي ضرباً من الإسماء SUBLIMATION. بل ثمة سؤال يعرض لنا هنا وهو يستوجب دقة في التمحيص: أليس ذلك هو الطريق العام نحو الإسماء؟ ألا يحدث كل إسماء بوساطة الأنا الذي يشرع أولاً بتحويل الليبيدو الجنسي إلى ليبيدو نرجسي وربما ليسند إليه بعد ذلك هدفاً آخر؟[٥] وهذا التحويل، ألا يمكن أن تكون نتيجته تقلبات أخرى في مصائر الدوافع الغريزية، وعلى سبيل المثال انفصال

٥ ـ أما وقد ميَّزنا الآن بين الأنا والهذا، فعلينا أن نقرّ بأن الخزان الكبير لليبيدو، على نحو ما أوضحته في مقالتي **«من أجل إدخال النرجسية»**، إنما هو الهذا. والليبيدو الذي يتدفق نحو الأنا من جراء التماهيات التي وصفناها هنا يؤلف **«نرجسيته الثانوية»**.



بين مختلف الدوافع الغريزية المنصهرة فيما بينها؟ إن لنا إلى ذلك عودة لاحقة.

لا مفرّ لنا هنا، بالقياس إلى الهدف الذي ننشده، من استطراد نتوقف معه بانتباهنا عند التماهيات الموضوعانية للأنا. فعندما ترجح كفة هذه التماهيات، ويكثر عددها وتعظم قوتها وتغدو متنافية فيما بينها، فلنا عندئذ أن نتوقع أن تتمخض عن نتيجة مرَضَية. وقد يصل الأمر هنا إلى حدّ حدوث تفكك في الأنا، إذ إن التماهيات المتحققة واحداً تلو الآخر تنعزل عن بعضها بعضاً أيضاً من جراء المقاومات؛ وربما كان سر الحالات التي تسمى **بتعدد الشخصية** يرجع إلى أن التماهيات المتعاقبة المختلفة تستأثر بالشعور وتحتكره بالتناوب. ولكن حتى إذا لم تصل الأمور إلى هذا الحدّ، تظل تدور رحى الصراع بين مختلف التماهيات، فينقسم الأنا فيما بينها، علماً بأن مثل هذا الصراع لا يمكن اعتباره على الدوام، وبصفة إلزامية، باتولوجياً.

مهما يكن الشكل الذي يمكن أن تتلبسه لاحقاً قدرة الطبع على مقاومة تأثيرات التوظيفات الموضوعانية المهجورة، فإن نتائج التماهيات الأولى، التي تحدث في الأطوار المبكرة من الحياة، ستحتفظ بطابع عام ودائم. وهذا ما يرجعنا مرة أخرى إلى نشوء مثال الأنا، إذ خلفه يختفي أول تماهٍ وأهمّ تماهٍ لدى الفرد، وأعني به التماهي مع الأب في طور ما قبل التاريخ الشخصي[٦]. ولا يلوح أن هذا التماهي عاقبة أو نتيجة لتوظيف موضوعاني؛ وإنما هو تماهٍ مباشر، فوري، أسبق في الزمن من أي توظيف موضوعاني. غير أن الاختيارات الموضوعانية، التي يرجع عهدها إلى المرحلة الجنسية الأولى وتتصل بالأب وبالأم، تبدو وكأنها تتأدى، إذا ما سارت مسارها العادي، إلى تماهٍ من هذا القبيل، يأتي ليعزز التماهي الأولي.

مهما يكن من أمر، فإن هذه العلاقات بالغة التعقيد بحيث لن نجد مناصاً من أن نصفها بمزيد من التدقيق. وثمة عاملان يكمنان وراء هذا التعقيد: الوضع

٦ ـ ربما كان من الأسلم القول: «التماهي مع الوالدين»، إذ قبل أن تتحصل معرفة يقينية بالفارق بين الجنسين، أي غياب القضيب، لا يمكن أن تُخلع على كل من الأب والأم قيمة مختلفة. وقد تسنى لي مؤخراً أن أدرس حالة امرأة صبية أقنعت نفسها، ابتداء من اللحظة التي عاينت فيها افتقادها للقضيب، بأن هذا العضو لا ينقص النساء جميعاً، وإنما ينقص فقط أولئك اللائي هنّ في نظرها من مرتبة أدنى. وقد كان يتراءى لها أن أمها حافظت على قضيبها. وتبسيطاً للعرض، لن أتكلم إلا عن التماهي مع الأب.



الثلاثي للعلاقة الأوديبية، والجنسية الثنائية في جِبلَّة الفرد.

إن حالة الطفل الذكر تتبدى، في صورتها المبسَّطة، على النحو التالي: فبادئ ذي بدء يشرع الطفل بتوظيف موضوعاني حيال أمه، يكون منطلقه الأول الثدي الأموي[٧]، ويمثل النموذج النمطي لاختيار موضوعاني من النمط الاتكالي[٨]؛ أما الأب فإن الطفل الذكر يستولي عليه بالتماهي. وتتماشى هاتان العلاقتان جنباً إلى جنب ردحاً من الزمن إلى أن تزداد الرغبات الجنسية إزاء الأم شدة ويتبدى الأب في إدراك الطفل وكأنه عقبة في وجه هذه الرغبات، فتعلن من ثم عقدة أوديب عن ظهورها[٩]. وعندئذ يتخذ التماهي مع الأب صبغة عدائية، وينقلب إلى رغبة في التخلص منه والحلول محله لدى الأم. ومنذ ذلك الحين فصاعداً تمسي العلاقة بالأب متناقضة وجدانياً؛ فلكأني بالازدواجية الوجدانية، المباطنة من البداية للتماهي، تسفر الآن عن وجهها. وموقف الازدواجية الوجدانية إزاء الأب والميل الموضوعاني الحبي الخالص نحو الأم يمثِّلان لدى الصبي مضمون عقدة أوديب العادية، الإيجابية.

عند تصفية عقدة أوديب يتعيَّن العزوف عن التوظيف الموضوعاني للأم. ومن الممكن أن ينوب منابه واحد من احتمالين: إما التماهي مع الأم، وإما تعزيز التماهي مع الأب. وقد درجت بنا العادة على اعتبار هذا المخرج الثاني هو الأكثر سواء؛ فهو يسمح بالإبقاء إلى حدّ ما على العلاقة الودّية مع الأم. وبزوال عقدة أوديب تكون الذكورة في طبع الصبي من ثم قد تعضَّدت. وعلى نحو مماثل تماماً، يمكن أن يتأدى الوضع الأوديبي للبنت الصغيرة إلى تعزيز لتماهيها مع الأم

٧ ـ قواميس اللغة لا تنسب إلى الأم بـ «أموي». ولكن بما أن «الأمي» تعني من لا يعرف القراءة والكتابة، وبما أن النسبة إلى الأم هي من المفردات الأساسية في التحليل النفسي، فقد وجدتنا مضطرين إلى مخالفة الأصول القاموسية وإلى القول: الثدي الأموي، الموضوع الأموي، العلاقة الأموية. إلخ. «م».

٨ ـ يميّز فرويد في مقاله **«من أجل إدخال النرجسية»** (١٩١٤) بين نمطين في الاختيار الموضوعاني في الحب: النمط الاتكالي (ANACLITIQUE أو PAR ETAYAGE) والنمط النرجسي. فبموجب النمط الأول يختار الفرد مواضيعه الحبِّية بحسب نموذج المرأة التي تُرضِع وتقيت وبحسب نموذج الرجل الذي يحمي؛ وبموجب النمط الثاني يختار مواضيعه الحبية بحسب ما هو كائن عليه هو ذاته أو بحسب ما كان يودّ أن يكونه «م».

٩ ـ **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**، الفصل السابع.



(أو إلى بناء لهذا التماهي)، مما يوطّد الطبع الأنثوي للطفلة.

إن هذه التماهيات لا تطابق تمام المطابقة توقعاتنا، لأنها لا تتضمن استدخال الأنا للموضوع المهجور؛ لكن هذا المخرج ممكن بدوره، وملاحظته لدى البنت أيسر من ملاحظته لدى الصبي. وغالباً ما يفيدنا التحليل أن البنت الصغيرة، بعد أن تتخلى عن الأب بوصفه موضوعاً حبّياً، تأخذ عندئذ بإظهار ذكورتها وتتماهى لا مع الأم، بله مع الأب، أي مع الموضوع المفقود. وهذا يتعلق بطبيعة الحال بمدى قوة استعداداتها الذكَرية ـ أياً ما كانت على أية حال طبيعتها.

يبدو إذاً أن القوة النسبية للاستعداد الجنسي المذكر أو المؤنث هي التي تحدد ما إذا كان الموقف الأوديبي سيتمخض عن تماهٍ مع الأب أو مع الأم. وهذه واحدة من الكيفيات التي تتدخل بها الجنسية الثنائية في مصائر عقدة أوديب. والكيفية الأخرى أكثر أهمية بعد. وبالفعل، يتراءى لنا أن عقدة أوديب البسيطة ليست هي على الإطلاق الأكثر تواتراً، وإنما تمثّل في الحقيقة تبسيطاً أو تعميماً تجريدياً، له على كل حال ما يبرره غالباً في الممارسة العملية. ومن شأن التدقيق في التقصي أن يكشف في معظم الأحيان عن عقدة أوديب في **شكلها الأكثر كمالاً**، بصورتها المزدوجة، الإيجابية والسلبية، المرتبطة بالجنسية الثنائية الأصلية عند الطفل: فالصبي لا يقف فقط إزاء الأب موقفاً مزدوجاً من الناحية العاطفية ولا يتخذ فقط من الأم موضوعاً لاختيار حبّي، بل يسلك أيضاً في الوقت نفسه مسلك البنت إذ يتخذ من الأب موقفاً أنثوياً حبّياً ومن الأم موقفاً مقابلاً مبنياً على العداء والغيرة. وتدخُّل الجنسية الثنائية هذا يجعل من الصعوبة بمكان الاستبصار بطبيعة العلاقات بين الاختيارات الموضوعانية الأولى والتماهيات البدائية، ومن الصعوبة بقدر أكبر وصف هذه العلاقات وصفاً يقع في متناول الفهم. ومن الممكن أيضاً أن تكون الازدواجية العاطفية التي تُلحظ في العلاقات بالوالدين قابلة للتفسير بتمامها بالجنسية الثنائية، وليست ناشئة، كما ذكرت أعلاه، عن التماهي وكنتيجة لمسلك تنافسي.

أعتقد أننا نفعل حسناً إذا افترضنا وجود عقدة أوديب الكاملة بصفة عامة،



وعلى الأخص لدى العصابيين. وعندئذ تدلنا الخبرة التحليلية أن أحد العنصرين المكوِّنين للعقدة يتلاشى في العديد من الحالات ولا يترك أثراً ظاهراً، بحيث نجدنا أمام سلسلة يمثِّل أحد طرفيها عقدة أوديب السوية الموجبة، وطرفها الآخر العقدة المعكوسة، السالبة، بينما تمثِّل الحلقات المتوسطة الصورة الكاملة، مع مشاركة متفاوتة لكلا المقوِّمين. وعند زوال عقدة أوديب تأتلف الميول الأربعة التي تتكون منها على نحو ينجم عنه تماهٍ مع الأب وتماهٍ مع الأم: فالتماهي مع الأب سيحفظ الموضوع الأموي للعقدة الموجبة وسيحلّ في الوقت نفسه محل الموضوع الأبوي للعقدة المعكوسة؛ وهذا يصدق بطريقة مماثلة على التماهي مع الأم، مع مراعاة تغيُّر العلاقات. والتفاوت في شدة كل من هذين التماهيين سيكون بمثابة انعكاس لعدم التساوي بين الاستعدادين الجنسيين.

بوسعنا إذاً أن نفترض أن أعم نتيجة للمرحلة الجنسية التي تهيمن عليها عقدة أوديب هي الأثر الذي يترسب في الأنا من جراء حدوث ذينك التماهيين بصورة متناغمة بنوع ما. وهذا التغيُّر الطارئ على الأنا يحتفظ بوضعه الخاص، ويقف موقف المعارضة من باقي مضمون الأنا بوصفه مثال الأنا أو الأنا الأعلى.

غير أن الأنا الأعلى ليس مجرد رسابة للاختيارات الموضوعانية الأولى للهذا، بل هو يمثِّل أيضاً تشكيلاً ارتجاعياً قوياً ضد هذه الاختيارات. وعلاقاته بالأنا لا يختصرها هذا الأمر: عليك أن تكون كذا وكذا(مثل أبيك)، بل تشتمل أيضاً على هذا النهي: **لا يحقُّ لك** أن تكون كذا وكذا (مثل أبيك)، أي لا يحلُّ لك أن تفعل كل ما يفعله؛ فبعض الأمور وقف عليه وحده. وهذا الوجه المزدوج لمثال الأنا مشتقّ من كون مثال الأنا بذل قصاراه من أجل كبت عقدة أوديب، بل من كونه لم يرَ النور أصلاً إلا بفضل الثورة عليها. وبديهي أن كبت عقدة أوديب لم يكن مهمة سهلة. فالأنا الطفلي، الذي أدرك أن الوالدين، وبخاصة الأب، هما العقبة التي تعترض سبيل الرغبات الأوديبية، عمد إلى نصب هذه العقبة في داخل نفسه لكي يشدَّ من أزر نفسه وينجز ذلك الكبت. وإنما من الأب استعار بصورة ما القوة اللازمة، وهذه الاستعارة هي فعل تترتب عليه



نتائج جسام. فالأنا الأعلى سيحتفظ بطبع الأب؛ وبقدر ما كانت عقدة أوديب قوية، وبقدر ما تكون قد تمّ كبتها بسرعة (تحت تأثير السلطة والتوجيه الديني والتعليم والمطالعات)، فستكون أشدَّ وطأة في المستقبل سيطرة الأنا الأعلى على الأنا، في صورة الضمير، بله في صورة الإحساس اللاشعوري بالذنب. ـ فمن أين يستمد الأنا الأعلى القوة ليفرض هذه السيطرة، ومن أين يستمد طابعه الإكراهي الذي يأخذ صورة آمر مطلق[10]؟ هذا ما سأتقدّم بصدده بفرض في وقت لاحق.

إذا نظرنا مرة أخرى في نشوء الأنا الأعلى كما تقدم بنا وصفه، فسنلاحظ أنه نتيجة لعاملين بيولوجيين، كلاهما في غاية من الأهمية: طول زمن حالة العوز والتبعية المقضيّ بهما على الكائن البشري في طفولته، وعقدته الأوديبية التي أرجعناها إلى التوقُّف في نمو الليبيدو من جراء مرحلة الكمون، أي بالتالي إلى انبناء حياته الجنسية **على مرحلتين**[11]. وهذه الخاصية الأخيرة، وهي وقف على الإنسان وحده على ما يظهر، ترى فيها إحدى نظريات التحليل النفسي إرثاً للتطور نحو الحضارة كما فرضته الحقبة الجليدية[12]. وهكذا لا يكون تمايز الأنا الأعلى عن الأنا قد حدث اتفاقاً وصدفة، بل هو يحمل أبرز سمات تطور الفرد وتطور النوع؛ بل إنه، إذ يعطي تعبيراً دائماً لتأثير الوالدين، يخلع صفة الديمومة على وجود العوامل التي يدين لها بنشأته.

لقد عيب على التحليل النفسي تكراراً أنه لا يحفل بالجانب السامي، الخلقي،

---

١٠ ـ الآمر المطلق: مفهوم مقتبس من فلسفة عمانويل كانط الأخلاقية. وهو الآمر الذي لا يعلو أي شرط على شرطه ولا يحتاج بالتالي إلى أي تبرير من خارجه ولا يكون العمل أخلاقياً إلا بقدر ما يتقيَّد به. «م».

١١ ـ صحّح فرويد بنفسه هذه الفقرة على النحو التالي في الطبعة الإنكليزية لعام ١٩٢٧: «نتيجة عاملين، كلاهما في غاية الأهمية، واحد من طبيعة بيولوجية، وآخر من طبيعة تاريخية: طول زمن حالة العوز والتبعية الطفليين المقضيّ بهما على الكائن البشري، وعقدته الأوديبية التي بيّنا أن كبتها مرتبط بتوقف النمو الليبيدوي من جراء مرحلة الكمون، أي بالتالي بانبناء الحياة الجنسية للكائن البشري على مرحلتين».

١٢ ـ فيرنزي هو الذي قال بهذه النظرية. «م».



ما فوق الشخصي، من الإنسان. وقد كان هذا المأخذ ظالماً، سواء أمن وجهة النظر التاريخية أم من وجهة النظر المنهجية. فمن وجهة النظر الأولى كنا عزونا، منذ البداية، إلى الميول الأخلاقية والجمالية في الأنا وظيفة التحضيض على الكبت؛ ومن وجهة النظر الثانية، لمْ يشأ أصحاب ذلك المأخذ أن يدركوا أن المبحث التحليلي النفسي ما كان له أن يظهر إلى حيِّز الوجود بجهاز نظري كامل وجاهز، كما هو الشأن في مذهب من المذاهب الفلسفية، بل كان عليه أن يشقّ طريقه خطوة خطوة نحو فهم التعقيدات النفسية على ضوء التفكيك التحليلي للظاهرات السوية واللاسوية على حدّ سواء. وبقدر ما كانت مهمتنا تملي علينا أن نقف مجهودنا على دراسة المكبوت في الحياة النفسية، ما كانت تخامرنا حاجة إلى أن نشاطر قلق أولئك الذين كان يشغلهم أن يعرفوا أين تركنا ما هو متعالٍ وسامٍ في الإنسان. أما وقد جازفنا الآن بتحليل الأنا، ففي مستطاعنا أن نردّ على جميع أولئك الذين اعترضوا علينا، وقد جُرحت مشاعرهم الخلقية، بقولهم إنه لا بدّ أن يكون في الإنسان، رغماً عن كل شيء، جوهر سام، فنقول بدورنا: ذلك لا ريب فيه، وهذا الجوهر السامي هو هو مثال الأنا أو الأنَا الأعلى، ممثل علاقتنا بوالدينا. فيوم كنا أطفالاً صغاراً عرفنا تلك الكائنات السامية، وأعجبنا بها، وخشيناها، وفي زمن لاحق تمثّلناها في داخل أنفسنا.

مثال الأنا هو وريث عقدة أوديب إذاً، ويعبّر بالتالي عن أقوى الحاثات وعن أهم مصائر الليبيدو في الهذا. وعن طريق بنائه يضمن الأنا سيطرته على عقدة أوديب، ويضع نفسه بنفسه في الوقت عينه تحت سلطان الهذا. وعلى حين أن الأنا هو في جوهره ممثل للعالم الخارجي، ممثل للواقع، فإن الأنا الأعلى ينتصب في قبالته بصفته مفوَّض العالم الداخلي، مفوَّض الهذا. والمنازعات بين الأنا والمثال ستكون بمثابة انعكاس في نهاية المطاف ـ وقد بتنا الآن على استعداد للتسليم بذلك ـ للتعارض بين ما هو واقعي وما هو نفسي، بين العالم الخارجي والعالم الداخلي.

إن ما أبدعته وأودعته البيولوجيا ومصائر النوع البشري في الهذا يستعاد من قبل الأنا عن طريق تشكيل المثال ويعاش من قبله من جديد على المستوى



الفردي. والأنا الأعلى، بحكم تاريخ نشأته، يرتبط بأوثق الروابط بالمكتسبات السلالية للفرد وبميراثه الأثري. وهكذا، إن ما يخصّ الأعماق البعيدة الغور للحياة النفسية الفردية يرقى به تكوين المثال إلى أسمى ما في النفس البشرية، وهذا بمقياس سُلَّمنا للقيم. ولكن لن يكون جهدنا إلا جهداً ضائعاً فيما لو حاولنا ان نعيِّن موقع مثال الأنا، وإن بالكيفية عينها التي عيَّنَّا بها موقع الأنا، أو فيما لو شئنا أن نكرهه على الدخول في واحدة من المقارنات التي حاولنا عن طريقها تشخيص علاقة الأنا بالهذا.

إنه لمن اليسير علينا أن نبيِّن أن مثال الأنا يلبي جميع المتطلبات المطروحة على الماهية السامية للإنسان. فهو، بصفته تشكيلاً بديلاً يسدّ مسدّ الحنين إلى الأب، يحتوي البذرة التي بدءاً منها نشأت الأديان جميعاً. وعندما يقارن الأنا نفسه بمثاله، فإن الحكم الذي يصدره على تقصيره الشخصي يولِّد ذلك الشعور بالتواضع والخشوع الديني الذي عليه يكون تعويل المؤمن في ورعه وتوقه. وفي مجرى التطور اللاحق يتابع المعلمون والسلطات دور الأب؛ فتبقى أوامرهم ونواهيهم قائمة بتمام قوتها في الأنا المثالي[١٣]، وتمارس مذ ذاك فصاعداً، في صورة **الضمير**، الرقابة الأخلاقية. والتوتر بين مطالب الضمير وأفعال الأنا يكون له في النفس وقع **الشعور بالذنب**. وترتكز المشاعر الاجتماعية على تماهيات مع أشخاص آخرين من منطلق مثال أنوي واحد.

لقد كان كل من الدين والأخلاق والحس الاجتماعي ـ هذه المضامين الأساسية لما هو أسمى ما في الإنسان[١٤] ـ شيئاً واحداً في الأصل. وبموجب فرضيتنا في «**الطوطم والتابو**»[١٥]، جرى اكتساب هذه المضامين سلالياً بالارتباط مع العقدة الأبوية: الدين والوازع الأخلاقي مع السيطرة على عقدة أوديب حصراً، والمشاعر الاجتماعية مع بروز ضرورة التغلب على المنافسة التي

١٣ ـ لنلاحظ هنا أن فرويد لا يميِّز بين مثال الأنا والأنا المثالي، على عكس ما سيفعل الجيل التالي من أنصار التحليل النفسي. «م».

١٤ ـ ندع جانباً هنا العلم والفن.

١٥ ـ انظر ترجمتنا لكتاب فرويد هذا في المجلد السابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».



كانت لا تزال قائمة بين أفراد الجيل الناشئ. وفي جميع هذه المكتسبات الأخلاقية يبدو أن الجنس المذكر كان هو السباق، وأن هذا الميراث انتقل إلى النساء أيضاً عن طريق وراثة متصالبة. وإلى يومنا هذا لا تزال المشاعر الاجتماعية تتولد لدى الفرد بوصفها بنية فوقية ترتفع فوق حوافز التنافس الغيور حيال الإخوة والأخوات. وبما أن العداء غير قابل للإشباع، فإنه ينشأ من جراء ذلك تماهٍ مع الشخص الذي كان هو المنافس في الأصل. والمشاهدات التي أجريت على حالات خفيفة من الجنسية المثلية تؤيد الفرض الذي يقول إن هذا التماهي بديل، هو الآخر، عن اختيار موضوعاني حبّي حلَّ محلَّ الموقف العدواني ـ العدائي[١٦].

غير أن تطرُّقنا إلى التطور السلالي يضعنا أمام معضلات جديدة قد نميل إزاءها إلى التملص بكل حذر من محاولة حلِّها. لكن ذلك أمر لا مندوحة عنه، ولا مفر من اجتياز الامتحان، حتى ولو كنا نخشى أن يميط اللثام عن كل قصور مجهودنا. والمسألة هي كالآتي: أي من الاثنين هو من اكتسب الدين والأخلاق بالارتباط مع العقدة الأبوية، أأنا الإنسان البدائي أم الهذا؟ فإن يكن هو الأنا، فلماذا لا نتكلم بكل بساطة عن وراثة في الأنا؟ وإن يكن هو الهذا، فكيف يتفق ذلك مع طبيعته؟ أم أنه من المحظور أن نُرجِع إلى مثل تلك الأزمنة الغابرة التمايزَ بين الأنا والأنا الأعلى والهذا؟ أم أنه يتوجب علينا أيضاً أن نقرّ بكل استقامة بأن كل تصورنا عن سيرورات الأنا لا يجدي فتيلاً في فهم التطور السلالي ولا ينطبق عليه؟

لنجب بادئ ذي بدء عن الأسئلة الأكثر سهولة من غيرها. إن التمايز إلى الأنا والهذا يجب أن نعزوه لا إلى البشر البدائيين وحدهم، بل أيضاً إلى كائنات حية أكثر بساطة بكثير، لأنه التعبير الضروري عن تأثير العالم الخارجي. أما الأنا الأعلى فقد اشتققناه مباشرة من الخبرات المعاشة التي أفضت إلى الطوطمية. وسرعان ما سيتبدى لنا على هذا الأساس أن السؤال المتعلق بمعرفة هل الأنا أو الهذا هو الذي خبرَ هذه

١٦ ـ انظر: **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**، وكذلك **بعض الآليات العصابية في الغيرة والبارانويا والجنسية المثلية** (انظر ترجمة هذا المقال في **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي** في المجلد الرابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».



التجارب لا يعود ذا دلالة. فالتمعن في التفكير يدلنا حالاً أن الهذا لا يمكن أن يخبر تجربة خارجية أو يمرّ بها إلا بوساطة الأنا الذي يمثِّل لديه العالم الخارجي. لكننا لا نستطيع مع ذلك أن نتكلم عن انتقال وراثي مباشر في الأنا. فهنا تنفغر الهوة بين الفرد الواقعي ومفهوم النوع. كما لا يجوز لنا أن نصطنع تمييزاً جامداً بين الأنا والهذا، ناهيك عن أنه ينبغي ألا يغرب عنا أن الأنا جزء من الهذا طرأ عليه تمايز خاص. ويلوح أن خبرات الأنا المعاشة تضيع وتتبدد في أول الأمر بالنسبة إلى الميراث الوراثي، بيد أنها إذا ما تكررت بتواتر وقوة كافيين لدى عدد كبير من الأفراد، وتعاقبت جيلاً بعد جيل، فإنها تتحول، إذا جاز لنا القول، إلى خبرات معاشة للهذا، تبقى آثارها محفوظة بالوراثة. وعلى هذا النحو يؤوي الهذا الوراثي بقايا عدد لا يقع تحت حصر من الوجودات الأنوية؛ وعندما يقبس الأنا أناه الأعلى من الهذا، فلعله لا يفعل ذلك إلا إحياءً وبعثاً لوجوه أقدم عهداً للأنا.

إن الكيفية التي تشكَّل بها الأنا الأعلى تاريخياً تتيح لنا أن نفهم كيف أن المنازعات التي كانت تنشب قديماً بين الأنا والتوظيفات الموضوعانية للهذا يمكن أن تتواصل وتستمر في المنازعات التي تنشب مع وريث هذه التوظيفات، أي الأنا الأعلى. فحينما لا يفلح الأنا في السيطرة على عقدة أوديب، يتنشَّط من جديد التوظيف القوي لهذه العقدة ـ وهو التوظيف الذي يستمدّ أصله من الهذا ـ ويتظاهر في التشكيل الارتجاعي لمثال الأنا. وإن الاتصال الواسع النطاق بين هذا المثال وبين الحاثات الغريزية اللاشعورية لقمين بأن يفكّ لنا هذا اللغز: كيف يمكن للمثال أن يكون هو نفسه لاشعورياً إلى درجة كبيرة وأن يبقى بعيداً عن متناول الأنا؟ إن الصراع الذي كانت دارت رحاه في الطبقات العميقة، والذي أمكن وضع حدّ له عن طريق إسماء وتماهٍ سريعين، يتابع الآن دورانه في طبقة عالية، كما في المعركة ضد قبائل الهون في لوحة كولباخ(١٧).

١٧ ـ فلهلم فون كولباخ: رسام ألماني (١٨٠٥ ـ ١٨٧٤). اشتهر بلوحاته الجدارية التي تزيِّن واجهات مباني مدينة ميونيخ. والإشارة هنا إلى اللوحة التي يصوِّر فيها المعركة التي انهزمت فيها قوات أتيلا، ملك قبائل الهون، أمام قوات القائد الروماني آيتيوس. واللوحة تصوِّر المحاربين وهم يتابعون المعركة في ساحة الحرب من السماء على نحو ما تذكره أسطورة تعود إلى زمن الأفلاطوني المحدث دمسقيوس (٤٦٠ ـ ٥٣٧). «م».



٤

نوعا الدوافع الغريزيَّة

سبق لنا القول إنه إن كان تقسيمنا للكيان النفسي إلى هذا وأنا وأنا أعلى يمثِّل تقدماً في معرفتنا، فلا بدّ أيضاً أن يدلِّل على قدرته على مساعدتنا على تفهم أعمق ووصف أفضل للعلاقات الدينامية في الحياة النفسية. وقد سبق أيضاً أن تبيَّن لنا بجلاء أن الأنا يقع بوجه خاص تحت تأثير الإدراك، وأننا نستطيع أن نقول بالإجمال إن للإدراكات بالنسبة إلى الأنا دلالة تماثل تلك التي للدوافع الغريزية بالنسبة إلى الهذا. بيد أن الأنا، ناهيك عن ذلك، يخضع أيضاً لتأثير الدوافع الغريزية، شأنه شأن الهذا الذي لا يعدو أصلاً هذا الأنا عينه أن يكون جزءاً منه أصابه تعديل مخصوص.

لقد تقدمت مؤخراً (**في ما وراء مبدأ اللذة**) بتصور بصدد الدوافع الغريزية سوف أتمسك به هنا وأتخذه أساساً للمناقشة التي ستلي. فبموجب هذا التصور، ينبغي أن نميِّز نوعين من الدوافع الغريزية، أولهما يتمثل **بالدوافع الغريزية الجنسية أو الإيروس**، وهو أكثرهما وضوحاً وأسهلهما تناولاً من زاوية المعرفة. وهو لا يشمل فقط الغريزة الجنسية بحقّ معنى الكلمة، وغير المكفوفة، والحاثات الغريزية المشتقة منها والمكفوفة من حيث الهدف والمُسماة Sublimées، بل كذلك غريزة البقاء وحفظ الذات التي ينبغي أن نعزوها إلى الأنا، والتي كان لدينا، في بدء مباحثنا التحليلية النفسية، أسباب وجيهة لوضعها في مقابل الدوافع الغريزية الموضوعانية الجنسية. أما النوع الثاني من الدوافع الغريزية فقد اقتضانا تسليط الضوء عليه جهداً أكثر مشقّة بكثير؛ وقد انتهينا في آخر الأمر إلى اعتبار السادية ممثِّلة له. وبالاستناد إلى اعتبارات نظرية مدعومة بعلم الأحياء، افترضنا وجود غريزة موت، وظيفتها أن تعيد الموجود المتعضِّي الحيّ إلى حالة غير حية، بينما



الهدف الذي ينشده الإيروس هو تعقيد الحياة بتوحيده من جديد، على نطاق أوسع فأوسع، المادة الحية المفتَّتة إلى ذرات وجزيئات، وهذا فضلاً، بطبيعة الحال، عن حفظ الحياة وصونها. وتسلك الغريزتان كلتاهما هنا مسلكاً محافظاً، بكل ما في الكلمة من معنى، لأنهما تنزعان كلتاهما إلى إعادة حالة سابقة أخلّ بنظامها ظهور الحياة. وعلى هذا يكون ظهور الحياة هو السبب في استمرار الحياة وفي النزوع إلى الموت في آن معاً، كما تكون الحياة نفسها صراعاً وتسوية توفيقية بين هذين المنزعين. وستبقى مسألة أصل الحياة على هذا الأساس مسألة كوسمولوجية يمكن أن نجيب عنها، من وجهة نظر هدف الحياة وغايتها، إجابة **ثنائية**.

فبكل نوع من نوعي الدوافع الغريزية هذين ترتبط سيرورة فيزيولوجية خاصة (البناء والهدم)، وفي كل جزء من المادة الحية يفعل كلا النوعين من الغرائز فعله، وإنما بنسب مختلفة من التمازج، بحيث يتاح لجزء معيَّن من المادة أن يتولى تمثيل الإيروس على أرفع نحو.

أما كيف يتمازج هذان النوعان من الدوافع الغريزية وكيف يتحدان ويتراكبان فهذا ما تتعذر علينا الإجابة عنه بعد؛ وأما أن ذلك يحدث بانتظام، وعلى نطاق واسع، فهذا فرض لا يمكننا التنكر له في إطار مبحثنا هذا. ويبدو أنه يمكن لاجتماع المتعضِّديات الابتدائية في كائنات حيّة متعددة الخلايا أن يبطل مفعول غريزة الموت الخاصة بالخلية الفردية وأن يحوِّل نحو العالم الخارجي الحفزات الهدمية بوساطة عضو خاص. ويبدو أن هذا العضو هو الجهاز العضلي. ومن ثم، إن غريزة الموت ستفصح عن نفسها مذّاك فصاعداً ـ وإن على نحو جزئي في الاحتمال الغالب ـ في صورة **غريزة هدم** متجهة نحو العالم الخارجي ونحو كائنات حية أخرى.

متى ما سلَّمنا بفكرة اتحاد كلا النوعين من الدوافع الغريزية فرض نفسَه علينا احتمالُ انفصالهما انفصالاً كلياً أو جزئياً. ويمكن للمقوِّم السادي في الغريزة الجنسية أن يقدِّم لنا مثالاً نموذجياً على اتحاد غريزي يخدم غاية محددة. كما يمكن للسادية، متى ما استقلت بنفسها في صورة انحراف، أن تقدِّم لنا نموذجاً على انفصال، ولو أنه، والحق يقال، ليس انفصالاً تاماً كل التمام. وهنا نجد



أنفسنا في قبالة مجموعة كبيرة من الوقائع لم يسبق أن مُحِّصت من هذه الزاوية. فنحن نشاهد أن **غريزة الهدم** تعمل بانتظام في خدمة الإيروس بغرض التصريف، ونفترض أن نوبة الصرع هي نتيجة لانفصال غريزي وعلامة عليه، وقد طفقنا نفهم أن من أبرز نتائج العديد من الأعصبة الخطيرة التفكك الغريزي والمكانة العالية التي تحتلها غريزة الموت. وإذا لم نتهيب من الإقدام على تعميم سريع، نستطيع أن نفترض أن ماهية أي شكل من أشكال النكوص الليبيدوي، وعلى سبيل المثال النكوص من المرحلة التناسلية إلى المرحلة السادية ـ الشرجية، تكمن في تفكُّك غريزي، وأن التقدم، على العكس من ذلك، من المرحلة التناسلية الأولى إلى المرحلة التناسلية النهائية يتوقف على عودة المقوِّمات الإيروسية إلى الالتئام. وفي مقدورنا غالباً أن نتساءل عما إذا لم تكن **الازدواجية الوجدانية** العادية، التي غالباً ما نلفاها معززة كل التعزيز في الاستعداد الجِبِلِّي للعصاب، قابلة هي الأخرى للتأويل على أنها نتيجة تفكك؛ على أن هذا التفكك ضارب في القِدَم إلى حدّ يوجب علينا بالأحرى أن نرى فيه اتحاداً غريزياً لم يقيَّض له أن يتحقق.

إن اهتمامنا سيتجه بطبيعة الحال نحو هاتين المسألتين: ألا يمكننا أن نكتشف علاقات خصبة بين التشكيلات التي افترضنا وجودها، ونعني الأنا والأنا الأعلى والهذا، وبين كلا النوعين من الدوافع الغريزية؟ ثم ألا يسعنا أن نعزو إلى مبدأ اللذة، الذي يتحكم بالسيرورات النفسية، موقفاً ثابتاً إزاء كلا النوعين من الدوافع الغريزية وإزاء التمايزات النفسية؟ لكن قبل أن نتنطع لهذه المناقشة، يتعيَّن علينا أن نبدِّد شكاً يحوم حول وضع المشكلة بالذات. فمن المحقق أنه لا وجود لأي شك فيما يخصّ مبدأ اللذة، كما أن توزُّع الأنا وتفرُّعه له تبريره السريري. لكن التمييز بين كلا النوعين من الدوافع الغريزية لا يبدو مؤكداً تأكيداً كافياً، وليس من المستبعد أن تأتي وقائع التحليل السريري لتطعن في صحته.

ويبدو بالفعل أنه توجد واقعة من هذا القبيل. فبدلاً من المقابلة بين كلا النوعين من الدوافع الغريزية، نستطيع أن نتوقف عند التضاد بين الحب والكره. ومن المؤكد أننا لا نلقى عنتاً في العثور على ممثل للإيروس؛ وبالمقابل يغبطنا أيما غبطة

مكتبة الفكر الجديد

أن نستطيع أن نتعرف في غريزة الهدم، التي يشقّ الكره أمامها الطريق، ممثلاً لغريزة الموت التي يعسر غاية العسر أن تقع تحت ممسك. والحال أن المشاهدة السريرية تبيِّن لنا ليس فقط أن الكره يصاحب دوماً، وباطِّراد غير متوقع، الحب (الازدواجية الوجدانية)، وليس فقط أن الكره غالباً ما يكون مقدمة للحب في العلاقات الإنسانية، بل تبيِّن لنا كذلك أن الكره يتحول في شروط بعينها إلى حب، مثلما يتحول الحب إلى كره. لكن إذا كان هذا التحول شيئاً أهمّ من مجرد تعاقب زمني، وإذا كان تبدلاً حقيقياً، فعندئذ يتداعى الأساس الذي أقمنا عليه ذلك التمييز القاطع بين الغرائز الإيروسية وغرائز الموت، وهو التمييز الذي يفترض وجود سيرورات فيزيولوجية ذات اتجاه متعاكس.

من الجلي للعيان أن الحالة التي يحبّ فيها الشخص أولاً شخصاً آخر ثم يكرهه بعد ذلك، أو بالعكس، إذا كان هذا الشخص الآخر قد أعطاه الذرائع لذلك، لا تمتّ بصلة إلى مشكلتنا. كما لا تمتّ إليها أيضاً بصلة تلك الحالة الأخرى التي يتجلى فيها الحب، الذي لا يزال كامناً، أول ما يتجلى في صورة عداء ونزوع عدواني، إذ ليس من المستبعد أن يكون المقوِّم الهدمي قد سبق المقوِّم الإيروسي في مضمار التوظيف الموضوعاني، ثم ما لبث هذا المقوّم أن لحق به. لكننا نعرف كثرة من الحالات في علم نفس الأعصبة تغرينا أكثر بالأخذ بفرضية التحول. ففي البارانويا الاضطهادية، يعتمد المريض طريقة خاصة في الدفاع عن نفسه ضد رابط جنسي مِثْليّ شديد القوة يشدّه إلى شخص آخر، فتكون النتيجة أن هذا الشخص المحبوب أشدَّ الحب يغدو هو المضطهِد الذي إليه تتجه عدوانية المريض التي كثيراً ما تكون خطرة. ويحلّ لنا هنا أن نتكهن فنقول إن الحب انقلب في مرحلة سابقة إلى كره. وقد دلتنا المباحث التحليلية النفسية مؤخراً على وجود مشاعر تنافس عنيفة، يعقبها نزوع عدواني، لا في تكوين الجنسية المثلية فحسب، بل كذلك في تكوين المشاعر الاجتماعية المتجردة من الطابع الجنسي؛ وإنما فقط عندما يتمّ الظهور على مشاعر التنافس هذه يغدو الموضوع الذي كان مكروهاً في السابق موضوعاً محبوباً أو مادة للتماهي. والسؤال هنا : هل ينبغي، في هذه الحالات، أن نسلِّم بوجود تحول مباشر للكره إلى حب؟ وبالفعل، إن



التغيرات هنا داخلية صرف، ومستقلة عن كل تغيُّر في سلوك الموضوع.

غير أن الاستقصاء التحليلي للسيرورة الفاعلة في التحول البارانوئي يوحي إلينا باحتمال وجود آلية أخرى. ذلك أنه يقوم هنا من البداية موقف مزدوج وجدانياً، ويحدث التحول عن طريق نقل ارتجاعي للتوظيف، إذ تسحب الطاقة من الحاثة الإيروسية وتوظَّف في الحاثة العدوانية.

إن شيئاً مشابهاً، بله مماثلاً، يحدث في الحالة التي يفضي فيها التنافس العدائي، بعد الظهور عليه، إلى الجنسية المثلية. فالاتجاه العدائي ليس له أي حظ في الإشباع، ومن ثم ينوب منابه ـ لدوافع اقتصادية إذاً ـ الاتجاه الحبّي الذي يحظى بفرص أكبر للإشباع، أي لإمكان التصريف. وعلى هذا النحو لا نجدنا ملزمين في أي من هاتين الحالتين بالأخذ بفرضيةِ تحوُّلٍ مباشر للكره إلى حب، تلك الفرضية التي لا تتفق مع الطابع المختلف كيفياً لكلا النوعين من الدوافع الغريزية.

بيد أننا نلاحظ أننا، إذ نأخذ في اعتبارنا تلك الآلية الأخرى لتحوُّل الحب إلى كره، نكون قد وضعنا ضمنياً فرضية أخرى تستأهل أن نوضح منطوقها. فقد اعتبرنا أنه توجد في الحياة النفسية ـ في الأنا أو في الهذا، فالأمر لا يزال بلا تعيين ـ طاقة قابلة للنقل، هي بحدّ ذاتها محايدة ولكن من الممكن أن تنضم إلى حاثة متميزة نوعياً، إيروسية أو هدمية، فتزيد في مقدار توظيفها الكلي. ولا يسعنا إطلاقاً أن نستغني عن فرض وجود مثل هذه الطاقة القابلة للنقل. والسؤال الوحيد هو أن نعرف: من أين تأتي هذه الطاقة، وما مصدرها، وماذا تعني؟

إن مشكلة كيف الحاثات الغريزية وانحفاظ هذه الحاثات عبر مختلف التقلبات الغريزية لا يزال يحيط بها غموض كبير، ولم تبذل جهود تذكر لحلِّها. ففيما يخص الدوافع الغريزية الجنسية الجزئية، التي تقع بسهولة كبيرة تحت الملاحظة، نستطيع أن نعاين وجود عدد من السيرورات التي تدخل ضمن الإطار نفسه: فالدوافع الغريزية الجزئية تقيم، مثلاً، فيما بينها نوعاً من الاتصال، والدافع الغريزي المنبعث من مصدر شهوي معيَّن يمكن أن يتنازل عن شدّته ليعزز دافعاً غريزياً جزئياً آخر من مصدر آخر، وإشباع دافع غريزي بعينه يمكن أن يسدَّ مسدَّ



إشباع دافع غريزي آخر، إلخ، مما يشجعنا على التقدم بفروض من نوع معيَّن.

على كل حال، لا يتعيَّن عليَّ في هذه المناقشة أن اقترح سوى فرَض، لا أن أتقدم بدليل. وإنه ليبدو لي أنه من المساغ أن نفترض أن تلك الطاقة المحايدة القابلة للنقل، الناشطة في أرجح الظن في الأنا وفي الهذا على حدّ سواء، تأتي من احتياطي الليبيدو النرجسي، وأنها عبارة بالتالي عن إيروس متجرد من طابعه الجنسي. وبالفعل، إن الدوافع الغريزية الإيروسية تتبدى، بصفة عامة، أكثر لدائنية وأكثر قابلية للتحول والنقل من غرائز الهدم. وبوسعنا على أساس هذا الفرض أن نتابع فنقول، بدون غصب للأشياء، إن ذلك الليبيدو القابل للنقل يعمل في خدمة مبدأ اللذة، ليحول دون الركود وليسهِّل التصريف. وهنا لا بدّ لنا من القول إن الطريق الذي يسلكه التصريف ـ هذا إن حدث تصريف ـ يبدو عديم الأهمية بنوع ما. فهذه السمة هي خاصية مميِّزة، كما نعلم، للسيرورات التوظيفية في الهذا. ونحن نلتقيها في التوظيفات الإيروسية، حيث نشاهد عدم مبالاة غريبة فيما يتصل بالموضوع، وعلى الأخص في التحويلات في أثناء التحليل[1]، هذه التحويلات التي لا بدّ أن تحدث بصرف النظر عن الشخص الذي تصبّ عليه. وقد ساق رانك[2] مؤخراً أمثلة بديعة على أفعال انتقام عصابية موجَّهة ضد غير من كان ينبغي أن توجَّه ضده من الأشخاص. ومسلك اللاشعور هذا يذكِّرنا بالنادرة الهازلة التي يدور موضوعها حول خياطي القرية الثلاثة الذين لا مناص من أن يُشنق أحدهم لأن الحداد الوحيد بالقرية هو من اقترف جريمة موجبة لعقوبة الموت. لا بدّ إذاً من قصاص، حتى وإن لم يطل المذنب. وهذه النزعة إلى التهاون وخلط الأمور كنا لاحظناها، أول ما لاحظناها، في تنقُّلات السيرورة الأولية في أثناء عمل الحلم. ففي عمل الحلم لا تدخل الموضوعات في الاعتبار إلا

١ ـ التحويل: إسقاط المريض النفسي في المرحلة الأخيرة من العملية التحليلية لمشاعره الحبيّة أو العدائية، كما كان عاشها في طفولته، على شخص الطبيب المحلِّل. «م».

٢ ـ أوتو رانك: محلل نفسي نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). اسمه العائلي الأصلي روزنبرغ، ولكن توترعلاقته بأبيه، الذي كان مدمناً على الخمر، حمله على تغيير كنيته إلى رانك بالإحالة إلى الطبيب الطيِّب القلب في مسرحية إبسن بيت الدمية. من أشهر مؤلفاته: **رضة الميلاد** و**أسطورة ميلاد البطل**. والإحالة هنا إلى مقاله **الرواية العائلية المنشور في المجلة الدولية للتحليل النفسي** (١٩١٣). «م».



بصفة ثانوية؛ ويبدو أن كذلك هو الشأن أيضاً فيما يتعلق بطرق النشاط التصريفي في الحالة التي نحن بصدد مناقشتها هنا. ويلوح أن من خصائص الأنا أن يبدي دقة أكبر في اختيار الموضوع وفي اختيار طريق التصريف على حدّ سواء.

إذا صحّ أن هذه الطاقة القابلة للنقل هي عبارة عن ليبيدو متجرد من طابعه الجنسي، فمن المباح لنا أيضاً أن نصفها بأنها طاقة قد تمَّ إسماؤها، لأنها تظلّ وستظلّ متمسكة بالهدف الرئيسي لإيروس، وهو التوحيد والربط، وذلك ما دامت تعين على تحقيق ذلك الكيان الوحدوي ـ أو ذلك المطمح الوحدوي ـ الذي هو سمة مميِّزة للأنا. وإذا أدرجنا في عداد عمليات النقل هذه العمليات العقلية بالمعنى الواسع للكلمة، جاز لنا القول إن المجهود العقلي يغذّيه هو الآخر إسماء لقوى غريزية إيروسية.

هنا نرانا وقد عدنا أدراجنا إلى الاحتمال الذي أشرنا إليه آنفاً، وهو أن الإسماء يحدث بانتظام عن طريق توسط الأنا. وإننا لنذكر في هذا الصدد تلك الحالة الأخرى التي يقوم فيها الأنا بتصفية التوظيفات الموضوعانية الأولى للهذا، والتوظيفات اللاحقة أيضاً بكل تأكيد، وذلك عن طريق سحبه لحسابه الليبيدو الخاص بها، وعن طريق ربطه هذا الليبيدو بالتغير الطارئ على الأنا نفسه من جراء التماهي. وهذا التحول إلى ليبيدو أنوي يرتبط بطبيعة الحال بعزوف عن الأهداف الجنسية، بنزع للصفة الجنسية. وهذا يتيح لنا على كل حال أن نفهم إنجازاً مهماً يحققه الأنا من خلال علاقته بإيروس. فالأنا، إذ يستولي على هذا النحو على ليبيدو التوظيفات الموضوعانية، وإذ يفرض نفسه موضوعاً أوحد للحب، وإذ يجرِّد ليبيدو الهذا من طابعه الجنسي أو يُسْميه، إنما يعمل ضد مقاصد الإيروس ويضع نفسه في خدمة الحاثات الغريزية المناوئة له. ولا مفرّ له من أن يذعن لشطر آخر من توظيفات الهذا الموضوعانية، ومن أن يمدّ لها، إن جاز القول، يد العون. وسنعود إلى الكلام لاحقاً عن نتيجة ممكنة أخرى لنشاط الأنا هذا.

قد يكون من المناسب هنا أن نجري على نظرية النرجسية تعديلاً مهماً. ففي



الأصل يكون الليبيدو كله متراكماً في الهذا، على حين يكون الأنا لا يزال قيد التكوين أو لم يستكمل أسباب قوته بعد. ويستخدم الهذا جزءاً من الليبيدو في توظيفات موضوعانية إيروسية. ثم يطفق الأنا، وقد اشتدّ عوده، يسعى إلى الاستيلاء على هذا الليبيدو الموضوعاني وإلى فرض نفسه على الهذا موضوعاً للحب. نرجسية الأنا نرجسية ثانوية إذاً، مسحوبة من المواضيع.

ولمرة أخرى، وكما كان الحال دوماً، يتبيَّن لنا أن الحاثات الغريزية التي نستطيع أن نقتفي أثرها هي عبارة عن فسائل ومشتقات من الإيروس. ولولا الاعتبارات التي ذكرناها في **ما وراء مبدأ اللذة**، ولولا أخيراً مساهمة العناصر السارية في الإيروس، لعسر علينا أن نبقى متمسكين بتصورنا الثنائي في جوهره. ولكن بما أننا مجبرون على التشبُّث بهذا التصور، فليس لنا أن ندفع عنا ما يراودنا من انطباع بأن غرائز الموت هي في جوهرها صامتة وبأن كل صخب الحياة إنما يأتي بوجه خاص من الإيروس[٣].

من الإيروس ومن الكفاح ضد الإيروس! فليس لنا أن ننحّي جانباً التصور الذي يقول إن مبدأ اللذة يقوم للهذا مقام البوصلة في الكفاح ضد الليبيدو الذي يحدِث بلبلة واضطراباً في مسار الحياة. وإذا صحَّ أن مبدأ الثبات والاستقرار كما تصوَّره فخنر FECHNER[٤] يسود الحياة، التي ينبغي تعريفها في هذه الحال بأنها انزلاق نحو الموت، فإن مطالب الإيروس، أي الدوافع الغريزية الجنسية، هي التي تحول، في صورة حاجات غريزية، دون انخفاض المستوى وتستحدث توترات جديدة. ويدافع الهذا عن نفسه ضد هذه التوترات الجديدة مسترشداً بمبدأ اللذة، أي بإدراك الكدر، عبر طرق شتى. وبادئ ذي بدء بإذعانه على وجه

---

٣ - ينبغي أن نقول، بموجب تصورنا، إن غرائز الهدم المتجهة نحو الخارج قد تحولت عن الذات بوساطة الإيروس.

٤ - غوستاف ثيودور فخنر: فيلسوف ألماني (١٨٠١ - ١٨٨٧). من مؤسسي علم النفس الفيزيائي، وواضع القانون المعروف باسم قانون فيبر - فخنر والقائل «إن الإحساس يتزايد وفق لوغاريتم التنبيه». وهو من أوائل الباحثين الذين أدخلوا القياس في علم النفس. وقد صاغ مبدأ الثبات والاستقرار لدى المتعضِّيات في كتابه: بعض أفكار حول تاريخ تخلُّق المتعضِّيات وتطورها كما كان فرويد أوضح ذلك في كتابه: ما وراء مبدأ اللذة. «م».



السرعة لمطالب الليبيدو التي لم تتجرد من طابعها الجنسي، وبالتالي بكفاحه في سبيل إشباع النوازع ذات الصفة الجنسية المباشرة. وبعد ذلك، وعلى نطاق أوسع بكثير، يتوصل الهذا إلى النتيجة المنشودة في مجرى عملية معيَّنة من عمليات الإشباع هذه، أعني العملية التي تشارك فيها جميع المطالب الجزئية والتي يتخلص فيها من المواد الجنسية الحاملة، إلى درجة التشبُّع إن جاز القول، للتوترات الإيروسية. وإفراغ المواد الجنسية في أثناء العملية الجنسية يناظر إلى حدّ ما الانفصال ما بين البدن والبلازما الرشيمية. وهذا ما يفسِّر الشبَهَ بين الحالة التي تعقب الإشباع الجنسي الكامل وبين لحظة الموت، والتطابقَ لدى الحيوانات الدنيا بين الموت وفعل الإنجاب. فهذه الكائنات الحية تموت بعد التناسل، وذلك بقدر ما يخلو الساح أمام غريزة الموت لتحقق مقاصدها بعد إزاحة الإيروس بإشباعه. وأخيراً، وكما رأينا من قبل، يسهِّل الأنا على الهذا عمله في السيطرة على التوترات بإسمائه لبعض الليبيدو برسم نفسه وبرسم غاياته.




مكتبة
الفكر الجديد

٥

علاقات تبعية الأنا

إن تعقيد موضوعنا يمكن أن يشفع لنا في كون أيٍّ من عناوين الفصول لا يطابق تمام المطابقة مضمونها، وفي كوننا نرجع بلا انقطاع إلى ما سبق لنا أن عالجناه كلما أردنا أن نتنطع لدراسة علاقات جديدة.

لقد قلنا وكررنا القول إن الأنا يتكون في شطر واسع منه بدءاً من التماهيات التي تحلّ محلَّ التوظيفات المهجورة من قبل الهذا، وإن أولى هذه التماهيات تسلك باطراد مسلك هيئة خاصة في الأنا، فتعارض الأنا باعتبارها أنا أعلى، بينما يستطيع الأنا فيما بعد، وحينما يشتدّ ساعده، أن يبدي مقاومة أكبر في مواجهة تأثير مثل هذه التماهيات. ويدين الأنا الأعلى بمركزه الخاص في الأنا أو بالقياس إلى الأنا لعامل ينبغي أن نقدِّره بحقٍّ قدره من جانبين: فالأنا الأعلى هو، أولاً، أول تماهٍ حدث فيما كان لا يزال الأنا ضعيفاً، وهو، ثانياً، وريث عقدة أوديب، ومن ثم أدخل في الأنا مواضيع رفيعة الأهمية. وعلاقة الأنا الأعلى بالمتغيرات الطارئة لاحقاً على الأنا تشابه، إلى حدّ ما، علاقة المرحلة الجنسية الأولى من الطفولة بالحياة الجنسية اللاحقة غبَّ البلوغ. وعلى الرغم من أن الأنا الأعلى منفتح لجميع التـأثيرات اللاحقة، فإنه يحتفظ على مدى الحياة بالطابع الذي خلعه عليه نشوؤه في إطار العقدة الأبوية، أي بالقدرة على معارضة الأنا والسيطرة عليه. فهو النصب التذكاري للضعف والتبعية اللذين كان مقضياً بهما على الأنا فيما سلف، وهو يديم سيطرته حتى على الأنا الناضج. وكما أن الطفل مكره على إطاعة والديه، كذلك يخضع الأنا للآمر المطلق الذي يمثِّله أناه الأعلى.

غير أن نشأة الأنا الأعلى عن التوظيفات الموضوعانية الأولى للهذا، أي عن



عقدة أوديب، تعني له ما هو أهمّ من ذلك بعد. فهذه النشأة تجعله، كما أوضحنا آنفاً، على صلة بالمكتسبات السلالية للهذا، وتجعل منه هو نفسه تجسيداً متجدداً لتشكيلات الأنا السابقة التي خلَّفت رواسب منها في الهذا. وعلى هذا النحو، يبقى الأنا الأعلى قريباً على الدوام من الهذا، ويكون في مقدوره أن يتولج بوظيفة تمثيله لدى الأنا. إنه يغوص عميقاً في الهذا، ويكون لهذا السبب أنأى عن الشعور من الأنا[1].

ونستطيع أن نفهم هذه العلاقات فهماً أفضل إذا ما استعنّا ببعض الوقائع السريرية التي باتت معروفة منذ زمن بعيد، وإن كانت لا تزال تنتظر إنشاء نظرياً.

ثمة أشخاص يسلكون، في أثناء العمل التحليلي، مسلكاً غريباً للغاية. فحينما نمدّ إليهم حبل الأمل ونكاشفهم بأننا راضون عن مسار العلاج، تبدو عليهم علائم عدم الارتياح وتسوء حالتهم على نحو مطرد. وقد نرى في ذلك في أول الأمر أثراً لروح المعارضة والمخالفة، ومحاولة لإثبات تفوقهم للطبيب. لكننا لا نلبث بعد ذلك أن نتوصل إلى تصور أبعد غوراً وأدنى إلى الحق. إذ يتوطد لدينا الاقتناع بأن هؤلاء الأشخاص لا يطيقون مديحاً أو تقديراً فحسب، بل كذلك بأنهم يستجيبون لتقدم العلاج استجابة معكوسة. فكل حلّ جزئي كان من شأنه أن يتأدى - ويتأدى فعلاً لدى الآخرين - إلى تحسُّن أو إلى سكون مؤقت للأعراض يبتعث لديهم تأججاً آنياً للعذاب، فتزداد حالتهم سوءاً في أثناء العلاج بدل أن تتحسن. إنهم يظهرون ما نسمّيه **بالاستجابة العلاجية السالبة**.

ليس ثمة أدنى شك في أنه يوجد لدى هؤلاء الأشخاص شيء ما يعارض الشفاء؛ فهم يخشون مقدمه كما له أنه خطر عليهم. فلكأن الغلبة لدى هؤلاء الناس ليست لإرادة الشفاء بل للحاجة إلى أن يكونوا مرضى. وإذا حللنا هذه المقاومة بالكيفية المعتادة، وإذا أسقطنا منها أيضاً موقف المعارضة والتحدي إزاء الطبيب والتثبيت على مختلف أشكال الغُنم والكسب من المرض، نرى أن جوهر هذه المقاومة يبقى قائماً، وأنه يمثّل أعتى عقبة في وجه الشفاء، وأنه أقوى من

١ - يمكننا القول إن الأنا التحليلي النفسي أو الميتاسيكولوجي يقف هو أيضاً على رأسه، مثله مثل القزم المخّي عند أصحاب التشريح.



جميع العقبات التي باتت معروفة لدينا: المناعة النرجسية، الموقف السلبي إزاء الطبيب، والتشبث بمكسب المرض.

ونصل في نهاية المطاف إلى أن نلاحظ أننا بصدد عامل «أخلاقي» إن جاز القول، بصدد شعور بالذنب يجد ما يشبعه في حالة المرض ويأبى العزوف عن القصاص كما يتمثل بالعذاب. وفي مقدورنا أن نعتبر هذا التفسير الذي لا يشفي الغليل تفسيراً نهائياً. ومع ذلك، إن هذا الشعور بالذنب أخرس بالنسبة إلى المريض، وهو لا يقول له إنه مذنب: فالمريض يستشعر نفسه مريضاً، لا مذنباً، وهذا الإحساس بالذنب لا يتجلى إلا في صورة مقاومة للشفاء يعسر جداً الظهور عليها. كما أنه يعسر جداً إقناع المريض بأن هذا هو دافعه إلى الاستمرار في المرض: فهو يتمسك بالأحرى بالتفسير الأسهل الذي يصوِّر له أن العلاج التحليلي ليس هو السبيل الصحيح الذي يمكن له أن يتوقع منه الشفاء[٢].

إن ما تقدم بنا وصفه ينطبق على الاحتمالات الأكثر تطرفاً، لكنه قد يصدق أيضاً ـ وإن بدرجة أقل ـ على عدد كبير جداً من الحالات، وربما على جميع

٢ ـ يخوض المحلِّل النفسي ضد العقبة التي يمثِّلها الشعور بالذنب غمار كفاح ما هو بسهل على الإطلاق. فنحن لا نملك من وسيلة لمواجهته مواجهة مباشرة، وأقصى ما نستطيعه ضده بصورة غير مباشرة أن نميط اللثام رويداً رويداً عن أسسه اللاشعورية المكبوتة بحيث يتحول بالتدريج إلى شعور شعوري بالذنب. ويتاح لنا حظ طيِّب للظهور عليه متى ما كان هذا الشعور اللاشعوري بالذنب شعورٌ مستعاراً، أي عندما يكون نتيجة لتماهٍ مع شخص آخر كان فيما سلف موضوعاً لتوظيف إيروسي. وغالباً ما تكون مثل هذه الاستعارة للشعور بالذنب البقيا الوحيدة، العسير تعرُّفها، من العلاقة الحبِّية المهجورة. ولا يسعنا أن نتجاهل تشابه هذه السيرورة مع سيرورو السويداء. وإذا استطعنا أن نكتشف ذلك التوظيف الموضوعاني القديم خلف هذا الشعور اللاشعوري بالذنب، فغالباً ما يكون نجاح المهمة العلاجية باهراً؛ وإلا فإن مآل المجهود العلاجي لن يكون بحال من الأحوال مضموناً. فهو يتوقف في المقام الأول على شدة الشعور بالذنب، إذ لا يملك العلاج في الغالب قوة مضادة في مثل شدتها يقابلها بها، ولعل مآل المجهود العلاجي يتوقف أيضاً على عامل آخر: مدى ما يتيح شخص المحلِّل للمريض أن يضعه محلَّ مثاله الأنوي؛ وهذا ما يغري الطبيب بأن يلعب حيال المريض دور النبي، أو دور منقذ النفوس، أو دور المخلِّص المنتظر. وبما أن قواعد التحليل تعارض حازم المعارضة مثل هذا الاستخدام لشخصية الطبيب، فلا بدّ لنا من الإقرار بأمانة بأن ذلك ينصُب عقبة إضافية تحدّ من مفعول التحليل؛ وعلى كل، ليس من مهمة التحليل أن يجعل الاستجابات المَرَضية بحكم المستحيلة، بل أن يتيح لأنا المريض حرية التقرير بصدد الطريق الذي يودّ أن يسلكه.



الأعصبة التي تتصف بقدر من الخطورة. بل أكثر من ذلك: فربما كان هذا العامل على وجه التحديد، أي مسلك مثال الأنا، هو الذي يحدد بصورة حاسمة مدى خطورة الإصابة العصابية. ولهذا لن نتوانى عن إبداء بعض ملاحظات إضافية بصدد الكيفية التي يتظاهر بها الإحساس بالذنب في الظروف المختلفة.

إن الإحساس العادي، الشعوري، بالذنب (الضمير) لا ينصب أية صعوبة أمام التفسير؛ فهو يرتكز إلى التوتر بين الأنا ومثال الأنا، ويعبِّر عن إدانة الأنا من قبل هيئته النقدية. وأغلب الظن أن الإحساس بالنقص، المشاهد كثيراً لدى العصابيين، ليس واهي الصلة بذلك. ويكون الشعور بالذنب شعورياً إلى أعلى درجة في نوعين معروفين لدينا جيداً من الإصابات المَرَضية؛ ففيهما يدلل مثال الأنا على صرامة بالغة الشدة، ويهاجم الأنا، وفي الغالب بضراوة وبمنتهى القسوة. وإلى جانب هذا المظهر المشترك تشتمل الإصابتان، العصاب الوسواسي والسويداء، على فوارق لا تقلّ أهمية في سلوك مثال الأنا.

ففي العصاب الوسواسي (في بعض أشكاله) يفصح الشعور بالذنب عن نفسه في صخب، لكن بدون أن يكون في مستطاعه تبرير نفسه أمام الأنا. ومن ثم، إن أنا المريض يتمرد ضد دعوى إذنابه، ويطلب إلى الطبيب أن يعضده في رفضه لمشاعر الذنب تلك. وليس من الحصافة أن يرضخ الطبيب لطلبه، لأن ذلك لن يؤدي أصلاً إلى نتيجة. وعندئذ يظهِر التحليل أن الأنا الأعلى متأثر بسيرورات بقيت مجهولة من قبل الأنا. ويمكن التوصل فعلياً إلى كشف الحفزات المكبوتة التي على أساسها يقوم الشعور بالذنب. وهنا يدلل الأنا الأعلى على أنه أكثر معرفة من الأنا بالهذا اللاشعوري.

وفي السويداء يساورنا انطباع أقوى بعد بأن الأنا الأعلى قد استلحق الشعور به. لكن الأنا لا يبدي هنا احتجاجاً، بل يقرّ بأنه مذنب، ويخضع صاغراً للعقوبات. ونحن نعلم ما مرّد هذا الفرق. ففي العصاب الوسواسي تكون الحاثات جارحة، وتبقى خارج الأنا؛ أما في السويداء فإن الموضوع الذي يجلب على نفسه غضب الأنا الأعلى يتمّ تمثُّله في الأنا بالتماهي.

إذا كان الشعور بالذنب يصل في كلتا الإصابتين العصابتين إلى شدة خارقة



للمألوف، فعِلَّة ذلك ليست واضحة كل الوضوح؛ على أن المشكلة الرئيسية التي يثيرها الموقف تكمن مع ذلك في ناحية أخرى. وسوف نرجئ مناقشتها إلى أن ننتهي من معالجة الحالات الأخرى التي يبقى فيها الشعور بالذنب لاشعورياً.

إن هذه الحالات تتمثل في المقام الأول بالهستيريا وبالإصابات التي من النمط الهستيري. ومن السهل علينا أن نتكهن هنا بالآلية التي يبقى بفضلها هذا الشعور بالذنب لاشعورياً. فالأنا الهستيري يقي نفسه من الإدراك المؤلم الذي يتوعده - ومصدره انتقاد أناه الأعلى له - بالكيفية نفسها التي درج على استخدامها في الدفاع عن نفسه ضد توظيف موضوعاني لا يطاق: أي بعملية كبت. وعلى هذا، إذا بقي الشعور بالذنب لاشعورياً، فمردّ ذلك إلى الأنا. ونحن نعلم أن الأنا يقوم في العادة بأفعال الكبت في خدمة أناه الأعلى ولحسابه. ولكن هانحنذا أمام حالة يستخدم فيها السلاح نفسه ضد سيده القاسي. ومعلوم لدينا أنه تسود في العصاب الوسواسي ظاهرات التشكيل الارتجاعي؛ أما هنا فيوفَّق الأنا فقط إلى إبقاء المادة التي يرتبط بها الشعور بالذنب بعيدة عنه.

نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونتقدم بالفرض التالي: إن شطراً واسعاً من الشعور بالذنب لا بدّ أن يكون في الأحوال العادية لاشعورياً لأن تكوين الضمير يرتبط وثيق الارتباط بعقدة أوديب التي تنتمي إلى اللاشعور. وإذا شاء أحدهم أن يأخذ بتلك المفارقة التي تقول إن الإنسان الأخلاقي ليس أكثر تحللاً في أخلاقه بكثير مما يعتقد فحسب، بل كذلك أكثر تقيُّداً بالأخلاق بكثير مما يظن، فإن التحليل النفسي، الذي تدعم معطياته الشطر الأول من هذه القضية، لن يكون لديه أيضاً ما يعترض به على شطرها الثاني[٣].

لقد كانت مفاجأة لنا أن نكتشف أن اشتداد هذا الشعور اللاشعوري بالذنب يمكن أن يجعل من الإنسان مجرماً. لكن هذا أمر مؤكد لا ريب فيه. فبوسعنا أن نثبت أنه يوجد لدى الكثيرين من المجرمين، ولا سيما لدى الشبان منهم، شعور

٣ - لا تتصف هذه القضية بطابع المفارقة إلا في الظاهر فحسب. وإنما هي تقرر فقط أن طبيعة الإنسان تذهب إلى أبعد بكثير، في الخير كما في الشر، مما يعتقده من قدرة نفسه، أي مما يعرفه أناه عن طريق إدراكه الشعوري.



قوي بالذنب كان موجوداً قبل الفعل الإجرامي، ومن ثم ليس هو نتيجة له، بل هو الباعث عليه كما لو أن صاحبه يفرّج عن نفسه فيما لو استطاع أن يربط هذا الشعور اللاشعوري بالذنب بشيء واقعي وذي صفة راهنة.

يدلل الأنا الأعلى في جميع هذه الأحوال على استقلاله عن الأنا الشعوري، وعلى صلاته الحميمة بالهذا اللاشعوري. ونظراً إلى الأهمية التي عزوناها إلى البقايا اللفظية القبشعورية في الأنا، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو: ما دام الأنا الأعلى لاشعورياً أفلا يتألف من تمثلات لفظية من هذا القبيل؟ وإلا فممَّ؟ وسوف نجيب بحذر أن الأنا الأعلى لا يستطيع، هو الآخر، أن ينكر أصوله السمعية. وبالفعل، إنه جزء من الأنا، وهو يبقى منفتحاً على الشعور بدءاً من تلك التمثلات اللفظية (مفاهيم، تجريدات)؛ لكن إمداد مضامين الأنا الأعلى هذه بالطاقة التوظيفية ليس مصدره الإدراك السمعي أو التعليم أو المطالعة، وإنما منابعه قائمة في الهذا.

هاكم الآن السؤال الذي كنا أرجأنا الجواب عنه: كيف يمكن للأنا الأعلى أن يفصح عن نفسه بصفة رئيسية في صورة شعور بالذنب (أو بالأحرى في صورة نقد، على اعتبار أن الشعور بالذنب هو إدراك مناظر في الأنا لهذا النقد) وأن يدلِّل في الوقت نفسه على قسوة وصرامة خارقتين للمألوف إزاء الأنا؟ لو يمَّمنا أولاً شطر السويداء لاكتشفنا أن الأنا الأعلى الفائق القوة، الذي استلحق الشعور به، يهاجم الأنا بضراوة لا تعرف الرحمة، ولاكتشفنا أيضاً أنه استولى على كل السادية المتاحة في الفرد. وقد نقول هنا، بحسب تصورنا للسادية، إن عنصر الهدم قد تحصَّن في الأنا الأعلى وانقلب ضد الأنا. وما يسود الآن في الأنا الأعلى هو، إذا جاز القول، نوع من حضارة خالصة لغريزة الموت؛ وبالفعل، لا يندر أن ينجح الأنا الأعلى في سَوْق الأنا إلى الموت، إذا لم يحتمِ هذا الأخير في الوقت المناسب من طاغيته بتحوُّله إلى الهوس.

إن تأنيبات الضمير قد لا تكون أقل إيلاماً وتعذيباً في بعض أشكال العصاب الوسواسي، لكن الموقف هنا أقل وضوحاً. فمن الملاحظ أن المريض بالعصاب الوسواسي، خلافاً للمريض بالهستيريا، لا يجتاز أبداً في الواقع عتبة تدمير الذات؛



فلكأنه اكتسب مناعة ضد خطر الانتحار، وباتت تتوفر له حماية أكثر فعالية بكثير من تلك التي تتوفر للمريض بالهستيريا. ونستطيع أن نفهم هنا أن ما يضمن سلامة الأنا هو أن الموضوع بقي محافظاً عليه. ففي العصاب الوسواسي يتيح النكوص نحو التنظيم القبتناسلي إمكانية تحوُّل الحفزات الحبِّية إلى حفزات عدوانية ضد الموضوع. وهنا أيضاً تكون غريزة الهدم قد تحررت فراحت تسعى إلى تدمير الموضوع، أو هي توحي على الأقل بأن هذا هو قصدها فعلاً. ولا يتبنى الأنا هذه النزعات، بل يصارع ضدها بتشكيلات ارتجاعية وبتدابير وقائية؛ فتظل من ثم مقيمة في الهذا. بيد أن الأنا الأعلى يتصرف كما لو أن الأنا هو المسؤول عنها، ويبين لنا في الوقت نفسه، بما يبديه من جدّ في قمع تلك المقاصد التدميرية، أن الأمر ليس ظاهرياً محضاً ناجماً عن النكوص، وإنما هو أمر إبدال واقعي للحب بالكره. وبحكم عجز الأنا من الجانبين كليهما نراه يدافع بغير ما جدوى عن نفسه، سواء أضد تحريضات الهذا القتَّال أم ضد تأنيبات الضمير المقاصِص. وهو يفلح على الأقل في كفّ الأفعال الأكثر وحشية من كلا الجانبين؛ وتكون النتيجة الأولى تعذيباً للذات لا نهاية له، وفي زمن لاحق تعذيباً مطرداً للموضوع بقدر ما يكون له من وصول إليه.

إن غرائز الموت الخطرة تُعامل، داخل الفرد، بطرق مختلفة: فإما أن تُشَلّ جزئياً قدرتها على الأذى عن طريق ضمِّها إلى المقوِّمات الإيروسية، وإما أن تُحوَّل جزئياً نحو الخارج في صورة عدوان، لكنها تبقى في شطرها الأعظم مستمرة بلا مراء في عملها الداخلي بدون أن يعوقها عائق. فكيف يتفق إذاً أن يصير الأنا الأعلى في السويداء مركزاً لتجمُّع غرائز الموت؟

أما من منظور التقييد الغريزي، أي الأخلاق، فنستطيع أن نقول: إن الهذا غير أخلاقي على الإطلاق، وإن الأنا يجاهد ليكون أخلاقياً، وإن الأنا الأعلى يمكن أن يصير مفرطاً في أخلاقيته، وأن يصبح بالتالي قاسياً قسوة لا يبدي مثلها سوى الهذا. ومما تجدر ملاحظته أنه كلما قيَّد الإنسان عدوانيته نحو الخارج، مال إلى مزيد من الصرامة، وبالتالي إلى مزيد من العدوانية، في مثال أناه. والحال أن وجهة النظر الدارجة ترى أن الأمر على عكس ذلك: فهي تعتبر أن تطلُّب مثال الأنا هو



الدافع إلى قمع العدوانية. بيد أن الوقائع تبقى على نحو ما وصفناها: فكلما ضبط الإنسان عدوانيته زادت شدة النزوع العدواني لمثاله ضد أناه. فلكأن في ذلك إبدالاً، ارتداداً نحو الأنا ذاته. والأخلاق الدارجة، العادية، تنطوي بذاتها على تقييد صارم وتتصف بطابع تحظيري شديد. وهنا بالتحديد يرسي جذوره ذلك التصور القائل بوجود كائن أعلى يعاقب ويقاصص في غير لين ولا رحمة.

لا أستطيع الآن أن أمضي إلى أبعد من ذلك في توضيح هذه المسائل بدون أن أتقدَّم بفرض جديد. فالأنا الأعلى يتولد، كما نعلم، من التماهي مع النموذج الأبوي. وكل تماهٍ من هذا النوع يتصف بطابع التجرد من الجنس أو حتى بطابع الإسماء. والحال أنه يحدث أيضاً في مثل هذا التحول تفكك في الدوافع الغريزية على ما يبدو. فالمقوِّم الإيروسي لا تعود له، بعد الإسماء، القدرة على تقييد جميع عناصر الهدم التي كانت ملتحقة به، فتنطلق هذه في صورة نزوع إلى العدوان وإلى التدمير. وإنما من هذا الانفصال يستمد المثال بصفة عامة، على ما يتراءى لنا، سمات الصلابة والقسوة التي تتميَّز بها أوامره في وجوب الانتقال إلى الفعل.

لنتوقف هنيهة أخرى عند العصاب الوسواسي. فالوضع هنا مختلف كل الاختلاف. ذلك أن انفصال الحب عن العدوانية لم يحدث من جراء تدخل الأنا، بل كان نتيجة لنكوص حدث في الهذا. غير أن هذه السيرورة امتدت من الهذا إلى الأنا الأعلى الذي ضاعف عندئذ من صرامته ضد الأنا البريء. لكن في الحالتين كلتيهما سيلقى الأنا، الذي سيطر على الليبيدو بالتماهي، العقاب على ذلك من جانب الأنا الأعلى الذي سيوجِّه ضده العدوانية التي كانت مرتبطة من قبل بالليبيدو.

ها هي ذي تصوراتنا عن الأنا قد شرعت تتوضح، وها هي ذي علاقاته طفقت تتبدى لنا بمزيد من الجلاء. فنحن نعاين الآن الأنا بقوته وبضعفه. إنه مكلَّف بوظائف هامة؛ وبفضل علاقته بالنسق الإدراكي ينظِّم زمنياً ترتيب السيرورات النفسية، ويُخضِع هذه الأخيرة لامتحان الواقع. وبإدخاله العمليات التفكيرية يتوصل إلى تأجيل التفريغات الحركية ويسيطر على المنافذ إلى الطاقة الحركية. بيد أن هذه السيطرة صورية أكثر منها فعلية، إذ إن وضع الأنا يشبه



وضع الملك الدستوري الذي لا يسري مفعول أي قانون ما لم يقترن بمصادقته عليه، ولكن الذي يتردد مع ذلك كثيراً ويُقلِّب النظر في الأمر مراراً قبل أن يمارس حق النقض ضد مشروع قانون اقترع عليه البرلمان. إن الأنا يغتني، من الخارج، بجميع خبرات الحياة وتجاربها؛ ولكن الهذا هو عالمه الخارجي الآخر الذي يجاهد كيما يخضعه لسلطانه. إنه يسحب الليبيدو من الهذا، ويحوِّل توظيفات الهذا الموضوعانية إلى تشكلات أنوية. وبمساعدة الأنا الأعلى يغرف، بطريقة ما زالت غامضة علينا، من معين التجارب القبتاريخية المتراكمة في الهذا.

ثمة طريقان يمكن أن ينفذ منهما مضمون الهذا إلى الأنا. الأول هو الطريق المباشر، والثاني يمرّ بمثال الأنا؛ وسلوكه أحد هذين الطريقين يمكن أن يكون حاسم الأهمية بالنسبة إلى كثير من الأنشطة النفسية. والأنا يتطور بدءاً من إدراك الدوافع الغريزية ووصولاً إلى السيطرة على الدوافع الغريزية، وبدءاً من إطاعة الدوافع الغريزية ووصولاً إلى كفّ الدوافع الغريزية. ويسهم بقسط وفير في هذا التطور مثال الأنا الذي هو، جزئياً على الأقل، تشكيل ارتجاعي ضد سيرورات الهذا الغريزية. ومن شأن التحليل النفسي أن يكون أداة يفترض بها أن تمكّن الأنا من السيطرة التدريجية على الهذا.

غير أن هذا الأنا عينه يتبدى لنا، من جهة أخرى، وكأنه مخلوق مسكين يتعيَّن عليه أن يخدم سادة ثلاثة، ويعيش، تبعاً لذلك، تحت تهديد أخطار ثلاثة: من جانب العالم الخارجي، ومن جانب ليبيدو الهذا، ومن جانب صرامة الأنا الأعلى. هذه الأخطار الثلاثة تناظرها ثلاثة أنواع من الحصر، من حيث أن الحصر هو تعبير عن انسحاب أمام الخطر. فالأنا، بوصفه كائناً حدودياً، يريد أن يتوسط بين العالم والهذا، وأن يجعل الهذا مطواعاً لمقتضيات العالم، وأن يجعل العالم، بوساطة نشاطه العضلي، متلائماً مع متطلبات الهذا. إنه يسلك حقاً مسلك الطبيب في أثناء العلاج التحليلي، إذ يعْرِض نفسه بنفسه ـ آخذاً بعين الاعتبار العالم الواقعي ـ على الهذا كموضوع ليبيدوي، محاولاً أن يحوّل إليه ليبيدو الهذا. إنه ليس مساعد الهذا فحسب، وإنما هو أيضاً عبده المطيع الذي يستجدي حبَّ سيده. إنه يحاول، إذا أمكن ذلك، أن يبقى على تفاهم ووفاق مع الهذا،



فيعمل على تغطية أوامر الهذا اللاشعورية بتعقيلاته القبشعورية، ويلوّح بوهم صدوع الهذا بأمر الواقع، حتى ولو بقي الهذا على صلابته وعناده، ويقوم بتمويه منازعات الهذا مع الواقع، وكذلك منازعاته مع الأنا الأعلى إذا أمكن. وغالباً ما يغريه وضعه المتوسط بين الهذا والواقع بأن يجنح إلى المجاملة والانتهازية والكذب، مثله في ذلك إلى حدّ ما مثل رجل الدولة الذي يرى الأمور على حقيقتها ولكنه يريد في الوقت نفسه أن يكسب محاباة الرأي العام.

إن موقفه بين كلا النوعين من الدوافع الغريزية ليس محايداً. فبما يقوم به من تماهٍ وإسماء يساعد غرائز الموت في الهذا على السيطرة على الليبيدو، لكنه يجازف على هذا النحو بأن يصير موضوعاً لغرائز الموت، فيهلك هو نفسه. ولكي يستطيع أن يضطلع بهذه المساعدة فعلاً يجد لزاماً عليه أن يمتلئ هو نفسه بالليبيدو، فيغدو على هذا النحو ممثل الإيروس ويطفق يرغب مذّاك فصاعداً في أن يحيا وفي أن يكون محبوباً.

لكن بما أن عمله الإسمائي يكون من نتيجته تفكك في الدوافع الغريزية وتحرير للغرائز العدوانية في الأنا الأعلى، فإنه يعرّض نفسه، من جراء كفاحه ضد الليبيدو، لخطر الضيم والموت. وعندما يتألم الأنا أو حتى يلقى حتفه بنتيجة عدوان الأنا الأعلى، فإن مصيره يناظر مصير الفرطيسات[٤] التي تؤول إلى الهلاك من جراء التحلل الذي تتسبب هي نفسها في حدوثه. وتتبدى لنا الأخلاق التي تتخذ من الأنا الأعلى مسرحاً لعملها كأنها، من وجهة النظر الاقتصادية، نتجية لتحلل كذاك.

إن العلاقة التي تربط الأنا بالأنا الأعلى ربما كانت، بين سائر علاقات تبعية الأنا، هي العلاقة الأكثر استلفاتاً للنظر.

إن الأنا هو المحلّ الحقيقي للحصر. فحينما تتهدده الأخطار بأنواعها الثلاثة يطوِّر في نفسه ردَّ الفعل الهروبي، فيسحب توظيفه من الإدراك الذي يتهدده أو

٤ ـ الفرطيسات PROTISTES: رتبة من المتعضّيات الأحادية الخلية في الغالب. وكان أول من أطلق عليها هذا الاسم البيولوجي والفيلسوف الألماني إرنست هيكل (١٨٣٤ ـ ١٩١٩). «م».



من سيرورة الهذا التي يرتئي أنها هي أيضاً تتهدده، ثم ينفقه في صورة حصر. وتخلي هذه الاستجابة الابتدائية مكانها في وقت لاحق لتوظيفات إسقاطية (آلية الأرهبة). وليس من السهل أن نحدد طبيعة ما يمكن أن يخشاه الأنا من الخطر الخارجي أو من الخطر الليبيدوي في الهذا؛ وإنما نعلم فقط أنه الخوف من الانسحاق أو الفناء، ولكن ما من سبيل إلى تحديده تحليلياً. وكل ما يفعله الأنا أنه يتقيَّد بالتحذير الموجَّه إليه من قبل مبدأ اللذة. وبالمقابل، نستطيع أن نحدد ما الذي يختفي خلف حصر الأنا في مواجهة الأنا الأعلى، أي خلف حصر الضمير. فعن الكائن الأسمى، الذي صار فيما بعد مثال الأنا، صدر فيما سلف التهديد بالخصاء؛ وحصر الخصاء هذا ربما كان هو النواة التي يتموضع حولها فيما بعد الحصر المرتبط بالوساوس الضميرية، بل قد يسعنا القول إن حصر الخصاء هذا هو الذي يبقى مستمراً في صورة حصر الضمير.

إن القضية الطنانة القائلة إن كل حصر هو في الواقع حصر الموت تكاد تكون عارية من المعنى، وهي غير قابلة على كل حال للتبرير[٥]. بل يبدو لي بالأحرى أنه من الصواب جداً أن نميِّز حصر الموت من الحصر الموضوعاني (الحصر الواقعي) ومن الحصر الليبيدوي العصابي. فحصر الموت يطرح على التحليل النفسي مشكلة صعبة، لأن الموت مفهوم مجرد ذو مضمون سالب، يتعذر أن نجد له مناظراً لاشعورياً. وقد لا تعدو آلية حصر الموت أن تكون كالآتي: إن الأنا يتخفف إلى حدّ بعيد من توظيفه الليبيدوي النرجسي، أي أنه يتخلى عن نفسه، تماماً كما يتخلى عن الموضوع في بعض حالات الحصر. وإني أعتقد أن حصر الموت يدور ما بين الأنا والأنا الأعلى.

نحن نعلم أن حصر الموت يطرأ في حالتين تتشابهان أصلاً تمام المشابهة

٥ ـ الإحالة هنا إلى أطروحة فلهلم شتيكل(*) في كتابه **حالات الحصر العصبية ومعالجتها**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

(*) فلهلم شتيكل: طبيب وفيزيولوجي نمساوي(١٨٦٨ ـ ١٩٤٠). من أوائل تلاميذ فرويد ومن أبرزهم، وذلك بعد أن تولى فرويد نفسه تحليله. ولكنه ما عتم أن انشقّ عنه، مما حمل فرويد على أن يصرِّح عام ١٩١٢ أن «شتيكل قد اشتقّ لنفسه طريقاً خاصاً به». من أشهر مؤلفاته: **الاستمناء والجنسية المثلية، الحياة في الحلم، المرأة الباردة**. «م».



الحالات الأخرى التي يتمخض فيها الحصر: من حيث أنه استجابة لخطر خارجي، ومن حيث أنه سيرورة داخلية كما في السويداء مثلاً. وهكذا نرى، مرة أخرى، أن الحالة العصابية يمكن أن تعيننا على فهم الحالة الواقعية.

إن حصر الموت في السويداء لا يقبل سوى هذا التفسير الوحيد: إن الأنا يتخلى عن نفسه لأنه يشعر أنه مكروه ومضطهَد من قبل الأنا الأعلى بدل أن يكون محبوباً منه. الحياة عند الأنا ترادف إذاً كونه محبوباً، ومحبوباً بالتحديد من قبل الأنا الأعلى الذي يدلف هنا أيضاً إلى المسرح بصفته ممثل الهذا. ويتولى الأنا الأعلى تمثيل وظيفة الحماية والأمان عينها التي كان يمثّلها الأب فيما سلف، والتي تمثّلها في وقت لاحق العناية الإلهية أو الأقدار. غير أن الأنا الأعلى لا يسعه إلا أن يستخلص النتيجة نفسها حينما يجد نفسه وقد أحدق به خطر واقعي عظيم الجسامة لا قِبَل له، على ما يعتقد، بمواجهته بقواه الخاصة. وعندئذ يرى نفسه وقد هجرته جميع القوى الحامية، فيسلس قياده للموت. وهذا على كل حال الموقف عينه الذي تنشأ عنه حالة الحصر الشديدة الأولى ساعة الميلاد. وكذلك حالة الحصر/ الحنين الطفلي غبَّ الانفصال عن الأم المحبّة.

على أساس جميع الاعتبارات التي تقدَّم بيانها يمكن لنا أن نتصور حصر الموت، وكذلك حصر الضمير، على أنه نتاج حصر الخصاء. ونظراً إلى الأهمية الكبرى التي تعود إلى الشعور بالذنب في الأعصبة، فمن المباح لنا أيضاً أن نفترض أن الحصر العصابي العادي يعضده، في الحالات الخطيرة، تمخُّض للحصر بين الأنا والأنا الأعلى (حصر الخصاء، حصر الضمير، حصر الموت).

أما الهذا، الذي نعود إليه في نهاية المطاف، فلا تتوفر له الوسائل ليُظهِر للأنا حباً أو كرهاً. فهو لا يستطيع أن يقول ماذا يشاء و ماذا يبغي. إذ إنه لم ينتهِ إلى تكوين أية إرادة وحدوية. إن إيروس وغريزة الموت يتصارعان فيه؛ وقد رأينا ما الوسائل التي يقاوم بها كل نوع من الدوافع الغريزية النوعَ الآخر. وفي مقدورنا أن نصوِّر الوضع كما لو أن الهذا واقع تحت سيطرة غرائز الموت الصامتة وإنما القوية، تلك الغرائز التي تطلب السكون وتبغي أن تعيد إلى حالة السكون ذلك المعكِّر للصفو الذي هو إيروس، مسترشدة بإيعازات مبدأ اللذة؛ غير أننا نخشى أن



نكون بذلك قد استخففنا بدور الإيروس.



مكتبة
الفكر الجديد

الكفّ، العرَض، الحصر

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

تقديم

كتب فرويد هذا النص في نهاية عام ١٩٢٥ وفي مطلع عام ١٩٢٦ كتتمة لكتابه **الأنا والهذا** الذي طوَّر فيه طبوغرافيته الثلاثية عن الشعور وما قبل الشعور واللاشعور إلى طبوغرافيا ثلاثية جديدة: الأنا والهذا والأنا الأعلى. والحال أن فرويد قبل أن يكون منظِّراً هو باحث، وكباحث كان بحاجة دائمة إلى أن يكتشف متناقضاته ومسكوتاته ومجهولاته، وإلى تصحيح مصادراته أو حتى أخطائه، ولو اضطر إلى تكرار نفسه. ومن هنا كانت عودته المطوَّلة إلى تحليل الحالتين الرهابيتين اللتين كان أفرد لكل منهما قبل سنوات عديدة كتاباً على حدة: «**هانز الصغير**» و«**رجل الذئاب**». ومن هنا أيضاً كان عدم رضاه عن نفسه في كل جديد يكتبه. وذلك كان موقفه من كتابه الجديد: **الكفّ، العرَض، الحصر** الذي اشتكى في رسالة منه إلى إرنست جونز بتاريخ ١٨ شباط/فبراير ١٩٢٦ من أن قلمه لا يسايره كما يريد فيما يكتب، ومن أن كتابه الجديد وإن كان يحتوي على أشياء جديدة وهامة، ويلغي أو يصحِّح العديد من الاستنتاجات السابقة، "لكنه بالإجمال ليس جيداً".

ولقد كنا ترجمنا **الكفّ، العرَض، الحصر** عن الترجمة الفرنسية الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية، الطبعة الخامسة، عام ١٩٧٥ بقلم ميشيل تور. ثم أدخلنا في هذه الطبعة التي بين يدي القارئ كل ما ارتأيناه ضرورياً من التعديلات بالإحالة إلى الترجمة الجديدة الصادرة عن الدار نفسها بقلم أندريه بورغينيون وبيير كوتيه في المجلد السابع عشر من مؤلفات فرويد الكاملة.

ج. ط



مكتبة
الفكر الجديد

(١)

يحملنا العرف الاصطلاحي على التمييز، في وصفنا لظاهرات مَرَضية، بين الأعراض SYMPTOMES والكفوف INHIBITIONS، بدون أن نعلّق على كل حال قيمة كبيرة على هذا التمييز. وما كنا لنرى فائدة من تحديد حدود مفهومي الكفّ والعرَض لولا أنه تصادفنا حالات تنطوي ـ لا مناص من الإقرار بذلك ـ على كفوف بدون أعراض، وهو ما نودّ بلا ريب أن نعرف سببه.

لم يرَ المفهومان النور فوق أرض واحدة. فمصطلح الكفّ يختص بالوظيفة بوجه خاص ولا يعني بالضرورة شيئاً مَرَضياً: وبالفعل يسعنا أيضاً أن نطلق اسم الكفّ على فعل الحدّ العادي لوظيفة من الوظائف. أما العرَض بالمقابل فمرادف لعلامة على سيرورة مرَضية. الكفّ يمكن أن يكون إذاً عرَضاً أيضاً. ومن ثم درج العرف الاصطلاحي على الكِلام عن كفّ في حالات محضِ تناقضٍ في الوظيفة، وعن عرَض متى ما طرأ على هذه الوظيفة تبدلٌ غير مألوف أو متى ما كان بيت القصيد نمطاً جديداً من الاشتغال الوظيفي. ويبدو في العديد من الحالات أننا نقرر جزافاً أن نشدِّد على الجانب الموجب أو على الجانب السالب من السيرورة المرَضية، فنصف نجاحها بأنه عرَض أو كفّ. والحق أن هذا كله عديم الفائدة، والكيفية التي طرحنا بها المسألة في البداية لا تبدو أنها على جانب يذكر من الخصوبة.

ما دام الكفّ، من وجهة النظر المفهومية، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالوظيفة، فقد يخطر في بالنا أن نتفحص مختلف وظائف الأنا بغية رصد الأشكال التي يتلبسها اختلالها في كل ضرب من ضروب الإصابة العصابية. وقد وقع اختيارنا في دراستنا المقارنة هذه على الوظيفة الجنسية، والتغذية وحركة التنقل، والعمل المهني.



أ ـ إن الوظيفة الجنسية عرضة لاختلالات بالغة التنوع، يتصف أكثرها بطابع الكفوف البسيطة. وتُجمَع ضروب الكفّ تحت اسم العنة النفسية. وإتمام الوظيفة الجنسية السوية يفترض جرياناً معقداً للغاية يمكن للاختلال أن يتدخل في كل مرحلة من مراحله. وأكثر ما يطرأ الكفّ لدى الإنسان عند النقاط التالية: الليبيدو يشيح عن موضوعه عند بدء السيرورة (الكدر النفسي)، أو إن الشروط الجسمانية المسبقة لا تتحقق (عدم الانتصاب)، أو إن العملية تختصر (القذف المبكر) ـ وهو ما يمكن وصفه أيضاً بأنه عرض موجب ـ أو تُعلَّق قبل أجلها الطبيعي (عدم القذف)، أو إن المفعول النفسي لا يحدث (عدم الإحساس بنشوة الرعشة). وتنجم اختلالات أخرى عن ارتباط الوظيفة ببعض شروط خاصة، من طبيعة منحرفة تميمية[1].

لا يمكن أن يغيب عنا ردحاً طويلاً من الزمن أن الكفّ ذو صلة بالحصر. فالكثير من الكفوف هي، على نحو جليّ للعيان، عزوفات عن وظيفة من الوظائف، والحافز إلى هذه العزوفات أن أداء هذه الوظيفة يمكن أن يتمخَّض عن حصر. ولدى المرأة غالباً ما يرتبط الحصر ارتباطاً مباشراً بالوظيفة الجنسية، وهذا الحصر ندرجه في عداد الهستيريا، مثله مثل العرَض الدفاعي المتمثل بالاشمئزاز الذي يكون أول ظهوره كاستجابة آجلة للعملية الجنسية التي تعيشها المرأة سلبياً ثم يتكرر ظهوره عند التمثل الذهني لهذه العملية. وإن جملة من الأفعال القهرية أيضاً تتكشف عن أنها احتياطات وضمانات متخذة ضد خبرة بعينها من خبرات الحياة الجنسية، وهي بالتالي من طبيعة رهابية[2].

إننا لا نكون بذلك قد قطعنا شوطاً كبيراً على طريق فهم المشكلة، لكن لنلحظ على كل حال التنوع الكبير للغاية في الوسائل المستخدمة للإخلال بالوظيفة: ١ـ فمن الممكن أن يشيح الليبيدو لا أكثر (وهذا قمين بوجه خاص فيما يبدو بتحقيق ما نسميه بالكفّ الخالص)، ٢ ـ أن يتعطَّل أداء الوظيفة، ٣ ـ أن

---

١ ـ نسبة إلى التميمة FETICHE، وهو الاسم الذي أطلقه البرتغاليون على عبادة الشعوب الإفريقية التي استعمروها لأشياء مادية من أصنام صغيرة أو ما يماثلها من تماثيل أو أشكال من الأوتاد. «م».

٢ ـ نسبة إلى الرهاب: فوبيا PHOBIE. «م».



يتعسَّر هذا الأداء نتيجة لشروط خاصة وأن يتغيَّر نتيجة لحيَدانه نحو أهداف أخرى، ٤ ـ أن تمنعه تدابير احتياطية، ٥ ـ أن يوقفه تمخُّض حصر إن كان تعذَّر منعه من الابتداء، ٦ ـ أخيراً، وإذا ما أنجزت الوظيفة بالرغم من كل شيء، تولدت استجابة آجلة تحتج على هذا الإنجاز وتبغي إلغاء ما تمّ.

ب ـ إن الاختلال الأكثر تواتراً في الوظيفة الغذائية هو فقدان الشهية نتيجة لسحب اللييبدو. وحالات اشتداد الشهية ليست بنادرة هي الأخرى. فالحفزة القهرية إلى الأكل تجد مبررها في حصر الجوع، بيد أن هذه المسألة لم تدرس دراسة كافية. وعَرَض التقيؤ معروف لدينا بوصفه دفاعاً هستيرياً ضد التغذية. أما رفض الطعام الناجم عن الحصر فينتمي إلى الحالات الذهانية (هذاء التسمم).

ج ـ يقع الكفّ في العديد من الحالات العصابية على حركة التنقل نتيجة للنفور من المشي وللوهن في حركة المشي. ففي الهستيريا يستخدم الكفُّ الشللَ الحركي لجهاز المشي أو يتسبب في إلغاء مخصوص لوظيفة هذا الجهاز وحدها (الأبازيا)[٣]. وبليغةُ الدلالة هنا الصعوبات التي تعترض حركة التنقل نتيجة لتدخل شروط محددة، إن لم تُراعَ تولَّد حصر (الفوبيا).

د ـ إن الكفّ عن العمل، وهو اختلال غالباً ما نُطالب بمعالجته كعرَض منعزل، يكشف لنا عن تناقص في لذة العمل، أو عن أداء معيب للعمل، أو عن ظاهرات ارتجاعية كالتعب (الدوار، التقيؤ) متى ما أُجبر الفرد على الاستمرار في العمل. والهستيريا ترغم المريض على الانقطاع عن العمل إذ تخلق شللاً في الأعضاء أو في الوظائف يتنافى وجوده وأداء العمل. وفي العصاب الوسواسي يختلّ العمل من جراء شرود متواصل ومن جراء الوقت الذي يهدر في التكرار والمعاودة.

في مقدورنا، لو شئنا، أن نشمل بهذه اللمحة وظائف أخرى أيضاً، لكن لا مجال لأن نأمل في الحصول عن هذا السبيل على نتائج أهم شأناً، إذ إننا لن

٣ ـ الأبازيا : كلمة يونانية الأصل ويشار بها في علم الأعصاب والطب النفسي إلى انشلال المرء عن المشي نتيجة لعدم القدرة على التنسيق بين العضلات المتحكمة بالمشي. «م».



نفارق في هذه الحال سطح الظاهرات. فليقرّ قرارنا إذاً على تقديم تأويل للكفّ لا يترك أي لغز تقريباً يحيط بمفهومه. فالكفّ هو التعبير عن **انحداد وظيفي للأنا** يمكن أن تكون له هو نفسه أصول شديدة التباين. والعديد من الآليات التي تتدخل في هذا الاستنكاف عن وظيفة من الوظائف مألوف لدينا، ومألوف لدينا كذلك اتجاه عام لهذا الاستنكاف.

من الأيسر تعرُّف هذا الاتجاه في حالات الكفوف الأكثر تخصصاً. فحين يخضع العزف على البيانو والكتابة وحتى المشي لكفوف عصابية، يميط لنا التحليل اللثام عن علة ذلك في تجنيس sexualisation مفرط القوة للأعضاء المعنية بهذه الوظيفة، أي الأصابع والقدمين. وقد انتهى بنا الأمر إلى الاعتقاد، بصورة بالغة العمومية، أن الوظيفة التي يؤديها عضو من الأعضاء في خدمة الأنا تختلّ متى ما تعمَّق طابعها الشهوي وتنامت دلالتها الجنسية. فهذا العضو يسلك عندئذ، إن اجترأنا على عقد مقارنة لا تخلو من غثاثة سوقية، مسلك الطاهية التي لا تعود ترغب في العمل في المطبخ لأن رب الدار عقد معها علاقة غرامية. فحين تأخذ الكتابة ـ وقوامها إسالة سائل من ريشة فوق صحيفة من الورق الأبيض ـ الدلالة الرمزية للجماع، أو حين يصير المشي بديل الوطء فوق جسد الأرض الأم، يتمّ العزوف عن الكتابة والمشي كليهما لأن القيام بهما سيعدل في هذه الحال أداء الفعل الجنسي المحظور. فالأنا يعزف عن وظائف هي في متناوله، كيلا يُرغم على الشروع بكبت جديد، أي **كي يتحاشى صراعاً مع الهذا**.

تحدث كفوف أخرى على نحو بادٍ للعيان بغرض معاقبة الذات، وهذا غير نادر فيما يتصل منها بالأنشطة المهنية. فليس من حقّ الأنا أن يفعل مثل هذه الأشياء، لأنها ستعود عليه بالنفع والنجاح، وهذا ما تضنّ به عليه صرامة الأنا الأعلى. وفي هذه الحال يعزف الأنا عن تلك الأنشطة أيضاً **كيلا يدخل في صراع مع الأنا الأعلى**.

أما كفوف الأنا المتصفة بطابع أكثر شمولاً فتخضع لآلية مغايرة وبسيطة. فحينما يواجه الأنا مهمة نفسية بالغة الصعوبة، كالحِداد مثلاً أو القمع الشديد للعواطف أو ضرورة احتواء البزوغ اللامنقطع سيله للأخاييل الجنسية، يعاني من



إفقار بالغ في الطاقة المتاحة له إلى حدّ يضطره إلى تقليص إنفاقه في عدة نقاط في آن واحد، مثله مثل المضارب الذي جمَّد رساميله في تثميراته. وقد تسنى لي أن أعاين مثالاً غنياً بالفائدة لهذا الكفّ الشامل، الشديد، القصير الأمد، لدى مريض بالعصاب الوسواسي كان يسقط تحت نير تعب شالّ قد يدوم من يوم إلى عدة أيام في مناسبات كان يُفترض بها، بمنتهى الجلاء، أن تستثير نوبة من الهيجان. ولا بدّ أن يكون في الإمكان، ابتداء من هذه النقطة، الاهتداء إلى طريق يفضي إلى فهم الكفّ الشامل الذي تتصف به الحالات الاكتئابية، بما فيها أخطرها إطلاقاً: السويداء.

في النهاية، يسعنا إذاً أن نقول، بصدد الكفوف، إنها تحديدات لوظائف الأنا، إما على سبيل الاحتياط والاحتراس، وإما من جراء افتقار في الطاقة. ومن اليسير الآن أن نتبيَّن بماذا يتميز الكفّ عن العرَض؛ فالعرَض لا يمكن وصفه بعد الآن بأنه سيرورة تحدث في الأنا أو ملازمة له.



مكتبة
الفكر الجديد

(٢)

لقد دُرست السمات الرئيسية لتكوين العرَض منذ زمن بعيد وصيغت، على ما أرجو، في منطوقات واضحة لا تحتمل الجدل. فالعرَض على هذا الأساس علامة وبديل عن إشباع غريزي لم يتمّ، ومن ثم فهو نتيجة لسيرورة كبت. والكبت يأتي من الأنا الذي يرفض، صدوعاً بأمر الأنا الأعلى في أغلب الظن، المعاونة في توظيف غريزي كان الهذا هو مصدر نشوئه. وعن طريق الكبت يتمكن الأنا من الحؤول دون وصول الفكرة الحاملة للحاثة المستكرهة إلى الشعور. وغالباً ما يدلّ التحليل أن الفكرة بقيت على قيد الوجود في صورة تشكيل لاشعوري. إلى هذا الحدّ يبدو كل شيء واضحاً إذاً، لكن عند هذا الحدّ أيضاً تبدأ الإشكالات التي بقيت بلا حلّ.

إن الوصف الذي قدَّمناه حتى الآن لما يجري في عملية الكبت قد شدَّد كل التشديد على النتيجة التي تتمثل في بقاء الفكرة خارج اللاشعور، غير أنه ترك الشكوك تحوم حول نقاط أخرى. وبالفعل، ثمة سؤال ينطرح هنا: ما مصير الحاثة الغريزية التي تنشطَّت في الهذا والتي تهدف إلى الإشباع؟ لقد كان الجواب الذي نعطيه غير مباشر: إن اللذة المنتظرة من الإشباع تتحول من جراء عملية الكبت إلى كدر، وهنا كانت تواجهنا مشكلة معرفة كيف يمكن أن يتمخض إشباع غريزي عن كدر. ونأمل أن نجلو هذا الأمر بقولنا في عبارة دقيقة إن مجرى التنبيه المستهدف في الهذا يُحرَم، من جراء الكبت، من كل إمكانية للوصول إلى غايته، نظراً إلى نجاح الأنا في كفِّه أو في حرفه عن مساره. وفي هذه الشروط ينقشع لغز **التحول الوجداني** في أثناء الكبت. لكننا نكون بذلك قد سلَّمنا للأنا بالقدرة على ممارسة تأثير بالغ العمق على السيرورات التي تجري في الهذا، وبات لزاماً علينا بالتالي أن نفهم عن طريق أي وسيلة يغدو ممكناً هذا



الاستعراض المذهل للقوى.

ينبع نفوذ الأنا هذا، فيما أعتقد، من صلاته الحميمة بالنسق الإدراكي، هذه الصلات التي تؤلف، في الحقيقة، ماهيته وجوهره، والتي كانت هي الأساس للتمايز عن الهذا. ووظيفة هذا النسق، الذي كنا أسميناه **قشع وشع**[1]، ترتبط بظاهرة الشعور: فهذا النسق يتلقى تنبيهات لا من الخارج فحسب، بل كذلك من الداخل، ويجهد، عن طريق أحاسيس اللذة والكدر التي تساوره من الداخل، لكي يوجِّه كل مجرى النشاط النفسي في اتجاه مبدأ اللذة. هكذا يطيب لنا أن نتصور الأنا عاجزاً في مواجهة الهذا، ولكن حسبه، إذا ما أراد التصدي لسيرورة غريزية تابعة للهذا، أن يعطي إشارة كدر ليصل إلى غاياته بالاعتماد على مساعدة القدرة شبه المطلقة عملياً لمبدأ اللذة. ولننعم النظر لهنيهة من الزمن في هذا الموقف بمعزل عن غيره. ففي وسعنا التمثيل عليه بمقارنة نقتبسها من مضمار آخر. لنفرض أن طغمة بعينها، في دولة بعينها، تريد أن تحمي نفسها من إجراء تصبو الجماهير إلى إصدار قانون به؛ فهذه الأقلية تستولي في هذه الحال على الصحافة وتستخدمها في التأثير على «الرأي العام» صاحب القول الفصل، وتتمكن عن هذا السبيل من الحؤول دون إصدار القانون المشار إليه.

غير أن هذا الجواب يثير أسئلة جديدة: من أين تأتي الطاقة التي تُستخدم في استحداث إثارة الكدر؟ الفكرة التالية يمكن أن تهدينا هنا إلى الطريق: إن الاحتماء من سيرورة داخلية غير مرغوب فيها يمكن أن يتمّ وفق نموذج الاحتماء من تنبيه خارجي، إذ يسلك الأنا طريقاً واحداً سواء لاتقاء شر الخطر الداخلي أو شر الخطر الخارجي. ففي حالة الخطر الخارجي يعمد الجسم إلى محاولة هرب؛ فبادئ ذي بدء يسحب من إدراك الموضوع الخَطِر توظيفه، ثم يتبيَّن له بعدئذ أن الوسيلة الأنجع هي أداء أفعال عضلية معيَّنة بحيث يغدو إدراك الخطر، حتى بدون

١ ـ تمييزاً للمستوى النسقي من المستوى الوصفي اقترح فرويد عام ١٩١٥ في مقاله عن «اللاشعور» في كتابه **ما بعد علم النفس** تسمية نسق الإدراك الشعوري بـ «شع» واللاشعوري بـ «لشع»، وعرَّف النسق الشعوري بأنه، بمزيد من الدقة، النسق القابل لأن يكون شعورياً. ومن ثم اقترح تسميته أيضاً بـ «قشع» أي «القبشعوري». «م».



التنكر له، مستحيلاً، أي أن الوسيلة الأنجع هي الابتعاد عن دائرة الخطر. والكبت قابل تماماً للتشبيه بمحاولة للهرب كهذه. فالأنا يسحب من الممثل الغريزي المطلوب كبته توظيفه (القبشعوري) ويستخدم هذا التوظيف في إطلاق الكدر (الحصر). صحيح أن مسألة معرفة كيف يتمخض الحصر عند الكبت ليست بالمسألة الهيِّنة، بيد أن لدينا من الأسباب ما يحملنا على التمسك بحزم بفكرة أن الأنا هو بالفعل محل الحصر، وعلى انتباذ التصور السابق الذي يفترض أن الطاقة التوظيفية للحاثة المكبوتة تتحول تلقائياً إلى حصر. ولئن أفصحتُ ذات يوم عن رأي كهذا، فإن ما قلته يومئذ لم يكن له من قيمة غير قيمة التوصيف الفينومينولوجي، لا قيمة التصور الميتاسيكولوجي.

سؤال آخر يُشتق مما تقدم: كيف يمكن، من وجهة النظر الاقتصادية، لمحض عملية سحب وتفريغ، كتلك التي تتمّ عند سحب التوظيف القبشعوري للأنا، أن تنتج كدراً أو حصراً، مع أنه لا يمكن، بمقتضى مسلَّماتنا، أن يُنتَج الكدرُ أو الحصرُ إلا عند زيادة في الشحن والتوظيف؟ جوابي عن ذلك أنه لا يجوز لنا أن نسعى إلى تفسير هذا الإنتاج من وجهة النظر الاقتصادية، وأن الحصر لا يُنتج عند الكبت باعتباره في كل مرة تظاهرة جديدة، بل يعيد، في شكل حالة انفعالية، إنتاج صورة ذاكرية سابقة الوجود. لكن إذا مضينا إلى أبعد من ذلك، فطرحنا مسألة أصل هذا الحصر ـ وأصل الحالات الانفعالية بصفة عامة ـ نكون قد غادرنا الميدان السيكولوجي بحصر المعنى وانتقلنا إلى ميدان الفيزيولوجيا المجاور. فالحالات الانفعالية تُدمج بالحياة النفسية بصفتها رواسب من خبرات رضِّية سحيقة القدم، جرى استحضارها من جديد في مواقف مشابهة باعتبارها رموزاً ذاكرية. وأعتقد أنني لم أجانب الصواب إذ شبَّهتها بالنوبات الهستيرية، التي تظهر لاحقاً ويتمّ اكتسابها فردياً، واعتبرتها نماذج أولية لها في نطاق الحالة السوية. ولدى الإنسان والكائنات المشابهة له يبدو أن الميلاد، وهو أول خبرة فردية تتصف بالحصر، يحبو التعبيرَ عن حالة الحصر الانفعالية بسمات مميِّزة. بيد أنه لا يجوز لنا أن نغالي في تقييم هذه العلاقة، وليس للاعتراف بها أن يجعلنا ننسى أن أي رمز انفعالي هو ضرورة بيولوجية في مواجهة موقف الخطر، وأنه



كان في كل الأحوال سيُبتدع. كما لا أرى من مبرر للافتراض بأن ما يحدث في الحياة النفسية عند كل نوبة حصر هو بمثابة تكرار لوضعية الميلاد[٢]. بل ليس من المؤكد أن النوبات الهستيرية، التي يمكن أن تكون في الأصل تكراراً لرضة كهذه، تحتفظ بصورة مستديمة بهذا الطابع.

كما كنت أوضحت في غير هذا الموضع، تمثّل معظم الكبوتات التي نواجهها في العمل العلاجي حالات من **الكبت الآجل**. فهي تفترض أن تكون **كبوتات أصلية** قد حدثت من قبل، كبوتات تمارس على الموقف الجديد تأثيراً اجتذابياً. ومعرفتنا لا تزال ضئيلة جداً بهذه الخلفيات، بهذه الأطوار السابقة من الكبت. وقد نقع بسهولة عرضة لخطر المغالاة في تقييم دور الأنا الأعلى في الكبت. ومن الممكن أن يكون ظهور الأنا الأعلى بمثابة الحدّ الفاصل بين الكبت الأصلي والكبت الآجل. لكن من المتعذر البتّ في هذه المسألة في الوقت الحاضر. ومهما يكن من أمر، فإن تظاهرات الحصر الأولى ـ التي تكون على جانب كبير من الشدة ـ تحدث قبل تمايز الأنا الأعلى. ومن المعقول جداً أن تكون عوامل كمية، مثل قوة الإثارة المفرطة وتحطيم الدرع الواقي من واقية الإثارة، هي الشروط المباشرة للكبوتات الأصلية.

إن مصطلح الدرع الواقي من الإثارة، الذي تلفظنا به كما لو أنه مصطلح مفتاحي، يدعونا حالاً إلى أن نتذكر أن الكبوتات تطرأ في موقفين متباينين: حينما ينشّط إدراك حسي خارجي حاثةً غريزية مستكرهة، وحينما تبزغ مثل هذه الحاثة من الداخل دونما إثارة من ذلك القبيل. ولنا عودة لاحقاً إلى هذا الفارق. لكن لنلحظ من الآن أن لا وجود لواقية الإثارة إلا ضد الإثارات الخارجية، لا ضد المطالب الغريزية الباطنة.

ما دمنا عاكفين على دراسة محاولة هرب الأنا، نبقى بعيدين عن مشكلة تكوين العرَض. فالعرَض ينشأ من الحاثة الغريزية التي رزحت تحت الكبت. وحينما يلجأ الأنا، وصولاً إلى هدفه: القمع التام للحاثة الغريزية، إلى إطلاق

٢ ـ نقدة موجهة إلى نظرية رانك في رضة الميلاد المرفوعة إلى درجة المطلق. «م».



إشارة الكدر، لا نعلم شيئاً عن الكيفية التي يحدث بها ذلك. وإنما مصدر إعلامنا الوحيد حالات الكبت التي يمكن اعتبارها فاشلة بقدر أو بآخر.

عندئذ يتضح، بوجه الإجمال، أن الحاثة الغريزية قد وجدت بالفعل، رغماً عن الكبت، بديلاً، ولكنه بديل شديد النقصان، منقول عن موضعه الأصلي، مكفوف، علاوة على أنه لا يعود من الممكن تعرُّفه كإشباع. ومتى ما تمّ هذا الإبدال لا يتولد أي إحساس باللذة. وبالمقابل، يكون هذا الإبدال قد تلبَّس طابعاً قهرياً. لكن عند هذا الانحطاط لمسار الإشباع إلى عرَض، يفصح الكبت عن قوته في نقطة أخرى بعد. فالعملية الإبدالية تجد نفسها، بقدر ما أن ذلك ممكن، وقد حُرمت من كل إمكانية للتفريغ عن طريق الطاقة الحركية **MOTILITÉ**. وحتى ولو لم يُحرز في ذلك نجاح، يتحتم على العملية الإبدالية أن تستنفد قواها في إحداث تغيير في جسم الشخص المعني ذاته بدون أن يؤذن لها بالتطاول على العالم الخارجي، إذ من المحظور عليها أن تنقلب إلى فعل وعمل. وبالفعل، إننا نعلم أنا الأنا يعمل، في الكبت، تحت تأثير الواقع الخارجي وأنه يسدّ بالتالي على نتيجة العملية الإبدالية المنفذ إلى هذا الواقع.

إن الأنا يتحكم بالمنفذ إلى الشعور كما بالانتقال إلى العمل في العالم الخارجي؛ وفي الكبت يوظف قوته في الاتجاهين كليهما: أولاً تجاه الممثل الغريزي وثانياً تجاه الحاثة الغريزية ذاتها. ومن ثم يكون ثمة داعٍ للتساؤل كيف يتمشى هذا الاعتراف بقوة الأنا مع الوصف الذي قدَّمناه عن موقف هذا الأنا عينه في كتابنا **الأنا والهذا**.

لقد كنا وصفنا في ذلك الكتاب تبعية الأنا للهذا وللأنا الأعلى على حدّ سواء، وعجزه ونزوعه إلى الحصر في مواجهة كل منهما، وأمطنا اللثام عن موقفه المتصلف في قبالة كل منهما رغم ما يتجشمه من مشقة في وقوفه والتمسك به. وقد لاقت وجهة النظر هذه منذئذ صدى واسعاً في أدبيات التحليل النفسي. وعديدة هي الأصوات التي ترتفع لتشدد بإلحاح على ضعف الأنا حيال الهذا، على ضعف العقلاني حيال الشيطاني الكامن فينا، ولتصبّ جهدها كله على إرساء هذه الأطروحة بصفتها دعامة «الرؤية التحليلية النفسية للعالم». ولكن أما



كان مفروضاً بالتصور الذي أمكن للتحليل النفسي أن يكوِّنه عن كيفية عمل الكبت أن يردعه عن وقوف موقف متطرف إلى هذا الحدّ؟

إنني أناوئ فبركة رؤى للعالم. بل لندعها للفلاسفة الذين يجاهرون علانية بأن رحلة الحياة مستحيلة بدون ذلك **الدليل السياحي** الذي يحمل اسم بايدكر[٣] الذي يزوِّدهم بالمعلومات عن الأشياء طراً. ولنتقبل بتواضع نظرة الازدراء التي يحدجنا بها الفلاسفة من علياء مطالبهم الجوفاء. لكن ما دمنا نعجز نحن أيضاً عن التبرؤ من كبريائنا النرجسي، فلنا أن نطلب العزاء في فكرة مؤداها أن جميع «أدلة الحياة» هذه تشيخ بسرعة، وأن عملنا البسيط، المحدود بحسر نظرنا، هو بالتحديد ما يقسر واضعيها على إصدار طبعات مصححة ومنقحة، وأنه حتى أحدث هذه الأدلة السياحية وأكثرها عصرية لا تعدو أن تكون محاولات للحلول محل التعليم الديني القديم الذي بلغ حداً لا يضاهى من النجع والاكتمال. ونحن نعلم كم هو خافت الضوء الذي أمكن للعلم لحدّ الآن أن يسلِّطه على ألغاز هذا العالم، وكل لغو الفلاسفة لا يمكن أن يبدِّل في واقع الأمر شيئاً؛ ووحده العمل الصبور الدؤوب، الذي يقدِّم مطلب اليقين على كل ما عداه، يمكن له أن يغيِّر تدريجياً هذا الواقع. وعندما يرفع ذاك الذي يشقّ طريقه في الظلام عقيرته بالغناء، فإنه بذلك يذكر قلقه، لكن هذا لا يعني أن رؤيته قد صارت أوضح.

٣ ـ كارل بايدكر: كاتب ألماني (١٨٠١ ـ ١٨٥٩). اشتهر في أوروبا بطباعة الأدلة السياحية، حتى صارت تعرف باسمه. «م».



(٣)

لنعد إلى مشكلة الأنا. فالتناقض الظاهري ينبع من كوننا نغلو ونسرف في التجريد، ونفصل عن الواقع المعقد تارة هذا المظهر من مظاهره وطوراً ذاك. وحرصنا على تمييز الأنا من الهذا يبدو مسوغاً، إذ فرضته علينا وقائع محددة. غير أن الأنا، من منظور آخر، مطابق في الهوية للهذا إذ لا يعدو أن يكون جزءاً خاصاً متمايزاً منه. وسواء أأقمنا بالفكر معارضة بين هذا الجزء والكل، أم وقع انشقاق فعلي بينهما، فإن ضعف الأنا يغدو في جميع الأحوال حقيقة سافرة. لكن إن بقي الأنا مرتبطاً بالهذا ومتعذراً تمييزه عنه، فهو يبدي عندئذ عن قوته. ومماثِلة هي علاقات الأنا بالأنا الأعلى: ففي العديد من المواقف نرى الأنا والأنا الأعلى يسلكان كلاهما مساراً واحداً ولا نستطيع في غالب من الأحيان تمييز واحدهما من الآخر إلا إذا قام بينهما توتر أو نشب نزاع. وفي حالة الكبت يغدو أساسياً وحاسماً الفارق بين واقع أن الأنا عبارة عن تنظيم وواقع أن الهذا ما هو بتنظيم؛ ذلك أن الأنا هو على وجه التحديد الجزء المنظَّم من الهذا. وليس ثمة من مسوِّغ على الإطلاق لتصور الأنا والهذا في صورة معسكرين متعاديين، وللافتراض بأن الأنا يسعى إلى قمع شطر من الهذا عن طريق الكبت فيما يهبّ باقي الهذا لنجدة الجزء المهاجَم ولمقارعة قوته بقوة الأنا. قد يحدث هذا بالفعل في أحيان كثيرة، لكن ليس هذا بكل تأكيد هو الموقف عند ابتداء الكبت. فبصفة عامة تبقى الحاثة الغريزية المطلوب كبتها معزولة. ولئن أظهر لنا فعل الكبت قوة الأنا، فإنه ينمّ أيضاً، بصدد نقطة بعينها، عن عجز الأنا ويثبت أن حاثة الهذا الغريزية المعزولة تفلت من كل تأثير؛ ذلك أن السيرورة التي جعل منها الكبت عرَضاً تفصح الآن عن وجودها خارج نطاق تنظيم الأنا وبصورة مستقلة عنه. وليس العرَض وحده؛ فجميع فسائل تلك الحاثة تتمتع أيضاً بامتياز الحصانة الدبلوماسية إن جاز لنا



القول؛ وعندما تدخل في علاقة ترابطية مع أجزاء من تنظيم الأنا، جاز لنا أن نتساءل إن كانت لا تستلحقها بها وتضمّها إليها، وهو كسب يتيح لها أن تتوسع على حساب الأنا. ومن المقارنات التي ألفناها في هذا المجال تلك التي تعدّ العرَض جسماً غريباً يغذي بصورة متواصلة ظاهرات إثارة واستجابة في النسيج الذي انغرس فيه. وبالفعل، قد يتفق أن ينتهي الصراع الدفاعي ضد الحاثة الغريزية المستكرهة بتكوين العرَض؛ وذلك هو، فيما نرى، الاحتمال الراجح الكفّة في التحول الهستيري. غير أن الأمور تسلك بصفة عامة مجرى آخر؛ ففصل الكبت الأول تعقبه خاتمة لامتناهية الطول ولا يعرف لها من نهاية؛ وبذلك يتوالى الصراع ضد الحاثة الغريزية في صورة صراع ضد العرَض.

هذا الصراع الدفاعي الثانوي يكشف لنا عن وجهين (للأنا)[1] متناقضين في تعابيرهما. فمن جهة أولى يجد الأنا نفسه مكرهاً بحكم طبيعته على الإقدام على عملية لا مناص لنا من أن نتعرف فيها محاولة لإعادة التعمير أو للمصالحة. فالأنا تنظيم، والأساس الذي ينهض عليه حرية الانتقال والإمكانية المتاحة لجميع الأجزاء التي يتألف منها لتبادل التأثير فيما بينها، وطاقته المنزوعة عنها صفتها الجنسية تشفّ أيضاً عن أصلها باشرئبابها إلى الربط والتوحيد، وهذا النزوع القهري إلى التركيب يشتد طرداً مع نمو الأنا واستقوائه. وفي هذه الشروط يغدو مفهوماً أن يحاول الأنا أيضاً حذف الطابع الغريب والمنعزل للعرَض مغتنماً جميع الفرص التي قد تسنح له لربط العرَض به بصورة أو بأخرى ولاستدماجه، عن طريق مثل هذه الروابط، في تنظيمه. ولسنا نجهل أن مجهوداً كهذا يؤثر في فعل تكوين العرَض. والمثال التقليدي على ذلك تقدّمه لنا تلك الأعراض الهستيرية التي يسهل علينا أن نستشف طبيعتها كتسوية بين الحاجة إلى الإشباع والحاجة إلى العقاب. فمثل هذه الأعراض، بصفتها تحقيقاً لمطلب صادر عن الأنا الأعلى، تؤلف من الوهلة الأولى جزءاً من الأنا، بينما يتعيّن علينا، من جهة أخرى، أن نرى فيها مواقع للمكبوت، نقاطاً يتسلل منها إلى تنظيم الأنا؛ فهي، إن جاز القول، مخافر حدودية محتلة من الجانبين في آن معاً. فهل تشاد جميع الأعراض

١ ـ إضافة من الناشر. «م».



الهستيرية الأولية وفق هذا النموذج؟ إن المسألة جديرة بلا ريب بفحص متأنٍ. وبعد ذلك يتصرف الأنا كما لو أن خطاه يسددها الاعتبار التالي: إن العرَض قد وجد وصار له وجوده بصورة نهائية، فلا سبيل إلى إزالته، والمطلوب الآن التآلف مع هذا الموقف واجتناء كل الفائدة التي يمكن اجتناؤها منه. وعندئذ يتكيَّف الأنا مع ذلك الشطر من العالم الداخلي، الغريب عن الأنا، الذي يمثِّله العرَض، على منوال ما درج على فعله فيما يتعلق بالعالم الخارجي الواقعي. وهو لا يعدم الفرص لذلك. فوجود العرَض يمكن أن تترتب عليه إعاقة للعملية، وهذا ما قد يتيح الفرصة لإسكات مطلب من مطالب الأنا الأعلى أو ردّ طلب من العالم الخارجي. وهكذا يتولى العرَض شيئاً فشيئاً تمثيل مصالح مهمة، فتغدو له قيمة في توكيده لذاته، وينزع أكثر فأكثر إلى الاندماج بالأنا ويصير له، أكثر فأكثر أيضاً، ضرورياً لا غنى عنه. والحق أنه يندر للغاية أن تتمخض عملية استدماج جسم غريب عن نتيجة كهذه. ومن جهة أخرى، إننا نجازف بالوقوع في الغلو في تقديرنا لأهمية هذا التكيف الثانوي مع العرَض فيما لو قلنا إن الأنا ما حبا نفسه، في المحصلة الأخيرة، بالعرَض إلا بهدف التمتع بفوائده ومزاياه؛ فقولنا هذا سيعادل في خطئه وفي صوابه معاً قول من يقول إن جريح الحرب قد عمل على بتر ساقه لا لغرض إلا لكي يتسنى له فيما بعد أن يعيش، بدون أن يعمل، من معاش العجز عن العمل الذي سيرصد له.

إن مظاهر أخرى من العرَض ترتدي أهمية جلى بالنسبة إلى الأنا في العصاب الوسواسي والبارانويا، لا بحكم المكاسب التي تعود بها عليه، وإنما من جراء الإشباع النرجسي الذي يستمده منها والذي لولاها لحرم منه. فضروب الأنظمة التي يصطنعها المصابون بالعصاب الوسواسي لأنفسهم تداهن كبرياءهم إذ تلقي في روعهم أنهم أفضل من غيرهم من الأشخاص لأنهم على جانب عظيم من طهارة الذيل ونزاهة الضمير. والتشكيلات الهذائية لدى البارانوئيين تفتح أمام نفاذ فكر هؤلاء المرضى وأمام مخيِّلتهم حقلاً للعمل ليس لهم أن يجدوا بسهولة ما يكافئه في أي مضمار آخر. ومن جملة الحالات المشار إليها يبرز للعيان المفهوم المعروف لدينا باسم **مكسب المرض** (الثانوي): هذا المكسب الذي يهبّ لنجدة



الأنا في مجهوده لاستدماج العرَض ولتعزيز تثبيته. وعندما نحاول بعدئذ، عن طريق التحليل، أن نمدّ يد العون إلى الأنا في كفاحه ضد العرَض، نكتشف أنه ثمة وجود، إلى جانب المقاومات، روابط تصالحية بين الأنا والعرَض، وهي روابط لا يسهل علينا تفكيكها. وفي الواقع، إن الطريقتين اللتين يستخدمهما الأنا في مواجهة العرَض متناقضتان.

ذلك أن الطريقة الأخرى تتلبس طابعاً أقل وداً، وهي بمثابة امتداد لاتجاه الكبت. على أنه ليس في مقدورنا، على ما يبدو، أن نتهم الأنا بتهافت المنطق. فالأنا مستعد كل الاستعداد لإصلاح ذات البين، وراغب في استدماج العرَض وفي جعله جزءاً من ذاته؛ إنما العرَض هو الذي يعكّر كل شيء: فهو يتابع، بوصفه بديلاً عن الحاثة المكبوتة وفسيلة منها، أداء دور هذه الحاثة ويجدد بلا مهادنة مطلب إشباعها، فيرغم من ثم الأنا على إطلاق إشارة الكدر من جديد وعلى اتخاذ موقف الدفاع.

يتخذ الصراع الدفاعي الثانوي ضد العرَض أشكالاً عديدة، ويدور على مسارح عدة، ويلجأ إلى وسائل شتى. ولن نستطيع أن نقول أي شيء تقريباً عن هذا الصراع ما لم نتخذ كموضوع للاستقصاء كل حالة من حالات تكوين العرَض على حدة. وبذلك ستتاح لنا المناسبة لتناول مشكلة الحصر التي كنا نرهص منذ زمن طويل بوجودها في خلفية الأشياء. ويبدو أنه من المناسب الانطلاق من الأعراض التي يكوّنها العصاب الهستيري، إذ لسنا مؤهلين بعد للنظر في الشروط التي تحدِّد تكوين الأعراض في حالات العصاب الوسواسي والبارانويا والأعصبة الأخرى.



(٤)

لنبدأ بالنظر في حالة رهاب طفلي هستيري من الحيوانات، وعلى سبيل المثال حالة «هانز الصغير»[1] الذي لا شكّ في أن رهابه من الحصان نمطي في معالمه الرئيسية كلها. فمن أول نظرة نلقيها يتبيَّن لنا أن الظروف التي تظهر فيها حالة فعلية من المرض العصابي أشد تعقيداً بكثير مما يمكن لنا أن نتوقع ونحن نعمل على صعيد المجرَّدات. ولا مناص لنا من أن نتجشَّم قدراً من المشقة في محاولتنا الاهتداء إلى الطريق الصحيح في بحثنا عن الحالة المكبوتة، وعن بديلها كما يتمثّل بالأعراض، وعن النقطة التي نستطيع عندها أن نتعرف إلى دافع الكبت.

لقد بات هانز الصغير يأبى الخروج إلى الطريق، لأنه يخاف من الحصان. تلك هي المادة الخام. والآن ما العرَض هنا؟ أهو تمخُّض الحصر؟ أم اختيار موضوع الحصر؟ أم عدول هانز الصغير عن التنقل بحرية؟ أم عدة من هذه النقاط مجتمعة؟ وأين يكمن الإشباع الذي يضنّ به على نفسه؟ وما الموجب لأن يضنّ به على نفسه؟

أول جواب يحضر إلى الذهن أن هذه الحالة ليست إطلاقاً على هذا القدر من الإلغاز. فالحصر الذي يعزّ فهمه من الحصان هو العرَض، والعجز عن الخروج إلى الطريق هو ظاهرة كفٍّ، تعقيد يفرضه الأنا على نفسه كيلا يوقظ العرَض الحصري. ولنقرّ حالاً بصحة تفسير النقطة الأخيرة، فلن نشغل أنفسنا مرة ثانية بهذا الكفّ في تتمة مناقشتنا. بيد أن المقاربة الأولى للحالة لا تكشف لنا حتى عن التعبير الفعلي للعرَض المفترض. فليس بيت القصيد على الإطلاق، كما يفيدنا بذلك تقصٍّ أكثر تدقيقاً، حصراً لامتعيّناً حيال الحصان، وإنما التوقع الذي

[1] ـ انظر: تحليل رهاب صبي صغير في الخامسة من العمر، الأعمال الكاملة، م٧.



يبعث على القلق من الحادث المحدَّد التالي: وهو أن الحصان سيعضّه. وبديهي أن هذا المضمون يسعى إلى التملص من الوعي، وإلى إحلال الرهاب اللامتعيِّن محلَّه، بحيث لا يعود يظهر سوى الحصر وموضوعه. والآن، هل يكون هذا المضمون هو نواة الحصر؟

إننا لا نستطيع أن نتقدم خطوة أخرى إلى الأمام إذا لم نأخذ في اعتبارنا كلية الموقف النفسي للصبي الصغير كما تكشَّف لنا في أثناء العمل التحليلي. فالموقف الذي نلفى فيه الطفل هو الموقف الأوديبي القائم على الغيرة والعداوة حيال أبيه الذي يحبّه مع ذلك من كل قلبه، وذلك ما دامت الأم لا تدخل على الخط لتزرع الشقاق. إذاً، هو صراع موسوم بميسم الازدواجية: حب له مسوغاته، وكره له بدوره مبرراته، موجهان كلاهما نحو شخص واحد. ورهابه لا بدّ أن يكون محاولة لحلّ هذا الصراع. ومثل هذه الصراعات الموسومة بميسم الازدواجية كثيرة التواتر، وإننا لنعرف لها مآلاً نمطياً آخر؛ ففي هذه الحالة تُعزَّز إحدى الحاثتين المتواجهتين، وفي العادة حاثة المحبة، تعزيزاً قوياً، بينما تختفي الأخرى. والطابع المغالى فيه والقهري لهذه المحبة هو وحده الذي ينمّ عن أن هذا الموقف ليس وحده الماثل، وأنه لا محيص له عن التزام جانب الحذر والاحتراس ليبقي على الموقف المناقض له في حالة قمع، مما يتيح لنا أن نستنتج عن طريق الإنشاء الذهني وجود سيرورة نصفها بأنها كبت بواسطة **التشكيل الارتجاعي** (في الأنا). ولكن ثمة حالات من نظير حالة هانز الصغير لا تحمل أي اثر من تشكيل ارتجاعي كهذا، ومن ثم لا مرية في أن الصراع الموسوم بميسم الازدواجية يمكن أن تكون له مخارج شتى.

لقد توصلنا في أثناء ذلك إلى اليقين بصدد نقطة أخرى. فالحاثة الغريزية الرازحة تحت نير الكبت هي حفزة عدائية موجهة ضد الأب. والدليل على ذلك قدَّمه لنا التحليل فيما كنا نجدّ في إثر أصل فكرة الحصان الذي يعضّ. فقد رأى هانز حصاناً يقع، كما رأى رفيقاً له في اللعب، كان لعب معه لعبة «الدادا»[٢]،

٢ ـ لعبة الدادا هي في لغة الأطفال لعبة الحصان. «م».



يقع ويصاب بجرح. وقد أذن لنا التحليل بأن نستنتج عن طريق الإنشاء الذهني وجود حاثة رغبية لدى هانز تفصح عن هذه الأمنية: آه لو كان في الإمكان أن يقع الأب أرضاً وأن يصاب بجرح نظير الحصان والرفيق! وموقف هانز من عربة كان راقبها وهي تتهيأ للسفر يبيح لنا أن نفترض أن الرغبة في القضاء على الأب قد وجدت أيضاً تعبيراً أقل وجلاً. بيد أن رغبة من هذا القبيل تكافئ عزماً على أن يتولى بنفسه أمر القضاء عليه، أي حاثة القتل التي تنطوي عليها عقدة أوديب.

حتى الآن لم نهتدِ إلى الطريق الذي يتأدى من هذه الحاثة الغريزية المكبوتة إلى بديلها الذي نتكهن بأنه متضمَّن في رهاب الأحصنة. ولنبسِّط الموقف النفسي لهانز الصغير بتنحيتنا جانباً العامل الصبياني والازدواجية العاطفية، ولنفرض أن لدينا خادماً في مقتبل العمر، متدلهاً بحب ربة البيت، ومتنعماً ببعض علامات المحاباة من جانبها. فمثل هذا الخادم تساوره ولا بدّ مشاعر كراهية مماثلة نحو رب البيت، الأقوى منه باعاً، ويتمنى في دخيلة نفسه لو يتخلص منه. ومن الطبيعي تماماً في هذه الشروط أن ينتابه الخوف من انتقام سيده وأن يرزح تحت وقر حالة من الحصر ـ تماماً كما يعاني هانز الصغير من رهاب الحصان. هذا معناه أنه ليس في مقدورنا أن نسمّي حصر هذا الرهاب عَرَضاً: إذ لو أن هانز الصغير، المتدلّه بحب أمه، أبدى عن حصر إزاء أبيه لما كان يحلّ لنا إطلاقاً أن نعزو إليه عصاباً أو رهاباً. فاستجابة كهذه لن تعدو أن تكون استجابة وجدانية مفهومة تماماً. وإنما سمة واحدة يتيمة هي التي تحوّلها إلى العصاب، وهي استبدال الأب بالحصان. فهذا النقل ينتج ما يحقّ لنا أن نسمِّيه عرَضاً، ويمثِّل بحدّ ذاته الآلية التي تفسح في المجال أمام حل صراع الازدواجية العاطفية بدون مساعدة التشكيل الارتجاعي. وثمة ظرف يتيح إمكانية هذا النقل أو يمهِّد له السبيل: السهولة التي لا يزال بالإمكان أن تُنشَّط بها، في تلك السن المبكرة، الآثار الفطرية لنمط التفكير الطوطمي. فالهوة بين الإنسان والحيوان لم تكتسب بعد صفة الحقيقة المعترف بها، أو على أية حال لم يجرِ التشديد عليها بعد ذلك التشديد المسرف على نحو ما سيتمّ في زمن لاحق. والإنسان الراشد، الذي هو موضوع إعجاب وموضوع خوف في آن معاً، لا يزال يحتل مكانه في عداد الحيوانات الكبيرة التي يحسدها



الطفل لجملة من الأسباب وإن يكن حُذِّر في الوقت نفسه من احتمال كونها خطرة. وهكذا، إن صراع الازدواجية العاطفية لا يتم حلّه من خلال الشخص الواحد، بل يُتحاشى بالالتفاف عليه، إذا جاز لنا القول، وذلك بانزياح إحدى الحاثتين المتواجهتين نحو شخص آخر يتمّ اتخاذه كموضوع بديل.

إن الأمور لحدّ الآن واضحة لنا، لكن ثمة نقطة أخرى، تأدى بنا تحليل رهاب هانز الصغير بصددها إلى خيبة كاملة. فالتحريف الذي يتمثل في تكوين العرَض لم يطل البتة المضمون التمثيلي للحاثة الغريزية المطلوب كبتها، بل طال ممثلاً آخر، مغايراً كل المغايرة للأول، ومناظراً فقط لردّ فعل على ما هو مكدِّر صرف. وكانت الأمور ستتطابق أكثر مع توقعنا فيما لو أن هانز الصغير أبدى، بدلاً من حصره من الحصان، عن ميل إلى إساءة معاملة الأحصنة وإلى ضربها، أو لو أفصح على نحو سافر عن الرغبة في أن يراها تقع أرضاً، وتنزل بنفسها الأذى، وربما أن تلقى حتفها وهي تعاني من التشنج (القرقعة بالأقدام)[٣]. ولا نقول إن شيئاً من هذا القبيل لم يظهر في تحليل هانز، بيد أنه بقي أمداً طويلاً في خلفية العصاب بدون أن يتصدره. والغريب في الأمر أن هانز لو كان أفصح فعلاً، كعرض رئيسي، عن مثل هذا العداء نحو الحصان وحده، بدلاً من الأب، لما كنا ارتأينا البتة أنه مصاب بعصاب. وعليه، إن ثمة نقطة ضعف إما في تصورنا عن الكبت، وإما في تعريفنا لعرَض من الأعراض. وبطبيعة الحال سرعان ما تسترعي انتباهنا الحقيقة التالية: لو كان هانز الصغير تصرف فعلاً بتلك الطريقة حيال الأحصنة، لما كان طرأ بنتيجة الكبت أي تعديل على طابع الحاثة الغريزية الفاضحة والعدوانية، ولما كان تغيَّر سوى موضوعها وحده.

إنه لمما لا يرقى إليه شك أن ثمة حالات من الكبت تتوقف عند هذا الحدّ، لكن الأمور شطّت إلى أبعد من ذلك في تكوين رهاب هانز الصغير. فإلى أي حدّ؟ هذا ما تكشفه لنا نبذة أخرى من التحليل.

---

٣ ـ الإشارة هنا إلى القرقعة التي أحدثها الحصان بحوافره حينما رآه هانز وهو يقع أرضاً. وحسن فهم المقطع بجملته يقتضي الرجوع إلى نص فرويد المكتوب سنة ١٩٠٨ عن «هانز الصغير» .والمنشور في المجلد الثالث من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».



علمنا من قبل أن هانز الصغير حدَّد مضمون رهابه بأنه ذلك التمثل الذي يصور له أن الحصان يعضّه. ثم كانت لنا بعد ذلك جولة أفق حول نشأة حالة أخرى من حالات رهاب الحيوانات كان فيها حيوان الحصر هو الذئب[٤]، وكان لهذا الأخير بالمثل دلالةُ بديلٍ أبوي. فبالاتصال مع حلم أمكن للتحليل النفاذ إلى سره، تمخَّض لدى ذلك الغلام حصر من أن يفترسه الذئب نظير ما وقع في الحكاية لأحد الجديان السبعة[٥]. وأغلب الظن أن اختيار حيوان الحصر تحدد بكون والد هانز الصغير ـ وهذه واقعة ثابتة ـ لعب معه لعبة «الدادا». كذلك اتضح، في أغلب التقدير على أية حال، في حالة ذلك «الروسي»[٦]، الذي قمت بتحليله في زمن كانت فيه سنه تتراوح بين العشرين والثلاثين، أن والده حاكى، وهو يلاعب الطفل الصغير، الذئب وهدده، على سبيل الضحك، بافتراسه. وبعدئذ عاينت حالة ثالثة، هي حالة أميركي شاب لم يتكون لديه، هذا صحيح، رهاب من الحيوانات، ولكنه بهذا الغياب تحديداً يساعدنا على فهم الحالات الأخرى. فقد كان تهيَّج جنسياً حينما قرئت عليه قصة طفلية خيالية تدور حول شيخ عربي يطارد شخصاً مجبولاً من مادة تؤكل (Gingerberadman)[٧] ليلتهمه. وقد تماهى هو نفسه مع ذلك الكائن البشري القابل لأن يؤكل، وكان من السهل التعرف في الشيخ على بديل للأب. وكان هذا التخييل الركيزة الأولى لنشاطه الإيروسي الذاتي. على أنه لا بدّ لنا من التنويه بأن فكرة الافتراس

٤ ـ الإشارة هنا إلى المقال الذي كتبه فرويد سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٥ ونشره سنة ١٩١٨ بعنوان: **رجل الذئاب: نبذة من تاريخ عصاب طفلي**. «م».

٥ ـ الجديان السبعة: حكاية للأطفال عن عنزة ذهبت إلى الغابة للبحث عن طعام لجديانها السبعة، فاستغل الذئب غيابها ليلتهمهم كلهم ماعدا أصغرهم الذي نجا بجلده. «م».

٦ ـ كان «رجل الذئاب» روسي الأصل من أوديسا ويدعى سرغي بانكيجف. وقد استغرق تحليله من قبل فرويد أربع سنوات. انتحر كل من أخته وأبيه على التوالي، وأصيب بحرقة بولية تلاها انهيار عصبي وانقباض مزمن. ولما عالجه فرويد صبّ عليه مشاعره السلبية حتى إن فرويد كتب إلى فيرنزي يقول: «إنه يودّ أن ينكحني، بصفتي يهودياً محتالاً، من الوراء، وأن يتبرز على رأسي». وقد حاول أن يغري مربِّيته فهدَّدته بالخصاء، فانقلبت ساديته تجاهها إلى مازوخية ضد نفسه شعوراً منه بالذنب لممارسته الاستمناء، وصار هاجسه أن تفترسه الذئاب عقاباً له. «م».

٧ ـ طحين معجون بالسكر والبهارات. «م».



من قبل الأب تؤلف جزءاً من ذخيرة أثرية ونمطية من الطفولة، والتشابهات التي يمكن استقاؤها من الميتولوجيا (كرونوس)[٨]، أو من حياة الحيوانات، معروفة للداني والقاصي.

على الرغم من الضمانة التي تقدِّمها لنا هذه الشواهد، يبدو لنا هذا المضمون التصوري غريباً إلى حدّ لا نستطيع معه أن نعزوه إلى الطفل إلا بشك وريبة. كما أننا لا نعلم هل يعني فعلاً ما يبدو أنه يفصح عنه، ولا نفهم كيف يمكن له أن يغدو موضوعاً لرهاب. على أن الخبرة التحليلية تمدّنا، على أية حال، بالمعلومات المطلوبة. فهي تفيدنا أن تصوُّر الافتراس من قبل الأب هو التعبير، المخفوض القيمة بفعل النكوص، عن حاثة حانية سلبية تمثل رغبة الطفل في أن يُحَبّ من قبل الأب كموضوع بالمعنى الإيروسي التناسلي. وتتمة تاريخ الحالة لا تدع أدنى شكّ يحوم حول صحة هذا التأويل. ومن المحقق أن الحاثة التناسلية لا تعود تنمّ عن شيء من قصدها الحبِّي حيثما تفصح عن نفسها بلغة المرحلة الانتقالية التي تقود من التنظيم الفموي إلى التنظيم السادي لليبيدو، تلك المرحلة التي تمّ التغلب عليها وتجاوزُها. ولكن هل الأمر في هذه الحال مجرد إبدال للتمثل بتعبير نكوصي، أم أن الحاثة الموجهة نحو التناسلية يطرأ عليها انحطاط نكوصي فعلي في الهذا؟ هذه نقطة لا يبدو على الإطلاق أن من السهل البتّ فيها. وتاريخ مرض «رجل الذئاب» الروسي ينطق بمنتهى الجلاء في تأييد الاحتمال الأخير، وهو الأكثر خطورة، لأنه بدءاً من الحلم المحوري[٩] راح يسلك سلوكاً «خبيثاً»، ملتوياً، سادياً، وسرعان ما أفصح عن عصاب وسواسي أصيل. وعلى كل حال، يتيح لنا ذلك أن نتبيَّن أن الكبت ليس الوسيلة الوحيدة التي في متناول الأنا ليذود عن نفسه شر حاثة غريزية مكدِّرة. فإن توصَّل الأنا إلى إجبار الدافع الغريزي على

٨ ـ كرونوس: إله عملاق عند الإغريق خصى أباه وضاجع أخته، وافترس أبناءه خلا منهم زفس الذي تمرد عليه فيما بعد وقهره. «م».

٩ ـ دام تحليل «رجل الذئاب» زهاء أربع سنوات بدون أن يطرأ تحسن ملموس على حالة المريض. فعزم فرويد عندئذ على اللجوء إلى حيلة لا تقرّها أصول التحليل النفسي في الأحوال العادية. إذ حدَّد موعداً لنهاية العلاج. وسرعان ما طفق التحليل يتقدم، وتهاوت المقاومات. وعندئذ أمكن لفرويد أن يؤوِّل «حلم الذئاب» الذي أعطى للحالة اسمها، والذي قال المريض إنه رآه في الرابعة من عمره. «م».



النكوص، يكن قد سدَّد إليه ضربة أشدّ وأقسى في الحقيقة مما كان سيسمح به الكبت. ويبقى صحيحاً أنه بعد أن يرغِم الدافع الغريزي على النكوص يُخضِعه غبَّ ذلك للكبت.

إن ما يجري في حالة رجل الذئاب، وعلى نحو أبسط قليلاً في حالة هانز الصغير، يوحي بضروب شتى من التأملات، غير أننا نستخلص منه منذ الآن فكرتين غير متوقعتين. فمما لا يرقى إليه شك أن الحاثة الغريزية المكبوتة في هذين الرهابين حاثة معادية للأب. وبوسعنا القول إنها كبتت بفعل سيرورة الانقلاب إلى الضد؛ فمناب العدوان على الأب ينوب عدوان الأب ـ انتقامه ـ على الشخص المعني ذاته. وبما أن عدواناً كهذا يرسي على كل حال جذوره في الطور السادي لليبيدو، فإنه لا يعود يحتاج إلا إلى إرجاعه إلى الطور الفموي الذي ليس ثمة من إشارة إليه في حالة هانز سوى خوفه من أن يُعضّ، على حين أنه يبين عن نفسه بجلاء ساطع لدى الروسي في خوفه من أن يُفترس. لكن التحليل يتيح لنا، فيما خلا ذلك، أن نتحقق على نحو لا يقبل جدلاً من أن حاثة غريزية أخرى قد رزحت في الوقت نفسه تحت نير الكبت، هي الحاثة المعاكسة، أي حاثة المحبة السلبية إزاء الأب التي كانت بلغت من قبل إلى مستوى التنظيم التناسلي (القضيبي) لليبيدو. بل تبدو هذه الحاثة الأخيرة أعظم أهمية بالنسبة إلى النتيجة النهائية لسيرورة الكبت، فتتعرض من ثم لنكوص عميق وتمارس أقوى التأثير على مضمون الرهاب. وحيثما كنا لا نبحث إلا عن أثر كبت واحد للدافع الغريزي، يتعيَّن علينا الآن أن نقرّ بتلاقي سيرورتين من هذا القبيل. فالحاثتان الغريزيتان الرازحتان تحت نير الكبت ـ العدوان السادي ضد الأب والموقف الحاني السلبي إزاءه ـ تؤلفان زوجاً من الأضداد؛ بل أكثر من ذلك: فلو قوَّمنا تقويماً صحيحاً تاريخ حالة هانز الصغير لتبيَّن لنا أن تكوين رهابه قد ألغى أيضاً التوظيف الموضوعاني الحبِّي لأمه. وهو ما لا يشي به شيء في مضمون الرهاب. فالمسألة لدى هانز ـ وهي أقل وضوحاً بكثير لدى المريض الروسي ـ مسألة عمليةِ كبتٍ طالت على وجه التقريب جميع مقوِّمات عقدة أوديب، أي الحاثة العدائية والحاثة الحبِّية على حد سواء تجاه الأب، وكذلك الحاثة الحبِّية تجاه الأم.



إن هذه لتعقيدات غير مؤاتية لنا على الإطلاق، لأننا ما أردنا أن ندرس سوى حالات بسيطة من تكوين العرَض غبّ الكبت. وقد التفتنا، مدفوعين بهذا القصد، نحو الأعصبة الطفلية الأكثر تبكيراً، وفي الظاهر الأكثر شفافية. وبدلاً من كبت واحد وجدنا جملة من الكبوت، وفضلاً عن ذلك واجهَنا النكوص. وربما زدنا طين الالتباس بلة إذ شئنا الإيحاء بوجود تشابه تام بين تحليليّ الحالتين اللتين في متناولنا من رهاب الحيوانات، أي رهاب هانز الصغير ورهاب رجل الذئاب. وفي الواقع، ثمة بعض فروق ملفتة للنظر. ففي حالة هانز الصغير وحدها نستطيع القول عن يقين إنه استطاع عن طريق رهابه أن يصفّي الحاثتين الرئيسيتين لعقدة أوديب، أي الحاثة العدوانية تجاه الأب والحاثة الحبّية المفرطة تجاه الأم. صحيح أن الحاثة الحانية تجاه الأب ماثلة هي أيضاً، وتضطلع بدورها عند كبت الحاثة المعاكسة، لكننا لا نستطيع أن نثبت أنها كانت على قدر كافٍ من القوة لتبتعث كبتاً، ولا أنها ألغيت وصُفيّت في وقت لاحق. ويلوح أن هانز كان صبياً سوياً مع عقدة أوديب «موجبة» كما يقال لها. ومن الممكن أن العوامل التي لم نهتدِ إلى أثرها كانت لديه فعالة أيضاً، لكننا لا نستطيع إبراز وجودها، نظراً إلى أن مادة تحاليلنا الأكثر شمولية تبقى هي نفسها جزئية كما يبقى توثيقنا ناقصاً. أما لدى الروسي فالنقص في غير هذا المجال: فصلته بالموضوع المؤنث اختلّت على إثر إغواء مبكر، وقد نما لديه الجانب السالب، المؤنث، نمواً بالغاً، ولم يكشف تحليل حلمه الذئبي إلا عن قدر طفيف من العدوانية القصدية تجاه الأب، غير أنه أثبت بالمقابل على أقل نحو ممكن من الالتباس أن الكبت طال الموقف الحبّي السالب إزاء الأب. وفي هذه الحالة أيضاً يمكن أن تكون عوامل أخرى قد لعبت دورها، لكنها لا تأتي في المرتبة الأولى. ولئن كانت النتيجة النهائية للرهاب واحدة تقريباً في الحالتين، على الرغم من الفروق التي تكاد تجعل منهما حالتين متناقضتين، فتعليل ذلك ينبغي البحث عنه في موضع آخر، أعني في النتيجة الثانية لدراستنا المقارنة المقتضبة. ويتراءى لنا أننا عرفنا الدافع إلى الكبت في كلتا الحالتين، وقد تأكد لنا دوره في المجرى الذي سلكه تطور الطفلين كليهما. وهو في الحالتين كلتيهما واحد: الحصر إزاء تهديد بالخصاء. فحصراً من الخصاء وضع



هانز الصغير حداً للعدوانية ضد الأب، وحصره من أن يعضّه الحصان يمكن تفسيره، بغير ما ابتسار، على أنه حصر من أن يقطع الحصان، عندما يعضّه، أعضاءه التناسلية، فيخصيه. ولكن حصراً من الخصاء أيضاً عدَل الروسي الصغير عن رغبته في أن يصير موضوع حب أبيه، لأنه فهم أن علاقة كهذه تفترض سلفاً التضحية بأعضائه التناسلية، أي بما يميِّزه عن المرأة. هكذا يُمنى التشكلان اللذان تتبدى بهما عقدة أوديب، التشكل السوي الإيجابي والتشكل المعكوس، بالفشل الذريع أمام عقدة الخصاء. صحيح أن الفكرة المولِّدة للحصر لدى الروسي ـ افتراسه من قبل الذئب ـ لا تنطوي على أي تلميح إلى الخصاء، لأن النكوص الفموي قد ابتعد بها كثيراً عن الطور القضيبي، غير أن تحليل حلمه يغني عن أي برهان إضافي كما أن غياب أية إشارة إلى الخصاء في الإفصاح عن الرهاب هو بمثابة نصر كامل للكبت.

هاكم الآن النتيجة اللامتوقعة التي ننتهي إليها: فالدافع إلى الكبت في كلتا الحالتين هو حصر الخصاء. وليس مضمونا الحصر: أن يُعضّ من قبل الحصان وأن يُفترس من قبل الذئب، إلا عبارة عن بديل عن المضمون عن طريق التحريف: أن يُخصى من قبل الأب. وهذا المضمون بحصر المعنى هو الذي رزح تحت نير الكبت. وفي حالة المريض الروسي كان تعبيراً عن رغبة ما كان لها أن تبقى على قيد الوجود إزاء تمرد الذكورة، وكانت لدى هانز تعبيراً عن استجابة حوّلت العدوان إلى نقيضه. غير أن انفعال الحصر، الذي يؤلف ماهية الرهاب، لا يعود في أصله إلى سيرورة الكبت، ولا إلى التوظيفات الليبيدوية للحاثات المكبوتة، وإنما إلى الكابت نفسه. فحصر رهاب الحيوانات هو حصر الخصاء غير المبدَّل، وبالتالي حصر إزاء الواقع، حصر إزاء خطر متوعِّد فعلاً أو فعلي تخميناً وافتراضاً. والحصر هنا هو الذي ينتج الكبت، وليس الكبت هو الذي ينتج الحصر كما كنت توهمت سابقاً.

من غير المجدي على الإطلاق أن أنفي، حتى وإن تكن هذه الفكرة كريهة إلى نفسي، أنني دافعت غير مرة عن أطروحة مفادها أن الممثل الغريزي يتعرض لتحريف ونقل، إلخ، من جراء الكبت، على حين أن الليبيدو الغريزي يتحول إلى



حصر. ودراسة الأرهبة، التي كان يفترض بها أن تثبت هذه الأطروحة، لم تأتِ كما رأينا مؤيدة لها، بل مناقضة لها بالأحرى بصورة مباشرة. فحصر أرهبة الحيوانات هو حصر الأنا من الخصاء، كما أن حصر رهاب الأماكن المكشوفة، الذي لم يحظَ بدراسة معمقة مماثلة، يبدو أنه حصر إزاء إغراء، وهذا الحصر لا بدّ أن يكون في أصله مشتقاً من حصر الخصاء. وتحيلنا غالبية الأرهبة، بقدر ما يتاح لنا اليوم أن نكوّن نظرة إجمالية، إلى حصر مماثل يقاسيه الأنا في مواجهة متطلبات الليبيدو. فالموقف الحصري للأنا هو على الدوام العنصر الأولي وهو ما يدفع باتجاه الكبت. ولا يتولد الحصر أبداً عن الليبيدو المكبوت. ولئن اكتفيت آنفاً بالقول إنه تظهر بعد الكبت كمية معينة من الحصر، بدل الظهور المتوقع لليبيدو ومحلَّه، فلست أرى اليوم من داعٍ لسحب شيء مما قلته. فالوصف صحيح، وهناك حقاً وفعلاً تكافؤ من النوع الذي ألمعت إليه بين قوة الحاثة المطلوب كبتها وبين شدة الحصر الناتج. لكنني أقرّ بأني كنت أتصور أني أقدِّم أكثر من مجرد وصف خالصٍ، وأني أمطت اللثام عن السيرورة الميتاسيكولوجية لتحول الليبيدو إلى حصر تحولاً مباشراً، وهذا ما لم أعد أستطيع اليوم ادعاءه. فهل ينبغي أن أضيف أنه كان يشقّ عليّ آنئذ أن أبيِّن كيف يتم تحوُّلٌ كذاك؟

من أين استنبطت، على كل حال، فكرة هذا التحول؟ من دراسة الأعصبة الراهنة. فيوم كنا لا نزال بعيدين جداً عن التمييز بين سيرورات تجري في الأنا وسيرورات تجري في الهذا، اكتشفت أن بعض الممارسات الجنسية، كالجماع المبتور والتهييج المحبط والقطاعة القسرية، يتولد عنها نوبات من الحصر ونزوع عام إلى الحصر، وبالتالي في جميع الحالات التي يُكَفّ فيها التهييج الجنسي أو يُحتجز أو يُحوَّل عن مجراه نحو الإشباع. وبما أن التهييج الجنسي تعبير عن حاثات غريزية ليبيدوية، لم يكن يبدو أن من التهور أن نفترض أن الليبيدو ينقلب إلى حصر تحت تأثير اختلالات كتلك. والواقع أن هذه الملاحظة لا تزال تحتفظ إلى اليوم بقيمتها. ثم إننا لا نستطيع من جهة ثانية أن ننفي أن ليبيدو سيرورات الهذا يتعرض لاختلال تحت وقر الكبت، ومن ثم ربما كان لا يزال يصحّ التوكيد بأنه يتكون، عند الكبت، حصر بدءاً من التوظيف الليبيدوي للحاثات الغريزية. لكن



كيف السبيل إلى التوفيق بين هذا الاستنتاج وبين الاستنتاج السابق الذي أكّدنا بموجبه أن حصر الأرهبة هو حصر أنوي، وأنه يظهر في الأنا، ولا ينبع من الكبت بل يبتعثه؟ ذلك تناقض لا يبدو ميسوراً حلُّه. وعسير علينا بالفعل أن نتوصل إلى ردّ كلا أصلَيّ الحصر إلى أصل واحد. وربما كان في مستطاعنا أن نحاول ذلك بافتراضنا أن الأنا يستشعر، في موقف الجماع المعكّر صفوه أو التهيج المبتور أو الاستنكاف والقطاعة، أخطاراً يستجيب لها بالحصر، ولكن لا يمكن استخلاص شيء من هذا الفرض. ومن جهة أخرى، لا يبدو أن التحليل الذي شرعنا به للأرهبة يقبل تصحيحاً. **فيا له من إشكال!**[١٠].

١٠- باللاتينية في النص NON LIQUET «م».

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

(٥)

لقد أخذنا على عاتقنا أن ندرس تكوين العرَض وصراع الأنا الثانوي ضد العرَض، لكن من الواضح أن التوفيق لم يكن حليفنا باختيارنا الأرهبة. فالحصر، الذي له الهيمنة في لوحة هذه الإصابات، يبدو لنا الآن بمثابة تعقيد يزيد في إبهام الموقف وغموضه. وكثيرة هي بالمقابل الأعصبة التي لا تنطوي على أي عنصر من الحصر. والهستيريا الاستبدالية الأصلية[1] هي من هذا القبيل؛ فأعراضها، بما فيها أعظمها خطورة، نلفاها خلواً من أي حصر. وكان حرياً بهذه الواقعة وحدها أن تحذِّرنا من إقامة روابط وثيقة أكثر مما ينبغي بين الحصر وتشكيل العرَض. والأرهبة قريبة غاية القرب، من جميع النواحي، من ضروب الهستيريا الاستبدالية إلى حدٍّ تراءى لي معه أنني في حِلّ من تصنيفها في عداد السلسلة نفسها تحت اسم «الهستيريا الحصرية». غير أنه لم يتسنَّ لأحد بعد أن يعيِّن الشرط الذي يحدِّد لحالة بعينها أن تتخذ شكل الهستيريا الاستبدالية أو شكل الرهاب. ومن ثم لم يتمكن أحد من جلاء الشرط المحدِّد لتمخُّض الحصر في حالة الهستيريا.

إن الأعراض الأكثر تواتراً للهستيريا الاستبدالية ـ شلل الحركة، التخشب، أو الفعل اللاإرادي أو كذلك التفريغ الحركي، أو الألم، أو الهلوسة ـ هي سيرورات توظيفية، دائمة أو متناوبة، وهذا ما ينصب عقبات جديدة في وجه التفسير. والحق، إننا لا نعرف إلا النزر اليسير عن مثل هذه الأعراض. وفي مقدور التحليل أن يكشف لنا عن مجرى الإثارة التي أصابها خلل فنابت الأعراض منابها. ويتضح في غالبية الأحوال أن هذه الأعراض تشارك هي نفسها في هذا المجرى

---

١ ـ الهستيريا الاستبدالية أو التحولية HYSTERIE DE CONVERSION: هي الهستيريا التي تتحوّل أعراضها النفسية إلى أعراض بدنية مثل التخشُّب أو شلل الحركة. ولهذا جازت ترجمتها أيضاً بالهستيريا الاستبدانية. «م».



كما لو أن كلية طاقة هذا المجرى قد تركَّزت، بالتالي، على تلك النقطة الوحيدة. هكذا كان الألم الذي يكابده المريض ماثلاً في الموقف الذي حدث فيه الكبت؛ فالهلوسة الراهنة كانت آنئذ إدراكاً، والشلل الحركي هو مدافعة ضد عمل كان ينبغي أن يتمّ في ذلك الموقف لكنه كُفَّ؛ والتخشُّب هو في العادة نقل تعصيب عضلي كان قد عُقِد عليه العزم ولكنه يتصل بجزء آخر من الجسم؛ والنوبة التشنجية تعبير عن هيجان انفعالي تملص من رقابة الأنا المعتادة. وإحساس الكدر الذي صاحب ظهور الأعراض يتنوع إلى حدّ مدهش. وفي حالة الأعراض الدائمة، المنقولة إلى الطاقة الحركية، كالشلل والتخشب، يغيب هذا الإحساس في غالب الأحيان غياباً تاماً، إذ يتصرف الأنا إزاء الأعراض وكأنه غير معني على الإطلاق؛ ومن العادة على العكس، في حالة الأعراض المتناوبة وأعراض الدائرة الحسّية، أن تساور المريض أعراض كدر لا جدال فيها، وقد تبلغ في حالة أعراض الألم مستوى مشتطاً. ومن العسير للغاية أن نستشفّ، في هذه الكثرة وهذا التنوع، العامل المسؤول عن مثل هذه الفروق والذي يتيح لنا في الوقت نفسه أن نفسّرها تفسيراً واحدياً. ولا تبقى أيضاً في الهستيريا الاستبدالية آثار من المعركة التي خاض الأنا غمارها ضد العرَض، بعد أن يكتمل تكوين هذا الأخير. وإنما عندما تغدو الحساسية بالألم في موضع بعينه من الجسم هي العرَض يتعيّن على هذا الموضع أن يلعب دوراً مزدوجاً. وعرض الألم يتولد بانتظام، سواء مُسّ هذا الموضع من الخارج أو جرت من الداخل، وعن طريق التداعي، إعادةُ تنشيطِ الموقف الإمراضي المتمثل بذلك العرض، فيلجأ الأنا عندئذ إلى تدابير احتياطية ليحول دون إيقاظ العرَض بالإدراك الخارجي. فما مصدر الغشاوة الصفيقة والحاجبة لتكوين العرَض في الهستيريا الاستبدالية؟ هذا ما ليس في مقدورنا أن نجلوه، غير أن ذلك يقدِّم لنا دافعاً إلى التعجيل في مغادرة هذا المضمار العقيم.

لنتحول نحو العصاب الوسواسي بأمل أن نعلم المزيد عن تكوين العرَض. فأعراض العصاب الوسواسي تتلبس بالإجمال شكلين وتتبع ميلين متعاكسين. فهي إما عبارة عن تحظيرات وتدابير وقائية وأفعال تكفير وتوبة، أي أعراض من طبيعة سلبية إذاً. وإما أنها على العكس إشباعات بديلة، محتجبة في غالب

مكتبة الفكر الجديد

الأحيان خلف قناع تنكري رمزي. والفئة السلبية، الدفاعية، القمعية هي الأقدم بين هاتين الفئتين من الأعراض؛ غير أن الغلبة تكون، مع امتداد أجل المرض، للإشباعات التي تهزأ بكل ضرب من ضروب الدفاع. ويُكتب الانتصار لتشكيل العرَض متى ما تمّ التوصل إلى دمج التحظير بالإشباع، بحيث يأخذ الأمر أو النهي الدفاعيان في الأصل معنى الإشباع أيضاً؛ ولبلوغ هذا الهدف لا يندر أن يجري استخدام أشكال من الارتباط بالغة الاصطناع. وهذه الحيلة تنمّ عن ميل الأنا إلى التركيب، وهو ميل سبق لنا أن تعرّفناه. وفي الحالات القصوى يفلح المريض في حمل معظم أعراضه على أن تكتسب، علاوة على دلالتها الأصلية، دلالة نقيضها المباشر. وهذه شهادة على قوة الازدواجية الوجدانية التي تضطلع، بدون أن نعلم السبب، بدور كبير للغاية في العصاب الوسواسي. وفي الحالة الأكثر فجاجة ينطوي العرَض على مرحلتين، أي أن العمل المنفِّذ لإيعازات محدَّدة يعقبه للحال عمل ثانٍ يلغيه أو يبطل مفعوله، وإن لم يجرؤ بعد على تنفيذ نقيضه.

نخرج للحال من هذه اللمحة السريعة عن الأعراض الوسواسية بانطباعين. أولهما أنها مسرح معركة عنيدة ضد المكبوت، معركة تدور رحاها أكثر فأكثر في غير صالح القوى الكابتة، وثانيهما أن الأنا والأنا الأعلى يسهمان هنا بقسط بالغ الأهمية في تشكيل العرَض.

إن العصاب الوسواسي هو، بغير ما شك، الموضوع الأكثر تشويقاً وخصباً للبحث التحليلي. غير أن المشكلة التي يطرحها لا نتوصل دوماً إلى السيطرة عليها. ولا مندوحة لنا من الإقرار بأننا إذا شئنا النفاذ إلى أبعد من ذلك في استكناه طبيعته فلن يكون في مقدورنا أن نستغني عن التقدم بفرضيات غير أكيدة وبافتراضات يعوزها البرهان. وأرجح الظن أن الموقف في العصاب الوسواسي لا يكون مختلفاً في بادئ الأمر عن الموقف في الهستيريا، أعني به الدفاع الضروري ضد المطالب الليبيدوية لعقدة أوديب. ولنضف إلى ذلك أنه يسعنا فيما يبدو، في كل حالة من حالات العصاب الوسواسي، أن نعثر، في المستوى الأعمق، على طبقة من أعراض هستيرية تشكلت في زمن مبكر للغاية.



غير أن عاملاً جِبلِّياً ما لبث أن أحدث في زمن لاحق تغييراً حاسماً في تشكُّل الأعراض. فالتنظيم التناسلي لليبيدو يتكشف عن أنه ضعيف بالأحرى ولا قِبَل له بالمقاومة. وحينما يشرع الأنا ببذل جهوده الدفاعية، تكون أول نتيجة يحرزها هي حمل التنظيم التناسلي (للطور القضيبي) على النكوص جزئياً أو كلياً نحو المرحلة السادية الشرجية. وواقعة النكوص هذه تبقى حاسمة بالنسبة إلى كل ما يحدث لاحقاً.

في وسعنا أيضاً، إذا شئنا، أن ننظر في احتمال آخر. فمن الجائز أن النكوص لا ينجم عن عامل جِبلِّي، وإنما عن عامل زمني. وما سيتيح إمكانيته في هذه الحال لن يكون هشاشة التنظيم التناسلي لليبيدو، وإنما واقع أن الأنا يكون قد اعترض في زمن أبكر مما ينبغي سبيل السيرورة الغريزية، وبالتحديد منذ بلغت المرحلة السادية أوجها. ولن أُحِلّ لنفسي أن أبتّ بصورة قطعية بخصوص هذه النقطة أيضاً، ولكن لا يسعني أن أقول إن الملاحظة التحليلية لا تؤيد هذا الفرض. بل هي تنزع بالأولى إلى أن تظهر أن الطور القضيبي يكون قد تمّ بلوغه عند الدخول في العصاب الوسواسي. وفضلاً عن ذلك، إن العمر الذي يتفجر فيه هذا العصاب يكون أكثر تأخراً مما في الهستيريا (الحقبة الثانية من الطفولة، بعد نهاية مرحلة الكمون). وقد ظهر بوضوح في حالة تمخُّضٍ متأخرٍ جداً لهذا المرض ـ كان تسنى لي أن أدرسها ـ أن الشرط المحدِّد لحدوث النكوص ولتشكيل العصاب الوسواسي كان خفضاً فعلياً في قيمة الحياة التناسلية التي كانت بقيت إلى ذلك الحين سليمة لم تُمَسّ[٢].

أما التفسير الميتاسيكولوجي للنكوص فإني أتحرى عنه في «فض تشابك الدوافع الغريزية»، أي في تنحية المقوِّمات الإيروسية، التي انضافت في مستهل الطور التناسلي إلى التوظيفات الهدامة للطور السادي.

٢ـ انظر مقالي: **الاستعداد للعصاب الوسواسي**(*).

(*) مقال كتبه فرويد عام ١٩١٣، وعنوانه التام: **الاستعداد للعصاب الوسواسي: مساهمة في مشكلة اختيار العصاب**. وانظر ترجمتنا لهذا المقال في: **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي في المؤلفات شبه الكاملة**، ج٤. «م».



إن الأنا، بفرضه النكوص، يحرز أول نجاح له في صراعه الدفاعي ضد مطالب الليبيدو. ويجدر بنا بصدد هذه النقطة أن نميِّز بين الميل الأعمّ إلى «الدفاع» وبين «الكبت» الذي هو مجرد آلية من الآليات التي يستخدمها الدفاع. وحالة المريض بالعصاب الوسواسي تتيح لنا أن نتبيَّن على نحو أجلى مما في حالة الإنسان السويّ أو الهستيري أن محرِّك الدفاع هو عقدة الخصاء وأن ما هو مدافَعٌ ضده هو شتى نزعات عقدة أوديب. ونجدنا الآن في مستهل مرحلة الكمون، المتَّسمة بأفول عقدة أوديب، وببناء الأنا الأعلى أو تعضيده، وبتشييد حواجز أخلاقية وجمالية في الأنا. وفي العصاب الوسواسي تتخطى هذه السيرورات الحدّ السويّ، فينضاف إلى تهدّم عقدة أوديب الانحطاط النكوصي لليبيدو؛ ويغدو الأنا الأعلى مفرط الصرامة والقسوة، بينما يطوِّر الأنا، صدوعاً بأمر الأنا الأعلى، تشكيلات ارتجاعية مهمة تتلبس شكل وسوسةِ ضمير وشفقةٍ ونظافةٍ. وبصرامة لا تلين لها قناة ـ ومن هنا بالذات لا تُكلل على الدوام بالنجاح ـ يُنزل العقاب بإغراء متابعة أونانية[٣] الطفولة الأولى التي تبقى تمثّل، وإن ارتكزت الآن إلى تمثلات نكوصية (سادية شرجية)، مساهمة غير مسيطر عليها للتنظيم القضيبي. ولا يخلو الأمر هنا من تناقض داخلي بالنظر إلى أن المريض يحرِّم على نفسه، بداعي الحفاظ على رجولته (حصر الخصاء)، كل نشاط يشهد على هذه الرجولة. غير أن خاصية العصاب الوسواسي تتمثل فقط، هنا أيضاً، في مغالاته بهذا التناقض الذي هو في الأصل واحدة من السمات الملازمة للكيفية السوية التي تتمّ بها تصفية عقدة أوديب. وإذا كان كل شطط يحمل بين طياته بذرة هلاكه هو ذاته، فهذا يصدق أيضاً على العصاب الوسواسي حيث تشقّ الأونانية المكبوحة لنفسها، في شكل أفعال قهرية، طريقاً يقرِّب الشقة بلا انقطاع بينها وبين الإشباع.

إن هذه التشكيلات الارتجاعية التي لاحظناها في أنا المريض المصاب

٣ ـ الأونانية (أو الاستمناء): نسبة إلى أونان، وهو رجل جاء ذكره في التوراة، تزوج من امرأة أخيه المتوفى، فأنَّبه ضميره، فبات لا يمارس معها سوى الجماع المبتور. ويقال إن المرأة بدورها لجأت إلى الاستمناء. «م».



بالعصاب الوسواسي، والتي تعرَّفنا فيها ضروباً من الغلوّ في التكوين السويّ للطبع، يمكن اعتبارها آلية دفاعية جديدة تأخذ مكانها إلى جانب النكوص والكبت. وفي الهستيريا تغيب هذه التشكيلات الارتجاعية فيما يبدو، أو تكون أضعف بكثير. وبوسعنا، لو ألقينا نظرة إلى الوراء، أن نتقدم بفرض عن السر في أصالة السيرورة الدفاعية في الهستيريا. فآية ذلك، فيما يبدو، أن هذه السيرورة تكتفي بالكبت: فالأنا يشيح عن الحائة الغريزية المستكرهة ويخلي بينها وبين مجراها في اللاشعور بدون أن يعود إلى المشاركة في مصائرها. وهذه، بالبداهة، فرضية لا يمكن أن تكون صحيحة صحة مطلقة، لأننا نعرف تلك الحالة التي يعني فيها العرَض الهستيري، في الوقت نفسه، تحقيق مطلب قصاصي صادر عن الأنا الأعلى؛ لكن بوسعنا أن نعتبر أن هذه النظرة من شأنها أن تتيح لنا تحديد طابع عام لسلوك الأنا في الهستيريا.

بوسعنا أن نسلِّم ببساطة، وعلى سبيل الأمر الواقع، بأنه يتشكل في العصاب الوسواسي أنا أعلى مفرط في صرامته، أو قد يمكننا أن نفترض أن السمة الرئيسية لهذا المرض هي نكوص الليبيدو، وأن نسعى بالتالي إلى ربط سمات الأنا الأعلى بهذا النكوص أيضاً. وبالفعل، إن الأنا الأعلى، الذي يستمدّ أصله من الهذا، لا يمكنه أن ينجو بنفسه مما يحدث في الهذا من نكوص ومن فضٍّ لتشابك الدوافع الغريزية. ولا غرو من ثم إذا أضحى من جانبه أكثر إمعاناً في التشدد والقساوة وأكثر تجرداً من الحب مما في الحالات التي يُقيَّض فيها للنمو أن يسلك مسالك سوية.

يبدو أن الدفاع ضد إغراء الأونانية يعدّ هو المهمة الرئيسية في مرحلة الكمون، وتنتج عن هذا الصراع سلسلة من أعراض نلتقيها بصورة نمطية لدى أكثر الأشخاص اختلافاً وتتلبس بالإجمال طابعاً طقسياً. وإنه لمن بواعث الأسف الشديد ألا تكون هذه الأعراض قد جُمعت وحُللت بعد بصورة منهجية، لأن هذه المنتجات الباكرة الأولى للعصاب يمكنها، خيراً من سائر المنتجات، أن تسلِّط أضواء على آلية تشكّل العرَض المستخدمة هنا. فهذه الأعراض تتسم من الآن بالسمات التي ستتجلى لاحقاً في مرض خطير على نحو مشؤوم حقاً: الميل إلى



التثّبت على أنشطة سيتمّ إنجازها فيما بعد بصورة شبه آلية، كالذهاب إلى النوم والاغتسال وارتداء الملابس والمشي، والميل إلى التكرار وإلى إضاعة الوقت. وفي الوقت الحاضر لا يسعنا إطلاقاً أن نفهم لماذا تحدث الأمور على هذا النحو؛ على أن الدور الذي يلعبه هنا إسماء SUBLIMATION المقوّمات الإيروسية الشرجية جليّ للعيان.

يمثل البلوغ طوراً حاسماً في تطور العصاب الوسواسي. فعمل التنظيم التناسلي، الذي أوقِف في الطفولة، يعاود عندئذ مسيرته بقوة جارفة. لكننا نعلم أن النمو الجنسي في الطفولة يعيِّن أيضاً اتجاه هذا التجدد في سنوات البلوغ. وعلى هذا النحو، ليست الحاثات العدوانية للطفولة هي وحدها التي يعاد تنشيطها، بل إن شطراً متفاوت الأهمية من الحاثات الليبيدوية الجديدة ـ جملة هذه الحاثات في الحالات السيئة ـ يتحتم عليه أن يسلك الدروب التي رسمها له النكوص ليظهر في صورة نيات عدوانية ومقاصد تهديمية. ونتيجة لتنكير النوازع الإيروسية هذا وبحكم وجود تشكيلات ارتجاعية عاتية في الأنا، يتوالى الكفاح ضد الجنسية من الآن فصاعداً تحت لواء الأخلاق. فالأنا يتمرد، وقد أخذته الدهشة في مواجهة أفعال القسوة والعنف التي يوعز بها الهذا إلى الشعور، بدون أن يشتبه بأنه يكافح بذلك رغبات إيروسية كان بعضها سيفلت لولا ذلك من تأنيباته وتبكياته. ويدأب عندئذ الأنا الأعلى المفرط في صرامته على قمع الجنسية بمزيد من القوة طرداً مع تلبسها أشكالاً مثيرة لشديد الاشمئزاز. هكذا يلوح أن الصراع في العصاب الوسواسي يتفاقم ويستفحل في اتجاهين: فالهيئة التي تدافع تغدو أكثر تشدداً وتزمتاً، والقوى التي تُجابَه بالدفاع تغدو أكثر فأكثر غير قابلة للاحتمال. وكلتاهما تحت تأثير عامل واحد: نكوص الليبيدو.

من الممكن الاعتراض على بعض من أطروحاتنا بالاحتجاج بأن الفكرة الاستحواذية المستكرهة تجد منفذاً لها بوجه عام إلى الشعور. ولكن لا مجال لأدنى شك في الأمر: فقد مرت قبل ذلك بسيرورة كبت. وفي غالبية الحالات تبقى الفحوى الحقيقية للحاثة الغريزية العدوانية مجهولة بتمامها من قبل الأنا، ولا يكون ثمة مناص من عمل تحليلي طويل الأمد لاستياقها إلى مجال الشعور.



وبصفة عامة لا يصل منها إلى الشعور إلا بديلٍ محرَّف، تارة ضبابي وغير متعيِّن على منوال الحلم، وطوراً متنكر تنكراً لامعقولاً إلى حدٍّ يتعذر معه تعرُّفه. وحتى في حال أن الكبت لم يتأكَّل مضمون الحاثة الغريزية العدوانية، فلا شك في أنه يكون قد قضى على الطابع الانفعالي المصاحب لها. وبذلك لا تتبدى العدوانية للأنا باعتبارها حفزة إلى الفعل، وإنما كما يقول المرضى باعتبارها مجرد «فكرة» لا تحرك فيهم ساكناً بحسب مدعاهم. وأول ما يلفت النظر أن ليس كذلك واقع الحال على الإطلاق.

وبالفعل، إن الانفعال الذي نحّاه المريض جانباً لدى إدراكه الفكرة الاستحواذية، يتظاهر في موضع آخر. فالأنا الأعلى يسلك كما لو أنه لم يحدث كبت، كما لو أنه يعرف الحاثة العدوانية بفحواها الحقيقية وبطابعها الانفعالي التام، ويعامل الأنا على أساس هذا الافتراض. ومع علم الأنا ببراءته فلا محيص له عن أن يساوره إحساس بالذنب وأن يتحمل مسؤولية لا يملك لها بينه وبين نفسه تفسيراً. على أن اللغز الذي يُطرح علينا على هذا النحو ليس شديد الإلغاز إلى الحدّ الذي بدا عليه للوهلة الأولى: فسلوك الأنا الأعلى قابل تماماً للفهم، أما التناقض في الأنا فهو يثبت لنا فقط أن الأنا انغلق على ذاته بواسطة الكبت في مواجهة الهذا، مع بقائه منفتحاً تماماً للتأثيرات الصادرة عن الأنا الأعلى(٤). فإن سأل سائل في هذه الحال لماذا لا يسعى الأنا إلى التملص من عذابات الانتقادات التي ينهال بها عليه الأنا الأعلى، كان في مستطاعنا أن نجيب أن هذا حقاً ما يفعله في العديد من الحالات. فثمة أعصبة وسواسية يغيب عنها تماماً كل شعور بالذنب، وفي مثل هذه الحال يكون الأنا، على ما نستطيع تبيُّنه، قد تحاشى وعي هذا الذنب عن طريق سلسلة جديدة من الأعراض وأفعال التوبة والتكفير. غير أن هذه الأعراض تعني في الوقت نفسه إشباعاً لحاثات غريزية مازوخية كان النكوص قد عزَّزها وعضَّدها بدورها.

إن تنوُّع الأشكال التي يتبدى بها العصاب الوسواسي عظيم للغاية بحيث

---

٤ ـ انظر ث. رايك: **النزوع الوسواسي إلى الاعتراف والحاجة إلى القصاص [في مشكلات التحليل النفسي وعلم الإجرام**، هامش الترجمة الفرنسية الجديدة].



تعذَّر إلى اليوم، رغماً عن جميع الجهود التي بذلت، إعطاء صيغة تركيبية متلاحمة لجميع تنوعاته. ومهما اجتهدنا في استخلاص علاقات نمطية، لا نجد بدأً من التساؤل عما إذا لم نكن أهملنا سمات مطردة أخرى قد لا تقل أهمية عن سابقاتها.

لقد سبق لي وصف الميل العام لتشكيل العرَض في العصاب الوسواسي. فهو ينزع إلى أن يترك دوماً حقلاً أوسع للإشباع البديل على حساب التأبي والامتناع. والأعراض نفسها، التي كانت تعني في الأصل تحديدات للأنا، تصير في وقت لاحق، وبفضل نزوع الأنا إلى التركيب، ممثِّلة لإشباعات. وإنه لمن المستحيل أن نتجاهل أن هذه الدلالة الأخيرة تصبح تدريجياً هي الدلالة الأهم. ونتيجة هذه السيرورة، التي تتجه أكثر فأكثر نحو الإخفاق التام، هي أنا شديد الانحداد، مكره على طلب إشباعاته في الأعراض. هذا التبدل في موازين القوى لصالح الإشباع يمكن أن يتأدى إلى المآل النهائي المرهوب: شلل إرادة الأنا الذي يكتشف لكل قرار من قراراته تحفيزات متساوية تقريباً في القوة من جانب كما من جانب آخر. والنزاع البالغ الحدة بين الهذا والأنا الأعلى، ذلك النزاع الذي يسم من البداية هذا المرض بميسمه، يمكن أن يتسع نطاقه إلى حدٍّ يتعذر معه على أي نشاط من أنشطة الأنا، الذي بات من الآن فصاعداً عاجزاً عن القيام بدور الوسيط، أن يتفادى الانجرار إليه.




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

(٦)

نستطيع أن نلاحظ في مجرى هذه الصراعات نشاطين للأنا يشكلان أعراضاً ويستأهلان اهتماماً خاصاً لأنهما ينوبان، على ما هو بادٍ للعيان، مناب الكبت ولأنهما مؤهلان بالتالي لتسليط الضوء على غايته وتقنيته. وربما كان في وسعنا أيضاً أن نرى في ظهور هاتين التقنيتين الإضافيتين المساعدتين والبديلتين دليلاً على أن تحقيق الكبت في شكله النظامي يصطدم بصعاب. وربما اقتدرنا أكثر على فهم مثل هذه التنوعات في الكبت إذا أخذنا في اعتبارنا أن الأنا يكون في العصاب الوسواسي أكثر منه في الهستيريا مسرحاً لتشكيل العرَض، وذلك بقدر ما يتشبث هذا الأنا في عناد بعلاقته بالواقع وبالشعور، وينذر لهذه العلاقة مَلَكاته الفكرية كافة، بل بقدر ما يبدو نشاط الفكر موضوعاً لتوظيف مضاعف ومطبوعاً بالطابع الإيروسي.

إن التقنيتين المشار إليهما هما **الإلغاء ذو المفعول الرجعي والعزل**[١]. وللأولى حقل تطبيقي واسع للغاية وأصولها موغلة في القدم. ومن الممكن القول إنها أشبه بسحر سلبي، يرمي إلى أن «يمحو بالنفخ فوق الشيء»، من خلال رمزية حركية، لا عواقب حدث من الأحداث (انطباع، خبرة معاشة)، بل ذلك الحدث عينه. واختيارنا لهذا التعبير الأخير: «محو الشيء بالنفخ فوقه» يهدف إلى التنويه بالدور الذي تضطلع به هذه التقنية لا في العصاب فحسب، بل أيضاً في الشعائر السحرية والعادات الشعبية والطقوس الدينية. وفي العصاب الوسواسي نلتقي أول الأمر الإلغاء ذا المفعول الرجعي في الأعراض ذات المرحلتين، حيث يلغي الفعل الثاني الفعل الأول، بحيث يجري كل شيء كما لو أنه لم يقع شيء، في حين أن

١ ـ بالألمانية: UNGESCHEHENMACHEN: أي الحؤول دون وقوع ما وقع. «م».



الفعلين كليهما قد وقعا حقاً وواقعاً. والعصاب الوسواسي يجد في نية هذا الإلغاء جذره الثاني؛ أما الجذر الأول فيكمن في تدابير الوقاية وإجراءات الاحتياط التي تهدف إلى الحؤول دون وقوع شيء محدد ودون تكراره. والفارق سهل فهمه؛ فالتدابير الاحتياطية عقلانية، أما «الإلغاءات» عن طريق الحذف ذي المفعول الرجعي فهي لاعقلانية، ومن طبيعة سحرية. ولزام علينا أن نفترض، بطبيعة الحال، أن هذا الجذر الثاني هو الأقدم وأنه ينبثق عن الموقف الأرواحي ANIMISTE حيال العالم المحيط[٢]. ونجد نموذجاً أوليا لمجهود الإلغاء ذي المفعول الرجعي بالنسبة إلى السلوك السوي في القرار الذي يبرمه الفرد باعتبار ما وقع وكأنه «لم يقع»[٣]؛ ولكنه في هذه الحال لا يتخذ أي إجراء ضد هذا الحادث الذي وقع، كما لا يلقي بالاً للنتائج التي ترتبت عليه، على حين أنه يسعى في العصاب الوسواسي إلى حذف الماضي نفسه وإلى كبته حركياً. ونشدان الغاية نفسها يمكن أن يمدّنا أيضاً بتفسير **قهر التكرار**، الكثير التواتر في العصاب، والذي يترافق تنفيذه عندئذ بتلاقي عدة مقاصد متضاربة ومتصارعة فيما بينها. فما لم يحدث بالصورة التي كان يمكن أن توافق الرغبة يُلغى عن طريق تكراره في صورة أخرى، وتنضاف إلى ذلك بعدئذ جميع الدوافع التي تحفز على التركيز على هذه التكرارات. وفي المسار اللاحق للعصاب يتكشف هذا المجهود الهادف إلى إلغاء خبرة رضيِّة عن أنه، هو عينه، دافع رفيع الأهمية في تشكيل العرَض في كثرة من الأحيان. على هذا النحو تتكون لدينا معرفة عامة وغير متوقعة عن تقنية جديدة، تقنية محرِّكة، هي تقنية الدفاع، أو تقنية الكبت إذا شئنا المزيد من الوضوح والدقة في التعبير.

أما التقنية الأخرى، التي يتعيَّن علينا أن نعكف من جديد على وصفها، فهي **العزل**، ونلتقيه، أكثر ما نلتقيه، في العصاب الوسواسي. ويعمل العزل هو الآخر في نطاق الدائرة المحرِّكة ويتمثل في ما يلي: بعد وقوع حادث مستكره، أو بعد

٢ ـ الأرواحية أو الإحيائية : الاعتقاد في الحضارات البدائية بوجود روح أو قوة حيوية مبثوثة في الإنسان كما في العناصر الطبيعية من صخور أو رياح أو جنّ يتولون حماية البشر. «م».

٣ ـ بالفرنسية في النص: NON ARRIV . «م».



صدور نشاط عن المريض له دلالته من منظور العصاب، تكون وقفة لا يمكن في أثنائها لشيء أن يقع، ولا لإدراك أن يتمّ، ولا لعمل أن ينجز. هذا السلوك، الغريب للوهلة الأولى، سرعان ما يكشف عن علاقته بالكبت. فنحن نعلم أنه من الممكن في حالة الهستيريا وضع حدّ لخبرة رضِّية عن طريق النساية؛ وبالمقابل، يغلب في حالة العصاب الوسواسي ألا يكتب النجاح لذلك؛ فالتجربة المعاشة لا تُنتسى، وإنما تُجرَّد من حمولتها الوجدانية وتُقمع علائقها القائمة على التداعي أو تُفصم، بحيث تبقى هذه التجربة منعزلة ولا تعود قابلة للاستحضار في مجرى النشاط الفكري. ويتماثل مفعول هذا العزل مع مفعول الكبت المصحوب بنساية. وتستخدم هذه الآلية في عزل العصاب الوسواسي، لكنها تُعزز أيضاً بطاقة محرِّكة برسم هدف سحري. والعناصر التي يُفرَّق بينها على هذا النحو هي على وجه التحديد تلك التي يجمع بينها انتماء مشترك، فيكون دور العزل المحرِّك من ثم أن يقدِّم ضمانة لقطع الترابط في الفكر. وذريعة هذا النهج العصابي تقدِّمها عملية التركيز السوية. فكل انطباع أو خبرة أو مهمة تبدو لنا على جانب من الأهمية لا يجوز التشويش عليها بمتطلبات متواقتة لعمليات فكرية أخرى أو لأنشطة أخرى. غير أن التركيز يُستخدم، حتى في حالة الشخص السويّ، لا في إبعاد ما هو عديم الأهمية ودخيل فحسب، بل كذلك وعلى الأخص في إبعاد ما هو، بحكم طابعه المتناقض، غير موائم. وأكبر قدر من التشويش يأتي من تدخل عناصر كان يربط بينها في الأصل انتماء مشترك لكن تقدم النمو ما عتم أن فرَّق بينها، ومن قبيل ذلك على سبيل المثال تظاهرات الازدواجية الوجدانية للعقدة الوالدية في العلاقة مع الله أو حاثات الأعضاء الإفرازية في الإثارة الحبِّية. هكذا يتعيَّن على الأنا في الحالات السوية أن يبذل مجهوداً عزلياً كبيراً ليوجِّه مسار الفكر، ونحن نعلم أنه لزام علينا، في ممارستنا للتقنية التحليلية، أن نعلِّم الأنا كيف يمسك لحين من الزمن عن هذه الوظيفة التي هي، باستثناء هذا الظرف، مبررة تماماً.

لقد تحققنا جميعنا بالتجربة من أن المريض المصاب بالعصاب الوسواسي يشُقّ عليه للغاية أن يتقيَّد بقاعدة التحليل الأساسية. وآية ذلك في أغلب الظن أن الأنا



عنده أكثر تيقظاً، وأن ضروب العزل التي يقوم بها هي أشد قطعاً وحسماً من جراء التوتر الصراعي البالغ القوة بين أناه الأعلى والهذا. ويتعيَّن عليه، في أثناء مجهوده التفكيري، أن يذود عن نفسه بضراوة ضد تدخل تخييلات لاشعورية وضد تظاهر نزعات ازدواجية. فهو لا يستطيع أن يرخي لنفسه العنان، ويقف باستمرار متأهباً للصراع. وهو يعزز هذا الحافز القهري إلى التركيز وإلى العزل بأفعال عزل سحرية تغدو ألفت للنظر وبالغة الدلالة كأعراض، لكنها تكون هي نفسها بطبيعة الحال عديمة النفع وحاملة لصفة الطقوس.

غير أن الأنا، إذ يسعى على هذا المنوال إلى الحؤول دون التداعيات والارتباطات الفكرية، يمتثل لأقدم إيعازات العصاب الوسواسي ولأهمّ أوامره إطلاقاً، أي **تابو اللمس**. وإذا حاولنا أن نعرف لماذا يلعب الهرب من اللمس، ومن التماس والعدوى، دوراً بالغ الأهمية في العصاب ولماذا يغدو بمثابة مضمون لأنظمة بالغة التعقيد، يأتي الجواب بأن اللمس، أي التماسّ الجسدي، هو الهدف القريب للتوظيف العدواني وللتوظيف الحبيّ للموضوع على حدٍّ سواء. فالإيروس يرغب في اللمس، لأنه يصبو إلى التوحيد وإلى إلغاء الحدود المكانية بين الأنا والموضوع المحبوب. لكن التدمير الذي يتعيَّن عليه، قبل اختراع الأسلحة التي تصيب عن بُعد، أن يعمل عن قرب وبالمحاذاة، يفترض هو الآخر، وبالضرورة، الملامسة الجسدية، أي فعل تحريك اليد على الغير. وقد غدا لمس المرأة تورية، في اللغة الدارجة، عن استعمالها كموضوع جنسي. «لا تلمس العضو»: تلك هي صيغة التعبير عن حظر الإشباع الإيروسي الذاتي. وبما أن العصاب الوسواسي ينشد في البداية الملامسة الإيروسية، ثم بعد النكوص الملامسة المقنَّعة في إهاب عدواني، فإنه لا يحظِّر أي شيء آخر بمثل القوة التي يحظِّر بها هذا التماس، وما من شيء كهذا التماس تحديداً يصلح لأن يغدو النقطة المركزية في نظام منعٍ وحظرٍ. غير أن العزل هو بمثابة إلغاء لإمكانية التماس، وسيلة للحؤول بين الشيء وبين أي ضرب من ضروب الملامسة. وحينما يعزل العصابي انطباعاً من الانطباعات أو نشاطاً من الأنشطة من خلال التوقف عنه ولو بصورة مؤقتة، فإنه يُفهمنا بصورة رمزية أنه لا يشاء أن يترك الأفكار ذات الصلة بهما تتلامس



بالترابط مع أفكار أخرى.

هذا عن أبحاثنا بصدد تكوين العرَض. وهي تكاد لا تستأهل التلخيص، لأنها بقيت فقيرة بالنتائج وناقصة، ولم تمدَّنا إلا بنزر يسير من عناصر لم تكن لنا بها معرفة من قبل. ولن تكون مثمرة دراسة تكوين العرَض في أمراض أخرى غير الأرهبة والهستيريا الاستبدالية والعصاب الوسواسي، لأن ما نعرفه بصددها هزيل. غير أن التمحيص النقدي والمقارن لهذه الأعصبة الثلاثة يميط اللثام عن مشكلة مهمة لا يجوز بعد الآن إرجاء النظر فيها. فمآل كل عصاب من هذه الأعصبة الثلاثة هو إلى تدمير عقدة أوديب. وحصر الخصاء، نحن نسلِّم بذلك، هو محرِّك تمرُّد الأنا. غير أن حصراً كهذا لا يسفر عن نفسه ولا يكون إقرار به إلا في الأرهبة وحدها. فإلامَ يصير في الشكلين الآخرين؟ وكيف يتدبر الأنا أمره ليوفِّر على نفسه حصراً كذاك؟ إن المشكلة لا تزداد إلا حدة متى ما أخذنا في اعتبارنا الاحتمال الذي أسلفنا الإشارة إليه، وهو أن الحصر ينبع هو نفسه، عن طريق نوع من التخمُّر، من التوظيف الليبيدوي الذي تعكَّر مجراه. وهناك سؤال آخر: هل ثبت أن حصر الخصاء هو المحرك الوحيد للكبت (أو للدفاع)؟ إذا أخذنا في اعتبارنا أعصبة النساء، فلن يكون أمامنا مناص من وضع علامة شكّ حول هذه النقطة، لأننا إذا كنا نستطيع أن نلاحظ بيقين وجود عقدة الخصاء لديهن فلسنا نستطيع، مع ذلك، أن نتكلم عن حصر خصاء في الحالة التي يكون فيها الخصاء قد حدث فعلاً.



(٧)

لنعد أدراجنا إلى الأرهبة الطفلية من الحيوانات، إذ إننا نفهم رغماً عن كل شيء هذه الحالات خيراً من سواها. على الأنا إذاً أن يتدخل هنا ضد توظيف موضوعاني ليبيدوي للهذا (أي توظيف عقدة أوديب الموجبة أو السالبة)، لأنه فهم أن إسلاس قياده له يستتبعه خطر الخصاء. وقد ناقشنا من قبل هذه المسألة، وها هي ذي فرصة أخرى تسنح لنا لتوضيح نقطة بقي الشك يحيط بها بعد انتهاء تلك المناقشة الأولى. هل يتعيَّن علينا أن نفترض أن الحاثة الحبّية تجاه الأم هي التي استوجبت انتقال الأنا إلى الدفاع في حالة هانز الصغير (وبالتالي في حالة عقدة أوديب الموجبة)؟ أم هي الحاثة العدوانية ضد الأب؟ قد يبدو، من الناحية العملية، أن هذا أمر عديم الأهمية، وعلى الأخص أن كلاً من الحاثتين تشترط الأخرى. غير أن المسألة تنطوي على أهمية نظرية، لأن تيار المحبة تجاه الأم هو وحده الذي يمكن أن يُعد إيروسياً خالصاً. أما التيار العدواني فتابع أساساً لغريزة الهدم. وقد كان تصورنا دوماً أن الأنا يذود عن نفسه في العصاب ضد مطالب الليبيدو، لا ضد مطالب دوافع غريزية أخرى. وفي الواقع، إننا نرى العلاقة الحبية بالأم بعد تشكيل الرهاب وكأنما اختفت وتمّت تصفيتها جذرياً من قبل الكبت، في حين أنه بالترابط مع الحاثة العدوانية تمَّ تشكيل العرَض (البديل). والموقف في حالة رجل الذئاب أكثر بساطة؛ فالحاثة المكبوتة هي بالفعل حاثة إيروسية حقاً ـ الموقف المؤنث إزاء الأب ـ وإنما بالترابط معها أيضاً تمَّ تشكيل العرَض.

إنه لمما يكاد يبعث على الخجل أن نظل نصطدم، بعد مثل هذا المجهود الطويل الأمد، بصعاب في تصور المعطيات الأساسية، لكننا قطعنا على أنفسنا عهداً بألا نبسّط شيئاً وبألا ندع شيئاً يلفّه الغموض. ونظراً إلى عجزنا عن الرؤية الواضحة



نرانا نرغب، على الأقل، في أن نرى بوضوح نقاط الإبهام والغموض. وما يربكنا هنا هو بكل جلاء تفاوت في تطور نظريتنا في الدوافع الغريزية. فقد كنا في بادئ الأمر تتبعنا مسار تنظيم الليبيدو من الطور الفموي إلى الطور التناسلي، مروراً بالطور السادي الشرجي، ووضعنا على مستوى واحد في مجرى هذا التوصيف جميع مقوِّمات الغريزة الجنسية. ثم تبيَّن لنا فيما بعد أن السادية تمثِّل غريزة أخرى، الغريزة المعاكسة للإيروس.

وهذا التصور الجديد، الذي يقول بوجود فئتين من الدوافع الغريزية، يبدو وكأنه يقوِّض البناء السابق لتنظيم الليبيدو على مراحل متعاقبة. غير أنه لا حاجة بنا إلى ارتجال وسيلة للتملص من هذا الإشكال: فالحل موجود في متناولنا منذ عهد بعيد ولسنا بحاجة إلى إعادة اختراعه، وهاكم إياه: إننا لا نواجه على الإطلاق تقريباً حاثات غريزية خالصة، وإنما بصفة عامة خلائط من غريزتين بنسب متفاوتة. إذاً فالتوظيف الموضوعاني السادي يمكن أن يعدَّ بحقٍّ توظيفاً ليبيدوياً؛ وتصوراتنا عن مختلف تنظيمات الليبيدو تحتاج إلى إعادة النظر فيها، ومن الممكن للحاثة العدوانية ضد الأب أن تغدو، مثلها مثل الحاثة الحبِّية تجاه الأم، موضوعاً للكبت. مهما يكن من أمر فلنحتفظ، برسم التفكير لاحقاً، باحتمال أن يكون الكبت سيرورة ذات صلة خاصة بالتنظيم التناسلي لليبيدو، وباحتمال أن يلجأ الأنا إلى طرائق أخرى في الدفاع حينما يكون عليه أن يذود عن نفسه ضد الليبيدو في أطوار أخرى من تنظيمه. ولنضف القول إن حالة كحالة هانز الصغير لا تأذن لنا بالبتّ: فصحيح أن حاثة عدوانية قد جرى في هذه الحالة استبعادها عن طريق الكبت، ولكن كان ذلك بعد أن تمّ البلوغ إلى التنظيم التناسلي.

إننا لا نزمع، هذه المرة، أن ندع علاقة العرَض بالحصر تغيب عن أنظارنا. فقد قلنا إنه حينما يدرك الأنا خطر الخصاء يصدر فوراً إشارة الحصر ويعمد، بواسطة آلية اللذة/ الكدر، إلى كفّ سيرورة التوظيف المتوعِّدة في الهذا. وفي الوقت نفسه يتمّ تشكيل الرهاب، فيتلقى حصر الخصاء موضوعاً آخر وتعبيراً محرَّفاً: العضّ من قبل الحصان (أو الافتراس من قبل الذئب) بدلاً من الخصاء



من قبل الأب. وللتشكيل البديل فائدتان بيّنتان: فهو يتفادى أولاً صراعاً يتسم بطابع الازدواجية الوجدانية، إذ أن الأب هو في الوقت نفسه موضوع محبوب، ويتيح ثانياً للأنا أن يوقف تمخُّض الحصر. ذلك أن حصر الرهاب اختياري، ولا يظهر إلا متى ما وقع موضوعه تحت الإدراك. وهذا منطقي تماماً، إذ في تلك اللحظة فقط يتجلى موقف الخطر. ذلك أنه لا داعي للخوف من الخصاء من جانب أب ما هو بحاضر، غير أنه لا سبيل في الوقت نفسه للتخلص من الأب: فهو يظهر على الدوام متى شاء. لكن بما أنه تمّ استبداله بحيوان، فإنه يكفي تحاشي مرأى - أي حضور - الحيوان للخلاص من الخطر ومن الحصر. لهذا يفرض هانز الصغير على أناه ضرباً من التقييد، وينتِج كفاً فحواه الامتناع عن الخروج تحاشياً لالتقاء أحصنة. وقد اهتدى الروسي الصغير إلى حلٍّ أنسب بعد، إذ إن امتناعه عن إمساك كتاب مصوَّر معيَّن بيده هو عزوف بسيط هيِّن الشأن. فإذا لم تُره أخته الشريرة الكتاب، مع الصورة التي يضمّها بين دفتيه للذئب المنتصب فوق قوائمه، فسيكون في مستطاعه أن يشعر أنه في أمان من حصره.

لقد سبق لي أن عزوت إلى الرهاب طابعاً إسقاطياً، إذ إنه يستبدل خطراً غريزياً داخلياً بخطر إدراكي خارجي. وفائدة هذا الاستبدال هي أنه في المستطاع المحاماة عن الذات ضد الخطر الخارجي عن طريق الهرب منه وتحاشي إدراكه، على حين أن الهرب لا يجدي فتيلاً في مواجهة الخطر الذي ينبع من الداخل. وما هذه الملاحظة بخاطئة، غير أنها لا تنفذ إلى لبّ الأشياء، لأن المطلب الغريزي ليس بحدّ ذاته خطِراً، بل على العكس: فما هو بخطِر إلا لأنه يستتبع خطَراً خارجياً حقيقياً، هو خطر الخصاء. المسألة في حالة الرهاب لا تعدو إذاً أن تكون استبدالاً لخطر خارجي بخطر خارجي آخر. ولئن أمكن للأنا في حالة الرهاب أن يتملَّص من الحصر بتحاشيه الخطر أو بتشكيله عرضاً - كفاً INHIBITION. فهذه واقعة تتمشى تماماً مع التصور القائل إن هذا الحصر لا يعدو أن يكون إشارة وجدانية انفعالية لا يترتب عليها أي تغيير في الموقف الاقتصادي.

حصر رهاب الحيوانات هو إذاً استجابة انفعالية وجدانية تصدر عن الأنا في



مواجهة الخطر، والخطر المشار إليه هنا هو خطر الخصاء. والفارق الوحيد بينه وبين الحصر إزاء خطر فعلي، كذاك الذي يبديه الأنا عادة في مواقف الخطر، هو أن مضمون الحصر يبقى لاشعورياً ولا يصير شعورياً إلا في مظهر محرَّف.

في تقديرنا أن التصور نفسه يصدق أيضاً على أرهبة الراشدين، حتى ولو كانت المادة التي ينشئها العصاب هنا أغنى بكثير، وحتى لو لعبت بعض العوامل الإضافية دورها في تشكيل العرَض. غير أن السيرورة في جوهرها واحدة. فالمصاب برهاب الأماكن المكشوفة يفرض على أناه تحديداً كيما يفلت من خطر غريزي. والخطر الغريزي يتمثل في إغراء الاستسلام لشهواته الإيروسية، لأنه بذلك سيبتعث، كما في طفولته، خطر الخصاء أو خطراً مماثلاً. ولنذكر، على سبيل المثال لا أكثر، حالة شاب أصيب برهاب الأماكن المكشوفة خوفاً من استسلامه لإغواء المومسات ومن إصابته بالزهري عقاباً له.

إنني أعلم أن الكثير من الحالات يتَّسم ببنية أشد تعقيداً، وأن حاثات غريزية مكبوتة أخرى كثيرة يمكن أن تتأدى إلى الرهاب. بيد أنها لن تكون في هذه الحال إلا مساعِدة ولن تندمج بنواة العصاب إلا بعد أن تتشكل هذه النواة. ومما يعقِّد تشكيل أعراض رهاب الأماكن المكشوفة أن الأنا لا يقنع بالعزوف عن شيء ما، بل يفعل أكثر من ذلك لتجريد الموقف من طابعه الخطِر: فهو يسلس قياده لنكوص زمني نحو الطفولة (في الحالات القصوى رجوعاً إلى الزمن الذي كان يقيم فيه في جسم الأم محمياً من الأخطار التي تتهدده اليوم). وهذه الإضافة إلى العزوف تبدو وكأنها الشرط الذي عن طريقه يمكن تفادي العزوف نفسه. ومن قبيل ذلك أن المصاب برهاب الأماكن المكشوفة يمكنه أن يخرج إلى الطريق إذا صاحبه، وكأنه طفل صغير، شخص يمحضه ثقته. والاعتبار نفسه يمكنه أيضاً أن يسمح له بالخروج بمفرده بشرط ألا يبتعد عن بيته إلى أكثر من مسافة معلومة وألا يذهب إلى أماكن لم يألفها ولا يعرفه فيها أحد. واختيار هذه الاحتياطات يكشف عن تأثير العوامل الطفلية التي تسيطر عليه من خلال عصابه. وحتى إذا كان رهاب الوحدة لا ينطوي على نكوص طفلي من هذا القبيل، فإن هدفه بالمقابل لا يحيط به التباس، وما هذا الهدف في الواقع إلا

مكتبة الفكر الجديد

تفادي إغراء الأونانية الانفرادية. وطبيعي أن النكوص الطفلي لا يمكن أن يتمّ ما لم تكن الطفولة قد نأت زمنياً.

يستقرّ المقام بالرهاب، بوجه الإجمال، عقب تجربة نوبة أولى من الحصر تطرأ في ظروف محددة: في الطريق، في القطار، في العزلة. ثم يُطرد الحصر، لكنه يعاود ظهوره في كل مرة يتعذّر فيها التقيُّد بالشرط الواقي. وتسدي آلية الرهاب، بوصفها وسيلة دفاعية، خدمات جلّى وتكشف عن ميل قوي إلى الاستقرار. ويغلب أن يستمر الصراع الدفاعي، وقد بات موجَّهاً الآن ضد العرَض، ولكن ذلك ليس إلزامياً.

إن ما أفادتنا به الأرهبة بخصوص الحصر يمكن أن يصدق على غير العصاب الوسواسي، لأنه ليس من العسير ردّ موقف العصاب الوسواسي إلى موقف الرهاب. فموقف الخطر الذي يتعيَّن على الأنا أن ينجو بنفسه منه هو عداوة الأنا الأعلى. ولا وجود هنا لأي ظاهر من الإسقاط[1]: فالخطر مستبطن بتمامه. لكن لو تساءلنا عما يخشاه الأنا من جانب الأنا الأعلى، لما كان لنا مناص من تصور قصاص الأنا الأعلى على أنه شكل مشتقّ من عقوبة الخصاء. فكما أن الأنا الأعلى هو الأب وقد تجرَّد من صفته الشخصية، كذلك تحول حصر الخصاء على يد الأب إلى حصر اجتماعي أو إلى حصر أخلاقي غير متعيِّنين. بيد أن هذا الحصر محجوب بستار ما، والأنا يفلت منه بتنفيذه في رضوخ وإذعان الإيعازات والأوامر وأفعال التوبة المفروضة عليه. فإن حال بينه وبين ذلك حائل أخذه للحال ضيق شديد مضنٍ، ولنا أن نرى في هذا الضيق مكافئ الحصر، والمرضى أنفسهم يماثلونه بالحصر. هكذا نخلص إلى الاستنتاج التالي: إن الحصر رد فعل تجاه موقف الخطر، وفي مستطاع المريض أن يفلت منه إذا فعل الأنا شيئاً لتحاشي الموقف أو للتملص منه. بوسعنا إذاً أن نقول، إذا شئنا، إن الأعراض تتكون لتفادي تمخُّض الحصر، لكن هذه الصيغة لا تسمح لنا بالنفاذ إلى لب الأشياء. بل من الأصح القول إن الأعراض تتكون لتفادي موقف الخطر الذي يشير إليه تمخُّض

---

١ ـ الإسقاط PROJECTION: آلية دفاعية يتم عن طريقها إسقاط مشاعر الذات على الآخرين بهدف الخروج من وضعية انفعالية لا تطاق. «م».



الحصر. ولقد كان هذا الخطر، في الحالات التي نظرنا فيها حتى الآن، هو الخصاء أو خطراً مشتقاً من الخصاء.

إن يكن الحصر استجابة الأنا للخطر، فما علينا إلا أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام لنتمكن من تأويل العصاب الرضَّي، الذي يعقب في الغالبية العظمى من الأحوال خطراً مميتاً كُتب للشخص المعني البقاء من بعده على قيد الحياة، على أنه نتيجة مباشرة للخوف على الحياة أو للخوف من الموت، ضاربين صفحاً على هذا النحو عن علاقات تبعية الأنا وعن الخصاء. وذلك هو الطريق الذي انخرط فيه معظم أولئك الذين درسوا الأعصبة الرضِّية الناجمة عن الحرب الأخيرة. وقد وجد بينهم من يعلن لنا بلهجة مظفرة أن البرهان بات من الآن فصاعداً بحكم القائم: إن تعرُّض غزيرة حفظ الذات للخطر يمكن أن ينتِج عصاباً بدون أية مشاركة للجنسية وبدون الأخذ بفروض التحليل النفسي المعقدة[٢]. وفي الواقع إنه لأمر يبعث على الأسف البالغ ألا يكون في متناولنا أي تحليل للعصاب الرضّي قابل للاستثمار. وما ذلك من جراء النقض الذي يمكن أن يوجِّهه مثل هذا التحليل إلى الأهمية الإتيولوجية التي أقررنا بها للجنسية، لأن مثل هذه المناقضة قد تمّ إبطال مفعولها منذ زمن بعيد بإدخالنا مفهوم النرجسية الذي يدرج التوظيف الليبيدوي للأنا في عداد التوظيفات الموضوعانية وينوّه بالطبيعة الليبيدوية لغريزة حفظ الذات؛ بل، على العكس من ذلك، لأن غياب تلك التحاليل حرمنا من فرصة لا تقدَّر بثمن لإيضاح العلاقة بين الحصر وتشكيل العرَض بصورة حاسمة. وطبقاً لكل ما نعلمه عن بنية أعصبة الحياة اليومية، وهي أعصبة بسيطة نسبياً، فإنه بعيد الاحتمال للغاية أن تتسبب في العصاب واقعة موضوعية خالصة هي الوقوع بين براثن الخطر بدون مشاركة أعمق الطبقات اللاشعورية للجهاز النفسي. لكن لا وجود لشيء في اللاشعور يمكن أن يعطي مضموناً لتصورنا عن إفناء الحياة. وربما كان في مقدورنا أن نقول إن الخبرة اليومية لانفصال المحتوى المعوي[٣] وفقدان الثدي الأموي الذي يستشعره الطفل ساعة الفطام يمكن أن

٢ ـ نقدة موجهة إلى كارل غوستاف يونغ في تحليله للأعصبة الرضِّية للحرب العالمية الأولى. «م».

٣. المقصود هنا واقعة التبرز. «م».



يعطياه فكرة ما عن الخصاء. ولكن ما من أحد قد عاش قط خبرة مماثلة بالموت، أو أن مثل هذه الخبرة لم تترك قط، في حال وقوعها كما في حالة الإغماء، أي أثر يمكن تقصّيه. لهذا أتمسَّك بثبات بفكرة أن حصر الموت ينبغي أن يُتصوَّر على أنه مكافئ لحصر الخصاء، وأن الموقف الذي يستثير ردَّ الفعل من جانب الأنا هو هجرانه من قبل الأنا الأعلى الحامي ـ أي قوى القدَر ـ ، ذلك الهجران الذي يتركه بلا دفاع في مواجهة الأخطار كافة. وينبغي أن نأخذ في اعتبارنا، من جهة أخرى أنه حين يعيش المرء تجارب تفضي إلى العصاب الرضّي فإن الدرع الواقي من الإثارة الخارجية يتمزق كما أن كميات كبيرة للغاية من الإثارة تشقّ طريقها في هذه الحال إلى الجهاز النفسي؛ وعلى هذا المنوال نجد أنفسنا حيال الاحتمال الثاني، ومفاده أن الحصر ليس مجرد انفعال وجداني يشير إلى الخطر، وإنما يجري أيضاً إنتاجه، باعتباره تظاهرة جديدة، بدءاً من الشروط الاقتصادية للموقف.

حينما نلاحظ، كما فعلنا للتو، أن الأنا تهيّئه للخصاء خسارات موضوعانية تتكرر بانتظام، نحصل على تصور جديد للحصر. فلئن اعتبرناه حتى الآن انفعالاً وجدانياً من شأنه الإشارة إلى الخطر، فهو يتبدى لنا الآن، بالنظر إلى أن الخطر هو في غالب الأحيان خطر الخصاء، على أنه ردّ فعل على خسارة وفقدان، أو على انفصال. ولئن أثار هذا الاستنتاج للحال ضروباً شتى من الاعتراضات، فلا مندوحة من أن يسترعي انتباهنا توافق فريد وملفت للنظر. فتجربة الحصر الأولى، لدى الإنسان على الأقل، هي الميلاد الذي يعني موضوعياً الانفصال عن الأم والذي ربما كان في الإمكان تشبيهه بخصاء الأم (على أساس المعادلة: الطفل = القضيب). والحال أنه سيكون من بواعث رضانا التام أن يتكرر الحصر، لدى كل انفصال لاحق، باعتباره رمزاً للانفصال؛ بيد أن واقعة بعينها تمنعنا مع الأسف من استغلال هذا التوافق: فالميلاد لا يعيشه الطفل ذاتياً على أنه انفصال عن الأم لأن هذه الأخيرة، باعتبارها موضوعاً، مجهولة تماماً من الجنين ذي النرجسية المطلقة. ومن دواعي تحفظنا أيضاً أن ردود الفعل الانفعالية على انفصال ما مألوفة لدينا، وأننا نستشعرها على أنها ألم وحِداد، لا على أنها حصر. وبالفعل، لنتذكر أننا ما استطعنا، عند مناقشة الحِداد، أن نفهم ما العلة التي تجعله مؤلماً للغاية.



مكتبة
الفكر الجديد

(٨)

من الضروري الآن أن نفرد للتفكير بعضاً من الوقت. فمن الواضح أننا نبحث عن منظور نستطيع منه النفاذ إلى ماهية الحصر، عن خيار يتيح لنا، ونحن في معرض الحصر، أن نميّز الحقيقة من الخطأ. لكن هنا بالضبط تكمن الصعوبة، لأن الحصر ليس مما يقع تحت الإدراك بسهولة. ونحن لم نبلغ حتى الآن إلا إلى نتائج متناقضة، لا سبيل إلى أي اختيار بينها بدون رأي مسبق. والرأي عندي الآن أن نسلك غير هذا المسلك، فنجمع هنا بلا تحيُّز كل ما يمكن قوله عن الحصر، مع عزوفنا عن الأمل في تركيب جديد.

الحصر إذاً، وفي المقام الأول، شيء يُستشعر استشعاراً. ونحن نطلق عليه اسم حالة وجدانية انفعالية على الرغم من أننا لا نعرف أيضاً ما هو الوجدان الانفعالي. فمن حيث أن الحصر شعور وإحساس فإن الكدر هو أبرز صفاته، غير أن ذلك لا يكفي لبيان خاصيته: فنحن لا نستطيع أن نطلق اسم الحصر على أي كدر كان. فثمة إحساسات أخرى لها طابع الكدر هذا (توتر، ألم، حِداد)، ولا بدّ أن الحصر يشتمل على خصائص أخرى غير صفة الكدر هذه. بوسعنا إذاً أنِ نتساءل: هل سنفلح يوماً في فهم ما يميِّز مشاعر الكدر المختلفة هذه بعضها عن بعض؟

في مقدورنا على كل حال أن نستخلص شيئاً ما من تمحيص مشاعر الحصر. فطابعه الكدري يبدو متسماً بسمة خاصة، لدينا أسباب وجيهة لافتراض وجودها، لكن عسير علينا مع ذلك أن نقيم البرهان عليه: فهو وجود غير ظاهر للعيان. لكن فيما خلا هذا الطابع الخاص الذي يصعب إفراده وعزله، نستشفّ في الحصر أحاسيس جسمانية أكثر تحديداً، نردُّها إلى أعضاء معيَّنة. وبما أن فيزيولوجيا الحصر ليست موضوع اهتمامنا هنا، فلنكتفِ بالإشارة إلى بعض من



تلك الأحاسيس على سبيل التمثيل، وبالتحديد تلك المتواترة منها والظاهرة للعيان، والتي تتموضع في أعضاء التنفُّس والقلب. هذه الأحاسيس تثبت أن تعصيبات محرِّكة، وبالتالي سيرورات تصريفية، تشارك في ظاهرة الحصر الإجمالية. يتأدى بنا تحليل حالة الحصر إذاً إلى تمييز:

١ ـ طابع كدري نوعي.

٢ ـ أفعال تصريفية.

٣ ـ إدراكات ذات صلة بهذه الأفعال.

وأما في ما يتصل بالبندين ٢ و٣ فإن لنا معرفة بفارق واحد من الفوارق التي تميِّز حالة الحصر عن الحالات المشابهة لها مثل الحِداد والألم. فهذه الحالات لا تشتمل، حيثما وجدت، على تظاهرات محرِّكة، أو إن وجدت هذه التظاهرات ما ألَّفت جزءاً أساسياً من مجمل الظاهرة. بل تميَّزت عنها باعتبارها نتائج أو استجابات. الحصر إذاً حالة كدر من نوع خاص، تصحبها أفعال تصريفية تسلك دروباً محددة. وطبقاً لتصوراتنا العامة فإننا على استعداد للافتراض بأن أساس الحصر ارتفاع في مستوى الإثارة، يخلق من جهة أولى طابع الكدر، ويفضي من الجهة الثانية إلى التصريفات التي تكلمنا عنها والتي من شأنها تسكين الإثارة. غير أن هذا التصور الفيزيولوجي المحض، بالاقتضاب الذي عرضناه به، ليس أهلاً للفوز برضانا؛ فنحن نميل إلى افتراض وجود عامل تاريخي يربط بقوة بين أحاسيس الحصر وتعصيباته. وبعبارة أخرى، إن حالة الحصر ستكون، بموجب هذا الافتراض، تكراراً لخبرة معاشة متضمِّنة أصلاً للشرطين المشار إليهما: زيادة الإثارة والتصريف عبر طرق محددة، مما يخلع على كدر الحصر طابعه الخاص. ولدى الكائن الإنساني يمدّنا الميلاد بهذه الخبرة النمطية الأولى، ولهذا نميل إلى أن نرى في حالة الحصر تكراراً لرضة الميلاد.

بيد أننا لا نكون بذلك قد تقدمنا بشيء من شأنه أن يبوِّئ الحصر مكانة على حدة في عداد الحالات الانفعالية الوجدانية: فنحن نعتقد أن الانفعالات الوجدانية الأخرى غير الحصر هي بدورها إعادة إنتاج وتكرار لخبرات قديمة ذات أهمية حيوية، وفي الغالب ما قبل فردية، ونضعها موضع المقارنة، من حيث هي



نوبات هسترية عامة، نمطية، فطرية، مع النوبات العصابية الهستيرية المكتسبة لاحقاً وفردياً، والتي أمكن للتحليل أن يكشف لنا عن منشئها ودلالتها بصفتها رموزاً ذاكرية. وإنه لمما يرتجى جداً بطبيعة الحال أن نتمكن من تطبيق هذا التصور على نحو معزَّز بالبراهين على طائفة بكاملها من الانفعالات الوجدانية الأخرى، ولكن الشقة بيننا وبين ذلك لا تزال بعيدة جداً.

إن أرجعنا الحصر إلى خبرة الميلاد، فسيتعيَّن علينا أن ندفع عن أنفسنا اعتراضات تبرز للحال. فالحصر استجابة يسعنا في أغلب الظن أن نعزوها إلى جميع المتعضِّيات، وعلى كل حال إلى جميع المتعضِّيات العليا، بينما لا وجود للميلاد إلا عند الثدييات، ومن حقنا أن نشك في أن يكون لديها جميعها دلالة الرضة. هناك إذاً حصر ليس نموذجه الأول الميلاد. غير أن هذا الاعتراض يتخطى الحدود التي تفصل علم الأحياء عن علم النفس. فعلى وجه التحديد لأن الحصر مفروض به أن يؤدي وظيفة لازمة بيولوجياً كاستجابة لحالة الخطر، لذا يمكن له أن يتخلَّق بطرق مختلفة لدى مختلف الكائنات الحية. ونحن نجهل أيضاً إن كان مضمون الحصر لدى جميع الكائنات الحية البعيدة عن الإنسان مماثلاً لمضمونه من الأحاسيس والتعصيبات لدى الإنسان. هذا لا يمنع إذاً أن يتقولب الحصر لدى الإنسان بقالب عملية الميلاد.

إن تكن تلك هي بنية الحصر وإن يكن ذلك هو أصله، فإن السؤال الذي يثار: ما وظيفته؟ وفي أية مناسبات يعاد إنتاجه؟ والجواب فيما يبدو بديهي، أو هو يفرض نفسه فرضاً. فقد ظهر الحصر في الأصل كاستجابة لحالة خطر، وهو الآن يعاد إنتاجه بانتظام متى ما قامت حالة كهذه.

لكن يجدر بنا أن نبدي هنا بعض ملاحظات. فأغلب الظن أن تعصيبات حالة الحصر الأصلي كانت هي أيضاً غنية بالمعنى وموائمة تماماً لغاية بعينها، مثلها مثل الأفعال العضلية في النوبة الهستيرية الأولى. وحسبنا، إذا شئنا تفسير النوبة الهستيرية، أن نبحث عن الموقف الذي كانت الحركات المشار إليها تؤلف فيه جزءاً من عمل يبرره الموقف نفسه. وعليه، من المحتمل أن اتجاه التعصيب نحو أعضاء التنفس ساعة الميلاد كان يمهِّد السبيل أمام نشاط الرئتين، وأن تسارع



النبضات القلبية كان يهدف إلى الحؤول دون انشحان الدم بمواد سُمِّية. ولكن في إعادة الإنتاج اللاحق لحالة الحصر بوصفها انفعلاً وجدانياً، تختفي بطبيعة الحال تلك الاستجابة الموائمة على نحو ما تختفي لدى تكرار النوبة الهستيرية. وهكذا، عندما يجد الفرد نفسه عرضة لموقفٍ خطرٍ جديد، فقد يتبدى له بسهولة أنه من غير المناسب أن يردّ عليه بحالة الحصر، التي هي استجابة لخطر سابق، بدل أن تأتي استجابته مطابقة للخطر الراهن. بيد أن ذلك الردّ غير المناسب يمكن أن يعود فيصير موائماً إذا أخذت الإشارة إلى موقف الخطر، الذي يتم تعرُّفه ساعة اقترابه، شكل نوبة حصر. فمن الممكن عندئذ إجلاء الحصر عن طريق تدابير أكثر تكيُّفاً مع الموقف. يخلق بنا إذاً، دونما مزيد من الانتظار، أن نميِّز بين شكلين يمكن أن يتبدى فيهما الحصر: واحد غير مناسب للغاية المنشودة في موقفِ خطرٍ جديد، والآخر موائم لها وهدفه لفت النظر إلى مثل هذا الموقف وتفاديه.

لكن ما «الخطر»؟ إن عملية الميلاد تنطوي على خطر موضوعي بالنسبة إلى صون الحياة، ونحن نعلم ما معنى ذلك في الواقع. بيد أن ذلك لا يعني لنا شيئاً على الإطلاق من وجهة نظر سيكولوجية. فخطر الميلاد لا يكون له بعد أي مضمون نفسي. ومن المحقق أننا نملك أن نفترض أن الجنين يعرف، أياً ما كان الشكل الذي نتصور به هذه المعرفة، أن ثمة احتمالاً في أن يكون مآله إلى الموت. والجنين لا يستطيع أن يستشعر شيئاً آخر سوى اختلال على جانب من الخطورة في اقتصاد ليبيدوه النرجسي. فثمة كميات كبيرة من التنبيه والإثارة تصل إليه، حاملة معها أحاسيس كدر جديدة، والعديد من أعضائه يضطر إلى تحمل زيادة في التوظيفات، كضرب من التمهيد للتوظيف الموضوعاني الذي سيبدأ عما قريب. فما الذي سيتمّ اعتباره، في عداد هذا كله، مؤشِّراً إلى «موقف خطر»؟

إن المعلومات المتوفرة لنا عن الجبلَّة النفسية الوليدة أضأل مع الأسف من أن تسمح لنا بالإجابة عن هذا السؤال مباشرة. بل إني لا أستطيع أن أضمن صحة التوصيف الذي تقدمت به. ومن السهل القول إن الوليد سيكرر انفعال الحصر في جميع المواقف التي توقظ ذكرى خبرة الميلاد، لكن النقطة الحاسمة تبقى أن نعرف ما الذي يوقظ فيه هذه الذكرى وماذا يتذكر.



إن الشيء الوحيد الذي نستطيع التعويل عليه أن ندرس المناسبات التي يتّم فيها الوضيع أو الطفل الأكبر سناً عن اندفاع إلى تمخُّض الحصر. وقد حاول رانك[1]، بتصميم أكيد، في كتابة **رضة الميلاد** أن يثبت وجود علاقات بين أرهبة الطفل الأكثر تبكيراً وبين الانطباع الذي تكون خلَّفته فيه تجربة الميلاد. لكني لا أستطيع أن أقول إنه أصاب في ذلك فلاحاً. وفي مستطاعنا أن ننحي عليه بنوعين من المآخذ. أولهما أنه بنى تحليله على مسلمة تفترض أن الطفل تلقى، لدى ميلاده، انطباعات حسية محددة، من طبيعة بصرية بوجه خاص، من شأنها، إذا ما تكررت، أن تستحضر ذكرى رضة الميلاد، ومن ثم ردّ فعل الحصر. والحال أن هذه الفرضية لم يقم أي برهان على صحتها، وهي بحق بعيدة الاحتمال للغاية. فليس مما يُصدَّق أن الطفل يحتفظ من عملية الميلاد بأحاسيس أخرى غير الأحاسيس اللمسية والأحاسيس الكيانية الباطنية. ومن ثم، حينما يبدي الطفل فيما بعد حصراً إزاء الحيوانات الصغيرة التي تختفي في أجحار أو تخرج منها، يفسر رانك هذه الاستجابة بكون الطفل قد أدرك ضرباً من تشابه يتعذر أصلاً أن يكون استرعى انتباهه. ثانياً، عندما يدرس رانك مواقف الحصر اللاحقة، يعزو الفاعلية، بحسب ما تمليه عليه مقتضيات المسألة، إما إلى ذكرى غبطة الوجود في داخل الرحم، وإما إلى تعكيرها من جراء الرضة. وهذا معناه فتح الأبواب على مصاريعها أمام التأويل الكيفية. وبعض حالات هذا الحصر الطفلي تناوئ مباشرة تطبيق مبدأ رانك؛ فحينما يُترك الطفل في الظلام والوحدة، يُفترض بنا بموجب نظريته أن نتوقع أن يستقبل بالترحاب هذا الإحياء للموقف داخل الرحم. وحينما نرى رانك يردّ الحصر الذي

---

١ ـ أوتو رانك: طبيب ومحلل نفسي من أصل نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). متحدر من أسرة يهودية بورجوازية متوسطة من آل روزنفلد. ولكن بما أن أباه كان سكيراً مدمناً فقد بدّل كنيته إلى رانك بالإحالة إلى الطبيب الطيِّب القلب رانك في مسرحية إبسن بيت الدمية. انتمى مع كارل أبراهام وساندور فيرنزي وإرنست جونز وهانز ساكس إلى «اللجنة السرية» التي أخذت على عاتقها الدفاع عن أطروحات فرويد في مواجهة مدرسة كارل غوستاف يونغ المنشقة عن الفرويدية. ولكنه بدوره ابتعد عن فرويد بعد نشره عام ١٩٢٤ **رضة الميلاد**، واستقال من **الرابطة الدولية للتحليل النفسي**. من مؤلفاته الأخرى: **أسطورة ميلاد البطل**، **الفن والفنان**، **مساهمة في النرجسية**. «م».



يستجيب به الطفل لهذا الوضع إلى ذكرى تعكير الميلاد لتلك الغبطة، لا يعود في مستطاعنا أن نكتم عن أنفسنا مدى العسف والابتسار في محاولة التفسير هذه.

لزام عليّ أن أستخلص استنتاجاً مؤداه أن الأرهبة الطفلية المبكرة لا تأذن لنا بإرجاعها إلى الخبرة المتخلفة عن عملية الميلاد، وأن هذه الأرهبة قد استعصت حتى الآن على كل تفسير. وإنه لمن المتعذر ألا نلاحظ وجود قدر من النزوع لدى الرضيع إلى الحصر. لكن هذا النزوع لا يبلغ أقصاه بعد الميلاد مباشرة لكي يخفّ فيما بعد بتؤدة، بل على العكس من ذلك: فهو يظهر فقط في وقت لاحق مع تقدم النمو النفسي ويستمر على مدى فترة بعينها من الطفولة. فإذا استمرت هذه الأرهبة المبكرة إلى ما بعد هذه الفترة، جعلتنا نشتبه في وجود خلل عصابي، وإن لم يكن في استطاعتنا إطلاقاً النفاذ إلى طبيعة علاقتها بالأعصبة السافرة التي تظهر في طور لاحق من الطفولة.

إن تظاهرات الحصر لدى الأطفال تكون قابلة للفهم في بعض الحالات التي يتعيَّن علينا أن نتوقف عندها. ومن قبيل ذلك، مثلاً، حينما يترك الطفل بمفرده أو في الظلمة، أو حينما يجد شخصاً غريباً محلّ الشخص المألوف لديه (الأم). وبوسعنا أن نردّ هذه الحالات الثلاث إلى شرط واحد: غياب الشخص المحبوب (المرغوب فيه بحرارة). لكن هنا تتاح لنا وسيلة لفهم الحصر وللتغلب على التناقضات التي تبدو مرتبطة به.

فمن المحقق أن الصورة الذاكرية للشخص المرغوب فيه بحرارة تكون موضوعاً لتوظيف شديد، وفي بادئ الأمر بضرب من الهلوسة في أرجح الظن. ولكن بدون الوصول إلى أي نتيجة؛ وظاهر الأمر في هذه الحال أن هذه الرغبة الحارة تنقلب إلى حصر. ويساورنا هنا انطباع بأن هذا الحصر تعبير عن حيرة، كما لو أن هذا الكائن الذي لا يزال ضعيف النمو للغاية لا يعرف كيف يتصرف على خير من هذا النحو بتوظيف مثل ذلك الحنين إلى ماضٍ ضائع. يتبدى الحصر هنا إذاً على أنه رد فعل على الشعور بغياب الموضوع، ومن ثم لا نجد مناصاً من التسليم، على سبيل المماثلة، بأن مدار حصر الخصاء إنما هو بدوره عى الانفصال



عن موضوع مثمَّن تثميناً عالياً وبأن أقدم ضروب الحصر (أي حصر الميلاد الأصلي) إنما هو ذاك الذي يطرأ لدى الانفصال عن الأم.

إذا تابعنا تأملنا وجدننا منقادين إلى عدم الاكتفاء بواقعة فقدان الموضوع هذه، وإن كنا شددنا النبرة عليها. فلئن أبدى الرضيع رغبة جارفة في مشاهدة الأم، فما ذلك إلا لأنه يعرف بالتجربة أنها تشبع حاجاته كلها بلا تأخير. ومن ثم، إن الموقف الذي يعتبره «خطراً»، والذي يرغب في أن يكون مؤمَّناً ضده، هو موقف اللاإشباع، موقف **تعاظم توتر الحاجة** الذي لا حول للطفل ولا قوة في مواجهته. وأعتقد أن كل شيء ينتظم انطلاقاً من وجهة النظر هذه؛ فموقف اللاإشباع ـ الذي تبلغ فيه كميات من التنبيه مستوى يبعث على الكدر دونما سيطرة ممكنة عليها عن طريق التوظيف النفسي والتصريف ـ لا بدّ أن يكون بالنسبة إلى الرضيع نظير خبرة الميلاد، أي تكراراً لموقف الخطر؛ والقاسم المشترك بين الموقفين كليهما هو الاختلال الاقتصادي الناجم عن تعاظم الكميات التنبيهية التي تتطلب تصفية؛ هذا العامل هو إذاً نواة «الخطر» الحقيقية. ففي الحالتين كلتيهما تظهر استجابة الحصر، وهي تكون لا تزال موائمة لغاية محددة لدى الرضيع أيضاً، من حيث أن التصريف المتجه نحو عضلات التنفس والتصويت يفيد الآن في مناداة الأم، مثلما كان أفاد من قبل في إطلاق نشاط الرئتين، ومن ثم في إقصاء التنبيهات الخارجية. ولا حاجة بنا إلى الافتراض بأن الطفل احتفظ من ميلاده بشيء آخر غير ذلك التمييز للخطر.

مع اكتساب التجربة بأن موضوعاً خارجياً، قابلاً للإدراك بالحواس، قمين بأن يضع حداً للموقف الخطر الذي يستحضر موقف الميلاد، ينتقل مضمون الخطر من الموقف الاقتصادي إلى ما هو شرط محدِّد له: فقدان الموضوع. فغياب الأم هو من الآن فصاعداً الخطر الذي يطلق الرضيع في مناسبته إشارة الحصر، حتى قبل أن يقوم الموقف الاقتصادي المرهوب. وهذا التحول هو بمثابة خطوة متقدمة أولى كبيرة في تحمُّل عبء حفظ الذات، وهو ينطوي في الوقت نفسه على الانتقال من حالة الحصر، التي تعاود ظهورها في كل مرة بصورة آلية ولا إرادية، إلى إعادة إنتاج ذلك الحصر عينه قصدياً كإشارة خطر.



في المنظورين كليهما، وسواء أكان الحصر ظاهرة آلية أم إشارة إنذار، فإنه يتبدى على أنه نتاج حالة عوز نفسي يعاني منها الرضيع، مترابطة بطبيعة الحال مع عوزه البيولوجي. هذا التوافق اللافت للنظر: كون الانفصال عن الأم هو الشرط المحدِّد لحصر الميلاد ولحصر الرضيع على حدٍّ سواء، لا يستوجب تأويلاً سيكولوجياً؛ فالواقعة البيولوجية التالية تفسّره بما فيه الكفاية من البساطة: فالأم، التي أشبعت في بادئ الأمر جميع حاجات الجنين عن طريق التحولات البدئية التي تطرأ على بطن الأم الحبلى، تواصل بعد الميلاد أيضاً أداء الوظيفة عينها، وإن جزئياً بعد بوسائل أخرى. فالحياة في داخل الرحم والطفولة الأولى خارجها هما أكثر تواصلاً مما قد توحي إلينا به قطيعة الميلاد الحاسمة. فالموضوع الأموي النفسي يحلّ بالنسبة إلى الطفل محل الوضعية الجنينية البيولوجية. وليس هذا سبباً لننسى أن الأم في الحياة داخل الرحم لم تكن موضوعاً للجنين، وأنه لم يكن ثمة وجود أصلاً آنذاك لمواضيع.

إنه من السهل أن نتبيَّن أنه لا مجال، في سياق هذا التفسير، لتصريف خارج الذات ABREACTION لرضّة الميلاد، وأننا لا نستطيع أن نجد وظيفة أخرى للحصر غير وظيفة الإشارة التي تحضّ على تحاشي موقف الخطر. وأما أن يكون خسران الموضوع هو الشرط المحدِّد للحصر، فهذه واقعة من شأنها أن تمضي بنا إلى أبعد من ذلك بكثير أيضاً. ذلك أن الشكل الأول الذي يتخذه لاحقاً الحصر، أعني حصر الخصاء الذي يطرأ في الطور القضيبي، هو أيضاً حصر انفصال خاضع لنفس الشرط المحدِّد لخسران الموضوع. فالخطر هنا هو انفصال العضو التناسلي. وبمقتضى خطٍّ للتفكير ألمع إليه فيرنزي[٢] ـ ويبدو مبرراً تماماً ـ نستطيع هنا أن نتعرف بوضوح سلسلة العلاقات التي يقيمها هذا الحصر مع المضامين الأولى لموقف الخطر. ومن الممكن أن يجد التثمين النرجسي العالي للقضيب

---

٢ ـ ساندور فيرنزي: محلّل نفسي مجري (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣). كان صديقاً لفرويد وتولى تحليل ميلاني كلاين وجيزا روهايم. ندّد برياء زملائه من المحللين النفسيين وتعليلاتهم المرائية لفشلهم في معالجة مرضاهم. اختلف مع فرويد، ولُقّب بـ «الابن الرهيب» للتحليل النفسي. من مؤلفاته: **طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية والأعصبة الحربية**. والإحالة هنا إلى مقاله: **حول التحليل النفسي للعادات الجنسية** الذي نشره في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** عام ١٩٢٥. «م».



تبريره في كون امتلاك هذا العضو يضمن إمكانية اتحاد جديد مع الأم (= بديل الأم) في فعل الجماع. والوقوع ضحية استلاب لهذا العضو يعدل الشعور بانفصال جديد عن الأم، مما يعني بدوره الوقوع فريسة توتر ناجم عن حاجة موسومة بالكدر غير ملبّاة (كما عند الميلاد). غير أن الحاجة التي يُهاب هنا صعودها هي الآن حاجة متخصصة، حاجة الليبيدو التناسلي، لا أية حاجة كانت كما لدى الرضيع. وأضيف هنا أن تخييل العودة إلى بطن الأم لدى العنِّين (أي من يعاني من الكفّ من جراء التهديد بالخصاء) هو بديل عن الجماع. وبوسعنا أن نقول، بالمعنى الذي رمى إليه فيرنزي، إن الفرد الذي يبغي، كيما يتمكن من العودة إلى رحم الأم، أن يكون ممثِّله هو عضوه التناسلي، يُحِلُّ الآن نكوصياً شخصَه بتمامه محلَّ هذا العضو.

إن التقدم في نمو الطفل، وتزايد استقلاله، وتمايز جهازه النفسي بمزيد من الوضوح إلى عدة هيئات، وبزوغ حاجات جديدة، كل ذلك لا يمكن أن يبقى عديم التأثير في مضمون موقف الخطر. وقد كنا تتبعنا تحوله من فقدان الموضوع الأموي وصولاً إلى الخصاء؛ والخطوة التالية تحفز عليها قوة الأنا الأعلى. فحينما تغدو الهيئة الوالدية، التي كان الطفل يخشى من تنفيذها للتهديد بالخصاء، غير متجسدة في شخص بعينه، يصير الخطر نفسه أكثر عدمَ تعيُّنٍ. فحصر الخصاء يتحول إلى حصر أخلاقي وإلى حصر اجتماعي. ولا يعود ميسوراً الآن كما من قبل تحديد ما يخشاه الحصر. وصيغة: «الانفصال، الخلع من العشيرة» لا تمسّ إلا ذلك الجزء من الأنا الأعلى الذي ظهر متأخراً والذي تطور بالاستناد إلى نماذج اجتماعية، ولا تمسّ نواة الأنا الأعلى المكافئة للهيئة الوالدية المستبطَنة. وإذا شئنا المزيد من العمومية في البيان قلنا إن غضب الأنا الأعلى وعقابه وخسران حبه هي ما يعطيه الأنا قيمة الخطر وهي التي يستجيب لها بإشارة الحصر. والشكل الأقصى الذي يتخذه هذا الحصر إزاء الأنا الأعلى هو، على ما تراءى لي، حصر الموت (الخوف من الحياة)، الحصر إزاء الأنا الأعلى المسقط على قوى القدر.

لقد اتفق لي سابقاً أن عزوت قيمة ما إلى التصور القائل بأن التوظيف المسحوب عند الكبت هو الذي يُستخدم كتصريف للحصر. ويبدو لي اليوم أن



ذلك يكاد يكون عديم الفائدة. وهذا الفارق في التقدير ينبع من أنني كنت أعتقد سابقاً أن الحصر يظهر في كل حالة آلياً عن طريق سيرورة اقتصادية، على حين أن تصوري الراهن، الذي يجعل من الحصر إشارة يصدرها الأنا قصدياً بهدف التأثير على آلية اللذة /الكدر، يحررنا من هذا الهاجس الاقتصادي. وبديهي أنه ليس ثمة ما نصححه في الفرضية القائلة إن الطاقة المحرَّرة عند الكبت، نتيجة لسحب التوظيف، هي التي تستخدم من قبل الأنا لإطلاق الانفعال الوجداني، ولكن لم يعد ثمة أهمية لمعرفة ما أصل هذه الطاقة.

إن أطروحة أخرى، سبق لي القول بها، تقتضي الآن أن تُمتحن على ضوء تصورنا الجديد. ذلك هو توكيدنا بأن الأنا هو المقرّ الفعلي للحصر؛ واعتقادي أنها أطروحة سديدة. وبالفعل، ليس ثمة من داعٍ على الإطلاق لنعزو إلى الأنا الأعلى إفصاحاً عن حصر مَا. ومن جهة أخرى، وحينما يدور كلام عن «حصر الهذا» فلا مجال لإثارة اعتراض، وإنما فقط لتصحيح تعبير أخرق، إذ بالنظر إلى أن الحصر حالة وجدانية انفعالية فلا سبيل، بطبيعة الحال، إلى أن يساور سوى الأنا. ولا يمكن للهذا أن ينتابه، أسوة بالأنا، حصر، إذ ما هو بتنظيم ولا يمكن أن يكون له حكم في مواقف الخطر. وبالمقابل يتفق، بتواتر كبير، أن تتهيأ أو أن تتحقق في الهذا سيرورات تتسبَّب في تمخُّض للحصر في الأنا؛ والحق أن الكبوتات الأبكر عهداً، وكذلك معظم الكبوتات اللاحقة، يكون الحافزَ إليها حصرٌ مماثل ينتاب الأنا إزاء هذه أو تلك من السيرورات الفاعلة في الهذا. ومن الواجب أن نميِّز هنا، من جديد، بين الحالتين التاليتين: الحالة التي يحدث فيها شيء ما في الهذا الذي ينشِّط بالنسبة إلى الأنا موقفاً من مواقف الخطر ويدعوه بحكم ذلك إلى إطلاق إشارة الحصر برسم الكفّ، والحالة التي يقوم فيها في الهذا موقف مماثل لرضة الميلاد فتحدث استجابة الحصر آلياً. وبوسعنا التقريب ما بين هاتين الحالتين إذا ما أشرنا إلى أن الحالة الثانية تناظر موقف الخطر الأول، الأصلي، بينما تناظر الحالة الأولى شرطاً من شروط الحصر المتفرع لاحقاً عن موقف الخطر الأولي. وبعبارة أخرى، إذا طبّقنا هذا التمايز على الإصابات التي نلاحظها فعلياً، فإن الحالة الثانية تتحقق



في إتيولوجيا الأعصبة الراهنة[٣]. بينما تبقى الحالة الأولى سمة مميِّزة لإتيولوجيا الأعصبة النفسية.

على هذا، ليس من الضروري كما نرى، أن ننكر كل قيمة على مكتشفاتنا السابقة، وإنما ينبغي فقط دمجها بتصوراتنا الأحدث عهداً. فمما لا يقبل جدلاً أنه في حال القطاعة والحرمان، وفي حال الاختلال الذي يطرأ على مجرى التنبيه الجنسي من جراء سوء الاستعمال، وأخيراً في حال حيدان هذا التنبيه الجنسي عن مساره النفسي، يتولد مباشرة حصر من الليبيدو، أي تقوم حالة عوَز للأنا مطابقة تماماً لتلك التي قامت في مواجهة توتر احتياجي فائق الشدة ساعة الميلاد، وهي حالة تفضي على المنوال نفسه إلى تمخُّض للحصر. ومن المحتمل جداً، هنا أيضاً، أن فائض الليبيدو غير المستعمل هو على وجه الدقة ما يتم تفريغه من خلال تمخُّض الحصر، ولكن ليس لذلك أهمية تذكر. وإننا لنلاحظ أن أعصبة نفسية تتولد بسهولة فائقة على أرضية تلك الأعصبة الراهنة، مما يدل في أغلب التقدير أن الأنا، بعد أن تعلَّم كيف يعلِّق الحصر لحين من الزمن، يحاول أن يوفِّره على نفسه وأن يقيِّده من خلال تشكيل أعراض. ومن المحتمل أن تحليل أعصبة الحرب الرضِّية، وهذا مصطلح يشمل بالأصل إصابات مرَضية بالغة التنوع، كان من شأنه أن يُظهِر لنا أن عدداً من هذه الأعصبة تجمعه والأعصبة الراهنة سمات مشتركة.

لم يكن لدينا مجال، ونحن نعيد رسم تشكل مواقف الخطر المختلفة بدءاً من النموذج الأصلي المتمثل بالميلاد، للتوكيد بأن كل شرط محدِّد للحصر لاحقاً يجرِّد الشرط السابق تجريداً تاماً من كل فعالية. صحيح أن تقدم نمو الأنا يسهم في خفض قيمة موقف الخطر السابق وفي إقصائه، بحيث يسعنا القول إن كل مرحلة محدَّدة من مراحل النمو يقابلها، على نحو مطابق بنوع ما، شرط بعينه من الشروط المحدِّدة للحصر. فخطر العوز النفسي يناظر طور عدم نضج الأنا، كما أن خطر خسران الموضوع يناظر تبعية السنوات الأولى من الطفولة، وخطر الخصاء

٣ ـ العصاب الراهن في المعجم الفرويدي هو العصاب الذي يعود في أصله إلى موقف حاضر وليس إلى صراع من صراعات الطفولة. «م».



يناظر الطور القضيبي، والحصر إزاء الأنا الأعلى يناظر مرحلة الكمون. بيد أن جميع مواقف الخطر هذه وجميع هذه الشروط المحدِّدة للحصر يمكن أن تستمر جنباً إلى جنب وأن تحضّ الأنا على الاستجابة بالحصر حتى في عهود تالية للعهود المطابقة الأولى، أو يمكن لعدد منها مجتمعة أن تفعل فعلها في آن واحد. ومن المحتمل، فضلاً عن ذلك، أن تكون ثمة صلات وثيقة بما فيه الكفاية بين موقف الخطر الفعال وبين شكل العصاب الذي ينجم عنه(٤).

عندما تعيَّن علينا، في قسم سابق من مباحثنا هذه، أن نعترف بأهمية خطر الخصاء في أكثر من مرض عصابي واحد، قلنا في أنفسنا إنه لزام علينا مع ذلك أن نتحاشى التهويل من شأن هذا العامل، على اعتبار أنه من المستحيل أن يكون حاسم الأثر في حالة الجنس المؤنث الذي هو مع ذلك ـ هذا مؤكد ـ أكثر

---

٤ ـ منذ أن ميَّزنا بين الأنا والهذا بات محتَّماً أن تتلبس مشكلات الكبت أهمية جديدة في أنظارنا. فقد كان حسبنا إلى ذلك الحين أن نأخذ في اعتبارنا مظاهر السيرورة ذات الصلة بالأنا، نعني البقاء خارج مجال الشعور والطاقة الحركية، وتكوين بدائل (أعراض). أما الحاثة الغريزية المكبوتة ذاتها فكنا نسلّم ببقائها بلا تغيير في اللاشعور لأجل غير محدد من الزمن. لكن اهتمامنا يتجه الآن نحو مصائر المكبوت، وإننا لنرهص بأنه ليس من بديهيات الأمور، ولا حتى من المعتاد، أن يبقى المكبوت على هذا النحو بلا تغيير وغير قابل للتغيير. ومهما يكن من أمر، فإن الحاثة الغريزية الأصلية تكون قد كُفَّت من قبل الكبت وحُوِّلت عن هدفها. لكن هل بقيت بذرتها الأولى في اللاشعور وهل أبدت عن قدرة على المقاومة في مواجهة تأثيرات الحياة التي من شأنها أن تغيِّرها وتبدِّل طبيعتها؟

بعبارة أخرى، هل يستمر وجود الرغبات القديمة التي أفادنا التحليل بأنها وُجدت من قبل؟ إن الجواب يبدو جاهزاً وأكيداً: فمن المحتم أن تكون الرغبات القديمة المكبوتة باقية في اللاشعور ما دمنا نجد فسائلها، الأعراض، لا تزال فاعلة ناشطة. لكن مثل هذا الجواب غير كافٍ، لأنه لا يتيح لنا أن نفصل في الاحتمالين التاليين: هل إن الرغبة القديمة لا تفعل فعلها من الآن فصاعداً إلا عن طريق فسائلها بعد أن تكون حوّلت إليها طاقتها كلها؟ أم أنها أبقت على نفسها بنفسها على قيد الوجود خارج نطاق هذا كله؟ فإن يكن قدرها أن تستنفد قواها في توظيف فسائلها، يبقى ثمة احتمال ثالث: وهو أن تُردَّ إلى الحياة عن طريق النكوص في مجرى العصاب، مهما أمكن لها أن تكون بعيدة الصلة بالزمن الحاضر. ولا يجوز لنا أن نعدّ هذه التأملات بحكم الفارغة، لأن ظاهرات الحياة النفسية، المرَضية والسوية، تتطلب فيما يبدو، بصدد العديد من النقاط، طرح مثل هذه الأسئلة. وفي مقالي عن **أفول عقدة أوديب**(*)، كان قد استرعى انتباهي الفارق بين الكبت المحض وبين الحذف الفعلي لحاثة رغبية قديمة.

(*) انظر ترجمتنا لهذا المقال في **الحياة الجنسية** في **المؤلفات شبه الكاملة**، ج ٤.



استعداداً للإصابة بالعصاب. وها نحنذا نتبيَّن الآن أننا لا نجازف بأن نجعل من حصر الخصاء المحرِّك الأوحد للسيرورات الدفاعية التي تتأدى إلى العصاب. وقد شرحت في غير هذا الموضع كيف أن البنت الصغيرة، في مجرى نموها، تتأدى بها عقدة الخصاء إلى التوظيف الحبّي الحاني للموضوع. والحال أنه في حالة المرأة على وجه التحديد يبدو أن موقف الخطر، الذي يبقى هو الأكثر فعالية، هو موقف خسران الموضوع. وفي مقدورنا أن نُدخل على هذا الشرط المحدِّد للحصر في حالتها التعديل الطفيف التالي: وهو أنه لا يعود المقصود غياب الموضوع أو خسرانه الفعلي، بل على العكس خسران الحب من جانب الموضوع. وبما أنه بحكم المؤكد وجود صلة وثيقة بين الهستيريا والأنوثة، كما بين العصاب الوسواسي والذكورة، لا يبعد أن نفترض أن خسران الحب يلعب في الهستيريا، كشرط محدِّد للحصر، الدور عينه الذي يلعبه تهديد الخصاء في الأرهبة، والحصر إزاء الأنا الأعلى في العصاب الوسواسي.



(٩)

يبقى علينا الآن أن نعالج العلاقات بين تشكيل العرَض وتمخُّض الحصر.

ثمة رأيان بصدد هذه النقطة يبدو أنهما رائجان على سعة. واحدهما يقول إن الحصر هو نفسه عرَض للعصاب، وثانيهما يرى أن ثمة صلة أوثق بكثير بين الحصر والعصاب. وبموجب هذه الفرضية الثانية، لا يشرع العرَض بالتشكل في كل حالة من الحالات إلا للإفلات من الحصر، على اعتبار أن الأعراض تقيِّد الطاقة النفسية التي كانت ستجد لولا ذلك طريقها إلى التصريف في صورة حصر، مما يعني أن الحصر هو الظاهرة الأساسية والمشكلة الرئيسية في العصاب.

إن أمثلة بيِّنة تثبت أن هذا الفرض الثاني يرتكز جزئياً على الأقل إلى أساس. فلو تركنا المصاب برهاب الأماكن المكشوفة بمفرده في الطريق بعد أن صحبناه إليه، لانتابته نوبة حصر، ولو عملنا على الحؤول بين مريض بالعصاب الوسواسي وبين غسل يديه بعد أن يكون لمس شيئاً من الأشياء لوقع فريسة حصر يكاد لا يطاق. من الواضح إذاً أن شرط المصاحبة وفعل الاغتسال القهري كانت غايتهما، وكذلك نتيجتهما، اتقاء تظاهرات الحصر تلك. وبهذا المعنى، يمكن أن نطلق على كل كفٍّ يفرضه الإنسان على نفسه اسم العرَض.

ما دمنا أرجعنا تمخُّض الحصر إلى موقف الخطر، نرانا نؤثِر القول إن الأعراض تُخلق لتجنيب الأنا موقف الخطر. فلو مُنع العرَض من التشكل لطرأ الخطر فعلاً، أي لقام موقف مشابه لموقف الميلاد، يجد فيه الأنا نفسه في حالة عوز في مواجهة المطلب الغريزي المتنامي باستمرار، وذلك هو الشرط الأول والأكثر أصالة من الشروط المحدِّدة للحصر. وبحسب تصورنا، يتضح أن العلاقات بين الحصر والعرَض أقل وثوقاً مما كنا افترضنا، بعد أن أدرجنا في المعادلة عامل موقف الخطر. وبوسعنا القول أيضاً، استكمالاً لذلك، إن تمخُّض الحصر يحثّ على تشكيل



العرَض، بل إنه يفترضه بالضرورة سلفاً، لأن الأنا لو لم يحرِّك، عن طريق تمخُّض الحصر، آلية اللذة/ الكدر، لما أوتي القوة على إيقاف السيرورة الخطرة والمتوعِّدة التي تهيأت في الهذا. ومن المستحيل هنا أن نتجاهل الميل إلى الاقتصار على حدٍّ أدنى من تمخُّض الحصر، وإلى استعمال الحصر باعتباره مجرد إشارة: فلولا هذا التقييد لآل الأمر بالشخص المعني إلى أن يستشعر في موضع آخر الكدر الذي يتهدده عن طريق السيرورة الغريزية، وهذا لا يعدل نجاحاً من وجهة نظر مبدأ اللذة، وإن يكن من المتواتر أن يحدث ذلك في الأعصبة.

إن نتيجة تشكيل العرَض هي إذاً النجاح الفعلي في إلغاء موقف الخطر. ولتشكيل العرَض وجهان: وجه يبقى خفياً بالنسبة إلينا وهو الذي يتسبب في حدوث تغيير في الهذا يتملص الأنا بفضله من الخطر، ووجه ثانٍ ملتفت نحونا وكاشف لنا عما خلقه بدلاً من السيرورة الغريزية المسيطر عليها، أي التشكيل البديل.

وتوخياً لمزيد من الدقة في التعبير، يتعيَّن علينا أن نطبِّق على السيرورة الدفاعية ما قلناه عن تشكيل العرَض، وأن نستخدم اصطلاح تشكيل العرَض نفسه باعتباره مرادفاً لتشكيل بدائل. ويتجلى عندئذ بوضوح أن السيرورة الدفاعية مماثلة لفعل الهرب الذي يتملص الأنا عن طريقه من خطر يتهدده من الخارج؛ فهذه السيرورة تمثِّل على وجه الدقة محاولة هرب إزاء خطر غريزي. والتحفظات التي قد تقابل بها هذه المقارنة ستساعدنا على التقدم على طريق جلاء المشكلة. فمن الممكن، أولاً، الاعتراض بأن خسران الموضوع (خسران الحب من جانب الموضوع) والتهديد بالخصاء هما خطران يتهددان من الخارج، مثلهما مثل حيوان كاسر مثلاً، وأنهما ليسا بالتالي خطرين غريزيين. بيد أن الحالة ليست مع ذلك واحدة. فمن المرجح أن الذئب سيهاجمنا أياً ما تكن الطريقة التي سنتصرف بها إزاءه، على حين أن الشخص المحبوب ما كان ليسحب منا حبه، وما كنا لنرانا عرضة لتهديد بالخصاء لولا أننا نرعى في دخيلة أنفسنا بعض العواطف وبعض المقاصد. هكذا تغدو هذه الحاثات الغريزية شروطاً محدِّدة للخطر الخارجي وتصير هي نفسها من جراء ذلك خطرة؛ وبوسعنا الآن أن نكافح الخطر الخارجي



بتدابير وإجراءات نتخذها ضد أخطار داخلية. وفي حالة رهاب الحيوانات يبدو أن الخطر يُستشعر بتمامه على أنه خطر خارجي، بل تتمّ إزاحته في العرَض نحو الخارج. أما في حالة العصاب الوسواسي فهو أكثر استبطاناً، إذ إن ذلك الشطر من الحصر إزاء الأنا الأعلى الذي هو الحصر الاجتماعي يمثّل أيضاً البديل الداخلي لخطر خارجي، على حين أن الشطر الآخر الباقي كله، أي الحصر الأخلاقي، يبقى نفسياً باطنياً. هنا يواجهنا اعتراض ثانٍ مؤداه أننا، في محاولتنا الهرب إزاء خطر يتهددنا من الخارج، لا نفعل شيئاً آخر سوى أننا نزيد المسافة المكانية الفاصلة بيننا وبين ما يأتينا التهديد منه. فنحن لا نتخذ وضعية الدفاع ضد الخطر، ولا نسعى إلى إحداث أي تبديل فيه، وذلك بخلاف مسلك من يخرج لملاقاة الذئب وبيده هراوة أو لإطلاق النار عليه من بندقية. غير أن السيرورة الدفاعية تنطوي فيما يبدو على أكثر من مجرد محاولة للهرب. وبالفعل، إنها تتدخل في المسار الغريزي المهدِّد، وتلجمه، بقدر ما تستطيع، وتحوِّله عن هدفه، وتجرِّده على هذا النحو من قدرته على الأذى. ويبدو هذا الاعتراض غير قابل للدحض، ولا مناص لنا من أن نأخذه في اعتبارنا. وفي تقديرنا أنه من المحتمل جداً أن تكون هناك سيرورات دفاعية قابلة بحقٍّ للتشبيه بمحاولة هرب، بينما يتخذ الأنا في سيرورات أخرى، بمزيد من الفاعلية، وضعية الدفاع ويباشر بالردّ بأفعال أكثر اتصافاً بالقوة والحزم. هذا إن لم يكن تشبيه الدفاع بالهرب مطعوناً به سلفاً بحكم من أن الأنا والدافع الغريزي في الهذا هما فعلاً وحقاً جزءان من تنظيم واحد، لا كيانان منفصلان، نظير الذئب والطفل، بحيث لا يكون ثمة مناص من أن يؤثِّر أي سلوك يصدر عن الأنا تأثيراً تعديلياً في السيرورة الغريزية.

لقد أرغمتنا دراسة الشروط المحددة للحصر على أن نعلي من شأن عقلانية سلوك الأنا في الدفاع، أن نجمّلها إن جاز القول. فكل موقف من مواقف الخطر يناظر مرحلة محدَّدة من الحياة أو طوراً من أطوار نمو الجهاز النفسي، ويبدو مبرراً بالقياس إليهما. وبالفعل، إن الكائن الصغير الذي لا يزال يرتع في مرابع الطفولة ليس مجهَّزاً للسيطرة نفسياً على كميات الإثارة الكبيرة التي تأتيه من الخارج أو من الداخل. فما هو حيوي الأهمية في فترة بعينها من الحياة هو حقاً وفعلاً ألا



يسحب الأشخاص الذين بهم يناط مصير الطفل رعايتهم الحبية الحانية. وفي وقت لاحق، وعندما يشعر الصبي الصغير بكلية قدرة الأب كغريم له لدى الأم، وحينما يفطن إلى ما يعتمل في نفسه من نزعات عدوانية ضده، ومن ميول جنسية نحو الأم، يكون من حقه أن ينتابه خوف من أبيه، ومن الممكن لحصره من أن يعاقب من قبله، وهو الحصر المعزَّز بالعامل السلالي، أن يفصح عن نفسه في صورة حصر خصاء. ومع الدخول في علاقات اجتماعية، يغدو الحصر إزاء الأنا الأعلى، أي الحسّ الأخلاقي، ضرورياً، ويكون غياب هذا العامل مصدراً لمنازعات وأخطار جسيمة، إلخ. لكن هنا بالضبط تنضاف مشكلة جديدة.

لنحاول لهنيهة من الزمن أن نستعيض عن الشعور بالحصر بشعور آخر، وليكن هو الشعور بالألم مثلاً. فنحن نعتبر أنه من الطبيعي تماماً أن تتألم البنت الصغيرة وتبكي إذا انكسرت، وهي في الرابعة من العمر، دمية من دماها، وإذا قرّعتها، وهي في السادسة، معلمتها، وإذا لم يلقِ إليها بالاً، وهي في السادسة عشرة، ذاك الذي تحبّه، وإذا ما دفنت، ربما في الخامسة والعشرين، طفلاً لها. وكل شرط من هذه الشروط المحدِّدة لظهور الألم يناظر مرحلة معينة من الحياة، وينقضي بانقضاء الزمن، وإن يكن الشرطان الأخيران نهائيين وقد يدومان ما دامت الحياة. لكن سيأخذنا العجب إذا ما بكت هذه البنت الصغيرة، وقد غدت امرأة وأماً، على دمية محطمة[1]. على هذا النحو مع ذلك يتصرف المعصوبون. فمنذ زمن بعيد تكون قد تكونت في جهازهم النفسي جميع الهيئات التي تتيح لهم السيطرة على الحاثات وضروب المنبهات على نطاق واسع، وهم راشدون بما فيه الكفاية ليشبعوا بأنفسهم معظم حاجاتهم، وهم يعلمون منذ زمن بعيد أن القصاص بالخصاء لم يعد ساري المفعول، ومع ذلك يسلكون كما لو كانت مواقف الخطر القديمة لا تزال مستمرة في الوجود، ويتشبثون بجميع الشروط التي كانت تولِّد الحصر فيما سبق.

إن تفسير هذه الوضعية سيقتضي شرحاً طويلاً. وسيكون لزاماً علينا قبل كل

١ـ انظر تحليلنا من منظور مماثل لرواية **الجامحة** لأمينة السعيد ولعلاقة بطلتها بدميتها في **عقدة أوديب في الرواية العربية في الأعمال النقدية الكاملة**، ج ٢، دار مدارك، ٢٠١٣. «م».



شيء أن نغربل الوقائع ونمحِّصها. ففي عدد كبير من الحالات يتمّ التخلي فعلياً عن الشروط القديمة المولِّدة للحصر بعد أن تكون ولَّدت استجابات عصابية. فأرهبة الوحدة والظلام والأشخاص الغرباء، التي نلتقيها لدى جميع الأطفال الصغار والتي تكاد تستأهل نعتها بأنها سوِّية، تزول بوجه عام في السنوات القليلة التالية، و«تنقضي مع العمر» كما يقال عن العديد من اضطرابات الطفولة الأخرى. وتعرف أرهبة الحيوانات، الكثيرة التواتر، مصيراً مماثلاً، ولا يتبقى أثر في وقت لاحق للعديد من حالات الهستيريا الاستبدالية الطفلية. ويغلب كثيراً أن نلاحظ طقوساً في غضون مرحلة الكمون، وإن تكن نسبة مئوية ضئيلة للغاية من هذه الحالات تتمخَّض لاحقاً عن عصاب وسواسي حقيقي. والأعصبة الطفلية هي بالإجمال ـ وهذا على أي حال ضمن حدود خبرتنا التي تنحصر بأطفال من المدن، من عرق أبيض، خاضعين لمتطلبات حضارية من مستوى مرتفع ـ أطوار نظامية في النمو، وإن لم تُعر إلا أقل مما ينبغي من الانتباه. ولن يفوتنا أن نجد لدى كل راشد معصوب علائم العصاب الطفلي، ولكن يندر جداً بالمقابل أن يسقط جميع الأطفال الذين نجد لديهم هذه العلائم ضحية العصاب لاحقاً. لا مناص لنا إذاً من الافتراض أن بعض الشروط المحدِّدة للحصر يتمّ التخلي عنها في أثناء النضوج، وأن بعض مواقف الخطر تفقد دلالتها. ناهيك عن ذلك، إن بعض مواقف الخطر هذه تفلح في البقاء قيد الوجود لاحقاً من جراء نجاحها في تعديل حمولتها من الحصر بدالّة الزمن الراهن وسنّ المريض. هكذا يبقى حصر الخصاء، مثلاً، قائماً تحت قناع رهاب الزهري، متى ما علم الشخص المعني أن الخصاء لم يعد مرعيَّ الإجراء كعقاب على الفجور الجنسي وأنه أُستبدل بأمراض خطيرة كعقوبات تهدد الإشباع الحر للدوافع الغريزية. ومن جملة الشروط المحدِّدة للحصر شروط أخرى غير مقيَّض لها إطلاقاً أن تأفل وتزول، بل ستصاحب الكائن البشري مدى حياته، ومنها مثلاً الحصر أمام الأنا الأعلى. ويتميَّز العصابي هنا عن السوي بكون استجاباته لهذه الأخطار مغالى فيها. وأخيراً، إن شرط الراشد لا يوفِّر له هو الآخر حماية كافية ضد عودة أول موقف رضّي مولِّد للحصر. ولنا أن نفترض أنه يوجد بالنسبة إلى كل إنسان حدٌّ يخفق جهازه



النفسي، في حال تخطِّيه، في السيطرة على كميات التنبيه التي تتطلب أن تُصفَّى.

هذه التصحيحات الطفيفة ليس من شأنها بحال من الأحوال أن تتنطع لزعزعة الواقعة التي هي موضوع دراستنا هنا، ونعني بها كون عدد غفير من الأشخاص يبقون طفليين في سلوكهم إزاء الخطر ولا يتغلبون على الشروط المولِّدة للحصر رغم أنها تكون قد باتت بحكم البالية. والمماراة في ذلك تعني بالفعل نفي واقعة العصاب، إذ إن هؤلاء الأشخاص هم بالتحديد الذين يُسمّون بالعصابيين. ولكن كيف أن ذلك ممكن؟ ولماذا ليست الأعصبة كلها فصولاً من النمو تُختتم متى ما تمّ بلوغ المرحلة التالية؟ ومن أين يتأتى عامل الديمومة هذا في الاستجابات المتماثلة للخطر؟ وما مصدر ذلك الامتياز الذي يتمتع به فيما يبدو الانفعال الوجداني المرتبط بالحصر على الانفعالات الأخرى كافة، فيكون هو الانفعال الوجداني الوحيد الذي يحفز على استجابات تتميّز عن سواها من الاستجابات بأنها غير سوية وتقف، بطابعها غير الموائم، عقبة أمام مسار الحياة؟ وبعبارة أخرى، إننا نجد أنفسنا من جديد، وبصورة غير متوقعة، أمام اللغز الذي غالباً ما طرح نفسه علينا: من أين يأتي العصاب؟ وما علته الأخيرة، النوعية؟ إن هذه المعضلة، بعد عشرات السنين من الجهود، تنتصب قبالتنا، نحن المحللين النفسيين، بتمام ما كانت عليه من حجم في البداية.



(١٠)

الحصر استجابة للخطر. ولسنا نملك أن نمنع أنفسنا من الاعتقاد بأن الشعور بالحصر ما كان له، لولا الارتباط بماهية الخطر، أن يكتسب لنفسه بالقسر والإكراه موقعاً استثنائياً في التنظيم النفسي. بيد أن الأخطار مشتركة بين بني الإنسان قاطبة، وهي واحدة بالنسبة إلى الأفراد طراً، وما نحن بحاجة إليه، وما ليس في متناولنا، هو عامل يتيح لنا أن نفهم لماذا يقتدر بعض هؤلاء الأفراد على إخضاع الشعور بالحصر، رغماً عن خصوصيته، للاشتغال النفسي السوي، بينما سيخفق أفراد غيرهم في هذه المهمة حتماً. وبالفعل، يذهب بي الفكر هنا إلى محاولتين بذلتا لكشف عامل من هذا القبيل، وغني عن البيان أن كل محاولة في هذا الاتجاه يمكن لها أن تتوقع استقبالاً ودياً، لما لنا فيها من وعد بانتشالنا من مأزق صعب. والمحاولتان المشار إليهما تتمم واحدتهما الأخرى، وذلك بقدر ما تتطرقان إلى المشكلة من قطبين متعارضين. وقد قام بالمحاولة الأولى، قبل عشرة أعوام ونيف، ألفريد آدلر[1]؛ وجوهر الأطروحة التي تقدَّم بها أن الأشخاص الذين يخفقون في السيطرة على المهمة التي يفرضها عليهم الخطر هم أولئك الذين لديهم استعداد مسبق للمعاناة من مشكلات خطيرة بحكم دونية أعضائهم. ولكن لو كانت الأمور بمثل هذه البساطة حقاً[2]، لكان حرياً بنا أن

١ ـ ألفريد آدلر: طبيب ومعالج نفسي نمساوي (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧). التقى فرويد عام ١٩٠٢ وانتمى إلى حركة التحليل النفسي، ثم كانت القطيعة بينهما عام ١٩١١ بعد أن بات يرى أن الفرد ليس محكوماً بدوافعه الغريزية، بل هو ذو طبيعة حرة وقادر على تحمُّل المهام التي تطرحها الحضارة عليه. وعلى هذا النحو أسس مدرسة علم النفس الفردي، وأكد على دور عقدة النقص والدونية العضوانية في تخطي الفرد لطاقاته وحدوده وصيرورته إنساناً أعلى. من مؤلفاته: **معرفة الإنسان، معنى الحياة، مثل أعلى برسم الحياة.** «م».

٢ ـ باللاتينية في النص: SIMPLEX SIGILLUM VERI حرفياً: البساطة سمة الحقيقة «م».



نشيد بمثل هذا الحل باعتباره خاتمة لهمومنا. لكن، على العكس من ذلك تماماً، أثبتت عشر سنوات من الانتقادات، على نحو مفحم، الطابع القاصر وغير الكافي على الإطلاق لتفسيرٍ يضرب عرض الحائط، علاوة على ذلك، بكل غنى الوقائع التي كشف عنها التحليل النفسي.

المحاولة الثانية جاءت من أوتو رانك عام ١٩٢٣ في كتابه **رضة الميلاد**. ومن الإجحاف أن نماثل بينها وبين محاولة آدلر بصدد أية نقطة أخرى غير النقطة التي نحن بصددها، لأنها تبقى ضمن نطاق التحليل النفسي وتتقيد بخطوطه التفكيرية، ومن الواجب أن نرى فيها مجهوداً مشروعاً لحلّ المعضلات التحليلية. ويشيح رانك باهتمامه ، في معرض تأمله في العلاقة بين الفرد والخطر، عن الضعف العضوي للفرد ليركّزه على الشدة المتباينة للخطر. فسيرورة الميلاد هي موقف الخطر الأول، والانقلاب الاقتصادي الذي تحدثه يصبح النموذج الأول لاستجابة الحصر؛ وقد كنا تتبعنا فيما تقدم خط التطور الذي يربط موقف الخطر الأول هذا والشرط الأول المحدد للحصر هذا بجميع المواقف والشروط التي تستجد لاحقاً، ورأينا بهذه المناسبة أنها جميعها تحتفظ بعنصر مشترك، وذلك بقدر ما أنها جميعها تعني، بمعنى ما، انفصالاً عن الأم، انفصالاً قبل كل شيء من ناحية بيولوجية خالصة، وبعد ذلك بمعنى الخسران المباشر للموضوع، ولاحقاً بمعنى خسران الموضوع بطرائق غير مباشرة. واكتشاف هذا الترابط المهمّ هو بلا جدال مزيةُ نظريةِ رانك. هذا، مع العلم بأن رضة الميلاد تصيب كل فرد بشدة مختلفة، وشدة استجابة الحصر تتفاوت بتفاوت قوة الرضة. وفي تقدير رانك أن الشدة الأُولية لتمخُّض الحصر هي التي تحدد ما إذا كان الفرد سيتوصل يوماً إلى السيطرة على الحصر، وما إذا كان سيغدو عصابياً أو سوياً.

ليس في نيتنا هنا أن نتناول بالنقد المفصَّل الفروض التي شادها رانك، بل فقط أن ندقق فيما إذا كانت قابلة للاستعمال في حلّ مشكلتنا. فصيغة رانك القائلة إن من يغدو عصابياً هو ذاك الذي لا يتوصل أبداً إلى تصريف رضة الميلاد تصريفاً كاملاً بالنظر إلى قوتها قابلة للنقاش تماماً من الناحية النظرية. فنحن لا ندري، أو نكاد، ما المقصود بتصريف الرضة. فإذا فهمنا هذا التعبير بحرفيته،



تأدى بنا إلى استنتاج متهافت مؤداه أن العصابي يقترب من الشفاء أكثر كلما أعاد إنتاج الشعور بالحصر بتواتر أكثر وبشدة أقوى. ولأن هذا الاستنتاج كان يتناقض والوقائع عدلتُ، في حينه، عن نظرية التصريف التي كانت تلعب دوراً بالغ الأهمية في التطهير[٣]. ومن يشدد مطلق التشديد على القوة المتغيِّرة لرضة الميلاد، لا يترك أي مكان للدور الإتيولوجي الذي يمكن للجبلّة الوراثية أن تطالب به بحقٍّ. فهذه الرضة هي بمثابة عامل عضوي يقيم مع الجبلَّة علاقة احتمالية ويكون هو نفسه منوطاً بتأثيرات عديدة يخلق بنا أن نصفها بأنها بدورها احتمالية، ومن قبيل ذلك، مثلاً، المساعفة في الوقت المناسب ساعة الميلاد. وقد ضربت نظرية رانك صفحاً تاماً عن العوامل الجِبِلّية والسلالية على حدّ سواء. لكن لو شئنا أن ننزل الجِبِلّة منزلتها الصحيحة من الأهمية، فندخل ـ مثلاً ـ تعديلاً مؤداه أن العامل المحدِّد هو في الواقع مدى قوة الاستجابة الفردية للشدة المتغيِّرة لرضة الميلاد، نكون قد جرّدنا النظرية من دلالتها بتحديدنا دوراً ثانوياً للعامل الجديد الذي أدخلته هذه النظرية. لكن المعيار الذي يقرر هل سيكون المآل عصابياً أو لن يكون ينتمي في هذه الحال إلى مضمار آخر، هو بدوره مجهول.

إن مشاركة الإنسان للثدييات الأخرى في سيرورة الميلاد، وامتيازه على الحيوانات في الوقت نفسه بوجود استعداد خاص للعصاب لديه، إن هذه الواقعة لا تنطق بتأييد نظرية رانك. غير أن الاعتراض الرئيسي بعد هو أن هذه النظرية تحلِّق في الأجواء بدل أن تستند إلى ملاحظة متينة. ولا تتوفر لنا أي دراسة جيدة تبرهن على وجود علاقة لا مماراة فيها بين ميلاد عسير وطويل الأمد وبين تمخُّض عصاب، ولا حتى دراسة تبيِّن أن الأطفال الذين وُلدوا في شروط كهذه تظهر لديهم علائم القلق الطفلي المبكر لمدة أطول من الزمن وبقوة أكبر مما لدى غيرهم من الأطفال. فإن احتج بعضهم بأن ولادة سريعة وسهلة بالنسبة إلى الأم قد تعني مع ذلك بالنسبة إلى الطفل رضة خطيرة، كان لنا أن نستمر في المطالبة بأن يكون في مستطاعنا أن نتعرَّف بيقين، في حالة الولادات التي تؤدي إلى احتباس

٣ ـ الكاثارسيس: مصطلح يوناني ابتدعه أرسطو في **فن الشعر** وقصد به التطهر من الأهواء عن طريق التمثيل الدرامي «م».



التنفس، العواقب التي يتحتم نظرياً أن تترتب على ذلك. ويبدو أن من مزايا الإتيولوجيا التي يتمسك بها رانك أنها تبوِّئ مكانة الصدارة عاملاً قابلاً للتحقق منه من خلال معطيات خبرتنا. وما دامت دراسة كهذه لم تتم، فمن المستحيل أن نبتّ في قيمة هذه الإتيولوجيا.

بالمقابل لا يسعني أن أنحاز إلى صف أولئك الذين يرون أن نظرية رانك تناقض الأهمية الإتيولوجية للدوافع الغريزية الجنسية، كما تعرَّفها وأقرّ بها إلى الآن التحليل النفسي. وبالفعل، إن نظريته لا تعنى إلا بعلاقة الفرد بموقف الخطر، وتترك لنا تمام الإمكانية للتوكيد بأن من لم يتمكن من السيطرة على الأخطار الأولى سيخفق لا محالة في مواقف الخطر الجنسي التي ستظهر إلى حيِّز الوجود لاحقاً، ومن ثم لن يكون له من متكأ سوى العصاب.

لا أعتقد إذاً أن محاولة رانك جاءتنا بالجواب عن مسألة أصل العصاب، وأرى أنه من غير الممكن بعد أن نقدِّر مدى ما يمكن أن تسهم به مع ذلك في حلّ هذه المسألة. وستبدو هذه المساهمة طفيفة إذا ما تمخضت الأبحاث بصدد تأثير الولادة العسيرة في الاستعداد المسبق للعصاب عن نتيجة سلبية. والحق إننا لنخشى أن تبقى حاجتنا إلى إيجاد «علة نهائية»، واحدة وملموسة، غير مشبعة دائماً. والحالة المثلى، الحالة التي من المرجَّح أن الطبيب لا يزال إلى يومنا هذا يتوق إليها، ستكون على هذا الأساس حالةَ عُصَيَّةٍ[٤] قابلة للعزل وللزرع في الحالة الخالصة، ومن شأنها إذا ما لُقِّح بها أي فرد من الأفراد أن تتسبب في إصابة متماثلة. أو إن شئنا أن نرخي العنان للخيال كان في مستطاعنا أن نتصور مواد كيماوية يتسبب تجرعها في استحداث عصاب بعينه أو إلغائه. بيد أن مثل هذه الحلول للمشكلة ليست على الإطلاق قريبة الاحتمال.

يتأدى بنا التحليل النفسي إلى حلول أقل بساطة وبعثاً على الرضى. ولا يسعني هنا إلا أن أكرر ما هو معروف منذ أمد بعيد، بدون أن أضيف شيئاً جديداً. فعندما يفلح الأنا في حماية نفسه من حائثة غريزية خطرة، عن طريق

---

٤ - BACILLE. والعُصيَّة جرثومة ذات شكل متطاول كالعصا، على عكس الجرثومة المستديرة. «م».



سيرورة الكبت مثلاً، يكون قد كفّ فعلاً هذا الجزء من الهذا وآذاه، لكنه يكون في الوقت نفسه قد أسبغ عليه قدراً من الاستقلال وتخلى عن جزء من سيادته هو ذاته. وهذا ينجم عن طبيعة الكبت، باعتباره في الحقيقة محاولة هرب. فالمكبوت قد وُضع الآن خارج اللعبة، واستبعِد من التنظيم الكبير للأنا، ولم يعد خاضعاً إلا للقوانين التي تحكم مضمار اللاشعور. فإن طرأ بعدئذ تبدل ما على موقف الخطر، بحيث تنتفي دوافع الأنا إلى حماية نفسه من حاثة غريزية جديدة مشابهة لتلك التي كُبتت، غدت نتائج هذا التقييد للأنا ظاهرة جلية. ويقع مجرى الحاثة الغريزية الجديدة تحت تأثير آلية، أو بعبارة أدق: تحت تأثير الدافع القهري إلى التكرار، فتتبع الحاثة الجديدة الطرق عينها التي سلكتها الحاثة التي كُبتت من قبل، كما لو أن موقف الخطر الذي تمّ تجاوزه ما زال قائماً. عامل التثبيت في الكبت إذاً هو النزوع القهري للهذا اللاشعوري إلى التكرار، ولا سبيل في الأحوال السوية إلى إلغاء هذا الدافع القهري إلا عن طريق وظيفة الأنا الحركية الحرة. صحيح أن الأنا يمكن له أحياناً أن يفلح في هدم حواجز الكبت التي أقامها بنفسه، مما يتيح له أن يستعيد تأثيره على الحاثة الغريزية وأن يوجّه مجرى الحاثة الجديدة طبقاً لموقف الخطر المعدَّل. ولكنه في الحقيقة يخفق في ذلك في غالبية الأحوال، فلا يستطيع فكاكاً من كبوتاته. ومن المرجح أن مآل هذا الصراع تتحكم به علاقات كمية. وفي العديد من الحالات يساورنا انطباع بأن القرار كان قسرياً؛ فالجذب الذي تمارسه باتجاه النكوص الحاثة المكبوتة كبير للغاية، وكبيرة أيضاً للغاية قوة الكبت ، بحيث لا يكون أمام الحاثة الجديدة من حلٍّ آخر غير الانصياع للدافع القهري إلى التكرار. وفي حالات أخرى يبدو لنا واضحاً أثر صراع آخر بين القوى؛ فجاذبية النموذج الأول المكبوت يعزِّزها النبذ من جانب الصعوبات الفعلية التي تمانع في سلوك الحاثة الغريزية الجديدة مجرى آخر.

أما أن ذلك هو فعلاً أصل تثبيت الكبت، وكذلك أصل التشبث بموقف الخطر الذي لم يعد له طابع راهن، فالبرهان عليه يتمثل في واقعة العلاج النفسي التحليلي، وهي واقعة متواضعة بحدّ ذاتها، غير أنها ذات أهمية نظرية لا تقدَّر بثمن. فحينما نرفد الأنا في أثناء التحليل بالمساعفة القمينة بأن تؤهِّله لحذف



كبوتاته، يستعيد سلطانه على الهذا المكبوت ويصير في مستطاعه السماح للحاثات الغريزية بمتابعة مجراها، كما لو أن مواقف الخطر القديمة لم تعد قائمة. وما نتوصل إليه على هذا النحو يتفق مع ما نعرف أن في مستطاعنا استخلاصه من مجال عملنا الطبي بوجه عام. فالمفروض بطريقتنا العلاجية في الحالات العادية أن تكتفي بأن تتأدى، بسرعة أكبر وبوثوق أعظم وبتكاليف أقل، إلى المآل السعيد الذي كان سيتحقق من تلقاء نفسه لو توفرت ظروف مؤاتية.

تبيِّن لنا التأملات السابقة الأهمية الحاسمة للعلاقات الكمية، هذه العلاقات التي يتعذر كشف النقاب عنها مباشرة والتي لا سبيل إلى وضع اليد عليها إلا عن طريق استدلال تراجعي. فهذه العلاقات هي التي تحدد ما إذا كانت مواقف الخطر القديمة سيحافظ عليها، وما إذا كانت كبوتات الأنا سيُتمسَّك بها، وما إذا كانت الأعصبة الطفلية سيكون لها أو لن يكون لها امتدادها لاحقاً. وبين جملة العوامل التي تسهم في نشوء الأعصبة والتي تخلق الشروط التي تتواجه فيها القوى النفسية وتتبارى، تبرز ثلاثة عوامل بروزاً متميِّزاً: عامل بيولوجي، وعامل سلالي، وعامل سيكولوجي صرف. فالعامل البيولوجي هو حالة العوَز والتبعية الطويلة الأمد لصغار بني البشر؛ فحياة الإنسان في داخل الرحم مقتضبة نسبياً بالقياس إلى مثيلتها لدى الحيوان، وحينما يخرج الإنسان إلى العالم يكون أقل اكتمالاً من الحيوان، ويتعزز من جراء ذلك تأثير العالم الخارجي الواقعي. ويتمّ مبكراً اكتساب تمايز الأنا عن الهذا، وتتلبس أخطار العالم الخارجي أهمية أعظم، وتتزايد تزايداً كبيراً بالتالي قيمة الموضوع الذي يستطيع وحده توفير الحماية من هذه الأخطار والحلول محل الحياة المفتقدة داخل الرحم. العامل البيولوجي إذاً هو بمثابة الأصل لمواقف الخطر الأولى، وهو الذي يخلق حاجة الكائن الإنساني إلى أن يُحَبَّ، وهي حاجة لن تفارقه أبداً.

أما العامل الثاني، العامل السلالي، فهو من جانبنا موضوع استدلال لا أكثر، وإن واقعة لافتة جداً للنظر من وقائع تطور الليبيدو هي التي قسرتنا على افتراضه. فنحن نلاحظ أن الحياة الجنسية لدى الإنسان، خلافاً لمعظم الحيوانات التي تمتُّ إليه بصلة، لا تنمو دفعة واحدة متصلة من بداياتها إلى النضج، بل تعرف، بعد



تفتح أول يمتدّ إلى السنة الخامسة، توقفاً مباغتاً، لتستأنف مسيرتها عند البلوغ وتعيد وصل ما انقطع ببداياتها في الطفولة. ونحن نعتقد أنه وقع، في مجرى مصائر النوع البشري، حدث فاصل الأهمية، خلّف وراءه ذلك الانقطاع في النمو الجنسي على سبيل الرسابة التاريخية. والدلالة الإمراضية لهذا العامل ترجع إلى أن معظم المطالب الغريزية لهذه الجنسية الطفلية تكون قد عوملت من قبل الأنا على أنها أخطار يحامي عن نفسه ضدها ويتقي شرها، مما يعرّض الحاثات الجنسية اللاحقة، أي حاثات البلوغ التي يفترض بها أن تكون موائمة للأنا، لخطر الوقوع في نطاق الجاذبية التي تمارسها نماذجها الأولى الطفلية والسير بالتالي في ركابها على طريق الكبت. وهنا نضع إصبعنا على الإتيولوجيا الأكثر مباشرة للأعصبة. وإنه لما يلفت النظر أن احتكاك الأنا المبكر مع متطلبات الجنسية يمارس عليه تأثيراً مماثلاً لذاك يخلّفه فيه الاحتكاك السابق لأوانه مع العالم الخارجي.

يتمثل العامل الثالث، أو العامل السيكولوجي، في نقصان أو في عدم تكامل في جهازنا النفسي يناظر بدقة التمايز الذي يقوم فيه بين الأنا والهذا، ويكون مرتبطاً بالتالي، هو الآخر، في التحليل الأخير بتأثير العالم الخارجي. فنظراً إلى أخطار الواقع، يجد الأنا نفسه مكرهاً على اتخاذ وضعية الدفاع ضد بعض حاثات الهذا الغريزية وعلى معاملتها كما لو أنها أخطار. بيد أن الأنا لا يمكن له أن يحمي نفسه من الأخطار الغريزية الداخلية بمثل النجع الذي يحميها به من شطر من الواقع الخارجي. وبالفعل، ونظراً إلى ارتباطه هو نفسه بصلة حميمية بالهذا، فإنه لا يملك أن يحامي عن نفسه ضد الخطر الغريزي إلا إذا ضيَّق تنظيمه الخاص وسمح بتكوين أعراض تكون بمثابة عِوَض عن الأضرار التي ينزلها بالدافع الغريزي. فإن تجددت اندفاعة الدافع الغريزي غير المعترف به، وجد الأنا نفسه متورطاً في زحمة المصاعب التي نعرفها باسم العذابات العصابية.

على هذا يقتصر، في ما أظن، ما تسنى لنا أن نفهمه حتى الآن عن طبيعة الأعصبة وأسبابها.




مكتبة
الفكر الجديد

تذييل

في معرض هذه المناقشة تطرقنا لموضوعات شتى تحتّم علينا أن ندعها جانباً دون أن نتبحر فيها، ومن المهم الآن أن نجمعها لنوليها ما تستأهله من انتباه.

(أ)

تعديلات على نظرات سبق الإفصاح عنها

أ ـ المقاومة والتوظيف المضاد

إنه لمن العناصر المهمة في نظرية الكبت أن نتصور الكبت لا على أنه سيرورة تحدث دفعة واحدة ونهائية، بل على أنه سيرورة تتطلب إنفاقاً دائماً في الطاقة. فلو توقف هذا الإنفاق لسلك الدافع الغريزي المكبوت، الذي يتلقى مدداً متواصلاً من مصادره، في أول مناسبة تسنح الطريقَ الذي نُحّي عنه؛ فالكبت إما أن يُحرم من نجاحه، وإما أن يُكرر إلى ما لا نهاية. إذاً، فلأنه من طبيعة الدافع الغريزي أن يكون على الدوام فاعلاً يتحتم على الأنا تأمين نشاطه الدفاعي بإنفاق مستمر في الطاقة. وهذا النشاط الذي يرمي إلى حماية الكبت هو ما نخبره في صورة **مقاومة** في أثناء جهودنا العلاجية. والمقاومة تفترض سلفاً ما أسميته **بالتوظيف المضاد**. وهذا التوظيف المضاد قابل بسهولة للملاحظة في حالة العصاب الوسواسي. وهو يظهر فيها في صورة تعديل يطرأ على الأنا، في صورة تشكيل ارتجاعي في الأنا، ويتمّ إنتاجه بتعزيز المسلك المعاكس لاتجاه الدافع الغريزي المطلوب كبته (الشفقة، وسوسة الضمير، النظافة). وتشكيلات العصاب الوسواسي الارتجاعية هذه إن هي إلا مبالغات في السمات الطبعية السوية التي تظهر في أثناء مرحلة الكمون. ومن الأصعب بكثير، بالمقابل، في حالة الهستيريا أن نزيح النقاب عن التوظيف المضاد،



على الرغم من أن النظرية تقسرنا على المصادرة على وجوده. ولن يفوتنا هنا أيضاً أن نتبيَّن درجة معيَّنة من التعديل في الأنا بفعل التشكيل الارتجاعي، وهذا التعديل بارز للغاية في بعض الحالات حتى إنه ليستوقف الانتباه باعتباره العرَض الرئيسي للمرض. وعلى هذا النحو يمكن، مثلاً، الوصول إلى حلٍّ لصراع الازدواجية الوجدانية في الهستيريا: فالكره الذي يُكنّ لشخص محبوب يكبحه فرطُ حنوٍّ وتوجسٌ قلِق حياله. على أنه يجدر بنا التنويه بأن هذه التشكيلات الارتجاعية، خلافاً لما يحدث في العصاب الوسواسي، لا تتصف بالطبيعة العامة للسمات الطبعية، بل تقتصر على علاقات من طبيعة خاصة تماماً. من قبيل ذلك، مثلاً، أن المرأة الهستيرية التي تعامل أطفالها بحنو مفرط، مع أنها تكرههم في الواقع، لا تغدو من جراء ذلك أكثر إظهاراً للحب في الإجمال من غيرها من النساء، ولا حتى أكثر حنواً تجاه أطفال آخرين. فالتشكيل الارتجاعي يتشبث بعناد في الهستيريا بموضوع محدد بدون أن يرقى إلى مستوى الاستعداد العام في الأنا. وما يميِّز العصاب الوسواسي هو على وجه التحديد هذا التعميم، وتراخي العلاقات الموضوعانية، والسهولة الأكبر التي يتم بها النقل في الاختيار الموضوعاني.

ثمة شكل آخر من التوظيف المضاد يبدو موائماً أكثر لطبيعة الهستيريا. فالحاثة الغريزية المكبوتة يمكن تنشيطها (توظيفها من جديد) من جانبين: إما من الداخل عن طريق تعزيز للدافع الغريزي المنبثق من مصادر تنبيهه الداخلية، وإما من الخارج عن طريق إدراك موضوع مرغوب فيه من قبل الدافع الغريزي. وفي الواقع، إن التوظيف المضاد الهستيري موجَّه بالأفضلية نحو الخارج، ضد الإدراك الخطِر، وهو يتخذ شكل يقظة خاصة تتحاشى، من خلال تقييدات الأنا، المواقف التي يُتوقَّع أن يحدث فيها الإدراك، وتتوصل إلى صرف الانتباه عن هذا الإدراك، إن قُيِّض له رغماً عن كل شيء أن يبزغ. ولتوصيف نهج الهستيريا هذا، وقع مؤخراً اختيار كتّاب فرنسيين (لافورغ)[1] على اسم

١ ـ رينيه لافورغ: طبيب ومحلل نفسي فرنسي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٢). كان أول من افتتح عيادة للتحليل النفسي في المشافي الفرنسية، وترأس **جمعية باريس للتحليل النفسي**. هاجر عام ١٩٥٦ إلى الدار البيضاء حيث أنشأ أول معهد للتحليل النفسي في المغرب. من مؤلفاته: **العيادة التحليلية النفسية**، **نسبية الواقع**، **التحليل النفسي والأعصبة**. «م».



(التعتيم)[٢]. وآلية التوظيف المضاد هذه أكثر بروزاً بعد في الأرهبة منها في الهستيريا؛ فهنا يتركز الانتباه في نقطة واحدة: الابتعاد أكثر فأكثر على الدوام عن الشروط التي يمكن أن يعاود فيها الإدراكُ المرهوبُ بزوغَه. ولئن اتخذ التوظيف المضاد في الهستيريا والأرهبة اتجاهاً معاكساً لذاك الذي يتخذه في العصاب الوسواسي، فهذا تعارض له أهميته فيما يبدو، وإن لم يكن مطلقاً. وهو يحدو بنا إلى افتراض وجود علاقة وثيقة للغاية بين الكبت والتوظيف المضاد الخارجي من جهة، وبين النكوص والتوظيف المضاد الداخلي (تعديل الأنا عن طريق التشكيل الارتجاعي) من جهة ثانية. ومهما يكن من أمر، فإن الدفاع ضد الإدراك الخطِر مهمة مشتركة بين الأعصبة كافة. ولا بدّ أن أوامر ونواهي شتى في العصاب الوسواسي ترمي إلى الهدف نفسه.

لقد كان اتضح لنا، في مناسبة أخرى[٣]، أن المقاومة التي نريد التغلب عليها في التحليل تنبع من الأنا الذي يتشبث بتوظيفاته المضادة. فالأنا يشقّ عليه أن يوجّه انتباهه نحو إدراكات وتمثلات كان جعل وكده إلى ذلك الحين أن يتفاداها، أو أن يعترف بأبوَّته لحاثات تقف على طرفي نقيض من الحاثات التي درج على اعتبارها هي حاثاته الخاصة. وكفاحنا ضد المقاومة في التحليل يرتكز إلى هذا التصور. ففي الحالات الكثيرة التواتر التي تكون فيها المقاومة، بحكم علاقتها بالمكبوت، هي نفسها لاشعورية، نعمل على أن نجعلها شعورية، ومتى ما كانت شعورية أو متى ما أصبحت كذلك نجابهها بحججٍ منطقية، ونعد الأنا بمزايا ومكافآت إذا ما عدل عن المقاومة. لا مجال إذاً لأدنى شك فيما يتعلق بوجود مقاومة الأنا، ولا مجال لأي تصحيح نقوم به. وبالمقابل، نستطيع أن نتساءل عما إذا كانت المقاومة وحدها تغطي جميع الوقائع التي تطالعنا في التحليل. ذلك أن الأنا، وهذا ما نتحقق منه بالتجربة، يظل يرتطم بصعاب في تفكيكه للمكبوتات، حتى بعد أن يكون أبرم قراره بالتخلي عن مقاوماته. وقد أطلقنا على مرحلة الجهد العنيد المثابر التي تعقب هذا القرار الحميد اسم مرحلة

٢ - SCOTOMISATION. والمقصود العماية النفسية. «م».

٣ - الإشارة هنا إلى **الأنا والهذا** الذي أصدره فرويد عام ١٩٢٣. «م».



«المداءبة»[٤]، وفي ميسورنا الآن أن نتعرف العامل الدينامي الذي يجعل هذه «المداءبة» ضرورية ومفهومة. إذ لا مناص لنا من التسليم بأنه يبقى مطلوباً، بعد حذف مقاومة الأنا، التغلب على الدافع القهري إلى التكرار، وعلى الجاذبية التي تمارسها النماذج الأولى اللاشعورية على السيرورة الغريزة المكبوتة. وإذا شاء بعضهم وصف هذا العامل بأنه **مقاومة اللاشعور** فإننا لسنا نرى على ذلك اعتراضاً. ولنحاذر من الإقبال على مثل هذه التصحيحات متبرمين، فهي لن تنزل من نفوسنا إلا على رحب وسعة إذا كان من شأنها أن تتقدم بقدرتنا على الفهم مسافة قليلة إلى الأمام، وما هي لنا بوصمة عار إن كانت لا تنقض النظرية السابقة، بل تغنيها بحدِّها تارة من عمومية أطروحة من الأطروحات أو بتوسيعها طوراً تصوراً أضيق مما ينبغي.

لا ينبغي أن نعتقد أن هذا التصحيح أتاح لنا تكوين تصور كامل عن أنماط المقاومة التي نلتقيها في التحليل. بل لنا أن نتبيَّن بالأحرى، متى ما تعمَّقنا في المسألة أكثر من ذلك، أنه يتعيَّن علينا أن نكافح في التحليل خمسة ضروب من المقاومات، تأتي من ثلاثة اتجاهات، الأنا والهذا والأنا الأعلى، علماً بأن الأنا هو نفسه مصدر ثلاثة أشكال من المقاومة تختلف من حيث ديناميتها. أولى هذه المقاومات الأنوية الثلاث هي **مقاومة الكبت**، وهي التي عالجتها حتى الآن والتي لا أملك إلا أقلَّ العناصر الجديدة لأضيفها إليها. وينبغي أن نميِّزها عن **مقاومة التحويل**، التي هي من طبيعة مماثلة، وإن كانت تؤدي في التحليل إلى تظاهرات مغايرة وأكثر جلاء بكثير، لأنها تتوصل إلى إقامة علاقة مع الموقف التحليلي أو حتى مع شخص المحلِّل، بحيث تُنفخ قوة جديدة في كبت ما كان ينبغي غير أن يُستذكر. وثالثة مقاومات الأنا من طبيعة مغايرة تماماً، ومصدرها **مكسب المرض**،

---

٤ ـ المداءبة: بالألمانية DURCHARBEITUNG ، مصطلح تحليلي نفسي ليس له ما يقابله بحرفه في اللغات الأخرى، فضلاً عن أنه متعدد الدلالات وغير محدَّد المدلول بدقة حتى عندما يداوره فرويد نفسه. وقد نحت المترجم الفرنسي كمرادف له مصطلح: PERLABORATION، والمترجم الإنكليزي مصطلح: WORKING - THROUGH. والمقصود بالمداءبة المجهود المضاعف والمعاد تكراره الذي يتوجب على المحلِّل أن يبذله كيما يتغلَّب على معاندة المحلَّل في التشبث بأعراضه وفي الصدود عن التأويل الذي يكاشفه به. «م».



ومرتكزها اندماج العرَض في الأنا. وتتمثل هذه المقاومة في معارضة الأنا للعزوف عن إشباع أو عن تفريج وتسهيل. أما الضرب الرابع من المقاومة ـ مقاومة **الهذا** ـ فهو ذاك الذي جعلناه مسؤولاً عن ضرورة مواصلة المداءبة. وأما المقاومة الخامسة، مقاومة **الأنا الأعلى**، فهي آخر ما تعرفناه من المقاومات، وهي أغمضها شأناً، ولكنها ليست على الدوام أضعفها وأوهنها قوة، ويبدو أنها ترسي جذورها في الشعور بالذنب أو في الحاجة إلى القصاص التي تعترض سبيل كل نجاح، وبالتالي أيضاً الشفاء عن طريق التحليل.

ب ـ الحصر من جراء تحول الليبيدو

إن تصور الحصر الذي عرضناه في بحثنا هذا يبتعد بعض الشيء عن ذاك الذي كان يبدو لنا إلى اليوم صحيحاً. ففي السابق كنت أرى في الحصر استجابة عامة للأنا الخاضع لشروط الكدر، وكنت أسعى إلى تعليل ظهوره في كل حالة، وكنت أسلِّم، بالاستناد إلى دراسة الأعصبة الراهنة، بأن مردَّه هو إلى الليبيدو (ليبيدو التهيُّج الجنسي) الذي يحوَّل عن مجراه أو لا يُستخدم من قبل الأنا، فيجد تصريفاً مباشراً له في صورة الحصر. ولن يفوتنا أن نلحظ أن هذه الكيفيات المختلفة في توصيف الحصر لا تتفق جيداً فيما بينها، أو على أية حال لا تُستنتج واحدتها من الأخرى وجوباً. ناهيك عن أن ذلك يوحي بوجود صلة وثيقة للغاية بين الحصر والليبيدو، الأمر الذي لا يتفق بدوره مع الطابع العام للحصر باعتباره استجابة للكدر.

لقد تولدت الاعتراضات التي وُجِّهت إلى هذا التصور من ميلنا إلى اعتبار الأنا المقرّ الوحيد للحصر، وكانت بالتالي واحدة من نتائج التقسيم الفرعي لبنية الجهاز النفسي، ذلك التقسيم الذي حاولنا إرساء أسسه في **الأنا والهذا**. وعلى حين أن التصور السابق كان ينزع إلى أن يعتبر أن ليبيدو الحاثة الغريزية المكبوتة هو مصدر الحصر، صار الأنا هو المولج، على العكس من ذلك، بموجب التصور الجديد، بتعليل الحصر. وعلى هذا كان الحصر إما حصراً أنوياً وإما حصراً غريزياً (حصر الهذا). ونظراً إلى أن الأنا يعمل بطاقة منزوعة عنها صفتها الجنسية، فإن



الصلة الوثيقة بين الحصر والليبيدو قد أصابها هي أيضاً ارتخاء في النظرية الجديدة. وآمل أن أكون أفلحت على الأقل في بيان التناقض بجلاء وفي رسم معالم عدم يقيننا بوضوح.

إن معارضة رانك، الذي شدَّد على أن انفعال الحصر هو، كما كنت أكدت أنا نفسي في بادئ الأمر، نتيجة لعملية الميلاد وتكرار لهذه الخبرة الحياتية الأولى، قد أرغمتني على تمحيص مشكلة الحصر من جديد. لكنني ما استطعت الاستمرار أكثر من ذلك في تأييد طريقته في تصور الميلاد على أنه رضة، وفي تصور حالة الحصر على أنها استجابة تصريفية تعقب الرضة، وفي تصور كل انفعال وجداني جديد من انفعالات الحصر على أنه محاولة لـ «تصريف» الرضة على نحو أكمل فأكمل باستمرار. فقد تبيَّن لي أنه من الضروري الرجوع من استجابة الحصر إلى **موقف الخطر** الذي هو في خلفيتها. وكان إدخال هذا العامل يفتح الأفق أمام وجهات نظر جديدة. فالميلاد يغدو والحالة هذه النموذج الأول لجميع مواقف الخطر التي تظهر لاحقاً في شروط جديدة، طرداً مع تغيُّر شكل الوجود ومع توالي تطور النفسية. بيد أن القيمة الخاصة للميلاد تكون بذلك قد حُدَّت بكون الميلاد مجرد نموذج أول للخطر. فالحصر المستشعر ساعة الميلاد يغدو في هذه الحال النموذج الأول لحالة انفعالية لا مناص لها من أن تشاطر حالات انفعالية أخرى مصيرها. فإما أنه يعاد إنتاجه بصورة آلية في مواقف مشابهة لتلك التي ظهر فيها في الأصل، ويكون في هذه الحال شكلاً من استجابة غير موائمة بعد أن كان مناسباً في موقف الخطر الأول. وإما أن الأنا يستولي على هذا الانفعال الوجداني ويعيد إنتاجه بنفسه، مستخدماً إياه كتحذير ضد الخطر، وكوسيلة لحمل آلية اللذة/ الكدر على التدخل. ويسترجع انفعال الحصر الدلالة البيولوجية التي هي من حقِّه حالما نقرّ على هذا النحو بأن الحصر استجابة عامة لموقف الخطر. ومع توكيد دور الأنا كمقر للحصر، يكون هذا الأنا قد أنيطت به وظيفة إفراز انفعال الحصر بحسب حاجاته. هكذا نقرّ بأن للحصر، في تتمة الحياة، نوعين من المصادر؛ فهو في حالة أولى لا إرادي، آلي، قابل للتبرير كل مرة اقتصادياً متى ما قام موقف خطر مماثل لموقف الميلاد؛ وفي الحالة الثانية ينتجه الأنا



عندما يجد نفسه في مواجهة تهديد بنشوء موقف مشابه يقتضي منه السعي إلى تحاشيه. وفي الحالة الثانية هذه يرضخ الأنا للحصر كما لو على سبيل التلقيح بهدف الإفلات، بفضل نوبة مخففة، من نوبة بالغة الحدة من المرض. فكل شيء يجري على وجه التقريب كما لو أن الأنا يكوّن لنفسه عن موقف الخطر فكرة حية مع عقد العزم، الذي لا سبيل إلى تجاهله، على قصر التجربة المضنية على تلميح أو على إشارة. وقد سبق لنا أن وصفنا بالتفصيل كيف أن مختلف مواقف الخطر تتطور بالتعاقب مع بقائها مترابطة فيما بينها نشوئياً. وربما سنتمكن من إحراز تقدم في فهمنا للحصر متى ما تصدَّينا لمشكلة العلاقات بين الحصر العصابي والحصر إزاء خطر فعلي.

إن أطروحة التحول المباشر لليبيدو إلى حصر، وهي الأطروحة التي كنا نحامي عنها سابقاً، قد فقدت في نظرنا قدراً من أهميتها. ولئن أخذناها مع ذلك بعين الاعتبار فلا بدّ لنا من التمييز بين عدد من الحالات: فهي لا يُعتدّ بها في الحصر الذي يبتعثه الأنا على سبيل التنبيه والإنذار، ولا بالتالي في جميع مواقف الخطر التي تحضّ الأنا على إقحام الكبت في اللعبة؛ وكما يتبيَّن لنا بأكبر قدر من الجلاء في الهستيريا الاستبدالية يعرف التوظيف الليبيدوي للحاثة الغريزية المكبوتة استعمالاً آخر غير التحول إلى حصر وإلى تصريف لهذا الحصر. وبالمقابل، سنلتقي لاحقاً، في أثناء مناقشتنا مسألة موقف الخطر، حالة من حالات تمخُّض الحصر لا بدّ في أغلب الظن أن يأتي حكمنا فيها مختلفاً.

ج ـ الكبت والدفاع

في معرض شروحي ذات الصلة بمشكلة الحصر، عدت إلى استخدام مفهوم ـ أو مصطلح إن شئنا المزيد من التواضع في الكلام ـ كنت استخدمته بصورة حصرية في مستهل أبحاثي قبل زهاء ثلاثين عاماً ثم تخليت عنه بعد ذلك. أقصد بهذا المصطلح: السيرورة الدفاعية[٥]. وقد استعضت عنه فيما بعد بمفهوم الكبت، غير أن العلاقة بين المفهومين بقيت بدون تحديد. وأعتقد اليوم أن ثمة

٥ ـ انظر: **الأعصبة النفسية الدفاعية**، الأعمال الكاملة، م١ .



فائدة أكيدة من الرجوع إلى مفهوم «الدفاع» القديم، ولكن شريطة أن نشير بهذا المفهوم بصفة عامة إلى جميع الأساليب والطرائق التي يلجأ إليها الأنا في صراعاته التي يحتمل أن تتأدى إلى العصاب، بينما نحتفظ باصطلاح الكبت لطريقة بعينها من هذه الطرائق الدفاعية، أتاح لنا اتجاه أبحاثنا في البداية أن نعرفها خيراً من سواها.

إن التجديد، حتى ولو كان اصطلاحياً خالصاً، يتطلب تبريراً، ولا بدّ أن يكون معبِّراً عن كيفية جديدة في المعالجة أو عن توسُّع في تصوراتنا. وعليه، إن الرجوع إلى مفهوم الدفاع وتضييق مفهوم الكبت يسلِّطان الضوء على واقعة نعرفها منذ زمن بعيد، بيد أن كشوفاً جديدة زادت في أهميتها: فقد بدأنا بالتعرُّف إلى الكبت وتشكيل العرَض من خلال مثال الهستيريا، فلاحظنا أن المضمون الإدراكي للخبرات المولِّدة للتنبيه، أي المضمون التمثلي للتشكيلات الفكروية الإمراضية قد انتسي وأقصي عن سيرورة إعادة الإنتاج في الذاكرة، ولهذا تعرفنا في عملية الاستبعاد خارج مجال الشعور طابعاً رئيسياً للكبت الهستيري. وفيما بعد درسنا العصاب الوسواسي واكتشفنا أن الخبرات الإمراضية لا تنتسى في هذا المرض. فهي تبقى شعورية ولكنها «تُعزل» بدون أن يكون في مستطاعنا بعد أن نتصور الكيفية التي يتمّ بها ذلك، ومن ثم انتهينا على وجه التقريب إلى النتيجة عينها التي كنا انتهينا إليها في النساية الهستيرية. بيد أن الفارق كبير بما يكفي ليأذن لنا بالافتراض أن السيرورة التي يتمّ بها استبعاد مطلب غريزي في العصاب الوسواسي لا يمكن أن تكون مماثلة لما هي عليه في الهستيريا. وقد أفادتنا تتمة أبحاثنا أنه يحدث في حالة العصاب الوسواسي نكوص للحاثات الغريزية، بسبب اعتراض الأنا عليها، إلى طور سابق من أطوار الليبيدو؛ وهذا النكوص، بدون أن يغني عن الكبت أصلاً، يفعل فعله على نحو ظاهر للعيان في الاتجاه عينه الذي يسلكه الكبت. ورأينا فضلاً عن ذلك أن التوظيف المضاد، الذي يتحتم علينا أن نقرّ بوجوده في الهستيريا أيضاً، يضطلع في حالة العصاب الوسواسي بدور عظيم الأهمية في حماية الأنا، في صورة تعديل ارتجاعي في الأنا؛ وقد تسنى لنا أن نلاحظ في هذا المرض نهجاً معيَّناً،

أسميناه بـ «العزل» ولكن بدون أن نتمكن بعد من بيان آليته، ويتجلى بصورة مباشرة في العرَض؛ وقد لاحظنا أيضاً نهجاً آخر، يتعيَّن علينا أن نصفه بالسحري، هو نهج «الإلغاء ذي المفعول الرجعي» الذي لا نستطيع أن نشكّ في أن الهدف الذي يرمي إليه هو الدفاع، ولكن بدون أن يبقى بينه وبين سيرورة الكبت أي شبه. وما أفدناه في هذا الصدد كافٍ لتبرير الأخذ من جديد بمفهوم **الدفاع** القديم الذي يتيح لنا أن نجمع تحت كنف هذا المفهوم عينه جميع تلك السيرورات التي تنمّ عن نزوع مماثل ـ أي حماية الأنا من المطالب الغريزية ـ وكذلك لتبرير إدراج الكبت تحت يافطته كحالة خاصة من حالاته. والأهمية التي يتلبسها اختيار هذه التسمية تعظم إذا أخذنا في اعتبارنا أن تعميق دراساتنا ربما يكون من شأنه أن يكشف عن وجود تطابق وثيق بين أشكال دفاعية كهذه وبين إصابات مرَضية كتلك، وعلى سبيل المثال بين الكبت والهستيريا. فلنمض قُدُماً إلى الأمام. فنحن نأمل في اكتشاف ترابط مهمٍّ آخر. فمن المحتمل جداً أَن الجهاز النفسي، قبل أن يتمايز فيه الأنا والهذا تمايزاً واضحاً وقبل أن يتكون الأنا الأعلى، كان يستخدم طرائق دفاعية مغايرة جداً لتلك التي يستخدمها بعد أن يكون بلغ هذه الأطوار من التنظيم.

(ب) تكملة بصدد الحصر

يتسم الشعور بالحصر ببعض سمات يعِدُنا تقصِّيها بإيضاحات إضافية. فالحصر ذو صلة بلا مراء **بالتوقع**؛ فهو حصر من شيء ما، ومن الخواص الملازمة له **اللاتعيُّن وغياب الموضوع**، واسمه بالذات يتغير مع الاستعمال اللغوي الصحيح إذ يستعاض عنه باسم الخوف متى ما وجد موضوعاً له. وللحصر، علاوة على علاقته بالخطر، علاقة بالعصاب نجاهد منذ زمن بعيد لجلائها. والسؤال الذي ينطرح في هذه الحال أن نعرف لماذا لا تكون جميع استجابات الحصر عصابية، ولماذا نتعرف العديد منها بوصفها سوية؛ وأخيراً، إن التمييز بين الحصر أمام خطر واقعي والحصر العصابي يتطلب تمحيصه بمزيد من التعمق.

لنبدأ بالمشكلة الأخيرة هذه. فالتقدم الذي أحرزناه تمثَّل في إرجاع استجابة



الحصر إلى موقف الخطر. فإذا عدَّلنا بالطريقة نفسها مشكلة الحصر أمام خطر واقعي، بات حلُّها سهلاً. فالخطر الواقعي خطر نعرفه، والحصر أمام خطر واقعي هو الحصر أمام خطر من هذا القبيل، خطر معروف. أما الحصر العصابي فهو حصر أمام خطر لا نعرفه. ينبغي إذاً أن نبحث أولاً في طبيعة الخطر العصابي؛ وقد أفادنا التحليل بأنه خطر غريزي. وبإرجاعنا إلى مجال الشعور هذا الخطر المجهول من قبل الأنا، نمحو الفارق بين الحصر أمام خطر واقعي والحصر العصابي، بحيث يتيسَّر لنا أن نعالج هذا الأخير على نحو ما نعالج به الأول.

تصدر عن الإنسان إزاء الخطر الواقعي استجابتان: الاستجابة الانفعالية المتمثلة بنوبة الحصر، والعمل للاحتماء منه. ولنا أن نتوقع أن يكون الأمر بالمثل في حالة الخطر الغريزي. ونحن نعرف حالة تتعاون فيها الاستجابتان بصورة مناسبة، فتعطي الأولى إشارة البدء للثانية؛ ولكننا نعرف أيضاً الحالة المعاكسة، حالة الحصر الذي يشلّ، وهي الحالة التي تحتل فيها إحدى الاستجابتين المساحة كلها على حساب الأخرى.

ثمة حالات تختلط فيها خصائص الحصر أمام خطر واقعي وخصائص الحصر العصابي. فالخطر يكون معروفاً وواقعياً، لكن الحصر الذي يبتعثه غير متناسب، وأكبر في تقديرنا مما كان ينبغي أن يكون. وهذا الفائض هو الذي يشي بالعنصر العصابي. بيد أن هذه الحالات لا تأتي بشيء جديد جوهرياً. وبالفعل، يظهر التحليل أن الخطر الواقعي المعروف قد ارتبط به خطر غريزي غير معترف به.

إننا سنحرز المزيد من التقدم بعد إذا لم نكتفِ بإرجاع الحصر إلى الخطر. فما نواة موقف الخطر وما دلالته؟ إنها، كما هو ظاهر للعيان، تقديرنا لضعف قوانا في مواجهة جسامة الخطر، واعترافنا بعوزنا في قبالته، عوزنا المادي في حالة الخطر الواقعي، وعوزنا النفسي في حالة الخطر الغريزي. وترشد حكمَنا في هذا المجال خبراتٌ وقعت لنا فعلاً، وإن ارتكب حكمنا خطأً في التقدير فلا أهمية لذلك بالنسبة إلى النتيجة. ولنطلق صفة **الرضيّ** على موقف العوَز المعاش هذا. فإذا فعلنا كان لنا أن نميِّز الموقف الرضِّي عن **موقف الخطر**.

مكتبة الفكر الجديد

يتم إحراز تقدم مهم على صعيد الإدراك الفردي الذاتي متى ما توقع الفرد مثل ذلك الموقف الرضّي وترقّبه، بدل أن ينتظر سلبياً طروءه. ولنطلق على الموقف المشروط بمثل هذا التوقع اسم موقف الخطر، وإنما في هذا الموقف تعطى إشارة الحصر. ومعنى الحصر: إنني أتوقع أن يطرأ موقف عوَز، أو إن الموقف الحاضر يذكّرني بخبرة من الخبرات الرضّية التي عشتها فيما مضى. لهذا أستبق هذه الرضة وأتصرف كما لو أنها وقعت من الآن، وذلك ما دام في الوقت متسع لتداركها. الحصر إذاً توقُّع للرضة من جهة أولى، وتكرار مخفَّف لها من الجهة الثانية. هكذا يكون للخاصتين اللتين لحظناهما في الحصر أصل مختلف. فعلاقته بالتوقُّع تحيلنا إلى موقف الخطر، وعدم تعيُّنه وغياب موضوعه يحيلاننا إلى موقف العوز **الرضّي** الذي تمّ استباقه في **موقف الخطر**.

بموجب تطور السلسلة: الحصر ـ الخطر ـ العوز (الرضّة)، نستطيع أن نلخّص على النحو التالي تصوراتنا: إن موقف الخطر هو موقف العوَز[٦] المعترف به، المستذكَر، المتوقَّع. والحصر، الذي هو الاستجابة الأصلية للعوَز في الرضة، يعاد إنتاجه فيما بعد في موقف الخطر كإشارة إنذار. والأنا الذي عاش سلبياً الرضة، يكرر الآن إيجابياً نسخة مخفَّفة عنها بأمل الاقتدار على توجيه مسارها وفق هواه. وكما نعلم، يتصرف الطفل بالطريقة نفسها حيال جميع الخبرات المؤلمة له حينما يكررها في اللعب، وبانتقاله هذا من السلبية إلى الإيجابية يسعى إلى السيطرة على خبرات حياته. وإن يكن هذا هو المقصود «بالتصريف» للرضة، فلن يعود لنا من اعتراض على هذا التعبير. بيد أن النقطة الحاسمة هي الإزاحة الأولى لاستجابة الحصر التي تنتقل من أصلها في موقف العوَز إلى توقع هذا العوَز، أي إلى موقف الخطر. وتحدث بعد ذلك إزاحات أخرى، من الخطر إلى الشرط المحدِّد للخطر، أي خسران الموضوع في مختلف الأشكال التي يتلبسها هذا الخسران والتي سبق لنا بيانها.

٦ ـ يجدر التنويه بأن العوَز يعني الحاجة والضيق معاً بالعربية. فعوِز الرجل: افتقر، وعوِز الأمر: اشتدّ. وهذا المعنى المزدوج هو ما يرمي إليه فرويد من استعماله للكلمة الألمانية HILFLOSIGKEIT التي يقابلها بالإنكليزية HELPLESSNESS، وبالفرنسية DETRESSE. «م».



إن «تدليل» الطفل الصغير تترتب عليه هذه العاقبة المرغوب عنها: المغالاة في خسران الموضوع ـ الموضوع بوصفه حماية من جميع مواقف العوَز ـ بالقياس إلى غيره من الأخطار ـ ، وهذا ما يعزز الميل إلى البقاء في الطفولة، تلك الحقبة المتسمة بحالة العوَز الحركي والنفسي على حدّ سواء.

لم تسنح لنا إلى الآن الفرصة للنظر إلى الحصر إزاء خطر واقعي من منظور آخر غير الحصر العصابي. ونحن نعرف الفارق: فالخطر الواقعي يهدد بدءاً من موضوع خارجي، بينما يهدد الخطر العصابي بدءاً من مطلب غريزي. وبقدر ما يمثّل هذا المطلب الغريزي شيئاً واقعياً، يجوز لنا القول إن الحصر العصابي يملك هو الآخر أساساً واقعياً. وقد فهمنا أنه إذا ما بدا أن ثمة علاقة وثيقة للغاية بين الحصر والعصاب، فالواقعة التي تكمن وراء ذلك في هذه الحال هي أنه إذا كان الأنا يدفع عن نفسه الخطر الغريزي بمساعدة استجابة الحصر عينها التي تفيده في مواجهة الخطر الواقعي الخارجي، فإن اتجاه هذه الإيجابية الدفاعية يفضي إلى العصاب بسبب نقص ما في الجهاز النفسي. وقد تولّد لدينا أيضاً الاقتناع بأن المطلب الغريزي لا يغدو في كثير من الأحيان خطراً (داخلياً) إلا لأن إشباعه سيستتبع خطراً خارجياً، أي لأن هذا الخطر الداخلي يمثّل خطراً خارجياً.

من جهة أخرى، لا بدّ أن يكون الخطر الخارجي (الواقعي) قد مرّ هو الآخر بعملية استدخال ليتمكن من اتخاذ معنى بالنسبة إلى الأنا، أي لا بدّ أن يكون تمّ تعرُّفه في علاقته بموقف عوَز مُعاش[7]. ويبدو أن الإنسان لم يؤتَ معرفة غريزية بالأخطار التي تتهدده من الخارج أو أنها لم تبذل له إلا بمقادير طفيفة للغاية. فالأطفال الصغار يفعلون على الدوام أشياء تعرّضهم لخطر الموت، ولهذا على

٧ ـ كثيراً ما يتفق أن تنضاف، على الرغم من التقدير الصحيح لموقف الخطر بحدّ ذاته، كمية من الحصر الغريزي إلى الحصر إزاء الخطر الواقعي. وفي هذه الحال يمكن للمطلب الغريزي الذي يتراجع الأنا أمام إشباعه أن يكون من طبيعة مازوخية، أي تكون غريزة الهدم موجَّهة ضد ذات الشخص. وربما أتاح لنا هذا الانضياف أن نجد تفسيراً للحالة التي تغدو فيها استجابة الحصر مجاوِزة الحدّ، غير مناسبة، شالّة. ومن الممكن أن يكون لأرهبة الارتفاعات (رهاب النوافذ والأبراج والهُوى) أصل كهذا؛ فهي، بما لها من دلالات مؤنثة خبيئة، غير منقطعة الصلة بالمازوخية.



وجه التحديد لا يستطيعون أن يستغنوا عن الموضوع الحامي. وفي العلاقة بالموقف الرضِّي، الذي يُترك الفرد وشأنه في قبالته، يتلاقى كل من الخطر الخارجي والخطر الداخلي، الخطر الواقعي والمطلب الغريزي. وسواء أكابد الأنا من ألم لا يشاء أن يتوقف أم من تراكم في حاجات لا تستطيع أن تحظى بأي إشباع، فإن الموقف في كلتا الحالتين واحد من وجهة النظر الاقتصادية، والعوَز الحركي يفصح عن نفسه في صورة عوَز نفسي.

لا يجوز أن نغفل هنا عن الإشارة إلى الأرهبة الملغزة التي تعود إلى فترة الطفولة الأولى. فقد تسنى لنا أن نفهم بعضاً منها ـ نظير رهاب الوحدة والظلام والأشخاص الغرباء ـ باعتبارها استجابات لخطر خسران الموضوع. وربما كان في مقدورنا أن نعلِّل أرهبة أخرى، نظير رهاب الحيوانات الصغيرة ورهاب العاصفة، بأن نرى فيها بقايا ضامرة لقابلية فطرية لمواجهة الأخطار الواقعية، وهي قابلية نامية بمنتهى الجلاء لدى حيوانات أخرى. أما لدى الإنسان فإن ذلك الجزء من الميراث الأثري ذا الصلة بخسران الموضوع هو وحده المهيَّأ للتلاشي. أما حينما تتثبت مثل هذه الأرهبة الطفلية وتتعزز وتستمر إلى سنّ متقدمة، فإن التحليل يظهر أن مضمونها يكون قد اقترن ببعض مطالب غريزية فصار يمثِّل أيضاً أخطاراً داخلية.

(ج)

الحصر والألم والحداد

إن قلة العناصر المتاحة لنا فيما يتصل بسيكولوجيا السيرورات الانفعالية الوجدانية تبيح للملاحظات الوجلة التالية أن تطمع بحقٍّ في أن تحظى بأكبر قدر ممكن من التسامح عند الحكم عليها. والمشكلة تتمحور الآن حول النقطة التالية: فقد وجدنا أنه من اللزام علينا أن نصرِّح بأن الحصر يَظْهَر كاستجابة لخطر خسران الموضوع؛ والحال أننا نعرف من قبل استجابة من هذا القبيل لخسران الموضوع، هي الحِداد. ومن ثم ينطرح السؤال: متى يؤدي هذا الخسران إلى الحصر ومتى يؤدي إلى الحِداد؟ إن الحِداد، الذي شغلنا أنفسنا به سابقاً، كان



ينطوي على سمة بقي النفاذ إلى سرها مستعصياً علينا تماماً، ونعني طابعه المؤلم أشدَّ الإيلام. ومع ذلك يبدو لنا أن من البديهي أن يكون الانفصال عن الموضوع مؤلماً. المشكلة تزداد إذاً تعقيداً: إذ متى ينتج الانفصال عن الموضوع الحصر، ومتى ينتج الحِدادَ، ومتى ينتج ـ ربما ـ الألم وحده؟

لنقل هنا للحال إنه لا يتوافر لنا أي منظور يتيح لنا أن نعطي جواباً عن هذه الأسئلة. ومن ثم سنكتفي بوضع بعض الصوى وبالإشارة إلى بعض اتجاهات للبحث.

لتكن نقطة انطلاقنا من جديد الموقف الوحيد الذي نعتقد أننا نفهمه، موقف الرضيع الذي يلمح بدلاً من أمه شخصاً غريباً. فهو يبدي آنئذ ذلك الحصر الذي عزوناه إلى خطر خسران الموضوع، وإن يكن بكل تأكيد أشدَّ تعقيداً ويستأهل مناقشة أكثر تعمقاً. صحيح أنه لا مجال لأدنى شك بصدد وجود الحصر لدى الرضيع، غير أن تعبير الوجه والاستجابة بالبكاء يحملاننا على أن نفترض أنه يستشعر علاوة على ذلك ألماً. ويبدو أنه تتدفق في داخل نفسه أمور كثيرة لن تلبث في وقت لاحق أن تتمايز. فهو لا يستطيع أن يميِّز بعدُ الغياب المؤقت من الفقدان الدائم؛ فحالما تغيب عنه أمه يتصرف وكأنه لن يعودَ إلى رؤيتها أبداً. ولا بدّ من تكرار تجارب عدة مطَمْئِنة لكي يتعلم أن غياب الأم هذا يعقبه في العادة تجدُّد ظهورها. وتيسِّر الأم نموّ هذه المعرفة، العظيمة الأهمية بالنسبة إلى الرضيع، عندما تلعب معه اللعبة المعروفة: إخفاء وجهها عنه ثم الكشف عنه من جديد على فرح عظيم منه. ويكون في ميسوره عندئذ أن يستشعر شيئاً يشبه الشوق والاشتهاء بدون أن يكون مترافقاً باليأس.

إن الموقف الذي يستشعر فيه غياب الأم، نتيجة لتفسيره الخاطئ له، ليس بالنسبة إليه موقف خطر، وإنما هو موقف رضِّي؛ أو، بتعبير أدقّ، إنه يكون موقفاً رضِّياً إذا ما ساورته في تلك اللحظة حاجة يفترض بالأم أن تشبعها، وهو يتحول إلى موقف خطر إذا لم تكن هذه الحاجة راهنة. إن أول شرط محدِّد للحصر، يقحمه الأنا بنفسه، هو إذاً فقدان الإدراك الذي يماثل بينه وبين فقدان الموضوع نفسه. ولا يدخل في الاعتبار بعد فقدان للحب. وفيما بعد تعلِّمه التجربة أن



الموضوع يمكن أن يبقى حاضراً، ولكن قد يكون اغتاظ من الطفل، وعندئذ يغدو فقدان الحب من جانب الموضوع خطراً وشرطاً محدِّداً للحصر، وهذا تطور مستجدّ وأكثر ديمومة بكثير.

إن الموقف الرضِّي الذي يخلقه غياب الأم يختلف في نقطة حاسمة عن موقف الميلاد الرضِّي. وبالفعل، لا يكون ثمة وجود عند الميلاد لموضوع يمكن استشعار فقدانه. ويبقى الحصر هو الاستجابة الوحيدة التي تحدث. وفيما بعد تخلق مواقفُ إشباع متكررة هذا الموضوع، وهو الأم التي تتعرض، في حالة الحاجة، لتوظيف شديد من الممكن وصفه بأنه «اشتهائي». وإنما إلى هذه الوضعية المستجدة ينبغي أن نردّ استجابة الألم، إذا أردنا فهمها. وعلى هذا، يكون الألم استجابة خاصة لخسران الموضوع؛ كما يكون، على إثر إزاحة إضافية، استجابة لخطر خسران الموضوع.

إن ما نعلمه عن الألم أيضاً طفيف للغاية. والواقعة الوحيدة التي نحن على ثقة منها هي أن الألم يظهر ـ في المقام الأول وبصفة عامة ـ متى ما اقتحمت إثارة، من المحيط الخارجي، الدرع الواقي من الإثارة وفعلت من ثم فعلها كإثارة غريزية دائمة تقف عاجزة أمامها الأعمال العضلية التي ترمي إلى تحرير الموضع المثار من الإثارة والتي تكون في العادة ناجعة. وإن جاء الألم، لا من موضع ما في البشرة، بل من عضو داخلي، فهذا لا يبدِّل شيئاً في الموقف؛ وكل ما هنالك أن جزءاً من المحيط الداخلي يتدخل عوضاً عن المحيط الخارجي. وظاهر للعيان أن الطفل تتاح له الفرصة لمعاناة تجارب ألم من هذا القبيل، مستقلة عن تجاربه المعاشة المرتبطة بحاجاته. غير أن شرط ظهور الألم هذا يبدو واهن الشبه للغاية بخسران للموضوع، ومن ثم يكون العامل الرئيسي في الألم، أي الإثارة المحيطية، غائباً تماماً في الموقف الاشتهائي لدى الطفل. ومع ذلك ليس من مصادفات الأمور في أغلب الظن أن تكون اللغة ابتدعت مفهوم الألم الداخلي، النفسي، وأنها تعقد مماثلة تامة بين ما يستشعره الإنسان لدى خسران الموضوع وبين الألم الجسدي.

في حالة الألم الجسدي يحدث توظيف مرتفع، ينبغي وصفه بأنه نرجسي، للموضع المؤلم من الجسم، وهو توظيف لا يفتأ يتعاظم وينزع، إن جاز القول، إلى



إفراغ الأنا. ومن الحقائق المعروفة أنه عندما تلمّ آلام بأعضاء داخلية، فإن هذه الأجزاء من الجسم، التي لا تمثيل لها إطلاقاً في العادة في نشاط التمثُّل الشعوري، تغدو موضوعاً لتمثلات مكانية وسواها. وفضلاً عن ذلك، إن الواقعة اللافتة للنظر والمتمثلة في أن الذهن عندما يشرد وراء اهتمام من نوع آخر فإن الآلام الجسدية، بما فيها الفائقة الشدة منها، لا تحدث (لا يجوز أن نقول هنا: تبقى لاشعورية)، هذه الواقعة تجد تفسيرها في تركُّز التوظيف على الممثِّل النفسي للموضع المتألم من الجسم. وعند هذه النقطة نستطيع، فيما يبدو، أن نعثر على المماثلة التي أفسحت في المجال أمام تحويل إحساس الألم إلى مضمار الجهاز النفسي. فالتوظيف الاشتهائي للموضوع (المفقود)، وهو توظيف متنامٍ باستمرار بحكم كونه غير قابل للإشباع، يخلق نفس الشروط الاقتصادية التي يخلقها التوظيف في صورة ألم والمتركِّز على الموضع المصاب من الجسم. وهذا ما يفسح في المجال أمام صرف النظر عن الدور المحدِّد الذي يلعبه المحيط في حالة الألم الجسدي. والواقع أن الانتقال من الألم الجسدي إلى الألم النفسي يناظر تحول التوظيف النرجسي إلى توظيف موضوعاني. فالتمثل الموضوعاني، المتحدِّد إلى أقصى حدّ بالحاجة، يلعب دور ذلك الموضع من الجسم الذي يتركز عليه التنبيه المتزايد. واستمرارية سيرورة التوظيف واستحالة كفِّها تنتجان حالة العوَز النفسي عينها. فإن اتسم استشعار الكدر الذي يطرأ عندئذ بذلك الطابع المؤلم النوعي الذي يتعذر وصفه بمزيد من التحديد، بدلاً من أن يفصح عن نفسه في صورة استجابة للحصر، فإننا سنميل إلى إلقاء مسؤولية ذلك على عاتق عامل لم تولِه تفاسيرنا حتى الآن إلا قدراً ضئيلاً للغاية من الاعتبار، نعني به المستوى المرتفع لعلاقات التوظيف والارتباط الذي تتم به السيرورات التي تتأدى إلى استشعار الكدر.

إننا نعرف أيضاً استجابة وجدانية أخرى لخسران الموضوع، هي الحِداد. ولكن لا يعسر علينا بعد الآن أن نجد لها تعليلاً. فالحِداد يظهر تحت تأثير امتحان الواقع الذي يطلب بإلحاح الانفصال عن الموضوع الذي لم يعد له من وجود. ومن ثم تكون وظيفة الحِداد هي تهيئة هذا السحب للتوظيفات خارج الموضوع في جميع

المواقف التي كان فيها الموضوع محبوّاً بتوظيف مرتفع. وفي هذه الحال يتفق الطابع المؤلم لهذا الانفصال مع تفسيرنا السابق الذي اعتمدنا فيه مفهوم التوظيف الاشتهائي المبالغ فيه للموضوع وعدم قابليته للتحقيق لدى تكرار المواقف التي يتوجّب فيها أن يُفكَّ الارتباط بالموضوع.



مكتبة الفكر الجديد

مختصر التحليل النفسي

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

تقديم

مختصر التحليل النفسي بدأه فرويد في تموز/ يوليو ١٩٣٨ في الأيام الأولى من «منفاه» بلندن، ولكنه لم يتمّه، إذ حضرته الوفاة في ٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩. ولم يحفظ المؤلف القسم الثالث، وإننا لنجهل ما كانت مقاصده بصدد تتمة الكتاب. كذلك، إن الفصل الثالث، خلافاً لسائر فصول الكتاب، كتب بأسلوب مختصر أشبه بأسلوب البرقيات، فكان على اللجنة المشرفة على طبع مؤلفات فرويد الكاملة بالألمانية أن تعيد بناء عدد كبير من الجمل.

ويتميَّز نص **المختصر** بدقة ووضوح لافتين للنظر في التعبير. ولعل فرويد أراد، وهو تحت ضغط الأحداث التي تأدت به إلى المنفى، أن يقدِّم خلاصة مكثفة، ولكن مفهومة، لجوهر كشوفه على مدى زهاء نصف قرن من تجواله في قارة اللاشعور. ولكن كما كان لاحظ جون ستراتشي، مترجم فرويد الأول إلى الإنكليزية، فإن هذا النص، حتى وإن لم يكن معقداً، ليس برسم المبتدئين من القراء، بل هو يفترض من قارئه معرفة نظرية مسبقة بكشوف التحليل النفسي.

وقد كنا في حينه ترجمنا **مختصر التحليل النفسي** عن الترجمة الفرنسية التي كانت قامت بها آن برمان، والتي كان أعاد فيها النظر المختص الكبير بالمعجم الفرويدي جان لابلانش. ولكننا رجعنا أيضاً، في الطبعة التي بين يدي القارئ، إلى الترجمة الجديدة في المجلد العشرين من مؤلفات فرويد الكاملة الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية لندخل على ترجمتنا تعديلات إضافية.

ج . ط

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

توطئة

الهدف من هذا المؤلف المقتضب جمع أطروحات التحليل النفسي لعرضها عرضاً تقريرياً إن جاز القول، في أوضح شكل ممكن وأكثره تركيزاً. ولم نرمِ قط، بعملنا هذا، إلى كسب ثقة أو انتزاع اقتناع.

إن تعاليم التحليل النفسي تنهض على عدد لا يقع تحت حصر من المشاهدات والتجارب، ووحده من تحقق، في نفسه أو لدى الآخرين، من هذه المشاهدات يملك أن يصدر عليها حكماً شخصياً.



مكتبة
الفكر الجديد

القسم الأول

طبيعة النفسية

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الأول

الجهاز النفسي

ينهض التحليل النفسي على مسلمة أساسية يقع على عاتق الفكر الفلسفي وحده نقاشها، وإن تكن نتائجها العملية هي التي تبرر قيمتها. فما نسمّيه بالنفسية (أو الحياة النفسية) نعرف عنه شيئين: أولاً العضو البدني لهذه النفسية، مسرح عملها، أي المخّ (أو الجهاز العصبي)، وثانياً أفعالنا الشعورية التي لنا بها معرفة مباشرة وليس لأي وصف أن يزيدنا بها علماً. أما كل ما يقع بين هذين القطبين فيبقى مجهولاً لنا، وإن يكن بينهما ارتباط ما فليس من شأنه أن يمدّنا بأكثر من تحديد دقيق لموضع السيرورات الشعورية وحدها، من غير أن يتيح لنا فهمها.

وتتصل فرضياتنا بهذين الحدّين أو هاتين البدايتين لمعرفتنا. والفرضية الأولى ذات صلة بتحديد الموضع. فنحن نسلّم بأن الحياة النفسية وظيفة لجهاز نعزو إليه امتداداً في المكان ونفرض أنه مؤلف من أقسام عدة. ومن ثمّ، إننا نتصوره ضرباً من مقراب أو مجهر أو شيئاً من هذا القبيل. وبناء هذا التصور واستكماله حدث علمي جديد، وإن كانت محاولات مماثلة قد جرت من قبل في هذا السبيل.

إن دراسة التطور الفردي للكائن البشري هي التي أتاحت لنا أن نعرف هذا الجهاز النفسي. ونحن نطلق على أقدم هذه المناطق أو الهيئات النفسية اسم **الهذا**؛ ويشمل مضمونه كل ما يحمله الكائن الإنساني معه عند ولادته، وكل ما هو متعيِّن في الجبِلَّة، أي في المقام الأول الدوافع الغريزية الصادرة عن التنظيم البدني والتي تجد في الهذا، من خلال أشكال مجهولة لنا، أول نمط من أنماط التعبير النفسي[1].

١ ـ إن هذا القسم الأقدم عهداً من أقسام الجهاز النفسي يبقى مدى الحياة أهمَّها إطلاقاً. ودراسته هي التي كانت بمثابة البداية للمبحث التحليلي النفسي.



وتحت تأثير العالم الخارجي الواقعي المحيط بنا، يطرأ على شطر من الهذا تطور خاص. فبدءاً من الطبقة اللحائية الأصلية المزوَّدة بأعضاء قادرة على تلقي التنبيهات، كما على اتقائها، قام تنظيم خاص وما لبث أن صار وسيطاً بين الهذا والخارج. وإنما على هذا الشطر من نفسيتنا نطلق اسم **الأنا**.

الخصائص الرئيسية للأنا: بنتيجة العلاقات التي تكون قد قامت بين الإدراك الحسي والأفعال العضلية، يتأتى للأنا أن يتحكم بالحركات الإرادية. ومهمته هي حفظ الذات وصونها؛ وهو يؤدي هذه المهمة، فيما يتصل بالعالم الخارجي، بتعلمه كيف يتعرف التنبيهات، وبمراكمته (في الذاكرة) الخبرات التي تمدّه بها هذه التنبيهات، وبتحاشيه التنبيهات المفرطة في قوتها (بالهرب)، وبتوصُّله أخيراً إلى تعديل العالم الخارجي على نحو موائم ولصالحه (النشاط). أما في الداخل، فهو يتصدى لمواجهة الهذا باكتسابه السيطرة على مطالب الدوافع الغريزية، وبتقريره هل من الممكن إشباع هذه الدوافع أم هل من الأنسب إرجاء هذا الإشباع إلى حين مؤاتٍ أم هل من الواجب خنق تلك الدوافع أصلاً. ويخضع الأنا في نشاطه لما يوليه من اعتبار للتوترات الناجمة عن تنبيهات الداخل أو الخارج. فزيادة التوتر تسبِّب بالإجمال كدراً، ونقصانها تتولد عنه لذة. بيد أن الكدر أو اللذة غير منوطين في أرجح الظن بالدرجة المطلقة للتوترات، بل بالأحرى بوتيرة تغيراتها. والأنا ينزع إلى اللذة ويسعى إلى تحاشي الكدر. وكل زيادة منتظرة، متوقعة، في الكدر تقابلها **إشارة حصر**؛ وما يطلق هذه الإشارة، من الخارج أو من الداخل، يسمَّى **الخطر**. وبين الحين والحين، يقطع الأنا الروابط التي تربطه بالعالم الخارجي ويخلد إلى النوم حيث يجري على تنظيمه الذاتي تعديلاً مهماً. وتتيح لنا حالة النوم أن نلاحظ أن نمط التنظيم هذا يتمثَّل في توزيع خاص معيَّن للطاقة النفسية.

وعلى امتداد فترة الطفولة المديدة التي يجتازها الفرد الناشئ ويكون عماده في أثنائها على والديه تتشكل في أناه، كما بضرب من الترسب، هيئة خاصة تكون بمثابة امتداد للتأثير الوالديّ. هذه الهيئة هي **الأنا الأعلى**. وبقدر ما ينفصل الأنا الأعلى عن الأنا أو يعارضه، يشكِّل قوة ثالثة لا مناص للأنا من أن يعمل لها حساباً.



وكل تصرف يصدر عن الأنا ويلبي مطالب الهذا والأنا الأعلى والواقع معاً يُعدّ سليماً، وهذا ما يحدث حين يفلح الأنا في التوفيق بين هذه المطالب المتباينة. ومن الممكن دوماً وأبداً فهم خصائص العلاقات بين الأنا والأنا الأعلى إذا أرجعناها إلى علاقات الطفل بوالديه. ومن المحقق أن ما يؤثّر في الطفل ليس شخصية الأهل وحدهم، بل كذلك، وبوساطتهم، تأثير التقاليد العائلية والعرقية والقومية، علاوة على مقتضيات الوسط الاجتماعي المباشر الذي يمثّلونه. ويتأثر أيضاً الأنا الأعلى للطفل، في أثناء تطوره، بخلفاء الأهل وبدائلهم، ومنهم على سبيل المثال بعض المربين وبعض الأشخاص الذين يمثّلون في المجتمع مثلاً عليا موقَّرة. ويتضح لنا أن الهذا والأنا الأعلى، رغم تباينهما الأساسي، تجمع بينهما نقطة مشتركة، إذ يمثّل كلاهما بالفعل دور الماضي؛ فالهذا يمثل أثر الوراثة، والأنا الأعلى أثر ما تلقاه عن الآخرين؛ بينما يتعيَّن الأنا في المقام الأول بما خبره بذاته، أي بما هو عارض وراهن.

إن هذا المخطط العام للجهاز النفسي يصدق أيضاً على الحيوانات العليا التي بينها وبين الإنسان وجه شبه نفسي. ويجدر بنا أن نسلِّم بوجود أنا أعلى حيثما يتعيَّن على الكائن الحيّ أن يمرّ في طفولته، كما لدى الإنسان، بفترة طويلة من الاتكال والتبعية. أما تمايز الأنا عن الهذا فواقع لا مماراة فيه.

ولم يعكف علم نفس الحيوان بعد على الدراسة الشائقة التي تبقى هنا متاحة له.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني

نظرية الدوافع الغريزية

تعبِّر قوة الهذا عن الهدف الحقيقي لحياة الفرد العضوية وتنزع إلى إشباع حاجات هذا الفرد الفطرية. ولا يُعنى الهذا بحفظ الحياة ولا باتقاء الأخطار. فهاتان المهمتان الأخيرتان تقعان على عاتق الأنا الذي يتعيَّن عليه أيضاً أن يكتشف أنسب وسيلة وأقلها خطراً للفوز بإشباع، مع أخذ مقتضيات العالم الخارجي بعين الاعتبار. أما الأنا الأعلى، فعلى الرغم من أنه يمثل حاجات أخرى أيضاً، فإن مهمته الرئيسية تبقى على الدوام كبح الإشباعات.

إننا نطلق على القوى التي تعمل خلف حاجات الهذا الآسرة البالغة التوتر، والتي تمثِّل في الجهاز النفسي المتطلبات البدنية، اسم **الدوافع الغريزية**. وهذه الدوافع محافظة بطبيعتها، رغم أنها تشكِّل العلة الأخيرة لكل نشاط. وبالفعل، إن كل حالة يبلغها يوماً ما الكائن الحيّ تنزع إلى إعادة فرض ذاتها حالما تُترك. ويسعنا أيضاً أن نميِّز عدداً غفيراً من الدوافع الغريزية، وهذا ما هو واقع فعلاً في العادة. على أن ما يهمّنا هو أن نعرف ما إذا لم يكن في الإمكان اختزال هذه الدوافع العديدة إلى عدد محدود من الدوافع الغريزية الرئيسية. وقد تعلمنا أن الدوافع الغريزية يمكن أن تغيِّر هدفها (بالإزاحة والنقل)، وأنها قابلة أيضاً لأن ينوب بعضها مناب بعض، إذ يمكن لطاقة دافع من الدوافع أن تتحول إلى دافع آخر. وهذه الظاهرة الأخيرة لا تزال منقوصة التفسير. وبعد طول تردد وطول أخذ وردّ، قرّ قرارنا على التسليم بوجود دافعين غريزيين رئيسيين فقط: **الإيروس**[1] والدافع الغريزي إلى التدمير (وتقع في نطاق الإيروس غريزتا حفظ الذات وحفظ

---

[1] - إيروس: إله الحب عند الإغريق. واشتقاقه بالعربية مطابق تماماً وبالمعنى نفسه. «م».



النوع المتعارضتان، وكذلك غريزتا الحب الأنوي والحب الموضوعاني[٢]، المتناقضتان بدورهما). وهدف الإيروس إنشاء وحدات متعاظمة الحجم باستمرار والسعي إلى صونها، وبكلمة واحدة، السعي إلى الربط. أما هدف الغريزة الأخرى، على العكس، فهو فصم الروابط كافة، وبالتالي تدمير كل شيء. ومباح لنا أن نفترض أن الهدف النهائي لغريزة التدمير إرجاع الحيّ إلى الحالة اللاعضوية، ولهذا نسميها **غريزة الموت**. فلئن سلَّمنا بأن الكائن الحيّ لم يظهر إلا بعد المادة الهامدة اللامتعضية، وأنه منها خرج، فلا محيد لنا عن الاستنتاج من ذلك أن غريزة الموت تنصاع للقاعدة المتقدم ذكرها والتي تنصّ على أن ما تنزع إليه كل غريزة هو إعادة حالة سابقة واستعادتها. أما بالنسبة إلى الإيروس، غريزة الحب، فليس لنا أن نطبِّق عليها القاعدة عينها لأننا لو فعلنا لكان هذا معناه أننا نصادر على أن الجوهر الحيّ، بعد أن شكّل في البداية وحدة، تجزَّأ في وقت لاحق، ثم بات ينزع إلى معاودة الالتئام من جديد[٣].

إن الغريزتين الرئيسيتين تتعارضان أو تتراكبان في الوظائف البيولوجية. ففعل الأكل مثلاً يستلزم تدمير موضوع ما، على أن يعقبه تمثُّل هذا الموضوع. أما الفعل الجنسي فهو عدوان ينزع إلى تحقيق اتحاد أوثق. هذا التوافق وهذا التناحر بين الغريزتين الرئيسيتين يخلعان على ظاهرات الحياة كل التنوع الذي هو سمة مميِّزة لها. وإذا تجاوزنا مضمار الحياة العضوية وجدنا أن تناظر غريزتينا الرئيسيتين يفضي إلى الزوج المتناقض: التجاذب والتنافر، الذي يهيمن على العالم اللاعضوي[٤].

إن كل تعديل يطرأ على نسبة انصهار الغريزتين تكون له أظهر النتائج. ففرط

---

٢ ـ الموضوعاني: OBJECTAL نسبة إلى الموضوع، وهو مصطلح خاص بالتحليل النفسي من حيث أن الموضوع هو حصراً موضوع الحب أو موضوع الشهوة الجنسية. وقد أضفنا نون النسبة ولم نقل الموضوعي OBJECTIF تحاشياً للخلط. «م».

٣ ـ تخيَّل بعض الشعراء خرافات من هذا القبيل، لكن لا شيء في تاريخ المادة الحية يؤكد تخيّلاتهم.

٤ ـ كان الفيلسوف أمبيذوقلس الأغريغتني(*) قد تبنى منذ القديم هذا التصور للقوى الأساسية أو الغرائز، وهو تصور لا يزال العديد من أنصار التحليل يقابلونه بالرفض.

(*) أمبيذوقلس: فيلسوف وطبيب ومهندس إغريقي من القرن الخامس ق.م. قال بثنائية الحب والكره، وبجدل التماثل والتغاير. «م».



العدوانية الجنسية يقلب المحب إلى قاتل سادي، والنقصان الكبير في هذه العدوانية عينها يحيله خجولاً أو عنِّيناً.

ولا مجال لحصر أي من الغريزتين الرئيسيتين في منطقة بعينها من مناطق النفسية، إذ نلتقيهما حتماً في كل مكان. وهاكم كيف نتصور الحالة البدئية الأولية: فقد كانت كل الطاقة المتاحة للإيروس، التي سنسمِّيها من الآن فصاعداً **بالليبيدو**، موجودة في الأنا/ الهذا غير المتمايز بعد، وكانت تعمل على تحييد النوازع التدميرية الماثلة فيه بدورها (لا نملك بعد مصطلحاً مماثلاً لمصطلح «الليبيدو» للإشارة إلى طاقة الغريزة التدميرية). ويغدو سهلاً علينا نسبياً بعد ذلك أن نتتبَّع المصائر اللاحقة لليبيدو. أما فيما يتصل بغريزة التدمير، فإن هذا التتبع أشدّ عسراً.

فما دامت هذه الغريزة تعمل في الداخل بوصفها غريزة موت، فإنها تظل خرساء ولا تظهر لنا إلا لحظة تتحول إلى الخارج بوصفها غريزة تدمير. ويبدو أن هذا التمويه ضروري لحفظ الفرد، والجهاز العضلي هو الذي يتولى الأمر. ففي زمن تكوّن الأنا الأعلى، تتثبَّت تراكمات كبيرة من غريزة العدوان في داخل الأنا وتعمل فيه كعناصر تدمير ذاتي. وذلك هو أحد الأخطار التي تتهدد سلامة النفسية والتي يعرِّض الإنسان نفسه لها حين يسلك طريق الحضارة. وبالفعل، إن كبح المرء جماح عدوانيته لهو بوجه عام ضارّ ومسبِّب للمرض. وكثيراً ما نلاحظ تحول عدوانية مكبوحة إلى تدمير ذاتي لدى فرد يقلب عدوانه إلى ذاته، فيشدّ في سورة الغضب شعره أو يلطم وجهه بقبضتيه. ومن المحقق أن هذا الفرد كان يؤثر أن يعامِل بهذه المعاملة شخصاً غيره. ويبقى على كل حال قسم من التدمير الذاتي في داخل الفرد إلى أن يفلح في خاتمة المطاف في قتله، وربما لا يكون ذلك إلا بعد أن تُستنفد طاقته الليبيدوية بتمامها أو تتثبت على نحو ضارٍّ. وهكذا يباح لنا أن نفترض أن الفرد يموت بسبب منازعاته الداخلية، بينما لا يهلك النوع، على العكس، إلا بعد صراع فاشل ضد العالم الخارجي، وإلا حين يتغير هذا العالم تغيُّراً لا تعود تكفي معه التكيفات المكتسبة من قبل النوع.

من العسير أن نصف مسلك الليبيدو في الهذا وفي الأنا الأعلى. فكل ما



نعرفه يخصّ الأنا حيث تتراكم، من البداية، كل الكمية المتاحة من الليبيدو. وعلى هذا الوضع نطلق اسم **النرجسية** الأولية المطلقة. وهو يدوم إلى أن يشرع الأنا بتوظيف الليبيدو في تمثلاته عن المواضيع، وبتحويل الليبيدو النرجسي إلى ليبيدو **موضوعاني**. ويبقى الأنا، مدى الحياة كلها، المستودع الكبير الذي منه تنطلق التوظيفات الليبيدوية نحو المواضيع والذي إليه ترتدّ أيضاً على نحو ما يفعل جسم وذفي(٥) حين يمدّ أو يسحب شواه الكاذبة PSEUDOPODES . وإنما في ملاء حالات الحبّ فقط يتحول الشطر الأعظم من الليبيدو إلى الموضوع، ويحلّ هذا الأخير، إلى حدّ ما، محل الأنا. ومن خصائص الليبيدو الهامة الأخرى حركيته، أي اليسر الذي ينتقل به من موضوع إلى آخر. ويقال، على العكس من ذلك، إن الليبيدو يتثبت حين يعلق، وأحياناً طول الحياة، ببعض المواضيع الخاصة.

مما لا جدال فيه أن لليبيدو مصادر بدنية، وأنه ينتشر باتجاه الأنا بدءاً من أعضاء ومواضع مختلفة في الجسم. وهذا ما يتجلى أوضح التجلي في ذلك الشقّ من الليبيدو الذي يعرف، بمقتضى هدفه الغريزي، بالتهيُّج الجنسي. ويطلق اسم **المناطق الشهوية** ZONES ROGANES على تلك الأجزاء من الجسم التي منها ينطلق بصورة رئيسية هذا الليبيدو؛ غير أن الجسم برمته يشكّل، والحق يقال، منطقة شهوية. ومما أتاح لنا بوجه خاص أن نعرف طبيعة الإيروس، ومن ثم ممثّله: الليبيدو، دراسةُ الوظيفة الجنسية التي تتطابق في عرف الجمهور، بله في نظرياتنا العلمية أيضاً، مع الإيروس. وقد تأتّى لنا أن نتبيَّن الكيفية التي يتطور بها رويداً رويداً النازع الجنسي، الذي أتاح له ذلك الدور البالغ الأهمية في حياتنا، بدءاً من مساهمات متعاقبة لدوافع غريزية جزئية عدة تمثّل مناطق شهوية محددة شتى.

٥ ـ الوذفة أو البروتوبلازما: المادة الحية الأساسية في الخلايا الحيوانية والنباتية، وحركتها متمورة تمدّ أو تسحب فيها أقدامها (شواها) الكاذبة. «م».



الفصل الثالث

تطور الوظيفة الجنسية

تنزع الحياة الجنسية للكائن البشري، في عرف التصور الأكثر شيوعاً بين الناس، إلى تحقيق الاتصال في المقام الأول بين الأعضاء الجنسية لفردين من جنس مختلف. وتعدّ القبلات والنظر إلى جسم الشريك ولمسه تظاهرات ثانوية وأفعالاً تمهيدية. والمفروض بالنازع الجنسي أن يظهر عند البلوغ، أي في زمن النضج الجنسي، وأن يكون هدفه التناسل. غير أن بعض الوقائع، المعروفة جيداً، لا تدخل في الإطار الضيق لمثل هذا التصور:

١ ـ فمما يسترعي الانتباه أن بعض الأشخاص لا يشعرون بانجذاب إلا نحو أفراد من نفس جنسهم وإلا نحو الأعضاء التناسلية لهؤلاء الأفراد.

٢ ـ مما يسترعي الانتباه أيضاً أن اللذة التي تساور بعض الأفراد لا تصدر، وإن حافظت على طابع جنسي تام، عن المناطق التناسلية أو لا تستخدمها بصورة عادية، ويسمى هؤلاء الأشخاص بالمنحرفين.

٣ ـ من الواضح، أخيراً، أن بعض الأطفال ـ الذين يُعدّون لهذا السبب منحلّين ـ يهتمون في وقت مبكر للغاية بأعضائهم التناسلية التي تظهر عليها علائم تهيُّج.

لا عجب أن يكون اكتشاف هذه الوقائع الثلاث المغفلة قد أثار ضجة. فالتحليل النفسي، الذي أبرزها وشدَّد عليها، عاكس تيار الأفكار الرائجة شعبياً، ومن هنا جوبه بمعارضة عنيفة. وهاكم النتائج الرئيسية لهذا الاكتشاف:

أ ـ إن الحياة الجنسية لا تبدأ في عهد البلوغ، بل تعلن عن نفسها في زمن مبكر جداً عقب الولادة.



ب ـ من الضروري التمييز بدقة بين مفهوم الجنسي ومفهوم التناسلي. فلفظة الجنسي لها معنى أوسع بكثير، وهي تطال أوجهاً عدة من النشاط لا ضلع لها بالأعضاء التناسلية.

ج ـ تتضمن الحياة الجنسية الوظيفة التي تتيح الظفر بلذة من مناطق شتى في الجسم؛ وهذه الوظيفة يفترض بها في وقت لاحق أن توضع في خدمة التناسل. غير أن هاتين الوظيفتين لا تتطابقان على الدوام تمام التطابق.

إن الأطروحة الأولى، التي هي أبعد الأطروحات الثلاث عن التوقع، هي أيضاً أَوْلاها بالاستئثار بأعظم الاهتمام. فلئن أُنكرت صفة «الجنسية» على بعض وجوه النشاط لدى صغار الأطفال، فليس ذلك إلا نزولاً عند حكم رأي مسبق قديم. فأوجه النشاط هذه ترتبط بظاهرات نفسية لا نعتم أن نلتقيها، في زمن لاحق، في حياة الراشدين الحبية، كالتثبيت، مثلاً، على مواضيع محددة، أو الغيرة، إلخ. ونلحظ أيضاً أن ظاهرات الطفولة الأولى هذه تتطور وفق قواعد معيَّنة، ويطّرد تناميها وصولاً إلى آخر السنة الخامسة من العمر، حيث تبلغ ذروتها لتتوقف بعد ذلك لحين من الزمن. وعند تلك المرحلة يقف التقدم، وتقع جملة من الأشياء في لجة النسيان وتتراجع القهقرى. وبعد هذه المرحلة التي يقال لها مرحلة الكمون، تعاود الجنسية ظهورها عند البلوغ، بل يسعنا القول إنها تزهر من جديد. الحقيقة التي تواجهنا إذاً هنا هي أن الحياة الجنسية **ثنائية الطور** في توطدها، وهذه ظاهرة لا تلحظ إلا عند الكائن البشري وحده، ودورها كبير بلا شك في صيرورته كإنسان[1].

وليس عديم الدلالة أن جميع أحداث هذه المرحلة المبكرة من النشاط الجنسي تخضع، خلا استثناءات نادرة، **للنساية الطفلية**، وهذه ظاهرة لا يجوز أن تقابل منا بعدم الاكتراث. وبالفعل، إن ملاحظة هذه النساية هي التي أتاحت لنا أن

١ ـ ثمة فرضية تذهب إلى أن الإنسان تحدّر من حيوان ثديي كان نضوجه الجنسي يتمّ في السنة الخامسة من عمره. ثم طرأ حدث خارجي كبير مجهول منا أخلّ بالتقدم المطَّرد للنوع وأوقف تطور الجنسية لديه. وقد يكون هذا أيضاً أصل بعض الفروق الأخرى في الحياة الجنسية بين الإنسان والحيوانات، ومنها مثلاً انتفاء التأثير الموسمي على الليبيدو، واستخدام دور الحيض في العلاقة بين الجنسين.



نكوّن فكرة عن أسباب الأعصبة وأن نضع طريقتنا في العلاج التحليلي. وعلاوة على ذلك، أمدّتنا دراسة سيرورات النمو والتطور في طور الطفولة ببراهين تؤيد استنتاجات أخرى لنا.

إن أول عضو يعلن عن نفسه كمنطقة شهوية ويطرح مطالب ليبيدوية على النفسية هو، منذ الولادة، الفم. فكل النشاط النفسي يتركز أولاً على إشباع حاجات هذه المنطقة. ولا شك في أن التغذية تلبي، قبل كل شيء، الحاجة إلى حفظ الذات. لكن لنحاذر الخلط بين الفيزيولوجيا والسيكولوجيا. فالطفل يدلل في وقت مبكر جداً، بتشبّثه بالمصّ، على أن فعله هذا يعود عليه بالرضى. وهذا الشعور بالرضى، وإن استمدّ أصله من التغذية، يبقى مع ذلك مستقلاً. وما دامت الحاجة إلى المصّ تنزع إلى توليد لذة، فمن الممكن ومن الواجب أن توصف بأنها **جنسية**.

ومنذ هذا الطور الفموي، ومع ظهور الأسنان الأولى، تبرز بعض النوازع السادية بصورة منعزلة. ويزداد بروزها زيادة كبيرة في الطور الثاني، الذي نسمّيه بالطور السادي ـ الشرجي، لأن الشعور بالرضى يتأتى من العدوانية ومن الوظيفة الإخراجية. ولئن خوّلْنا أنفسنا الحقَّ في إدراج النوازع العدوانية في الليبيدو، فذلك لأننا نعتقد أن السادية مزيج غريزي من ليبيدوية خالصة ومن ميول تدميرية خالصة، وهو مزيج يدوم أبد العمر[٢].

أما الطور الثالث الذي نسمّيه بالقضيبي فيسبق مباشرة الحالة النهائية للحياة الجنسية ويكون بينه وبينها شبَه كبير. ولنلحظ أن الأعضاء التناسلية الذكرية (القضيب) هي وحدها التي تلعب في هذا الطور دوراً. أما الأعضاء التناسلية الأنثوية فتبقى ردحاً من الزمن مجهولة؛ ذلك أن الطفل، حينما يسعى إلى فهم الظاهرات الجنسية، يأخذ بنظرية المخرج الموقرة[٣]، وهي نظرية لها ما يبررها

٢ ـ ينبغي أن نتساءل عما إذا كان إشباع الحاثّات الغريزية التدميرية الخالصة حقيقاً بتوليد لذة، وعما إذا كان هناك تدمير محض بدون عناصر ليبيدوية. ولا يبدو أن إشباع الرسابات التي تتبقى في الأنا من غريزة الموت يتمّ بدون أن يولّد لذة، على الرغم من أن المازوخية تمثّل مزيجاً مماثلاً تماماً للسادية.

٣ ـ نظرية المخرج CLOAQUE: تصور طفلي يحسب أن الأطفال، نظير البراز، يولدون من «الخلف»، أي من الشرج. ويرتّب المذهب التحليلي النفسي على هذا الخلط بين المهبل والشرج نتائج هامة، ومنها نفي الدور الشهوي للمهبل، وربط الجنس بالعدوان وبمشاعر الخوف عند الاتصال الجنسي. «م».



من وجهة النظر التكوينية[٤].

مع الطور القضيبي وفي أثنائه تدرك الجنسية الطفلية ذروتها وتقترب من طور أفولها. ومن الآن فصاعداً سيختلف مصير كل من الصبي والبنت. فقد بدأ كلاهما بأن وضَع نشاطه الذهني في خدمة الاستقصاء الجنسي، وأخذ كلاهما بفرضية عمومية وجود القضيب. غير أن الطريقين اللذين يسير فيهما الجنسان سيفترقان. فالصبي الصغير يدخل في الطور الأوديبي ويشرع بمعابثة قضيبه ويرفق هذه المعابثة بتخيّلات ذات صلة بنشاط جنسي مداره على الأم. غير أن الصبي الصغير لا يعتم تحت تأثير صدمتين متزامنتين: التهديد بالخصاء وملاحظة فقدان القضيب عند المرأة، أن يتعرض لأعظم رضة في حياته، وهي الرضة التي تعقبها لاحقاً مرحلة الكمون بكل نتائجها. أما البنت الصغيرة فبعد محاولات فاشلة لتقليد الصبي تدرك فقدانها للقضيب أو بالأحرى دونية بظرها، الأمر الذي يكون له آثار دائمة في تكوين طبعها؛ فهذه الخيبة الأولى في مضمار المنافسة تدفع بها في كثير من الأحيان إلى عزوف أول عن الحياة الجنسية بصفة عامة.

من الخطل أن نحسب أن هذه المراحل الثلاث ذات حدود مرسومة بوضوح. فقد توازي واحدتها الأخرى أو قد تتداخل معها أو قد تتطابق. وفي الأطوار المبكرة تعمل شتى الدوافع الغريزية الجزئية بصورة مستقلة عن بعضها بعضاً في سبيل كسب مقدار ما من اللذة. وإنما في أثناء الطور القضيبي ترضخ بقية النوازع لزعامة الأعضاء التناسلية ويندمج الطلب العام للذة بالوظيفة الجنسية. ولا يكتمل التنظيم إلا مع البلوغ، وإلا في طور رابع، هو الطور التناسلي. وتجري الأمور في هذا الطور على النحو الآتي: ١ ـ تبقى توظيفات قديمة شتى لليبيدو قائمة؛ ٢ ـ تندمج توظيفات أخرى في الوظيفة الجنسية لتشكّل الأفعال الثانوية أو التمهيدية التي ينشأ عن إشباعها ما يسمى باللذة التمهيدية؛ ٣ ـ يجري استبعاد نوازع أخرى من التنظيم، إما بالقمع الشامل (الكبت)، وإما بتعديل دورها في الأنا؛

٤ ـ ذهب بعضهم تكراراً إلى أن التهيُّجات المهبلية يمكن أن تطرأ في وقت مبكر للغاية لكنها لا تعدو في الأرجح في هذه الحال أن تكون تهيُّجات بظرية، أي تهيُّجات في عضو مشابه للقضيب، وبذلك لا يسقط حقنا في وصف هذا الطور بأنه قضيبي.



فتشكّل بعض سمات طبعية أو تخضع لإسماء SUBLIMATION مصحوب بنقل للهدف.

لا تتم هذه السيرورة على الدوام بلا ضرر، وضروب الكفّ INHIBITION التي تعيق مجراها تتظاهر في شكل اضطرابات مختلفة في الحياة الجنسية. عندئذ يبقى الليبيدو مثبّتاً على الحالات المميِّزة للأطوار المبكرة من النمو، وتحدث ضروب شتى من الحيدان عن الهدف السوي تسمَّى بالانحرافات. وتقدِّم لنا الجنسية المثلية عندما تكون سافرة مثالاً على اضطرابات النمو هذه. ويبيِّن التحليل أن ثمة وجوداً على الدوام وفي جميع الحالات لعلاقة موضوعانية جنسية مثلية، وكل ما هنالك أن هذه الجنسية المثلية تبقى في أغلب الحالات كامنة. والسيرورات التي تؤدي إلى قيام حالة سوية لا تتحقق أبداً بتمامها كما لا تنعدم أبداً بتمامها. فليس لها إجمالاً سوى طابع جزئي، بحيث يتوقف المآل النهائي على علاقات كمية. وواضح للعيان مدى تعقيد هذا الوضع. وهكذا، إن التنظيم التناسلي يبقى، حتى وإن قام، محروماً من جميع أجزاء الليبيدو التي لم يقيَّض لها التطور والتي لبثت مثبَّتة على المواضيع والأهداف القبتناسلية. ويتجلى هذا الضعف، في حالات عدم الإشباع الجنسي أو العقبات الفعلية، في نزوع الليبيدو إلى التراجع نحو التوظيفات القديمة القبتناسلية، أي إلى **النكوص**.

لقد انتهينا، في أثناء دراستنا الوظائف الجنسية، إلى اقتناع أول ومسبق أو، بتعبير أدقّ، إلى اشتباه أول بصدد نقطتين ستدللان لاحقاً على أهميتهما في هذا المضمار بجملته. أولاهما أن الظاهرات السوية أو غير السوية التي نلاحظها (وتلك هي الفينومينولوجيا) تقتضي أن توصف من الزاوية الدينامية أو الاقتصادية (في الحالة التي نحن بصددها يتعيَّن علينا أن نسعى إلى معرفة التوزيع الكمي لليبيدو)، وثانيتهما أن أسباب الاضطرابات التي ندرسها ينبغي البحث عنها في تاريخ تطور الفرد، أي في طفولته.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الرابع

الكيفيات النفسية

وصفنا بنية الجهاز النفسي، والطاقات أو القوى التي تفعل فيه. ورأينا، من خلال مثال بيِّن، كيف تنتظم هذه الطاقات، وفي المقام الأول الليبيدو، في وظيفة فيزيولوجية هدفها حفظ النوع. على أن هذا كله لم يكن له طابع نفسي حصري فيما خلا، بطبيعة الحال، الواقعة التالية التي يمكن التحقق منها بالتجربة: وهي أن الجهاز والطاقات المشار إليها هي بمثابة الأساس بالذات للوظائف التي تعرف بالوظائف النفسية. وعليه لننظر الآن في ما هو، في عرف التصور الشائع، سمة موقوفة على الظاهرة النفسية، وما يجعل منها ظاهرة فريدة في نوعها.

إن نقطة الانطلاق لبحثنا تتيحها لنا واقعة منقطعة النظير، لا سبيل إلى تفسيرها أو وصفها، هي الشعور. ومع ذلك، حالما يدور الكلام عن الشعور، يعرف كل واحد للحال، وبالخبرة، ما المقصود به[1]. ويقنع الكثيرون من الناس، سواء أكانوا من العاملين أم غير العاملين في الأوساط العلمية، بالافتراض أن الشعور هو وحده قوام النفسية كلها، وأنه ليس لعلم النفس بالتالي من مهمة في هذه الحال غير أن يميِّز، في داخل نطاق الفينومينولوجيا النفسية، بين الإدراكات والإحساسات والسيرورات الذهنية والأفعال الإرادية. ومع ذلك يتفق رأي الجميع على أن هذه السيرورات الشعورية لا تشكّل سلسلة متصلة مغلقة على نفسها

١ ـ يرى اتجاه متطرف، نظير السلوكية(*) التي رأت النور في أميركا، أن بوسعه أن ينشئ علم نفس لا يقيم اعتباراً لهذه الواقعة الأساسية.

(*) السلوكية: نظرية سيكولوجية متطرفة قال بها جون براودس واطسون (١٨٧٨ ـ ١٩٥٨) الذي أراد أن يجعل من علم النفس علماً موضوعياً بحصره وظيفته بدراسة سلوك الإنسان من خلال ردّ فعله على المنبّه الخارجي دونما أي اعتبار للاستبطان، مثاله في ذلك مثال كلب بافلوف الشهير. «م».



وبلا ثغرات، وهذا ما يوجب التسليم بوجود سيرورات فيزيقية أو بدنية مصاحبة للظاهرات النفسية، وأدنى إلى الاكتمال من سلاسل هذه الأخيرة، إذ يشتمل بعضها على سيرورات شعورية موازية بينما لا يشتمل بعضها الآخر على شيء من هذا القبيل. يبدو طبيعياً إذاً أن نلحّ في علم النفس على هذه السيرورات البدنية، وأن نرى فيها خاصية ما هو نفسي صرف، وأن نحاول تقييم السيرورات الشعورية تقييماً مغايراً. بيد أن أغلب الفلاسفة، وكثيرين سواهم، يثورون على هذه الفكرة ويعلنون أن المصادرة على وجود نفسية لاشعورية خُلْف وإحالة.

ومع ذلك، فهذا بالضبط ما يتعيَّن على التحليل النفسي أن يفعله، وتلكم هي بالتحديد فرضيته الرئيسية الثانية. فهو يؤكد أن السيرورات المصاحبة التي يُزعم أنها من طبيعة بدنية هي بالتحديد قوام ما هو نفسي بحصر المعنى. ومن ثم لا يشغل نفسه بصفة الشعور، في بادئ الأمر على الأقل. ولا ينفرد التحليل النفسي أصلاً بإبداء مثل هذا الرأي. فقد أفصح مفكرون آخرون، ومنهم مثلاً ث. ليبس lipps[٢]، عن وجهة نظر مماثلة في ألفاظ مماثلة؛ ونظراً إلى أن التصور الشائع عن ماهية النفس لا يرضي الفكر، فقد كان من المحتم أن تفرض فكرة وجود لاشعور نفسها بمزيد من القوة على علم النفس، لكن على نحو شديد الإبهام والغموض، مما شلَّها عن التأثير في العلم[٣].

---

٢ ـ ثيودور ليبس: فيلسوف ألماني (١٨٥١ ـ ١٩١٤). اشتهر بدراساته في مجال معرفة الغير كمقابل لمعرفة الذات من خلال التعاطف الوجداني معه. أسس المعهد السيكولوجي في ميونيخ وكان له دور تعليمي نافذ في الجامعات الألمانية. وكان من أوائل من ساند من الجامعيين الألمان نظرية فرويد عن اللاشعور قبل أن يميل إلى الانحياز إلى فينومينولوجيا إدموند هوسرل. من مؤلفاته: **دليل علم النفس، الفلسفة والواقع، علم الجمال، مناقشة حول المأساة**. «م».

٣ ـ في أوراق المؤلف التي نشرت بعد وفاته وجدت صياغة أخرى يعود تاريخها إلى تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٣٨، ننقل منها المقاطع التالية:

«.. والعجيب أن الجميع، أو الجميع تقريباً، يتفق رأيهم على أن يجدوا لكل ما هو نفسي طابعاً مشتركاً، طابعاً يعبّر عن ماهيته بالذات. إنه الطابع الوحيد، الذي يندّ عن الوصف، والذي لا حاجة به أصلاً إلى أن يوصف، للشعور. فكل ما هو شعوري هو نفسي، وبالعكس، كل ما هو نفسي هو شعوري. وأنى لنا أن نماري في بديهية كهذه! لكن لنقرّ مع ذلك بأن هذه النظرة إلى الأمور لم توضِّح ماهية النفسية، إذ اصطدم البحث العلمي هنا بجدار، فما اكتشف أي درب يمكن أن يتخطى به هذا الحاجز. ثم إن المماثلة بين النفسي والشعوري تقود القائم بها ـ وهذه نتيجة مؤسفة ـ إلى فصل السيرورات النفسية عن مجمل الظاهرات الكلية، فتتبدى هذه السيرورات وكأنها شيء قائم بذاته.



قد يميل المرء إلى أن يرى في هذا الخلاف بين التحليل النفسي والفلسفة مجرد مسألة تنصبّ على التعريف: «فأي سلسلة من سلاسل الظاهرات ينبغي أن نختصَّها بالوصف بأنها «نفسية»؟ والواقع أن هذه المسألة ارتدت أعظم الأهمية. فعلى حين أن علم نفس الشعور ما كان يسعه قط الخروج من نطاق هذه

«وما كان من الممكن القبول بفكرة كهذه. إذ كيف لنا، بالفعل، أن نتجاهل أن الظاهرات النفسية ترتبط إلى حدّ كبير بالظاهرات البدنية وأنها، بالعكس، تؤثّر تأثيراً قوياً فيها أيضاً؟ والحق، لئن وجد الفكر الإنساني نفسه يوماً في درب مسدود، فإنما في هذا المضمار تحديداً. وقد اضطر الفلاسفة، بحثاً عن مخرج، إلى التسليم ولو بوجود سيرورات عضوية موازية للسيرورات النفسية ومرتبطة بها على نحو يمكن تفسيره. وتفسح هذه السيرورات في المجال أمام المبادلات بين «النفس والجسم» وتدرج من جديد الظاهرة النفسية في مجمل الحياة. غير أن هذا التفسير ليس بدوره مقنعاً.

«لقد خرج التحليل النفسي من هذا المأزق بأن أنكر بقوة مماثلة النفسي بالشعوري. كلا، إن الشعور ليس ماهية النفسي حصراً، بل صفة من صفاته فحسب، وصفة متقلبة، غائبة أكثر منها حاضرة في الغالبية العظمى من الأحوال. والعنصر النفسي يبقى بحدّ ذاته، وأياً تكن طبيعته، لاشعورياً، شبيهاً في ذلك، أرجح الظن، بسائر الظاهرات الطبيعية الأخرى التي نعرفها...

«في رأينا أن مسألة علاقات الشعور بالنفسية قد وجدت حلَّها الآن: فما الشعور إلا كيفية (خاصية)، متقلبة أصلاً، من كيفيات النفسية. لكن يبقى علينا بعد أن نفنّد اعتراضاً: فعلى الرغم من الوقائع التي تكلّمنا عنها يزعم بعضهم أنه لا يجوز العزوف عن فكرة وحدة الهوية بين النفسي والشعوري لأن السيرورات النفسية التي تُعرف باللاشعورية لا تعدو أن تكون سيرورات عضوية موازية لسيرورات النفسية ومعترفاً بها منذ القديم. وعلى هذا، إن المشكلة التي نريد حلَّها لا تعدو بدورها أن تكون مسألة باطنة تنصبّ على التعريف. وجوابنا على ذلك أنه من غير المعقول، ومن غير المناسب بالفعل، تحطيم وحدانية الحياة النفسية لصالح تعريف ليس إلا، في الوقت الذي نعاين فيه أن الشعور لا يمدّنا إلا بسلاسل من تظاهرات غير كاملة، مليئة بالثغرات. أفمن قبيل المصادفة وحدها ألا نكون قد توصّضلنا إلى تقديم نظرية شاملة متماسكة عن النفسية إلا بعد أن عدّلنا تعريفها؟

«لنحاذر على كل حال من الاعتقاد بأن التحليل النفسي هو الذي ابتكر نظرية النفسية هذه. فقد أكَّد فيلسوف ألماني، هو ثيودور ليبس، جازماً أن اللاشعور سمة مميزة للظاهرة النفسية. وقد كان مفهوم اللاشعور يقرع منذ زمن بعيد أبواب علم النفس، وكان بينه وبين الفلسفة، وكذلك بين الأدب، مغازلة، ولكن العلم ما كان يعرف كيف يستخدمه. وقد تبنى التحليل النفسي هذه الفكرة وحملها على محمل الجدّ وأفرغ عليها مضموناً جديداً. وقد اهتدت الأبحاث التحليلية النفسية إلى سمات معيّنة للنفسية اللاشعورية ما كان أحد اشتبه بها بعد، واكتشفت بعض القوانين التي تحكمها. ولا نقصد بذلك أن الكيفية الشعورية قد فقدت قيمتها في نظرنا. فهي تبقى المنارة الوحيدة التي تضيء لنا وتسدِّد خطانا في ديماميس الحياة النفسية. وبالنظر إلى الطبيعة الخاصة لمعرفتنا، فإن قوام مهمتنا العلمية في مضمار علم النفس أن نترجم السيرورات اللاشعورية إلى سيرورات شعورية لنردم على هذا النحو ثغرات إدراكنا الشعورية».



السلاسل المليئة بالثغرات والمرتبطة بكل وضوح بشيء آخر، فإن المفهوم القائل إن العنصر النفسي هو في ذاته لاشعوري أتاح لعلم النفس أن يصير فرعاً، مشابهاً لغيره من الفروع، من العلوم الطبيعية. فالظاهرات التي يدرسها علم النفس ليست في ذاتها أكثر قابلية للمعرفة من الظاهرات التي تدرسها العلوم الأخرى، كالكيمياء أو الفيزياء مثلاً، لكن من الممكن تعيين القوانين التي تحكمها وإخضاع علاقاتها المتبادلة وارتهان بعضها ببعضها الآخر للملاحظة على نطاق واسع وبلا ثغرات. وهذا ما يسمى بالوصول إلى «فهم» هذه الفئة من الظاهرات الطبيعية؛ وهو أمر يقتضي خلق فروض ومفاهيم جديدة؛ على أنه لا يجوز أن نعدّ هذه الفروض والمفاهيم المستحدثة أدلة على ما نتخبط فيه من حرج، بل ينبغي أن نرى فيها إغناء لمعارفنا. ويخلق بنا أن ننظر إليها من الزاوية عينها التي ننظر منها إلى فروض العمل التي تلجأ إليها في العادة علوم طبيعية أخرى، وأن نعزو إليها القيمة التقريبية نفسها. وإنما من التجارب المتراكمة والمنتخبة تنتظر هذه الفروض تعديلاتها وتصحيحاتها، كما تتوقع تعييناً أكثر دقة ووضوحاً. فهل لنا أن نعجب إن بقيت المفاهيم الأساسية للعلم الجديد (الدافع الغريزي، الطاقة العصبية، إلخ)، بل مبادئه بالذات، بعيدة لأجل مديد من الزمن عن التعيين والتحديد، مثلها في ذلك مثل مفاهيم العلوم الأقدم عهداً (القوة، الكتلة، الجاذبية، إلخ)؟

إن كل علم يستند إلى مشاهدات وتجارب ينقلها إلينا جهازنا النفسي، لكن بما أن هذا الجهاز عينه هو موضوع دراستنا، فإن المماثلة تقف عند هذا الحدّ. فمشاهداتنا نجريها بمساعدة الجهاز الإدراكي عينه، اعتماداً منا فقط على انقطاع الارتباط في سلاسل السيرورات النفسية. وبالفعل، إننا نردم الفجوات باستدلالات معقولة شبه بديهية، ونترجمها إلى مادة شعورية. وبعملنا هذا نضيف، إن جاز التعبير، إلى الظاهرات النفسية اللاشعورية سلسلة متممة من الوقائع الشعورية. ويقوم اليقين النسبي لعلمنا عن النفسية على القوة الإقناعية لاستدلالاتنا. ومن يبغِ التعمق في هذه المسألة فسيجد أن تقنيتنا تصمد بقوة أمام كل نقد.

ينجذب اهتمامنا، في أثناء عملنا، نحو بعض التمايزات التي تشكّل ما نسميه



بالكيفيات النفسية. ولا حاجة بنا إلى أن نشرح هنا ما نسميه **بالشعور**، فهو عينه الشعور لدى الفلاسفة ولدى الجمهور العريض(٤). وكل ما عداه من البنية النفسية، هو في رأينا، اللاشعور. ولن نجد مفراً من أن نجري في هذا اللاشعور تمييزاً هاماً. فعدد من السيرورات تغدو، بالفعل، شعورية بسهولة، ثم تكفّ عن أن تكون شعورية لتعود فتصبح كذلك من جديد بلا عناء. فهي تستطيع، كما يقال، أن ترجع إلى الذاكرة وأن تستعاد وتستظهر. ولا يغب عنا هنا أن الحالة الشعورية هي من أكثر الحالات سرعة زوال، إذ لا يبقى الشعوري شعورياً إلا لهنيهة من الزمن. ولئن لم تؤيد إدراكاتنا هذه الواقعة، فليس لنا أن نرى في ذلك سوى تناقض ظاهري مردّه إلى أن التنبيهات يمكن أن تدوم زمناً ما، بحيث يتأتى لإدراكنا لها أن يتكرر طوال هذا الزمن. ويتوضح هذا الوضع متى تفحصنا الإدراك الشعوري لسيروراتنا التفكيرية. فصحيح أن هذه السيرورات قابلة لأن تدوم، لكنها قابلة أيضاً لأن تتوقف في مثل لمح البصر. وسوف نقول عن هذا القسم من اللاشعور، الذي يبقى لاشعورياً تارة ويغدو شعورياً طوراً، إنه «قابل لأن يصير شعورياً»، وسوف نحبِّذ أن نطلق عليه اسم **القبشعور**. وتدلّ التجربة أنه لا وجود تقريباً لسيرورة نفسية، مهما تكن معقدة، يتعذر عليها أن تبقى أحياناً قبشعورية، وإن كانت تسعى في العادة إلى الدلوف إلى الشعور، كما نقول.

ثمة سيرورات أو مضامين نفسية أخرى تواجه صعوبة أكبر في الدلوف إلى الشعور. ولا مفرّ من أن تُستنتج وتكتشف ويُعثر لها على ترجمتها الشعورية. ولها تحديداً نحتفظ باسم اللاشعور بحصر المعنى. إننا نعزو إذاً إلى السيرورات النفسية كيفيات ثلاثاً: فهي إما شعورية وإما قبشعورية وإما لاشعورية. والتمييز الذي يمكن أن يقام بين هذه الفئات الثلاث من المضامين التي إليها تنتمي هذه الكيفيات ليس مطلقاً ولا دائماً. فالقبشعوري، كما رأينا، يمكن أن يصير شعورياً،

---

٤ ـ تجدر الإشارة إلى أن الشعور بالألمانية BEWUSSTEHEIT، كما باللغات اللاتينية، يعني أيضاً الوعي CONSCIENCE. وبالمقابل، إن الترجمة العربية لهذا المصطلح بالشعور (وكذلك اللاشعور مقابل اللاوعي INCONSCIENT) تقيم فاصلاً اختصاصياً بين اللغة التحليلية النفسية وبين لغة عامة الناس. «م».



بلا تدخل من قبلنا. واللاشعوري يمكن أن يصبح، بفضل جهودنا، شعورياً؛ وكثيراً ما يتراءى لنا في هذه الحال أنه يتعيَّن علينا، للوصول إلى ذلك، التغلب على مقاومات بالغة الشدة. وعندما نقوم بهذه المحاولة على شخص آخر، يخلق بنا أن نتذكر أنه لا يكفينا أن نردم الفجوات في إدراكاته وأننا، إذ نتيح له أن يعيد بناء الأحداث، لا نكون أفلحنا بالضرورة في تحويل المواد اللاشعورية المعنية عنده إلى مواد شعورية. والحق أن هذا المضمون يكون مزدوج التثبيت في نفسيته، أولاً من خلال ما أتحناه له من إعادة بناء للشعوري ، وثانياً في الشكل البدائي اللاشعوري. وبمواصلتنا مجهودنا نتوصل في العادة إلى تحويل المضمون اللاشعوري إلى مضمون شعوري، فيتطابق عندئذ التثبيتان. وتتيح لنا شدة جهودنا أن نقيس المقاومة التي تعترض سبيل التحول إلى الشعور والتي تتفاوت من حالة إلى أخرى. كذلك، إن النتيجة التي نظفر بها بعد لأي في أثناء العلاج التحليلي يمكن أن تحدث بصورة تلقائية أيضاً، وذلك عندما ينقلب أحياناً مضمون لاشعوري في العادة إلى مضمون قبشعوري قبل أن يصبح شعورياً، وهذا ما يحدث في الحالات الذهانية على نطاق واسع. ومن ذلك نستنتج أن بقاء بعض المقاومات الداخلية هو واحد من شروط الحالة السوية. وفي أثناء النوم بصفة عامة ترتفع المقاومات ويندفع بنتيجة ارتفاعها المضمون اللاشعوري، فتتاح بالتالي للأحلام إمكانية التكون. وعلى العكس من ذلك، قد يحدث أن يبقى المضمون القبشعوري بعيد المنال لأمد من الزمن، إذ تعترض بعض المقاومات سبيل تحوله إلى الشعور، كما في حالة النسيان العابر (الهفوات). وكذلك قد ترتد الفكرة القبشعورية بصورة مؤقتة إلى الحالة اللاشعورية، وذلك هو شرط النكتة فيما يبدو. وسوف نرى أن هذا الضرب من ارتداد المضامين (أو السيرورات) إلى الحالة اللاشعورية يلعب دوراً هاماً في نشوء الأمراض العصابية.

إن نظرية الكيفيات الثلاث للظاهرات النفسية تبدو، في هذا الشكل العام والمبسَّط الذي قدمْناها به، وكأنها عامل تشويش للأشياء لا عامل توضيح. بيد أنه يخلق بنا ألا ننسى أنها ليست نظرية بحصر المعنى، بل هي مجرد تقرير أولي عن وقائع مشاهدة، تقرير أولي يسعى، لا إلى تفسير هذه الوقائع، بل إلى الإحاطة



بها عن أقرب قرب ممكن. ومن شأن التعقيدات التي تتكشف لنا على هذا النحو أن تظهر للعيان كثرة العقبات التي تصطدم بها أبحاثنا. على أن كل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن معرفة العلاقات التي تقوم بين الكيفيات النفسية وبين أقاليم الجهاز النفسي أو هيئاته التي نصادر على وجودها ستتيح لنا فهماً أفضل للأشياء، وإن تكن هذه العلاقات بعيدة بدورها عن أن تكون بسيطة.

إن الصيرورة الشعورية تتعلق قبل كل شيء بالإدراكات التي تتلقاها أعضاء حواسنا من الخارج. هذه الظاهرة تحدث إذاً، من وجهة النظر الطبوغرافية، في الطبقة اللحائية الأكثر خارجية من الأنا. ونحن لا ننكر أن بعض المعلومات الشعورية تأتينا أيضاً من داخل جسمنا، وتتمثّل بالمشاعر التي لها على حياتنا النفسية تأثير أعظم وقعاً بعد من الإدراكات الخارجية. وأخيراً تصدر عن أعضاء الحواس، في ظروف شتى، علاوة على إدراكاتها الخاصة بها، مشاعر وأحاسيس مؤلمة. وهذه الأحاسيس، كما نسمّيها تمييزاً لها عن الإدراكات الشعورية، تنبعث أيضاً من أعضائنا الطرفية. والحال أننا نعتبر هذه الأعضاء استطالات وتشعبات للطبقة اللحائية، الأمر الذي يتيح لنا أن نتمسك بوجهة النظر التي تقدَّم بيانها. وحسبنا أن نقول إن الجسم عينه ينوب مناب العالم الخارجي بالنسبة إلى الأعضاء الطرفية، المستقبِلة للأحاسيس والمشاعر.

لكم كان الأمر سيبدو بسيطاً لو أمكن لنا أن نعيّن موقع السيرورات الشعورية في محيط الأنا، وموقع كل الباقي اللاشعوري في داخل الأنا! وربما كان هذا واقع الحال لدى الحيوانات؛ غير أن الأمور أكثر تعقيداً لدى الإنسان بالنظر إلى وجود عمليات باطنة في الأنا قابلة أيضاً لأن تغدو شعورية. واللغة هي التي تتيح إمكانية إقامة ارتباط وثيق بين المضامين الأنوية والبقايا الذاكرية من الإدراكات البصرية، وعلى الأخص السمعية. ومن هنا يكون المحيط الإدراكي للطبقة اللحائية قابلاً للتنبيه من الداخل أيضاً على نطاق أوسع بكثير. ومن الممكن أيضاً لبعض السيرورات الباطنة، نظير تيارات التمثلات والسيرورات التفكيرية، أن تغدو شعورية، ولذلك تكون ثمة حاجة إلى جهاز خاص يوكل إليه أمر التمييز بين الاحتمالين. وهو الذي يتولج بما نسميّه **امتحان الواقع**. وبذلك تبطل معادلة



الإدراك ـ الواقع (العالم الخارجي). كما أن الأخطاء، التي تحدث من الآن فصاعداً بيسر وسهولة، والتي لا يكاد يخلو منها في العادة حلم، تسمَّى **بالهلوسات**.

إن داخل الأنا، الذي يحتوي في المقام الأول على السيرورات التفكيرية، ينتمي ككيفية إلى القبشعور. والقبشعور سمة مميِّزة للأنا وموقوفة عليه حصراً. على أنه لا يصحّ الافتراض بأن الارتباط بالبقايا الذاكرية للكلام هو شرط الحالة القبشعورية: فهذه الحالة مستقلة بالأحرى عن شرط كهذا، على الرغم من أن انشراط سيرورة ما بالكلام يتيح لنا أن نستنتج على وجه اليقين أن هذه السيرورة هي من طبيعة قبشعورية. إن الحالة القبشعورية المتسمة من جانب أول بالقدرة على بلوغ الشعور، ومن الجانب الثاني بارتباطها بالبقايا الذاكرية للكلام، لهي حالة خاصة لا تستنفد هاتان الصفتان طبيعتها. وبرهاننا على ذلك أن أجزاء كبيرة من الأنا، وعلى الأخص من الأنا الأعلى، الذي لا يمكن أن ننكر عليه طابعه القبشعوري، تبقى بالإجمال لاشعورية، بالمعنى الوصفي للكلمة. وإننا لنجهل العلة التي توجب أن يكون الأمر كذلك، ولسوف نحاول فيما بعد أن نتصدى لمعضلة الطبيعة الحقيقية للقبشعور.

أما اللاشعور فهو الكيفية الوحيدة التي تسود داخل الهذا. وتجمع بين الهذا واللاشعور روابط وثيقة مماثلة لتلك التي تربط بين الأنا والقبشعور، بل إن الرابط هنا أوثق. ولو ألقينا نظرة استرجاعية على تاريخ فرد من الأفراد وعلى تاريخ جهازه النفسي، لتأتَّى لنا أن نجري في الهذا تمييزاً هاماً. ففي الأصل كان الهذا هو كل شيء. ولقد تطور الأنا بدءاً من الهذا تحت التأثير المتواصل للعالم الخارجي. وفي أثناء هذا التطور الوئيد انتقلت بعض مضامين الهذا إلى الحالة القبشعورية، فاندمجت على هذا النحو بالأنا. بينما بقيت مضامين أخرى بلا تغيير في الهذا، فشكلت نواته التي يعسر النفاذ إليها. غير أن الأنا الفتي والضعيف يكون قد نبذ إلى اللاشعور، في خلال هذا التطور، بعض المضامين التي سبق له أن دمجها به، وسلك المسلك عينه حيال انطباعات جديدة عدة كان في مقدوره استقبالها، بحيث ما تسنى لهذه الانطباعات المنبوذة أن تخلِّف أثراً إلا في الهذا. وإنما على



هذا القسم من الهذا نطلق، بالنظر إلى أصله، اسم **المكبوت**، ولا يتأتى لنا على الدوام أن نميِّز تمييزاً دقيقاً واضحاً بين هذين الضربين في مضمون الهذا، وليس هذا بأمر ذي بال أصلاً؛ حسبنا أن نقول إن الهذا يتضمن مضامين فطرية ووقائع مكتسبة في مجرى تطور الأنا.

نحن نسلِّم إذاً بانقسام طبوغرافي للجهاز النفسي إلى أنا وإلى هذا، وهو انقسام يناظر الكيفيتين القبشعورية واللاشعورية. ونحن نعتقد أيضاً أن هاتين الكيفيتين هما مجرد مؤشر إلى الفارق وليستا جوهره. فما الطبيعة الحقيقية إذاً للحالة التي تتجلى في الهذا بكيفيتها اللاشعورية، وفي الأنا بكيفيتها القبشعورية؟ وما قوام هذا الاختلاف؟

إننا نقرّ بأننا لا ندري من الأمر شيئاً، وليس ثمة سوى بصيص باهت يضيء الظلمات الدامسة لمعرفتنا. فهنا على وجه التحديد نقترب من اللغز الحقيقي للظاهرات النفسية الذي لم يجد حلَّه بعد. فجرياً على معطيات علوم طبيعية أخرى، نسلِّم بأن كمية معينة من الطاقة تفعل فعلها في الحياة النفسية. ولكن لا تتوفر لنا أية قرائن قمينة بأن تسمح لنا بمقارنة هذه الطاقة بأشكال أخرى من الطاقة. ويبدو أن الطاقة العصبية أو النفسية توجد في شكلين: واحدهما سهل الحركة، وثانيهما، على العكس، مقيَّد. وإننا لنتكلم عن توظيفات INVESTISSEMENTS وعن توظيفات مضاعفة SURINVESTISSEMENTS للمضامين النفسية، بل نذهب إلى حدّ الافتراض بأن كل «توظيف مضاعف» يعيِّن ضرباً من التركيب لسيرورات شتى، تتحول أثناءه الطاقة الحرة إلى طاقة مقيَّدة. وعند هذا الحدّ تتوقف معرفتنا. لكن مهما يكن من أمر فإننا نعتقد جازمين أن الفارق بين الحالة اللاشعورية والحالة القبشعورية يرجع، بدوره، إلى علاقات دينامية مماثلة، وهذا قمين بأن يفسِّر لماذا يمكن لإحدى الحالتين أن تتحول، تلقائياً أو بجهودنا، إلى الأخرى.

لقد توصَّل العلم التحليلي، رغم كل هذه الشكوك، إلى تقرير حقيقة واقعة جديدة. فقد أبان أن السيرورات التي تدور في اللاشعور أو الهذا تخضع لقوانين



مغايرة للقوانين التي تخضع لها السيرورات التي تدور في الأنا القبشعوري. ونحن نطلق على مجمل هذه القوانين اسم **السيرورة الأولية**، بالتعارض مع **السيرورة الثانوية** التي تحكم ما يجري في القبشعور أو في الأنا. وعلى هذا، تكون دراسة الكيفيات النفسية قد أثبتت في النهاية أنها ليست عقيمة كل العقم.



الفصل الخامس

تأويل الحلم كأداة للتفسير

إن دراسة تجرى على الحالات السوية والمستقرة، التي تكون فيها حدود الأنا مؤمَّنة ضد الهذا بواسطة مقاومات (توظيفات مضادة) وتبقى ثابتة بلا تغيير ولا يمكن فيها تمييز الأنا الأعلى من الأنا لأن الاثنين يعملان بانسجام تام، أقول إن دراسة كهذه لن تجدينا كبير نفع. ولا يمكن أن تتيح لنا التقدم سوى حالات الصراع والتمرد التي تنشأ حين تسنح لمضمون الهذا اللاشعوري فرصة للتغلغل في الأنا وصولاً إلى الشعور، وحين يسعى الأنا بالمقابل إلى اتقاء هذا التسلل. وإنما في مثل هذه الحالات فقط يتأتّى لنا أن نقوم بمشاهدات تؤكّد أو تصحّح نظرتنا إلى الشريكين. والحال أن هذه الإمكانية يتيحها لنا النوم الليلي، إذ إن النشاط الذي يتبدى في النوم بصورة أحلام هو أفضل موضوع لدراستنا. وناهيك عن ذلك، إننا حين ندرس الحلم نتحاشى المآخذ التي غالباً ما تؤخذ علينا من أننا ندرس الحياة النفسية السوية بناء على المعطيات التي تمدّنا بها الحالات المَرَضية. وبالفعل، إن الحلم، مهما اختلفت منتجاته عن منتجات حالة اليقظة، ظاهرة شائعة في الحياة النفسية لأسوياء الناس. وكل واحد يعرف أن الحلم يمكن أن يكون مشوشاً، لامفهوماً، بله لامعقولاً، وأن مضامينه تناقض أحياناً كل معرفتنا بالواقع، وأننا نتصرف فيه تصرف المرضى العقليين، بحكم من أننا نعزو، ونحن نحلم، واقعاً موضوعياً إلى مضامين الحلم.

إننا نتوصل إلى فهم الحلم أو(تأويله) متى ما سلَّمنا بأن الذكريات التي يخلّفها فينا بعد يقظتنا لا تكشف عن مضمونه الحقيقي، بل هي مجرد واجهة تختفي وراءها الحقيقة. هكذا نميِّز في الحلم بين مضمون ظاهر وأفكار كامنة. والسيرورة التي بفضلها تتحول هذه الأفكار إلى مضمون ظاهر تسمّى عمل الحلم. وتقدِّم



لنا دراسة هذا العمل مثالاً ممتازاً على الكيفية التي تفرض بها مادة الهذا اللاشعورية، الأصلية والمكبوتة، نفسها على الأنا، فتغدو قبشعورية، ثم تتعرض، بسبب مقاومة الأنا، للتحويرات التي نسميِّها **تحريفات الحلم**. وليس من سمة للحلم لا يمكن تفسيرها على هذا النحو.

يجدر بنا أن نبدأ بادئ الأمر بأن نلحظ أن تكوين الحلم يتمّ بطريقتين مختلفتين: فإما أن يجد انفعال غريزي (رغبة لاشعورية)، مقموع في العادة، قوة كافية في أثناء النوم ليفرض نفسه على الأنا، وإما أن يحظى نازع، كان قد جرى استبعاده من الفكر في أثناء حالة اليقظة وتمثَّل في سلسلة من أفكار قبشعورية مشحونة بحاثات متنازعة، لبعض التعضيد في أثناء النوم بفعل عنصر لاشعوري. وعلى هذا، إن بعض الأحلام يصدر عن الهذا، وبعضها الآخر عن الأنا. وآلية تكوينها تتماثل في الحالتين، مثلما يتماثل شرطها الدينامي. والأنا، إذ يعلّق مؤقتاً وظائفه وإذ يتيح لحالة سابقة أن تعود، يدلّ على أنه يستمدّ أصله حقاً من الهذا. وهذا كله يحدث بصورة مطَّردة من حيث أن الأنا يقطع روابطه بالأنا الخارجي ويسحب توظيفاته من أعضاء حواسه. نحن في حِلٍّ إذاً من القول إن ثمة دافعاً غريزياً يتخلق عند الولادة ومن شأنه أن يدفع بالكائن إلى الرجوع إلى الحياة داخل الرحم ، هو الدافع الغريزي إلى النوم. وما النوم، بالفعل، إلا عَوْد إلى رحم الأم. وبما أن الأنا اليقظان هو الذي يتحكم بالطاقة الحركية، فإن هذه الوظيفة تُشلّ في أثناء النوم، وبذلك تنتفي الحاجة إلى شطر لا يستهان به من ضروب الكفّ المفروضة على الهذا اللاشعوري. وعندئذ يتيح سحب هذه التوظيفات المضادة أو إنقاصها قسطاً من الحرية للهذا لا ضرر فيه من الآن فصاعداً. والأدلة على الدور الذي يضطلع به الهذا اللاشعوري في تكوين الحلم عديدة ومقنعة. (أ) فذاكرة الحالم تتسع في الحلم لقدر من الأشياء أكبر بكثير مما في حالة اليقظة. فالحلم يستعيد بعض ذكريات الحالم المنسية التي لا تكون في متناوله في حالة اليقظة. (ب) يستخدم الحلم على نطاق غير محدود اللغة الرمزية التي تبقى دلالتها، في غالب الأحيان، مجهولة من النائم. غير أن تجربتنا تتيح لنا أن نهتدي إلى معناها. وأرجح الظن أن أصل هذه اللغة الرمزية يعود إلى أطوار سابقة من

تطور اللغة. (ج) غالباً ما تستعيد الذاكرة في الحُلم انطباعات من طفولة النائم الأولى، وبوسعنا أن نجزم ـ بلا خوف الغلط ـ أن هذه الانطباعات ما كانت منسية فحسب، بل كانت أيضاً قد أمست لاشعورية بفعل الكبت. ولهذا لا يسعنا في أغلب الأحوال، حين نحاول أن نعيد بناء طفولة الحالم في أثناء العلاج التحليلي النفسي، أن نستغني عن الحلم. (د) يبتعث الحلم، علاوة على ذلك، مواد ليس مصدرها طفولة الحالم ولا حياته الراشدة. ومن ثم، لا مناص لنا من أن نعتبر هذه المواد جزءاً من الميراث **الأثري** ـ محصِّلة خبرة الأسلاف ـ الذي آل إلى الطفل مع الميلاد، حتى قبل أن يبدأ بالحياة. وإننا لنكتشف، في أقدم أساطير البشرية، وكذلك في بعض العادات التي كتب لها البقاء، عناصر مناظرة لهذه المادة السلالية. وهكذا يقدِّم لنا الحلم مصدراً لمعلومات ثمينة عن ما قبل التاريخ البشري.

غير أن ما يسبغ على الحلم قيمة لا تقدر من منظور تصوُّرنا للأشياء هو أن المادة اللاشعورية، إذ تتغلغل في الأنا، تجلب معها إليه طرائق عملها، أي أن الأفكار القبشعورية التي تعبِّر عن هذه المادة تعامَل، في أثناء عمل الحلم، كما لو كانت عناصر لاشعورية من الهذا. أما في الحالة الأخرى، حالة تكوين الحلم، فإن الأفكار القبشعورية، بعد أن يعضدها انفعال غريزي لاشعوري، ترتدّ إلى الحالة اللاشعورية. وعن هذا الطريق فقط نكتشف ما القوانين التي تحكم السيرورات اللاشعورية وما وجه الاختلاف بينها وبين القواعد المعروفة للتفكير اليقظ. القوام الأساسي لعمل الحلم إذاً هو المعالجة اللاشعورية لأفكار قبشعورية. ولنقبس تشبيهاً من التاريخ: فالفاتحون الذين يغزون بلداً من البلدان يضربون صفحاً عن القوانين السارية فيه ويتصرفون وفق شريعتهم الخاصة. على أنه من المحقق أن عمل الحلم يتمخض عن تسوية. فتنظيم الأنا لا يُشلّ بتمامه. بل يظهر أثره واضحاً في التحريف الذي يطرأ على المادة اللاشعورية، وفي المحاولات ـ الفاشلة في كثير من الأحيان ـ التي تبذل لإعطاء هذه المادة شكلاً يمكن للأنا أن يقبل به (**الصياغة الثانوية**). وإن تابعنا تشبيهنا قلنا: إن لفي ذلك تعبيراً عن المقاومة المستمرة من قبل المغلوبين على أمرهم.



إن القوانين التي تحكم مجرى السيرورات في اللاشعور، والتي سلّطنا عليها بعض الأضواء، جديرة بالاعتبار وكافية لتفسير الشطر الأعظم مما يبدو غريباً في الأحلام. وأول ما يسترعي الانتباه ميل إلى **التكثيف**، أي إلى تشكيل وحدات جديدة من خلال الربط بين عناصر كان من المحتم في حالة اليقظة أن تبقى منفصلة. وترتيباً عليه، يحدث غالباً أن يمثّل عنصر واحد من الحلم الظاهر عدة أفكار كامنة من هذا الحلم، كما لو أنه يُلمح إليها جميعها في آن معاً، ويكون الحلم الظاهر شديد الاقتضاب قياساً إلى المعطيات الوفيرة التي تكوَّن منها. وثمة خاصية أخرى لعمل الحلم، ذات صلة ولو واهية بسابقتها، هي سهولة نقل الشدّات النفسية (الشحنات) من عنصر إلى آخر. هكذا يتبدى لنا في أحيان كثيرة عنصر بعينه من عناصر الحلم الظاهر مرتدياً، بحكم وضوحه، أهمية كبيرة، بينما هو في الواقع ثانوي الأهمية في أفكار الحلم. ولا يندر، على العكس من ذلك، أن يُشار إلى بعض العناصر الرئيسية في أفكار الحلم إشارة عابرة في الحلم الظاهر. ثم إن أوهى الصلات بين العنصرين تكون كافية بالإجمال لتمكين عمل الحلم من إحلال أحدهما محل الآخر في كل سلسلة العمليات. ويسير علينا أن ندرك كم تعسّر آليتا التكثيف والنقل هاتان تأويل الحلم وكشف العلاقات بين الحلم الظاهر والأفكار الحلمية الكامنة. ومن وجود هذين الميلين إلى التكثيف وإلى النقل تستنتج نظريتنا أن الطاقة في قلب الهذا اللاشعوري طليقة في حركتها، وأن الهذا يعطي الأهمية الأولى لإمكانية تصريف كميات الإثارة على كل ما عداها[1]. وتتيح لنا هاتان الخاصيتان أن نحدد سمات السيرورة الأولية التي عزوناها إلى الهذا.

لقد كشفت لنا دراسة عمل الحلم عن خواص كثيرة أخرى، هامة بقدر ما هي ملفتة للنظر، للسيرورات التي تجري في اللاشعور، لكن لا يسعنا هنا أن نذكر عنها إلا نبذة. فقواعد التفكير المنطقي لا دور لها تؤديه في داخل اللاشعور، وبوسعنا أن نطلق على هذا الأخير اسم مملكة اللامنطق. فنحن نجد

١ ـ يذكّرنا هذا الوضع بوضع ضابط الصف المكره على الامتثال بلا تذمر لأمر رئيسه، والذي لا يلبث أن يسقط غضبه على ظهر جندي بريء من الأنفار.



فيه جنباً إلى جنب نوازع ذات أهداف متعاكسة من دون أن تكون هناك أدنى حاجة إلى التوفيق بينها. ولا يقوم بينها أحياناً أي تأثير متبادل، أو إن وجد هذا التأثير فقد لا يستتبعه أي قرار، بل تقوم تسوية بعيدة عن المعقول لتضمُّنها عناصر متنافية فيما بينها. كذلك، إن بعض الأضداد لا تبقى البتة في حالة انفصال، بل تعالج كما لو كانت متماثلة، بحيث يمكن لكل عنصر في الحلم الظاهر أن يمثِّل أيضاً نقيضه. وقد تبيَّن لبعض علماء اللغة أن هذا يصدق أيضاً على اللغات الأقدم عهداً، وأن أزواج الأضداد، نظير قوي ـ ضعيف، منير ـ معتم، مرتفع ـ منخفض، كان يعبَّر عنها في الأصل بجذر واحد، إلى أن جرى الفصل بين المعنيين بتحويرين مختلفين طرآ على اللفظة البدائية[٢]. وحتى في لغة متطورة مثل اللاتينية تطالعنا بقايا من هذه الألفاظ المزدوجة من حيث المعنى الأصلي، نظير ALTUS ("مرتفع" و"عميق") و SACER ("مقدس" و"كافر") مثلاً.

إزاء تعقيد العلاقات بين الحلم الظاهر والمضمون الكامن المستتر خلفه والتباسها، نرانا منقادين إلى أن نتساءل: ما الطريقة القمينة بأن تتيح لنا استخلاص واحدهما من الآخر، وهل ينبغي أن يكون كل اعتمادنا في ذلك على تخمين موفَّق قد تعززه ترجمة الرموز التي تظهر في الحلم الظاهر؟ لنقل إن هذا التأويل ممكن في غالبية الحالات، بشرط أن تدعمه التداعيات التي يضيفها الحالم نفسه إلى عناصر المضمون الظاهر. وكل طريقة أخرى تكون عسفية ولا تثمر أية نتيجة موثوقة. فتداعيات الحالم تمكّننا من الوصول إلى الحلقات الوسيطة التي تحتلّ مكانها في السلسلة، فيتأتّى لنا عندئذ أن نسدّ فجوات هذه السلسلة وأن نعيد بناء مضمون الحلم، ثم أن نقوم بتأويل هذا الأخير. فهل من عجب إن لم يوصلنا هذا العمل التأويلي، الذي يسلك عكس اتجاه عمل الحلم، إلى يقين تام شامل في كل مرة؟

يبقى علينا بعد أن نفسّر الظاهرة من وجهة النظر الدينامية. فما السبب الذي

٢ ـ انظر مقال فرويد: **طباق المعاني** في المجلد السابع من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».



يحمل الأنا النائم على أن يجشِّم نفسه عناء صياغة الحلم؟ لحسن الحظ أن هذه المعضلة لا تنطوي على صعوبة. فنتيجة لتدخل اللاشعور، يتطلب كل حلم قيد التكوين من الأنا إما إشباعاً لدافع غريزي إن كان ينبعث من الهذا، وإما حلاً لصراع أو إزالة لشك أو تحقيقاً لقصد إن كان ينبعث من رسابة من النشاط القبشعوري في حالة اليقظة. على أن الأنا النائم، المدفوع بالرغبة في الحفاظ على النوم، ينزع إلى نفي الإرباك الذي يحدثه فيه هذا المطلب. وهو يفلح في ذلك عن طريق خضوع ظاهري، عن طريق **تحقيق للرغبة**، لا ضرر منه في مثل هذه الحالة، ويكون من شأنه إلغاء المطلب المذكور. وتبقى المهمة الرئيسية لعمل الحلم أن يستبدل المطلب بتحقيق لرغبة. ولعله من المفيد أن نوضح ذلك بثلاثة أمثلة بسيطة: حلم جوع، وحلم راحة، وحلم حاجة جنسية. لنفرض أن حاجة إلى الطعام تستبدّ بالنائم، فإذا به يحلم، وهو لا يزال يغطّ في النوم، بوجبة شهية. وبديهي أنه كان له الاختيار بين أن يستيقظ ليأكل وبين أن يواصل النوم، غير أنه أخذ بالحدّ الثاني من الخيار وأشبع جوعه حلمياً، لحين من الزمن على الأقل. على أنه إن ألحّ عليه الجوع فلن يكون أمامه مناص من أن يستيقظ. والمثال الثاني: مفروض بالنائم أن يتوجّه، في ساعة معيَّنة، إلى العيادة، ولكن بصفته مريضاً. والحال أن المرضى لا حاجة بهم إلى مغادرة السرير. والمثال الأخير: تساور النائم رغبة في امتلاك موضوع جنسي محظور: زوجة أحد أصدقائه. فيحلم باتصال جنسي لا مع هذه المرأة، بل مع امرأة أخرى تحمل الاسم نفسه ولكنها لا تعني له شيئاً. وقد يحدث أيضاً، بدافع من تمرده الداخلي، أن يبقي اسم خليلته في الحلم غفلاً.

بديهي أن الحالات ليست كلها بهذه البساطة. ففي الأحلام التي تنبعث من البقايا النهارية التي لم تتمّ تصفيتها والتي لم يطرأ عليها أثناء النوم سوى تعضيد مصدره اللاشعور، يعسر منتهى العسر أن نكتشف القوة الغريزية اللاشعورية وأن نزيح النقاب عن تحقيق ما لرغبة، ولكننا في حِلٍّ مع ذلك من الافتراض بأن هذا التحقيق قائم في هذه الحالة أيضاً. ولكن كثيرون هم الذين يتذرعون بالعدد الكبير من الأحلام ذات المضمون المؤلم، والتي قد تستدعي يقظة موسومة بالقلق



والحصر، فضلاً عن الأحلام الكثيرة التواتر والمتجردة من كل صبغة وجدانية أو عاطفية، ليطعنوا في صحة أطروحتنا القائلة إن الحلم تحقيق لرغبة. بيد أن الاعتراض بأحلام الحصر لا يصمد أمام التحليل. إذ لا يجوز لنا أن ننسى أن الحلم هو على الدوام نتيجة صراع وضرب من تسوية. فما قد يكون عامل إرضاء للهذا اللاشعوري يمكن أن يغدو، للسبب عينه، عامل حصر بالنسبة إلى الأنا.

وتبعاً لنمط عمل الحلم، يفرض اللاشعور نفسه تارة، ويبدي الأنا مقاومة شديدة طوراً. وأحلام الحصر هي بالإجمال الأحلام التي ما أصاب مضمونها سوى تحريف طفيف. فحين يتجاوز اللاشعور الحدّ في إلحاحه، فلا يعود الأنا النائم قادراً على دفعه عنه بالوسائل المتاحة له، يعزف هذا الأنا عن الرغبة في النوم ويعود إلى حالة اليقظة. وتبيح لنا مشاهداتنا أن نؤكد أن كل حلم هو بمثابة محاولة لوقاية النوم مما يرنّقه، وذلك عن طريق تحقيق رغبة. الحلم إذاً حارس النوم. وهذه المحاولة، التي تُكلل بقدر أو بآخر من النجاح، قد تخفق أيضاً أحياناً، وعندئذ يستيقظ النائم، كما لو أن الحلم نفسه هو الذي قطع نومه. والأمر هنا شبيه، من بعض الوجوه، بصنيع الحارس الليلي الشجاع، المولج بحماية نوم سكان بلدته الصغيرة، عندما يجد نفسه أحياناً مكرهاً على إطلاق النذير وإيقاظ أهل البلدة النيام.

ختاماً، سنشير هنا إلى السبب الذي حدا بنا إلى إطالة الوقوف عند مشكلة تأويل الحلم. فالتجربة تدل أن الآليات اللاشعورية التي تزيح الستار عنها دراسة عمل الحلم، والتي فسَّرت لنا تكوين الحلم، تساعدنا أيضاً في فهم التكوين الغامض للأعراض، هذه الأعراض التي تستأثر بكل اهتمامنا في الأعصبة NVROSES والأذهنة PSYCHOSES. وليس لتطابق كهذا إلا أن يبعث فينا آمالاً عراضاً.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

القسم الثاني

المهمة العملية

مكتبة الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السادس

حول تقنية التحليل النفسي

الحلم إذاً ذهان، بكل ما يصاحبه من تخليطات وتشكيلات هذائية، وبكل ما يترتب على هذه الأخيرة من أوهام حسية. على أنه، في الحق، ذهان قصير الأمد، لا ضرر منه، بله مفيد نافع، مقبول من النائم الذي يستطيع، متى شاء، أن يضع حداً نهائياً له. ولكنه، كذهان، يفيدنا أن التغيير الذي يطرأ على الحياة النفسية يظل، مهما بلغ عمقه، قابلاً لأن يزول ولأن يخلي مكانه لاشتغال الوظيفة السوية. فهل يسعنا، والحالة هذه، أن نأمل، من غير إفراط في الجرأة، في أن نمارس تأثيراً على أمراضنا النفسية التلقائية والمتوجَّس منها وأن نشفيها؟ إن بعض الوقائع تبيح لنا افتراض ذلك.

إننا نصادر على أن الأنا يرى لزاماً عليه أن يلبي مطالب الواقع ومطالب الهذا والأنا الأعلى في آن معاً، مع صونه في الوقت نفسه تنظيمه الخاص وتوكيده استقلاله الذاتي. وإن وهناً نسبياً أو مطلقاً يطرأ على الأنا هو وحده الذي يمكن أن يمنعه من القيام بمهامه، فيكون بالتالي هو الظرف الشارط للحالات المرَضية. وأغلب الظن أن الأنا مضطر إلى أن يخوض غمار أضرى صراع كيما يحتوي مطالب الهذا الغريزية. وهو ينفق بالفعل في هذا الصراع مقادير كبيرة من الطاقة في صورة توظيفات مضادة. غير أن مطالب الأنا الأعلى قد تغدو هي الأخرى قوية، عاتية، فتشلّ الأنا عن مهامه الأخرى. وإننا لنشتبه في أن الهذا والأنا الأعلى يوحّدان جهودهما، في هذه الصراعات الاقتصادية، ضد الأنا المرهق الذي يجاهد للتشبُّث بالواقع للحفاظ على حالته السوية. وعندما تغدو هاتان الهيئتان الأخريان على درجة بالغة من القوة، فقد تفلحان في تفكيك تنظيم الأنا وتغييره، بحيث تضطرب علاقاته بالواقع، أو تنتفي من أساسها. وقد تسنى لنا أن



نلاحظ، في أثناء دراستنا، أنه حين ينفصل الأنا عن واقع العالم الخارجي، ينزلق، تحت سلطان العالم الداخلي، إلى الذهان.

بناء على هذه الرؤية للأمور نضع خطتنا في العلاج. فالأنا موهن بنزاع داخلي، وحقيق بنا أن نمدّ له يد العون. والأمر هنا كما في بعض الحروب الأهلية حيث يكون القول الفصل لحليف من الخارج. فعلى الطبيب المحلِّل والأنا الموهن أن يتضافرا ويتحدا، بالاستناد إلى العالم الخارجي الواقعي، ضد العدوين: مطالب الهذا الغريزية ومطالب الأنا الأعلى الأخلاقية. فثمة ميثاق قد عقد. فأنا المريض السقيمُ يعدنا، بصراحة تامة، بأن يضع تحت متناولنا كل ما يطالعه به إدراكه الذاتي. ونتعهد من جانبنا بالكتمان التام ونضع في خدمته خبرتنا في تأويل المادة الواقعة تحت تأثير اللاشعور. وعلمنا يعوِّض جهله ويتيح للأنا أن يستعيد بعض المناطق الضائعة من نفسيته وأن يسيطر عليها من جديد. وعلى هذا الميثاق يقوم كل الموقف التحليلي.

لكن ما إن نخطُ هذه الخطوة حتى نجد في انتظارنا خيبة أولى، دعوة أولى إلى التزام جانب التواضع. فكيما يغدو الأنا، في أثناء العمل المتضافر، حليفاً نافعاً، فلا بدّ أن يكون محافظاً، رغم كل الضغوط التي تمارسها عليه القوى المعادية، على قدر من التماسك ومن فهم مقتضيات الواقع. والحال أن هذا بالتحديد ما بات أنا الذهاني عاجزاً عن تقديمه لنا، إذ هو لا يستطيع أن يفي ببنود ميثاق كهذا. والحق أنه لا يكاد يستطيع إبرامه أصلاً. وسرعان ما ينبذنا، نحن والعون الذي نأتيه به، إلى تلك الأقسام من العالم الخارجي التي ما عادت تعني له شيئاً. وعندئذ ندرك أنه لا مناص لنا من الإقلاع عن محاولة تطبيق منهجنا العلاجي على الذهانيين. وقد يكون عدولنا هذا نهائياً، وقد يكون أيضاً مؤقتاً، فلا يدوم إلا إلى الوقت الذي يتسنى لنا فيه أن نكتشف، لهذه الفئة من المرضى، منهجاً أكثر مؤاتاة.

غير أن هناك فريقاً آخر من المرضى النفسيين، يشبهون الذهانيين في الظاهر شبهاً كبيراً، وأعني بهم الجمهرة الغفيرة من العصابيين المعانين من إصابات خطيرة. فأسباب مرضهم وآلياته الإمراضية مماثلة فيما نفترض أو مشابهة على الأقل لأسباب المرض وآلياته لدى الذهانيين. إلا أن أناهم يكون قد دلَّل، بالرغم



من كل شيء، على قدرة أكبر على المقاومة وعلى درجة أثبت من التنظيم. ولا يبارح عدد كبير من هؤلاء المرضى، رغم اضطراباتهم وما ينجم عنها من متاعب لهم، إطار الحياة الواقعية، ويبدون استعدادهم أحياناً لتقبل مساعدتنا. وحالة هؤلاء هي الجديرة منا بالاهتمام، وسوف نرى إلى أي حدّ وبأي الطرق نستطيع أن «نشفيهم».

ها نحنذا قد عقدنا ميثاقنا مع العصابيين: صدق تام مقابل كتمان مطلق. أفليس دورنا هذا دور معرِّف علماني[1]؟ كلا، فالفارق كبير. فنحن لا نسأل المريض أن يخبرنا بما يعلمه وبما يكتمه عن الآخرين فحسب، بل كذلك **بما لا يعلمه**. ولهذا نشرح له بالتفصيل ما نعنيه بالصدق. ونلزمه بأن يصدع **لقاعدة التحليل الأساسية** التي يتعيّن من الآن فصاعداً أن تحكم كل سلوكه حيالنا: فعلى افتراض أن يبوح لنا ليس فقط بما يمكن له أن يقوله عن قصد وبطوع إرادته، أي أن يسرِّي عنه وكأنه اعتراف، بل كذلك بكل ما يطالعه به استبطانه لنفسه، وبكل ما يرد إلى ذهنه حتى لو كان البوح به **مستكرهاً** عنده، بل حتى لو بدا له **عديم الجدوى**، بله **سخيفاً**. فإن أفلح المريض، بعد هذه الوصايا، في قمع نقده الذاتي، كاشفَنا بجملة من المواد والأفكار والخواطر والذكريات مما يقع تحت تأثير اللاشعور ومما لا يعدو أن يكون في كثير من الأحيان من مشتقاته المباشرة. وعندئذ يتسنى لنا أن نخمِّن طبيعة المادة المكبوتة لدى المريض، وأن نكاشفه بها، وأن نمكِّن أناه من أن يعرف اللاشعور معرفة أفضل.

لكن حذارِ من الافتراض أن دور الأنا لديه يقتصر على الإطاعة السالبة، وعلى مدِّنا بالمادة المطلوبة، وعلى القبول بالتأويلات التي نقدِّمها له عنها. فثمة جملة أشياء أخرى تحدث، وبعضها مما نتوقعه، وبعضها الآخر حريٌّ بأن يفاجئنا. والعجيب في الأمر أن المريض لا يقنع بأن ينظر إلى محلِّله على ضوء الواقع، بوصفه سنداً وناصحاً، يتقاضى أجراً على أتعابه، ويرضيه هو نفسه أن يكون دوره كدور الدليل الجبلي أثناء تسلق جبل وعر. كلا، إنما يرى المحلِّل في محلِّله بعثاً،

١ - تلاعب لفظي من قبل فرويد: فالمعرِّف هو بالتعريف الكاهن الذي يستمع إلى المؤمن وهو يعترف له بخطاياه. ومن ثم، إن المحلِّل النفسي الذي يستمع إلى اعترافات المريض هو أشبه بمعرِّف علماني. «م».



تقمصاً لشخص ذي شأن في ماضيه الطفلي. ولهذا يختصه بمشاعر ويظهر تجاهه استجابات كانت تنصبّ بكل تأكيد على النموذج الأصلي. وسرعان ما ندرك ما لعامل التحويل TRANSFERT هذا من أهمية ما كنا نتوقعها: فهو من ناحية أولى مصدر لمعونة لا تضاهى، وقد يكون من الناحية الثانية مصدراً لأخطار فادحة. فهذا التحويل **مزدوج الاتجاه**: فهو يتضمن في آن معاً مواقف ودية إيجابية، وأخرى عدائية وسلبية، تجاه المحلِّل الذي ينزله المريض في العادة منزلة أحد والديه: أبيه أو أمه. وما دام التحويل إيجابياً، فإنه يسدي لنا أجلَّ الخدمات، إذ يغيِّر الموقف التحليلي برمته وينبذ إلى مرتبة ثانوية رغبة المريض العقلانية في التخلص من أوجاعه واسترجاع صحته. وتحل محلّ هذا الهدف رغبة المريض في أن يحظى برضى المحلِّل وأن يظفر باستحسانه ومحبته. وهكذا يصبح التحويل القوة المحركة الحقيقية لمشاركة المريض في العمل التحليلي. فتحت هذا التأثير يشتد ساعد الأنا الضعيف ويأتي المريض أفعالاً ما كان له، لولا ذلك، أن ينجزها. وتزول إثر ذلك أعراضه، ويبدو عليه وكأنه شفي لا لشيء إلا حباً بمحلِّله. غير أنه يتعيَّن على هذا الأخير أن يقرّ بينه وبين نفسه بتواضع أن المهمة التي أخذها على عاتقه شاقة من غير أن يراوده أي اشتباه في السلطة الهائلة التي ستمسي في متناوله.

إن موقف التحويل ينطوي بعد على ميزتين أخريين. فإن أحلّ المريضُ المحلِّلَ محلّ أبيه (أو أمه)، خلع عليه في الوقت نفسه السلطان الذي يمارسه أناه الأعلى على أناه، إذ إن والديه، كما نعلم، هما أصل هذا الأنا الأعلى. وهكذا تتاح للأنا الأعلى الجديد إمكانية القيام **بتربية لاحقة** للعصابي، فيتسنى له أن يصحِّح بعض الأخطاء التي تقع تبعتها على التربية التي كان الوالدان قد بذلاها له. وإنما هنا تحديداً ينبغي للمحلِّل أن يحاذر إساءة استعمال النفوذ المتحصِّل له. فمهما يعظم الإغراء لدى المحلِّل في أن يصير لمرضاه مربياً ومثالاً وقدوة، ومهما تستبدّ به الرغبة في أن يصوغهم على صورته، فلا مناص له من أن يتذكر أن ذلك ليس هو الهدف الذي يضع نصب عينيه بلوغَه في التحليل، بل إنه سيقترف غلطة فادحة فيما لو أسلس قياده لهذا النازع. فلو سلك هذا المسلك لكرَّر، لا أكثر، خطأ

مكتبة الفكر الجديد

الوالدين اللذين خنق نفوذهما استقلال الطفل، ولاستبدل الخضوع القديم بآخر جديد. بل على المحلِّل، حينما يسعى إلى تحسين حال مريضه وتربيته، أن يحترم على الدوام شخصيته. ومبلغ النفوذ الذي يباح له شرعياً أن يمارسه ينبغي أن يتحدد بدرجة الكفّ في التطور الوجداني للمريض. فبعض العصابيين بقوا طفليين إلى حدٍّ يوجب ألا يُعاملوا، حتى في التحليل، إلا كأطفال.

وتترتب على التحويل ميزة أخرى: فهو يحضّ المريض على أن يعرض لناظرينا بجلاء شطراً واسعاً من تاريخ حياته. ولولا التحويل، لما أمدَّنا في أرجح الظن إلا بمعلومات ناقصة. وهو إذ يفعل ذلك يبدو وكأنه يعيش فعلاً ما يرويه لنا.

لننتقل الآن إلى الوجه الآخر للموقف. فبما أن التحويل يكرر الوضع الذي كان عليه المريض حيال والديه، فإنه يقبس منه أيضاً ازدواجيته. إذ يكاد يكون من المستحيل أن يتفادى المحلِّل انقلاب الموقف الإيجابي منه، في يوم أو آخر، إلى موقف سلبي وعدائي، وهذا بدوره بالإجمال تكرار للماضي. فخضوع الطفل لأبيه (إن يكن هو من يمثِّله المحلِّل)، وسعيه إلى الفوز بحظوته، يرجعان في أصلهما إلى الرغبة الإيروسية التي كان هذا الأب موضوعها. ففي يوم أو في آخر، تفرض هذه الرغبة نفسها في التحويل أيضاً، وتتطلب إشباعاً، لكن لا يمكن أن تتمخَّض في الموقف التحليلي إلا عن إحباط. فلا مجال لأي علاقة جنسية فعلية بين المرضى والمحلِّل، وحتى أشكال الإشباع الأكثر إرهافاً، كعلامات الإيثار والألفة، لا يجوز للمحلِّل بذلها إلا بحساب. وهكذا يتيح تعالي المحلِّل فرصة لانعكاس الاتجاه في التحليل. وأرجح الظن أن تكون قد سارت الأمور على المنوال نفسه في طفولة المريض.

ترى أيمكن القول إن النتائج العلاجية المحرزة تحت تأثير التحويل الإيجابي إنما مردها إلى **الإيحاء**؟ السؤال وارد. ففي الحالات التي ترجح فيها كفة التحويل السلبي فإن النتائج المحرزة تتبدد مثلما تتبدد ذرات الهشيم حين تذروه الريح. وعندئذ يرى المحلِّل بذعر أن كده وعناءه قد ذهبا أدراج الرياح. بل حتى ما اعتبره كسباً فكرياً دائماً للمريض، أي تفهمه للتحليل النفسي ووثوقه بنجع هذا العلاج، يتلاشى فجأة: إذ يسلك المريض مسلك طفل تعوزه القدرة على الحكم



الشخصي، ويصدِّق تصديقاً أعمى كل ما يسرده على مسامعه شخص يحبه ويأبى أن يصدق ما يقوله الغرباء. وظاهر للعيان أن خطر حالات التحويل هذه يكمن في تجاهل المريض طبيعتَها الحقيقية وفي اعتباره إياها وقائع جديدة مع أنها لا تعدو أن تكون انعكاسات للماضي. فحين يستشعر المريض (أو المريضة) الرغبة الإيروسية القوية التي تختفي وراء ستار التحويل الإيجابي، يخيَّل إليه أنه انغمس في حب جامح؛ وإذا انعكس اتجاه التحويل، شعر المريض بأنه كان منبوذاً، وكره محلِّله وكأنه عدو، وتهيأ لترك التحليل. وفي كلا هاتين الحالتين المتطرفتين ينسى الميثاق الذي التزم به في بدء العلاج ويمسي عاجزاً عن المضيّ في العمل المشترك. ومهمة المحلِّل عندئذ أن ينتشل المريض في كل مرة من وهمه الخطِر، وأن يبيِّن له تكراراً أن ما يتوهمه واقعاً جديداً ما هو إلا انعكاس للماضي. ويسهر المحلِّل، كيما يحول بين مريضه وبين السقوط في حالة لا سبيل إلى انتشاله منها بأية محاكمة عقلية مقنعة، على ألا تبلغ المشاعر الحبية أو المشاعر العدائية درجتها القصوى. وسبيله إلى ذلك أن يحذِّر المريض في وقت مبكر من هذه الاحتمالات وألا يغفل عن علائمها الأولى حين تظهر. والعناية التي نديرِ بها التحويل ضمانة أكيدة للنجاح. وحين يفلح المحلِّل، كما يحدث عادة، في إفهام المرضى الطبيعة الحقيقية لظاهرات التحويل، يجرِّد مقاومتهم من أحد أسلحتها القوية ويقلب الأخطار إلى مكاسب. وبالفعل، إن ما عاشه المريض في صورة تحويل لن ينساه أبداً، وهذا يمثِّل له قوة أكثر إقناعاً من كل ما اكتسبه بسبل أخرى.

ومما لا نرجوه البتة أن يبادر المريض خارج التحويل إلى **العمل** بدلاً من التذكر. وخير ما يمكن أن يفعله، من وجهة نظرنا، أن يسلك، ما أمكنه، سلوكاً سوياً خارج نطاق المعالجة وألا يظهر استجابات شاذة إلا في التحويل.

إن الطريق الذي نسلكه لكي نردّ القوة إلى الأنا الضعيف يكون منطلقه توسيع معرفته بذاته. بيد أننا نعلم أن هذه هي الخطوة الأولى ليس إلا. فعدم معرفة الذات يعني للأنا خسران قوته ونفوذه، وهو العلامة الملموسة على انكماشه وتقييده بمطالب الهذا والأنا. ولهذا، إننا نبذل نحن أنفسنا في بادئ الأمر مجهوداً فكرياً وندعو المريض إلى المشاركة فيه. ونحن نعلم حقَّ العلم أن هذا النوع الأول من



النشاط يهدف إلى تمهيد الطريق أمامنا إلى مهمة أخرى أعسر وأشدّ، وهي مهمة يجدر بنا ألا ننسى جانبها الدينامي حتى في أثناء العمل التمهيدي. وتتأتى لنا مادة عملنا من مصادر شتى: من أقوال المريض، من تداعياته الحرة، من تظاهرات تحويله، من تأويل أحلامه، وأخيراً من **هفواته**. وهذا كله يساعدنا على إعادة بناء خبراته الماضية، ما نسيه منها وما يدور الآن في داخله من غير أن يفهمه على حدّ سواء. بيد أنه لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نخلط بين ما نعرفه نحن وما يعرفه هو. ولنحاذر أن نكاشفه حالاً بما نعتقد أننا خمنّاه في وقت مبكر. ولنقلّب الفكر ملياً قبل أن نقرّر ما الوقت المناسب لمكاشفته باستنتاجاتنا. ولننتظر اللحظة المناسبة التي لا يسهل على الدوام تعيينها. وبصورة عامة، نحن ننتظر، كيما نطلع المريض على استنتاجاتنا وتفاسيرنا، أن يكون هو نفسه قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من اكتشافها، فما بقيت أمامه سوى خطوة واحدة يخطوها نحو هذا التركيب النهائي. أما إذا سلكنا غير هذا المسلك، فانهلنا عليه بتأويلاتنا قبل أن يتهيأ لها، فلن يكون منها جدوى أو أنها ستثير لديه انفجاراً عنيفاً من المقاومة، من شأنه أن يربك عملنا، بله أن يحول دون مواصلته. أما إذا أخذنا كل الاحتياطات اللازمة، فسنلاحظ في الغالب أن المريض يؤكد حالاً صحة استنتاجاتنا ويتذكر بنفسه الظاهرة الداخلية أو الخارجية المنسية. وبقدر ما تتطابق روايتنا مع تفاصيل الواقعة المنسية، يسهل على المريض أن يمحضنا تأييده. وفي هذه الحال تكون معرفتنا قد تطابقت ومعرفته.

بحديثنا عن المقاومة نصل إلى الشطر الثاني من مهمتنا، وهو يفوق الشطر الأول أهمية. فقد رأينا من قبل أن الأنا يدفع عن نفسه تسرب عناصر غير مرغوب فيها، وآتية من الهذا اللاشعوري المكبوت، بواسطة توظيفات مضادة من شأنها أن تضمن، إذا بقيت سليمة، اشتغال الوظيفة السوية. وكلما رزح الأنا تحت وطأة المزيد من الإرهاق تشبث مذعوراً بهذه التوظيفات المضادة، وذلك بغية الدفاع عما تبقى بحوزته ضد غزوات جديدة. غير أن هذه الميول الدفاعية لا تتفق وهدف العلاج. فنحن نرغب، على العكس، في أن نرى الأنا يُقْدِم، بتشجيع منا ووثوق بمساعدتنا، على شنّ هجوم بغية استعادة ما فقده. وشدة تلك



التوظيفات المضادة تقاس بالنسبة إلينا بالمقاومة التي تناهض جهودنا. فالأنا تذعره هذه المحاولات التي تبدو له خطرة والتي تتهدده بالكدر. وتفادياً لاحتمال تملصه وتهربه، يخلق بنا أن نعمل باستمرار على تشجيعه وطمأنته. ونحن نطلق على هذه المقاومة، التي تبقى قائمة طوال العلاج وتتجدد كلما انتقلنا إلى طور جديد من العمل، اسم **مقاومة الكبت**، وإن يكن هذا الاسم غير موفق كثيراً. وسنرى أن هذه المقاومة ليست المقاومة الوحيدة التي تواجهنا. ولنلحظ أن التحالفات في هذا الموقف معكوسة بنوع ما، لأن الأنا يقاوم إيحاءاتنا، بينما يخفّ اللاشعور، خصمنا المعهود، إلى نجدتنا لأنه يصبو بطبيعة الحال، في اندفاعه الصاعد، إلى تخطي الحواجز التي تعترض سبيله ليدلف إلى الأنا وصولاً إلى الشعور. وإن ربحنا القضية بحثّنا الأنا على التغلب على مقاوماته، فإن الصراع الذي ينشب يتوالى تحت إشرافنا وبمساندتنا. ومآله غير ذي أهمية: فإما أن يقبل الأنا، بعد فحص جديد، بمطلب غريزي كان قد ردَّه من قبل وإما أن يرفضه من جديد، وهذه المرة بصورة نهائية. وفي الحالتين كلتيهما يكون خطر داهم قد استبعد بالفعل، ويكون حقل الأنا قد اتسع، فانتفت الحاجة إلى تبديد مُكلِف للطاقة.

إن التغلب على المقاومات هو، بين جميع مراحل التحليل، أكثرها استغراقاً للوقت وأكثرها تطلباً للعناء. غير أن الجهد المبذول يؤتي ثماره إذ يستثير في الأنا تعديلاً ملائماً يدوم طول الحياة، كائناً ما كان أصلاً مصير التحويل. ونكون في الوقت نفسه قد بذلنا جهدنا لإلغاء التعديل الذي أحدثه اللاشعور في الأنا. وبالفعل، وفي كل مرة لاحظنا فيها وجود مشتقات من اللاشعور في الأنا، كشفنا النقاب عن أصلها اللامشروع وحثثنا الأنا على اطّراحها. ولنتذكر أن أحد الشروط الرئيسية لتعهدنا بالعلاج هو ألا يكون تسرب عناصر لاشعورية إلى الأنا قد فاق حداً معلوماً.

طرداً مع تقدم عملنا وتعمُّق معرفتنا بنفسية العصابيين، نلاحظ بمزيد من الوضوح باستمرار أن ثمة مصدرين آخرين للمقاومة، عاملين جديدين يستأهلان كل اهتمامنا، وما كان لأي منهما أن يؤخذ بعين الاعتبار عند إبرام ميثاقنا، إذ كان المريض يجهل بهما جهلاً مطبقاً؛ ثم إنهما كليهما لا ينبعثان من أنا المريض،



ومن الممكن أن نجمع بينهما تحت اسم «الحاجة إلى المرض» أو «الحاجة إلى التألم». غير أن أصل واحدهما مختلف عن الآخر، وإن كانا من طبيعة متشابهة. أول هذين العاملين هو الشعور بالإثم، أو وعي الفرد لكونه مذنباً كما يقول بعضهم متجاهلين كون المريض لا يستشعره ولا يعرفه. وبديهي أن مردّ هذا الشعور إلى المقاومة التي تصدر عن أنا أعلى صار صارماً قاسياً. فلئن كتب على المريض ألا يشفى، بل على العكس أن يبقى مريضاً فلأنه لا يستأهل في نظر نفسه أحسن من هذا المصير. وهذه المقاومة، وإن كانت لا تربك عملنا العقلي تحكم عليه بعدم النجع. ولئن أتاحت لنا في كثير من الأحيان أن نلغي هذا الشكل أو ذاك من أشكال العصاب، فإنها سرعان ما تستبدله بشكل آخر، وربما بمرض عضوي ما. هذا الشعور بالإثم يفسّر أيضاً كيف يمكن لبعض العصابيين، ممن أصيبوا باضطرابات خطيرة، أن يشفوا أو أن تسجل حالتهم تحسناً إذا ما ألمَّت بهم مصائب فعلية. ذلك أن المهم في الواقع شيء واحد لا غير: أن يشقى المرء ويتعس كائنة ما كانت الوسيلة. وإن الاستسلام الأخرس الذي يتحمل به أمثال هؤلاء المرض مصيراً لا يخلو من قسوة فائقة أحياناً ليبعث على الدهشة حقاً. ولكنه ينمّ أيضاً عن الكثير. وحسبنا، كيما نكافح هذه المقاومة، أن نجعلها واعية وأن نحاول القضاء تدريجياً على الأنا الأعلى العدائي.

ولسنا نستطيع بمثل هذه السهولة أن نبرهن على وجود مقاومة أخرى، نقف حيالها عاجزين كل العجز أصلاً. ذلك أننا نلقى بين العصابيين أفراداً انقلبت لديهم غريزة البقاء، كما تشهد استجاباتهم كافة، إلى نقيضها. فهم، فيما يبدو، لا همّ لهم غير أن ينزلوا الأذى بأنفسهم ويدمروا ذواتهم. وربما انتمى إلى هذه الفئة الأشخاص الذين ينتهي بهم الأمر إلى الانتحار. ونحن نعتقد أنه قد حدثت لدى هؤلاء اختلالات غريزية بعيدة المدى، فحررت مقادير مفرطة من غريزة التدمير ووجهتها إلى الداخل. وهذه الطائفة من المرضى لا يطيقون فكرة احتمال الشفاء بفضل علاجنا، فلا يدعون بالتالي من وسيلة إلا ويلجؤون إليها ليحبطوا جهودنا. لكن لنعترف على كل بأننا لم نتوصل بعد إلى تفسير هذه الحالة على أكمل وجه.



لنلقِ، من جديد، نظرة على الموقف الذي اصطنعناه بمحاولتنا نجدة أنا معصوب. فهذا الأنا يقف عاجزاً عن الاضطلاع بالمهام التي يفرضها عليه العالم الخارجي، بما فيه المجتمع البشري. وجميع تجاربه الماضية تفلت منه، ومعها شطر كبير من ذخيرته من الذكريات. ونشاطه مكفوف بفعل تحريات أناه الأعلى الصارمة، وطاقته تتبدد في جهود دفاعية لا طائل فيها لصدّ مطالب الهذا. علاوة على ما يكون أصاب تنظيمه من خلل نتيجة لهجمات الهذا اللامنقطعة. وبالنظر إلى عجزه لاحقاً عن الوصول إلى تركيب حقيقي نراه يتفكك وتُعمِل فيه يد التمزيق نوازع متناقضة ومنازعات لم تُسوَّ وشكوك لم تُبدَّد. وفي بادئ الأمر نسمح لهذا الأنا الضعيف لدى مريضنا بالمشاركة في عملنا التأويلي العقلي الصرف مما يفسح في المجال لسد ثغرات مقتنياته النفسية بصورة مؤقتة، ثم نحوّل إلى حسابنا سلطة الأنا الأعلى، ونحثّ الأنا على التصدي لكل مطلب من مطالب الهذا وعلى التغلب على المقاومات التي تظهر عندئذ. وفي الوقت نفسه نعيد الأمور إلى نصابها في الأنا بكشفنا ما تسرب إليه من مضامين اللاشعور ونزعاته، وبإخضاعنا هذه المضامين للنقد بردِّها إلى أصلها. وإنما باضطلاعنا بوظائف شتى، وبتحوُّلنا في نظر المريض إلى سلطة وبديل عن أبويه، إلى معلم ومربٍّ، نتمكن من إسداء النفع له. وخير ما يمكن أن نفعله من أجله أثناء أدائنا دورنا كمحلِّلين أن نردّ إلى مستوى سويّ سيرورات أناه النفسية، وأن نحوّل ما صار لاشعورياً، أي ما كبت، إلى حالة القبشعور، ليعود من ثم إلى حوزة الأنا. أما من ناحية المريض، فإن بعض العوامل العقلانية تعمل لصالحنا: الحاجة إلى الشفاء الناشئة عن آلامه، الاهتمام الفكري الذي نتوصل إلى إثارته لديه بنظريات التحليل النفسي وكشوفه، وفي المقام الأول التحويل الإيجابي تجاهنا. غير أن ثمة عوامل أخرى تعمل ضدنا: التحويل السلبي، والمقاومة التي يقابل بها الأنا تحرير الكبت، أي الألم الناشئ عن العمل الشاق المفروض عليه، وشعور الإثم الناشئ عن علاقات الأنا بالأنا الأعلى، وأخيراً الحاجة إلى المرض المتأتية عن تغيُّرات عميقة في التنظيم الغريزي، وهذا العاملان الأخيران هما اللذان يتيحان لنا أن نحكم في مدى خطورة الحالة أو بساطتها. وعلاوة على هذه العوامل كلها، ثمة



عوامل أخرى، قليلة العدد، تستأهل الذكر، ومنها ما هو موائم ومنها ما هو غير موائم. ومن العوامل المعاكسة لنا قدر من العطالة النفسية، ونقص في حركية الليبيدو الذي يرفض التخلي عن تثبيتاته. وبالمقابل، تلعب قدرة المريض على إسماء دوافعه الغريزية دوراً هاماً، وكذلك قدرته على التسامي بنفسه فوق مستوى الحياة الغريزية الفجة، وأخيراً القوة النسبية لوظائفه العقلية.

هكذا نرانا منقادين إلى الاستنتاج بأن النتيجة الختامية للصراع الذي نخوض غماره تتوقف على علاقات **كمية**، على مبلغ الطاقة التي نعبّئها لدى المريض لصالحنا بالقياس إلى كمية الطاقة المتاحة للقوى التي تعمل ضدنا. وإيانا وخيبة الأمل، بل لنفهم على العكس الواقع. فالله يقف، هنا أيضاً، بجانب الأقوى. ولنقرّ بأن نصرنا ليس على الدوام محققاً، ولكننا نعرف على الأقل، في العادة، لماذا لم يحالفنا التوفيق. ومن أصرّ على أن ينظر إلى أبحاثنا من الناحية العلاجية وحدها، فقد يشيح عنا ازدراءً بعد هذا الإقرار. أما فيما يتعلق بنا نحن، فإن التقنية العلاجية لا تهمّنا هنا إلا بقدر ما تستخدم طرائق سيكولوجية، وليس لأي سبب آخر في الوقت الراهن. وقد يعلّمنا المستقبل كيف نؤثّر تأثيراً مباشراً، بالاستعانة ببعض المواد الكيماوية، على كميات الطاقة وتوزيعها في الجهاز النفسي. ولربما اكتشفنا إمكانيات علاجية أخرى لا تخطر لنا ببال في الوقت الراهن. غير أن التقنية التحليلية النفسية هي وحدها المتاحة لنا حالياً، ولهذا يجدر الامتناع عن الازدراء بها، بالرغم من محدوديتها.



مكتبة الفكر الجديد

الفصل السابع

مثال من العمل التحليلي النفسي

كوّنّا فكرة عامة عن الجهاز النفسي، عن العناصر والأعضاء والهيئات التي يتألف منها، عن القوى التي تعمل فيه، وعن الوظائف الموكولة إلى مختلف أقسامه. وما الأعصبة والأذهنة إلا الحالات التي تتظاهر فيها الاضطرابات الوظيفية في هذا الجهاز. ولئن اتخذنا من الأعصبة موضوعاً لدراستنا، فلأنها تبدو هي وحدها المتقبّلة لطرائقنا في الاستقصاء السيكولوجي. وفي الوقت الذي نحاول فيه التأثير على الأعصبة، نجمع بعض ملاحظات من شأنها أن توضح لنا أصلها وكيفية ظهورها.

لنذكر بادئ ذي بدء واحدة من نتائجنا الرئيسية. فالأعصبة، خلافاً للأمراض المُعدية مثلاً، ليس لها علل نوعية. فعبثاً تبحث فيها عن عوامل مُمرضة. وإنما هي ترتبط بالحالة التي توصف بأنها سوية بسلسلة من الحالات الانتقالية. ثم إنه لا وجود لحالة توصف بأنه سوية إلا وأمكن أن نكتشف فيها أثراً من آثار الحالة العصابية. ولا يكاد يختلف العصابيون عن غيرهم من الناس في استعداداتهم، ولا في الخبرات التي يمرون بها، ولا بالمشكلات التي يواجهونها. فما الداعي إذاً لأن تكون حياتهم أكثر شقاء وعناء، ولماذا يعانون أكثر من غيرهم من مشاعر الكدر والحصر والحزن؟

ليس الاهتداء إلى جواب بعسير. فهم يكابدون من **اختلالات كمية في التناسق**، هي السبب في عدم تكيُّفهم وفي عذاباتهم العصابية. وعلينا أن نبحث عن العلة المحدِّدة لجميع أشكال النفسية البشرية في الفعل المتبادل للاستعدادات الوراثية والخبرات العارضة. وعلى هذا، قد تكون غريزة بعينها أقوى أو أضعف مما



ينبغي جِبلّياً، كما يمكن لملَكة بعينها أن يتوقف نموّها السوي أو أن تبقى ناقصة التطور. وبالمقابل، تؤثر الانطباعات والأحداث الخارجية في الأفراد بقدر متفاوت من القوة، وما يتحمله فرد منهم قد لا يطيقه فرد آخر. وهذه الفروق الكمية هي التي تعيّن تنوع النتائج.

على أننا سرعان ما نكتشف أن هذا التفسير غير كافٍ. فهو أعمّ مما ينبغي ويريد أن يتجاوز في التفسير طاقته. والعلل التي تقدمت الإشارة إليها تصدق على جميع حالات العذاب والضيق والعجز النفسية، غير أن هذه الحالات لا يصحّ وصفها كلها بأنها عصابية. فالأعصبة تتميَّز ببعض السمات النوعية، وهي مصدر للون خاص من ألوان الشقاء. ولهذا يتراءى لنا أننا واجدون لها عللاً نوعية. أو نفترض أيضاً أن النفسية تخفق بسهولة ملحوظة أمام بعض المهام المفروض عليها أن تقوم بها. وعلى هذا، إن الطابع الخاص، والغريب في كثير من الأحيان، الذي تتجلبب به الظاهرات العصابية، قد يكون نابعاً من هذه الواقعة، ولكن ذلك لا يلزمنا البتة بالعدول عن توكيداتنا السابقة. فإن صحَّ أن الأعصبة لا تختلف في جوانبها الأساسية عن الحالة السوية، فإن دراستها تعد بإغناء معرفتنا بهذه الحالة السوية وبإمدادنا بمعطيات ثمينة. ولربما اكتشفنا عندئذ «النقاط الضعيفة» في تنظيم سويّ.

إن الفرضية التي تقدمنا بها لها ما يؤيدها. فالخبرة التحليلية النفسية تدلّ أن ما يواجهنا هو على الدوام مطلب غريزي ما أمكننا التغلب عليه أو ما أمكن التغلب عليه إلا بصورة منقوصة. كما تدلّنا أن مرحلة بعينها من الحياة هي المرحلة المناسبة الوحيدة أو الرئيسية لظهور العصاب. وهذان العاملان: طبيعة الدافع الغريزي والمرحلة الحياتية، ينبغي أن يُدرسا على حدة، رغم ترابط تأثيرهما في كثير من الأحيان.

فيما يتصل بالمرحلة الحياتية نستطيع أن نقول ما نريد قوله بوثوق كافٍ. إذ يبدو أن الأعصبة لا تُكتسب إلا في فترة الطفولة الأولى (حتى سن السادسة)، وإن لم تظهر أعراضها إلا في زمن متأخر كثيراً. ويتبدى العصاب الطفلي أحياناً لأجل وجيز من الزمن، أو قد يمرّ من غير أن يسترعي الانتباه. ومهما يكن من



أمر، فإن الطفولة هي منطلقه (من المحتمل أن تشذّ عن هذه القاعدة الأعصبة المسماة بالرضِّية والتي يحدثها هلع ماحق أو صدمات بدنية خطيرة مثل اصطدام القطارات أو الجروف الثلجية، إلخ؛ والحق أن صلاتها بالعامل الطفلي لم تزل مستعصية على مباحثنا). ويسير علينا أن ندرك لماذا يقع اختيار الأعصبة على الطفولة الأولى لكي تتظاهر. فالأعصبة، كما نعلم، آفات تصيب الأنا، فلا غرو ألا يتوصل الأنا، ما دام ضعيفاً، غير مكتمل، عاجزاً عن المقاومة، إلى التغلب على المشكلات التي لو واجهها في زمن لاحق لوجد لها حلاً بلا عناء على الإطلاق (إن المطالب الغريزية الداخلية، كالتنبيهات الخارجية، تفعل فعلها يومئذ كرضّات، ولا سيما إذا ما تضافرت معها استعدادات جِبلِّية). فالأنا البالغ الضعف، العاجز، يسعى إلى حماية نفسه بمحاولته الهرب (ضروب **الكبت**)، وهي وسيلة يتضح فيما بعد عدم نجعها وتنصب في وجه كل نمو لاحق عقبة دائمة. والأذى الذي يلحق بالأنا من جراء تجاربه الأولى يبدو لنا غير متناسب مع هذه التجارب. ولكن حسبنا أن نتذكر، على سبيل المقارنة، الفارق بين الآثار التي تخلِّفها وخزة إبرة (كما أوضح ذلك روكس)[1] في كتلة من الخلايا الرشيمية وهي قيد الانقسام وبينها في الحيوان المكتمل النمو والناشئ من هذه الخلايا. إن ما من كائن إنساني بمنجى من الحوادث الرضِّية، وما من أحد يفلت من الكبت الذي تتسبب فيه هذه الرضات. وربما كانت استجابات الأنا المحفوفة بالمخاطر هذه ضرورية للفرد لتمكينه من بلوغ هدف آخر، مرتبط بالمرحلة الحياتية نفسها. فالكائن البدائي الصغير يتعيَّن عليه أن يتحوَّل، في عدد يسير من الأعوام، إلى كائن إنساني متحضِّر، وأن يقطع، في زمن بالغ القِصَر، شوطاً واسعاً من الرقي الحضاري الإنساني. وهذه الظاهرة تتاح لها الإمكانية بفضل استعدادات وراثية، ولكنها لا تكاد تتحقق أبداً بدون مؤازرة التربية وتأثير الوالدين. فالمربون والأهل يحدّون، بالتحظيرات والعقوبات، من نشاط الأنا ويشجعون بل يفرضون عملية الكبت. حقيق بنا إذاً ألا نغفل عن دور الحضارة بين جملة العلل المحدِّدة للأعصبة. فالهمجي لا يشقّ عليه ـ لنقرّ بذلك ـ أن يعيش في عافية، على حين أن

١ ـ فلهلم روكس: بيولوجي ألماني (١٨٥٠ ـ ١٩٢٤). من مؤسسي علم الأجنة التجريبي. «م».



هذه مهمة شاقة على المتحضرين. وتبدو الرغبة في امتلاك أنا قوي، غير مكفوف، طبيعية؛ بيد أن هذا التطلع، كما يعلّمنا العصر الذي نعيش فيه، معاكس في جوهره للحضارة. والحال أن متطلبات هذه الأخيرة تتمثل بالتربية العائلية، فلا نغفلن إذاً عن إدراج هذه الخاصية البيولوجية للنوع البشري ـ التبعية الطفلية الطويلة الأمد ـ في عداد أسباب الأعصبة.

أما فيما يتعلق بالنقطة الأخرى: العامل الغريزي النوعي، فإننا نكتشف هنا تبايناً طريفاً بين النظرية والتجربة. فليس ثمة ما يحول، من الناحية النظرية، دون الافتراض بأن كل مطلب غريزي، كائناً ما كان، يتحتم أن يتسبب في ضروب متماثلة من الكبت مع نتائجها. غير أننا نشاهد على الدوام، وبقدر ما نملك أن نحكم، أن التنبيهات التي تلعب هذا الدور الإمراضي تنبعث من دوافع غريزية جنسية جزئية. وتشكّل الأعراض العصابية على الدوام إما إشباعات بديلة لدافع غريزي جنسي ما، وإما إجراءات لإعاقة هذه الإشباعات، وإما في الأعمّ والأغلب تسوية بين الاثنين مشابهة للتسويات التي تحدث في اللاشعور، تبعاً لقوانينه الخاصة، بين الأضداد. ولا يسعنا بعد أن نسدّ الفجوة في نظرياتنا، ومما يزيد في صعوبة الوصول إلى قرار نهائي كون أغلب النوازع الجنسية ليست إيروسية خالصة، بل تنبع من مزيج من دوافع غريزية إيروسية ومن دوافع غريزية تدميرية. على أنه لا مجال للشك في أن الدوافع الغريزية التي تتظاهر فيزيولوجياً باعتبارها ذات طبيعة جنسية تلعب دوراً أعظم من المتوقع في تسبيب الأعصبة. فهل هذا الدور حصري؟ لسنا نستطيع بعد أن نقطع برأي. وينبغي أن نتذكر أن ما من وظيفة قمعت قمعاً شديداً وعلى نطاق واسع خلال مسيرة الحضارة كالوظيفة الجنسية. وعلى النظرية أن تقنع بقرائن طفيفة من شأنها أن تشفّ عن ارتباط أوثق. ومن ثم، إن الطور الأول من الطفولة، الذي يشرع فيه الأنا بالتمايز عن الهذا، هو أيضاً، كما تدلنا المشاهدة، زمن التفتح الجنسي الأول الذي يضع له حدّاً طورُ الكمون. والحال أنه ليس من قبيل المصادفة والاتفاق أن يغرق هذا الطور المبكّر، البالغ الأهمية، في لجة النساية الطفلية في زمن لاحق. وأخيراً، إن التعديلات البيولوجية التي تطرأ على الحياة الجنسية، كتطور الوظيفة على مرحلتين

مكتبة الفكر الجديد

كما تقدمت الإشارة، وزوال الطابع الدوري للتهيج الجنسي والتبدل الذي يصيب العلاقة بين حيض الأنثى وتهيُّج الذكر، إن جميع هذه التجديدات في الجنسية لها بكل تأكيد أهمية جلى فيما يتصل بتطور الحيوان نحو الإنسان. وإنما على عاتق العلم مستقبلاً تقع مهمة جمع هذه المعطيات المتفرقة ليستخلص منها رؤية جديدة. والثغرة هنا قائمة لا في علم النفس، وإنما في علم الأحياء. ولعلنا لا نعدو الحق إن قلنا إن نقطة الضعف في تنظيم الأنا تكمن في سلوكه إزاء الوظيفة الجنسية، كما لو أن التعارض البيولوجي بين حفظ الذات وحفظ النوع وجد هنا تعبيره السيكولوجي.

لقد قيل عن الطفل إنه أبو الراشد من وجهة النظر السيكولوجية، وإن خبرات أعوامه الأولى يكون لها أبلغ الوقع على امتداد حياته اللاحقة. والتجربة التحليلية تؤكد صحة هذا القول. ولهذا السبب فإن اكتشاف حدث مركزي طرأ في عهد الطفولة يبتعث فينا اهتماماً جلاً. وينبغي أن ينصب انتباهنا في المقام الأول على انعكاسات بعض التأثيرات التي يتواتر حدوثها وإن كانت لا تطال الأطفال جميعاً: محاولات اغتصاب الصغار من قبل كبار، التغرير بهم من قبل أطفال آخرين يكبرونهم سناً (إخوة أو أخوات)، وأخيراً ـ وهو شيء قد لا يدخل في باب التوقع ـ الانطباع الذي تخلّفه الملاحظة السمعية أو البصرية للاتصال الجنسي بين الكبار (بين الوالدين)، وهذا في مرحلة من العمر يحسب فيها الناس أن أشباه هذه المشاهد لا توقظ اهتماماً لدى الطفل، ولا ترقى إلى مداركه، ولا تنحفر في ذاكرته. ومن اليسير أن نتبيَّن كم هو كبير الدور الذي تلعبه أشباه هذه الوقائع في إيقاظ قابلية الطفل الجنسية، وكيف يمكن لدوافعه الغريزية الجنسية الخاصة أن تصبّ عندئذ في قنوات قد لا يتأتّى لها أن تبارحها أبداً غبّ ذلك. وبما أن هذه الانطباعات تخضع للكبت إما مباشرة وإما لدى معاودتها الانبجاس في صورة ذكريات، فإنها توفّر جواً مؤاتياً لظهور دافع قهري عصابي إلى التكرار COMPULSION يحول، لاحقاً، بين الأنا وبين التحكم بالوظيفة الجنسية، وقد يدفع به إلى العزوف عنها. ويتولد عن ردّ الفعل الأخير هذا عصاب؛ ولكن إذا لم ينشأ هذا العصاب فقد تنمو انحرافات شتى، بل قد



يحدث انقلاب شامل في الوظيفة ذاتها على ما لها من أهمية قصوى إن للتناسل وإن لمسيرة الحياة بكاملها.

ومهما تكن هذه الحالات بعيدة المغزى، فإن موقفاً آخر هو الذي يستأثر باهتمامنا، موقفاً كتب على كل طفل أن يخبره، وينجم بالضرورة عن تبعيته الطويلة الأمد وعن حياته في بيت أهله، أعني به **عقدة أوديب** التي سُمِّيت بهذا الاسم لأن مضمونها الأساسي متضمَّن في الأسطورة الإغريقية عن الملك أوديب الذي شاء حسن الحظ أن تصلنا قصته كما رواها مؤلف مسرحي كبير[٢].

فقد قتل البطل الإغريقي أباه وتزوج أمه. صحيح أنه فعل ذلك دون علم منه لأنه كان يجهل أن الأمر يتعلق بوالديه، لكن هذا تحريف للموضوعة التحليلية يسهل فهمه، وربما ليس منه مناص.

علينا الآن أن نقدّم وصفاً مستقلاً لتطور الصبيان والبنات (الرجل والمرأة)، إذ يجد هنا فارق الجنسين لأول مرة تعبيره السيكولوجي. وهنا يواجهنا لغز مستغلق، معضلة تطرحها واقعة بيولوجية، هي واقعة وجود الجنسين. وعند حدود هذه الواقعة تقف معارفنا، إذ لا نملك أن نردّها ـ أقصد الواقعة ـ إلى شيء آخر. ولم يسهم التحليل النفسي بأي قسط في حلّ هذه المعضلة التي هي برمتها في أرجح الظن من طبيعة بيولوجية. وإننا لا نلتقي في النفسية إلا انعكاسات لهذا التعارض الكبير، وتفاسيرنا تصطدم بصعوبة كنا نشتبه منذ زمن بعيد بماهيتها: فالفرد لا تأتي استجاباته مطابقة لجنسه فقط، بل هو منفتح أيضاً، إلى حدّ ما، لاستجابات الجنس الآخر، كما أن جسمه يحتفظ، إلى جانب الأعضاء الجنسية المكتملة النمو، ببقايا ضامرة ـ وفي الغالب لا عمل لها ـ من أعضاء الجنس الآخر. وكيما نميِّز الذكر من الأنثى، من الناحية النفسية، نلجأ إلى معادلة اختبارية، اصطلاحية، يعوزها البرهان المقنع. فنحن نطلق صفة المذكر على كل ما هو قوي وفعال، وصفة المؤنث على كل ما هو ضعيف وسلبي. وتثقل واقعة الثنائية الجنسية BISEXUALIT النفسية

٢ ـ هو سوفوكليس. «م».



بوطأتها على أبحاثنا، وتجعل كل وصف شاقاً.

إن الموضوع الإيروسي الأول للطفل هو ثدي أمه الذي يغذيه، والحب يرتكز إلى إشباع الحاجة إلى الاقتيات. ومن المحقق أن الطفل لا يميّز في البداية الثدي المتاح له من جسمه هو. وإنما عندما يلحظ الطفل أن هذا الثدي يغيب عنه تكراراً يعزوه إلى مصدر خارجي ويعتبره مذّاك فصاعداً **موضوعاً**، موضوعاً مشحوناً بجزء من التوظيف النرجسي الأول، ثم لا يعتم هذا الموضوع أن يكتمل ليصير شخص الأم كله. فهذه الأخيرة لا تكتفي بتغذية الطفل، بل تعنى به، فتنبِّه فيه إحساسات بدنية شتى، منها ما هو مبهج ومنها ما هو مستكره. وبفضل ما تبذله له من عناية، تغدو مغويته الأولى. ومن خلال هاتين العلاقتين تكتسي الأم أهمية فريدة، لا تضاهى، لا تحول ولا تزول، وتغدو لكلا الجنسين موضوع الحب الأول والأقوى، نموذج كل علاقة حب لاحقة. وهنا ترجح كفة العامل السلالي على كفة العوامل الشخصية، العارضة، رجحاناً ماحقاً، بحيث يستوي أن يكون الطفل قد رضع ثدي أمه فعلاً أو تغذى من البزازة من غير أن يعرف قط عناية الأم وحنانها. والتطور واحد في الحالتين. بل قد يحدث في الحالة الأخيرة أن يشتدّ الحنين لاحقاً ويقوى. ومهما تطل فترة رضاعة الطفل من ثدي أمه، فسيقيم على اقتناع، بعد الفطام، بأن فترة رضاعه كانت قصيرة وشحيحة.

إن تقديمنا هذا لا يخلو من فائدة، وسيتيح لنا أن نفهم شدة عقدة أوديب. فحين يدخل الصبي (في نحو الثانية أو الثالثة) في الطور القضيبي من تطوره الليبيدوي، وحين يبدأ بأن يتعرف ويستشعر الإحساسات اللاذّة التي يمدّه بها عضوه الجنسي، وحين يتعلم أن يظفر بها وفق هواه بالإثارة اليدوية، يصبح عاشقاً لأمه ويتمنى لو يمتلكها جسمانياً على النحو الذي أتاحت له تخمينه ملاحظاته وحدوسه عن الحياة الجنسية. ويحاول إغراءها بعرضه أمامها قضيبه الذي تملؤه حيازته فخراً. وبكلمة واحدة، تحضّه رجولته المبكرة الاستيقاظ على التطلع إلى الحلول لديها محل أبيه الذي كان حتى ذلك الحين نموذجاً محسوداً لما يتمتع به من قوة جسمانية ظاهرة ومن حظوة. أما الآن فإن الطفل يرى في أبيه منافساً بودّه لو يزيحه من طريقه. ولئن أتيح للصبي الصغير أن يشاطر أمه أحياناً فراشها



في أثناء غياب أبيه، فإنه لا يلبث أن يقصى عنه متى ما عاد هذا الأخير، فيرتبط رحيله بالسرور وأوبته بالخيبة. تلكم هي عقدة أوديب التي قبستها الأسطورة الإغريقية من العالم الاستيهامي الطفلي لتنقلها إلى الواقع المفترض. وتدَّخر حضارتنا الراهنة نهاية رهيبة على الدوام لهذه العقدة.

تفهم الأم حقَّ الفهم أن تهيُّج طفلها الجنسي منصبّ عليها. ويأتي يوم تقول فيه بينها وبين نفسها إنه لا يجوز ترك الحبل على غاربه، ويرسخ في اعتقادها أنها تحسن صنيعاً إن حظَّرت عليه الملامسات الاستمنائية. ولا يؤتي الحظر مفعولاً يذكر، ولا يستتبع في أحسن الأحوال إلا تعديلاً في طريقة الإشباع الذاتي. وتلجأ الأم في خاتمة المطاف إلى الإجراءات الشديدة. فهي تهدد الطفل بأن تجرّده من جسم الجريمة، وتعلن عادة، كيما تجعل تهديدها أشد وقعاً وأقرب إلى التصديق، أنها ستعهد إلى الأب بالتنفيذ، وأنها ستكاشف هذا الأخير بكل شيء ليتولى من ثم بنفسه، على حدّ ما تقول، بتر القضيب. والغريب في الأمر أن هذا الوعيد لا يؤتي مفعوله ما لم يتحقق قبله أو بعده شرط آخر. فالطفل لا يصدِّق احتمال عقاب كهذا، ولكنه إذا تذكر، ساعة التهديد، أنه رأى من قبل أعضاء تناسلية أنثوية، أو إذا حدث له بعيد ذلك أن وقع نظره على هذه الأعضاء التي ينقصها ذلك الشيء القيّم، حمل عندئذ على محمل الجدّ الوعيد، وعانى، تحت وقع **عقدة الخصاء**، أقسى رضة في مطلع حياته[٣].

إن للتهديد بالخصاء آثاراً عديدة لا تقع تحت حساب، وهي تؤثِّر في جميع علاقات الصبي الصغير بأبيه وأمه، وفي زمن لاحق في صلاته بالرجال والنساء إجمالاً. وكثيراً ما تنوء ذكورة الطفل تحت وقر هذه الصدمة الأولى. وكيما ينقذ

٣ ـ الخصاء وارد أيضاً في أسطورة أوديب. فالبطل يفقأ بالفعل عينيه عقاباً لنفسه على جريمته. وهذه الفعلة، كما تثبت الأحلام ذلك، بديل رمزي عن الخصاء. وليس من المستبعد أن يكون الهلع الشديد الذي يبتعثه هذا التهديد مردّه جزئياً إلى أثر ذاكري سلالي، من مخلَّفات حقبة ما قبل التاريخ حين كان الأب الغيور يبتر بالفعل أعضاء ابنه التناسلية إذا ما رأى فيه منافساً له على امرأة. وثمة عادة قديمة جداً هي الختان ـ بديل رمزي للخصاء ـ لا يمكن فهمها إلا على أنها تعبير عن خضوع للإرادة الأبوية (انظر طقوس البلوغ لدى البدائيين). والوقائع التي تكلمنا عنها لم تدرس بعد لدى الشعوب وفي الحضارات التي لا تقمع الاستمناء الطفلي.



عضو ذكورته يعدل عدولاً شبه تام عن امتلاك أمه؛ وكثيراً ما يدمغ هذا الحظر جنسية الطفل أبد حياته. فإن كان المركَّب الأنثوي، كما ذكرنا، قوياً لديه، فإنه يزداد قوة بفعل التهديد الموجَّه إلى ذكورته. فنراه يأخذ تجاه أبيه موقفاً سلبياً، شبيهاً بذاك الذي يعزوه إلى أمه. ولقد يحمله التهديد على الإقلاع عن الاستمناء، ولكن ليس عن التخيُّلات التي تصاحبه. بل على العكس من ذلك. فالتخيُّل، الذي هو الشكل الوحيد المتبقي له للإشباع الجنسي، يزداد نشاطاً عن ذي قبل. وإذ يتماهى الطفل، في هذه التخيُّلات، مع أبيه كما من قبل، فإنه يتماهى، وربما بقدر أكبر، مع أمه. وتجد مشتقات هذه التخيُّلات الاستمنائية ومنتجاتها المعدَّلة منفذاً لها إلى الأنا الداخلي للطفل وتسهم في تكوين طبعه. وليست أنوثته وحدها هي التي يشتدّ عودها، بل إن خوفه من أبيه وكرهه له يزدادان قوة. وتتراجع ذكورة الصبي الصغير القهقرى، إن جاز القول، ويقف من أبيه موقف التحدي. وهذا الموقف هو ما سيملي عليه لاحقاً وقهرياً سلوكه في المجتمع. وكثيراً ما يحتفظ الصبي الصغير في هذه الحال بآثار من تثبيته الإيروسي على أمه، هذا التثبيت الذي يفصح عن نفسه بتبعية مفرطة لها، وبموقف خانع تجاه المرأة بصفة عامة. وإذ لا يعود يجرؤ على عشق أمه، فإنه لا يريد أيضاً أن يجازف بفقدان محبتها له، لأنها قد تشي به حينئذ عند أبيه وتسلمه للخصاء. وتخضع هذه السيرورة بجملتها، بشروطها ونتائجها التي لم نعرض إلا لعدد ضئيل منها، لكبت شديد. وبمقتضى القوانين التي تحكم الهذا اللاشعوري، تبقى جميع الحاثات الانفعالية وجميع الاستجابات المتناقضة ـ التي تنشط آنذاك ـ ضمن نطاق اللاشعور، وعلى أهبة دائمة لتعكير التطور اللاحق للأنا غبّ البلوغ. وحين تبعث ظاهرة النضوج الجنسي البدنية حياة جديدة في التثبيتات الليبيدوية القديمة التي هجرت في الظاهر، ينكشف أمر الجنسية كجنسية معاقة، مجزأة، متفككة إلى نوازع متناقضة.

من المؤكد أن التهديد بالخصاء لا يتمخَّض على الدوام عن مثل هذه النتائج المخيفة في جنسية الصبي الصغير المتفتحة. فهذه المرة أيضاً يتوقف مبلغ الأضرار الحاصلة، ومبلغ الأضرار التي أمكن تفاديها، على علاقات كمية. ومهما يكن من



أمر، فإن جملة الوقائع هذه ينبغي أن تعدّ الخبرة الرئيسية في سنيّ الطفولة، وهي تثير أخطر مشكلات الطور الأول من الحياة، كما أنها تشكل أغزر مصدر للاضطرابات المستقبلية. غير أنها تسقط مع ذلك في لجة النسيان، وحين نحاول في أثناء التحليل أن نعيد تكوينها، يقابلها الراشد بريبية مطلقة. وقد ينكرها حتى ليأبى مجرد التلميح إلى الموضوع، وقد يبلغ من عماه العقلي أن يتنكر لأسطع الأدلة التي تقطع بوجود الواقعة المذكورة. فهو يزعم مثلاً أن أسطورة أوديب لا تمتّ بأي صلة فعلية إلى السيرة التي أعاد التحليل بناءها، وأن الحالة مغايرة تماماً نظراً إلى أن أوديب كان يجهل أنه قتل أباه وتزوج أمه، غير أن مريضنا يغفل عن أن تحريفاً كهذا كان محتَّماً كيما يُعطى الموضوع شكله الشعري، وأن ما من عنصر غريب قد دُسّ على الأسطورة أصلاً، وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون معالجة بارعة لعناصر موجودة من قبل في الموضوعة. وما جهل أوديب إلا تصوير مشروع للاشعور الذي تغرق فيه الواقعة الأساسية بجملتها لدى الراشد. والحكم القسري الذي يتلفظ به وسيط الوحي والذي يبرئ أو يفترض فيه أنه يبرئ البطل ما هو إلا إقرار بحتمية القدر الذي يحكم على الأبناء جميعاً بأن يعانوا عقدة أوديب. ولم يتوانَ بعض أتباع التحليل النفسي[٤] عن التنويه بأن اللغز الذي تطرحه شخصية مسرحية أخرى، نعني هاملت، بطل شكسبير المتردد، قابل هو الآخر للحلّ بسهولة متى ما رُدّ إلى عقدة أوديب. فالأمير الشاب يحجم، بالفعل، عن أن يعاقب في شخص إنسان آخر ما يناظر رغباته الأوديبية الذاتية. وعجز العالم الأدبي بصفة عامة عن فهم هذه المسرحية ينمّ عن مبلغ تشبُّث بني البشر بكبتهم الطفلي[٥].

وقد كان الفيلسوف الفرنسي ديدرو DIDEROT أوضح، قبل أكثر من قرن

٤ ـ الإشارة هنا إلى إرنست جونز تلميذ فرويد وصديقه الوفي الذي وضع دراسة بعنوان **أوديب وهملت**. «م».

٥ ـ أرجح الظن أن شكسبير اسم مستعار يحتجب وراءه عظيم مجهول. والشخص الذي يعدّ أنه هو مؤلف أعمال شكسبير، إدوارد دي فير، إيرل أوف أكسفورد، كان قد فقد في طفولته أباه الذي أضمر له حباً وإعجاباً، وكان هذا الأب قد افترق عن أمه التي بادرت إلى الزواج ثانية بعيد وفاته. «م».



من ظهور التحليل النفسي، أهمية عقدة أوديب إذ أبان على النحو التالي الفارق الذي يميِّز العصور البدائية عن العصور المتحضرة: «لو ترك الهمجي الصغير وشأنه، فبقي على كامل غباوته، وجمع بين ضعف رشاد الطفل في مهده وبين عنف أهواء الرجل في الثلاثين من عمره، لدقَّ عنق أبيه وضاجع أمه»(٦). وأبيح لنفسي القول إنه لو لم يكن للتحليل النفسي إلا فضل اكتشاف عقدة أوديب المكبوتة، لكان ذلك كافياً لإسلاكه في عداد المكتسبات الجديدة النفيسة للجنس البشري.

أما لدى الفتاة فإن آثار عقدة الخصاء أقرب إلى أن تكون من نسق واحد، ولكنها ليست أقلَّ عمقاً. فبديهي أن البنت الصغيرة لا حاجة بها لأن تخشى فقدان قضيبها، غير أن ردّ فعلها ينبع من كونها لا تملكه. فمن البداية تحسد الصبي. وفي وسعنا القول إن تطورها كله يتم تحت سلطان الحسد القضيبي هذا. فهي تسعى بادئ الأمر بلا جدوى إلى أن تقلِّد الصبيان، ثم تصيب قدراً أكبر من التوفيق في محاولتها الظفر بتعويض، وقد تؤدي بها جهودها إلى اتخاذ موقف أنثوي سويّ. وعندما تحاول، في أثناء الطور القضيبي، أن تفوز، نظير الصبي الصغير، بأحاسيس لاذة بإثارتها أعضائها التناسلية يدوياً، لا تتوصل على الدوام إلى الظفر بإشباع كافٍ، فتسحب عندئذ على شخصها بأسره الشعور بالدونية الذي استثاره لديها امتلاكها لمحض قضيب ضامر. ولا تعتم أن تقلع عن الممارسات الاستمنائية وتنصرف عن الجنسية انصرافاً تاماً في محاولة منها للهرب من كل ما يذكِّرها بتفوُّق شقيقها أو رفاقها الذكور.

وإن أصرّت الفتاة الصغيرة على رغبتها في أن تصير غلاماً، فقد ينتهي بها الأمر، في الحالات القصوى، إلى الجنسية المثلية السافرة، أو تظهر لديها في الأحوال جميعاً سمات الطبع الذكوري وتختار مهنة من مهن الذكور، إلخ. وفي حالات أخرى تنفصل عن أمها التي كانت تحبها فيما مضى، لأنها لا تستطيع، تحت وقر الحسد القضيبي، أن تغفر لها أنها أنجبتها بغير ما تجهيز كافٍ. ويدفع بها

---

٦ - بالفرنسية في النص. والإحالة هنا إلى حوارية **ابن أخي رامو**، للكاتب والفيلسوف والموسوعي التنويري الفرنسي دني ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤). «م».



سخطها إلى هجران أمها وإلى اتخاذ موضوع آخر لحبّها: أبيها. وعندما يفقد المرء كائناً يحبه، فإن ردّ فعله الطبيعي أن يتماهى وإياه، أن يحلّ محلَّه من الداخل، إن جاز القول. وهذه الآلية هي التي تلجأ إليها البنت الصغيرة حينذاك. فهي تستبدل تعلّقها بأمها بتماهيها وإياها، وتضع نفسها موضع أمها كما كانت تفعل دائماً في ألعابها. ولرغبتها في الحلول محلها لدى أبيها تطفق تبغض من كانت تؤثرها بحبّها حتى ذلك الحين، وذلك لسببين: الغيرة والضغينة التي أثارها فيها حرمانها من القضيب. وقد تقوم علاقاتها الجديدة مع أبيها أول الأمر على أساس رغبتها في الاستحواذ على قضيبه، غير أن نقطة الأوج لا تبلغها سوى رغبة أخرى: إنجاب طفل هديةً منه؛ وشهوة الطفل هذه تحلّ محلّ الحسد القضيبي أو تشتقّ منه على الأقل.

من المثير للاهتمام أن نلحظ كم تختلف العلاقات بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء، بل كم تتعارض، لدى البنات والصبيان. فالتهديد بالخصاء يضع بالفعل، كما تسنى لنا أن نرى، حداً لعقدة أوديب لدى الغلام. أما البنت فتندفع، على العكس، إلى هذه العقدة حينما يتبيَّن لها عطلها من القضيب. ولا تترتب محاذير كثيرة على بقاء المرأة في موقف أوديبي أنثوي (وهو موقف اقترح بعضهم إعطاءه اسم عقدة إلكترا)(٧). وفي مثل هذه الحال تطمح في أن تلقى مستقبلاً لدى زوجها صفات أبيها وتكون على استعداد للرضوخ لسلطانه. أما رغبتها في امتلاك قضيب، وهي في الواقع رغبة لا يشفى لها غليل، فمن الممكن إشباعها إن أفلحت في تحويل حبها للعضو إلى حب للرجل مالك هذا العضو، تماماً كما حوّلت من قبل الحب الذي يوحي لها به ثدي الأم إلى شخص هذه الأخيرة بأسره.

حين نسأل محلّلاً من المحللين أن يخبرنا عن أعصى البنى النفسية لدى مرضاه على تأثيره، يجيبنا بلا توانٍ: لدى المرأة الحسد القضيبي، ولدى الرجل موقف أنثوي حيال جنسه؛ والشرط اللازم المفترض لهذا الموقف هو فقدان القضيب.

٧ ـ عقدة إلكترا: هو المصطلح الذي كان اقترحه كارل غوستاف يونغ كنظير عند البنت لعقدة أوديب لدى الصبي. وقد كان فرويد رفض هذه التسمية في مقاله عام ١٩٣١: **عن الجنسية المؤنثة**. «م».



القسم الثالث

المكسب النظري



مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثامن

الجهاز النفسي والعالم الخارجي

إن النظرات والفروض العامة التي عرضناها في فصلنا الأول قد تسنى لنا الوصول إليها بفضل العمل الوئيد والدقيق الذي أوردنا له مثالاً في القسم الثاني من هذا المؤلَّف.

ولنستسلم الآن لإغراء إلقاء نظرة على التقدم الذي أتاح لنا هذا العمل إحرازه، ولنرَ ما الطرق الجديدة التي تنفتح من الآن فصاعداً أمامنا. والشيء الذي قد يفجأنا كوننا قد اضطررنا في كثير من الأحيان إلى التوغل إلى ما وراء حدود علم النفس. فالظاهرات التي درسناها ليست من طبيعة سيكولوجية فحسب، بل لها أيضاً جانب عضوي وبيولوجي، وهذا ما يترتب عليه أننا، في جهودنا لتشييد التحليل النفسي، قد حققنا أيضاً كشوفاً هامة في مضمار علم الأحياء، ولم يكن أمامنا مناص من المصادرة على فروض جديدة تتصل بهذا العلم.

لكن لنلزم، مؤقتاً، مضمار علم النفس. فقد كنا أقررنا بأنه من المتعذر علمياً أن نقيم خطاً فاصلاً واضحاً بين الحالات السوية والشاذة. ومن ثم، إن كل تمييز لا يمكن أن يكون له، رغم أهميته العملية، سوى قيمة اعتبارية. وقد كان لزاماً علينا أن نكوِّن فكرة عن الحياة النفسية عن طريق دراسة اضطراباتها، وما كان هذا بممكن لو كان لهذه الحالات المرَضية ـ الأعصبة أو الأذهنة ـ علل نوعية تفعل فعلها على منوال أجسام غريبة.

لقد قدَّمت لنا دراسة الاضطراب العابر الذي يطرأ أثناء النوم، وهو اضطراب لا ضرر منه بل له دور نافع، مفتاح الأمراض النفسية الدائمة والخطرة. وإننا لنؤكد أن علم نفس الشعور ما كان أقدر على فهم الاشتغال السوي للنفس منه على



تفسير الحلم. ولقد أثبتت المعلومات الوحيدة المتاحة له، أقصد معطيات الإدراك الشعوري الذاتي، تقصيرها عن إفهامنا تعدد الظاهرات النفسية وتعقُّدها، وكذلك عجزها عن كشف العلاقات الرابطة فيما بينها وعن الاهتداء إلى العلل المحدِّدة للظاهرات المرَضية.

وحين فرضنا وجود جهاز نفسي، ذي امتداد في المكان، جيِّد التكيُّف مع دوره، ونامٍ بفعل مقتضيات الحياة، ولا ينتج الظاهرات الشعورية إلا في نقطة خاصة وفي شروط محددة، تأتَّى لنا أن نقيم علم النفس على أسس مشابهة للأسس التي يقوم عليها كل علم آخر، كالفيزياء مثلاً.

والمطلوب في مضمارنا العلمي، كما في مضامير سائر العلوم الأخرى، أن نكتشف خلف خصائص (كيفيات) الأشياء المدركة إدراكاً مباشراً شيئاً آخر أقل ارتهاناً بقابلية الاستقبال لدى أعضاء حواسنا وأقرب صلة إلى ما يُفترض أنه واقع الأشياء بالذات. صحيح أننا لا نأمل في البلوغ إلى واقع الأشياء هذا لأننا مكرهون، بطبيعة الحال، على ترجمة استدلالاتنا كافة إلى لغة إدراكاتنا بالذات، وهذه نقيصة حُرِّم علينا إلى الأبد التحرر منها. لكن هنا بالذات تكمن طبيعة عملنا وحدوده. ومجرى الأمور في علمنا هذا أشبه بمجراه في العلوم الفيزيائية فيما لو قلنا عنها: «لو كان لنا نظر ثاقب بما فيه الكفاية لاكتشفنا أن الجسم الصلب في ظاهره يتألف من جزئيات لها هذا الشكل أو ذاك، وهذا الحجم أو ذاك، وهذا الوضع أو ذاك بالنسبة إلى بعضها بعضاً». على هذا النحو نسعى إلى أن نزيد، إلى أقصى حدٍّ ممكن، بوسائل اصطناعية، مردود أعضائنا الحسية؛ غير أنه يخلق بنا أن نتذكر أن جميع هذه الجهود لا تعدل شيئاً في النتيجة النهائية. فالواقع سيبقى أبداً بحدّ ذاته «عصياً على المعرفة». وكل ما يفيده العمل العلمي من الإدراكات الحسية الأولية هو اكتشاف ترابطات وتعالقات قائمة في العالم الخارجي وقابلة، بهذه الصورة أو تلك، لأن تتكرر أو تنعكس في العالم الداخلي لفكرنا. وتتيح لنا هذه المعرفة أن «نفهم» بعض ظاهرات العالم الخارجي، وأن نتوقعها، وفي بعض الأحيان أن نعدِّلها. وهذا ما نعمله أيضاً في التحليل النفسي. فقد تسنى لنا أن نكتشف بعض الطرائق التقنية التي تتيح لنا أن نسدّ



الفجوات التي تظل قائمة في الظاهرات الشعورية، ونحن نستخدم هذه المناهج التقنية كما يستخدم الفيزيائيون التجريب. وهكذا نستنتج عدداً من السيرورات التي هي في حدّ ذاتها «عصية على المعرفة». ثم ندرج بعد ذلك هذه السيرورات في عداد السيرورات التي تقع تحت شعورنا. فحين نقول مثلاً: «هنا تسللت ذكرى لاشعورية»، فهذا معناه أنه حدث شيء لا نتصوره، ولكنه إذا ما بلغ شعورنا فليس يمكن وصفه إلا بهذه الكيفية أو تلك.

من المؤكد أن حق استخلاص نتائج كهذه، والقيام بتعميمات كهذه، والمصادرة على صحتها، يبقى في كل حالة خاصة خاضعاً للنقد. ولنقرّ بأنه يعسر للغاية في كثير من الأحيان الوصول إلى قرار، وهذا ما ينعكس في تعدد الآراء بين المحللين. وجِدَّة المشكلة، أي قلة التمرس، هي المسؤولة عن ذلك جزئياً. غير أنه من العدل أن نلقي التبعة أيضاً على عامل خاص متصل بطبيعة المادة ذاتها. ذلك أن الأمر في علم النفس لا يتعلق على الدوام، كما في الفيزياء، بمواد لا توقظ إلا اهتماماً علمياً بارداً. ولا داعي لأن نسرف في العجب إن رأينا، مثلاً، امرأة محلِّلة، غير مقتنعة اقتناعاً كافياً بشدة الحسد القضيبي عندها، تستهين بشأن هذا العامل لدى مريضاتها. غير أن مصادر الخطأ هذه، الناجمة عن معادلة شخصية، ليست لها أهمية كبيرة في خاتمة المطاف. فحين نتصفح مرجعاً قديماً في العلم المجهري نذهل لما كان يُفرَض من شروط ومطالب على الأشخاص الذين يستخدمون المجهر في زمن كانت لا تزال فيه هذه التقنية في أول عهدها. أما اليوم فلم يبقَ من ذلك كله شيء.

لن نقدِّم هنا صورة كاملة للجهاز النفسي ووظائفه. ولو حاولنا ذلك أصلاً لأربكَنا كونُ التحليل النفسي لم يتسنَّ له الوقت بعد لدراسة كل وظيفة من وظائفه بقدر متساوٍ من الاهتمام. فلنقنع إذاً بتلخيص وافٍ لما قلناه في القسم الأول من مؤلَّفنا.

تتألف نواة وجودنا إذاً من الهذا المعتم الدامس الذي لا يتصل اتصالاً مباشراً بالعالم الخارجي، والذي لا نتوصل إلى معرفته إلا بواسطة هيئة نفسية أخرى. وتعمل في داخل الهذا **الدوافع الغريزية** العضوية، وهي دوافع تنجم



عن امتزاج قوتين بدائيتين: الإيروس والتدمير، بنسب متفاوتة، وتختلف هذه الدوافع الغريزية عن بعضها بعضاً تبعاً لصلتها بالأعضاء أو بمنظومات الأعضاء. وهدفها الوحيد إشباع نفسها عن طريق تغييرات في هذه الأعضاء تتمكن من إحداثها فيها بمساعدة المواضيع الخارجية. غير أن إشباعاً فورياً ومتهوراً، كمثل ما يشتهي الهذا، من شأنه في كثير من الأحيان أن يشعل فتيل منازعات خطيرة مع الخارج وأن يفضي إلى دمار الفرد المعني. فالهذا لا يحفل البتة بضمان المستقبل ويجهل القلق. وربما كان من الأصح القول إن الهذا، وإن كان قادراً على توليد عناصر القلق الحسّية، فإنه لا يستطيع استخدامها. وتختلف السيرورات التي تقع لهذه العناصر النفسية المفترضة في الهذا أو تحدث فيما بينها (**السيرورات الأولية**) اختلافاً بيّناً عن السيرورات التي آلَفَ بيننا وبينها الإدراكُ الشعوري في مجرى حياتنا العقلية والعاطفية. وفضلاً عن ذلك، إن قيود المنطق النقدية لا تؤثر البتة في ما يجري في الهذا؛ وبالفعل، يجبّ المنطق شطراً من هذه السيرورات، ويحكم عليها بالبطلان، بل ينزع إلى إبطالها من أساسها.

إن للهذا، المنقطع عن العالم الخارجي، عالمه الإدراكي الخاص. فهو يستشعر بحساسية فائقة بعض التغيرات التي تطرأ في داخله، وعلى الأخص التفاوتات في توتر الانفعالات الغريزية، وهي تفاوتات تأخذ طريقها إلى الشعور باعتبارها انطباعات في سلسلة اللذة / الكدر. وصحيح أنه يصعب أن نعيِّن ما الطرق وبمساعدة أي الأعضاء الحسية الطرفية تحدث هذه الإدراكات، غير أن ثمة شيئاً واحداً يبدو محققاً، وهو أن الإدراكات الذاتية، أي الانطباعات الحشوية ومشاعر اللذة والكدر، تحكم الظاهرات في داخل الهذا حكماً استبدادياً. ويخضع الهذا لمبدأ اللذة الصارم، ولكنه ليس وحده الذي يسلك هذا المسلك. إذ يفلح نشاط الهيئات النفسية الأخرى، فيما يبدو، في تعديل - لا في إلغاء - مبدأ اللذة؛ ومن ثم تنطرح مسألة ذات أهمية نظرية حاسمة لم تجد لها حلاً بعد: متى وكيف يمكن التغلب على هذا المبدأ؟ وإذ نعتبر أن مبدأ اللذة يقتضي خفض التوترات الناشئة عن الحاجات الغريزية، بل زوالها في نهاية الأمر (أي

مكتبة الفكر الجديد

النيرفانا[1]، نطرق مسألة العلاقات بين مبدأ اللذة وبين القوتين البدائيتين: الإيروس وغريزة الموت، وهي مسألة لم تأخذ طريقها إلى التوضيح بعد.

أما الهيئة النفسية الأخرى، نعني الأنا، فتبدو لنا أكثر قابلية للمعرفة، ويتراءى لنا أننا نتعرف فيها أنفسنا بسهولة أكبر. وقد نمت بدءاً من طبقة الهذا اللحائية التي أُعدَّت لتلقي التنبيهات واستبعادها، فكان اتصالها بالخارج (**الواقع**) اتصالاً مباشراً. وينطلق الأنا من الإدراك الشعوري ليُخضِع لنفوذه مناطق أوسع فأوسع وطبقات أعمق فأعمق من الهذا؛ وهو إذ يتشبَّث بتبعيته للعالم الخارجي يحمل علامة أصله غير القابلة للمحو، نوعاً من «صنع في ألمانيا»[2] إن جاز القول، ووظيفته، من وجهة النظر السيكولوجية، أن يرقى بسيرورات الهذا إلى مستوى دينامي أعلى (ربما بتحويله قدراً من الطاقة الحرة، الطليقة، إلى طاقة مقيَّدة، كما في الحالة القبشعورية). أما الدور البنّاء للأنا فينحصر بأن يقيم بين المطلب الغريزي والفعل القمين بإشباعه نشاطاً عقلياً يسعى، على ضوء الوضع القائم والخبرات السابقة وبالاستناد إلى اختبارات تجريبية، إلى تقييم نتائج الخط السلوكي المقترح. على هذا النحو يتوصل الأنا إلى البتّ في ما إذا كان المشروع المزمع عليه قميناً بأن يؤدي إلى إشباع، أم هل من الأنسب إرجاؤه، أم هل ينبغي قمع المطلب الغريزي وخنقه باعتباره محفوفاً بالمخاطر (**مبدأ الواقع**). وكما أن الهذا لا يخضع إلا لداعي اللذة، كذلك يتسلط على الأنا هاجس الأمن. فمهمته، التي أهملها الهذا فيما يدو، هي حفظ الذات. ويستخدم الأنا أحاسيس القلق والحصر نذيراً ينبِّهه إلى خطر يتهدد سلامته. وبما أن الآثار الذاكرية قابلة لأن تصير شعورية مثلها مثل الإدراكات، وعلى الأخص إذا اقترنت بالرواسب اللفظية، فإن احتمالَ خلطٍ يقوم هنا ويكون من شأنه سوء إدراك للواقع. ويدفع الأنا عنه خطر هذا الاحتمال بتأسيسه **امتحان الواقع** الذي ينتفي دوره أحياناً في الأحلام بحكم مقتضيات حالة النوم. وتحيق

١ ـ النيرفانا: في الأصل مفهوم فلسفي مقتبس من معجم الحضارات والديانات الهندوسية والجاينية والبوذية، ويعني حرفياً انطفاء نار الأهواء والانعتاق من الجهل وبالتالي التحرر. وقد أمسى له في المفهوم الشعبي الدارج معنى «السعادة الفائقة» واللذة الحسية والجنسية الفائقة. أما في التحليل النفسي فقد أخذ مبدأ النيرفانا معنى خاصاً إذ صار يعني النزوع إلى اللاوجود والطمأنينة المطلقة. «م».

٢ ـ بالإنكليزية في النص: MADE IN GERMANY. «م».



بالأنا، في جهاده لصون نفسه في خضم قوى آلية طاغية، أخطار تأتي في المقام الأول من الواقع الخارجي، وكذلك من مصادر أخرى. والهذا ذاته مصدر لأخطار مماثلة عليه، وذلك لسببين متباينين. أولاً، من الممكن لقوى غريزية مسرفة الشطط أن تُلحِق بالأنا أذى معادلاً لما قد تلحقه به «تنبيهات» خارجية مفرطة القوة. ثانياً، إن التجربة تعلّم الأنا أن إشباع مطلب غريزي، ليس بغير محتمل في حدّ ذاته، قد يستثير ردّ فعل خطراً من جانب العالم الخارجي، بحيث ينقلب المطلب الغريزي ذاته حينئذ إلى خطر. على جبهتين اثنتين يتعيَّن إذاً على الأنا أن يصارع: فعليه أن يذود عن وجوده ضد عالم خارجي يهدده بالتدمير، وضد عالم داخلي مجاوز للحدّ في مطالبه. وهو يستخدم ضد خصميه طريقة واحدة في الدفاع. غير أن هذه الطريقة لا تدلل على نجع يذكر في مواجهة العدو الداخلي. وبحكم صلته الحميمة بهذا الخصم ووحدة الهوية التي كانت تجمعه وإياه في الأصل، يعسر على الأنا غاية العسر الإفلات من الأخطار الداخلية؛ وحتى في حال نجاحه في إحباط هذه الأخطار بصورة مؤقتة، فإنها تظل تتوعده.

رأينا كيف أن الأنا، الذي يكون ضعيفاً وغير مكتمل النمو في الطفولة الولى، يصاب بضرر مستديم من جراء ما يبذله من جهد للإفلات من الأخطار الملازمة لهذا الطور من الحياة. صحيح أن حماية الأهل تدفع عن الطفل الأخطار الخارجية، غير أنه يدفع ثمن هذا الأمان قلقاً وخوفاً من فقدان حب هؤلاء الأهل، لأن فقداناً كهذا من شأنه أن يُسْلِمه بلا حماية لجميع أخطار الخارج. ويؤثّر هذا العامل تأثيراً حاسماً في مآل الصراع حين يدخل الصبي في الموقف الأوديبي ويستحوذ عليه تهديد الخصاء الذي يثقل بوطأته على نرجسيته بعد أن يكون تعضّد بمصادر بدائية. ويتضافر هذا التأثيران، تأثير الخطر الواقعي المباشر وتأثير الخطر ذي الأساس السلالي المدَّخر في الذاكرة، على حضّ الطفل على اتخاذ إجراءات دفاعية (الكبت بأنواعه). غير أن هذا الدفاع، وإن أثبت نجعه بصورة مؤقتة، يتكشَّف عن أنه غير وافٍ سيكولوجياً بالغرض لحظة يؤدي تنشيط الجنسية من جديد إلى تعزيز المطالب الغريزية التي جرى استبعادها سابقاً. أما من وجهة النظر البيولوجية فسنقول إن الأنا يصطدم بإثارات الطور الأول للجنسية

مكتبة الفكر الجديد

في زمن لم يكن فيه مناص من أن يقوده عدم نضجه إلى الفشل. وفي رأينا أن تخلُّف نمو الأنا عن نمو الليبيدو هو الشرط الأساسي للأعصبة. فكيف لا نستنتج، والحال هذه، أنه من الممكن تفادي الأعصبة فيما لو جُنِّب الأنا الطفلي هذا الامتحان، أي فيما لو تركت جنسية الطفل تتفتح بحرية، كما هو واقع الحال لدى العديد من الشعوب البدائية؟ ومن المحتمل أن تكون أسباب الأمراض العصابية أشدَّ تعقيداً مما نقول هنا؛ وإن يكن كذلك هو واقع الحال، فإننا نكون قد سلَّطنا الضوء على الأقل على قسم أساسي من جملة هذه الأسباب المعقدة. وعلينا ألا ننسى أيضاً التأثيرات السلالية الكامنة في موضع ما من الهذا، في شكل لا نعرفه بعد، والتي يكون فعلها في الأنا في الطفولة الأولى أقوى منه في أي عهد لاحق. ونحدس، من ناحية أخرى، بأن مثل هذه المحاولة المبكرة لحجز الغريزة الجنسية ومثل هذا التحيُّز من جانب الأنا الغضّ العود لصالح العالم الخارجي على حساب العالم الداخلي، وهو تحيُّز نابع أصلاً من الحظر المفروض على الجنسية الطفلية، لا بدّ أن ينعكس تأثيرهما حتماً على التطور الحضاري اللاحق للأفراد. فالمطالب الغريزية التي يحال بينها وبين الإشباع المباشر تضطر إلى سلوك مسالك أخرى تلقى فيها إشباعاً بديلاً، وتصير عرضة بالتالي لاحتمال تجرُّدها من طابعها الجنسي وارتخاء الروابط التي تربطها بالأهداف الغريزية الأولى. ولنخلص من ذلك إلى أن شطراً كبيراً من ذخيرتنا الحضارية، التي نعتزّ بها أيما اعتزاز، قد تكوّن على حساب الجنسية وبنتيجة تقييد الدوافع الغريزية الجنسية.

لقد ردّدنا القول تكراراً إن الأنا يدين بأصله، وكذلك بأهم صفاته المكتسبة، لعلاقاته بالعالم الخارجي: فليس يعسر علينا إذاً التسليم بأن حالات الأنا المَرضية، أي الحالات التي يقترب فيها من جديد من الهذا، تقوم على انقطاع الصلات الخارجية أو ارتخائها. وثمة واقعة تؤكد ذلك: فالخبرة السريرية تدل على وجود حافزين يتحكمان بنشوء الذهان: فإما أن يكون الواقع قد غدا لا يحتمل ولا يطاق، وإما أن تكون الدوافع الغريزية قد عُضِّدت تعضيداً هائلاً، مما يترك في الأنا، بالنظر إلى وجود المطالب التنافسية للهذا وللخارج، آثاراً مماثلة. وكان من الممكن أن تكون معضلة



الذهان بسيطة وواضحة فيما لو انقطعت صلة الأنا بالواقع انقطاعاً تاماً، لكن هذا شيء نادر الحدوث، وقد لا يحدث أبداً. وحتى في الحالات التي تنأى غاية النأي عن واقع العالم الخارجي، كما في الحالات الهلَسية الخلطية (AMENTIA)، يصرح المرضى، عند شفائهم، أنه كان يقبع على الدوام، في زاوية مخفية عن عقلهم، على حدّ تعبيرهم، شخص سويّ يشهد من مخبئه، كما لو أنه مراقب محايد، كل فصول الرواية المرَضية. أفنحن في حِلٍّ إذاً من الاعتقاد بأن الأمور تسير على هذا المنوال دواماً؟ لست أدري، غير أنه تتوفر لديّ معلومات مماثلة بصدد أذهنة أخرى أقل صخباً. وإني لأذكر حالة بارانويا مزمنة كان فيها المريض، بعد كل سورة غيرة، يكاشف المحلّل بحلم يتضمن عرضاً حميماً للحادث لا تشوبه شائبة من الهذاء. وهكذا انجلت للعيان مفارقة شائقة: فعلى حين أن أحلام العصابي تكشف لنا في العادة عن غيرة لا يعيها في حالة اليقظة، نجد أن هذاء حالة اليقظة لدى مريض ذهاني يصححه الحلم. وقد يكون مباحاً لنا الافتراض أن ما يجري في جميع الحالات المشابهة إنما هو **انفلاق** نفسي. فبدلاً من موقف نفسي واحد ثمة موقفان: الأول سويّ ويقيم للواقع اعتباراً، والثاني يفصل الأنا عن هذا الواقع تحت تأثير الدوافع الغريزية؛ والموقفان يتعايشان، غير أن النتيجة تتوقف على قواهما النسبية؛ والشروط **اللازمة** لظهور ذهان تتوفر متى ما رجحت كفة **الموقف** اللاسويّ. فإن انعكست العلاقة، حدث الشفاء الظاهري من المرض السيكوباتي. أما في الواقع فإن الأفكار الهذائية تكون قد ارتدت على أعقابها نحو اللاشعور؛ ثم إن العديد من المشاهدات يبيح لنا أن نجزم بأن الهذاء كان موجوداً قبل تظاهره بزمن طويل.

نحن نقول إذاً إنه يوجد في كل ذهان **انفلاق في الأنا**، ولئن تمسكنا بهذه المسلمة فلأنها تجد ما يؤيدها في حالات أخرى أقرب إلى الأعصبة، وأخيراً في الأعصبة نفسها. وقد اقتنعت أنا نفسي بذلك أول الأمر فيما يتعلق بحالات **التميمية** FETICHISME[٣]. فهذا الشذوذ، الذي يمكن إدراجه في عداد الانحرافات، يقوم كما هو معروف على كون المريض ـ وهو بصورة شبه دائمة

---

٣ ـ نسبة إلى الفيتيش، وهو موضوع العبادة من أشياء ومنحوتات وأوتاد لدى بعض الشعوب التي استعمرها البرتغاليون. «م».



رجل - يأبى الإقرار بعطل المرأة من القضيب، إذ يشقّ عليه تحمُّل هذا العطل لأنه يبرهن له على إمكانية خصائه هو نفسه. ولهذا يرفض التسليم، على الرغم مما أتاح له إدراكه الحسي التحقق منه، بتجرُّد المرأة من القضيب، ويتشبث بالاعتقاد النقيض. غير أن الإدراك الحسي، وإن أنكره المريض، يفعل فعله فيه، فلا يجرؤ هذا الأخير على الزعم أنه رأى قضيباً بالفعل. فماذا يفعل في هذه الحال؟ يتخيَّر شيئاً آخر، جزءاً من الجسم أو موضوعاً يعزو إليه دور هذا القضيب الذي لا يسعه عنه استغناء. وبصفة عامة يكون هذا الموضوع شيئاً وقع عليه نظر المريض التميمي حين كان يشاهد الأعضاء التناسلية المؤنثة، أو أي موضوع آخر يصلح لأن يكون بديلاً رمزياً عن القضيب. غير أننا نعدو الصواب لو اعتبرنا السيرورة المصاحبة لاختيار التميمة بمثابة انفلاق في الأنا. فهي بالأحرى تسوية تمّ التوصل إليها بمعونة عملية نقل مشابهة لعمليات النقل التي عوَّدنا عليها الحلم. لكن ملاحظاتنا لا تقف عند هذا الحدّ. فالمريض اختلق لنفسه تميمة ليقضي على كل دليل على احتمال الخصاء وليفلت من ثم من خوف هذا الخصاء. فلو كانت المرأة تملك قضيباً نظير كائنات حية أخرى، لما كان ثمة داعٍ لأن يخشى المرء سلخ قضيبه منه. غير أننا نعاين لدى بعض التميميين خوفاً من الخصاء يشابه الخوف الذي نلقاه لدى غير التميميين والذي يستثير لديهم استجابات مماثلة. لهذا ينمّ سلوكهم عن موقفين متناقضين. فمن جهة أولى نراهم ينكرون الإدراك الحسي الذي أبان لهم عن فقدان المرأة للقضيب، ومن الجهة الثانية يعترفون بهذا الفقدان ويستخلصون منه نتائج صحيحة. ويستمر هذان الموقفان مدى الحياة من غير أن يؤثر واحدهما في الآخر. أفليس هذا تحديداً ما يسعنا أن نسمّيه انفلاق الأنا؟ ويسمح لنا هذا الوضع أيضاً بأن نفهم لماذا تبقى التميمية في الكثير الغالب من الأحيان ناقصة التطور. فهي لا تعيِّن كل الاختيار الموضوعاني، بل تفسح في المجال، بقدر يزيد أو ينقص، أمام سلوك جنسي سوي، بل قد يبقى دورها أحياناً متواضعاً أو يكاد لا يفصح عن نفسه.

حذارِ من الافتراض أن التميمية حالة استثنائية من انفلاق الأنا، وإن تكن تتيح لنا فرصة ممتازة لدراسة هذه الظاهرة. فلنرجع إلى الواقعة التي تقدم التنويه بها.



وهي أن الأنا الطفلي يعمد، تحت ضغط العالم الواقعي، إلى التخلص بطريقة الكبت من المطالب الغريزية المشجوبة. ولنضف إلى ذلك الآن أن الأنا يرى في كثير من الأحيان نفسه ملزماً، في الطور عينه من الحياة، بأن يقاوم بعض متطلبات **العالم الخارجي** الشاقة عليه، فيلجأ في مثل هذه الحال إلى طريقة **الإنكار** ليلغي الإدراكات الحسية التي تكشف له عن هذه المتطلبات. وحالات الإنكار هذه متواترة الحدوث، وليس عند التميميين وحدهم. وحيثما تأتَّ لنا أن ندرسها بدت لنا أنصاف تدابير، محاولات ناقصة لفصل الأنا عن الواقع. والواقع يقترن دوماً بقبول؛ فإذا بموقفين متعارضين، مستقلين واحدهما عن الآخر، يقومان، مما يؤدي إلى انفلاق في الأنا. ويتوقف هنا أيضاً المآل على أيهما ستتاح له شدة أكبر.

إن وقائع انفلاق الأنا، كما تقدم بنا وصفها، ليست بجديدة ولا بغريبة بالقدر الذي قد تتبدى به للوهلة الأولى. فاقتدار الفرد على أن يقيم مسلكاً محدداً من مسالكه على موقفين نفسيين مختلفين، متعارضين ومستقلين واحدهما عن الآخر، هو بالتحديد سمة مميزة للأعصبة. إلا أنه يجدر بنا أن نقول إن أحد الموقفين في مثل هذه الحال يصدر عن الأنا، بينما الموقف المعاكس، الموقف الذي يجري كبته، يصدر عن الهذا. والفارق بين الحالتين طبوغرافي أو بنيوي في جوهره، وليس من اليسير علينا دوماً أن نقرر لأي الاحتمالين تكون الغلبة في كل حالة خاصة. ومع ذلك، إن بينهما قاسماً مشتركاً هاماً: فالأنا، سواء أدفعت به رغبته في اتقاء خطر ما إلى إنكار جزء من العالم الخارجي أم إلى قمع مطلب غريزي من الداخل، لا يصيب في أي من الحالين، ورغم كل جهوده الدفاعية، نجاحاً تاماً، مطلقاً. فثمة موقفان متعارضان يظهران دوماً ويفضيان كلاهما ـ الموقف الأضعف الذي أحبط وكذلك الموقف الآخر الذي لم يحبط ـ إلى تكوين تعقيدات نفسية. ولنضف أخيراً أن إدراكاتنا الشعورية لا تسمح لنا بأن نعرف إلا شطراً زهيداً من هذه السيرورات.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل التاسع

العالم الداخلي

الطريقة الوحيدة المتاحة لنا لتقديم لمحة عامة عن جملة معقدة من الظاهرات المتزامنة هي أن نصفها على حدة وعلى التوالي. ومن هنا، إن العيب الذي يشوب عرضنا هو تبسيطه الأحادي الجانب، وهو بحاجة من ثم إلى أن يستكمل ويُنقَّح، أي أن يُصحَّح.

قلنا إن الأنا يتوسط بين الهذا والعالم الخارجي، فيلبي مطالب الأول ويستقبل إدراكات الثاني الحسية ليستخدمها في صورة ذكريات، ويجد نفسه أخيراً، وهو الحريص على صون ذاته، مكرهاً على اتقاء شر المطالب المشتطة التي تحاصره من كلا الجانبين المتباينين. وفي كل ما يتخذه من قرارات يخضع لإيعازات مبدأِ لذةٍ معدَّلٍ. غير أن هذه الصورة التي نقدِّمها عن الأنا لا تصدق إلا حتى نهاية الطفولة الأولى (أي حوالي سن الخامسة). وعندئذ يطرأ تغيُّر هام: فثمة شطر من العالم الخارجي يُهجر، جزئياً على الأقل، كموضوع ويُدمج (بواسطة التماهي) في الأنا، أي يصير مذّاك فصاعداً جزءاً من العالم الداخلي. وتواصل هذه الهيئة النفسية الجديدة الاضطلاع بالوظائف التي كانت موقوفة فيما سبق على بعض أشخاص العالم الخارجي؛ فتراقب الأنا، وتصدر إليه أوامر، وتوجِّهه وتهدده بالعقاب، تماماً كالوالدين اللذين نابت منابهما. ونحن نطلق على هذه الهيئة اسم **الأنا الأعلى**، ونستشعرها، وهي تؤدي دورها كقاضٍ، على أنها **ضميرنا**. ومما يلفت النظر أن الأنا الأعلى كثيراً ما يدلل على صرامة تتجاوز صرامة الوالدين الحقيقيين. هكذا نراه لا يكتفي بمحاكمة الأنا على أفعاله، بل كذلك، وبالقدر نفسه، على خواطره وعلى نياته التي لم توضع موضع تنفيذ والتي يبدو أنه على علم بها. ولنستذكر أن بطل أسطورة أوديب استشعر نفسه مسؤولاً عن أفعاله



وعاقب ذاته، على الرغم من أن القدر المحتوم الذي أعلن عنه وسيط الوحي كان يفترض به أن يبرّئه في نظر نفسه كما في نظرنا. وفي الواقع، إن الأنا الأعلى هو وريث عقدة أوديب، ولا يقوم له قوام إلا بعد تصفية هذه العقدة. وصرامته المفرطة لا تحاكي نموذجاً واقعياً، بل تناظر شدة الكفاح الدفاعي الموجَّه ضد إغراءات عقدة أوديب. ويحدس الفلاسفة والأشخاص المؤمنون بهذه الواقعة حين يؤكدون أن التربية تعجز عن بث الحسّ الخلقي في الناس، كما تعجز الحياة في المجتمع عن إكسابهم إياه، لأنه ينبع من مصدر أعلى.

وما دام الأنا يعمل بالتوافق مع الأنا الأعلى، فمن العسير التمييز بين تظاهرات كل منهما. غير أن كل توتر وكل سوء تفاهم يكون قابلاً للإدراك بوضوح. والعذاب الذي يسبّبه وخز الضمير يناظر بدقة خوف الطفل من احتمال فقدان الحب، هذا الخوف الذي نابت منابه السلطة الأخلاقية. ثم إن الأنا حين يفلح في مقاومة إغراء اقتراف عمل يشجبه الأنا الأعلى يعلو اعتباره في نظر نفسه ويعظم اعتزازه بذاته، كما لو أنه حقَّق كسباً ثميناً. على هذا النحو يمضي الأنا الأعلى، وإن صار جزءاً من العالم الداخلي، في الاضطلاع أمام الأنا بدور العالم الخارجي. ويمثِّل الأنا الأعلى للفرد طوال حياته الأثر المتبقي لديه من طفولته، والعناية والتربية اللتين تلقاهما، وتبعيته لوالديه؛ ولنضف أن هذه الطفولة تمتدّ عند أكثر الناس من خلال الحياة العائلية. ولا تؤخذ في الحسبان هنا الصفات الشخصية للوالدين وحدها، بل كذلك كل ما أثَّر فيهما تأثيراً ثابتاً ومشابهاً، ومطالب الوسط الاجتماعي والطبائع والتقاليد العرقية. وأولئك الذين تستهويهم التعميمات والتمييزات المرهفة سيقولون إن العالم الخارجي الذي يتحرك فيه الفرد، بعد افتراقه عن أهله، يمثِّل قوة الحاضر، وإن الهذا عنده، بميوله الموروثة، يمثِّل الماضي العضوي، وإن أناه الأعلى، الوافد الجديد، يمثِّل قبل كل شيء كل الماضي الحضاري الذي يتعيَّن على الطفل أن يحياه مجدداً في سني طفولته القصيرة. ولكن يندر أن تكون تعميمات كهذه صائبة في الأحوال جميعاً. فمن المحقق أن قسماً من المنجزات الحضارية قد خلَّف أثراً في الهذا ذاته حيث يلقي الكثير مما يأتي به الأنا الأعلى صدى، ثم إن خبرات عديدة يحياها الطفل يكون



لها أصداء أقوى إن كانت تكرر خبرات سلالية سحيقة القدم «ما أورثك إياه الأسلاف، عليك باكتسابه إن كنت تريد امتلاكه»(١). على هذا النحو يكفل الأنا الأعلى لنفسه موقعاً متوسطاً بين الهذا والعالم الخارجي، فيجمع في ذاته تأثيرات الحاضر والماضي. ويمكننا، فيما يبدو، أن نعاين في نشوء الأنا الأعلى مثالاً على الكيفية التي ينقلب بها الحاضر ماضياً.

١ ـ غوته: **فاوست**، القسم الأول(*).

(*) وهذا قول يقتبسه غوته في أرجح الظن عن المفكر النهضوي الألماني أولريخ فون هوتن (١٤٨٨ ـ ١٥٢٣). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



مكتبة الفكر الجديد

ملحق



مكتبة الفكر الجديد

آنا فرويد

الأنا وآليات الدفاع



مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

آنا فرويد (١٨٩٥ ـ ١٩٨٢) هي سادس أولاد سيغموند فرويد وزوجته مارتا وآخرهم. وقد كان الوالدان يتمنيان لو أنها كانت ذكراً لتساعد في إقامة أود الأسرة في زمن ما كان فيه الأب قد أصاب شهرة بعد ولا تحسناً بالتالي في وضعه المالي. وقد كان عليها أن تناضل كيما تحظى بالاعتراف بها. وعانت منذ حداثتها من الخَلْفة، أي فقدان الشهية إلى الطعام. وبحكم كونها أنثى ما كان يتأتى لها أن تدخل الجامعة، فاكتفت بأن تكون معلمة. ولكنها ما عتمت أن أصيبت بالسل، فتقاعدت. وقد تولى فرويد بنفسه تحليلها لمرتين على التوالي بين ١٩١٨ و١٩٢٢، ثم بين ١٩٢٤ و١٩٢٩، وهذا ما جعل جاك فان ريلاير، أستاذ علم النفس في جامعة لوفان الكاثوليكية، يصف ذلك التحليل بأنه يحمل وصمة الزنى بالمحارم، علماً بأن خضوعها للتحليل، مثلها مثل غيرها من المحللين، كان شرطاً مسبقاً لممارستها التحليل هي نفسها ابتداء من عام ١٩٢٣ ولقبول عضويتها في العام التالي في **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. ولقد كانت سباقة إلى التخصص في تحليل الأطفال، ثم إلى تأسيس مدرسة للأطفال تعتمد في نهجها على التحليل النفسي وعلى مبادئ التربية الجديدة. وأتبعتها في عام ١٩٣٨ بتأسيس عيادة للمعالجة النفسية للأطفال في فيينا، ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية أجبرتها على الانتقال إلى إنكلترا حيث أسست عيادة بديلة.

وقد لعبت آنا فرويد دوراً تاريخياً في إغناء المكتبة التحليلية النفسية بدراساتها عن النفسية الطفلية، ومنها **السويّ والمرضيّ لدى الطفل**، **التحليل النفسي للأطفال**، **الطفل في التحليل النفسي**، **المعالجة التحليلية النفسية للأطفال**. ولكن يبقى الكتاب الذي رسّخ شهرتها وأبرز مساهمتها النوعية في إغناء النظرية التحليلية النفسية هو الأنا وآليات الدفاع الذي نُشر في فيينا عام ١٩٣٦. فإلى



يومها كان مدار عمل المحللين النفسيين من متابعي فرويد على استكشاف قارة اللاشعور، وما كان الأنا، بطل قارة الشعور، يحظى بكبير اهتمام منهم. وهذا ما جعل بعضهم يرمي منحاها بأنه ضرب من «الهرطقة». ولكن هل من سبيل إلى التطوير وإلى التجديد بدون حدٍّ أدنى من الهرطقة؟ ثم هل نحن أمام هرطقة فعلاً أم أمام استمرارية لهرطقة كان شرع بها فرويد نفسه عندما أدخل تعديلاً جذرياً على طبوغرافيته في كتبه الثلاثة التي أصدرها في عامي ١٩٢٠ و١٩٢٣ و١٩٢٦ على التوالي: **ما وراء مبدأ اللذة والأنا والهذا والكفّ، العرَض، الحصر**، والتي أوكل فيها إلى الأنا دوراً لن تفعل ابنته آنا غير أن توسّع نطاقه بحيث يمكن اعتبار كتابها ملحقاً لها؟

وقد كنا ترجمنا **الأنا وآليات الدفاع** عن الترجمة التي قامت بها عام ١٩٤٩ آن برمان، مترجمة فرويد الأولى إلى الفرنسية. وما احتجنا في هذه الطبعة الجديدة إلى غير إدخال تعديلات طفيفة للغاية وشروح بخصوص أسماء الأعلام.

ج. ط



القسم الأول

نظرية آليات الدفاع




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الأول

الأنا كموضوع للملاحظة

تعريف التحليل النفسي

في فترات معينة من تطور العلم التحليلي النفسي ضُرب نطاق من اللاشعبية حول الدراسة النظرية لأنا الفرد. فقد آل الأمر بالكثيرين من المحللين النفسيين إلى الاعتقاد بأن القيمة العلمية والعلاجية للمحلِّل النفسي تقاس بمدى عمق الطبقات النفسية التي يسبر غورها. فمن تحوَّل باهتمامه عن الطبقات النفسية العميقة إلى الطبقات السطحية، ومن انتقل من دراسة الهذا إلى دراسة الأنا، كان يعرِّض نفسه لأن يرمى بتهمة الارتداد عن التحليل النفسي. وكان الرأي السائد أن اسم التحليل النفسي ينبغي أن يوقف على ذلك القسم من الكشوف الجديدة الذي يتصل بالحياة النفسية اللاشعورية، أي على دراسة الحفزات الغريزية المكبوتة والانفعالات والأخاييل. أما المشكلات من قبيل تكيُّف الطفل أو الراشد مع العالم الخارجي، وأما المفاهيم القيمية مثل مفهوم الصحة والمرض، ومفهوم الفضيلة والرذيلة، فما كان يجوز بحال من الأحوال أن تستأثر باهتمام التحليل النفسي. بل كان يتحتم على هذا الأخير ألا يشغل نفسه إلا بالأخاييل الطفلية المستمرة إلى سن الرشد، وإلا بالملذات الخيالية والعقوبات المرهوبة التي تجازى بها هذه الملذات.

ربما كان هذا التصور للتحليل النفسي، الدارج على نطاق لا يستهان به في الأدبيات التحليلية النفسية، يستند إلى الاستخدام اللغوي الشائع الذي اعتمد من البداية بغير ما تمييز مصطلح التحليل النفسي أو مصطلح علم نفس الأعماق في تسمية علمنا. وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، وذلك ما دامت النظرية



الأولى المستندة إلى كشوف التحليل النفسي كانت في المقام الأول نظرية في علم نفس اللاشعور، أو الهذا كما بتنا نقول اليوم. غير أننا عندما نطبّق هذا التصور على أصول العلاج التحليلي النفسي يتكشف لنا للحال طابعه المغلوط. فقد كان موضوع المعالجة التحليلية من البداية الأنا واضطراباته، على اعتبار أن دراسة الهذا وطرائقه في العمل لا تعدو أن تكون وسيلة لبلوغ الهدف العلاجي. وهذا الهدف هو على الدوام حذف الاضطرابات وتمكين الأنا من استرداد سلامته.

ومنذ أن صدر كتابا فرويد: **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا وما وراء مبدأ اللذة**، اللذان كانا بمثابة علامة على تغيُّر في الاتجاه، لم تعد وصمة «الخروج على السنّة التحليلية» تثقل بوطأتها على دراسة الأنا، فصارت الأبحاث المتعلقة بهيئات الأنا أو أركانه تحظى باهتمام كبير. وهاكم كيف نستطيع تحديد المنهاج الراهن للتحليل النفسي الذي لم يعد قاصراً بكل تأكيد على علم نفس الأعماق وحده. فنحن نقول بصفة عامة إن هدف التحليل تحصيل أعمق معرفة ممكنة بالهيئات الثلاث[1] التي من مجموعها تتألف، في اعتقادنا، الشخصية النفسية، ودراسة علائقها المتبادلة، وكذلك صلاتها بالعالم الخارجي. وهذا يوجب علينا أن نستقصي وظائف الأنا ومضامينه وامتداداته، وكذلك تبعيته إزاء العالم الخارجي والهذا والأنا الأعلى. وأما فيما يتصل بالهذا، فسيكون لزاماً علينا أن نصف مضامينه، أي الدوافع الغريزية، وأن نتتبع تحولاتها.

الهذا والأنا والأنا الأعلى في إدراك الذات

ما من أحد يجهل أن هذه الهيئات لا تنفتح للملاحظة بدرجة متماثلة. فلدراسة الهذا، الذي كان يُسمى فيما مضى بالنسق اللاشعوري (**لشع**)، لا يسعنا أن نعتمد إلا على ما يدلف من فسائله أو مشتقاته إلى النسقين القبشعوري (**قشع**) والشعوري (**شع**)[2]. وأما ما دامت تسود في الهذا حالة من الهدوء

١ ـ أي الأنا والهذا والأنا الأعلى. «م».

٢ ـ تلك هي الاصطلاحات المختصرة التي كان اعتمدها فرويد عام ١٩١٥ في كتابه **ما بعد علم النفس**. «م».



والإشباع، فلا تحاول من ثم أي حفزة غريزية ساعية وراء اللذة أن تبزغ في الأنا مستحدثةً فيه مشاعر توتر وكدر، فلن تتاح لنا أي إمكانية لمعرفة ما يجري في الهذا. فالهذا ليس منفتحاً، من الناحية النظرية على الأقل، للملاحظة في كل آن وحين.

ومن نافل القول أن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة إلى الهيئة المسماة بالأنا الأعلى. فمضامين الأنا الأعلى هي في معظمها شعورية، ويمكن بالتالي أن تقع مباشرة تحت الإدراك النفسي الداخلي. غير أنه يعصى علينا أن نتصور الأنا الأعلى إذا ما ساد الوفاق والوئام في العلاقات بين الأنا الأعلى والأنا. وعندئذ نقول إن الأنا والأنا الأعلى متطابقان، أي أن الأنا الأعلى لا يكون قابلاً في مثل تلك الأوقات للإدراك على حدة، لا من قبل الشخص نفسه ولا من قبل المراقب الخارجي. فالأنا الأعلى لا يغدو قابلاً للوقوع تحت الإدراك إلا متى ما أبدى عداوة تجاه الأنا أو اتخذ منه موقفاً نقدياً، وعلى سبيل المثال حينما يبزغ في الأنا شعور بالذنب من جراء هذا النقد.

الأنا بوصفه هو الملاحظ

هذا كله يتأدى بنا إلى الاستنتاج بأن الأنا هو حقاً المضمار الذي ينبغي أن ينصبّ عليه اهتمامنا وأنه يؤلف، إذا جاز القول، الوسط الذي من خلاله نحاول أن نكوّن تصوراً عن الهيئتين الأخريين.

حينما يقيم الأنا مع الهذا علاقات حسن جوار، فإنه يضطلع إزاءه، بشكل يدعو إلى الإعجاب، بدور الملاحظ. فالحفزات الغريزية، التي لا ينقطع سيلها عن التدفق من الهذا، تجاهد لتدلف إلى الأنا؛ وهناك تجد منفذاً لها إلى الجهاز الحركي، فيمكنها من البلوغ إلى الإشباع. وفي الحالات المؤاتية، لا يضيق الأنا ذرعاً بالدخيل، بل يأذن له بأن يتصرف بقواه وطاقاته على هواه، ويقنع بمحض دور إدراكي؛ فهو يستشعر ضغط الحفزة الغريزية، وتصاعد التوتر المترافق بالإحساس المكدِّر، وأخيراً نهاية التوتر وانفراجه لحظة الإشباع. وحينما نلاحظ هذه السيرورة بكاملها تتكون لدينا صورة واضحة ودقيقة عن الحفزة الغريزية



المعنية، وكذلك عن شحنتها من الليبيدو، وعن هدفها. أما إذا انسجم الأنا مع الحفزة الغريزية فلن يكون أمامه من سبيل للاندراج في هذه اللوحة.

من سوء الحظ أن انتقال الحفزات الغريزية من هيئة إلى أخرى يستتبع احتمال نشوب ضروب شتى من الصراع، ويعيق من جراء ذلك بالتحديد ملاحظة الهذا. فلزام على حفزات الهذا، كيما تشقّ طريقها إلى الإشباع، أن تجتاز مناطق الأنا حيث تجد نفسها في جو غريب. وبالفعل، إن الهيمنة في الهذا هي لما يسمى بـ«السيرورة الأولية»؛ فليس فيه من تركيب يربط بين التمثلات؛ وتكون فيه الانفعالات متنقلة ودائمة الحراك؛ والمتناقضات، بدلاً من أن يربك بعضها بعضاً، تتطابق فيه أحياناً، فتحدث تكثيفات. والمبدأ الذي يحكم بلا منازع هنا السيرورات قاطبة هو مبدأ اللذة المطلوب تحصيلها. أما في الأنا فإن تداعيات الأفكار تخضع جميعها على العكس للقواعد الصارمة لما نسميه بـ «السيرورة الثانوية». وحتى الحفزات الغريزية لا يعود في مستطاعها فيه أن تنهد، بلا قيد أو شرط، إلى الفوز باللذة؛ فهي تُكره على أن تحسب حساباً لمتطلبات الواقع، وأكثر من ذلك، أن تتقيد بقوانين الأعراف والأخلاق. وإنما عن الأنا الأعلى تصدر هذه القوانين التي تنزع إلى ضبط سلوك الأنا. وعلى هذا النحو تجازف الحفزات الغريزية بأن تُقابل بالإعراض من قبل الهيئتين الأخريين اللتين هما في جوهرهما غريبتان عنها، وتعرِّض نفسها للانتقاد والنبذ، وقد يتعيَّن عليها أيضاً أن تكابد من ضروب شتى من التعديل والتحوير. وعلى هذا النحو تؤذن علاقات حسن الجوار بالزوال. فالدوافع الغريزية، بما عرف عنها من عناد وحيوية، تستمر في نشدان أهدافها، وتشرع، بأمل مباغتة الأنا والسيطرة عليه، بشن غارات عدائية في داخل أرضه، بينما يجنح الأنا بدوره إلى الارتياب والحذر، وقد يشنّ هجوماً مضاداً ويتوغل في أرض الهذا. فهو يتطلع إلى أن يشلّ الدوافع الغريزية بصورة نهائية، متوسلاً إلى ذلك إجراءات دفاعية من شأنها تأمين حمايته.

إن لوحة جميع هذه الظاهرات التي ينقلها إلينا الأنا بفضل قدراته على الملاحظة هي أكثر غموضاً من ذلك بكثير، ولكنها في الوقت أعظم بكثير في فائدتها. فهي تتيح لنا أن نرى هيئتين نفسيتين وهما قيد العمل في آن معاً. وما



نشاهده عندئذ ليس مجرد دافع غريزي غير محوَّر وغير محرَّف من دوافع الهذا الغريزية، وإنما دافع غريزي أصابه ما أصابه من التعديل والتحوير من جراء التدابير الدفاعية التي اتخذها الأنا. وعندئذ يضطر المحلِل النفسي المراقب إلى تفكيك الصورة التي تعرض له ـ والتي تمثل في الواقع ضرباً من تسوية بين هيئات منفصلة ـ إلى عناصرها التكوينية: الهذا، والأنا، وربما الأنا الأعلى.

اندفاعات الهذا واندفاعات الأنا

على أن ما يستلفت الانتباه في ذلك كله أن الاندفاعات من كلا الاتجاهين مختلفة في قيمتها من منظور الملاحِظ. فجميع أفعال الأنا الدفاعية ضد الهذا تتم بلا ضجة، وبصورة غير منظورة. وسيكون لزاماً علينا أن نقنع بإعادة بنائها استرجاعياً، ولن يقيَّض لنا أبداً أن نلاحظها ساعة حدوثها. ذلك ما يحدث، مثلاً، في حالة الكبت الناجح. فالأنا يجهل جهلاً مطبقاً بهذا الكبت ولا يفطن إليه إلا في وقت لاحق، حينما يتضح له أنه يفتقد شيئاً ما. ولنوضح ما نقول: فنحن عندما نحاول أن نصدر حكماً موضوعياً على أحد المحلَّلين نلاحظ أن بعض دوافع الهذا الغريزية التي كنا نتوقع ظهورها في الأنا، في سياق سعيها إلى الإشباع، غائبة. فإذا لم تعاود انبجاسها لم يكن أمامنا مناص من الافتراض بأن المنفذ إلى الأنا قد سُدَّ عليها بصورة دائمة، بمعنى أنها كبتت. على أنه لا شيء من هذا كله ينيرنا حقاً بصدد سيرورة الكبت بحدّ ذاتها.

نستطيع أن نقول الشيء ذاته عن التشكيل الارتجاعي الناجح، الذي هو واحد من أهم التدابير الدفاعية التي يلجأ إليها الأنا بصورة دائمة في مواجهة الهذا. وأغلب ما يكون ظهور هذه التشكيلات الارتجاعية في أثناء نمو الطفل، وبصورة لا تخلو من فجاجة. وليس من المحقق على الدوام أن يكون كل انتباه الأنا قد اتجه قبلئذ صوب الحفزة الغريزية المضادة التي سدّ مسدَّها ذلك التشكيل الارتجاعي. فالأنا يبقى بصفة عامة جاهلاً بانتباذ هذه الحفزة، وكذلك بمجمل الصراع الذي تأدى إلى قيام وضعية جديدة. ولقد كان من الممكن أن ينساق الملاحظون من المحللين النفسيين بسهولة إلى اعتبار هذه الوضعية الجديدة تطوراً عفوياً للأنا لولا



أن بعض التظاهرات التي تحمل مسحة وسواسية سافرة تكشف عن طبيعتها الارتجاعية وتميط اللثام عن الصراع القديم الذي تخفيه وراءها. ومهما يكن من أمر، فما من شيء، في ملاحظة الإجراءات الدفاعية، يبيح للمحلِّل بعد أن يتكهن بطبيعة الصراع الذي تأدى إلى اعتمادها.

وهنا نلاحظ أن جميع المعارف التي تحصلت لنا إنما أمدتنا بها دراسة الاندفاعات الآتية من اتجاه معاكس، أي اندفاعات الهذا باتجاه الأنا. ولئن بدا لنا الكبت الناجح يلفّه الغموض إلى هذا الحدّ، فإن الحركة بالاتجاه المضاد، أي عودة المكبوت على نحو ما يمكن لنا أن نلاحظه في الأعصبة، تبدو لنا بالمقابل واضحة كل الوضوح.

فهنا نستطيع أن نقتصّ أثر الصراع الذي نشب بين الحفزة الغريزية وبين دفاع الأنا. كذلك إن تفكُّك التشكيلات الارتجاعية هو ما يتيح لنا خير سبيل إلى دراسة الكيفية التي تولدت بها هذه التشكيلات. فمن جراء اندفاعة الهذا يتعزز التوظيف الليبيدوي الذي كان حجبه التشكيل الارتجاعي. وهذا ما يتيح للحفزة الغريزية أن تشقّ طريقاً لها إلى الشعور. ولفترة من الزمن يغدو كل من الدافع الغريزي والتشكيل الارتجاعي في آن معاً قابلاً للوقوع تحت الإدراك في الأنا. بيد أن وظيفة أخرى من وظائف الأنا ـ ونعني ميله إلى التركيب ـ تجعل هذا الوضع، المؤاتي جداً للملاحظة التحليلية، لا يدوم إلا هنيهة من الزمن. فسرعان ما ينشب صراع جديد بين فسائل الهذا ونشاط الأنا، وهو نزاع من المحتم أن يتمخض إما عن انتصار أحد الطرفين المعنيين وإما عن التوصل إلى تسوية بينهما. فإن كان الأنا هو المنتصر بفضل تعزيز توظيفه، توقف هجوم الهذا وقامت من جديد حالة من السلام النفسي غير مؤاتية على الإطلاق للوقوع تحت الملاحظة.



الفصل الثاني

تطبيق تقنية التحليل النفسي

في دراسة الهيئات النفسية

درسنا في الفصل السابق ما الشروط التي يمكن بموجبها للتحليل النفسي أن يُخضع لملاحظته الظاهرات النفسية. وفي الصفحات التي ستلي نزمع أن نوضح كيف تسنى لتقنية التحليل النفسي أن تتلاءم، في مسار تطورها، مع هذه الشروط.

التقنية التنويمية في مرحلة ما قبل التحليل النفسي

بقي دور الأنا مغفلاً إغفالاً تاماً في التقنية التنويمية التي كانت تُستخدم في الطور القبتحليلي. فقد كان هدف الطبيب أن يتعرف إلى مضامين اللاشعور وحده، وما كان يرى في الأنا إلا حجر عثرة. وكان من المعروف منذ ذلك الوقت أن التنويم يسمح بإلغاء أنا المريض أو على أية حال بالسيطرة عليه؛ لكن التقنية التي قدَّم كتاب **دراسات في الهستيريا**[1] وصفاً بها كانت تتضمن تجديداً، وهو أن الطبيب يستفيد من إقصاء أنا المريض ليتمكن من دراسة لاشعوره ـ أي ما يعرف اليوم بالهذا. والهدف المطلوب بلوغه هو كشف هذا اللاشعور. وبما أن الأنا يمثِّل عائقاً، فمن الواجب تنحيته مؤقتاً عن طريق التنويم. ويتولى الطبيب فتح الطريق إلى الأنا أمام تلك الشذرة من اللاشعور التي يتم التقاطها في أثناء النوام. ويفترض بهذه التوعية أن تتأدى إلى إزالة العرَض. ولكن الأنا نفسه لا يضطلع بأي دور في هذه السيرورة العلاجية. فهو

١ ـ هو الكتاب الذي وضعه فرويد مع يوجين بلولر سنة ١٨٩٥، وكان بمثابة تدشين لتقنية التحليل النفسي. «م».



لا يتسامح مع الدخيل إلا بقدر ما يبقى واقعاً تحت تأثير الطبيب الذي تولى تنويمه. ثم لا يلبث بعد ذلك أن يتمرد ويشنّ، ضد شذرة الهذا التي يراد فرضها عليه، كفاحاً جديداً، فتكون النتيجة أن يتبدد هباء النجاح العلاجي الذي ما أمكن الفوز به إلا بلأي ومشقة. وعلى هذا النحو كان أعظم انتصار أحرزته التقنية التنويمية ـ وأعني تنحية الأنا في أثناء عملية البحث والتقصي ـ يضر بالنجاح النهائي ولا يتمخض إلا عن خيبة.

التداعي الحرّ

حتى في التداعي الحرّ، الذي لم يلبث أن حلَّ محلّ التنويم كوسيلة للتنقيب والتقصي، بقي دور الأنا في أول الأمر سالباً. صحيح أنه ما عاد ينحّى بالقوة، وأنه صار يُكتفى بحثّه على استبعاد نفسه بنفسه وعلى الامتناع عن توجيه أي نقد للتداعيات وعلى التغاضي عن الحاجة المعتادة إلى الروابط المنطقية. وكان هذا معناه في الواقع أن الأنا يدعى إلى لزوم الصمت، وأن الهذا هو وحده الذي يؤذن له بالكلام والذي يجزل له الوعد بأن فسائله ومشتقاته متى ما وصلت إلى الشعور فلن تصطدم فيه بالعوائق المعتادة. ولكن هذه الفسائل والمشتقات ما كانت توعَد بالمقابل بإيصالها، متى ما بزغت في الشعور، إلى أي هدف غريزي. فرخصة المرور لا تضمن لها سوى الترجمة إلى تمثلات لفظية، وليس السيطرة على الجهاز الحركي، التي هي الهدف الحقيقي لاندفاعها نحو الشعور. فالجهاز الحركي يكون مشلولاً سلفاً بفعل القواعد الصارمة للتقنية التحليلية. وهذه اللعبة المزدوجة التي يلعبها المحلّل مع الحفزات الغريزية، إذ يدعوها إلى الإفصاح عن نفسها وإلى حجب الإشباع عنها في آن معاً، كانت تستتبع ثانوياً انتصاب واحدة من العقبات العديدة المباطنة للتقنية التحليلية النفسية.

إن كثرة من المحللين النفسيين المبتدئين لا يزالون يعتقدون أن في مستطاعهم أن ينجحوا في حمل مرضاهم على التعبير دوماً، بلا حرج وبلا عائق، عن أفكارهم وخواطرهم كلها، أي أن يخضَعوا خضوعاً تاماً مبرماً للقاعدة



الأساسية للتحليل[٢]. ولكن حتى على فرض أن هذا المثل الأعلى تحقق فلن يمثل مع ذلك تقدماً فعلياً ولن يزيد على أن يكرر، في واقع الأمر، الموقف البائد الذي كان يتمّ اصطناعه بالتنويم، وذلك بقسر انتباه الطبيب على التركيز على الهذا وحده. ومن حسن حظ التحليل أن مثل هذه الطاعة من جانب المريض مستحيلة عملياً، والقاعدة الأساسية للتحليل لا يمكن التقيُّد بها إلا جزئياً. فالأنا يلزم الصمت لفترة من الوقت، فتستخدم فسائل الهذا هذه الوقفة لتتسلل إلى الشعور، فيسارع المحلِّل النفسي عندئذ إلى التعرف إلى تظاهراتها. وبعدئذ يعود الأنا إلى التحرك، فيعزف عن موقف الانقياد السلبي الذي يراد فرضه عليه ويستخدم واحداً من إجراءاته الدفاعية المعتادة ليزجّ بنفسه في مجرى التداعيات بقصد الإعاقة. وتلك هي اللحظة التي ينتهك فيها المريض القاعدة التحليلية الأساسية، فنقول نحن إنه يبدي «مقاومات»، مما يعني أن اندفاعة الهذا نحو الأنا تصطدم بهجوم مضاد بالاتجاه المعاكس؛ لكن انتباه الملاحظ يتحول في الوقت نفسه عن التداعيات إلى المقاومة، أي يشيح عن مضامين الهذا لينتقل إلى نشاط الأنا. وتتاح للمحلِّل الفرصة ليعاين مباشرة الإجراءات الدفاعية التي يلجأ إليها الأنا ضد الهذا وهي قيد العمل، علماً بأن هذه الإجراءات عصية بالإجمال على الملاحظة في غير هذه الحال؛ ومن ثم يتخذها المحلِّل موضوعاً لعمله وتقصيه. وعندئذ يلاحظ أن الموقف التحليلي تغيَّر بصورة مباغتة في وقت واحد مع تغيُّر الموضوع هذا. فمشتقات الهذا تنزع تلقائياً إلى الصعود إلى السطح، مما يسهِّل عمل الطبيب الذي تتلاقى جهوده وجهود المادة المطلوب تحليلها في اتجاه واحد. وليس له أن يتوقع أن يلاقي مثل هذا التوافق في الأهداف حينما يدرس أنشطة الأنا الدفاعية. وبالفعل، إن الشذرات اللاشعورية من الأنا لا تنزع أبداً إلى أن تصير شعورية، ولا فائدة لها في ذلك أصلاً. ولهذا، إن أي جزء من تحليل الأنا لا يمكن أن يكون باعثاً على الرضى بقدر تحليل الهذا. فالتحليل يدور ويلفّ، ولا يتوصل أبداً إلى وضع اليد على نشاط

٢ ـ هي القاعدة التي تملي على المريض قيد التحليل أن يصارح المحلِّل بكل ما يساوره من أفكار دونما مقاومة أو تقييد أو تحريف. «م».



الأنا مباشرة، ولا يجد مناصاً من الاكتفاء بإعادة بناء هذا النشاط بدءاً من تأثيره في تداعيات المريض. وإنما من هذا التأثير، أي من ضروب الحذف والقلب وتحوير المعنى، إلخ، التي تظهر في التداعيات، يستخلص المحلِّل طبيعة الدفاع الذي اعتمده الأنا في المواجهة. والمهمة الأولى التي تقع على عاتق الطبيب عندئذ أن يعرف ما نوع آلية الدفاع التي يواجهها. فإذا توصل إلى ذلك، كان لنا أن نقول إنه أنجز جزءاً من تحليل الأنا. ثم يتعيَّن عليه بعد ذلك أن يستنتج ما تمّ لهذا النسق الدفاعي إنجازه، أي أن يعثر على ما أخفاه الكبت وحجبه، فيجدد دمجه، ويعيد ما بدَّل موضعه إلى مكانه، ويربط من جديد ما كان عُزل وأُفرد. فإذا ما انتهى المحلِّل من إعادة ربط ما انفصم، تحوَّل بانتباهه من تحليل الأنا إلى تحليل الهذا مرة أخرى.

هكذا نرى أن من المهم ليس تقيُّد المريض المطلق بالقاعدة التحليلية الأساسية بقدر ما تعود الأهمية إلى المنازعات التي تنشأ عن الالتزام بتلك القاعدة. وهذا التأرجح للملاحظة بين الهذا والأنا، أي التوجه المزدوج لاهتمام المحلِّل نحو كلا وجهي الشخص قيد التحليل، هو على وجه التحديد ما نطلق عليه اسم التحليل النفسي من حيث هو تقنية متميِّزة عن تقنية التنويم الأحادية الجانب.

أما سائر طرائق التقنية التحليلية فيمكن تنظيمها بعد ذلك بلا قسر بصفتها طرائق تكميلية تبعاً لتركيز الملاحظة في هذا الاتجاه أو في ذاك.

تأويل الأحلام

يبقى الموقف هو هو سواء أعندما ندرس التداعيات الحرة أم عندما نتصدى لتأويل الأحلام. فالوضع النفسي للحالم لا يختلف إلا اختلافاً يسيراً للغاية عن وضع المريض في أثناء جلسات التحليل النفسي. فالمريض، عندما ينصاع للقاعدة الأساسية، يقلِّص عن طواعية نشاطات أناه؛ والحال أن هذا التقليص يحدث لدى النائم بصورة آلية تحت تأثير النوم. ووضعية المريض في أثناء جلسات التحليل، حيث يتمدد على أريكة، لا تترك له أية فرصة ليترجم رغائبه الغريزية إلى أفعال؛



وفي أثناء النوم أيضاً يكون نصف نشاط النائم معطَّلاً. وأفاعيل الرقابة، أي تحويل الحلم الكامن إلى مضمون حلمي ظاهر، مع ما يستتبع ذلك من ضروب شتى محتومة من التحريف والتكثيف والنقل والقلب والحذف، تناظر التحريفات التي تطرأ على التداعيات من جراء تأثير المقاومة عليها. وعلى هذا يسهم تأويل الأحلام في دراسة الهذا بقدر ما يفلح في أن يخرِج إلى الضوء أفكار الحلم الكامنة (مضمون الهذا). وهو يعيننا أيضاً في دراسة هيئات الأنا وأنشطته الدفاعية من حيث أنه يتيح لنا أن نعيد بناء التدابير المتخذة من قبل الرقابة بدءاً من آثارها في أفكار الحلم.

تأويل الرموز

في دراستنا للهذا يمكن أن يقدم لنا معونة لا يُستهان بها فهمُنا لنتاج جانبي لتأويل الأحلام: أعني به الرموز الحلمية. فهذه الرموز حاضرة دوماً، وقيمها ثابتة، وهي بمثابة علاقات بين مضامين معيَّنة من الهذا وبين بعض التمثلات اللفظية أو الشيئية. وتتيح لنا معرفة هذه العلاقات أن نهتدي، بدءاً من التظاهرات الشعورية، إلى المادة اللاشعورية التي تحتجب وراءها، وهذا بدون أن نكون ملزمين ببذل مجهود أولي كبير لاستنتاج إجراءات الأنا الدفاعية. وعلى هذا النحو تمكّننا تقنية ترجمة الرموز من اختصار الطريق إلى فهم تلك السيرورات، أو فلنقل إنها تقفز بنا من طبقة الشعور العليا إلى أعمق طبقات اللاشعور، بدون أن نمرّ بجميع الطبقات الوسيطة لأنشطة الأنا القديمة التي يمكن أن تكون تأدت في وقت مضى إلى تحويل مضمون بعينه من الهذا إلى شكل بعينه خاص بالأنا. وإن لمعرفة اللغة الرمزية، متى ما كان بيت القصيد فهم الهذا، قيمة تعادل في الأهمية قيمة الصيغ الرياضية عندما يكون المطلوب حلّ بعض المعادلات النمطية. فالمرء يستخدم هذه الصيغ بصورة مفيدة بدون أن يشغل باله بالطرق التي تأدت إلى اكتشافها؛ وتتيح لنا هذه الصيغ أن نحل المعادلات بدون أن تتحصل لنا من جراء ذلك معرفة أعمق بالرياضيات. وعلى هذا المنوال عينه نستطيع، بفضل ترجمة الرموز، أن نميط اللثام عن مضامين



الهذا بدون أن يتوفر لنا بحكم ذلك فهم أفضل لنفسية الشخص الذي نقوم على تحليله.

الهفوات

إن الهفوات، وهي من طفحات الهذا الأخرى، تتيح لنا هي أيضاً في بعض الأحيان أن نلقي نظرة على اللاشعور. ونحن نعلم أن طفحات الهذا تلك ليست وقفاً على الموقف التحليلي. فمن الممكن أن تحدث في كل مرة يطرأ فيها وهن أو عطل على يقظة الأنا من جراء حادث من الحوادث، فتتعزز على نحو مباغت واحدة من الحفزات اللاشعورية (في ظروف معيَّنة أيضاً). هذه الهفوات، وعلى الأخص زلات اللسان والنسايات، يمكن أن تطرأ أيضاً بطبيعة الحال في أثناء المعالجة التحليلية، فتنير على هذا النحو، كما لو ببرق خاطف، ركناً من اللاشعور بقي لأمد طويل من الزمن مستعصياً ـ وهذا يحدث أحياناً ـ على التحليل. وكان المحللون، في بدايات التقنية التحليلية النفسية، ينتهزون مثل هذه السانحة ليثبتوا على نحو قاطع يكاد لا يقبل الدحض وجود اللاشعور لأولئك الذين ما كانوا يبدون ميلاً من مرضاهم للأخذ بوجهات نظر التحليل النفسي. وكان المحللون يغتبطون أيضاً لما تتيحه لهم تلك الأمثلة السهلة الفهم من فرص للتدليل على اشتغال بعض الآليات مثل النقل والتكثيف والحذف. لكن أهمية هذه العوارض الاتفاقية تتضاءل بصورة عامة عند مقارنتها بأهمية طفحات الهذا التي تُستحدث عن قصد لإعانة التحليل.

التحويل

يخلق بنا أن نقيم التمييز النظري عينه بين ملاحظة الهذا من جهة وملاحظة الأنا من الجهة الأخرى عندما نتكلم عن أثمن أداة ـ ربما ـ من أدوات التحليل، أقصد تأويل التحويل[٣]. فنحن نطلق اسم التحويل على جميع الحفزات التي

٣ ـ التحويل: إسقاط المريض قيد التحليل لمشاعره الإيجابية أو السلبية الموروثة من تاريخه الطفولي على شخص الطبيب الذي يحلّله. «م».



تعتمل في المريض من جراء علاقته بالمحلِّل. وهذه الحفزات لا تتخلق في أثناء التحليل، بل تنبثق عن علاقات موضوعانية[٤] قديمة، بل أثرية تماماً، وتنبعث تحت تأثير آلية التكرار في أثناء التحليل. وأن تكون هذه الحفزات مجرد تكرارات وليست منتجات جديدة، فهذا بالتحديد ما يخلع عليها قيمة لا تضاهى كمصدر للمعلومات بما تتيحه لنا من فرصة للتعرُّف إلى تجارب المريض وخبراته الوجدانية الماضية. ويلوح أنه في مقدورنا أن نميِّز أنماطاً مختلفة من تظاهرات التحويل تبعاً لدرجة تعقيدها:

أ ـ **تحويل الحفزات الليبيدوية** ـ هذا النمط الأول غاية في البساطة. فعلاقات المريض بمحلله تعكرها وتشوش عليها مشاعر حادة وعنيفة مثل الحب والكره والغيرة والقلق، وكلها مشاعر لا يبدو أن هناك ما يبررها من الأحداث الحاضرة، ولا يتوانى حتى المريض عن الثورة عليها. فحيال التظاهرات اللاإرادية لهذه العواطف يستشعر المريض خزياً ومذلة، وما إلى ذلك. بل قد يتفق أحياناً ألا نتوصل إلى انتزاع الإقرار الشعوري منه بها إلا تحت إكراه القاعدة التحليلية الأساسية. ويدل التقصي التحليلي أن هذه المشاعر هي عبارة عن طفحات للهذا وأنها تصدر عن تشكيلات وجدانية قديمة مثل عقدتي أوديب والخصاء. وظهورها يقبل التفسير وحتى التبرير متى ما فصلناها عن الموقف التحليلي وأرجعناها إلى تلك المواقف الطفلية المشحونة بالانفعالات التي عنها انبثقت. وهذه العودة إلى الوراء تعيننا على سدّ ثغرة ذاكرية في ماضي المريض وتزوِّدنا بعنصر معرفي جديد يتصل بحياته الغريزية والعاطفية في طور الطفولة. وفي غالب من الأحيان يقدِّم لنا المريض نفسه، في محاولتنا التأويلية هذه، مؤازرة متلهفة لأن الحفزة العاطفية المحوَّلة تفعل فيه فعل الجسم الغريب. والإرجاع إلى الماضي يحرر المريض من حفزة في الوقت الحاضر غريبة عن أناه ويمكنه على هذا

٤ ـ الموضوعاني OBJECTAL: نسبة إلى الموضوع. ولم نقل «موضوعي» خوف اللبس مع كلمة OBJECTIF. والعلاقة الموضوعانية هي العلاقة بالموضوع، أي بغير الذات، بشرط أن يكون مفهوماً أن «الموضوع» هو دائماً، أو في الكثرة الغالبة من الأحوال، إنسان وليس شيئاً. وهو بالإجمال موضوع الرغبة الجنسية. «م».



النحو من المضيّ في عملية التحليل النفسي. وتجدر بنا الإشارة إلى أن هذا النمط الأول من التحويل لا يفيد إلا في ملاحظة الهذا حصراً.

ب ـ **التحويل الدفاعي** ـ هذا النمط الثاني مختلف جداً. فآلية التكرار، التي يخضع لها المريض في أثناء تحليله، لا تعود تطال حفزات الهذا القديمة وحدها، بل كذلك، وبالكيفية ذاتها، التدابير الدفاعية القديمة ضد هذه الحفزات. وعلى هذا، لا يعود المريض يقنع بتحويل حفزات الهذا الطفلية وحدها في صورتها البدائية، تلك الحفزات التي تخضع لاحقاً، متى ما اجتازت عتبة الشعور، لرقابة الأنا الراشد. كلا، بل يقوم المريض أيضاً بتحويل حفزات الهذا بكل ما قد يكون لابسها من تحريفات منذ عهد الطفولة. وقد يتفق، في بعض الحالات القصوى، ألا تكون الحفزة الغريزية بذاتها هي ما يظهر في التحويل، وإنما فقط دفاع معيَّن ضد بعض التوجهات الموجبة أو السالبة لليبيدو. هذا ما يحدث، مثلاً، في حال اللواذ بالهرب إزاء خطر تثبيت حبِّي إيجابي في الجنسية المثلية الأنثوية الكامنة، أو كذلك، وكما بيَّن فلهلم رايخ[٥]، عندما ينتهي الأمر بمريض، كان فيما مضى عدوانياً تجاه أبيه، إلى تبني موقف خضوع ومازوخية موسوم بالسمة المؤنثة حياله. وأعتقد أنه من الظلم البالغ أن نتهم المريض بأنه يريد «تضليلنا» أو «السخرية» منا،

٥ ـ فلهلم رايخ: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٩٧ ـ ١٩٥٧). رباه والداه بعيداً عن كل التقاليد الدينية. عانى من صدمة نفسية قوية إذ حمّل نفسه مسؤولية انتحار أمه بعد أن كشف لأبيه علاقتها الغرامية مع أحد أساتذته. التقى فرويد في فيينا وانضوى تحت لواء حركة التحليل النفسي وصار بسرعة نائباً لمدير **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. وأنشأ معهداً للتحليل النفسي المجاني للفقراء. وهاجر إلى برلين عام ١٩٣٠ وانتمى إلى الحزب الشيوعي الألماني، وجمع حوله محللين نفسيين من ذوي الميول اليسارية لتأسيس ما يشتهر باسم الماركسية الفرويدية. واختلف مع فرويد بصدد تأويله للعلاقة بين إيروس وثاناتوس، أي بين غريزة الحب وغريزة الموت، ورأى في هذه الأخيرة تبريراً تحليلياً نفسياً للمازوخية ولآلية التكرار. وبسبب أصوله اليهودية وعقيدته الماركسية اضطر إلى الفرار من ألمانيا النازية ، فأمر الغستابو بحرق جميع كتبه. وتنقَّل بين النمسا والدانمرك والسويد وإنكلترا ليستقرّ به المطاف عام ١٩٣٩ في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن اعتماده على الطرائق الكهربائية والإلكترونية في المعالجة ألّبت عليه المحلّلين النفسيين، واتهموه بالهذيان البارانوئي والفصامي. وانتهى إلى الترويج لطريقة علاجية جديدة تتمثل بالمعالجة عن طريق الرعشة الجنسية. قضى آخر سنتين من حياته بالسجن بسبب إهانته المحكمة. من مؤلفاته: **الثورة الجنسية، وظيفة الرعشة الجنسية، المادية الجدلية والوعي الطبقي، ما الوعي الطبقي؟ علم النفس الجماهيري للفاشية**. «م».



أو يسعى إرادياً، بأية طريقة أخرى ممكنة، إلى خداعنا. ولن تكون النتيجة أكثر مدعاة للرضى إذا أصررنا على تذكير مريضنا بأنه مكره على التقيُّد بالقاعدة التحليلية الأساسية، أي إذا تشبثنا بفرض التزام الصدق عليه لنجبره على الكشف عن حفزات الهذا الخبيئة لديه خلف الدفاع المعلن عنه في التحويل. فالمريض يكون صادقاً في الأصل حينما يترجم عن حفزته وعاطفته بالطريقة الوحيدة التي لا تزال متاحة له، أعني بوساطة التدابير الدفاعية المحرِّفة. وأعتقد أنه لا يجوز للمحلِّل في مثل هذه الحال أن يسعى، بقفزه فوق جميع الأطوار الوسيطة التي تمرّ بها الانفعالات العاطفية في تحولها وتحورها، إلى محزرة الحفزة الغريزية البدائية المنتبذة بصورة مباشرة وبأي ثمن. وبالمثل، لا يجوز له أن يحاول إدخال تلك الحفزة، التي ضدها نصب الأنا دفاعاته، إلى شعور المريض غصباً. فأفضل طريقة هي أن يغيِّر بؤرة الانتباه في التحليل، فينتقل إلى دراسة الآلية الدفاعية النوعية بدلاً من دراسة الدافع الغريزي نفسه، أي، بعبارة أخرى، دراسة الأنا بدلاً من دراسة الهذا. فإذا نجحنا في اقتفاء الطريق الذي سلكته الدوافع الغريزية في تحولها وتحورها، كان ما يصيبه التحليل من كسب مضاعفاً. فالظاهرة التحويلية التي نتناولها تنقسم إلى قسمين يعودان كلاهما في أصولهما إلى الماضي: عنصر ليبيدوي أو عدواني تابع للهذا، وآلية دفاعية يمكن عزوها إلى الأنا. وفي الحالات الأغنى بالفائدة والأكثر تنويراً، تعود هذه الآلية إلى أنا المرحلة الطفلية التي رأت فيها النور أيضاً حفزة الهذا الغريزية. وفي مثل هذه الحال نحن لا نتوصل، على نحو ما يتسنى لنا أن نفعله في تأويل التحويل البسيط، إلى سدّ الثغرات الذاكرية لدى المريض فحسب، بل نتمكن أيضاً من الحصول على المعلومات القمينة بتكملة تاريخ تحول دوافعه الغريزية وسدّ ما في هذا التاريخ من ثغرات.

إن هذه المحاولات لتأويل النمط الثاني من تظاهرات التحويل، مهما تكن مثمرة، تبقى هي المسؤولة عن الصعوبات التقنية التي تقوم بين المحلِّل والمريض. وبالفعل لا يساور المريض شعور، في هذا الطراز من التحويل، بأن فيه جسماً غريباً. وليس في هذه الواقعة ما يدعو إلى الدهشة إذا أخذنا في اعتبارنا الدور الجسيم الذي يضطلع به الأنا في إنتاج هذه الاستجابات التحويلية، وربما أيضاً أنا



السنوات الأولى من الحياة. ولا يقتنع المريض إلا بصعوبة بالطابع التكراري لهذه الظاهرات. فالصورة التي تبزغ بها في شعوره تكون مؤتلفة ومتناغمة مع أناه. والتحريفات التي تقتضيها الرقابة تكون قد تمت في الماضي، ولا يرى الأنا الراشد من سبب يوجب عليه أن يعترض سبيل ظهورها في التداعيات الحرة. فالمريض، بلجوئه إلى التخريجات العقلانية، يغمض عينيه في كثرة من الأحيان عن بعض التفارقات بين العلة والمعلول، على الرغم من أن مثل هذه التفارقات ليس لها أن تغيب عن بصر أي ملاحظ، بل ليس لها إلا أن تظهِر للعيان أن التحويل لا يرتكز إلى أساس موضوعي. ولهذا السبب لا نستطيع، في هذا الطراز من الاستجابة التحويلية، أن نعتمد، كما في الحالة السابقة، على استعداد المريض للتعاون الطوعي. فما إن يمسّ التأويل العناصر المجهولة من الأنا وأنشطته القديمة، حتى ينتصب الأنا بكليته معارضاً للعمل التحليلي. وفي هذه الحال يواجهنا الموقف الذي يوصف في العادة، وإن بغير دقة، بأنه تحليل «الطبع».

إننا نقسم، من الناحية النظرية، المعلومات التي تمدنا بها تأويلات التحويل تلك إلى طائفتين: مجموعة مضامين الهذا، ومجموعة أنشطة الأنا، وكلتاهما يكون قد تمّ استياقهما إلى الشعور. ويمكن بالمثل تصنيف نتائج التأويل في أثناء التداعيات الحرة التي يمدّنا بها المريض إلى فئتين مماثلتين: فالتداعيات المفصح عنها بحرية تلقي لنا ضوءاً على الآليات الدفاعية المستخدمة من قبل الأنا. والفارق الوحيد أن تأويلات التحويل لا تطال سوى الماضي وقد تميط اللثام في بعض الأحيان وفي لحظة واحدة عن مراحل بكاملها من حياة المريض السالفة، في حين أن مضامين الهذا، التي يخرجها التداعي الحر إلى النور، لا ترتبط بأي فكرة محددة، كما أن عمليات الأنا الدفاعية، التي تتجلى في أثناء الجلسات في صورة مقاومات للتداعي، قد تكون تابعة لحياة المريض الراهنة.

ج ـ **التفعيل في التحويل** ـ ثمة شكل ثالث من التحويل يسهم بقسط فعال، وإن بكيفية مغايرة، في تعرفنا إلى المريض. ففي أثناء تأويل الأحلام، والتداعيات الحرة، وتأويلات المقاومات، والشكلين اللذين تقدم وصفهما من التحويل، لا يتاح لنا أن نلاحظ مرضانا إلا من خلال الموقف التحليلي، أي في حالة نفسية



داخلية مصطنعة. وفي هذه الحالة تكون القوة النسبية لكل هيئة قد تعدلت لصالح الهذا إما تحت تأثير النوم، وإما من جراء مراعاة القاعدة التحليلية الأساسية. ومن ثم تتبدى لنا عناصر الأنا مخفَّفة وموهنة القوة، سواء أعندما تضطلع بدور الرقيب في الأحلام، أم عندما تتخذ صورةَ مقاومةٍ للتداعي الحر. ويعسر علينا جداً في كثير من الأحيان أن نتصورها في حجمها وقوتها الفعليين. أفليس مما يؤخذ عموماً على المحللين النفسيين أنهم خبراء جيدون بلاشعور المريض، بينما قدرتهم على الحكم على أناه ضعيفة؟ وثمة حقيقة واقعة تبرر جزئياً هذا المأخذ: فنادراً ما تتاح للمحلل الفرص لملاحظة كلية أنا المريض وهو قيد العمل.

لكن قد يتفق أحياناً أن تتزايد شدة التحويل، فتدفع بالمريض إلى الخروج بين الفينة والأخرى على القواعد الصارمة للعلاج التحليلي، فيطفق يترجم العناصر الغريزية والعناصر الدفاعية على حدّ سواء من انفعالاته العاطفية المحولة إلى أفعال يومية. وذلك هو ما يسمى بـ «التفعيل»[٦] في التحويل، وهو ظاهرة تتخطى، إذا شئنا الدقة في القول، إطار التحليل، ومن شأنها أن تنوِّرنا إذ تجعل البنية النفسية الباطنة للمريض تتكشف لنا بصورة آلية وفي أبعادها الطبيعية. ومتى ما أفلحنا في تأويل هذا «التفعيل»، نبادر إلى تفكيك الأفعال التحويلية إلى عناصرها، وعندئذ نكتشف الكمية الفعلية للطاقة التي تقدِّمها، في لحظة بعينها، كل هيئة من الهيئات الثلاث. وخلافاً لما نلحظه بصدد التداعيات الحرة، يتيح لنا هذا الموقف أن نقيِّم الكمية النسبية والمطلقة للطاقة التي تسهم بها كل هيئة.

إن تأويل «التفعيل»، وإن كان يزوِّدنا على هذا النحو بكشوف ثمينة، لا يتمخض مع ذلك في العادة عن نتيجة علاجية ذات شأن. فاستياق ما كان لاشعورياً إلى مجال الشعور، وتأثير المعالجة على العلاقات المتبادلة بين الهذا والأنا والأنا الأعلى، يتوقفان كلاهما على نحو واضح للعيان على الموقف التحليلي

٦ ـ التفعيل: بالألمانية AGIEREN وبالإنكليزية ACTING OUT، هو أن يبادر المريض خارج نطاق التحليل إلى العمل بدل التذكر، بمعنى أن يعبِّر عن رغباته وانفعالاته المكبوتة تعبيراً عملياً، فعلياً، وليس لفظياً فحسب. «م».



الذي يُستحدث بطريقة مصطنعة والذي يشابه الموقف التنويمي من حيث أن نشاط هيئات الأنا يكون أيضاً مقلَّصاً. فما دام الأنا يواصل اشتغاله بملء الحرية، وما دام ينضوي مع الهذا تحت لواء واحد فيثابر ببساطة على تنفيذ أوامر هذا الأخير، فلن تتاح إلا فرصة ضئيلة لعمليات الإزاحة والنقل النفسية الداخلية لكي تتمّ، ولن يستطيع الخارج أن يمارس تأثيراً إلا بصعوبة بالغة. ولهذا السبب يتجشم المحلِّل في مداورة هذا الشكل الثالث من التحويل، الذي أطلقنا عليه اسم «التفعيل»، مشقة أكبر من تلك التي يتجشمها في مداورة أساليب الدفاع المختلفة الأخرى. ومن المفهوم في مثل هذه الحال أن يسعى إلى تضييق الخناق ما أمكن على «التفعيل» بالاستعانة بالتأويلات التحليلية وبالتحظيرات المجاوزة لإطار التحليل.

العلاقة بين تحليل الهذا وتحليل الأنا

لئن وصفت في تفصيل وتدقيق هذا التقسيم الثلاثي لتظاهرات التحويل، وأعني: تحويل النوازع الليبيدوية، وتحويل المسالك الدفاعية، و«التفعيل» في التحويل، فذلك لأبيِّن أن صعوبات التحليل التقنية تكون أوهى شأناً من منظور نسبي حيثما كان بيت القصيد استياق مشتقّات الهذا إلى مجال الشعور. وبالمقابل، تصل هذه الصعوبات إلى أوجها متى ما اضطر المحلِّل إلى التصدي لعناصر الأنا اللاشعورية. بعبارة أخرى، إن التقنية التحليلية لا يمكن أن تحمَّل مسؤولية هذا الأمر. فهي قادرة على أن تستاق إلى مجال الشعور العنصر اللاشعوري من الأنا كما من الهذا والأنا الأعلى. بيد أننا، نحن المحللين، ما زلنا أقلَّ ألفة بصعوبات تحليل الأنا منا بصعوبات تحليل الهذا. وقد تعدلت آراؤنا النظرية بصدد الأنا الذي ما عاد مفهومه يتداخل في نظرنا مع مفهوم النسق الإدراكي ـ الشعوري. وبالفعل، اتضح لنا أن شذرات ذات شأن من الأنا يمكن لها أن تبقى هي أيضاً لاشعورية، وعلى التقنية التحليلية النفسية يكون اعتمادنا في إماطة اللثام عنها واستياقها إلى مجال الشعور. وينجم عن ذلك أن تحليل الأنا اكتسب في أنظارنا قيمة أكبر بكثير. فكل ما يستاقه الأنا إلى التحليل يمثِّل مادة

مكتبة الفكر الجديد

تضاهي في الأهمية أي فسيلة من فسائل الهذا. على أنه لا بدّ لنا مع ذلك من الإقرار بأن ما يأتي من الأنا يمثّل أيضاً المقاومة بحصر المعنى، أي تلك القوة التي تعارض تظاهر مضامين الهذا وتكشفها للعيان وتعاكس على هذا النحو العملية التحليلية النفسية. لكن مهما تكن المقاومة التي يواجهنا بها الأنا، فإننا نظل متمسكين بحبل الأمل في التوصل إلى تحليله بمثل الثقة التي نحلل بها الهذا.

محاذير التقنية الأحادية الجانب

من كل ما تقدم قوله يتبيّن لنا أننا عندما نركّز اهتمامنا على التداعيات الحرة، وأفكار الحلم الكامنة، وترجمة الرموز، ومضامين التحويل، سواء أكان استيهامياً أم تفعيلياً، فإنما نتقدم في دراسة الهذا، ولكن على نحو أحادي الجانب. وعلى هذا النحو الأحادي الجانب أيضاً تعيننا دراسة المقاومات، وعمل رقابة الأحلام، ومختلف الأساليب الدفاعية ضد الحفزات الغريزية والأخاييل، على معرفة أنشطة الأنا والأنا الأعلى المجهولة. وإذا صحّ أن مزيجاً بمقادير متساوية من كلا النوعين من البحث هو وحده الذي يتيح لنا أن نكوّن فكرة متكاملة عن الحالة الداخلية للمريض المحلَّل، فلا بدّ لنا من التسليم أيضاً بأن إيثارنا إذا ما ذهب إلى طريقة بعينها من طرائق التحليل، على حساب كل ما عداها، فلن تتحصل لنا إلا صورة محرَّفة مشوَّهة، أو على أية حال ناقصة، عن الشخصية النفسية.

فالتقنية التي لا تعتمد، مثلاً، إلا على ترجمة الرموز حصراً قد لا تتأدى أيضاً إلا إلى الكشف عن مشتقات الهذا حصراً. ومن يلجأ إلى هذه التقنية قد يستسلم في سهولة لإغراء إهمال عناصر الأنا اللاشعورية، أو على أية حال الاستهانة بشأنها، وهي العناصر التي لا يمكن استياقها إلى مجال الشعور إلا بالاعتماد على طرائق تحليلية أخرى. وقد يحتجّ بعضهم، في محاولة لتبرير مثل هذه التقنية، بأن من مزاياها أنها تغنينا على وجه التحديد عن الحاجة إلى الالتفاف من حول الأنا إذ تتيح لنا أن نبلغ مباشرة إلى الحياة الغريزية المكبوتة. ولكن النتائج لن تأتي في هذه الحال إلا ناقصة. فوحده تحليل عمليات الأنا الدفاعية اللاشعورية يتيح لنا أن نعيد بناء التحولات والتحورات التي طرأت على الدوافع الغريزية. وصحيح أننا



إذا ما ضربنا صفحاً عن هذا النوع من التحليل نتوصل إلى تحصيل معلومات جمة عن مضمون الرغبات الغريزية والأخاييل المكبوتة، ولكننا سنبقى في هذه الحال على معرفة واهنة، بله على جهل مطبق بالتحورات والتقلبات التي طرأت على هذه الرغبات والتخييلات، وبالكيفية التي يتم إدماجها بها في بنية الشخصية.

كذلك، إن التقنية التي تأخذ باتجاه معاكس تماماً للتقنية السابقة، ولا توسع مكان الصدارة إلا لتحليل المقاومات، ستبقى موسومة هي الأخرى بميسم النقص، وإن بصورة مغايرة تماماً. فلسوف تتحصل لنا في هذه الحال صورة كاملة عن بنية أنا المحلَّلين، ولكن تحليل الهذا عندهم سيبقى سطحياً وبعيداً عن الكمال.

والأمر بالمثل بالنسبة إلى تقنية لا تستخدم في إسراف سوى التحويل. فصحيح أن المرضى، الذين يكون التحويل عندهم بالغ القوة ولا تزيده هذه التقنية إلا شدة، يقدّمون للتحليل مادة وفيرة نابعة من أعمق طبقات الهذا عندهم. ولكنهم، إذ يفعلون ذلك، يتخطون حدود الموقف التحليلي. فأناهم لا يحافظ على مسلكِ ملاحظٍ ومراقبٍ معتدل، موضوعي، ومتجرد. بل يؤخذ في الدوامة ويُغمر ويُجرّ إلى الفعل. وحتى لو سلك، تحت تأثير آلية التكرار، مسلك أنا طفلي، فإن ذلك لا يغيِّر شيئاً في واقع كونه «يفعِّل» بدل أن يحلِّل. فماذا يحدث عندئذ؟ الحق أن مثل هذه التقنية، التي كنا عقدنا عليها الآمال الكبار، قد تنتهي بنا في خاتمة المطاف إلى جميع تلك الخيبات التي كانت تصوراتنا النظرية عن «التفعيل» قد أباحت لنا توقعها. وهكذا لا نكون قد ازددنا معرفة بمرضانا، ويكون مآل طرقنا في العلاج إلى فشل.

إن الطريقة التي اعتمدناها في تحليل الأطفال تقدِّم لنا أيضاً مثالاً جيداً على أخطار التقنية الأحادية الجانب. فحينما نضطر إلى العزوف عن التداعي الحرّ، وحينما لا نلجأ إلا ضمن أضيق الحدود إلى تأويل الرموز ولا نشرع بتأويل التحويل إلا في مرحلة متقدمة من المعالجة، فإن ثلاثة سبل هامة إلى معرفة أنشطة الأنا ومضامين الهذا تكون قد انسدّت أمامنا. فكيف السبيل إلى سدِّ هذه الثغرات؟ وكيف لنا أن نتخطى، رغماً عنها، الطبقات السطحية للحياة النفسية؟ ذلك هو السؤال الذي سأحاول الإجابة عنه في الفصل التالي.



الفصل الثالث

الدراسة التحليلية لأساليب الأنا في الدفاع

علاقة الأنا بطريقة التحليل

إن التـأملات النظرية المطوَّلة والمضنية التي بسطتها في الفصل السابق يمكن عملياً تلخيصها في بضع عبارات بسيطة. فمهمة المحلِّل أن يستاق إلى مجال الشعور ما هو لاشعوري أياً ما كانت الهيئة التي ينتمي إليها هذا الأخير، ومن واجبه أيضاً أن يولي العناصر اللاشعورية من الهيئات الثلاث اهتماماً موضوعياً متساوياً. بعبارة أخرى، عندما يبدأ المحلِّل عمله الاستكناهي، فإنه يتخذ موقعه على مسافة متساوية من كل من الهذا والأنا والأنا الأعلى.

إن ظروفاً شتى قد تشوِّه لسوء الحظ الموضوعية الواضحة لهذا الموقف. فعدم تحيُّز المحلِّل لا يجد ما يناظره. فالهيئات المختلفة لا تستجيب لمجهوده بكيفية واحدة. ونحن نعلم أن الدوافع الغريزية في الهذا ليس لديها استعداد لتبقى لاشعورية. بل لديها نزوع طبيعي ودائم إلى الدلوف إلى الشعور لتفوز فيه بإشباع، أو هي تحاول على أية حال أن تبعث إلى سطح الشعور ببعض من مشتقاتها. وكما أوضحت آنفاً، فإن العمل التحليلي يمضي في الاتجاه نفسه ويعزز هذا النزوع. فالمحلِّل هو مساعد ومعين ومحرر بالنسبة إلى عناصر الهذا المكبوتة.

لكن الأمور تختلف من منظور الأنا والأنا الأعلى. فبقدر ما تجاهد هيئات الأنا، بالاعتماد على طرائقها الخاصة، لكبح جماح دوافع الهذا الغريزية، يتبدى المحلِّل وكأنه معكِّر للصفو والوئام. فعمله التحليلي يلغي الكبوتات التي ما تمّ إنجازها إلا بجهد جهيد، ويهدم التسويات التي كان شكلها ينسجم تماماً مع الأنا، وإن يكن مفعولها باتولوجياً. فجهود المحلِّل في سبيل استياق ما هو



لاشعوري إلى الشعور تعاكس جهود الهيئات الأنوية للسيطرة على الحياة الغريزية. وإلى أن تتخذ الأمور مجرى مغايراً حال استبصار المريض بمرضه، فإن الهيئات الأنوية ترى في مقاصد المحلّل خطراً عليها.

لهذا ينطوي موقف الأنا من الجهود التحليلية على ثلاثة جوانب، كما أسلفنا الإشارة في الفصل السابق. فحينما يمارس الأنا وظيفة الملاحظة الذاتية، التي تكلمت عنها آنفاً، يتحدث مع المحلّل، ويضع تحت تصرفه قدراته، ويزوِّده، بفضل فسائل الهيئتين الأخريين التي تكون تسللت إلى أرضه، بصورة عن هاتين الهيئتين. ولكن الأنا يقف بالمقابل موقفاً معادياً من المحلّل عندما يُظهِر، في أثناء ملاحظته لذاته، تحيّزه وسوء نيته، إذ إنه في الوقت الذي يسجِّل فيه بعض المعلومات وينقلها بأمانة يزيِّف معلومات غيرها وينتبذها ويحول بينها وبين الخروج إلى الضوء. وعلى هذا النحو يمضي في اتجاه معاكس للعمل التحليلي الذي يقتضي رؤية كل ما يمكن أن يبزغ بدون استثناء شيء منه. وأخيراً، يكون الأنا نفسه موضوعاً للتحليل بقدر ما يتواصل لاشعورياً النشاط الدفاعي الذي يمارسه بلا انقطاع ولا يغدو شعورياً إلا بجهد جهيد، مثله في ذلك، إلى حد كبير، مثل النشاط اللاشعوري لأية حفزة غريزية محظورة.

الدفاع ضد الدافع الغريزي والمقاومة

حاولت في الفصل السابق، تسهيلاً للدراسة التحليلية النفسية، أن أقيم تمييزاً نظرياً بين تحليل الهذا وتحليل الأنا، هذين التحليلين اللذين يبقيان مترابطين بوثيق العرى في الممارسة العملية. وما زادت هذه المحاولة على أن أيّدت واقعة مقررة من قبل، وهي أن كل المواد النافعة لمعرفة الأنا في التحليل النفسي تنبجس، في أثناء المعالجة، في صورة مقاومة لتحليل الهذا. وهذه الواقعة هي من الوضوح إلى حدٍّ يكاد يغني عن كل شرح. ففي أثناء التحليل يغدو الأنا فعالاً حيثما سعى، عن طريق عمل مضاد، إلى كبح اندفاعة الهذا. ولكن بما أن هدف التحليل النفسي هو تأمين منفذ إلى اللاشعور للتمثلات الممثلة للدافع الغريزي المكبوت، أي على



وجه التعيين استثارة مثل تلك الاندفاعات، يترتب على ذلك أن الإجراءات الدفاعية المتخذة من قبل الأنا ضد بزوغ تلك التمثلات تتلبس بصورة آلية طابع مقاومة فعالة ضد التحليل. وما دام المحلِّل، علاوة على ذلك، يستخدم نفوذه الشخصي ليتدخل ويفرض احترام القاعدة التحليلية الأساسية التي تتيح لتلك التمثلات أن تنبجس في مجرى التداعيات الطليقة، فإن دفاع الأنا ضد الدافع الغريزي ينقلب إلى معارضة مباشرة للطبيب المحلِّل. والعدائية تجاه المحلِّل وتعزيز الإجراءات الدفاعية ضد انبجاس حفزات الهذا يتطابقان لا محالة. وعندما تُلغى، في لحظات بعينها من التحليل، التدابير الدفاعية وتتمكن التمثلات الممثِّلة للدافع الغريزي من الانبجاس بدون معوقات في صورة تداعيات حرة، لا تعود علاقات الأنا بالمحلِّل تعاني من التعكير من هذه الناحية.

من الجلي للعيان أن هذا النوع من المقاومة ليس هو وحده الممكن في التحليل النفسي. فإلى جانب المقاومات المسمَّاة بمقاومات الأنا نعلم أنه توجد مقاومات تحويلية ذات بنيان مختلف، وكذلك بعض القوى المناوئة التي ترجع بأصلها إلى آلية التكرار والتي يعسر للغاية الظهور عليها. وعلى هذا، لا تنبع كل مقاومة بالضرورة من فعل دفاعي من جانب الأنا. ولكن لا يمكن لأي فعل دفاعي من جانب الأنا ضد الهذا أن يفصح عن نفسه، في أثناء التحليل، إلا في صورة مقاومة لجهود المحلِّل. ويوفِّر لنا تحليل مقاومات الأنا هذه فرصة طيبة لملاحظة نشاط الأنا الدفاعي اللاشعوري في كل شدته، ولاستياقه بالتالي إلى مجال الشعور.

الدفاع ضد الانفعالات الوجدانية

ليس فقط عندما تنشب خلافات بين الأنا والدافع الغريزي تسنح لنا الفرصة لنلاحظ بمزيد من التدقيق نشاط الأنا. فالأنا ليس في صراع فقط مع فسائل الهذا التي تحاول غزوه لتشق طريقاً لها إلى الشعور وإلى الإشباع. فهو يدافع عن نفسه بحيوية مماثلة ضد الانفعالات الوجدانية المرتبطة بتلك الدوافع الغريزية. فعندما ينتبذ المتطلبات الغريزية، فإنما على عاتقه تقع المهمة الأساسية، أي تدبر أمر نفسه



والخروج من المعمعة وسط الانفعالات الوجدانية: فالحب والصبابة والغيرة والإذلالات والأحزان والحداد، كلها تظاهرات تصاحب الرغبات الجنسية، بينما يصاحب الكره والغضب والحنق الحفزات العدوانية. وجميع هذه الانفعالات الوجدانية تخضع، حالما تتم تنحية المطلب الغريزي الذي ترتبط به، لضروب شتى من الإجراءات التي يتخذها الأنا للسيطرة عليها، أي يتحتم عليها أن تكابد من تحولات وتغيّرات معيَّنة. وفي كل مرة يتغير فيها انفعال وجداني بعينه، سواء أفي أثناء التحليل أم خارج نطاقه، فإن الأنا يكون هو الذي بادر إلى العمل، ومن ثم تسنح لنا الفرصة لدراسة عملياته. ونحن نعرف أن مصير كل انفعال وجداني مرتبط بمطلب غريزي لا يكون ببساطة مطابقاً لمصير الممثل الفكروي لهذا المطلب. لكن غنيٌّ عن البيان أن إمكانيات الدفاع المتاحة لأنا واحد بعينه تكون محدودة. ففي مراحل متباينة من العمر، وتبعاً للبنية النوعية للأنا الفردي، يقوم هذا الأخير باختيار هذه الوسيلة الدفاعية أو تلك: من كبت، أو نقل ، أو قلب، إلخ. وهذه الوسائل يكون في مستطاعه أن يستخدمها سواء أفي صراعه ضد الدوافع الغريزية أم في دفاعه ضد تحرر الانفعالات الوجدانية. ومتى ما تسنى لنا أن نعرف ما الطريقة التي يعتمدها المريض في الدفاع عن نفسه ضد انبجاس حفزاته الغريزية، أي ما نوع المقاومة الأنوية التي يلجأ إليها في العادة، صار في مقدورنا أن نتوقع الكيفية التي سيستجيب بها حيال انفعالاته الوجدانية غير المرغوب فيها. فعندما نلاحظ على سبيل المثال لدى مريض بعينه بعض الأشكال الخاصة والبارزة من التحولات لديه، من قبيل الغياب التام للانفعالات، والإنكار، إلخ، فلن يفجأنا أن نراه يعتمد هذه الطرائق عينها للدفاع عن نفسه ضد حفزاته الغريزية وتداعياته الحرة. فأناه هو دوماً أناه، وهو في كل صراع من صراعاته يثابر، بقدر أو بآخر من الثبات، على استخدام جميع الوسائل التي في متاحه في اتجاه واحد.

الظاهرات الدفاعية الدائمة

ثمة مجال آخر يتجلى في نشاط الأنا الدفاعي هو مجال الظاهرات التي



درسها فلهلم رايخ في كتابه **التحليل المتساوق للمقاومات**[1]. فبعض أوضاع الجسم، من قبيل التصلب والجمود، وبعض السمات الخاصة من قبيل الابتسامة المبتسرة، وبعض المسالك الهازئة أو المزدرية أو المتعجرفة، جميعها هي بمثابة مخلفات من ظاهرات دفاعية كانت عظيمة الفعالية في الماضي، لكنها انفكت في الزمن الحاضر عن مواقفها الابتدائية، أي عن صراعها ضد الدوافع الغريزية أو الانفعالات الوجدانية. ثم ما لبثت جميع هذه التظاهرات أن تحولت إلى سمات طبعية نهائية، أو صارت، بحسب تعبير رايخ، «دروعاً طبعية»[2]. وفي حال إفلاح التحليل في الاهتداء إلى أصلها التاريخي، نراها تستعيد حركيتها ولا تعود تسدّ علينا بثباتها وجمودها المنفذ إلى العمليات الدفاعية التي يكون الأنا منخرطاً فيها في تلك اللحظة انخراطاً فعالاً. وبما أن طرائق الدفاع هذه قد تلبست طابع الديمومة، فإننا لا نفلح في ربط ظهورها أو اختفائها بظهور المطالب الغريزية والانفعالات الوجدانية الداخلية واختفائها، ولا بطروء غوايات وانفعالات وجدانية قادمة من الخارج وزوالها. ولهذا يعسر تحليلها كل العسر. ولا يجوز لنا أن نتخذها موضوعاً رئيسياً للتحليل إلا عندما يتعذر علينا اكتشاف صراع ذي صفة راهنة بين الأنا والدافع الغريزي والانفعال الوجداني. ومن المحقق أيضاً أنه ليس ثمة ما يبرر قصْر تعبير «تحليل المقاومة» على دراسة هذه الظاهرات الخاصة وحدها: فهو يصدق أيضاً، وبالدرجة نفسها، على تحليل جميع المقاومات.

تكوين الأعراض

إن تحليل مقاومات الأنا وتدابيره الدفاعية ضد الدوافع الغريزية، ودراسة التحولات التي تطرأ على الانفعالات الوجدانية، يكشفان ويستاقان إلى الشعور،

---

١ ـ فلهلم رايخ KONSEQUENTE WIDERSTANDSANALYSE (**تحليل الطبع: التقنية والأسس برسم الطلبة والأطباء التحليليين النفسيين**)، فيينا، ١٩٣٥.

٢ ـ الدرع الطبعي (أو بالتأنيث الدرع الطبعية): مصطلح صاغه فلهلم رايخ، وهو يشير إلى جملة المواقف والمسالك الطبعية التي يتدرع بها الفرد في مواجهة الإثارات الانفعالية. وهو بمثابة رد فعل عصبي عضلي لتكيُّف الشخص المعني مع صلابة محيطه العاطفي، ووظيفته أن يحافظ على سلامة الشخص المعني في مواجهة دوافعه الغريزية الجنسية وما يعترضها من نواهٍ. «م».



في تدفق حي، أساليب دفاعية مشابهة لتلك التي نلاحظها في حال من الابتسار والقولبة في حالات « الدروع الطبعية الدائمة». ونحن نلتقي أيضاً، على مقاس أكبر، تلك الطرائق الدفاعية عينها في حال من الجمود والتحجر عندما نتصدى لدراسة الأعراض العصابية. فما الدور الذي يضطلع به الأنا إذاً في تكوين تلك التسويات التي نسميها بالأعراض؟ الحق أن الأنا يستخدم أسلوباً محدداً، لا يحول ولا يتبدل، في مدافعة هذا المطلب الغريزي الخاص أو ذاك. وهذا الأسلوب يتكرر استخدامه دوماً، وبالكيفية ذاتها، في كل مرة يعاود فيها الانبجاس مطلب من المطالب الغريزية في صورته المقولبة. ونحن نعرف[٣] أن بعض الأعصبة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكيفيات محددة في الدفاع؛ ومن قبيل ذلك أن الهستيريا ترتبط بالكبت، والعصاب الوسواسي بالعزل والإلغاء ذي المفعول الرجعي. هذه الروابط الوثيقة بين العصاب وآلية الدفاع نلتقيها عينها في مضمار الأساليب الدفاعية ضد الانفعالات الوجدانية وفي أشكال المقاومة التي يتخذها الأنا. والكيفية التي يتصرف بها المريض في أثناء جلسة التحليل حيال تداعياته الحرة، والكيفية التي يتحكم بها بمطالبه الغريزية متى ما خُلِّي بينه وبين نفسه، والكيفية التي يدافع بها عن نفسه ضد الانفعالات الوجدانية غير المرغوب فيها، تتيح لنا قبْلياً أن نتكهن بطبيعة أعراضه. ومن جهة أخرى، إن دراسة تكوين الأعراض لدى مريض من المرضى تأذن لنا بأن نستنتج بَعْدياً بنية مقاوماته ودفاعاته ضد الدوافع الغريزية والانفعالات الوجدانية. وأكثر ما نلتقي هذه الموازاة بين تكوين العرَض وشكل المقاومة في مضمار الهستيريا والعصاب الوسواسي بوجه خاص. فإلى الكبت في المقام الأول يلجأ المريض الهستيري في تكوين أعراضه في مجرى كفاحه ضد الدوافع الغريزية: فهو يستبعد من الشعور التمثلات الممثِّلة لحفزاته الجنسية. وشكل مقاومته للتداعي الحر هو من طبيعة مماثلة، إذ إن المريض يُنحّي بكل بساطة التداعيات القمينة بأن تستثير لدى الأنا موقفاً دفاعياً. فلا يعود يشعر من ثم إلا بخواء في شعوره ويلزم الصمت، أي أن سلسلة خواطره طرأ عليها انقطاع

٣ ـ انظر في هذا الصدد **الكفّ، العرَض، الحصر**، وكذلك الصفحة ٣٧١ من هذا الكتاب حيث سيرد الشاهد.



مماثل لذاك الذي حلَّ بسيرورته الغريزية في أثناء تكوين الأعراض. ونحن نعرف، من جهة أخرى، أن الأنا عند العصابي الوسواسي يتبنى، في تشكيل أعراضه، أسلوب الدفاع بطريق العزل. فهو يكتفي بأن يفصل الحفزات الغريزية عن سياقها، مع استبقائه إياها في الشعور. لهذا تتلبس المقاومة لدى العصابي الوسواسي بدورها شكلاً مبايناً. فهو لا يلزم الصمت حتى في حال المقاومة، بل يتكلم، وإنما بعد قطعه كل ترابط بين أفكاره؛ ويعزل، وهو يتكلم، تمثلاته عن انفعالاته الوجدانية، بحيث تتبدى تداعياته، على مقاس مصغَّر، عديمة المعنى تماماً كأعراضه العصابية العديمة المعنى على مقاس مكبَّر.

التقنية التحليلية والدفاع ضد الدوافع الغريزية

مريضة في مقتبل العمر جاءت تطلب التحليل من جراء حالة من قلق حاد تعكر عليها صفو حياتها ودراستها. وعلى الرغم من أنها ما ارتضت العلاج إلا صدوعاً منها بأمر أمها، فقد قصّت عليّ بطيبة خاطر ظروف حياتها الماضية والحاضرة. وقد بقي مسلكها تجاهي ودياً وصريحاً وهي تروي لي قصتها؛ لكنني لاحظت مع ذلك أنها شديدة الحرص على أن تتحاشى، في سردها، أية إشارة إلى عرَضها، ولم تأتِ بذكر نوبات القلق التي تنتابها في الفترات الفاصلة بين الجلسات. فإذا ما اتفق لي أن أظهرتُ إلحاحاً لإدخال عرَضها في التحليل أو أوَّلتُ قلقها الذي تشي به بعض معطيات تداعياتها، كان مسلك المريضة الودي يتبدل للحال. فكانت تنهال عليّ في كل مرة بوابل من الملاحظات الساخرة والتهكمات. وقد أخفقت إخفاقاً ذريعاً في محاولتي ربط مسلك المريضة هذا بموقفها من أمها. فعلاقاتها الشعورية واللاشعورية معاً بأمها كانت تعرض لناظريّ صورة مغايرة تماماً. وما كان لسخريتها ولتهكمها ولقوارصها المتجددة باستمرار إلا أن تثير حيرة المحلِّلة، بل أوجبت الامتناع عن متابعة العلاج لفترة من الزمن. بيد أن التقصي في التحليل، فيما بعد، أظهر أن الهزء والسخرية لا يمثّلان، بحصر المعنى، استجابة تحويلية، ولا يرتبطان على الإطلاق بالموقف التحليلي. فالمريضة تلجأ إلى هذه المناورة، الموجهة ضد ذاتها هي، في كل مرة توشك أن تبزغ فيها



في الوعي مشاعر حنان أو صبابة أو قلق. وكلما اشتد عليها وقع الانفعال الوجداني، عمدت الفتاة إلى المزيد من الحدة واللذع في هزئها من نفسها. ولم تجتذب المحلِّلة إلى نفسها إلا بصفة ثانوية هذه الاستجابات الدفاعية، وقد كان ذلك لأنها شجعت مشاعر القلق لدى المريضةعلى البزوغ في الشعور. وما كان لمعرفة مضمون القلق، حتى عندما كانت أقوال المريضة واعترافاتها الأخرى تسمح بتأويله تأويلاً صحيحاً، أن تتمخض عن نتيجة تذكر ما دامت كل محاولة للتقرب من انفعالها الوجداني لا تزيد إلا في شدة الدفاع من قبلها. وما أمكن للمحلِّلة أن تجعل مضمون القلق شعورياً إلا بعد أن أفلحت في أن تستاق إلى الشعور، وبالتالي أن تبطل مفعول أسلوب المريضة في المدافعة عن نفسها ضد الانفعالات الوجدانية عن طريق التحقير التهكمي، وهي سيرورة كانت تتمّ إلى ذلك الحين بصورة آلية في جميع صروف حياة المريضة. ومن وجهة النظر التاريخية كان هذا الأسلوب في الدفاع لدى المريضة بالهزء والتهكم يفسّره تماهيها مع أبيها المتوفى الذي كان رغب في أن يعلِّم ابنته فن السيطرة على الذات والذي كان يسخر منها كلما أسلمت زمام نفسها لتظاهرات عاطفية. وعلى هذا، إن أسلوب الدفاع ضد الانفعال الوجداني يثبِّت هنا ذكرى الأب الذي كانت المريضة تكنّ له محبة غامرة. والتقنية التي تفرض نفسها في هذه الحال هي أن نحلِّل في المقام الأول دفاع المريضة ضد انفعالاتها الوجدانية، ليتسنى لنا من ثم أن ندرس مقاومتها في التحويل. وعندئذ فحسب يغدو ممكناً لنا أن نتصدى حقاً لتحليل قلقها وما قبل تاريخه.

إن هذه الموازاة بين دفاع المريض ضد دوافعه الغريزية وضد انفعالاته الوجدانية وبين تشكيل العرَض والمقاومة تتمخض من الناحية التقنية، وبخاصة في تحليل الأطفال، عن نتائج مهمة للغاية. فأكثر كما تفتقده تقنية التحليل الطفلي هي التداعيات الحرة. وبالفعل، أليست التداعيات الحرة هي التي تزوِّدنا، ما دامت تمثل الدوافع الغريزية، بأثمن المعلومات عن الهذا؟ على أنه توجد مع ذلك سبل أخرى للحصول على هذه المعلومات. فالأحلام، وأحلام اليقظة لدى الطفل، ونشاط مخيِّلته في اللعب، والرسوم، إلخ، تكشف لنا، على نحو أكثر شفافية



وأقرب متناولاً مما لدى الراشد، عن دوافع الهذا الغريزية، وتكاد تعوّض في التحليل عن بزوغ مشتقات الهذا كما يتمّ في التداعي الحر. ولكن بما أن القاعدة التحليلية الأساسية غير قابلة للتطبيق، فإن الصراع الذي يخاض غماره ضماناً للتقيد بهذه القاعدة ينتفي وجوده هو الآخر، علماً بأن هذا الصراع هو ما يميط لنا اللثام، في تحليل الراشدين، عن مقاومات الأنا، وبالتالي عن نشاط الأنا الدفاعي ضد مشتقات الدوافع الغريزية. وهكذا، إن التحليل الطفلي الذي يمدّنا بمعلومات جمة عن الهذا قد لا يكون قادراً على تزويدنا إلا بمعلومات هزيلة عن الأنا الطفلي.

إن الدراسة التحليلية لألعاب صغار الأطفال تعوّض أنجع تعويض، بحسب ما ترى المدرسة الإنكليزية[٤]، عن غياب التداعيات الحرة. فهذه المدرسة تضع علامة مساواة بين الخواطر التي يفصح عنها الراشدون وبين أنشطة الأطفال اللعبية، وتستفيد بكيفية مماثلة من هذه الأخيرة لأغراض التأويل. فتيار التداعيات الحرّ تناظره الألعاب الحرة، والوقفات وضروب الكفّ في هذه الألعاب تكافئ التقييدات والمعوّقات في التعبير الحر عن الخواطر. ويترتّب على ذلك إننا إذا ما حلّلنا اضطرابات في النشاط اللعبي فسنكتشف أنها تمثّل دفاعاً من جانب الأنا مماثلاً للمقاومة في مجرى التداعيات.

لكننا إذا كنا نتردد، لبواعث نظرية معيَّنة، في اعتبار التداعي الحر والنشاط اللعبي متكافئين تمام التكافؤ، فنمسك، مثلاً، عن المضيّ في تأويل الرموز إلى آخر مداه، فلن يكون أمامنا محيص والحالة هذه عن اللجوء إلى طرائق جديدة في تحليل الأطفال مؤهلة لأن تزوّدنا بالمعلومات عن الأنا. ويلوح لي أن تحليل تحولات الانفعالات العاطفية لدى الطفل يمكن أن يسدّ هذه الثغرة. فحياة الطفل العاطفية أقل تعقيداً وأكثر شفافية من حياة الراشد العاطفية. ومن ثم يكون في مستطاعنا أن نلاحظ ما يمكن أن يستثير لديه، إما في أثناء التحليل وإما خارج نطاقه، تصريفاً للانفعالات العاطفية. فمن المحتم، مثلاً، أن ينتاب الطفل شعور

٤ ـ المقصود مدرسة ميلاني كلاين. «م».



بالغيرة وبالحزن متى ما فطن إلى أن طفلاً آخر يحاط بالعناية أكثر مما يحاط به هو. وإذا استجبنا لرغبة طالما داعب الأمل في تحقيقها، فلا بدّ أن يستشعر لذلك فرحاً. وإذا كان يتوقع أن يعاقَب، استبدّ به القلق والخوف. أما إذا كان يتأمل في لذة أو إذا وُعد بها، ثم تقرر إرجاؤها أو إلغاؤها، فإن نفسه تمتلئ خيبة ومرارة. ونحن نتوقع فعلاً أن يستجيب الطفل على هذا النحو السويّ لمثل هذه الوقائع والخبرات. على أن الملاحظة تدل على أن الأمور لا تجري على الدوام هذا المجرى. فمثلاً قد يبدي الطفل عدم مبالاة على حين كان يُفترض به أن يشعر بخيبة أمل، وقد يظهِر بهجة مفرطة بدل أن يساوره الحزن، وقد يفصح عن حنان مسرف عوضاً عن الغيرة. وفي جميع هذه الأحوال يكون قد حدث شيء حرَف السيرورة عن مجراها المألوف: فقد تدخَّل الأنا ليفرض تحولاً في الانفعالات العاطفية. والتحليل، إذ يستاق إلى الوعي هذا الشكل النوعي من الدفاع ضد الانفعال العاطفي، سواء أكان هذا الدفاع اتخذ شكل قلب أم نقل أم كبت كامل، يمدّنا بالمعلومات عن الطريقة الخاصة التي اعتمدها الأنا لدى الكائن الصغير. وعلى نفس منوال تحليل المقاومات، يتيح لنا تحليل الحالات المشار إليها أن نستنتج موقف الطفل إزاء دوافعه الغريزية وتكوين أعراضه. ومن الوقائع التي تنطوي على أهمية كبيرة بالنسبة إلينا في التحليل الطفلي ألا نكون مضطرين، عندما نرغب في دراسة السيرورات العاطفية، إلى الاعتماد بأية صورة من الصور على تعاون الطفل الإرادي أو على صراحته أو على تكتُّمه. فانفعال الطفل العاطفي يترجم عن ذاته، ولو على كره منه.

وهاكم فيما يلي بعض أمثلة: صبي صغير كانت تنتابه نوبات من الحماسة الحربية كلما دفع به دافع ما إلى استشعار خوف الخصاء؛ فكان يرتدي زياً عسكرياً، ويتسلح بسيف وبغيره من أسلحة الأطفال. وبعد أن أخضعتُه للملاحظة في عدة مناسبات من هذا القبيل، فطنت إلى أنه يقلب الحصر إلى نقيضه، وعلى وجه التعيين إلى عدوانية. ومذ ذاك فصاعداً لم يعد عسيراً عليّ أن أكتشف في كل مرة خوف الخصاء الذي تحجبه تلك الاستجابات الحربية. وفضلاً عن ذلك، اكتشفت بلا دهشة أن ذلك الطفل عصابي وسواسي يظهِر،



في حياته الغريزية، ميلاً إلى قلب حفزاته الغريزية غير المرغوب فيها إلى أضدادها. وكذلك مثال فتاة صغيرة ما كانت تردّ الفعل إطلاقاً، فيما يبدو، على المواقف الإحباطية، وكانت القرينة الوحيدة على انفعالها ارتعاشة عند ملتقى شفتيها. وقد كشفت على هذا النحو عن قدرة أناها على تنحية السيرورات النفسية المستكرهة وعلى الاستعاضة عنها بسيرورات بدنية. فهل نعجب بعد ذلك إذا علمنا أنها تستطيع أن تستجيب استجابة هستيرية في صراعاتها الغريزية؟ وفتاة صغيرة أخرى نجحت كل النجاح، في مرحلة الكمون من عمرها، في كبت حسدها لقضيب أخيها الصغير، وهو الحسد الذي كان يتحكم بحياتها كلها، بحيث كان من العسير جداً عليّ، حتى في التحليل، أن أكتشف أثراً ما من ذلك الإحساس. وقد أظهر التحليل فقط أنه كلما سنحت فرصة لها لتحسد أخاها ولتغار منه كانت تُسْلِم نفسها للعبة غريبة من ألعاب المخيِّلة: فقد كانت تتصور نفسها ساحراً قادراً، بإيماءاته، أن يؤثر في الكون بأسره ويغيِّره. فهذه البنت كانت تقلب إلى النقيض الحسد الذي كان يتأكّل نفسها، فتغالي في توكيد قدرتها السحرية. وبفضل هذا التخييل كانت تتحاشى الاستبصار الأليم بدونيتها الجسمية المزعومة. وقد استخدم أناها آلية الدفاع المتمثلة في القلب إلى الضد، وهو ضرب من تشكيل ارتجاعي ضد الانفعال العاطفي. وما إن تأكدت هذه الحقيقة حتى بات في مستطاع المحلِّلة أن تستنتج في سهولة الحسد القضيبي في كل مرة يعاود فيها تخييل الساحر ظهوره. وإن ما تفيدنا به التجربة على هذا النحو لا يعدو أن يكون تقنية معيّنة في ترجمة التظاهرات الدفاعية لدى الأنا، وهذه التقنية تكاد تناظر بدقة الطريقة التي تمكّننا، في التداعيات الحرة، من تصفية مقاومات الأنا. والحق أن هدفنا هو عينه هدفنا في تحليل المقاومات. فبقدر ما نتوصل إلى استياق المقاومة والدفاع ضد الانفعالات العاطفية إلى الشعور ـ وهذا ما يبطل فاعليتهما ـ نخطو خطوة أخرى إلى الأمام على طريق تفهم الهذا.



مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الرابع

آليات الدفاع

النظرية التحليلية النفسية وآليات الدفاع

إن مصطلح «الدفاع»، الذي تواتر استعمالنا له في الفصول الثلاثة السابقة، هو أقدم ممثل لوجهة نظر دينامية في النظرية التحليلية النفسية. فقد ظهر هذا المصطلح لأول مرة سنة ١٨٩٤ في دراسة فرويد عن **أعصبة الدفاع النفسية**، ثم تكرر ظهوره في الدراستين التاليتين: **إتيولوجيا الهستيريا** و**ملاحظات أخرى حول أعصبة الدفاع النفسية**. وهو يفيد في تسمية تمرد الأنا على التمثلات والانفعالات العاطفية الأليمة أو غير المحتملة. ثم كان أن هُجر هذا المصطلح واستعيض عنه في وقت لاحق بمصطلح الكبت. بيد أن العلاقة بين المصطلحين تبقى مبهمة. وإنما في تذييل **الكفّ، العرَض، الحصر** (١٩٢٦) عاد فرويد إلى مفهومه القديم عن الدفاع، وجاهر باعتقاده بفائدة العودة إلى تداول هذا المصطلح «شريطة أن نشير بهذا المفهوم بصفة عامة إلى جميع الأساليب والطرائق التي يلجأ إليها الأنا في منازعاته التي يحتمل أن تتأدى إلى العصاب، بينما نحتفظ باصطلاح الكبت لطريقة بعينها من هذه الطرائق الدفاعية، أتاح لنا اتجاه أبحاثنا في البداية أن نعرفها خيراً من سواها»[1]. هكذا يكون قد تحدد معنى كلمة «الكبت». فهو لا يعدو أن يكون ظاهرة تضطلع إلى جانبها سيرورات نفسية أخرى بأدوارها في خدمة الهدف نفسه: «حماية الأنا من مطالب الدوافع الغريزية». ومن ثم لا يعود الكبت يمثّل سوى «طريقة بعينها من الطرائق الدفاعية».

١ ـ راجع أعلاه الترجمة العربية لكتاب فرويد هذا. «م».



إن هذا التصور الجديد لدور الكبت يحثّ المحلِّلين النفسيين على أن يدرسوا ويقارنوا ويصنفوا تلك الطرائق الدفاعية الأخرى بقدر ما تمّ حتى الآن اكتشافها ووصفها.

إن ذلك التذييل المشار إليه لكتاب **الكفّ، العرَض، الحصر** يتضمن أيضاً فرَضاً كنت أسلفت إليه الإشارة في الفصل السابق. وهاكم إياه: «إن تعميق دراساتنا ربما يكون من شأنه أن يكشف عن وجود تطابق وثيق بين أشكال دفاعية كهذه وبين إصابات مرَضية كتلك، وعلى سبيل المثال بين الكبت والهستيريا»[٢]. ويذكر فرويد في عداد أساليب الدفاع المستخدمة في العصاب الوسواسي النكوص والتحورات الارتجاعية للأنا (التشكيلات الارتجاعية) والعزل والإلغاء ذا المفعول الرجعي.

بعد هذه الإشارات الأولية يغدو من اليسير علينا أن نستكمل، بالاستعانة بمؤلفات أخرى لفرويد، تعدد أساليب الدفاع. ففي مقاله **حول بعض الآليات العصابية في الغيرة والبارانويا والجنسية المثلية**[٣] يعد الاستدماج أو التماهي أو الإسقاط طرائق دفاعية لها وجهها من الأهمية في ذلك النوع من الأمراض. وفي مبحثه عن نظرية الدوافع الغريزية[٤]، يدرج فرويد الارتداد ضد الذات والقلب إلى النقيض في باب «مصائر الدوافع الغريزية». وإذا أخذنا بوجهة نظر الأنا، تحتَّم علينا أن نعتبر هاتين السيرورتين من جملة الأساليب والطرائق الدفاعية: فكل ما يقع للدوافع الغريزية من هذا القبيل يمكن أن يُردَّ في خاتمة المطاف إلى فاعلية من جانب الأنا. فلو أن مطالب الأنا ومطالب القوى الخارجية التي يمثِّلها الأنا ما كانت تمارس ضغطاً، لما عرف الدافع الغريزي سوى مصير واحد: الإشباع. وإلى تلك الأساليب الدفاعية التسعة المعروفة جيداً في الممارسة والموصوفة على نطاق

٢ ـ المصدر نفسه.

٣ ـ انظر ترجمتنا لهذا النص في: **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي** في المجلد ٤ من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».

٤ ـ المقصود: **الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية**. انظر ترجمتنا لهذا النص في: **ما وراء علم النفس** في المجلد ٥ من **المؤلفات شبه الكاملة**.«م»



واسع في النظرية التحليلية النفسية (الكبت، النكوص، التشكيل الارتجاعي، العزل، الإلغاء ذي المفعول الرجعي، الإسقاط، الاستدماج، الارتداد ضد الذات، القلب إلى الضد) نستطيع أن نضيف أسلوباً عاشراً ينتمي بالأحرى إلى مضمار السواء أكثر منه إلى مضمار العصاب: الإسماء SUBLIMATION أو نقل الهدف الغريزي.

هكذا نستطيع أن نؤكد، طبقاً لمعارفنا الحالية، أن في متناول الأنا، في كفاحه ضد تمثيلات[٥] الدافع الغريزي وضد الانفعالات العاطفية، عشرة أساليب متباينة. وعلى عاتق الطبيب المحلِّل تقع مهمة الكشف عن النتائج التي يمكن أن تتمخض عنها هذه الأساليب، في كل حالة فردية، في مجرى سيرورات مقاومة الأنا وتكوين الأعراض.

مقارنة بين الأفاعيل المختلفة لهذه الآليات في الحالة الفردية

لندرس، على سبيل التمثيل، حالة ممرِّضة شابة لها عدد كبير من الإخوة والأخوات ممن يكبرونها أو يصغرونها سناً. فطوال طفولتها ما انفكت تعاني بقوة من الحسد القضيبي حيال إخوتها، ومن غيرة يجدِّدها باستمرار حَمَلُ أمها المتكرر. وفي النهاية ائتلف الحسد والغيرة ليضرما فيها نار كراهية متأججة حيال هذه الأم. ولكن بما أن روابط الحب التي تشدّ وثاق البنت الصغيرة إلى هذه الأخيرة كانت متينة للغاية أيضاً، فقد نشب لديها صراع دفاعي ضارٍ ضد الحفزات السلبية، وقد كان ظهوره في أعقاب فترة من العصيان والشيطنة. وكانت تخشى، بحكم ما تكنّه من مشاعر الكره، أن تفقد حب الأم الذي ما كان لها عنه من غناء. وكانت تخاف أيضاً أن تعاقبها أمها، وتؤاخذ نفسها مؤاخذة مُرَّة على ما تضمره من شهوة مكبوحة إلى الانتقام. وفي خضم هذا الموقف المسبِّب للقلق والحصر وفي غمرة الصراع الأخلاقي الذي كانت تتخبط فيه والذي كان يزداد ضراوة كلما تقدمت أكثر فأكثر في مرحلة الكمون، حاول أناها بسبل شتى أن يسيطر على الموقف. فكيما تصفّي نزاعها الوجداني

٥ ـ أو التمثلات الممثِّلة للدافع الغريزي كما يؤثر أن يقول فرويد. «م».



الازدواجي أسقطت على الخارج أحد عنصري ازدواجيتها العاطفية. فقد استمرت أمها موضوعَ حبٍّ عندها، ولكن ستكون هناك في حياتها بالمقابل، منذ ذلك الحين فصاعداً، شخصية ثانية من الجنس المؤنث تضمر لها أشدَّ الكره. وعن هذا السبيل صار الموقف أكثر احتمالاً، وذلك لأن الكراهية التي تستشعرها نحو شخص غريب لا تستثير لديها شعوراً رهيباً بالإثم كمثل ذاك الذي تستثيره كراهيتها لأمها. بيد أن هذه العاطفة المُزاحة بقيت مولِّدة للعذاب بما فيه الكفّاية. وكما أثبت الآتي من الأيام فإن تلك الإزاحة الأولى لم تكن كافية لتصفية الموقف.

على الأثر لجأ أنا البنت الصغيرة إلى آلية ثانية بأن قلب نحو الذات الكراهية التي كانت تنصبّ حتى ذلك الحين على الخارج حصراً. وراحت الطفلة تعذِّب نفسها بنفسها بما تنهال به على ذاتها من تبكيات قاسية وبما ينتابها من مشاعر الدونية. وعلى امتداد طفولتها، ومراهقتها، وحتى في حياتها الراشدة، ما تركت شيئاً إلا وفعلته لتضع نفسها في موضع الخاسر، ولتؤذي نفسها، ولتقدِّم مصالح الغير على الدوام على مصالحها. ويبدو أنها، منذ أن اعتمدت خطة الدفاع هذه، غدت مازوخية.

لكن حتى هذه التدابير ثبت قصورها عن تسوية الأمور. وعندئذ شرعت المريضة تلجأ إلى الإسقاط PROJECTION. فالكراهية، التي كانت تستشعرها ضد المواضيع الأنثوية المحبوبة أو ضد بدائلها، انقلب إلى اقتناع بأنها هي نفسها مكروهة أو مهانة أو مضطهدة من قبل النساء المشار إليهن. هكذا تخفف أناها من عبء الشعور بالذنب. لكن استخدامها لهذه الآلية صبغ شخصيتها بصبغة شبه بارانوئية، فصارت حياتها جحيماً لا يطاق في شتى سنيّ مراهقتها وشبابها على حدٍّ سواء.

لم تلجأ المريضة إلى التحليل إلا بعد دخولها في طور الحياة الراشدة. وعلى الرغم من معاناتها الشديدة، لم يكن محيطها يعتبرها مريضة. وجميع التدابير الدفاعية التي اتخذها أناها لم تنجح إطلاقاً في تحريرها من قلقها ومن شعورها بالذنب. ففي كل ظرف قمين بأن يحرِّك فيها الحسد أو الغيرة أو الكراهية،



كانت تجنّد آلياتها الدفاعية كافة. لكن صراعاتها العاطفية ما كانت تتأدى بها قط إلى حلٍّ من شأنه تسكين أناها. وناهيك عن ذلك، كانت المحصلة الختامية لجميع تلك الصراعات هزيلة ومخيِّبة للأمل إلى أقصى حدّ. صحيح أن الفتاة أفلحت في أن تحافظ على وهم حبها البَنَوي (لأمها)، ولكنها بقدر ما كانت تستشعر الكراهية تطفح من نفسها كانت ترتاب في ذاتها وتزدري نفسها. وبالمثل لم تنجح في الحفاظ على الشعور بأنها محبوبة، وهو الشعور الذي أعملت فيه آلية الإسقاط يد الهدم، فلم تتوصل إلى تحاشي العقوبات التي كانت تتوجس منها خيفة في طفولتها. ولما ردَّت إلى نحر ذاتها حفزاتِها العدوانية أنزلت بنفسها كل الأذى الذي كانت تخشى أن تنزله بها أمها لمعاقبتها. ولم تمنع الآليات الثلاث التي لجأ إليها أناها من أن يكون في حالة دائمة من الاستنفار والتوتر المضنيين، كما لم تساعدها على التملص من المطالب الغريزية المشتطة ولا على التخفف من العذاب الحادّ الذي كانت هذه المطالب تبتعثه فيها.

لنقارن الآن هذه الظاهرات بالسيرورات المناظرة لها في حالة من حالات الهستيريا أو من حالات العصاب الوسواسي. فلنفرض أن المشكلة واحدة في كل حالة: وهي تصفية الكراهية الموجَّهة ضد الأم والمتولِّدة عن الحسد القضيبي. فالهستيريا ستستخدم لهذا الغرض الكبت، فتشطب كراهية الأم من سجل الشعور وتسدّ سداً محكماً المنفذ إلى الأنا أمام جميع مشتقات تلك العاطفة العدائية وفسائلها. أما الحفزات العدوانية المرتبطة بالكراهية، وكذلك الحفزات الجنسية المرتبطة بالحسد القضيبي، فيمكن أن تنقلب إلى أعراض جسمية إذا كانت تتوفر للمريضة القدرة على التبدين[٦]، وإذا كانت الشروط البدنية مؤاتية. وفي حالات أخرى يذود الأنا عن نفسه بتحاشيات رهابية ضد إعادة تنشيط صراع ابتدائي. فهو يقلِّص نشاطه إلى حدٍّ يجنِّبه كل موقف من شأنه أن ييسّر عودة الحفزات المكبوتة.

في العصاب الوسواسي كذلك يتمّ في وهلة أولى كبت كُرْه الأم والحسد

٦ ـ حرفياً الاستبدال CONVERSION. والمعنى المقصود هو التبدْيُن، أي تحول الانفعال العاطفي المكبوت إلى عرض بدني ولا سيما في الهستيريا. «م».



القضيبي. وفي وقت لاحق يتدبر الأنا لنفسه، عن طريق تشكيلات ارتجاعية، حماية ضد عودة المكبوت. فالطفلة، التي كانت عدوانية حيال أمها، تغدو مُحِبَّة لها إلى حدّ الشطط، وتصير تخاف على حياتها أشدّ الخوف. وينقلب الحسد والغيرة إلى تجرد وإلى إيثار للغير. وتلجأ الطفلة إلى طقوس وسواسية وإلى تدابير وقائية متنوعة لحماية المواضيع المحبوبة ضد أية تظاهرة عدوانية تصدر عنها. وتعمل على كبح التظاهرات الجنسية عن طريق تزمُّتٍ أخلاقي صارم.

إن الطفلة، التي تظهَر على منازعاتها بالأسلوب الوسواسي أو الأسلوب الهستيري اللذين تقدم بنا وصفهما، تبدو أكثر مكابدة من المرض من تلك المريضة التي عرضنا من قبل حالتها. فالكبت أفقد الطفلة القدرة على السيطرة على شطر من حياتها العاطفية، فباتت علاقتها الأصلية بأمها وإخوتها، وعلاقاتها العظيمة الأهمية بأنوثتها ذاتها، بعيدة عن متناول أية صياغة شعورية لاحقة. وتثبتت تثبيتاً وسواسياً لا رجعة فيه في صورة تغيُّر ارتجاعي في الأنا. وتبدد شطر كبير من نشاط الطفلة في جهود ترمي، ولا سيما في الهستيريا، إلى المحافظة على التوظيفات المضادة التي يفترض بها تأمين الكبت لاحقاً. وهذا الهدر للطاقة يتبدى في كفٍّ وتقليصٍ للأنشطة الحيوية الأخرى. لكن أنا الطفلة، الذي أفلح في تصفية صراعاته بواسطة الكبت، بكل ما يترتب على هذا الأخير من عواقب مولِّدة للمرض، توصَّل على كل حال إلى ضرب من السكينة. فالألم الذي يعاني منه هذا الأنا ثانوي ليس إلا، وناجم عن العصاب الذي تسبَّب فيه الكبت. وقد أفلحت الطفلة، على الأقل بقدر ما يأذن لها بذلك العصاب الوسواسي أو الهستيريا الاستبدالية ، في تقييد قلقها وفي قمع مشاعرها الآثمة وفي إشباع حاجتها إلى العقاب. والفارق كله يتأتى من أن الأنا يعفى في حالة الكبت، وبفضل تكوين الأعراض، من مهمة السيطرة على الصراع، في حين أن هذه المهمة تبقى واقعة على عاتق الأنا في حال اللجوء إلى طرائق أخرى في الدفاع.

ونلاحظ في الواقع أن الكبت ليس وحده الذي ينفرد بصفة عامة بالعمل، وأن الأسلوبين الدفاعيين كليهما يُستخدمان من قبل الفرد الواحد. لنأخذ، على سبيل المثال، حالة مريضة كانت تعاني هي الأخرى، منذ نعومة أظفارها، من حسد



قضيبي شديد، وإنما هذه المرة حيال أبيها. وقد بلغت أخاييلها الجنسية الذروة في رغبتها في أن تعضّ هذا القضيب. وعندئذ تدخَّل الأنا، فإذا بالفكرة الجارحة تنكبت وتنقلب إلى ضدها: نفور عام من العضّ سرعان ما تدهور لدى الطفلة إلى أنوراكسيا(٧) مصحوبة بشعور هستيري بالغثيان. وعلى هذا النحو قمعت إحدى ظاهرات السيرورة، وأعني بها الأخيولة الفموية. بيد أن المضمون العدواني، أي الرغبة في سلب الأب (أو من ينوب منابه) ما يملكه، بقي لبعض الوقت في الشعور إلى أن نما الأنا الأعلى بالتدريج نمواً كافياً فبادر الحس الخلقي للأنا إلى انتباذ الحفزة المحرمة. وبفضل آلية الإزاحة والنقل هذه، التي سندرسها فيما بعد بمزيد من التفصيل، تحولت الرغبة في السلب إلى ضرب من القناعة والتواضع لا يخلو من غرابة. وهنا نرى الأسلوبين الدفاعيين كليهما قد جرى اعتمادهما بالتعاقب: ففوق ركيزة من العصاب الهستيري حدث تبدُّل نوعي في الأنا، ليس بحدّ ذاته من طبيعة باتولوجية.

إن الانطباع الذي نخرج به من هذه الأمثلة القليلة يتأكد ويتعزز متى ما درسنا دراسة مفصَّلة، في حالات أخرى، تـأثير مختلف الآليات الدفاعية. ومن الناحية النظرية يمكن لنا أن ندرج الكبت في المفهوم النظري العام للدفاع وأن نقارن بينه وبين سائر الطرائق الدفاعية النوعية الأخرى. بيد أن الكبت يشغل، من حيث نتائجه، مكانة على حدة بين سائر الطرائق الأخرى. فمن الناحية الكمية يفعل الكبت فعله على نحو أكثر جذرية، بمعنى أنه يستطيع أن يسيطر على بعض الحفزات الجامحة التي تبقى الطرائق الأخرى بإزائها عديمة الفعالية. وهو يؤتي مفعوله مرة واحدة يتيمة. لكن التوظيف المضاد الذي يتمّ تأميناً له هو بمثابة مؤسسة دائمة تتطلب إنفاقاً متصلاً في الطاقة. وخلافاً للكبت، تكون آليات الدفاع الأخرى بحاجة، كلما تجددت الاندفاعة الغريزية، إلى أن تعاود العمل من جديد. ولئن يكن الكبت أكثر الآليات فعالية، فهو أيضاً أعظمها خطراً. فتجزئة الأنا، التي يتأدى إليها في ميادين بكاملها من الحياة العاطفية والغريزية انسحاب الشعور، يمكن أن تقضي بصفة نهائية على تكامل الشخصية. ومن ثم يغدو

٧ ـ الأنوراكسيا: الخلّفة أو فقد شهية الطعام. «م».



الكبت أساساً لتكوين التشكيلات التسووية ولنشوء الأعصبة. ولا تقلّ عواقب التقنيات الدفاعية الأخرى خطورة، لكنها تظل، حتى عندما تتلبس شكلاً بالغ الحدة، أكثر قابلية للانحصار ضمن حدود السواء. وهي تترجم عن نفسها في عدد لا يقع تحت الحصر من التعديلات في الأنا ومن التحريفات والتشويهات التي تصاحب العصاب جزئياً أو تنوب جزئياً أيضاً منابه.

محاولة تصنيف زمني

حتى بعد أن سلَّمنا للكبت بمكانته الاستثنائية، يظل يساورنا، إذ ننعم النظر في آليات الدفاع الأخرى، شعور ـ لنقرّ بذلك ـ بأننا حَشرْنا في باب واحد كثرة من الظاهرات غير المتجانسة. فإلى جانب تقنيات من قبيل العزل والإلغاء ذي المفعول الرجعي، نجد سيرورات غريزية حقيقية من قبيل النكوص والقلب إلى النقيض والارتداد ضد الذات. وبعض هذه الآليات عظيم النجع، بينما لا يتوصل بعضها الآخر إلى السيطرة إلا على كميات ضئيلة من الدوافع الغريزية أو الانفعالات العاطفية. والحوافز التي تعيِّن اختيار الأنا لآلية بعينها من الآليات لا يزال يلفّها الإبهام. وربما كانت المهمة الرئيسية للكبت مكافحة الرغبات الجنسية. وربما كانت طرائق مغايرة غير هذه الطرائق أكثر صلاحة لمواجهة قوى غريزية أخرى، ولا سيما منها الحفزات العدوانية. وربما كان كل شأن هذه الأساليب الدفاعية الأخرى أن تكمل ما لم ينجزه الكبت، أو أن تفعل فعلها في ذلك الجزء من التمثلات والأفكار المحرَّمة الذي يعاود صعوده إلى السطح إذا ما أخفق الكبت(٨). ومن المحتمل أيضاً أن تكون كل آلية دفاعية جديدة مرصودة لمواجهة رغبة غريزية نوعية وللسيطرة عليها، ومن ثم تكون مرتبطة بمرحلة خاصة من مراحل نمو الطفل(٩).

٨ ـ أقول ذلك بناء على مداخلة لحنة لامبل دي غروت(*) في إحدى جلسات **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**.

(*) حنة لامبل دي غروت: طبيبة ألمانية ومحللة نفسية هولاندية (١٨٩٥ ـ ١٩٨٧). تمرست بالتحليل النفسي على يد فرويد وعملت في **معهد برلين للتحليل النفسي**، ولكن أصلها اليهودي أجبرها على مغادرة ألمانيا النازية إلى هولاندا. أولت اهتماماً خاصاً في أبحاثها لموضوع الأنوثة والنرجسية والمازوخية. من مؤلفاتها: **الألم والمتعة، الرجل والعقل**. «م».



لقد استشهدت تكراراً بتذييل **الكفّ، العرَض، الحصر**. فهذا الكتاب يتضمن إجابة أولية عن هذه الاقتراحات. يقول فرويد: «من المحتمل جداً أن الجهاز النفسي، قبل أن يتمايز فيه الأنا والهذا تمايزاً واضحاً وقبل أن يتكون الأنا الأعلى، كان يستخدم طرائق دفاعية مغايرة جداً لتلك التي يستخدمها بعد أن يكون بلغ هذه الأطوار من التنظيم». ولنا أن نقول بمزيد من الجلاء إن قوام الكبت احتجاز أو انتباذ لتمثل من التمثلات أو لانفعال من الانفعالات العاطفية إلى خارج الأنا الشعوري. ويتعذر الكلام عن كبت حيثما يكون الأنا والهذا لا يزالان مندمجين. وبوسعنا أيضاً الافتراض أن الإسقاط والاستدماج أسلوبان مرهونان بتمايز الأنا عن العالم الخارجي. فليس لانتباذ الأفكار أو الانفعالات العاطفية إلى خارج الأنا ولدمجها في العالم المحيط أن يخففا عن الأنا وأن يوفرا له تسكيناً قبل أن يتعلم الأنا كيف يميّز ذاته من العالم الخارجي. ومن جهة أخرى، لا يمكن لاستدماج العالم الخارجي في الأنا أن يعتبر كسباً لهذا الأخير قبل أن يبلغ إلى التمييز تمييزاً واضحاً بين ما يخصّه وما يخصّ العالم الخارجي. غير أن الوضع أكثر تعقيداً مما قد يلوح للوهلة الأولى؛ فأصل الإسقاط والاستدماج لا يزال يلفّه الإبهام[١٠]. أما الإسماء، أي نقل الهدف الغريزي إلى مستوى أعلى وأسمى من وجهة النظر الاجتماعية، فإنه يفترض سلفاً قبولاً أو على الأقل معرفة بالقيم الأخلاقية، وبالتالي وجود أنا أعلى. وعلى هذا، إن آليتي الكبت والإسماء الدفاعيتين لا يكون ظهورهما إلا في طور متأخر من مسار النمو، بينما يتوقف التاريخ الزمني الذي يمكن أن نحدده للإسقاط والاستدماج على المنحى النظري الذي نأخذ به. وبالمقابل، إن سيرورات من قبيل النكوص والقلب إلى النقيض والارتداد ضد

---

٩ ـ بحسب رأي تقدمت به هيلينا دويتش[*].

(*) هيلينا دويتش: محللة نفسية أمريكية من أصل نمساوي(١٨٨٤ ـ ١٩٨٢). كانت أول محللة نفسية تتخصص بالسيكولوجيا النسوية. انتمت إلى الحركة الاشتراكية في شبابها، ثم إلى التحليل النفسي بعد أن تولى فرويد نفسه تحليلها. ودافعت عن العقيدة الفرويدية «القويمة» فيما يخصّ الجنسية النسوية. من مؤلفاتها: **التحليل النفسي لوظائف المرأة الجنسية، مشكلات المراهقة**. «م».

١٠ ـ انظر فرويد: **الأعمال الكاملة**، م٤. وكذلك النظرية التحليلية النفسية التي أخذت بها المدرسة الإنكليزية والتي سنعرض لها لاحقاً.



الذات تبقى في أرجح الظن مستقلة عن الطور الذي بلغت إليه البنية النفسية، ويحتمل أن تكون قديمة قدم الدوافع الغريزية نفسها أو على أية حال قِدَم الصراع بين هذه الدوافع وبين العقبة التي قد تعترض سبيلها إلى الإشباع. ولن يفجأنا أن نعلم أنها تمثل أبكر آليات الدفاع المستخدمة من قبل الأنا.

بيد أن هذه المحاولة للتصنيف الزمني تنقضها التجربة. وبالفعل، إن أبكر التظاهرات العصابية للطفولة الأولى هي الأعراض الهستيرية التي لا يساورنا شك في روابطها بالكبت. ومن جهة أخرى، إن التظاهرات المازوخية الحقة، التي تنجم عن ارتداد الدافع الغريزي ضد الذات، نادرة لدى صغار الأطفال. ونحن نعتقد أن الاستدماج والإسقاط يظهران في الطور اللاحق لتمايز الأنا عن العالم الخارجي. لكن هاتين الآليتين، في ما تذهب إليه المدرسة التحليلية الإنكليزية، هما على العكس اللتان تولِّدان الأنا، وإليهما ينبغي أن يعزى الفضل في تمايزه عن الخارج. وتدلنا هذه الاختلافات في الرأي أن الترتيب الزمني للظاهرات النفسية يبقى واحداً من أقل مجالات التحليل النظري استكشافاً. وهذا ما يتضح بجلاء من المناقشات بصدد زمن تكوين الأنا الأعلى لدى الفرد. ومن ثم، إن تصنيفاً زمنياً لآليات الدفاع لا بدّ أن يكون مشوباً بكل وجوه الشك وعدم اليقين اللذين لا يزالان يحيطان إلى اليوم، في مضمار التحليل النفسي، بهذا الضرب من التحديدات. ولهذا ربما كان من الأوفق أن نمسك عن أي مجهود من هذا القبيل. ولنعكف بالأحرى على دراسة جميع المواقف القمينة بتحريك تلك الآليات الدفاعية دراسة أكثر تقصياً وتفصيلاً.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الخامس

توجيه السيرورات الدفاعية تبعاً للحصر وللخطر

إن الأخطار الغريزية التي ضدها يسعى الأنا إلى الدفاع عن نفسه واحدة على الدوام، لكن البواعث التي تجعل الأنا يرى أن مصدر الخطر هو هذه الاندفاعة الغريزية أو تلك يمكن أن تتباين.

بواعث الدفاع ضد الدوافع الغريزية

أ ـ خوف الأنا الأعلى في عصاب الراشدين: إن الموقف المعروف لنا منذ زمن بعيد أكثر من أي موقف آخر من المواقف التي يتجلى فيها الدفاع هو ذاك الذي على أساسه يتكون عصاب الراشدين. وهاكم كيف تجري الأمور هنا: إن رغبة من الرغبات الغريزية قد تتطلع إلى الدخول في مجال الشعور وإلى الفوز بإشباع بمساندة من الأنا. وقد يقبل هذا الأخير بذلك عن طواعية، ولكن الأنا الأعلى يبدي اعتراضاً. عندئذ يذعن الأنا للسلطة الأعلى، ويدخل بامتثال في صراع مع الحفزة الغريزية، برغم كل العواقب التي يمكن أن تترتب على هذا الصراع. والأمر الذي له دلالته هنا أن الباعث الذي يمتثل له الأنا في نصبه لدفاعاته لا ينبع منه هو، كما أنه لا يعدّ الدافع الغريزي الذي يحاربه خطِراً. فهذا الأخير لا يصبح منذراً بالخطر إلا لأن الأنا الأعلى يمنعه من إشباع نفسه وإلا لأنه لو فرض نفسه فرضاً لأشعل نار صراع محتوم بين الأنا والأنا الأعلى. إذاً، فأنا العصابي يهاب الدوافع الغريزية لخوفه من الأنا الأعلى، وإنما تحت ضغط هذا الأخير يحرّك الأنا آلياته الدفاعية.

عندما يتركز اهتمامنا على دفاع راشد معصوب ضد دوافعه الغريزية، نجدنا منقادين إلى اعتبار الأنا الأعلى قوة مخيفة. وبالفعل، إنه يتبدى علة كل عصاب،



وزارع الفتنة الذي يعارض كل تفاهم ودّيٍّ بين الأنا والدافع الغريزي. إنه يمثِّل مطالب نظام مثالي يحظر الجنسية ويصم العدوانية بأنها مضادة للمجتمع. وهو يطالب، في شطط لا يتمشى والصحة النفسية، بالقطاعة الجنسية وتقييد العدوانية، ويجرِّد الأنا من كل استقلال، ويخفضه إلى مجرد أداة منفذة لأوامره، مؤلباً إياه على هذا النحو على دوافعه الغريزية وحارماً إياه من كل فرصة للاستمتاع. وتحدو بنا دراسة الدفاعات كما تتجلى في أعصبة الراشدين إلى أن نعير انتباهاً خاصاً، في أثناء العلاج، لتحليل الأنا الأعلى. فكل تقليص له، وكل إضعاف، بله إلغاؤه إلغاءً تاماً، على حدّ ما يذهب بعضهم إلى الافتراض، من شأنه أن يخفف عن الأنا وأن يجلب له، في الصراع العصابي، قدراً ـ ولو معلوماً ـ من التسكين والانفراج. وهذا التصور للأنا الأعلى باعتباره مسبِّب الاضطرابات العصابية كافة من شأنه أيضاً أن يبعث آمالاً عراضاً في ما يتصل بأصول الوقاية من الأعصبة. فإن يكن مردُّ العصاب إلى أنا أعلى صارم، فما على المربين والحالة هذه إلا أن يتحاشوا كل ما من شأنه أن يشجِّع على تكوين أنا أعلى مفرط في تزمُّته. وعليهم من ثم أن يحرصوا على أن تبقى مناهجهم التربوية، التي يستبطنها الأنا الأعلى فيما بعد، بعيدة عن التشدد؛ والقدوة التي يضربها الوالدان والتي يستحوذ عليها الأنا الأعلى بالتماهي، يجب أن تقدِّم نموذجاً، لا لأخلاق متزمتة يعسر التقيُّد بها، بل لواقع الضعف البشري والموقف المتسامح إزاء الدوافع الغريزية. ومن الواجب أن تترك للطفل فرصة لتوجيه عدوانيته نحو الخارج حتى لا تجد نفسها وقد سُدَّت عليها السبُل فتنقلب ضد الداخل حيث سيبادر الأنا الأعلى إلى صبغها بصبغة القسوة. وإذا ما تمخضت التربية عن مثل هذه النتائج الطيبة، فقد يكون لنا أن نفترض أن الأفراد الذين أُنشئوا على أساسها سيكونون مبرئين من الحصر، خالين من العصاب، قادرين على الاستمتاع وعلى النجاة بأنفسهم من عذابات الصراعات الداخلية[1]. بيد أن التجربة تفيدنا مع ذلك أن هذا الأمل في الوصول إلى اجتثاث شأفة الأعصبة من الحياة البشرية بطريق التربية أقرب إلى أن يكون من الوهم، وهو سرعان ما يخيب من الناحية النظرية منذ أول

---

١ ـ هذه الآمال عبَّر عنها بمنتهى الحماسة فلهلم رايخ، وشاطره فيها كثيرون غيره.



خطوة نخطوها في البحث التحليلي النفسي.

ب ـ الدفاع من جراء الخوف الفعلي في العصاب الطفلي: تظهر دراسة الدفاع في عصاب طفلي[٢] أن الأنا الأعلى ليس بحال من الأحوال عاملاً لا غنى عنه في تكوين هذا المرض. ولئن كان العصابي الراشد يكافح رغباته الجنسية والعدوانية كيما يتحاشى كل صراع مع أناه الأعلى، فإن الطفل الصغير يسلك مسلكاً مماثلاً إزاء حفزاته الغريزية كيلا ينتهك تحظيرات والديه القاطعة. إن أنا الطفل الصغير، شيمته في ذلك شيمة أنا الراشد، لا يكافح بطوع مشيئته دوافعه الغريزية؛ كذلك إن الباعث الذي ينصاع له في نصبه لدفاعاته لا يكمن فيه هو نفسه. فلئن كان يعدّ الدافع الغريزي خطراً، فذلك لأن من يتولون تربيته يحظرون عليه إشباعه. وكل طفحة لهذا الدافع الغريزي تستتبع تقييدات وتهديدات وعقوبات. ويلعب خوف الخصاء لدى الصبي الصغير دوراً مماثلاً لذاك يلعبه الحصر الأخلاقي لدى الراشد المعصوب. فإنما يخاف الطفل الدافع الغريزي لأنه يخاف العالم الخارجي: فدفاعه ضد الدوافع الغريزية يتم إذاً تحت ضغط العالم الخارجي، أي من جراء خوف فعلي.

إننا نلاحظ أن الأنا الطفلي الذي يعذّبه الحصر الفعلي يولّد نفس الأرهبة والأعصبة الوسواسية والأعصبة الهستيرية والسمات الطبعية العصابية التي تُلحظ لدى الراشدين الذين تنجم هذه الأعراض عندهم عن الخوف من الأنا الأعلى. وهذا ما يُفقِد دور الأنا الأعلى بعضاً من أهميته في نظرنا. فنحن نتبيَّن عندئذ أننا عزونا إلى الأنا الأعلى ما كان ينبغي عزوه في الواقع إلى حصر الأنا نفسه. وفيما يتصل بتكوين الأعراض فليس من المهم أن نعرف مما يخاف الأنا؛ بل ثمة واقعة تبقى هي الأساسية: وهي أن تحريك السيرورات الدفاعية مردّه إلى الحصر الذي يستشعره الأنا تارة إزاء تهديدات الخارج، وطوراً إزاء الأنا الأعلى. والعرَض، الذي هو النتيجة الأخيرة للسيرورة الدفاعية، لا يمكننا بصورة من الصور من تحديد نوع حصر الأنا الذي نجم عنه.

---

٢ ـ فرويد: **الكفّ، العرَض، الحصر**، الأعمال الكاملة، م١٤.



إن دراسة هذا الموقف الدفاعي الثاني ـ الدفاع ضد الدوافع الغريزية من جراء خوف فعلي ـ تتأدى بنا إلى تعظيم أهمية التأثير الذي يمارسه العالم الخارجي على الطفل، وتبتعث فينا من جديد الأمل في اكتشاف وقاية فعالة من الأعصبة. لقد نوَّه بعضهم بأن صغار الأطفال يعانون في أيامنا هذه من خوف موضوعي ما عاد له ما يبرره على الإطلاق. فالعقوبات التي يتوجسون خيفة منها من جراء إشباع غريزي تكاد أن تكون منعدمة الوجود في حضارتنا. فقد بطل اللجوء إلى الخصاء عقاباً على المتع الجنسية المحظورة، كما بطل اللجوء إلى البتر عقاباً على الأفعال العدوانية. بيد أن مناهجنا التربوية حافظت على شبه باهت بتلك العقوبات الهمجية للأزمنة الغابرة، ولكنه كافٍ بالقدر اللازم لإعادة تنشيط بعض التوجسات والمخاوف المبهمة، كمتخلفات ورواسب تتوارثها الأجيال. ويرتئي بعض المتفائلين أنه لا بدّ أن يكون في الإمكان ذات يوم محو هذه الذكريات القديمة عن تهديدات الخصاء وعن الأساليب العنيفة، هذه الذكريات التي تنعكس، إن لم نقل في مناهج التربية المتبعة حالياً، فعلى كل حال في مسلك الراشدين ولهجتهم. وأصحاب هذا الرأي يأملون في أن يبتّوا بصورة فعلية الصلة التي تربط مناهجنا العصرية بتلك المخاوف العقابية القديمة قدم الزمن، ويزعمون أنه سيكون في الإمكان عن هذا السبيل التخفيف من مخاوف الطفل الفعلية، وبالتالي إحداث تغيير جذري في العلاقات بين أناه ودوافعه الغريزية، بحيث يتمّ في نهاية المطاف تحرير منطقة واسعة من هيمنة العصاب الطفلي.

ج ـ **الدفاع ضد الدوافع الغريزية خوفاً من قوتها:** لكن هنا أيضاً تقوِّض الخبرة التحليلية النفسية جميع تلك الآمال. فالأنا البشري، بحكم طبيعته بالذات، لا يقدم البتة تربة مناسبة لإشباع لا تشويه شائبة للدوافع الغريزية. وبالفعل، إن الأنا لا يبدي تعاطفاً مع الدوافع الغريزية إلا ما دام غير متمايز بعد عن الهذا. أما متى ما انتقل الأنا من السيرورة الأولية إلى السيرورة الثانوية، من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع، فإنه يغدو، كما أسلفنا الوصف، أرضاً غريبة بالنسبة إلى الدوافع الغريزية. فريبته حيال المطالب الغريزية تبقى ماثلة دواماً، وإن كانت تخفى ـ أو تكاد ـ عن الإدراك في الشروط العادية، ولكنها تحتجب عن النظر

مكتبة الفكر الجديد

بصورة شبه تامة من جراء الصراع الأكثر صخباً الذي يشنُّه الأنا الأعلى والعالم الخارجي، على أرض الأنا، ضد حفزات الهذا الغريزية. وهذه العداوة الخرساء ضد الحفزات الغريزية تتزايد شدة حتى لتنقلب إلى حصر متى ما شعر الأنا بأن حماية تلك القوى العليا قد رُفعت عنه أو متى ما شطت الحفزات الغريزية شططاً مسرفاً. «ليس من السهل أن نحدد طبيعة ما يمكن أن يخشاه الأنا من الخطر الخارجي أو من الخطر الليبيدوي في الهذا؛ وإنما نعلم فقط أنه الخوف من الانسحاق أو الفناء، ولكن ما من سبيل إلى تحديده تحليلياً»[٣]. ويرى روبرت فالدر WALDER[٤] أن الأنا يخاف «أن يرى كل تنظيمه يتهاوى أو يكتسح»[٥]. وأثر الحصر الذي يستشعره الأنا إزاء قوة الدوافع الغريزية يماثل الأثر الذي يحدثه الخوف من الأنا الأعلى أو الخوف حيال خطر فعلي، وهما الاستجابتان اللتان درسناهما حتى الآن. فآليات الدفاع تُستنفر ضد الدافع الغريزي وتتأدى، كما نعلم من قبل، إلى تكوين الأعصبة والطباع العصابية. ولدى الأطفال بوجه خاص يسهل علينا أن ندرس هذا الدفاع ضد الدوافع الغريزية بسائق الخوف من شدّتها، وعلى الأخص في تلك الحالات التي يجاهد فيها علم التربية والعلاج التحليلي النفسي جنباً إلى جنب لاستبعاد كل مناسبة من شأنها أن تبتعث الحصر الواقعي والحصر الأخلاقي، نظراً إلى أن هذين الحصرين يحجبان بصفة عامة الدفاع ضد الحفزات الغريزية. وفي طور لاحق من العمر نستطيع أن نلاحظ آثار هذا الحصر الغريزي، وهو في أوج عمله، في كل مرة تهدد فيها زيادة مفاجئة في طاقة الدوافع الغريزية بالإطاحة بالتوازن ما بين الهيئات النفسية. وهذا ما يحدث في العادة في بعض أطوار التحولات

---

٣ ـ **الأنا والهذا**، الأعمال الكاملة، م١٣، وفيه تحذير من عدم المغالاة بدور الأنا الأعلى في الكبت، وتنويه بأهمية العوامل الكمية، من قبيل فرط شدة الإثارة.

٤ ـ روبرت فالدر: محلل نفسي نمساوي (١٩٠٠ ـ ١٩٦٧). درس على يد آنا فرويد وانتمى إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية فراراً من النظام النازي بسبب أصوله اليهودية. من مؤلفاته: **المظاهر السيكولوجية للحرب والسلم**، **التقدم والثورة**، **النظرية الأساسية للتحليل النفسي**. «م».

٥ ـ روبرت فالدر: **مبدأ الوظيفة التعددية**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م١٦، ١٩٣٠.



الفيزيولوجية، كما في مرحلتي البلوغ وانقطاع الطمث مثلاً، وهذا ما يحدث أيضاً باتولوجياً في بداية اندفاعة ذهانية.

بواعث أخرى للدفاع ضد الدوافع الغريزية

إلى هذه البواعث الرئيسية الثلاثة للدفاع ضد الدوافع الغريزية (الدفاع خوفاً من الأنا الأعلى، والدفاع من جراء خوف فعلي، والدفاع خوفاً من قوة الدوافع الغريزية) تنضاف لاحقاً البواعث المنبثقة عن حاجة الأنا إلى التركيب. فالأنا الراشد يتطلب قدراً من التناغم بين حفزاته. ومن هنا كان منشأ جميع المنازعات بين ميول ونزعات متضادة من قبيل الجنسية المثلية التي وصفها ألكسندر تفصيلياً[٦]. وإنما على قوة التوظيفات يتوقف في كل مرة رفض إحدى الحفزتين المتضاربتين أو قبولها أو إجراء تسوية بينهما.

والباعثان الأولان من بواعث الدفاع التي درسناها (الدفاع خوفاً من الأنا الأعلى والدفاع من جراء خوف فعلي) لهما على كل حال أصل مشترك. فلنفترض أن الحفزة الغريزية توصلت، رغماً عن معارضة الأنا الأعلى أو العالم الخارجي، إلى إشباع نفسها، فما سيحدث في هذه الحال؟ سيكون هناك بادئ ذي بدء، وبلا ريب، تمخُّض للذة، ولكن سيعقبه تمخُّض للكدر من جراء مشاعر الإثم التي تنبثق من اللاشعور أو بسبب العقوبات التي يفرضها العالم الخارجي. وعلى هذا إن الأنا، عندما ينصب دفاعاته بسائق أحد هذين الباعثين، فإنما يخضع لمبدأ الواقع. ويكون الهدف الأول هو تحاشي هذا الكدر الثانوي.

بواعث الدفاع ضد الانفعالات العاطفية

لبواعث مماثلة تماماً يدافع الأنا عن نفسه ضد الانفعالات العاطفية. فحينما

٦ ـ ف. ألكسندر(*): **العلاقات بين المنازعات البنوية والغريزية في المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م٢٠، ١٩٣٤، ص ٣٣.

(*) فرانز ألكسندر: طبيب ومحلل نفسي أمريكي من أصل مجري (١٨٩١ ـ١٩٦٤). أنشأ في شيكاغو معهداً للتحليل النفسي وقال بتجديد التحليل النفسي ليتلاءم مع معطيات الواقع الأمريكي. من مؤلفاته: **مبادئ التحليل النفسي، الطب البدني النفسي**. «م».



ينتصب الأنا، لسبب من الأسباب التي تقدمت الإشارة إليها، ضد الدوافع والحفزات الغريزية، يرى نفسه مضطراً أيضاً إلى الاتقاء من الانفعالات العاطفية المرتبطة بهذه الأخيرة. وليس من المهم أن تكون هذه الانفعالات العاطفية لاذّة أو مؤلمة أو خطرة بالنسبة إلى الأنا، إذ إن الأنا لا يستشعرها أبداً كما هي على حقيقتها. فحينما يكون الانفعال العاطفي مرتبطاً بسيرورة غريزية محظورة، فإن مصيره يتقرر مسبقاً، إذ إن هذا الارتباط كافٍ بحدّ ذاته ليدفع بالأنا إلى أخذ الحيطة منه.

إن بواعث الدفاع هذه ضد الانفعال العاطفي تنبع ببساطة من المنازعات بين الأنا والدافع الغريزي. لكن هنالك علاقة أكثر بدائية بين الأنا والانفعالات العاطفية، علاقة لا تجد نظيراً لها في العلاقة القائمة بين الأنا والدافع الغريزي. فإشباع الدافع الغريزي يكون على الدوام لاذاً في أول الأمر. أما الانفعال العاطفي فقد يكون من أول الأمر أيضاً لاذاً أو مؤلماً تبعاً لطبيعته. وفي الحالات التي لا يكون فيها لدى الأنا من اعتراض على سيرورة غريزية بعينها، ومن ثم لا يكون له من باعث لاعتراض سبيل الانفعال العاطفي ومكافحته، فإنه يقرر موقفه من الانفعال العاطفي تبعاً لمبدأ اللذة وحده. فهو يستقبل بترحاب الانفعال العاطفي اللاذ، ويدافع عن نفسه ضد الانفعال الوجداني المؤلم. وحتى حيثما يكون لزاماً على الأنا، من جراء كبت دافع من الدوافع الغريزية، وبسائق من حصره وشعوره بالذنب، أن يقف موقفاً مناوئاً من الانفعال العاطفي، فإننا نظل نلحظ قرائن معينة على أن هذا الاختيار تمّ وفق مبدأ اللذة. فالأنا يكون أكثر استعداداً بكثير لمكافحة الانفعالات العاطفية المرتبطة بدوافع غريزية جنسية محظورة إذا ما كانت هذه الانفعالات العاطفية من طبيعة منغِّصة، من قبيل الألم والأسى والحداد. وبالمقابل، إنه يكون مستعداً لأن يتحمل لمدة أطول بعض الشيء بعض الانفعالات العاطفية الموجبة الأخرى، على الرغم من الحظر المضروب عليها، لا لشيء إلا لأنها من طبيعة لاذة. وقد يضطر الأنا في بعض الأحيان إلى أن يتسامح مع هذه الانفعالات العاطفية لفترة وجيزة من الزمن في حال اقتحامها بصورة مباغتة مسرح الشعور.

هذا الدفاع البسيط ضد الانفعالات العاطفية المؤلمة في أصلها يناظر الدفاع ضد التنبيهات المكدرة التي يتلقاها الأنا من الخارج. وسوف نرى لاحقاً أن



الأساليب التي يستخدمها الأطفال في هذه الأشكال البدائية من الدفاع، والمحكومة بمبدأ اللذة وحده، تكون هي نفسها ذات طابع أكثر بدائية.

التثبُّت من وجهات نظرنا عن طريق معطيات التحليل النفسي

إن جميع الوقائع التي نلقى أشد العنت في تجميعها وتصنيفها لنعرضها عرضاً نظرياً مقبولاً قابلة لحسن الحظ، بدون أدنى صعوبة، لأن تُكشف ويقام عليها البرهان في أثناء جلسات التحليل النفسي. ففي كل مرة تتيح لنا فيها المعالجة التحليلية أن نجبر سيرورة من السيرورات الدفاعية على التراجع القهقرى نكتشف مختلف العوامل التي أسهمت في تحريك هذه الآلية. وشدة المقاومة التي تواجهنا في التحليل النفسي حينما نحاول أن نزيل الكبوتات هي لنا خير مقياس لكمية الطاقة التي استخدمت في نصب هذه الكبوتات. وبالمثل، إن الحالة الانفعالية التي تتبدى علائمها لدى المريض حينما نستاق إلى شعوره في أثناء العملية التحليلية ما كان طاله الكبت من قبل تميط لنا اللثام عن باعثه إلى الثورة على الحفزة الغريزية. فإذا ما فككنا دفاعاً عصابياً فرضه الأنا الأعلى، ساور المريض شعور بالذنب، أي خوف من الأنا الأعلى. وإذا ما ألغينا تحظيراً صادراً عن العالم الخارجي، تبدَّت لدى المريض علائم حصر موضوعي. وإذا ما اتفق لنا، في أثناء العملية التحليلية، أن نفخنا الحياة من جديد في بعض الانفعالات العاطفية المؤلمة التي كان الطفل حامى عن نفسه ضدها وانتبذها، فإنه يستشعر كدراً معادلاً لذاك الذي كان أجبر أناه على خوض غمار الكفاح. وحينما ندرس أخيراً سيرورة دفاعية كان ابتعثها الخوف من قوة الدوافع الغريزية، فإن فسائل الهذا، التي ظلت إلى ذلك الحين مكبوحة، تدلف بلا عائق إلى أرض الأنا.

الآفاق المفتوحة أمام العلاج التحليلي

إن هذا العرض للسيرورات الدفاعية يظهر للعيان بجلاء جميع النقاط التي يمكن للعلاج التحليلي أن يشنّ هجومه منها. فالتحليل يفكك الدفاعات، ويرغم الدوافع الغريزية والانفعالات العاطفية المحظورة على أن تعود شعورية شأنها من قبل، ثم يترك بعد ذلك للأنا والأنا الأعلى مهمة إرساء التفاهم معها على أسس



أمتن وأصلب. وأكثر ما يكون توقع التطور المقبل للمرض تفاؤلاً عندما يكون الدفاع ضد الدوافع الغريزية قد تمّ بسائق الخوف من الأنا الأعلى. فنظراً إلى أن الصراع يكون هنا داخلياً صرفاً، فإن البلوغ إلى التراضي والتسوية بين مختلف الهيئات النفسية لا يكون متعذراً، وعلى الأخص في الحالات التي يغدو فيها الأنا الأعلى أكثر انفتاحاً على مقتضيات العقل بفضل إماطة اللثام عن التماهيات التي على أساسها جرى تشييده، من جهة أولى، وكذلك بفضل تحليل العدوانية التي كان هذا الأنا الأعلى تبنّاها لحسابه، من جهة ثانية. فإذا ما انخفضت على هذا النحو درجة الخوف الذي يستشعره الأنا إزاء الأنا الأعلى، لا يعود الأنا بحاجة إلى اللجوء إلى أساليب دفاعية قد تترتب عليها عواقب باتولوجية.

ولكن حتى عندما يكون حصر واقعي هو الذي تأدى إلى اتخاذ موقف في العصاب الطفلي، يمكن للعلاج التحليلي أن يأمل في نتائج طيبة للغاية. وأبسط طريقة يمكن أن يلجأ إليها المحلّل ـ وهي أكثر الطرق ابتعاداً عن المبادئ التحليلية النفسية ـ حال فراغه من تقويض السيرورة الدفاعية لدى الطفل، هي أن يحاول التأثير على الواقع من خلال تدخله لدى المربين كيما يعمل هؤلاء على تقليص الحصر الذي يكون له مبرره في هذه الحال؛ وعندئذ يقف أنا الطفل من الدافع الغريزي موقفاً أقل تصلباً ولا تعود تساوره حاجة إلى خوض غمار صراع حامي الوطيس إلى هذا الحدّ. وفي حالات أخرى، يظهِر لنا التحليل أن المخاوف التي تمخضت عن صراع دفاعي تنتمي إلى واقع باد واندثر منذ زمن بعيد: فيتبين الأنا أنه لم يعد لديه مسوِّغ للخوف. وفي حالات أخرى أيضاً، يكون الخوف المبرر في الظاهر ناشئاً عن تصور مغالى فيه، فجّ، محرَّف، عن الواقع، ومستنداً إلى خبرات فعلية ولكنها موغلة القدم في الزمن ولم يعد لها من وجود الآن. ولا يعتم التحليل أن يقيم الدليل على أن تلك «المخاوف الواقعية» المزعومة مستوهمة استيهاماً، وأنه لا جدوى بالتالي من تحريك الآليات الدفاعية ضدها.

وعندما يتبنى الأنا موقفاً دفاعياً ضد انفعال عاطفي ما بهدف تحاشي الكدر، يجدر بنا أن نضيف شيئاً ما إلى التحليل كيما يحرز نتائج نهائية. فعلى الطفل أن يتعلم كيف يتحمل، بدون اللجوء الفوري إلى حماية الأنظمة الدفاعية، كميات



متزايدة باطراد من الكدر. ولنقرّ على كل حال بأن هذه المهمة تقع، من الزاوية النظرية، على كاهل المربي أكثر منها على كاهل المحلِّل النفسي.

ولا يصطدم العلاج التحليلي بصعوبات كأداء إلا في بعض الحالات الباتولوجية التي يخوض فيها المريض غمار الكفاح مدعوماً بخوفه من قوة دوافعه الغريزية. وهنا يتعيَّن علينا ألا نكون مسرفين في التفاؤل بقدرتنا على مساعدة الأنا بالتوازي مع تقويضنا لتدابيره الدفاعية. فقد درجنا في أثناء العملية التحليلية على طمأنة المريض، الذي يتوجس خيفة من استجلاب الحفزات الغريزية إلى شعوره، بتوكيدنا له أن كل حفزة مكبوتة تغدو أقل خطورة وأكثر قابلية للضبط مما لو بقيت لاشعورية. وإنما فقط في تلك الحالات التي يكون فيها الباعث إلى الدفاع هو الخوف من قوة الحفزات الغريزية ، تكون حظوظ المحلِّل في الوفاء بوعده أضأل ما يمكن. فعندما يخوض الأنا، المهدَّد بأن يطغى عليه الهذا، غمار صراع مستميت وقانط ضد هذا الأخير، كما في الهجمات الذهانية على سبيل المثال، فإن الأمر يكون في المقام الأول أمر ظاهرة كمية. ولا يحتاج الأنا في مثل هذا الصراع إلا إلى أن يُقوَّى ويُشدَّ في أزره؛ فإذا وُفِّق التحليل إلى ذلك عن طريق استياق مضامين الهذا اللاشعورية إلى مجال الشعور، كان بالقدر نفسه معالجة شافية. ولكن إذا كان كل شأن التحليل، عندما يستاق إلى مجال الشعور أنشطة الأنا اللاشعورية، أن يكشف عن السيرورات الدفاعية وأن يجعلها من ثم عديمة الفاعلية، فلن يكون قد فعل أكثر من أن فتّ في عضد الأنا وزاده ضعفاً ويسَّر السبيل أمام السيرورة المرَضية.



القسم الثاني

أمثلة على تحاشي الكدر والأخطار الفعلية

(المراحل التمهيدية للدفاع)

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

الفصل السادس

الإنكار بالتوهم

إن جميع طرائق الدفاع التي تسنى للتحليل النفسي أن يزيح عنها الستار إلى يومنا هذا لا ترمي إلا إلى هدف واحد يتيم: مؤازرة الأنا في صراعه ضد الحياة الغريزية. ويكون اللجوء إلى هذه الطرائق الدفاعية بدفع من ثلاثة أنواع رئيسية من المخاوف التي تعتري الأنا: الخوف من الدوافع الغريزية، الخوف الواقعي، وخوف الضمير. ثم إن أي صراع بسيط بين حفزات متضادة يكفي لتحريك آلية من آليات الدفاع.

لقد سلكت المباحث التحليلية في تطورها المنحى التالي: فقد انطلقت من الصراعات بين هيئات الهذا والأنا (الهستيريا، العصاب الوسواسي، إلخ)، وانتقلت إلى الصراع الذي يفرّق بين الأنا والأنا الأعلى (السويداء)، ومن ثم إلى دراسة الصراعات بين الأنا والعالم الخارجي (انظر: الرهاب الطفلي من الحيوانات في **الكفّ، العرَض، الحصر**). وفي جميع هذه المواقف الصراعية يتأبى الأنا عن استقبال شذرة من الهذا. وتكون عوامل الدفاع والعوامل التي يُنصب ضدها هذا الدفاع ثابتة على الدوام، على حين تكون العوامل المتغيِّرة هي البواعث التي تحدو بالأنا إلى اللجوء إلى الإجراءات الدفاعية. وغرض كل فعل دفاعي في نهاية الأمر تأمين سلامة الأنا وتحاشي الكدر.

لكن ليس فقط ضد كدر داخلي يدافع الأنا عن نفسه. ففي ذلك الزمن المبكر عينه الذي يتعلم فيه كيف يتعرف التنبيهات الداخلية الخطرة، تحصل له المعرفة أيضاً بالكدر الآتي من الخارج، ويكون على تماس وثيق مع الوسط الذي يستمدّ منه المواضيع التي يحبها، والانطباعات التي يسجّلها إدراكه ويتمثّلها عقله.



وكلما قدَّم له العالم الخارجي المزيد من الملذات والفوائد المتنوعة، تعاظمت أيضاً احتمالات الكدر الخارجية المصدر. إن أنا الطفل الصغير يعيش بعد وفقاً لمبدأ اللذة، ويلزمه وقت طويل قبل أن يتعلم كيف يحتمل الكدر. ويكون الفرد، في هذه الفترة من نموه، أضعف بعد من أن ينشط بفعالية، ومن أن يحمي نفسه بقواه البدنية من العالم الخارجي، ومن أن يغيِّر في هذا العالم وفق ما يريد؛ وفي الوقت الذي يكون متعذراً فيه بصفة عامة على الطفل من الناحية البدنية أن يهرب من الكدر، فإنه يكون عاجزاً أيضاً من الناحية الإدراكية عن تصور الضرورة عقلانياً وعن الخضوع لها. وفي مثل هذا الطور من عدم النضج ومن التبعية، يجاهد الأنا أيضاً، فضلاً عن محاولاته الرامية إلى السيطرة على التنبيهات الغريزية، ليحامي عن نفسه بمختلف الوسائل ضد الكدر وضد الأخطار الواقعية التي تتهدده.

بما أن نظرية التحليل النفسي تعود في أصولها إلى دراسة الأعصبة، فمفهوم لنا والحال هذه أن تكون المشاهدات والملاحظات التحليلية قد تركزت، في المقام الأول، على الصراع الداخلي الذي يدور بين الدافع الغريزي والأنا والذي يتمخض عن تكوين الأعراض العصابية. والمحاولات التي يبذلها الأنا الطفلي ليتحاشى الكدر بمقاومته المباشرة لانطباعات العالم الخارجي تدخل في مضمار علم نفس الحالات السوية. فعلى الرغم من أن هذه المحاولات يمكن أن تترتب عليها نتائج جسام فيما يتصل بتكوين الأنا والطبع، فإنها لا تكون على الإطلاق مولِّدة للمرض. وإنما لهذا السبب نجد أن الدراسات السريرية التحليلية، التي تعالج نشاط الأنا هذا، لا تعتبره إلا سيرورة جانبية.

لنعد أدراجنا مرة أخرى إلى رهاب هانز الصغير[1]. فنحن نجد فيه مثالاً سريرياً على سيرورات دفاعية موجهة ضد الداخل وضد الخارج في آن معاً. فعصاب هذا الصبي الصغير كان يرتكز، فيما يقال لنا[2]، إلى حفزات سوية ناجمة عن عقدته

١ ـ هانز الصغير: بطل أول مشاهدة تحليلية أجراها فرويد على الأطفال. وقد فصَّل هذه الحالة في دراسته التي تحمل عنوان «**هانز الصغير:تحليل رهاب لدى صبي في الخامسة من العمر**». ثم عاود الكرة في **الكفّ، العرَض، الحصر**. «م».

٢ ـ انظر بهذا الخصوص **الكفّ، العرَض، الحصر**.



الأوديبية. كان يحب أمه فاتخذ من أبيه، بسائق الغيرة، موقفاً عدوانياً دخل ثانوياً في نزاع مع المحبة التي كان يكنّها له. وقد ابتعثت هذه العدوانية خوفاً من الخصاء، عاشه الصبي الصغير على أنه حصر واقعي، فحرَّك جميع آليات الدفاع ضد الدوافع الغريزية. والأساليب التي استخدمها عصابه هي التالية: النقل (من الأب إلى حيوان الحصر)، والقلب إلى الضد (هانز المهدِّد لأبيه يخشى أن يُتهدَّد من قبل أبيه). وإلى هذبن الأسلوبين انضاف النكوص نحو الطور الفموي (فكرة أن يُعضّ)، فاكتملت بذلك اللوحة. وقد حققت جميع هذه الآليات على أتمّ وجه هدفها: طرد الحفزة الغريزية. فحبّه المحظور لأمه وعدائيته الخطرة إزاء أبيه تلاشيا تماماً من شعوره. وقد ارتبط عنده خوف الخصاء، المعزو إلى أبيه، بعرَض الخوف من الأحصنة. وعن طريق آلية الرهاب أفلح الكفّ العصابي في وضع حدٍّ للحصر: فقد امتنع هانز الصغير عن الخروج من البيت.

لقد كان على تحليل هانز الصغير أن يعمل إذاً على إلغاء مفعول آليات الدفاع تلك. وهكذا رُدّت الحفزات الغريزية إلى شكلها الأول، كما رُدّ الحصر من الأحصنة إلى علته الفعلية: الأب. وبعدئذ جرى نقاش للخوف وتخفيف له وبيان لعدم استناده إلى أساس فعلي. وأمكن لتعلق الصبي الحبي بأمه أن ينبعث من جديد، وأن يترجم عن نفسه بقدر أكبر بقليل في الشعور، وأن يتحرر، بفضل إلغاء الخوف من الخصاء، من طابعه الخطر. وإذ تبدد هذا الخوف، فقد النكوص الذي كان تأدى إليه مبرر وجوده، فاستأنف النمو باتجاه الطور القضيبي مساره السوي، وكان بالتالي شفاء للطفل من عصابه.

وكذلك كان مصير السيرورات الدفاعية التي كانت موجَّهة عنده ضد الدوافع الغريزية.

ولكن حتى بعد أن أتاح التأويل التحليلي للحياة الغريزية لهانز الصغير أن تستأنف مسارها السويّ، فإن الطفل لم يستعد بعد توازنه الأمثل. فقد كان العالم الخارجي يواجهه باستمرار بواقعتين فعليتين تقعان من نفسه موقعاً مستكرهاً. فجسمه وعلى الأخص قضيبه بقيا على نحو ظاهر للعيان أصغر حجماً من جسم أبيه وقضيبه، مما خلع على الأب صفة المنافس الذي لا يجارى. وعليه، كان لهانز



أسباب وجيهة ليقيم على حسده وغيرته. وناهيك عن ذلك، انصبت انفعالاته العاطفية هذه على أمه وأخته أيضاً. وبالفعل، لما رأى هانز أمه تبذل لأخته الصغيرة عناية بدنية، حسدهما على اللذة التي تتقاسمانها، بينما يقتصر هو على دور المتفرج. فكيف لنا أن نتوقع أن يصدع طفل في الخامسة من العمر بأمر إحباطات كهذه؟ وكيف لنا أن نفترض فيه قدراً كافياً من التعقل والاستبصار ليقبل بهذه الضروب من الحرمان وليعلل نفسه بوعود بالإشباع في مستقبل لا يزال بعيداً غاية البعد؟ وكيف لنا أن نتصوره قادراً على الارتضاء بهذا الكدر بالكيفية عينها التي أبدى بها استعداده للقبول الشعوري بوقائع حياته الجنسية الطفلية عندما قُيِّضت له المعرفة بها؟

إن العرض المفصل لحالة هانز الصغير في **تحليل رهاب لدى صبي صغير في الخامسة من العمر**[٣] يزوِّدنا بمزيد من المعلومات حول المصير الذي آل إليه هذان الإحباطان. ففي ختام تحليله، روى هانز حلمين من أحلام اليقظة: تخيُّله بأن له عدداً من الأطفال يتولى تنظيفهم وتمسيحهم في المرحاض، وبعد ذلك مباشرة تخيُّله قصة السمكري الذي ينزع بالكماشة مؤخرة الصبي وقضيبه ليعطيه مكانهما مؤخرة وقضيباً أكبر وأحسن. ولم يشقّ على والد هانز ـ وكان هو محلِّله ـ أن يتبيَّن في هذين التخييلين تحقيقاً لرغبتين غير مشبعتين من رغبات الطفل. فقد أمسى هانز يحوز الآن، في الخيال على الأقل، عضواً مشابهاً لعضو أبيه، وأطفالاً يستطيع أن يفعل لهم ما تفعله أمه لأخته الرضيعة.

لقد كان هانز الصغير تخلص من رهابه من الأماكن المكشوفة حتى قبل أن يتخيل ذينك التخييلين، وهاهو ذا الآن يستعيد، بفضل معطيات جديدة، مزاجه المرح. فقد أعانه التخييلان على التلاؤم مع الواقع كما كان تلاءم من قبل مع حفزاته الغريزية. ونحن نلاحظ أن الاستبصار الشعوري بالضرورة المحتومة لم يلعب في هذه الحالة أي دور. **فقد أنكر هانز الواقع بمساعدة تخييلاته**، وقولبه وفق مراده وطبقاً لرغباته؛ وعلى هذا النحو فحسب بلغ إلى القبول به.

٣ ـ فرويد، ١٩٠٩: ANALYSE DER PHOBIE EINES FUNFJARIGEN KNABEN ، **الأعمال الكاملة**، م٧.



لقد بدا، في أثناء تحليل هانز الصغير، أن دراسة السيروررات الدفاعية تشير إلى أن مصير عصابه تقرر ساعة حوَّل إلى الحصان العدوانية والخوف اللذين كان أبوه يوحي بهما إليه. غير أن هذا الانطباع خداع: فمثل هذا الإبدال، الذي يُحِلّ حيوانات محل الكائنات البشرية، لا يمثِّل بحدّ ذاته سيرورة دفاعية، وهو متواتر الحدوث في مجرى التطور الطفلي السوي. وفضلاً عن ذلك، إنه يتمخض، حيثما حدث، عن نتائج شديدة التباين.

لقد تولجت، على سبيل المثال، بالتحليل صبياً في السابعة من العمر كان يعلِّل نفسه بالتخييل الآتي: إن لديه أسداً مروَّضاً. فهذا الحيوان، الذي يرعب سائر الناس، لا يحب أحداً سوى صاحبه الصغير، فيستجيب لندائه، ويتبعه ككلب صغير أينما ذهب. وكان الطفل يعنى بأسده، ويقوم على أمر إطعامه وراحته، ويهيئ له مرقداً في المساء في غرفته بالذات. وكما هي العادة في أحلام اليقظة المعتادة المتكررة، كانت طائفة من الأحداث السارة تتفرع من هذا التخييل الرئيسي. ومن جملة أحلام اليقظة هذه حلم يرى فيه الصبي الصغير نفسه وهو يذهب إلى حفلة تنكرية ويعلن لجميع الحاضرين أن الأسد الذي جاء بصحبته ما هو، في الحقيقة، سوى صديق متنكر. ولكن هذا الإعلان كاذب لأن الصديق المزعوم المتنكر ليس في الحقيقة غير أسده. وهنا كان يتهج إذ يتصور مدى الرعب الذي سيدبّ في أوصال جميع أولئك الأشخاص فيما لو كشفوا سره. وفي الوقت نفسه كان يشعر أن خوفهم لا يستند إلى أساس لأن الأسد لا يؤذي أحداً ما دام تحت سلطانه.

لقد تبيَّنت بسرعة من تحليل هذا الطفل أن الأسد بديل عن أبيه الذي كان ، كما في حالة هانز الصغير، منافساً حقيقياً له على الأم، منافساً مهاب الجانب وبغيضاً. ولدى الطفلين كليهما تمّ بطريقة واحدة تحوُّل العدوانية إلى حصر وجرى نقل الانفعال العاطفي إلى الحيوان؛ وإنما كيفية تعاملهما مع هذا الانفعال هي التي اختلفت. فهانز بنى عصابه على خوف الأحصنة، أي أنه فرض على نفسه العزوف عن دوافعه الغريزية، واستدخل الصراع بتمامه، وهرب، بوساطة الآلية الرهابية، من كل موقف يمكن أن يكون له فيه إغراء وإغواء. أما مريضي



فقد أخذ الأمور خيراً من هذا المأخذ. فنظير هانز في قصة السمكري، قنع بكل بساطة بإنكار واقعة فعلية مؤلمة بأن قلبها إلى ضدها السارّ. فصار حيوان الحصر صديقاً، ووضعت قوته في خدمة الصبي الصغير بدل أن تبقى موضوعاً لخوفه. ووحدها تفاصيل القصة التي تتحدث عن ذعر الناس الآخرين تشي بواقع أن الأسد كان فعلاً فيما سلف علة للحصر(٤).

لنسرد هنا أيضاً تخييلاً عن الحيوانات لدى مريض آخر في العاشرة من العمر. فقد لعبت الحيوانات في مرحلة بعينها من حياة هذا الطفل دوراً راجح الكفّة. كان يشغل الشطر الأكبر من أوقاته بأحلام يقظة عنها، بل إنه رسم بعض مشاهد مما كان يتخيّله. كان يتصور نفسه في هذا التخييل مالكاً لسيرك هائل، وفي الوقت نفسه مروِّضاً لحيواناته. وبفضله كانت أضرى الوحوش، تلك التي تقتل حتى الموت فيما لو كانت طليقة السراح، تتوصل إلى التفاهم فيما بينها في محبة. كان يدرِّبها، بمعنى أنه يعلِّمها ألا تهاجم بعضها بعضاً، وكذلك ألا تهاجم البشر، ولم يكن يستعمل في هذا التدريب أي سوط، بل كان يجول بين الوحوش خاوي اليدين(٥).

هنا نصل إلى النقطة الرئيسية في جميع هذه التخييلات عن الحيوانات: فذات يوم، وفي أثناء استعراض للسيرك شاركت فيه الحيوانات كلها، أطلق على حين غرة لص مختبئ بين الجمهور النار من مسدسه على مريضي. وللحال تجمعت

---

٤ ـ تروي برتا بورنشتاين(*) تخييلات صبي صغير في السابعة من العمر، وهي تخييلات كان يتمّ فيها أيضاً تحوُّل للحيوانات، لكن الحيوانات الطيبة هي التي كانت تتحول هذه المرة إلى حيوانات شريرة. وكانت الحيوانات/ الدمى التي يصفّها مساء حول فراشه وكأنها آلهة حارسة تتحالف، كل ليلة، مع غول يزمع أن ينقضّ عليه.

(*) برتا بورنشتاين: محللة نفسية بولونية (١٨٩٩ ـ ١٩٧١). تخصصت بتحليل الأطفال. تعاونت مع آنا فرويد في فيينا. هجرت أوروبا قبيل الحرب العالمية الثانية واستقرت مع أسرتها في نيويورك، وتولت التدريس في **معهد نيويورك للتحليل النفسي** وفي عيادة جامعة بال، وانتمت إلى كل من **الجمعية النيويوركية والجمعية الفيلادلفية للتحليل النفسي**. من مؤلفاتها: **رهاب الطفل في السنة الثانية والنصف من العمر، ملاحظات سريرية حول تحليل الأطفال، الاستمناء في مرحلة الكمون**. «م».

٥ ـ انظر تحليلنا لمثل هذا الترويض «السلمي» للوحوش في دراستنا عن رواية مبارك ربيع: **بدر زمانه في الأعمال النقدية الكاملة**، ج٣، منشورات مدارك، ص٧٨٥.«م».



الحيوانات كلها لتذود عنه وانقضت على اللص وأمسكت به، مع حرصها البالغ في الوقت نفسه على عدم إيذاء أحد من جمهور المتفرجين. ثم تدور التخييلات بعد ذلك حول الكيفية التي تعاقب بها الحيوانات ـ يحدوها دائماً حبها لسيدها ـ اللص، إذ أسرته وطمرته ونصبت بظفر وانتصار من أجسامها برجاً شاهق الارتفاع فوقه. وبعد ذلك اقتادته إلى عرينها حيث كان عليه أن يمضي أعواماً ثلاثة. وفي خاتمة المطاف، وقبل إطلاق سراحه، اصطفت الفيلة في صف طويل وانهالت عليه ضرباً بخراطيمها، وزجرته، وحذرته، بأصابع مرفوعة إلى الأعلى(!)، ألا يعاود أبداً الكرة. فوعد بذلك. وقال الطفل: «إنه لن يعاود الكرة أبداً ما دمت مع حيواناتي». وبعد هذا الوصف لكل ما كان على اللص أن يعانيه من جانب الوحوش، ختمت القصة المتخيَّلة بخاتمة لا تخلو من غرابة تؤكد أن الوحوش أحسنت جداً إطعام اللص في فترة أسره، فما فقد شيئاً من قوته.

إن الموقف الازدواجي من الأب، كما يعبِّر عنه تخييل الحيوانات، لم يحظَ بأكثر من إشارة تلميحية في قصة الأسد التي تخيَّلها صبي السابعة، ولكنه يبرز بجلاء أكبر بكثير في قصة السيرك. فبمقتضى أسلوب القلب إلى الضد جرى تحويل الأب، المرهوب الجانب في الواقع، إلى حيوان حامٍ في الخيال، ولكن وجه الموضوع الأبوي المرهوب الجانب استمر في الوجود من خلال صورة اللص. وفي قصة الأسد لم يكن من الواضح ضد من سيتولى البديل الأبوي حماية الصبي الصغير الذي ما زاد امتلاكه للأسد على أن رفع من قدره واعتباره في نظر الآخرين. أما في قصة السيرك فيتبدى في وضوح أن القوة الأبوية المتجسدة في الحيوانات الكاسرة إنما تفيد في الحماية ضد هذا الأب نفسه. ومن جديد تأتي الإشارة إلى الضراوة السابقة للحيوانات لتدلّ على أنها كانت فيما سلف مواضيع للحصر. فقوتها وبراعتها وخراطيمها وأصابعها المرفوعة إلى أعلى هي بالتأكيد خصائص أبوية ثمينة اختلستها المخيِّلة من الأب المحسود لتحولها إلى الصبي الصغير. وحالما امتلكها هذا الأخير غلب أباه. وبما أن الأدوار عُكست فقد حُذِّر الأب «من ألا يعاود الكرة»، وفُرض عليه أن يطلب الصفح. ولنلحظ أنه إذا كان اللص وعد الحيوانات بألا يعود ثانية إلى التعدي على الصبي، فإن أمان هذا



الأخير يبقى مرتبطاً بامتلاكه لهذه الحيوانات عينها. وفي خاتمة القصة التي تدور حول إطعام اللص ينتصر الوجه الآخر للازدواجية العاطفية حيال الأب. فمن الواضح أن حالم اليقظة هذا يريد أن يطمئن إلى مصير أبيه الذي ما كانت حياته عرضة للخطر، برغم كل العدوان الواقع عليه.

إن الموضوعات التي نسج من حولها هذان الطفلان قصصهما ليست بحال مبتكرة، بل نلتقيها، بصورة مشاعة، في الحكايات وأدب الأطفال[٦]. ولنستذكر هنا الحكاية الشعبية والخرافية عن الصياد والحيوانات: صياد طرده ظلماً ذات يوم ملك شرير بسبب ذنب تافه. وإذ صار بلا بيت، لاذ بحمى الغابة. وهناك، وقبل أن يغادر المنطقة، طاف بأرجاء الدغل حزين النفس ناقم الصدر. والتقى أول الأمر أسداً، ثم نمراً، وفهداً، ودببة، إلخ. وكل مرة كان يصوب فيها بندقيته إلى الوحش الكبير، كان هذا الوحش، كل مرة أيضاً، وعلى دهشة عظيمة منه، يتكلم ويضرع إليه أن يبقي على حياته: «أيها الصياد الطيب، دع لي حياتي فأهبك اثنين من صغاري!». وفي كل مرة كان الصياد يقبل بالصفقة ويتابع طريقه بصحبة جميع صغار الحيوانات التي وهبت له. فلما رأى نفسه في آخر الأمر على رأس رهط هائل من صغار الوحوش الكاسرة فطن إلى ما صار بحوزته من قوة، فاستدار على عقبيه قاصداً مع رفاقه العاصمة؛ ولما وصل إلى أمام قصر الملك، توعده بأن يطلق عليه حيواناته الكاسرة كلها. فخاف الملك، وأقر بأخطائه، بل زاد فتنازل له، بسائق الخوف، عن نصف مملكته وعن يد ابنته[٧].

٦ ـ لنلحظ أيضاً «موضوعة الحيوانات المنقذة» في الأساطير، وهي موضوعة سبق أن دُرست، من زاوية أخرى، في أدبيات التحليل النفسي. انظر أ. رانك(*): **أسطورة ميلاد البطل** (مجلة **علم النفس التطبيقي**، الدفتر ٥، ص ٨٧ وما يليها).

(*) أوتو رانك: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). مارس التحليل النفسي كهاوٍ بعد أن غيّر كنيته من روزنفلد إلى رانك تمثُّلاً بالطبيب الطيِّب القلب رانك في مسرحية إبسن **بيت الدمية** الذي قدَّم له نموذجاً مناقضاً لأبيه الذي كان سكيراً مدمناً. من أشهر مؤلفاته: **رضة الميلاد، دون جوان وقرينه، مساهمة في النرجسية، أسطورة ميلاد البطل**. «م».

٧ ـ هي قصة شعبية مشهورة وظفها الكتّاب بصيغ شتى، ومنهم الأخوان غريم في **قصة الشقيقين** وألكسندر ديماس الأب في قصة **كسارة البندق**. «م».



إن صياد هذه القصة يمثّل وجه الابن الذي يخوض غمار الصراع ضد أبيه. والمعركة تتلبس هنا شكلاً خاصاً. ذلك أن الصياد يمتنع عن الأخذ بثأره من الحيوان الكاسر الكبير، البديل الأول عن أبيه. ومكافأة له عن ذلك يهديه الحيوان صغيريه اللذين يمثلان قوته. وبفضل هذه القوة المتنامية، التي باتت طوع يديه، يغلب الابن أباه ويجبره أيضاً على أن يهبه امرأة. ومرة أخرى يقلب الخيال الوقائع إلى نقائضها. فابن ذو قوة وبأس ينتصب في وجه والده؛ وإذ يعاين الأب مدى ما عليه الابن من قوة، يخور ويستسلم، ويحقق له رغباته كافة. فحكاية الأطفال تستخدم الأساليب عينها التي يستخدمها مريضي في قصته المتخيلة عن السيرك.

بالإضافة إلى قصص الحيوانات نجد في حكايات أخرى من حكايات الأطفال نظيراً مقابلاً لتخييلات مريضي الصغير عن الأسد. ففي عدد من كتب الأطفال، وربما على الأخص في **اللورد الصغير فونتلوري**[٨]. وفي **الكولونيل الصغير**[٩]، يطالعنا وجه صبي صغير (أو بنت صغيرة) يفلح، بعكس ما هو متوقع، في «تطويع» رجل سيء الطبع، ذي قوة أو ثراء، مهاب الجانب من قبل الجميع. فوجده الطفل يتوصل إلى مسّ قلب العجوز، الذي يكره الناس طراً، وإلى كسب حبه. والعجوز، الذي كان إلى ذلك اليوم شكساً مغطرساً، ينتهي به الأمر إلى إسلاس قياده للصغير ولسلطانه، بل إنه يصير يسدي إلى الناس جميع ضروب المعروف.

إن المسرة التي تبتعثها هذه الحكايا في النفس تنبع أيضاً من قلب تام للواقع إلى نقيضه. فالطفل لا يتبدى فيها فقط مالكاً للوجه الأبوي القوي (الأسد)، مما يتيح

٨ - LITTLE LORD FAUNTLEROY، بقلم آليس هودغسون بورنيت[*].

(*) فرنسيس هودغسون بورنيت [وليس كما تسميها المؤلفة سهواً باسم آليس]: روائية إنكليزية (١٨٤٩ - ١٩٢٤). كانت رائدة في مجال قصص الأطفال التعليمية. و**اللورد الصغير فونتلوري** (١٨٨٦) أولى رواياتها، وقد أتبعتها بـ **الأميرة سارة والبستان السري**. «م».

٩ - LITTLE COLONEL بقلم آني فيلوز جونستون[*].

(*) آني فيلوز جونستون: كاتبة قصص أطفال أمريكية (١٨٦٣ - ١٩٣١). و**الكولونيل الصغير** أولى قصصها (١٨٩٥). وقد أتبعتها بسلسلة قصص أخرى بطلها الكولونيل الصغير نفسه، فأصابت بها شهرة كبيرة. «م».



له أن يذّ جميع رجال محيطه، بل إنه يتلبس أيضاً وجه المربي الذي يحوِّل شيئاً فشيئاً الشر إلى خير. ولنتذكر هنا أن الأسد في القصة الأولى (ص ٣٩٧) تعلَّم كيف يمسك عن مهاجمة بني البشر، وأن حيوانات صاحب السيرك (ص ٣٩٨) كان يتعيَّن عليها في المقام الأول أن تتعلَّم كيف تسيطر على عدوانيتها إزاء بعضها بعضاً، وكذلك إزاء البشر. وفضلاً عن ذلك، إن الخوف الذي يبتعثه الأب يتمّ نقله في قصص الأطفال هذه بكيفية مماثلة لتلك التي يتمّ نقله بها في التخييلات عن الحيوانات. وهو يترجم عن نفسه بالخوف الذي يساور الناس الآخرين، ممن يبادر الطفل إلى تسكين روعهم، لكن ليس من شأن هذا الخوف أن يتأدى إلا إلى زيادة في مكسب اللذة.

إن الطريقة المستخدمة في تخييليْ هانز الصغير كما في تخييلات مريضيّ الصغيرين عن الحيوانات للإفلات من طوق الحصر والكدر الفعليين لهي في منتهى البساطة. فأنا الطفل يرفض الاعتراف بشطر مستكره من الواقع. ولهذا يبدأ بأن يدير ظهره له وينكره ويحِلّ محله وقائع متخيَّلة معاكسة له تماماً. على هذا النحو يغدو الأب الشرير، في الخيال، حيواناً حامياً، وينقلب الطفل الذي لا حول له ولا قوة إلى صاحب الأمر والنهي المتحكم بأبدال الأب الأقوياء. فإذا ما نجح هذا التحول، فصار الطفل، بفضل تخييلاته، غير آبه للواقع المعني، أفلت الأنا من طوق الحصر وما عادت به حاجة إلى اللجوء إلى تدابير دفاعية ضد الدوافع الغريزية ولا إلى تكوين عصاب.

إن هذه الآلية، السوية في مرحلة معيَّنة من نمو الأنا الطفلي، تشي، إذا ما تكررت في طور أكثر تقدماً، باضطرابات نفسية لا يستهان بها. وبالفعل، يسلك أنا الفرد، في بعض الحالات الحادة من الخلط العقلي الذهاني، مسلكاً مماثلاً إزاء الواقع. فتحت تأثير صدمة، وعلى سبيل المثال عقب فقدان مباغت لموضوع محبوب، ينكر الأنا واقع الأشياء ويستعيض عن جزء من الواقع الذي لا يُحتمل بإبداله بتشكيل هذائي سارّ.

هذه المقايسة بين التشكيل التخييلي الطفلي وبين الهذاء الذهاني تتيح لنا أن نفهم لماذا لا يستطيع الأنا البشري أن يستخدم على نطاق أكثر اتساعاً تلك الآلية



البسيطة والناجعة جداً في آن معاً، أعني آلية إنكار المصادر الفعلية للحصر والكدر. فقدرة الأنا على إنكار الواقع تتعاكس مع نشاط آخر له يحظى منه بأرفع التقدير: القدرة على تعرُّف الواقع وتمحيصه من زاوية نقدية. وفي الطفولة الأولى لا يكون لهذا التنافر من تأثير يقارب أن يكون مَرَضياً. فتصور الواقع لم يطرأ عليه خلل على الإطلاق لدى هانز الصغير، ولدى الطفل صاحب الأسد، ولدى الطفل مالك السيرك. فهم لا يعتقدون بأن حيواناتهم موجودة وجوداً فعلياً مثلما لا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً بتفوُّق هذه الحيوانات على آبائهم المرهوبين. وعقلهم يتيح لهم أن يميِّزوا حسن التمييز بين الوهم والواقع. بيد أن الوقائع الفعلية المؤلمة منتقص من قدرها في حياتهم العاطفية، والتخييلات التي قلبوا فيها تلك الوقائع إلى ضدها مشحونة بالمقابل شحناً مفرطاً، بحيث لا تجد اللذة المتخيَّلة عسراً في التغلب على الكدر الفعلي.

ليس من اليسير أن نحدد متى يفقد الأنا القدرة على أن يلغي، عن طريق التخييلات، كميات أكبر من الكدر الفعلي. ونحن نعلم أن أحلام اليقظة تواصل أحياناً، حتى لدى الراشدين، الاضطلاع بدورها، إما بتوسيعها نطاق واقع أضيق مما ينبغي، وإما بقلبها هذا الواقع إلى نقيضه. بيد أن أحلام اليقظة في الحياة الراشدة لا تعدو في الغالب أن تكون ضرباً من اللعب، نوعاً من نتاج جانبي ذي توظيف ليبيدوي ضعيف، لا يقتدر على أن يلغي لدى الفرد المعني سوى مقادير طفيفة للغاية من الكدر، أو لا يعود عليه إلا بتسكين وهمي لهمّ غير ذي بال. ويظهر أن أحلام اليقظة كوسائل للدفاع ضد حصر واقعي تفقد أهميتها الأولية ابتداء من نهاية الطفولة الأولى. ولنا أن نفترض أن القدرة على اختيار الواقع تكون قد تعززت موضوعياً إلى حدٍّ تستطيع معه الصمود حتى في مجال الانفعالات العاطفية؛ ونحن نعرف أيضاً أن الأنا تساوره في الحياة الراشدة حاجة ماسة إلى التركيب تجعل تعايش المعطيات المتضادة بحكم المستحيل. وربما كان الرابط الذي يربط الأنا الناضج بالواقع أقوى من نظيره لدى الأنا الطفلي، بحيث لا يعود الخيال يحظى بذلك التقدير الرفيع الذي كان يحظى به في الطفولة. وثمة شيء واحد على كل حال مؤكد: وهو أن الإشباع عن طريق الاستيهام يفقد لدى الراشد طابعه غير



الضارّ. فمتى ما كان الأمر يتعلق بكميات جديرة بالاعتبار من الطاقة الموظفة وقع التضاد بين الخيال والواقع؛ فلا يعود مناص من أن يتنحى أحدهما. وإذا ما أسلس الراشد قياده، سعياً منه وراء كسب من اللذة، لتخييلات هذائية، فإن طريق الذهان هو الذي ينفتح أمامه. ومن ثم إن الأنا الذي يسعى، عن طريق إنكار الواقع، إلى الإفلات من طوق الحصر وإلى تجنب العزوف عن الدوافع الغريزية وإلى تحاشي العصاب ينتهي به الأمر إلى الإفراط في استعمال هذه الآلية. فإذا ما حدث ذلك في طور مرحلة الكمون تأدى، كما تسنى لنا أن نلاحظ في الحالتين اللتين تحدثت عنهما، إلى تشويه للطبع. أما إذا طرأ في الحياة الراشدة، فإن علاقات الأنا بالواقع تتحوَّر على نحو عميق وباعث على القلق[١٠].

إننا لا نزال نجهل على وجه التحديد ما يجري في أنا الراشد عندما يذهب باختياره إلى الإشباع الهذائي ويعزف عن إجراء امتحان الواقع. وهو إذ ينفصم في هذه الحال عن العالم الخارجي يتوقف حتى عن تسجيل التنبيهات الآتية من الخارج. أما فيما يخصّ الحياة الغريزية، فإن مثل هذا الانعدام للحساسية إزاء التنبيهات الداخلية لا سبيل إلى الوصول إليه إلا بالاعتماد على آلية الكبت.

---

١٠ ـ لنعِد إلى الأذهان أن دور آلية الإنكار هذه في الأمراض النفسية وفي تكوين الطباع كان، في السنوات الأخيرة، موضوعاً لدراسات عدة. فهيلينا دويتش تدرس في مقالها: **مساهمة في سيكولوجيا الحالات الهوسية الاكتابية وبخاصة في الهيبومانيا (المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م١٩، ١٩٣٣، ص٣٧١)، دور هذه السيرورة الدفاعية في نشوء الهيبومانيا المزمنة(*). ويصف برترام لوين(**) الكيفية التي يستخدم بها هذه الآليةَ الأنا ذو التكوُّن المُتَعيّ الحديث لدى المصاب بالهيبومانيا، وذلك في مقاله **تحليل حالة هيومانيا عابرة وبنيتها (المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م٢٠، ١٩٣٤، وعلى الأخص ص ٨٣). وتبيِّن آني آنجل(***) العلاقة بين الإنكار والتفاؤل في مقالها: **بعض ملاحظات حول التفاؤل (المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م٢٠، ١٩٣٤).

(*) الهيبومانيا: حرفياً الهوس الأصغر، وهو اضطراب في الطبع تقلّ معه حاجة المصاب به إلى النوم والراحة مدفوعاً بطاقة كبيرة على النشاط والمنافسة والممارسة الجنسية. «م».

(**) برترام دافيد لوين: طبيب ومحلل نفسي أميركي من أصل ألماني (١٨٨٣ ـ ١٩٧٤). ترأس **الرابطة الأميركية للتحليل النفسي**. قدّم مساعدات جلّى للمحللين النفسيين الهاربين من النظام النازي. ترجم إلى الإنكليزية كتاب كارل أبراهام عن **الطبع وتطور الليبيدو**. من مؤلفاته: **الصورة والماضي**. «م».

(***) آني آنجل كاتان: طبيبة ومحللة نفسية نمساوية (١٨٩٨ ـ ١٩٩٢). كان والداها من أصدقاء فرويد وصادقت في طفولتها آنا فرويد التي تولت لاحقاً تحليلها. من مؤلفاتها: **التواءات الطور القضيبي**. «م».



الفصل السابع

الإنكار في الأفعال والأقوال

لمدى سنوات عدة يبقى الأنا الطفلي قادراً، مع احتفاظه بحسٍّ سليم بالواقع، على إنكار كل ما لا يقع من نفسه من هذا الواقع موقع الرضى. وهو يستخدم هذه القدرة على نطاق واسع، ولا يحصر هذا الاستخدام ضمن مضمار التمثلات والتخييلات، أي أنه لا يقنع بالتفكير، بل يبادر أيضاً إلى العمل. وتوصلاً إلى تحوير الواقع لا يتردد في استخدام المواضيع الخارجية الأكثر تبايناً. وكثيراً ما تطالعنا ألعاب الأطفال بصفة عامة، وعلى الأخص تلك التي يضطلع فيها الطفل بدور تمثيلي، بهذا الإنكار عينه للواقع.

وأودّ أن أشير هنا إلى كتاب صغير منظوم ومقفًّى لكاتب إنكليزي يصف وصفاً رهيفاً هذا المزيج من الخيال والواقع لدى بطله الطفل[1]. فقد كان في غرفة هذا الطفل الذي له من العمر ثلاث سنوات أربعة مقاعد. فإذا جلس على المقعد الأول كان مستكشفاً يسير في الليل نحو عالية نهر الأمازون؛ وإذا جلس على الثاني كان أسداً يزأر ويرعب بزئيره الخادم؛ وفي المقعد الثالث يكون قبطاناً يدير دفة سفينته في عرض المحيط؛ أما في الرابع، وهو عبارة عن كرسي عالٍ للأطفال، فإنه **يحاول أن يتخيّل** أنه هو نفسه ليس إلا، أي مجرد صبي صغير. وما قصَد الشاعر إلى قوله لا تعسر محزرته: إن العناصر التي يستخدمها الطفل ليبني عالماً خيالياً يغصّ بكل ما يبهج النفس معروضة له من تلقاء نفسها، ولكن

١ ـ **يوم كنا صغاراً جداً** WHEN WE WERE VERY YOUNG بقلم أ. أ. ملنه(*).

(*) ألان ألكسندر ملنه: كاتب بريطاني (١٨٨٢ ـ ١٩٥٦). اشتهر بأقاصيصه التي بطلها دبّ صغير. وله رواية بوليسية كلاسيكية بعنوان: **لغز البيت الأحمر**. **ويوم كنا صغاراً جداً** عبارة عن حكايات شعرية مصورة، من أبطالها ويني الدبّ الصغير الذي صار من أبطال والت ديزني. «م».



عندما يتصل الأمر بوقائع فعلية فلزام على الطفل بادئ ذي بدء أن يجاهد ليعرف هذه الوقائع وليتمثَّلها.

والعجيب في الأمر أن الراشدين أنفسهم يبدون كامل الاستعداد، في علاقتهم بالأطفال، لاستخدام هذه الآليات كلها. فاللذة التي يوفِّرها الراشد للطفل ترجع إلى حدّ كبير إلى تسهيل الراشد لمثل تلك الضروب من إنكار الواقع. فغالباً ما يطمئِن الطفل الصغير بقوله له إنه غدا الآن «كبيراً جداً» وإنه، خلافاً للواقع السافر، «قوي مثل بابا»، و«شاطر مثل ماما»، و«شجاع كجندي»، و«صلب كأخيه الكبير» مثلاً. ومما يبدو مألوفاً بدرجة أكبر أن يعمد الكبار إلى تحريف الوقائع رغبة منهم في طمأنة الصغار أو التخفيف عنهم. فالجرح الدامي هو في نظر الراشد «غير مؤلم»، والطعام الذي تعافه النفس «ليس كريه الطعم»، وإذا اكتأب الطفل لرحيل شخص ما، جزم له الكبار بقولهم: «إنه راجع حالاً». وقد يتفق أن يضع بعض الأطفال اليد على صيغ العزاء هذه، فيستخدمونها ككليشيهات في وصفهم لما يشقّ على النفس احتماله. فمثلاً بنت صغيرة في الثانية من العمر تتمتم بصورة آلية كلما غادرت أمها الحجرة: «سوف تعود ماما حالاً». وطفل آخر (إنكليزي) كلما تجرع دواء كريه المذاق دمدم منتحباً: «طيِّب، طيِّب»، وهي ذكرى متخلفة من جملة كانت تردِّدها مربيته لتحمله على استساغة دواء مرّ.

إن الكثير من الهدايا التي يقدِّمها الزوار الراشدون للأطفال قمينة بتوليد الوهم. فحقيبة اليد الصغيرة والمظلة الصغيرة تعززان لدى البنت الصغيرة فكرة أنها «سيدة». وعصا السير والزيّ العسكري والأسلحة/ الألعاب من كل نوع تمثِّل للصبي الصغير الرجولة. وحتى العرائس/ الدمى ترمي، في ما ترمي إليه، إلى خلق وهم الأمومة. كما أن القطارات والسيارات وألعاب التركيب والبناء لا تفيد في تحقيق رغبة من رغبات الطفل وفي تذليل إمكانية الإسماء SUBLIMATION له فحسب، بل تتيح له أيضاً فرصة لذيذة ليتخيَّل أنه يتحكم بالعالم. وهنا ننتقل من دراسة السيرورات الدفاعية الخالصة وسيرورات التحاشي إلى دراسة لعب الأطفال، وهو موضوع ثارت حوله، لدى مختلف مدارس علم النفس الأكاديمي، مناقشات مستفيضة.

مكتبة الفكر الجديد

إن الصراع الدائم بين مختلف المدارس التربوية (فروبل[٢] ضد مونتسّوري[٣]) يمكن تلخيصه في النقطة التالية: إلى أي حد يتحتم على المربي أن يحثّ الطفل ـ وهذا منذ نعومة أظفاره ـ على تمثل الواقع؟ وإلى أي درجة يجوز أن يُترك الكائن الصغير يشيح عن هذا الواقع بتشجيعه على ابتناء عالم من خياله؟

على أن المساهمة التي يسهم بها الراشدون بطوع إرادتهم في عملية قلب الواقع المؤلم إلى ضده هذه تبقى مع ذلك خاضعة لشروط محددة صارمة. فهم يتوقعون من الطفل ألا يتخطى تصوره لعالم خيالي حدوداً معلومة بعينها. فالطفل، الذي كان قبل هنيهة من الزمن حصاناً أو فيلاً، يصهل أو يقبع ويدّب على أربع، يجب أن يكون على أتم استعداد في الهنيهة التالية ليَجلس بكل تهذيب إلى المائدة وليلزم الهدوء. ومروِّض الأسود يتحتَّم عليه أن يطيع مربيته، والمستكشف أو القرصان ملزم بالذهاب بإذعان إلى فراشه في اللحظة عينها التي يؤذن فيها ما يجري في عالم الراشدين بأن يصير مثيراً كل الإثارة للاهتمام. والتسامح الذي يبديه الكبار إزاء آلية الإنكار لدى الطفل يتلاشى في اللحظة عينها التي يغدو فيها ممكناً التنقل بين الخيال والواقع بلا عنت وبلا تلكؤ وبلا مجادلة، وفي اللحظة عينها التي يبغي فيها الطفل أن يستنبط من تخييلاته سلوكاً واقعياً، أي في اللحظة التي يتوقف فيها النشاط التخييلي عند الطفل عن أن يكون لعباً لينقلب إلى عملية آلية أو قهرية.

بنت صغيرة تسنى لي أن أخضِعها للملاحظة كانت تتأبى عن الإقرار باختلاف الجنسين. كان لها شقيقان، واحدهما يكبرها والثاني يصغرها سناً.

٢ ـ فردريش فروبل: مربٍّ ألماني (١٧٨٢ ـ ١٨٥٢). لُقِّب بـ «المعلم الجرماني لتربية الأطفال الصغار». وقد كان وراء فكرة «حدائق الأطفال» التي كان لها دوي عالمي، ولا سيما في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان. عرض فكرته عن اللعب، كطريقة لاكتشاف الأطفال للواقع، في كتابه: **تربية الإنسان**. «م».

٣ ـ ماريا مونتسّوري: طبيبة ومربية إيطالية (١٨٧٠ ـ ١٩٥٢). اشتهرت عالمياً بالطريقة التربوية المنسوبة إلى اسمها والتي لا تقوم على نقل المعارف نقلاً ميكانيكياً إلى الأطفال، بل على مواكبة نموهم الطبيعي والتقيُّد بالقوانين التي تحكم تطورهم السيكولوجي والتعامل معهم بصفتهم مستقبل المجتمع. من مؤلفاتها: **من الطفل إلى المراهق، سرّ الطفولة، التربية العلمية، التربية والسلم**. «م».



وكانت المقارنة التي تقيمها بينهما وبينها مصدراً لكدر مستديم ومنغِّص. ومن ثم تحتّم عليها أن تلجأ إلى آلية دفاعية، إلى عملية تصحيح ومواءمة. وفي الوقت نفسه لعبت الاستعرائية دوراً مهما فِي نمو حياتها الغريزية، ومن ثم إن حلمها وتأرقها إلى أن تحوز قضيباً اتخذا عندها صورة رغبة في أن يكون لديها، كأخويها، شيء تعرضه للنظر. ونحن نعرف من تحاليل أخرى للأطفال أن ثمة أساليب متباينة لتحقيق رغبة كهذه. فبوسع البنت الصغيرة، مثلاً، أن تحوّل إلى أجزاء أخرى من جسمها الجميل حاجتها إلى أن تعرض شيئاً، أو من الممكن أن يعتمل فيها حبُّ الملابس الجميلة فتصير «مغناجاً»، أو أن تتفوق أيضاً في الألعاب الرياضية والبهلوانية حتى تضاهي أخويها في شطارتهما القضيبية، إلخ. بيد أنها اختارت طريقاً أكثر اختصاراً: فقد أنكرت واقعة افتقارها إلى القضيب ووفّرت على نفسها من ثم كل عناء لإيجاد بديل عنه. ومنذئذ راحت تعرض بصورة شبه قهرية العضو الناقص. وقد تجلى هذا القهر لديها مادياً في تشميرها، بين الفينة والفينة، تنورتها وعرضها ما تحتها، مما كان يعني: «انظروا ما أجمل هذا الذي عندي!». وكان يتفق لها في مناسبة وغير مناسبة أن تلفت نظر الآخرين إلى شيء لا وجود له[٤]: «تعالوا انظروا كم باضت الدجاجات من بيض!»، أو: «أتسمعون؟ ها هي عربة عمي قد وصلت». وفي الواقع، لم يكن هناك بيض باضه الدجاج ولا عربة. وقد جلب عليها هذا المزاح في أول الأمر تهليل الكبار وضحكهم، لكن الخيبات المتكررة واللامتوقعة التي كانت تسبِّبها على هذا النحو لأخويها وأخواتها كانت تتأدى بهم إلى سفح دموع غزيرة. وقد يمكن القول إن سلوكها في ذلك الزمن كان عند الحد الفاصل بين اللعب والسلوك القهري.

هذه السيرورة عينها تبرز بمزيد من الجلاء لدى مروِّض الأسود الصغير في

---

٤ ـ انظر بهذا الخصوص شروح س. رادو(*) عن «شهوة القضيب» لدى البنات الصغيرات. وقد وصفها بأنها استعادة هلوسية للعضو المذكّر الذي كان نظرهن وقع عليه: **حصر الخصاء لدى المرأة** DIE KASTRATIONSANGST DES WEIBES ، المنشورات التحليلية النفسية الدولية، فيينا ١٩٣٤.

(*) ساندور رادو: محلل نفسي مجري متأمرك (١٨٩٠ ـ ١٩٧٢). التقى فرويد عام ١٩١٥ وتولى تحليله كارل أبراهام. ترأس تحرير مجلة **إيماغو**. «م».



الفصل السابق. فكما أبان التحليل، لم تكن تخييلاته تعوّض فقط عن بعض رواسب الكدر والتنغيص لديه، بل كانت تمثّل أيضاً محاولة لإلغاء حصره الشديد من الخصاء. وقد غلبت لديه عادة الإنكار، فما عاد يستطيع أن يحوّل جميع المواضيع المخيفة له إلى أصدقاء حُماة أو مطيعين. وضاعف من طاقته في محاولاته، فراح يستخف أكثر فأكثر بكل ما يبتعث فيه الخوف. ومنذئذ بات كل ما يثير الخوف ينقلب عنده إلى موضوع للسخرية. ولكن بما أن العالم بأسره كان يخيفه، فقد لبس العالم برمته لباساً من السخف. وتحت الضغط المتوصل لحصر الخصاء صار التهكم هو شكل استجابته؛ ولئن أخذ هذا التهكم في بادئ الأمر مظهر اللعب، فإن طابعه القهري ما لبث أن انكشف لما اتضح أن الطفل لا يبلغ إلى التحرر من مخاوفه إلا بالمزاح. ففي كل مرة كان يحاول فيها أن ينظر بقدر أكبر من الجدّ إلى العالم الخارجي، كان يدفع ثمناً لهذه المحاولة نوبة حصر.

إن الطفل الصغير الذي يودّ أن يكون رجلاً كبيراً، فيمثل دور «بابا» بحمله عصا أبيه وقبعته، لا يبدو لنا على الإطلاق بعيداً عن السواء؛ وهذه اللعبة هي على كل حال دارجة ومألوفة. وكانت هذه اللعبة هي المأثورة لدى واحد من مرضاي الصغار، وكان مزاجه يتكدر إلى أقصى حدّ إذا ما وقع نظره على رجل طويل جداً أو قوي جداً. وكان من عادته أن يعتمر قبعة أبيه ويخرج للتجول بها. وكان يظل فرحاً سعيداً ما دام أحد لم يتدخل. وطوال العطلة الصيفية كان يلعب لعبة مماثلة، ولكنه صار يخرج هذه المرة وعلى ظهره حقيبة ملأى بالأغراض من كل نوع. وما كان يميّزه شيء عن الصبي الصغير العادي الذي يحلو له أن يمثّل دور الكبار سوى أنه كان ينظر إلى لعبته هذه بعين الجدّ الكامل: فإذا أرغمه أحد على خلع قبعته في داخل البيت، عند الجلوس إلى المائدة أو عند الذهاب إلى الفراش، ثارت ثائرته وتعكر مزاجه.

ولما أُعطيت لهذا الصبي الصغير قبعة من نوع الكسكيت، تشبه تلك التي يعتمرها الكبار، كرر معها سلوكه مع قبعة أبيه. فقد كان يحملها معه إلى كل مكان يذهب إليه، ويشدّ عليها بتشنُّج بين أصابعه عندما لا يُسمح له بوضعها فوق رأسه. على أنه لم يكن أمامه محيص من أن يلاحظ أن اليدين تفيدان أحياناً

مكتبة الفكر الجديد

في أغراض أخرى. ففيما كان ذات يوم يفتّش بقلق عن مكان يضع فيه قبعته فطن إلى أن فتحة بنطلونه توفّر له مخبأً جيداً، فأبرم للحال قراره، فدسّ فيها قبعته، وبذلك تحررت يداه وقرّ عيناً بأنه لن يفترق بعد الآن عن قبعته الثمينة. ومن المحقق على كل حال أنها قد استقرت في المكان الذي هو مكانها الطبيعي بحكم دلالتها الرمزية: بجوار الأعضاء التناسلية.

في الصفحات التي تقدمتْ وصفتُ جميع المسالك التي من هذا النوع لدى الأطفال بأنها قهرية، إذ لم أجد تعبيراً أفضل. وبالفعل، إنها تعرض لأنظار كل مراقب سطحي تشابهاً كبيراً مع الأعراض الوسواسية القهرية ، ولكن لو أنعمنا فيها النظر لتبيَّن لنا أنها ليست بمثابة أفعال قهرية بحصر معنى الكلمة. فبنيتها مختلفة كل الاختلاف عن البنية التي تميِّز، في تصورنا، الأعراض العصابية. صحيح أن خيبة أو عزوفاً أو إحباطاً واقعياً يكون هو في أصل السيرورة التي تتأدى إلى تلك المسالك، تماماً كما في تكوين الأعراض العصابية، لكن الصراع الذي ينشب من جراء ذلك لا يتمّ استدخاله، بل يبقى على روابطه بالخارج. والإجراءات الدفاعية التي يلجأ إليها الأنا تستهدف، لا الحياة الغريزية، بل العالم الخارجي الذي هو مصدر الإحباط. وكما يحال عن طريق الكبت في الصراع العصابي دون إدراك الانفعال الغريزي ، كذلك يتوصل الأنا الطفلي، عن طريق الإنكار، إلى الامتناع عن إدراك الانطباعات الأليمة الآتية إليه من الخارج. وفي العصاب الوسواسي يتم تأمين الكبت، كما نعلم، عن طريق تشكيل ارتجاعي يحتوي نقيض الحفزة المكبوتة (الشفقة بدل القسوة، الحياء بدل الاستعراء). وعلى المنوال نفسه يتمّ، في المواقف الطفلية الموصوفة آنفاً، إتمام إنكار الواقع وتدعيم هذا الإنكار عندما يبادر الطفل إلى تحوير الوقائع الفعلية وقلبها إلى ضدها عن طريق الخيال أو القول أو الفعل. ويقتضي التشكيل الارتجاعي لدى العصابي الوسواسي كيما يستمر في البقاء إنفاقاً متواصلاً نسمّيه توظيفاً مضاداً. كذلك، إن الإبقاء على التخييلات السارة وتظهيرها كما لو على خشبة مسرح يقتضيان من أنا الطفل مجهوداً متواصلاً. فحينما يعرض أخوا البنت الصغيرة عليها في كل لحظة وآن مشهد ذكورتهما، تأتي استجابتها على الدوام أيضاً في صورة التوكيد



التالي: «لديّ أنا أيضاً شيء أعرضه». وغيرة اللابس الصغير للكسكيت كانت تستثيرها على الدوام رؤيته للرجال من حوله. ومن ثم كان يعرض في كل لحظة وآن أيضاً القبعة أو الكسكيت أو حقيبة الظهر، وكلها في نظره أدلة مادية على ذكورته. وفي كل مرة تعيق فيها قوة خارجية هذه الأفعال، تتمخض ظاهرة مماثلة لتلك التي يتأدى إليها قمع من الخارج لنشاط قهري ما. فالتوازن، الذي ما أمكن الحفاظ عليه إلى تلك اللحظة إلا بعناء ومشقة بين النزعة المطلوب كبحها وبين القوة الدفاعية، يختلّ، فإذا بالتنبيه الخارجي الذي كان منكراً من قبل أو التنبيه الغريزي المكبوت يجاهدان لشقّ طريقهما إلى الشعور، فيستثيران لدى الأنا مشاعر حصر وكدر.

إن استخدام هذا الأسلوب الدفاعي، أي الإنكار عن طريق الأقوال والأفعال، يخضع من حيث الزمن لتقييدات مشابهة لتلك التي تقدَّم بي وصفها في الفصل السابق الذي عالجت فيه الإنكار عن طريق التخييلات[٥]؛ فليس يباح اللجوء إلى الإنكار إلا ما دام مقترناً بالقدرة على اجتياز امتحان الواقع وإلا ما دامت هذه القدرة براء من الخلل. فإذا ما أدرك الأنا النضج وانتظم في وحدة بفضل التركيب اختفى الإنكار وزال، فلا يعاود ظهوره إلا في الحالات التي يطرأ فيها خلل خطير على العلاقات بالواقع ويمنى فيها امتحان الواقعية بالإخفاق. ففي الإنشاءات الهذائية للذهانيين، مثلاً، يمكن لقطعة من الخشب أن تمثِّل، كما لدى الطفل، موضوعاً محبوباً أو مشتهى أو مفقوداً[٦]. وقد لا نجد في العصاب سوى استثناء واحد من هذا القبيل: تعويذة العصابي الوسواسي. على أنني لا أجرؤ أن أقطع ما في إذا كان امتلاك مثل هذا الشيء الذي يتشبث به المريض بتشنج مسرف يمثِّل حماية ضد حفزات داخلية

---

٥ ـ إن الألعاب التي يمثِّل فيها الطفل دوراً يحاكي شخصية غيره تقع في منتصف الطريق بين «الإنكار بالقول وبالفعل» وبين «الإنكار بالاستيهام». ولكننا لن نتناولها هنا بالتحليل المفصل.

٦ ـ انظر في هذا الصدد آراء ر. لافورغ(*) حول التعمية: **ملاحظات حول مفهوم الكبت** (**المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م١٤، ١٩٢٨، ص ٣٧١ وما يليها).

(*) رينيه لافورغ: محلل نفسي فرنسي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٢). ترأس **الجمعية الفرنسية للتحليل النفسي**. من مؤلفاته: **نسبية الواقع، العيادة التحليلية النفسية، فشل بودلير**. «م».



محظورة أو حماية ضد قوى خارجية خطرة، أو ما إذا كان هذا الشيء يجمع بين هاتين الوظيفتين الدفاعيتين.

إن أسلوب الإنكار بالأقوال وبالأفعال يخضع لتقييد أوسع نطاقاً من ذاك الذي لحظناه في الإنكار عن طريق الأخاييل. فالطفل سيد نفسه في مملكة خياله؛ فما دام يحتفظ بأخاييله لنفسه، فليس في مستطاع أحد أن يتدخل. بالمقابل، إن العالم الخارجي هو ما ينبغي أن يكون مسرح التعبير بالأقوال وبالأفعال عن الأخاييل. وعلى هذا، يكون لجوء الطفل إلى هذه الآلية مشروطاً بقبول محيطه بها، كما يكون مشروطاً داخلياً بدرجة تكيُّفه مع الواقع. ففي حالة لابس الكسكيت كان نجاح محاولاته الدفاعية يتوقف بتمامه على ترخيص أو تحظير لبقائه معتمراً القبعة في البيت وفي المدرسة وفي الحديقة. والناس تحكم بالسواء أو بعدم السواء على هذه الآليات الحمائية لا تبعاً للبنية الداخلية للتدبير الدفاعي، وإنما فقط تبعاً لدرجة غرابته. فحينما يتمسك الصبي الصغير قهرياً بأن تبقى قبعته فوق رأسه، يكون لديه «عَرَض»، ومن ثم يحكم الناس بأنه «شاذ»، ويكون عرضة في كل لحظة وآن لتجريده من ذلك الشيء الذي يحميه من الحصر. وفي طور لاحق من العمر لا تعود تدابيره الحمائية صارخة إلى هذا الحدّ؛ فهو قد تخلّص من قبعته وحقيبته وبات يكتفي بأن يحمل على الدوام في جيبه قلم حبر. ومنذئذ أمسى الجميع يعدّونه سوياً. فعلى رضى منهم وطبقاً لمطالبهم، ألغى أو أخفى بالأحرى آليته الدفاعية. بيد أنه لم يتغير شيء فيما يتصل بحصره الداخلي. فكيما يتخلص من خوف الخصاء بات يتشبث، بدرجة مماثلة من القهر، بقلم الحبر ويدفع ثمناً لكل محاولة قد ترمي إلى تجريده من هذا الشيء نوبة مماثلة لسابقاتها من نوبات الحصر والكدر.

إن توقع التطور المقبل للمرض يتوقف أحياناً على قبول العالم الخارجي بتلك الإجراءات الدفاعية؛ وبالفعل، إن تمخُّض الحصر قد يتوقف ويبقى محصوراً بـ «العرض» الأولي، أو قد تخفق المحاولة الدفاعية فيشتدّ تمخُّض الحصر ويتأدى مباشرة إلى صراع داخلي وإلى تغيُّر مفاجئ في الدفاع ضد الحياة الغريزية، وبالتالي إلى نشوب أعصبة حقيقية. على أنه من الخطورة بمكان أن نحاول تحاشي

مكتبة الفكر الجديد

الأعصبة الطفلية عن طريق تشجيع هذه الإنكارات للواقع. ففي حال إسراف الطفل في استخدام هذه الآلية، تتولد في الأنا استطالات وضروب من غرابة الأطوار والشذوذ يمسي من العسير التخلص منها أو إزالتها متى ما انقضى بصورة نهائية زمن الإنكارات البدائية.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثامن

انكماش الأنا

في معرض دراستنا لآليات الإنكار والكبت، وتكوين التخييلات والتشكيلات الارتجاعية، لاحظنا توازياً بين مختلف الأساليب التي يلجأ إليها الأنا ليتحاشى كل ألم، أداخلي المصدر كان أم خارجياً. وهذه الموازاة عينها نعود فنلتقيها عندما ندرس آلية أخرى أكثر بساطة. ففي المواقف التي يستحيل فيها تفادي بعض الانطباعات المؤلمة الآتية من الخارج يلجأ الطفل إلى استخدام آلية الإنكار مقرونة بتخييل يقلب الوقائع إلى ضدها. أما إذا تقدم الطفل في العمر قليلاً فإن حرية الحركة الكبيرة التي تتاح له وملكاته النفسية التي تصيب قدراً أكبر من النمو تمكّن أناه من الإفلات من تلك التنبيهات، فلا تعود به حاجة إلى اللجوء إلى تلك العملية النفسية البالغة التعقيد التي هي الإنكار. فبدلاً من أن يدرك الأنا الانطباع المؤلم ليعمد إلى محوه بعد ذلك عن طريق سحب توظيفه، تبقى متاحة له إمكانية تجنُّب الموقف الخطر. فهو يستطيع أن يلوذ بالفرار «متحاشياً على هذا النحو بصدق معنى الكلمة كل مناسبة مسبِّبة للألم». وآلية التحاشي هذه هي من البدائية والطبيعية، علاوة على اقترانها الصميمي بنموٍّ سويٍّ للأنا، بحيث لن يكون من اليسير، عندما نريد إخضاعها لمناقشة نظرية، أن نفصلها عن روابطها المألوفة لندرسها على حدة.

لقد أتاح لي لابس القبعة الصغير الذي قدَّمته في الفصل السابق الفرصة، في أثناء تحليله، لأدرس أيضاً مظاهر الهرب تلك حيال الكدر. فقد سرَّه أن يكتشف يوماً في منزلي ماعوناً صغيراً من الورق السحري، فسارع متلهفاً يخطّ على صفحاته بقلم ملوَّن، وابتهج كثيراً لما رآني أفعل الشيء نفسه. وألقى فجأة نظرة خاطفة على عملي، وتوقف، وقد بدا عليه الاضطراب. ثم لم يلبث أن وضع



قلمه وناولني كل ماعون الورق الذي كان يتشبث به قبل هنيهة أشد التشبث، ونهض واقفاً وقال: «استمري أنت في فعل ذلك، فأنا أفضل أن أتفرج». ومن الواضح أن الصبي الصغير لما رأى ورقتي فوجئ بأن رسمي أجمل وأنجح وأكثر إتقاناً من رسمه، وأن هذه المقارنة قد صدمته. فأبرم على التو قراراً بوضع حدٍّ للمنافسة ولنتائجها الباعثة على الكدر، وعزف عن نشاط كان بدا له قبل لحظات باعثاً على الابتهاج. وانكمش على الأثر في موقف المتفرج الذي لا يفعل شيئاً والذي لا سبيل إلى مقارنة نشاطه المعدوم بنشاط أي شخص آخر مقارنة قد يكون من شأنها أن تتمخض عن انطباع مؤلم.

لم تبقَ هذه الحادثة وحيدة. فأية لعبة معي لم يكن الصبي الصغير يحرز فيها كسباً، من قبيل نقل صورة وتلوينها بإتقان أقلّ مما أفعله أنا، وأي عمل لا يتوصل إلى مضاهاتي فيه، كانا يكفيان لتعكير مزاجه على مثل ذلك النحو المباغت. وعلى هذا النحو مال إلى التجهم، وإلى الامتناع عن النشاط، وكما لو بصورة آلية فقد اهتمامه بما كان في سبيله إلى فعله. وعلى العكس من ذلك كان ينهمك قهرياً، وإلى ما لا نهاية، في الأعمال التي يشعر بأنه يتفوق عليَّ فيها. وبطبيعة الحال، سلك في الصف، عندما ذهب إلى المدرسة لأول مرة، مسلكاً مماثلاً لمسلكه معي، إذ رفض رفضاً قاطعاً أن يشارك أقرانه في الألعاب أو الأشغال التي لا يشعر بأنه يبذّهم فيها. كان ينتقل من طفل إلى طفل و«يتفرج». وهكذا ما عاد يلجأ، في محاولته تفادي الكدر، إلى أسلوب القلب إلى الضد. وعلى حساب نموّه بالذات قلّص وظائف أناه وصار يتهرب مذّاك فصاعداً من جميع المواقف الخارجية التي يحتمل أن تسبِّب له قدراً من ذلك الامتعاض الذي يخشاه أكثر ما يخشى. وما كان يشعر بثقة بنفسه ويشارك بقسط إيجابي في الألعاب إلا بصحبة أطفال أصغر منه سناً.

إن مسالك مشابهة لمسلك الصبي لابس الكسكيت غالباً ما تُلحظ في رياض الأطفال وفي المعاهد المدرسية العصرية التي حلّ فيها محل التعليم الجماعي النشاط الذي يختاره الطفل بملء حريته. ويفيدنا المعلمون بأن فئة جديدة من الأطفال قد ظهرت إلى حيز الوجود، فئة وسيطة بين الفئتين المألوفتين: التلاميذ

الأذكياء المجدِّين، والتلاميذ الخاملين الذين لا يستثار اهتمامهم إلا بصعوبة والذين يميلون ميلاً ظاهراً إلى التكاسل. ومن المتعذر إدراج الأطفال الذين ينتمون إلى تلك الفئة الجديدة في أي من الفئتين السابقتين. فهم على ذكائهم ونموهم الممتاز، وعلى كونهم محبوبين جداً من رفاقهم، يعجزون عن المشاركة في أي عمل منظم أو أي لعب منظم. ومع أنه من القواعد المتبعة في المدرسة الامتناع عن توجيه النقد أو اللوم، فإن أولئك الأطفال يسلكون مسلك الجفولين النفورين. فأية مقارنة بين أشغالهم وأشغال زملائهم في الصف تكفي لسقوط قيمة عملهم في نظرهم. وإذا اتفق لهم أن أخفقوا في إنجاز المهمة على الوجه المطلوب، أو لم ينجحوا في لعبة من ألعاب التركيب والبناء، عزفوا عزوفاً تاماً عن تكرار المحاولة. ولهذا يجنحون إلى الخمول ويكرهون أن يهتموا بعمل أو شيء ما فترة طويلة من الزمن، وحتى أن يبقوا في مكان واحد، ويقنعون بأن يتفرجوا على الآخرين وهم يعملون. وتترتب على حب التلكؤ هذا آثار اجتماعية سلبية، لأن أولئك الأطفال الملولين السئمين لا يملكون في نهاية الأمر إلا أن يتشاجروا ويتعاركوا مع الأطفال الآخرين المنهمكين في أشغال أو ألعاب.

إن التضاد بين مواهب هؤلاء الأطفال وبين مردودهم المخيِّب للآمال يحدو بنا إلى اعتبارهم مكفوفين عصابياً وإلى الافتراض بأن اضطراباتهم ناشئة عن سيرورات وعن مضامين مشابهة لتلك التي أتاح لنا التحليل أن نميط عنها اللثام في ضروب الكفّ الحقيقي. ومهما يكن من أمر، فإن اللوحتين السريريتين تشفَّان كلتاهما عن علاقة واحدة بالماضي. ففي الحالتين كلتيهما يرتبط العرَض، لا بالخبرة الراضّة الحقيقية التي وقعت في الماضي، بل ببديل حاضر عنها. لنفترض مثلاً أن تلميذاً ما يعاني من عسر في عمليات الحساب أو التفكير، وأن راشداً ما يكابد من اضطرابات في النطق، وأن موسيقياً ما أصابه كفّ عن العزف، فإن ما يضيق به المكفوف في مثل هذه الأحوال ليس الحساب أو التفكير بحدّ ذاته، وليس النطق بالكلمات، ولا تمرير القوس على الأوتار، ولا ملامسة مفاتيح البيانو؛ كلا، وإنما أنشطة الأنا هذه، البريئة في حدّ ذاتها، تكون قد ارتبطت بأنشطة جنسية قديمة مشجوبة وباتت ممثِّلة لها. فإذا ما اصطبغت



على هذا النحو بصبغة جنسية استوجبت من قبل الأنا سلوكاً دفاعياً. وعلى المنوال نفسه نجد أن الأطفال عندما يدافعون عن أنفسهم ضد الكدر الذي يبتعثه فيهم مرأى إنجازات أكثر إتقاناً من إنجازاتهم، فإن ما يستشعرونه من كدر يكون من طبيعة بديلة ليس إلا. فتفوق الآخرين في ما يحرزونه من نتائج يكافئ (على الأقل في نظر مريضي الصغير) رؤيتهم لأعضاء تناسلية أكبر من أعضائهم وتكون موضعاً لحسدهم وغيرتهم. وعندما يُزجّ بهؤلاء الأطفال في منافسة ما، فإن هذه المنافسة تستحضر لديهم تلك المزاحمة اليائسة مع خصمهم في المرحلة الأوديبية أو تذكّرهم على مضض منهم بالاختلاف بين الجنسين.

غير أن الضربين كليهما من الاضطرابات المرَضية يختلفان من زاوية أخرى. فالمريض الصغير يمكنه أن يستعيد قدرته على العمل إذا ما تغيَّرت شروط العمل. أما ضروب الكفّ بحقّ معنى الكلمة فهي دائمة، وليس لأي تغيُّر خارجي أن يؤثر فيها. بنت صغيرة تنتمي إلى تلك الفئة من الأطفال التي تقدَّم بي وصفها اضطرت، لظروف مختلفة، أن تبقى لفترة من الزمن بعيدة عن المدرسة الابتدائية التي كانت تداوم عليها، وحيث كانت تحصر نفسها بدور «المتفرجة». وقد اتفق أن أخذت دروساً خصوصية، فإذا بها تكتسب دفعة واحدة، وكما لو أنها تلعب، المعارف التي ما أمكن لها قط أن تمتلك ناصيتها في الصف. وقد لاحظنا تبدلاً جذرياً مماثلاً يطرأ لدى بنت صغيرة في السابعة من العمر. فتداركاً لتأخرها المدرسي أخذت دروساً خصوصية كان سلوكها في أثنائها سوياً وطليقاً، لا تشوبه شائبة من كفٍّ. ولكن هذه النتيجة الموفقة لم تنعكس على عملها في الصف حيث كانت الدروس تجري على نسق واحد لا يتغير. فهاتان التلميذتان ما كانتا تحرزان تقدماً إلا عندما تنعدم إمكانية المقارنة بين عملهما وعمل سائر التلاميذ. وعلى هذا المنوال نفسه ما كان يسع مريضي الصغير أن يشارك أقرانه في اللعب إلا إذا كانوا يصغرونه ولا يكبرونه سناً. وإن هؤلاء الصغار يسلكون كما لو أن أنشطتهم تخضع لتقييدات خارجية وداخلية معاً، ولكن هذه الأنشطة تتوقف من تلقاء نفسها في الواقع في كل مرة كان من المحتمل فيها أن تتمخض عن انطباع ما غير



مستحبّ. وقد دلتنا دراسة الأنوثة[1] أن موقف هؤلاء الأطفال النفسي يماثل بصفة عامة موقف البنات الصغيرات في فترة حاسمة بعينها من تطورهن. فالبنت الصغيرة تقلع في طور معيَّن، وبدون أن يكون في ذلك أي دور للخوف من القصاص أو لبعض الهواجس الأخلاقية، عن الاستمناء البظري، واضعة بذلك حداً لجهودها في سبيل الفوز بالذكورة. فهي إذ تقارن نفسها بالصبيان، الأحسن منها تجهيزاً للاستمناء، تصاب في كبريائها وعزّة ذاتها، فلا تعود ترغب في أن يذكّرها تكرار الأفعال الاستمنائية بدونيتها هذه باستمرار.

على أننا نخطئ لو اعتقدنا أن أشباه هذه التقييدات لا يفرضها الأنا على نفسه إلا رغبة منه في تحاشي الكدر الناجم عن حكمه على نفسه بالدونية بالمقارنة مع الآخرين، أي تحاشي الخيبة وثبوط الهمة. ففي أثناء تحليل صبي في العاشرة من العمر، تسنى لي أن ألاحظ، في صورة عرَض ولدافع مناقض تماماً، تكرار اللجوء إلى الأسلوب عينه في تحاشي حصر واقعي حقيقي. ففي مرحلة معيَّنة من مراحل التحليل صار الطفل لاعباً لامعاً في كرة القدم. وقد أعجب الصبيان الكبار في مدرسته بلعبه وقبلوه، برغم صغر سنه، في فريقهم، مما أفعم نفسه فرحاً. وبعيد ذلك بوقت وجيز روى لي الحلم التالي: «كان يلعب بكرة القدم، فقذف أحد الكبار بالكرة بقوة هائلة بحيث ما أتيح له الوقت لكي يقفز فوقها حتى لا تصيبه». وقد أفاق الصبي من نومه محصوراً. وأبان تأويل الحلم أن الزهو الذي استشعره الصبي أول الأمر بانضمامه إلى الكبار ما لبث أن انقلب بسرعة إلى حصر. فقد صار يخشى أن يجنح رفاقه الكبار إلى العدوانية حياله بسائق الغيرة من براعته في اللعب. وهكذا استحال السرور الذي ابتعثه في نفسه نجاحه في اللعب إلى حصر. وقد تكررت الموضوعة نفسها بعد مدة وجيزة في تخييل من

---

١ - انظر فرويد، ١٩٣٢: NEUE FOLGE DER VORLESUNGEN ZUR EIN FUHRUNG IN DIE PSYCHOANALYSE، الأعمال الكاملة، م١٥ (انظر الترجمة العربية في: **محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي**، **المؤلفات شبه الكاملة**، ج ٢. «م»).



تخييلاته. ففيما كان على وشك الإغفاء رأى الصبيان يتهيأون لرميه بكرة تستهدف قدميه. وقد انقذفت الكرة الكبيرة نحوه بقوة. فانتفض وهو في فراشه، ورفع قدميه في الهواء اتقاء للضربة. والحال أن التحليل أماط اللثام عن أن القدمين اتخذتا لديه، عن طريق الأحاسيس الشمية وفكرة التصلب والاعوجاج، إلخ، دلالة خاصة كممثلتين لعضوه التناسلي. وقد كانت النتيجة أن كبح ذلك الحلم وهذا التخييل ولعه الحديث العهد باللعب، فخفَّت براعته وهبط بسرعة التقدير الذي أحيط به في المدرسة. فكيف نفسِّر هذا التراجع؟ على النحو التالي: «لا حاجة إلى ضربي بالكرة على قدميّ، فأنا لم أعد على كل حال لاعباً بارعاً».

لكن السيرورة لم تتوقف عند هذا الانكماش الطارئ على أناه في اتجاه واحد. ففيما طفقت المواهب الرياضية للصبي الصغير تتراجع، تطور فجأة جانب آخر من شخصيته: حبه الفطري للأدب. فقد طاب له أن يعكف على الكتابة، وأن يتلو على مسامعي أشعاراً كان بعضها من نظمه، وأن يطلعني على قصص قصيرة كان ألَّفها وهو لا يزال في السابعة، وأن يرسم خططاً طموحة للمستقبل يتصور فيها نفسه كاتباً لامعاً. لاعب كرة القدم استحال إلى مؤلف. في إحدى جلسات التحليل قدَّم لي رسماً بيانياً عن كيفية تصوره لمختلف الهوايات والمهن الذكرية. وقد شغل الأدب مساحة واسعة في وسط الرسم. وفيما حوله اصطفت مختلف العلوم في شكل دائري؛ أما المهن غير الفكرية فقد أشير إليها بنقاط بعيدة. وفي زاوية عليا من الصفحة، وفي طرفها، وضع نقطة تشير إلى الألعاب الرياضية التي كان شُغف بها قبل وقت وجيز شغفاً شديداً؛ وكانت النقطة مستدقة في الصغر وتنمّ عن الازدراء البالغ الذي بات المريض يكنّه لمثل هذه المتع. وإنه لمن المفيد أن نلاحظ كيف أن تقييمه الشعوري للأنشطة المختلفة وقع تحت تأثير الحصر في زمن لا يجاوز أياماً معدودات، وبفعل عملية هي أقرب ما تكون إلى التبرير شبه العقلاني. وفضلاً عن ذلك، حقَّق في تلك الفترة عينها إنجازات أدبية مرموقة. فالفراغ الذي أحدثه في وظائفه الأنوية إيقافُه لنشاطه الرياضي عاد فامتلأ من جديد عن طريق آخر. وكما كان لنا أن نتوقع، أظهر التحليل أن خوفه الحادّ من انتقام محتمل من جانب أقرانه الكبار إنما ينبع من تنشيط متجدِّد لتنافسه مع أبيه.



بنت صغيرة في العاشرة من العمر دعيت إلى أول حفلة راقصة لها، فراحت تستعدّ لها بقلب عامر بالوعود. وبعناية كبيرة اختارت ثوبها وحذاءها الجديدين، متوهمة أنهما سيخطفان الأبصار. وفي الحفل تولعت حالاً بأجمل الفتيان الحاضرين وأصغرهم وآنقهم وأوسمهم. وشاءت المصادفة أن تكون كنية الفتى، الذي ما كانت تعرفه إطلاقاً من قبل، مطابقة لكنيتها هي، فتوهمت أن رابطة خفية تجمع بينهما. وأخذت تتقرب إليه، ولكنه لم يلقِ إليها بالاً. بل إنه بعد أن راقصها لمرة واحدة راح يعيب عليها خرقها وعدم رشاقتها. وكان لهذه الخيبة في نفسها وقع الصدمة والمهانة. وابتداء من ذلك اليوم صارت تتحاشى ذلك النوع من الحفلات، ولا تعير الملابس اهتماماً، ولا ترغب في أن تتجشم عناء تعلّم الرقص. ولفترة وجيزة من الزمن ظلت تجد بعض اللذة في التفرج على الآخرين وهم يرقصون، وكانت ترمقهم في وقار وبدون مشاركتهم، وترفض كل دعوة إلى الرقص. ورويداً رويداً أحاطت كل هذا الجانب من حياتها بازدراء عميق. ولكنها في الوقت نفسه، ومثلها مثل لاعب كرة القدم، عوَّضت عن انكماش أناها هذا: فإذ هجرت اهتماماتها الأنثوية نهدت إلى التفوق في المضمار الفكري؛ وبالفعل، تحسن أداؤها، ففازت عن هذا السبيل بتقدير العديدين من الصبيان الذين في مثل سنها. وجاء التحليل اللاحق ليكشف أن الفشل الذي منيت به حيال الفتى الذي يحمل كنيتها نفسها عنى بالنسبة إليها تكراراً لخبرة رضّية من خبرات طفولتها. وهنا أيضاً لم يكن العامل الذي تأدى بأناها إلى الهرب حصراً ولا شعوراً بالذنب، وإنما ذلك الكدر الشديد الذي اعتمل فيها من جراء الفشل.

لنعد الآن، مرة أخرى، إلى الفارق بين الكفّ وانكماش الأنا. فكل عصابي يعاني من الكفّ يدافع عن نفسه ضد تحقيق حفزة غريزية محرَّمة، أي ضد الكدر الذي يبتعثه خطر داخلي. وحتى في الحالات التي يبدو فيها الحصر والدفاع مرتبطين بالعالم الخارجي، كما في الأرهبة، فإنما من نفسه يكون العصابي خائفاً؛ فهو يتحاشى الخروج إلى الطريق حتى لا يتعرض فيه لإغواءاته الذاتية السالفة. وهو يهرب في مواجهة حيوان حصره، لا للإفلات من الحيوان نفسه، ولكن ليهرب من حفزاته العدوانية ومن نتائجها، تلك الحفزات التي قد تعاود اندفاعها

من جراء لقاء ما. ومن جهة أخرى، إن الأنا بانكماشه يتحاشى حدوث انطباعات راهنة مؤلمة من شأنها أن تبتعث من الماضي انطباعات مماثلة أخرى. وبالرجوع إلى الموازاة التي أقمناها بين الكبت والإنكار، سنقول إن كل الفارق بين الكفّ وانكماش الأنا يتمثل في أن الأنا يدافع عن نفسه في الحالة الأولى ضد سيروراته الداخلية، بينما يهبّ للذود عن نفسه في الحالة الثانية ضد التنبيهات الخارجية.

تترتب على هذا الفارق الأساسي فوارق أخرى بعد. فخلف النشاط المعلَّق والمقيَّد عصابياً تختفي رغبة غريزية. والعناد الذي تنزع به كل حفزة من حفزات الهذا إلى بلوغ الهدف القمين بإشباعها يحوِّل عملية الكفّ البسيطة إلى عرض عصابي ثابت تدور فيه رحى صراع دائم بين رغبة الهذا وتمرد الأنا. وفي هذا الصراع يستنفد الشخص احتياطيه من الطاقة. فحفزات الهذا عنده تلتحم، بغير ما تعديل يذكر، برغبته في إجراء عمليات حسابية وفي إلقاء محاضرات وفي العزف على الكمان، إلخ، بينما يجاهد أناه بعناد مماثل ليمنع هذه الأنشطة أو على الأقل لينتقص من قيمتها.

عندما يحدث انكماش في الأنا من جراء حصر واقعي أو كدر فعلي، فإن النشاط لا يُلجم بالطريقة ذاتها. فما يحتل هنا مكانة الصدارة ليس الفعل ذاته، وإنما اللذة أو الكدر اللذان يتأدى إليهما. فالأنا إذ يسعى وراء اللذة ويجاهد لتحاشي الكدر، يمارس وفق هواه جميع أنشطته المتاحة؛ وإذ يعزف عن كل نشاط من شأنه أن يعود عليه بالكدر أو بالحصر، يعزف أيضاً عن الرغبة في ممارسته. وبذلك يصرف اهتمامه عن طائفة بكاملها من الأنشطة، فتكون النتيجة أنه يمني بالفشل في هذه المجالات، فيوجِّه طاقاته كلها من ثم نحو مجالات مناقضة إلى أقصى حدّ ممكن للمجالات الأولى. وعلى هذا النحو يصير لاعب كرة القدم شاعراً. وتغدو الراقصة الصغيرة الخائبة الأمل تلميذة متفوقة. وطبيعي أن الأنا، بمسلكه هذا، لا يستحدث لنفسه قدرات جديدة، وإنما يكتفي بأن يستخدم القدرات التي كان يحوزها من قبل.

إن انكماش الأنا، من حيث هو طريقة لتحاشي الكدر، لا يدخل، شأنه شأن



مختلف أشكال الإنكار، في باب سيكولوجيا الأعصبة؛ بل يمثِّل فقط مرحلة سوية من مراحل نمو الأنا. فكل فشل في ميدان من الميادين كثيراً ما يُعوَّض عنه، بالنسبة إلى الأنا الغضّ العود واللدن، بإنجازات ونجاحات باهرة في ميادين أخرى. ولكن عندما يصلُب عود الأنا أو عندما لا يعود يحتمل الكدر فيتثبت قهرياً على الاستجابة الهروبية، تترتب من جراء ذلك عواقب وخيمة على تكونه. فإذ يهجر الأنا عدداً لا يستهان به من مواقعه يغدو أحادي الجانب، ويفقد قدراً أكبر مما ينبغي من اهتماماته، وتبهت قيمة أنشطته وتضمحل.

إن الفشل الذي آل إليه، في السنوات الأخيرة، العديد من التجارب التربوية مردّه، جزئياً، إلى استهانة نظرية بما لتحاشي الكدر من أهمية بالنسبة إلى الأنا الطفلي. وتنزع أصول التربية الحديثة إلى أن تمنح الأنا الذي هو قيد النماء لدى الطفل حرية أكبر في العمل، وفي المقام الأول اختياراً حراً لأنشطته واهتماماته. والمأمول من وراء ذلك تمهيد السبيل أمام نمو الأنا وتيسير مختلف وجوه الإسماء. لكن قد يعلِّق الطفل، في مرحلة الكمون، على تحاشي الحصر والكدر قيمة أكبر من تلك التي يعلِّقها على الإشباعات الغريزية المباشرة وغير المباشرة. وفي العديد الحالات، وعندما لا يتوفر له من يرشده، فإنه لا يختار من تلقاء نفسه مشاغله وأنشطته تبعاً لمواهبه ولقدرته على الإسماء، وإنما الذي يملي عليه اختياره بالأحرى هو حرصه على تحاشي الحصر والكدر بأقصر طريق ممكن. وعلى دهش كبير من المربي لا تتأدى حرية الاختيار هذه، في مثل هذه الحالات، إلى نمو في الشخصية، بل على العكس إلى إفقار للأنا.

إن التدابير الدفاعية ضد الكدر والخطر الفعليين، وهي التدابير التي ضربت عليها هنا ثلاثة أمثلة مختلفة، تُستخدم من قبل الأنا الطفلي، على ما فيها من خسارة له، باعتبارها وسيلة للوقاية من العصاب. فلكي يتحاشى الألم يمنع تمخُّض الحصر ويبتر نفسه بنفسه. لكن هذه التدابير الحمائية، من قبيل اللواذ بميدان فكري بعد الهرب من نشاط بدني أو من قبيل الجهود التي تبذلها امرأة مصممة على مضاهاة الرجال أو كذلك من قبيل امتناع الفرد عن الدخول في منافسة إلا مع من هم أضعف منه، لا تلبث في طور لاحق من العمر أن تتعرض



لهجمات وإغارات شتى من الخارج. فقد يتفق أن يضطر الفرد إلى تغيير نمط حياته في أعقاب فاجعة أو كارثة ما: فقدان شخص محبوب، أو مرض، أو فاقة، أو حرب، إلخ، وعندئذ يجد الأنا نفسه من جديد في مواجهة مواقف الحصر الأصلية. ومن الممكن أن يتأدى فقدان الحماية المألوفة ضد الحصر، مثله في ذلك مثال الحرمان من أي إشباع غريزي معتاد، بصورة مباشرة إلى تكوين عصاب.

نظراً إلى قلة نصيب الطفل من الاستقلال، فإن الراشدين الكبار يمكنهم، بحسب مشيئتهم، أن ييسّروا أو يخنقوا لديه تكوين عصاب. فالطفل الذي يداوم على مدرسة عصرية لا يُفرض عليه فيها أي إكراه والذي لا يتعلم شيئاً بل يزجي وقته في التفرج على الآخرين أو الخربشة على الورق،سيصير «مكفوفاً» إذا ما أخضع ذات يوم لنظام مدرسي أكثر صرامة. صحيح أن الطفل حينما يُرغم على تعاطي نشاط لا يسيغه قد يذعن له في استسلام، ولكن عجزه عن الإفلات من طوق الكدر يرغمه أيضاً على طلب طرق خلاص أخرى. ومن جهة أخرى، إن كل كفّ أو كل عرض حتى ولو كانا مكتملي التمخض يمكن أن يتعدلا تحت تأثير حماية من الخارج. فالأم التي تقلقها حالة طفلها وتجرحها في كبريائها تسعى إلى حمايته بتجنيبه المواقف المؤلمة في العالم الخارجي. ومن هنا يكون سلوكها قريباً من سلوك المعاني من الرهاب حيال نوبات حصره. فهي بتقييدها الأريب لحرية طفلها في العمل تتيح له أن يتحاشى الألم ويفلت من طوقه. وأغلب الظن أن هذا المجهود المشترك من قبل الأم والطفل معاً هو الذي يفسّر غياب الأعراض في العديد من حالات العصاب الطفلي. وفي مثل هذه الحال سيكون من المتعذر على أي كان أن يصدر حكماً موضوعياً على مدى خطورة الأعراض لدى طفل من الأطفال ما لم يُحرم هذا الطفل من الحماية التي يفترش ظلّها.



القسم الثالث

أمثلة على طرازين من الدفاع

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

الفصل التاسع

التماهي مع المعتدي

من اليسير نسبياً أن نميط اللثام عن أساليب الدفاع المألوفة ما دام الأنا يستخدم كل أسلوب منها على حدة، وفي غمرة كفاحه ضد خطر بعينه. فإذا التقينا بإنكار عرفنا أن الخطر خطر خارجي. وإذا اكتشفنا كبتاً، فمعنى ذلك أن الأنا يدافع عن نفسه ضد إثارات غريزية. ولكن عندما نواجه كفاً وانكماشاً للأنا، وهما أسلوبان متشابهان للغاية في الظاهر، فإن التمييز بين الصراع الداخلي والصراع الخارجي يغدو أقل يسراً. وتزداد الأمور تعقيداً عندما تتداخل وتتشابك عدة سيرورات دفاعية، أو عندما تستخدم الآلية الواحدة تارة ضد الخارج وطوراً ضد الداخل، كما هو واقع الأمر في آلية التماهي. وبالفعل، يسهم التماهي في تكوين الأنا الأعلى ويضطلع من ثم بدور مهمّ في قمع الدوافع الغريزية. ولكنه، إذ يأتلف مع آليات أخرى، يشكّل في بعض المناسبات، كما سأحاول أن أثبت ذلك في الصفحات التي تلي، واحدة من أقوى وسائل الكفاح ضد المواضيع الخارجية المولِّدة للحصر.

يروي أوغست آيخورن[1] قصة تلميذ أتيحت له، بصفته عضواً في مجلس التعليم العام، الفرصة لدراسة حالته. فقد اعتاد هذا الطفل على «تلعيب» وجهه. وقد اشتكى معلمه من الموقف الشاذ للصبي عندما يُوجَّه إليه اللوم والتقريع. ففي مثل هذه المناسبات كان يقوم بـ «تلعيب» وجهه على نحو لا يملك معه الصفّ عن بكرة أبيه إلا أن ينفجر ضاحكاً. وفي رأي المعلم أن هذا السلوك لا تفسير له

---

١ ـ أوغست آيخورن: مربٍّ ومحلل نفسي نمساوي (١٨٧٨ ـ ١٩٤٩). ترأس عدة مراكز تربوية مختصة باستقبال المراهقين المتحدرين من أسر فقيرة. وتولى رئاسة **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** بعد الحرب العالمية الثانية. من مؤلفاته: **التربية غير العنيفة**. «م».



إلا بواحد من اثنين: إما أنه سخرية واعية متعمدة، وإما أنه عرّة TIC. وقد تأكدت للحال صحة المعلومات التي قدّمها المعلم، إذ تكرر تلعيب الغلام لوجهه في أثناء المداولة. ولكن المقابلة بين آيخورن والمعلم والتلميذ كشفت سر الحالة. وبالفعل، فيما كان آيخورن يتفرس بانتباه في وجه كل من المعلم والتلميذ لاحظ أن «تلعيبات» الغلام لا تعدو أن تكون صورة كاريكاتورية عن قسمات المعلم الغاضب. فالغلام، الذي لم يكن أمامه مناصّ من أن يواجه تأنيبات المعلم، كان يكبح حصره بمحاكاته لاإرادياً هذا الأخير: فهو يتبنى غضبه إذا صحّ التعبير؛ وإذ يصغي إلى تقريعاته يتمثل أيضاً، بدون أن يعي ذلك، تعابير وجهه. إن «تلعيب» الوجه يكافئ هنا تماهياً مع الموضوع الخارجي المرهوب.

لنستذكر حالة البنت الصغيرة التي كانت تحاول أن تتغلب، بالسحر والتعزيم، على العذابات التي يسبِّبها لها حسدها القضيبي. فقد كانت تستخدم عن عمد ودراية آلية يستخدمها غلامنا لاإرادياً. ففي البيت ما كانت تجرؤ على اجتياز الرواق في العتمة خوفاً من الأشباح، ولكنها اهتدت على حين فجأة إلى حيلة أتاحت لها أن تسيطر على خوفها. فقد صارت، عندما تجتاز الرواق، تقوم بطائفة من الحركات الغريبة. ولم يمضِ وقت طويل حتى كشفت بلهجة ظافرة لأخيها الصغير سرَّ انتصارها على الحصر؛ فقالت له: «لا حاجة بك إلى أن تخاف في الرواق: فما عليك إلا أن تتظاهر بأنك أنت الشبح الذي يمكن أن يطلع عليك». إن اصطناع الحركات والإيماءات يكافئ هنا إذاً تماهياً مع الموضوع الخارجي المرهوب.

ليست حالة هذين الطفلين فريدة ولا تمثّل في الواقع سوى نمط طبيعي ومألوف وشائع من أنماط السلوك لدى الأنا البدائي. وهذا أمر أفادتنا به منذ زمن بعيد دراسة استحضار الأرواح وتعزيمها في طقوس البدائيين الدينية. وفي عدد كبير من الألعاب الطفلية أيضاً يتأدى انقلاب الذات هذا إلى موضوع إلى تحوُّل الحصر إلى شعور مستطاب بالأمن. وذلك ما يتيح لنا أن ننظر من زاوية جديدة إلى الألعاب التي يقوم فيها الطفل بأداء دور شخص غيره.

غير أن المحاكاة الجسمانية لعدو ما لا تمثّل من سيطرة إلا على عنصر واحد من



عناصر موقفٍ حصَرٍ مركب ومعقد. وتفيدنا المشاهدة أن العناصر الأخرى يتحتم السيطرة عليها هي أيضاً.

كان على مريضي الصغير، ابن السادسة الذي تكلمت عنه عدة مرات، أن يذهب إلى طبيب الأسنان. في المرة الأولى جرى كل شيء على أتم ما يرام، إذ لم يكن العلاج مؤلماً؛ فراح الطفل يسخر مظفَّراً من جميع أولئك الذين يخشون الذهاب إلى طبيب الأسنان. ولكن ذات يوم حضر الصبي الصغير إلى منزلي لجلسة التحليل متعكّر المزاج إلى أقصى حدّ. فقد أوجعه طبيب الأسنان، وبدوري قابلني بالمشاكسة والعداوة وصبَّ مشاعره على الأشياء التي في الغرفة. كانت ضحيته الأولى ممحاة طلب إليّ أن أعطيه إياها، فلما رفضت تناول مطواة وهمّ بتقطيعها إلى نصفين. ثم طمع في مكبّ كبير من الخيطان، فأبدى عن رغبته في الحصول عليه وراح يصف لي كيف سيستخدمه ليكون زماماً لحيواناته؛ فلما أبيت إعطاءه المكب بكامله، أمسك بالمطواة واقتطع منه خيطاً طويلاً لم يفد منه في شيء، بل على العكس سرعان ما راح يعمل فيه تقطيعاً إلى قطع صغيرة. وأخيراً رمى بالخيط أيضاً ليتحول إلى الأقلام التي راح يبريها إلى ما لا نهاية بمطواته، ثم يقصف رصاصها بأسنانه، ليعود فيبريها من جديد. وسيكون من الخطأ القول إنه «يلعب لعبة طبيب الأسنان»: فهو لم يتقمص دوره. فالطفل هنا لا يتماهى مع المعتدي عليه، وإنما مع عدوانه.

قدِم الطفل نفسه لرؤيتي مرة أخرى بعد حادثة طفيفة وقعت له. ففي أثناء لعبة رياضية، في المدرسة، ارتطم بكل اندفاع جسمه بالقبضة الممدودة لمعلم الألعاب. كانت شفته تنزف، ودموعه تسيل، ولكنه حاول أن يخفي بيديه حرجه ودموعه. أردت أن أعزّيه وأن أخفِّف عنه وأهدِّئه، ولكنه عندما غادرني كان لا يزال في حالة تثير الشفقة. على أنه رجع في اليوم التالي وقد ارتدى زياً عسكرياً وشمخ بقامته واعتمر خوذة، وعلى خصره سيف، وفي يده مسدس. فلما لحظ دهشتي لهذا التحول، اكتفى بالقول: «أردت أن أكون في زي العسكري للعب معك!». غير أنه بدل أن يلعب جلس يكتب رسالة إلى أمه: «عزيزتي ماما، من فضلك، من فضلك، من فضلك، من فضلك، لا تنتظري حتى عيد الفصح لتعطيني

مكتبة الفكر الجديد

المطواة التي وعدتني بها!». هنا أيضاً لا يبيح لنا شيء أن نجزم بأنه أراد، كيما يظهر على الحصَر الذي ابتعثته فيه حادثة الأمس، أن يمثِّل دور الأستاذ الذي ارتطم به. فما حاكاه هذه المرة ليس عدوان هذا المعلم. وإنما الأسلحة والعدّة بصفتها من مستلحقات الرجولة هي التي ترمز، على نحو لا يحتمل لبساً، إلى قوة المعلم وتتيح للطفل، شأنها شأن مستلحقات الأب في التخييلات عن الحيوانات، أن يتماهى مع ذكورة الراشد، وأن يذود عن نفسه بالتالي ضد الإذلالات النرجسية وضد جميع المنغِّصات والمزعجات.

إن هذه الأمثلة توضح لنا وقائع وسيرورات معروفة ومألوفة. فالطفل يستدمج خاصية من خصائص موضوع حصره، مما يتيح له أن يسيطر على خبرة طارئة مثيرة للحصر. وهنا تأتلف آلية التماهي أو الاستدماج مع آلية مهمة أخرى. فالطفل، إذ يلعب دور المعتدي أو يستعير مستلحقاته أو يحاكي عدوانه، يتحول من مهدَّد إلى مهدِّد. وقد تضمن كتاب **ما وراء مبدأ اللذة** وصفاً تفصيلياً لهذا الانتقال من دور سالب إلى دور موجب بغية التوصل إلى السيطرة على خبرات طفلية مستكرهة أو راضَّة. يقول فرويد: «ولو أن طبيباً فحص حنجرة طفل أو أجرى له عملية جراحية بسيطة، فلنا أن نكون على ثقة أن هذه التجربة المؤلمة ستكون هي مضمون اللعبة التالية. ولكن ليس يحقّ لنا من جانب آخر أن نغفل عن وجود مكسب من اللذة متأتٍ من مصدر آخر. فالطفل إذ ينتقل من سلبية التجربة إلى إيجابية اللعبة، يبادر إلى أن يُنزل برفيق له في اللعب ما عاناه هو نفسه من مرارة، ويثأر على هذا النحو لنفسه من خلال هذا الشخص البديل مما نزل به من ألم[٢]». وما يصدق على اللعب يصدق أيضاً على وجوه أخرى من سلوك الطفل. ففي حالة العصبي الذي يقوم بتلعيب وجهه، وفي حالة الساحرة الصغيرة، لا ندري ما المصير الذي يمكن أن تؤول إليه التهديدات التي تقمصاها، لكننا نجد في حالة الصبي الصغير الآخر أن العدوانية المأخوذة عن طبيب الأسنان وعن معلم الرياضة موجهة ضد العالم الخارجي بأسره.

٢ ـ فرويد، ١٩٢٠: **ما وراء مبدأ اللذة** JENSETIS DES LUSTPRINZIPS ، الأعمال الكاملة، م١٣، ص١٥.



إن ظاهرة التحول هذه تدهشنا بقدر أكبر عندما يكون مردّ الحصَر لا إلى حدث ماضٍ بل إلى حدث مستقبلي. لقد رويت في مكان آخر قصة صبي صغير اعتاد أن يدقّ وكأنما به صمم جرس «بيت الأطفال» الذي كان يقيم فيه. فإذا ما فُتح له الباب، أنحى باللائمة الشديدة على الخادمة لتباطؤها وعدم سماعها دقات الجرس. وفي اللحظة الفاصلة بين دقة الجرس وبين اشتعال غضبه كان يستبدّ به الخوف من جراء التأنيبات التي يمكن أن توجَّه إليه لدقّه الجرس على ذلك النحو غير اللائق. ولهذا كان يوبِّخ الخادمة حتى قبل أن يتاح لها الوقت لتفتح فاها بالشكوى. وكانت حدة تقريعاته «الوقائية» تتناسب طرداً مع شدة حصَره. فهو يهاجم الشخص عينه الذي يتوقع منه عدواناً، وليس بديلاً ما. والمبادلة بين المهاجِم والمهاجَم تبلغ في هذه الحالة أقصى مداها.

تسوق لنا جيني فالدر[٣]، من خلال وصفها لحالة مريض من مرضاها الصغار، له من العمر خمسة أعوام، مثالاً حياً على هذه السيرورة[٤]. فحينما أوشك التحليل أن يطرق مسألة الاستمناء والتخييلات المصاحبة له جنح الطفل، وكان لا يزال إلى ذلك الحين خجولاً مكفوفاً، إلى العدوانية الضارية على نحو مباغت. فموقفه السلبي في العادة انقلب إلى نقيضه، وسماته الطبعية الأنثوية اختفت تماماً. وفي الجلسات صار يحاكي أسداً يزار وينقضّ على المحلِّلة، أو يصول ويجول وبيده سوط، ويمثِّل دور كرامبوس[٥]؛ أي يفرقع بسوطه ويتوعد به الناس، وهو على الدرج أو في بيته أو عند المحلِّلة. وقد اشتكت أمه وجدته من أنه يحاول أن يضربهما في وجههما. وبلغ القلق بالأم أوجه عندما عنّ في باله أن يلجأ إلى التهديد بسكاكين المطبخ. وقد كشف التحليل ساعتئذ أن اندفاعة الطفل العدوانية لا تناظر البتة رفعاً للكف المضروب على دوافعه الغريزية. فتحرُّر

٣ ـ جيني فالدر: محلِّلة نفسية نمساوية (١٨٩٨ ـ ١٩٨٩). اشتهرت بمركز الأطفال الذي أنشأته باسمها. «م».

٤ ـ مداخلة في ندوة التحليل النفسي عن معالجة الأطفال في فيينا.

٥ ـ كرامبوس: في القصص الشعبي الألماني شيطان يصحب القديس نيقولاوس ويعاقب الأطفال الأشقياء. «م».



نزعاته الذكرية كان لا يزال أمامه شوط طويل، وكل ما يعاني منه كان حصَراً ليس إلا. وبالفعل، كان يخشى، بعد أن استاق التحليل إلى شعوره أنشطته الجنسية الماضية والحاضرة واضطره إلى الإقرار بها، أن يلقى عقاباً. فخبرته قد علَّمته أن الكبار يغضبون إذا ما تعاطى طفل مثل تلك الأعمال: فهم يزجرونه، ويصفعونه، ويضربونه بالسوط، هذا إن لم يقتطعوا من جسمه شيئاً بالسكين. وعلى هذا، حينما كان المريض الصغير ينتحل دوراً إيجابياً، فيزأر ويشهر سوطاً أو سكيناً، فإنما كان يمثِّل عقاباً مرهوباً ويستبقه. لقد استدخل إذاً عدوان الكبار، هؤلاء الذين كان يستشعر الذنب أمامهم، وصار يوجِّه إيجابياً عدوانيته ضدهم. وكلما قارب التحليل أن يطرق الموضوعات التي كان يعدّها خطرة، كانت هذه العدوانية تتزايد. وفي نهاية المطاف أفصح عن المكتوم من أفكاره ومشاعره المحرَّمة، وبعد نقاش وتأويل وتفسير ترك لدى المحلِّلة كرباج كرامبوس الذي لم تعد به إليه حاجة والذي ما كان يرضى قبلئذ أن يتخلى عنه لحظة واحدة. وزالت حفزته القهرية إلى ضرب الآخرين في وقت واحد مع زوال خوفه من أن يُضرب.

إننا نتعرف في هذا «التماهي مع المعتدي» طوراً ملحوظاً وشائعاً بما فيه الكفاية لدى الفرد في مجرى النمو السوي لأناه الأعلى. فالصبيَّان اللذان تكلمنا عنهما خطوا خطوة حاسمة على طريق تكوين هذه الهيئة الأخلاقية عندما تماهيا مع التهديدات الصادرة عن الكبار: وعلى هذا النحو استدخلا انتقادات الآخرين. فالطفل إذا ما فتئ يستدخل ويستدمج صفات القائمين على تربيته، وإذا عمل باستمرار على تبني خصائصهم وآرائهم، فإنما يقدِّم بذلك بصورة متواصلة للأنا الأعلى المادة اللازمة لنموّه وتطوره. بيد أن الطفل لا يحمل بعد، في ذلك الطور من العمر، على محمل الجدّ الكبير تكوين الهيئة الأخلاقية. فالنقد المستدخل لا يحوَّل مباشرة إلى نقد ذاتي. وكما رأينا في المثالين الآنفي الذكر، فإن هذا النقد يبقى منفصلاً عن نشاط الطفل المستحقّ للشجب ليوجَّه من جديد إلى العالم الخارجي. فعن طريق سيرورة دفاعية جديدة يعقب التماهيَ مع المعتدي هجومٌ مباشر يشنّ ضد العالم الخارجي.

ربما كان مثال آخر أكثر تعقيداً حقيقاً بتيسير فهم هذه السيرورة الدفاعية



الجديدة. صبي صغير في أوج عقدته الأوديبية عمد إلى استخدام الآلية المشار إليها ليتغلب على تثبيته على أمه. فإذا بعلاقاته الطيبة معها يتعكر صفوها من جراء سورات غضب. فقد كان ينهال عليها بالتقريع الشديد، مكرراً في كل مرة، وعلى نحو غير مفهوم، مأخذاً واحداً لا يحول ولا يتبدل: إذ كان يشكو من الفضول الأموي. ولا يعسر علينا تأويل هذه الخطوة الأولى على طريق السيطرة على عواطفه المحرَّمة. فالصبي الصغير كان يتخيَّل أن أمه على علم بنزعاته الليبيدوية، وأنها لا تقابلها إلا بالرفض والسخط. وكان الصبي الصغير، في سورات غضبه، يكرر إيجابياً هذا السخط. ولكن خلافاً لما يحدث لدى مريض جيني فالدر الصغير، فإن مآخذه على أمه لم تكن من طبيعة عامة؛ فهو ما كان يلومها إلا على شيء واحد بعينه: فضولها. وقد دلَّ التحليل أن هذا الفضول لا يتصل إطلاقاً بالحياة الغريزية لأمه، وإنما بحياته الغريزية هو. وبالفعل، كان الدافع الغريزي الجزئي الذي يشقّ عليه أكثر من أي دافع غريزي آخر أن يظهر عليه في علاقته بأمه هو حبه للتلصص. وقلب الأدوار هنا كامل. فهو يتبنى لحسابه شعور أمه بالسخط، ويعزو إليها بالمقابل فضوله ومنزعه إلى الاستطلاع.

مريضة صغيرة كانت لا تفتأ، في أطوار بعينها من المقاومة، تنحي باللائمة الشديدة على محلِّلتها لتكتُّمها وتشتكي من غلوّها في التحفظ، وترهقها بالأسئلة عن أمور شخصية، وتتألم إذ لم تتلقّ من جواب. وما كان اللوم يتوقف إلا ليعاود ظهوره غبّ ذلك في صورة مقولبة وشبه آلية. وهنا أيضاً كانت السيرورة تتألف من مرحلتين. فبين الفينة والفينة كانت المريضة الصغيرة، التي يمنعها الكفّ من الإفضاء بما في نفسها، تغفِل عن عمد بعض الوقائع الحميمة وتمسك عن البوح بها. وكانت تعرف تماماً أنها، بعملها هذا، تخالف القاعدة التحليلية الأساسية وتهيِّئ نفسها لتلقي الملامة من المحلِّلة. وعندئذ كانت تستدمج هذه المآخذ المتخيَّلة وتقلبها، إذ تتبنى دوراً إيجابياً، ضد شخص المحلِّلة. كانت أطوار عدوانيتها تتطابق زمنياً بدقة مع أطوار صمتها. وقد وشت الانتقادات الموجَّهة إلى المحلِّلة بالخطيئة التي تقترفها هي نفسها: فجريرة التكتم ـ المقترفة في الواقع من قبل المريضة ـ كانت تُعزى على هذا النحو إلى المحلِّلة.



مريضة صغيرة أخرى كانت تعتريها بصورة دورية حالات من العدوانية البالغة الشدة. وكانت توزِّع كراهيتها بصورة شبه متساوية بيني أنا نفسي وبين والديها وأشخاص آخرين. كانت تشكو من شيئين على وجه الخصوص. أولهما أنها كانت تشعر دوماً، في أثناء تلك الأدوار، بأن ثمة شيئاً ما يُخفى عنها، شيئاً يعرفه الجميع باستثنائها هي، سراً تتحرق إلى الاطلاع عليه. وثانيهما أنها كانت تعاني من خيبة مريرة إذ تلاحظ ما لدى جميع الأشخاص الذين يحيطون بها من عيوب ونقائص داخلية. وكما في حالة المريضة التي كانت تلوم محلِّلتها على تكتمها لأنها كانت هي نفسها تتكتم، كانت أدوار العدوانية لدى هذه المريضة تحدث بصورة آلية في الأطوار التي تنزع فيها تخييلاتها الاستمنائية، التي لم تكن على وعي بها، إلى الدلوف إلى شعورها. فهي عندما تدين من تحبهم من الأشخاص، فإنما لأنها تتوقع أن يوبخوها على استمنائها الطفلي. كانت تتماهى تماماً مع هذا التوبيخ، فتقلبه ضد العالم الخارجي. والسر الذي يكتمه جميع الآخرين عنها هو سر استمنائها بالذات، هذا الذي تخفيه عن الآخرين وعن نفسها معاً. إذاً فعدوانيتها تناظر هنا أيضاً عدوانية الآخرين، و«السر» الذي لا يباح به لها هو انعكاس لكبتها بالذات.

تظهر لنا هذه الأمثلة الثلاثة الكيفية التي تنشأ بها هذه المرحلة الخاصة من مراحل نمو الأنا الأعلى. فحتى بعد أن يجري استدماج النقد الخارجي، فإن الجريرة المقترفة والخوف من العقاب لا يكونان قد ترابطا بعد في ذهن المريض. ففي اللحظة عينها التي يُستدخل فيها النقد، يُدفع بالذنب إلى العالم الخارجي، مما يعدل القول بأن آلية التماهي مع المعتدي يتمِّمها أسلوب دفاعي آخر، هو إسقاط الذنب على الخارج.

إن الأنا الذي ينمو في هذا الاتجاه الخاص، بفعل هذه الآلية الدفاعية، يستدمج السلطات التي تنتقده ويتمثلها جاعلاً منها أناه الأعلى. وبعدئذ يصبح قادراً على أن يسقط نحو الخارج حفزاته المحرَّمة. ويبدي هذا الأنا تشدداً وعدم تسامح نحو العالم الخارجي قبل أن يبدي قساوته تجاه نفسه. إنه يتعرف جيداً ما هو حقيق بالشجب والإدانة، لكنه يستخدم هذه الآلية الدفاعية ليحمي نفسه من منغِّصات

مكتبة الفكر الجديد

النقد الذاتي. والغضب الذي تستثيره فيه أفعال الآخرين المذنبة هي أشبه بتعبير مبكر وبديل عن شعوره الخاص بالذنب. وسخطه يتزايد بصورة آلية كلما ترسخ وعيه بذنبه الشخصي. ويؤلف هذا الطور من نمو الأنا الأعلى ضرباً من مرحلة تمهيدية نحو الأخلاقية. أما الأخلاقية بحق معنى الكلمة فلا تبدأ إلا عندما يتطابق النقد المستدخل، وقد تجسّد في مطالب الأنا الأعلى، مع إدراك الأنا لجريرته الشخصية. ومنذئذ تتجه نحو الداخل لا نحو الخارج قسوة الأنا الأعلى، ومن ثم يميل التشدد وعدم التسامح مع الآخرين إلى الاعتدال. ولكن حالما يتمّ بلوغ هذه المرحلة، يجد الأنا نفسه مكرهاً على أن يتحمل قدراً أكثر من «الكدر»، هو ذاك الذي يتأتى من النقد الذاتي والشعور بالذنب.

قد لا يتجاوز بعض الأفراد أبداً المرحلة الوسطى من تكوُّن أناهم الأعلى. وقد لا يتوصلون أبداً إلى استدخال السيرورة بتمامها. فعلى الرغم من إدراكهم لذنبهم يبقون على عدوانيتهم الشديدة إزاء العالم الخارجي. وفي مثل هذه الحالات يسلك الأنا الأعلى حيال العالم الخارجي مسلكاً معادلاً في صرامته وقسوته لمسلك الأنا الأعلى السوداوي إزاء أناه. وربما كان هذه التوقفات في تكوين الأنا تنمّ عن استعداد مجهض للحالات السوداوية.

إن «التماهي مع المعتدي» يمثّل، من جهة أولى، مرحلة تمهيدية في نمو الأنا الأعلى، كما يبدو أنه يمثّل من جهة ثانية مرحلة تمهيدية في نشوء الحالات البارانوئية. وإذا كانت آلية التماهي تمتّ بآصرة وثيقة إلى المرحلة الأولى، فإن آلية الإسقاط تأتلف مع المرحلة الثانية. بيد أن التماهي والإسقاط يماثلان نشاطين سويين للأنا، وإن تباينت نتائجهما تبعاً للمادة التي يتخذانها موضوعاً لهما.

إن الجمع الخاص بين الاستدماج والإسقاط، وهو ما أسميناه هنا بـ «التماهي مع المعتدي»، يمكن أن يعدّ سوياً ما دام الأنا لا يلجأ إلى استخدامه إلا ضد الأشخاص الذين لهم عليه بعض السلطان، أي ضمن نطاق جهوده لمواجهة مواضيع حصره. غير أن هذه الآلية الدفاعية عينها تتوقف عن أن تكون غير ضارة وتكتسب طابعاً باتولوجياً إذا ما انتقل استخدامها إلى الحياة الحبِّية. فالزوج الذي



يسقط على زوجته رغبته الخاصة في خيانتها، فيلومها ويقرّعها بعد ذلك بشدة على الخيانة التي يعزوها إليها، يستدمج المآخذ التي يمكن أن توجّهها زوجته إليه ويسقط عليها جزءاً من الهذا العائد إليه[٦]. ولكن لا يكون قصده من ذلك أن يدفع عن نفسه خطر عدوان خارجي المصدر، وإنما خطر تراخي الرابط الليبيدوي الموجب الذي يشدّه إلى زوجته، وهو التراخي الذي تتسبب فيه اضطرابات داخلية. وعلى هذا تكون النتيجة مختلفة أيضاً. فهذا المريض، بدل أن يتخذ موقفاً عدوانياً حيال المعتدين الخارجيين القدامى عليه، يتثبت تثبيتاً وسواسياً على زوجته، ويتخذ هذا التثبيت شكل غيرة مسقطة.

عندما يجري استخدام آلية الإسقاط هذه ضد حفزات حبّية من طبيعة جنسية مثلية، فإنها تأتلف مع آليات أخرى أيضاً. فالقلب إلى الضد ـ في الحالة التي نحن بصددها، قلب الحب إلى كره ـ يتمم عمل الاستدماج والإسقاط ويتمخض عن ظهور أهذية بارانوئية. وفي الحالتين كليتهما ـ الدفاع ضد حفزات حبية إما من طبيعة جنسية غيرية وإما من طبيعة جنسية مثلية ـ لا يكون اختيار الإسقاط حراً. فالمادة المتاحة للأنا هي التي تملي عليه طريقته في اختيار انفعالاته اللاشعورية الخاصة، وهو «الاختيار الذي يفضح أحياناً الانفعالات اللاشعورية المشابهة عند الشريك الآخر»[٧].

إن تحليل التماهي مع المعتدي يعيننا لا على وضع فروق نظرية بين أنماط سلوك مختلف الآليات الدفاعية فحسب، بل كذلك على تمييز نوبات العدوانية من نوبات الحصر في التحويل التحليلي. ففي الحالات التي يفلح فيها التحليل في أن يستاق إلى شعور المحلَّل حفزات عدوانية لاشعورية حقيقية، فإن الانفعال العاطفي المعاود انبعاثه يميل إلى التخفف عن طريق التصريف في التحويل. ولكن في الحالات التي تكون فيها عدوانية المريض ناجمة عن تماهيه مع الموقف

٦ ـ فرويد: **حول بعض الآليات العصابية في الغيرة والبارانويا والجنسية المثلية**، الأعمال الكاملة، م١٣.(انظر ترجمة هذا البحث في **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي، المؤلفات شبه الكاملة**، ج٤. «م».).

٧ ـ المصدر نفسه.



النقدي الذي يعزوه إلينا، فإن هذه العدوانية لن تخفّ من جراء «الانبعاث» أو من جراء «التصريف»، بل على العكس سوف تتزايد وتشتدّ ما دام الخطر مفروضاً على الحفزات اللاشعورية، ثم لا تختفي، كما لدى الصبي الصغير الذي أقرّ في نهاية المطاف باستمنائه، إلا بعد تبديد الخوف من العقاب والخوف من الأنا الأعلى.

مكتبة الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

الفصل العاشر

شكل من الغيرية

تقطع آلية الإسقاط الصلة بين التمثلات الممثِّلة للدوافع الغريزية الخطرة وبين الأنا، ومن هنا كان شبهها الكبير بآلية الكبت. فالأنظمة الدفاعية الأخرى، نظير النقل والقلب إلى الضد والقلب ضد الذات، تؤثر في الظاهرة الغريزية نفسها، بينما الكبت والإسقاط يحولان فقط دون أن تصير شعورية. فعن طريق الكبت تُردّ الفكرة المزعجة إلى الهذا، ولكنها تُطرد بالمقابل، بفعل الإسقاط، إلى العالم الخارجي. لكن توجد بين الإسقاط والكبت نقطة تشابه أخرى، وذلك من حيث أن أولى هاتين الآليتين (الإسقاط) لا ترتبط بموقف بعينه، بل يمكن أن تعمل سواء أمن جراء حصر فعلي أم من جراء الخوف من الأنا الأعلى أم من جراء الخوف من الدوافع الغريزية. ويذهب الكتاب من أنصار المدرسة التحليلية الإنكليزية إلى أن الطفل منذ الشهور الأولى لوجوده، وقبل أن يحدث لديه أي كبت، يقوم بإسقاط حفزاته العدوانية الأولى، وأن هذه الظاهرة تلعب لديه دوراً بالغ الأهمية من حيث أنها تحدِّد معالم شخصيته الطفلية ورؤيته للعالم.

مهما يكن من أمر فإن الأنا يلجأ بكثرة، على امتداد فترة الطفولة الأولى، إلى استخدام آلية الإسقاط. فالأطفال الصغار يستخدمونها ليتحاشوا الأفعال والرغبات القابلة لأن تصير خطرة وليلقوا بمسؤوليتها كلها على عاتق شخص أو عامل من الخارج. فـ «الطفل الغريب»، والحيوان، وحتى الأشياء الجامدة، تفيدهم في التملص من أخطائهم وإلصاقها بغيرهم. وعلى هذا النحو يتخلص الأنا الطفلي بصورة طبيعية تماماً من الحفزات والرغبات المحظورة بعزوه إياها بمنتهى السخاء إلى محيطه. وإذا كانت هذه الرغبات موجبة للعقاب، فإن الأنا يقدِّم «كبش فداء»، لتلقي العقوبة عنه، الأشخاص الذين أسقط عليهم هذه الرغبات.



وأما إذا كان الشعور بالذنب هو الذي أوجب اللجوء إلى آلية الإسقاط، فإن أنا الطفل يحوِّل اتهام الذات إلى اتهام للغير. وفي الحالتين كلتيهما، يتنكر الأنا الطفلي للمذنب المزعوم ويحكم عليه بمنتهى القسوة.

إن آلية الإسقاط لا تفعل على هذا النحو أكثر من أن تعكِّر صفو علاقاتنا الإنسانية عندما نسقط على الآخرين غيرتنا الذاتية ونعزو إلى الغير عدوانيتنا الخاصة. ولكن هذه الآلية عينها تفيد أيضاً في إقامة علاقات إيجابية، فتعزز بالتالي الروابط الإنسانية. لنطلق إذاً على هذا الشكل السويّ والأقل صخباً من الإسقاط اسم «التنازل الغيري»[1] عن دوافعنا الغريزية لصالح الآخرين.

لنضرب على ذلك مثالاً:

روت معلمة شابة، في أثناء تحليلها، أنه كانت تتسلط عليها، في طفولتها، فكرتان: أن تكون لها ملابس جميلة، وأن يكون لها عدد كبير من الأطفال. وكان يطيب لها بصورة شبه وسواسية أن تتخيَّل أن تينك الرغبتين قد تحققتا. لكن إلى جانب أمنيتيها الرئيستين هاتين، كانت تتوق أيضاً إلى أشياء كثيرة: فقد كان بودِّها لو تملك كل ما تملكه أترابها الأكبر منها سناً وأن تفعل كل ما يفعلنه. وكانت تصبو إلى أن تتفوق عليهن لكي تفوز بالإعجاب. وكانت تصدع رؤوس أترابها الكبيرات بصيحتها الدائمة: «أنا أيضاً!». وفضلاً عن ذلك، كان لأكثر رغباتها طابع الاستعجال وعدم الارتواء.

فلما كبرت وصارت راشدة كان ما يلفت الانتباه في موقفها تواضعها وبعدها عن الادعاء وقناعتها من الحياة بالنزر اليسير. وعندما قصدتني للتحليل، كانت لا تزال عازبة، ولا أولاد لها، وكانت ملابسها أقرب إلى الاتضاع وكثرة الاستعمال. وكان بادياً عليها البعد عن الحسد وعن الطموح ولم تكن تسعى إلى

---

١ ـ ALTRUISTISCHE ABTRETUNG، على حدّ تعبير إدوارد بيرينغ(*).

(*) إدوارد بيرينغ: محلل نفسي نمساوي (١٨٩٥ ـ ١٩٥٩). كان من أوائل الفريق الذي التفّ حول فرويد غداة الحرب العالمية الأولى. نشط في مجال نشر الدوريات التحليلية النفسية وغادر فيينا مع فرويد إلى لندن عام ١٩٣٨، ومنها بعد ثلاثة أعوام إلى بوسطن حيث ترأس جمعيتها التحليلية النفسية. كان من السباقين إلى القول بآلية فكّ الارتباط. «م».



الدخول في منافسة مع الآخرين إلا إذا أكرهتها على ذلك بعض الضرورات الخارجية. كان الانطباع الأول الذي تعطيه، وهذا متواتر الحدوث، أنها إنسانة تطورت في اتجاه معاكس تماماً لما كانت عليه في طفولتها، إنسانة كبتت رغباتها وأخلت مكانها في اللاشعور لتشكيلات ارتجاعية (على سبيل المثال، التواضع عوضاً عن التوق إلى انتزاع الإعجاب، والقناعة والبعد عن الطموح بدلاً من الخيلاء). وكان للمرء أن يتوقع أن يكتشف أن كبتها ناجم عن تحظير جنسي اتسع نطاقه، بدءاً من الحفزات الاستعرائية والرغبة في كثرة الأطفال، ليشمل مجمل حياتها الغريزية.

غير أن بعض الجوانب في سلوكها كانت تكذِّب هذا الانطباع الأول. فحينما أدلت بمزيد من التفصيل عن حياتها اتضح أن رغبتها القديمة كانت تلقى من التأكيد والتدعيم ما يتنافى واحتمال أن تكون وقعت تحت الكبت. فرفضها للجنسية لم يمنعها من أن تولي الحياة الحبِّية لصديقاتها وزميلاتها اهتماماً بالغاً. وكان يستهويها أن تكون واسطة لزواج الأخريات، وكانت تؤتمن على الكثير من أسرار العلاقات الغرامية. ولم يكن ابتعادها عن التأنُّق ليمنعها من الاهتمام بإيجابية بأناقة صديقاتها. وصحيح أنه ليس لها أطفال، لكن انشغالها بأولاد الأخريات كان يكشف عنه اختيارها لمهنتها بالذات. ويمكن القول إنها كانت من الحرص في منتهاه على أن ترتدي صديقاتها ملابس جميلة، وأن يكنّ محط الأنظار والإعجاب، وأن يصرن من الأمهات. وعلى هذا المنوال نفسه، وبرغم بعدها عن الوصولية والانتهازية، كانت طموحة بخصوص من تحبهم من الرجال وتتابع باهتمام فائق نجاحهم المهني. فلكأنها ما عادت تتمنى شيئاً لنفسها ولكأن كل شيء قد فقد أهميته في نظرها. وبالفعل، كادت حياتها إلى حين التحليل أن تكون خالية من أي حدث يستحق الذكر. فبدلاً من أن تستخدم طاقاتها لغايات شخصية، وضعتها بكاملها في خدمة الأشخاص الذين يهمّها أمرهم. كانت تشارك الآخرين حياتهم بدل أن تحيا حياتها الخاصة.

إن تحليل علاقاتها الطفلية بأبيها وبأمها ينوِّرنا تماماً بصدد طبيعة تحوُّلها الداخلي. فقد أفضى عزوف مبكر عن الدوافع الغريزية إلى تشكيل أنا أعلى بالغ



الصرامة، وجعل من رابع المستحيلات تحقيق أي رغبة من رغباتها. فشهوتها إلى امتلاك قضيب، وهي الشهوة التي استثارت بعض التخييلات الذكرية المبنية على الطموح، ورغباتها الأنثية في إنجاب أطفال وفي عرض نفسها، في عريها أو في أنيق لباسها، على أبيها وفي الفوز بإعجابه، كل ذلك ضربه الحظر، ولكنه لم يقع تحت الكبت. فكل دافع من دوافعها الغريزية أُسقط نحو الخارج على بعض البدائل. فتأنق صديقات مريضتنا أتاح لها الفرصة لتحويل حبها للتأنق إليهن، بينما وجدت رغباتها الليبيدوية وتخييلاتها الطموحية بالطريقة نفسها متصرَّفاً لها في الخارج. وكما كان تسنى لنا أن نشاهد في حالات أخرى، أسقطت على الآخرين حفزاتها الغريزية المحظورة. وحالتها لا تختلف عن حالات المرضى التي عرضتها في الفصل السابق إلا من حيث الصياغة اللاحقة. فالمريضة لم تنسلخ عن بديلاتها، بل تماهت معهن. وقد أبدت حيال رغبات أولئك البديلات تفهماً أكبر، بل شعرت بأنها قريبة إليهن إلى حدّ يبعث على الدهشة. وقد تسامحت إلى حدّ يبعث على العجب أيضاً مع بعض الدوافع الغريزية عند الأخريات، على الرغم من أن أناها الأعلى كان يدين هذه الدوافع عينها ويشجبها إذا كان انتماؤها إلى أناها هي نفسها؛ وكانت تشبع دوافعها الغريزية بمشاركتها في الإشباع الغريزي لدى الأخريات، وهو ما كانت تتيحه لها آليات الإسقاط والتماهي[٢]. وكان السلوك «التنازلي» الذي يقتضيه حظر دوافعها الغريزية الخاصة يتوارى حالما يكون المطلوب تحقيق الرغبات عينها بعد إسقاطها على شخص آخر. ولقد كان تنازلها لصالح الآخرين عن حفزاتها الغريزية الخاصة يصطبغ بصبغة الأنانية. ولكن الجهود التي كانت تبذلها لإشباع دوافع الآخرين الغريزية كانت تستتبع سلوكاً لا نجد مناصاً من وصفه بأنه غيريّ.

هكذا كان سلوكها كله يتّسم بسمة هذا التحويل لرغباتها الخاصة والتنازل

٢ ـ انظر أيضاً ما يقوله بول فيدرن(*) بخصوص «التماهي بالتعاطف»، مجلة **إيماغو**، م٢٢، ١٩٣٦، ص ٣٣.

(*) بول فيدرن: محلل نفسي نمساوي (١٨٧١ ـ ١٩٥٠). كان من أوائل المقربين إلى فرويد. ترأس **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٨ فراراً من النازية. من مؤلفاته: **علم نفس الأنا والأذهنة**. «م».



عنها لصالح الأخريات؛ وكان من الممكن أن نتبيَّن سلوكها هذا بمنتهى الجلاء أيضاً عندما نحلل أحداثاً صغيرة من حياتها. ففي عامها الثالث عشر، مثلاً، تولعت سراً بحب صديق لأختها الكبيرة، وهي الأخت التي كانت فيما سبق موضوعاً لغيرتها الشديدة. كانت تتساءل بينها وبين نفسها عما إذا لم يكن الشاب يفضِّلها، بدوره، على تلك الأخت، وكانت لا تنفكّ تأمل أن تفوز منه بعلامة على حبّه لها. وكان أن منيت عندئذ، كما حدث مراراً من قبل، بخيبة مذلة: فقد قدم الشاب ذات مساء على غير انتظار، ودعا أخت مريضتنا إلى الخروج معه. وفي التحليل تذكرت بوضوح كيف أنها طفقت، حالما زال أثر الصدمة، تبذل نشاطاً محموماً لتجلب إلى أختها كل ما يمكن أن يزيدها «جمالاً» في نزهتها تلك، وساعدتها بتلهف على ارتداء ملابسها، واستعادت، وهي تفعل ذلك، مرحها ونسيت تماماً أن المتعة ستكون من نصيب أختها، لا من نصيبها هي. هكذا تكون قد أسقطت على منافستها رغبتها الخاصة في أن تكون محبوبة ومحطَّ إعجاب، فوجدت في التماهي مع الموضوع المحسود إشباعها.

الظاهرة عينها تتكرر عندما يتصل الأمر بالعزوف عن الرغبة، لا بتحقيقها. كانت تحب أن تقدم أشياء طيبة للأطفال الذين يُعهد برعايتهم إليها وأن تدلِّلهم. وذات يوم شاهدت أماً تتأبى عن حرمان نفسها من قطعة من الحلوى لتعطيها لطفلها. ومع أن المريضة ما كانت هي نفسها تحفل بأطايب المائدة، فقد استثار لديها ذلك التأبي غضباً عارماً، فتبنَّت خيبة الطفل، مثلما كانت تبنَّت من قبل فرحة أختها. ولا ريب في أنها تنازلت للآخرين عن حقِّها في أن تحقق رغباتها بلا عائق.

هذه السمة الطبعية الأخيرة تبرز بمزيد من الجلاء بعد في سلوك مريضة أخرى من الطراز عينه. امرأة في مقتبل العمر، كانت على علاقات ودية ممتازة بحميها، صدر عنها ردّ فعل شديد الغرابة على وفاة حماتها. فقد تولت، مع نساء أخريات من الأسرة، توزيع ملابس المتوفاة. وخلافاً لسائر القريبات، رفضت أن تختصّ نفسها بأي قطعة من الثياب. ولكنها اختارت بالمقابل معطفاً لتهديه إلى نسيبة لها فقيرة. فلما أعربت أخت الراحلة عن رغبتها في الاحتفاظ بياقة الفرو التي تزيِّن

مكتبة الفكر الجديد

المعطف المشار إليه، ثارت ثائرة مريضتنا الشابة التي كانت حافظت على ذلك الحين على موقف متجرد ولامبالٍ. حوَّلت عدوانيتها كلها، المكفوفة في العادة، نحو أخت المرحومة وكان لها في نهاية المطاف ما أرادته: فلسوف تحصل نسيبتها على الهدية التي احتجزتها لها. وقد دلَّ تحليل هذه الحادثة أن بعض مشاعر الإثم هي التي منعت المرأة الشابة من أخذ أي شيء مما كان لحماتها. فاللباس يرمز في نظرها إلى تحقيق رغبة: أن تحلّ لدى حميها محلَّ المرحومة. ولهذا تنازلت وحوَّلت إلى نسيبة لها رغبتها في أن «ترث أمها». فلما فعلت ذلك استطاعت أن تعيش ملء تجربة الرغبة والإحباط، واقتدرت على فرض إرادتها، وهو أمر لم يحدث قط من قبل فيما يتصل بشخصها. فالأنا الأعلى، المسرف في تشدده إزاء الدوافع الغريزية الخاصة للمريضة الشابة، كان يوافق على الرغبة عينها عندما لا تعود مرتبطة بالأنا. وهكذا يكون السلوك العدواني، الملجوم في العادة، قد تناغم على حين بغتة مع الأنا عندما أصبح الأمر يتعلق بإشباع رغبة الغير.

إن في مستطاعنا أن نلحظ العديد من الحالات المشابهة في الحياة اليومية متى ما تركَّز انتباهنا على تلك الطرائق الدفاعية المبنية على التآلف بين الإسقاط والتماهي. فتاة شابة، كانت وساوس ضميرها تمنعها من الزواج، بذلت بالمقابل قصاراها لتزويج أختها. ومريضة أخرى كان قهْرها يمنعها من إنفاق أي مبلغ على شخصها جنحت على حين بغتة إلى التبذير لما توجَّب عليها أن تشتري هدايا. ومريضة أخرى، كان حصرها يمنعها من وضع مشاريعها في السفر موضع التنفيذ، نصحت بعضاً من صديقاتها بحماسة غير متوقعة بالسفر. وفي كل حالة من هذه الحالات كان التماهي مع الأخت والصديقة والمستفيدة من الهدية يتكشف من خلال التفجر المباغت لشعور حادّ بالتضامن، وهو شعور كان يستمر ما دامت المريضة تتطلع إلى تحقيق رغبتها من خلال شخص وسيط. ومنذ قديم الزمان يسخر الناس من «العوانس الخطّابات» ومن «المتطفلين الذين يتفرجون على الآخرين وهم يقامرون ولا يرون البتة أن المبلغ الذي يقامر عليه هؤلاء مرتفع أكثر مما ينبغي». وبالفعل، إن التنازل للغير عن حفزة رغبية، والحرص الشديد بعد ذلك على أن تجد هذه الرغبة طريقها إلى التحقيق، أشبه ما يكونان بالتفرج على لعبة



قمار يتابعها المرء بلذة وشغف، ولكن بدون أن يجرؤ على المشاركة فيها.

غير أن هذه الآلية الدفاعية تفيد في غرضين. فالفرد الذي يلجأ إلى استخدامها يستطيع، أولاً، أن يشارك في إشباع دوافع الآخرين الغريزية بمجرد إيلائه إياها اهتماماً ودياً يحقق له هو نفسه، رغماً عن تحظير الأنا الأعلى، إشباعاً غريزياً غير مباشر. ثانياً، إن الإيجابية والعدوانية، اللتين كان تجميدهما يعيق تحقيق الرغبات الأصلية، تتحرران من جراء تلك السيرورة. فالمريضة، العاجزة عن بذل أي مجهود لتأمين إشباع فموي لها، يثور سخطها عندما تشاهد أماً تفرض على طفلها حرماناً من النوع نفسه. والكنّة، المحظور عليها أن تطالب لنفسها بحقوق الحماة الراحلة، يمكنها أن تستنفر كل عدوانيتها لتذود عن الحق الرمزي لشخص آخر. والمستخدمة التي لا تجرؤ أبداً على المطالبة بزيادة راتبها تحاصِر على حين بغتة مديرتها بمطالباتها بزيادة راتب زميلة لها. وعندما نحلل مواقف كهذه نكتشف أصل هذه السيرورة الدفاعية وتفرُّعَها عن نزاع قديم العهد بين الطفل وبين سلطة أحد الوالدين، وهو نزاع لا بدّ أن يكون نشب بصدد إشباع غريزي ما. وعدوانية الابن تجاه أمه، تلك العدوانية المشجوبة ما دامت تتصل برغبة غريزية لدى الابن نفسه، يُطلق لها العنان حالما يصبح بيت القصيد إشباع رغبات شخص غريب في الظاهر. والنموذج المألوف لهذا النوع هو المحسن الاجتماعي الذي يجنِّد كل عدوانيته وكل طاقته ليجمع التبرعات من بعض الناس ليعطيها لأناس آخرين. وربما يكون النموذج الأكثر تطرفاً هو نموذج القاتل الذي يبادر، باسم المضطهَدين، إلى اغتيال المضطهِد. وضحية هذه العدوانية المتحررة يمثِّل على الدوام صاحب السلطة الذي كان فرض في الطفولة العزوف الغريزي.

إن عوامل شتى تحدد اختيار الموضوع الذي تُحوَّل إليه الدوافع والحفزات الغريزية. وقد يكون إدراك الحفزة المحظورة عند شخص آخر كافياً في بعض الأحيان ليوحي للأنا بأن الفرصة قد سنحت له ليقوم بالإسقاط. ففي مثال وراثة الحماة اكتسبت الرغبة صفة البراءة نظراً إلى أن الشخص البديل لم يكن من الأقارب المقربين، على حين أن هذه الرغبة عينها كانت مشوبة بشائبة زنا المحارم لدى المريضة نفسها. وفي معظم الحالات يكون الشخص الذي يضطلع بدور



البديل موضعاً لحسد قديم. فالمربِّية الغيرية في مثالي الأول تحوّل إلى أصدقائها تخييلاتها الطموحية، وإلى صديقاتها رغباتها الليبيدية. ففي عاطفتها الحبِّية حلَّ أصدقاؤها محلَّ أبيها وأخيها الأكبر اللذين كانا فيما مضى موضوعاً لحسدها القضيبي، بينما كانت صديقاتها يمثِّلن أختها الحسناء التي كان جمالها قد تأدى في زمن المراهقة إلى تحول حسدها القضيبي إلى غيرة. لقد استشعرت أن طموحاتها يعاكسها كونها أنثى، ولم تكن تعتقد نفسها جميلة بما فيه الكفاية لتفوز بإعجاب الرجال. فكان أن نقلت رغباتها، وقد خاب أملها، إلى مواضيع تشعر أنها مؤهلة أكثر منها لتحقيق تلك الرغبات. فقد كان على أصدقائها الرجال أن يحرزوا في حياتهم المهنية النجاحات التي تعذَّر عليها هي أن تحققها؛ وكان على الفتيات الأجمل منها منظراً أن يحققن نجاحاً مماثلاً في مجال الحب. لقد كان التنازل الغيريّ وسيلة لها للتغلب على مذلتها النرجسية.

إن هذا التنازل لصالح موضوع أكثر صلاحة لتحقيق رغبة غريزية من رغبات الذات غالباً ما يتفق أن يحدد علاقات الفتاة بالرجل الذي وقع عليه اختيارها ليمثِّلها هي نفسها، وذلك على حساب كل علاقة موضوعانية OBJECTALE حقيقية[٣]. فهي إذ تعقد على هذا النحو علاقات «غيرية» مع هذا الرجل، تتطلب منه أن يحقق الخطط التي تعتقد أن أنوثتها تمنعها من وضعها موضع تنفيذ: إنها ترغب، مثلاً، في أن ينجز، مكانها، بعض أشواط الدراسة، وأن يختار مهنة بعينها، وأن يغدو غنياً أو شهيراً، إلخ. وفي مثل هذه الحالات تتراكب الأنانية والغيرية معاً بألف صورة وصورة. فنحن جميعاً نعرف آباء وأمهات يفوِّضون أولادهم، بسائق من الإيثار والأثرة في آن معاً، بتحقيق مشاريع حياتهم التي كانوا حلموا سالفاً بتحقيقها. وتجري الأمور هنا وكأن هؤلاء الآباء والأمهات يأملون أن يستخدموا ولدهم، الذي يعتقدون أنه محبوّ أكثر منهم بالصفات

٣ ـ الموضوع في الأدبيات التحليلية النفسية هو حصراً الموضوع الحبي، أو حسب تعبير فرويد هو «ما يمكن به وعن طريقه للدافع الغريزي أن يصل إلى هدفه» بدءاً بثدي الأم لدى الطفل وبدائله لدى الراشد وانتهاء بالتميمة FETICHE لدى التميمي. والنسبة إليه هي «الموضوعاني» OBJECTAL، أي بإضافة نون النسبة تداركاً للخلط بين هذا المفهوم الأساسي في التحليل النفسي وبين «الموضوعي» OBJECTIF، أي عكس ما هو ذاتي، بالمعنى القاموسي المتداول. «م».



اللازمة، للوصول إلى الهدف الذي ما تيسَّر لهم الوصول إليه. بل ربما كانت العلاقات الغيرية الخالصة التي تشدّ الأم إلى ابنها الذكر ترتكز، في شطرها الأكبر، إلى هذا التفويض بالرغبات إلى مخلوق مؤهَّل أكثر منها، بحكم جنسه، لتحقيقها. وبالفعل، إن نجاح الرجل يعوِّض نساء أسرته أوسع تعويض عن عزوفهن عن مطامحهن الخاصة.

إن أروع مثال وأكمله عن تفويض كهذا لصالح موضوع أكثر صلاحة تقدِّمه مسرحية **سيرانو دي برجراك** لإدمون روستان[٤]. فبطل هذه المسرحية شخصية تاريخية من القرن السابع عشر، نبيل فرنسي، شاعر وضابط في الحرس، معروف بنباهته وشجاعته، ولكن القبح غير المألوف لاستطالته الأنفية كان يسدّ عليه الطريق إلى قلوب النساء. وقد وقع في هوى ابنة عمه الحسناء روكسان، ولكنه قطع حالاً حبل كل رجاء في أن يلقى لديها استجابة لأنه كان على وعي بقبحه. وبدلاً من أن يستخدم ضد منافسيه مهارته المرهوبة في المبارزة بالسيف، فوَّض كل صبوات حبه لرجل أكثر وسامة منه. ومنذ أن سلك طريق التنازل هذا، وضع قوته وشجاعته ونباهته في خدمة ذلك المنافس السعيد الحظ، وبذل كل ما في وسعه ليعينه على تحقيق أمانيه. وذروة المسرحية مشهد في الليل، تحت شرفة المرأة المعشوقة من قبل الرجلين. فقد وقف سيرانو يهمس في أذن منافسه بالكلمات التي تعينه على خطب ودّها، ثم تولى بنفسه الكلام مستتراً تحت جناح الليل، ولكن حماسة تشبيبه أنسته أنه ليس هو خاطب ودِّها. ولم يفطن إلى تضحيته إلا عندما تسلق كرستيان الجميل ـ وقد مسّ شغاف قلب روكسان ـ شرفة الفتاة واحتضنها معانقاً. وما كان يزداد إلا تفانياً في خدمة منافسه، حتى إنه حماه في المعركة بدل أن يهتم بحماية حياته هو نفسه. وحتى بعد أن اختطف الموت منه بديله ظل عازفاً عن مطارحة روكسان الغرام، كما لو أن ذلك محرَّم عليه. وأما

٤ ـ إدمون روستان: شاعر ومسرحي فرنسي (١٨٦٨ ـ ١٩١٨). اشتهر بمسرحيته **سيرانو دي برجراك** التي استوحاها من حياة الكاتب «الزنديق» سافينيان سيرانو دي برجراك (١٦١٩ ـ ١٦٥٥)، وقد نقلها إلى العربية بتصرف مصطفى لطفي المنفلوطي. ومدار المسرحية على أنف سيرانو الضخم والبشع الذي حال بينه وبين الزواج من ابنة عمه روكسان، فضحّى بحبه وأعار ذلاقة لسانه لزميل له بليد في الكلام يدعى كريستيان ليخطب ودّ حبيبته ويحظى بها بدلاً منه. «م».



أن الكاتب في تصويره لـ «غيرية» سيرانو يحكي لنا عن أكثر من مجرد مغامرة غرامية غريبة، فذلك ما نتبيَّنه من الموازاة التي يقيمها بين حياة سيرانو الغرامية وبين مصيره كشاعر. فكما أن كرستيان نجح بفضل رسائل سيرانو وأشعاره في الفوز بحبّ روكسان، كذلك إن بعض الكتاب من أمثال كورناي[٥] وموليير[٦] وسويفت[٧] قبسوا من مؤلفات سيرانو المجهولة مشاهد بكاملها، فزادوا بذلك من شهرتهم. وتصور المسرحية سيرانو راضياً بقسمته هذه. فهو على أتم استعداد لأن يعير كلماته لكريستيان الأكثر منه وسامة، ولموليير الأكثر منه عبقرية. فعيوبه، فيما يحسب، تسدّ عليه الطريق إلى كل نجاح، وتدفع به إلى الاعتقاد بأن أولئك الذين يقدَّمون عليه أهل أكثر منه لتحقيق تخييلات رغائبه.

في الختام لندرس لهنيهة أخرى، ومن زاوية أخرى، ذلك التنازل الغيريّ، أي في علائقه بخوف الموت. فكل فرد يسقِط على نطاق واسع دوافعه الغريزية على الآخرين لا يعود يستشعر خوف الموت هذا. فأناه لا يعود يبالي، ساعة الخطر، بحياته الخاصة. بل إن الهواجس والمخاوف تنتابه، على العكس، من ذلك، على حياة من يحبهم من الأشخاص. وتدل المشاهدة أن هذه المواضيع، التي يعلّق على سلامتها أهمية كبرى، هي الشخصيات التي حوّل إليها رغباته الغريزية. ومن ذلك أن المربية الشابة التي تكلمنا عنها آنفاً كانت ترتعد خوفاً على صديقاتها في فترة حملهن ووضعهن. وفي **سيرانو دي برجراك**، يهتم البطل بسلامة كرستيان في أثناء المعركة أكثر بكثير مما يهتم بسلامته الشخصية. ومن المحقق أن الأمر ليس

---

٥ ـ بيير كورناي: شاعر ومسرحي فرنسي (١٦٠٦ ـ ١٧٨٤). كتب ٣٢ مسرحية كوميدية وتراجيدية، من أشهرها: **السيد** التي استوحاها من المسرحي الإسباني غيلن دي كاسترو (١٥٦٩ ـ ١٦٣١) في مسرحيته **طفولة السيد**. والسيد هو الاسم الذي كان أطلقه العرب على الفارس الإسباني رودريغز اعترافاً منهم بشهامته. «م».

٦ ـ موليير: أشهر المسرحيين الكوميديين الفرنسيين (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣). وفي عصره كان دارجاً أن «ينتحل» الكتاب عن بعضهم بعضاً بتصرف، كما فعل موليير نفسه في مسرحيته **مكائد سكابان** التي اقتبس بعض مشاهدها عن الروائي والمسرحي سافينيان سيرانو دي برجراك في مسرحيته **الدعيّ الملعوب به**. «م».

٧ ـ جوناثان سويفت: كاتب إيرلندي (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥). اشتهر بروايته **أسفار غوليفر** التي اقتبس فيها بعض المشاهد من رواية سافينيان سيرانو دي برجراك: **رحلة في القمر**. «م».



في هذه الحالة أمر تنافس مكبوت يعاود انبجاسه في صورة تمني الموت ـ الذي سرعان ما يكبح ـ للخصم. بل يدل التحليل أن حضور هذه الأنواع من المخاوف وغيابها يكشفان بالأحرى عن أن الفرد المعني لا يحرص على حياته إلا بقدر ما تتيح له من فرص وإمكانيات، ولو قليلة، لإشباع دوافعه الغريزية. والحال أنه عندما يحوّل دوافعه الغريزية إلى شخص آخر، فإن حياة هذا الشخص الآخر، لا حياة الفرد المعني، تغدو هي الثمينة، ودمار الموضوع البديل يكافئ، كما يحدث لسيرانو عند موت كرستيان، دمار آماله كافة.

وإنما بعد التحليل فحسب اكتشفت مربيتنا الشابة لأول مرة، عندما اتفق لها أن وقعت طريحة الفراش، أن فكرة الموت فكرة غير مستطابة بالنسبة إليها. فعلى دهش عظيم منها تمنت بحرارة أن تعيش حياة مديدة بما فيه الكفاية لتؤثث شقتها الجديدة ولتجتاز امتحاناً يضمن لها الترقية في مهنتها. وكان الشقة والامتحان يمثّلان، وإن في صورة مصعّدة، تحقيقاً لبعض الرغبات الغريزية التي أتاح لها التحليل أن تعيد دمجها بحياتها الخاصة[٨].

٨ ـ ثمة تشابه واضح بين الشروط المحدِّدة لمسلك التنازل الغيريّ والشروط المحدِّدة للجنسية المثلية المذكرة. فالجنسي المثلي يحوّل، هو أيضاً، إلى أخ أصغر منه سناً، كان موضوعاً لحسده من قبل، رغبته المتطلبة للحب الأموي. وهو يشبع متطلباته هذه بتبنيه فيما بعد موقفاً أمومياً يتيح له أن يتمتع، بكيفية إيجابية وسلبية في آن معاً، بالعلاقة بين الأم وابنها. على أنه ليس من اليسير أن نحدد دور هذه السيرورة في التنازلات الغيرية التي تقدم بنا وصفها. فلا بدّ أن هذه الآلية ضمنت لسيرانو كما للمربية الشابة بعض الإشباعات حتى قبل أن يتمكنا من الاستمتاع بنجاح الأشخاص المفوضين عنهما. فما يساورهما من نشوة بالعطاء وبالمساعدة التي يقدمانها يدلّ أن التنازل هو بحدّ ذاته سيرورة غريزية مستحبة. وكما في التماهي مع المعتدي، نراهما ينتقلان من السلبية إلى الإيجابية. ونرى الإذلال النرجسي يعوَّض عنه بتنامي الإحساس بالقوة، إذ يتبنى الفرد المعني دور المحسن. وهكذا توازن السعادة الممنوحة للآخرين كفة الحرمان المرتضى به سلبياً.

ويبقى لنا أن نتساءل عما إذا كان ثمة فعلاً علاقات غيرية لا يلعب فيها الإشباع الشخصي أي دور على الإطلاق، ولو في شكل منكّر ومُشمى Sublimé. على أن الشيء الأكيد هو أن الإسقاط والتماهي لا يمثلان الشكلين الوحيدين للسلوك الغيريّ في ظاهره. فثمة سبل سهلة أخرى تفضي إلى الهدف نفسه، ومنها مثلاً أشكال شتى من المازوخية.



مكتبة
الفكر الجديد

القسم الرابع

آليات الدفاع المتعيِّنة بالخوف من قوة الدوافع الغريزية

دراسة لظاهرات البلوغ

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الحادي عشر

الأنا والهذا في زمن البلوغ

بين جميع مراحل الحياة البشرية التي تتلبس فيها السيرورات الغريزية أهمية عظمى لا مماراة فيها، كانت مرحلة البلوغ هي التي استأثرت ولا تزال باهتمام علماء النفس، بالنظر إلى الظاهرات النفسية التي تصاحب النضوج الجنسي. ففي عدد كبير من الدراسات غير التحليلية النفسية نقع على وصف أخاذ للتغيرات التي تطرأ على الشخصية في تلك السنوات، ولاضطرابات التوازن النفسي، وعلى الأخص للتناقضات التي يتعذر فهمها أو التوفيق فيما بينها والتي تعلن عن ظهورها عندئذ في الحياة النفسية. فالمراهق أناني، مفرط في أنانيته، يعتبر نفسه مركزَ الكون والموضوعَ الوحيد الجدير بالاهتمام؛ ولكنه يبدي في الوقت نفسه مقدرة على التفاني والتضحية بالذات بدرجة لن يعود إلى إدراكها مرة ثانية في حياته اللاحقة. وهو يعقد علاقات حب متأججة كل التأجج، ولكنه يقطعها على مثل النحو الفجائي الذي بدأها به؛ ويتكيّف في حماسة مع حياة الجماعة، ولكن تستبدّ به في الوقت نفسه حاجة آسرة إلى الوحدة والعزلة؛ ويتأرجح بين طاعة عمياء لقائد اختاره بنفسه وبين تمرد عنيف على كل سلطة كائنة ما كانت. إنه نفعي، مادي، ولكنه مفعم أيضاً بمثالية سامية، ويمارس الزهد، ولكن تباغته أيضاً الحاجة إلى إشباعات غريزية هي من البدائية في منتهاها. وفي بعض الأحيان يظهر في سلوكه فظاظة وعدم محاباة تجاه قريبه، ولكنه يبدي هو نفسه حساسية مفرطة بكل ما يمكن أن يمسّ مشاعره. ويتأرجح مزاجه بين التفاؤل الباسم وبين الكآبة الحالكة السواد، بين حماسة لا تعرف الكلل في العمل وبين كسل خامل وتبلد حسٍّ إزاء كل شيء.

لقد حاول علم النفس الأكاديمي أن يجد لهذه الظاهرات تفسيرين متباينين



غاية التباين. يقول التفسير الأول إن هذه العاصفة التي تجتاح الحياة النفسية تنجم بصورة مباشرة عن سيرورة من طبيعة كيماوية في أرجح الظن، مرتبطة بالنشاط المستجد للغدد الجنسية. ومن ثم فهي لا تعدو أن تكون محض صدى سيكولوجي لبعض السيرورات الفيزيولوجية. لكن النظرية الثانية ترفض فكرة ارتباط من هذا القبيل بين البدني والنفسي. فالانقلابات النفسية المشار إليها ما هي بموجب هذه النظرية إلا علامة على بلوغ النضج النفسي، مثلما تعتبر التغيرات البدنية الطارئة في الفترة نفسها علامة على بلوغ النضج الجنسي البدني. وتزامن الظاهرات النفسية والبدنية لا يثبِت البتة أن هذه علة تلك أو بالعكس. هكذا تعلن هذه النظرية الثانية استقلال النمو النفسي عن السيرورات الغدّية والغريزية. ويتفق هذان الاتجاهان السيكولوجيان المتعارضان على نقطة وحيدة: وهي أن لظاهرات البلوغ، سواء أكانت بدنية أم نفسية، أهمية بالغة من منظور نمو الفرد، إذ هي بمثابة البداية والأصل للحياة الجنسية وللقدرة على الحب وللشخصية بكاملها.

والعجيب في الأمر أن التحليل النفسي، الذي غالباً ما اتخذ الظاهرات المتناقضة للحياة النفسية منطلقاً لمباحثه، لم يولِ حتى الآن مشكلات البلوغ إلا اهتماماً ضئيلاً. وخلا بعض الاستثناءات[1]، يمكن القول إن المحلِّلين النفسيين

---

١ ـ فرويد: **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، الأعمال الكاملة، م٥. إرنست جونز(*): بعض مشكلات المراهقة، مجلة **إيماغو**، م٩، ١٩٢٣، ص ١٤٥ وما يليها. س. برنفلد(**): **حول شكل نمطي من البلوغ لدى الذكور**. المصدر نفسه، ص ١٦٩ وما يليها.

(*) إرنست جونز JONES: محلل نفسي بريطاني (١٨٧٩ ـ ١٩٥٨). اشتهر أول الأمر بالسيرة التي وضعها عن حياة فرويد، ومؤسس **جمعية لندن للتحليل النفسي**. كان له دور عملي بارز في تاريخ حركة التحليل النفسي، وقدّم كل ضروب المساعدة الممكنة لأنصار التحليل النفسي الهاربين من الاضطهاد النازي. وقد ربطته بفرويد صلة صداقة حميمة، وله مساهمات تحليلية نفسية في الأنتروبولوجيا والفن واللغة، من أشهرها دراسته عن **أوديب وهملت**. «م».

(**) سيغفريد برنفلد: مربٍّ ومحلل نفسي نمساوي من أصل يهودي (١٨٩٢- ١٩٥٣). كان له في شبابه نشاط في الحركة الصهيونية، وحاول لاحقاً الجمع بين الاشتراكية والتحليل النفسي، وكان رائداً بالتالي للحركة التي ستعرف باسم الماركسية الفرويدية. من مؤلفاته: **الشعب اليهودي وشبيبته**، **سيزيف أو حدود التربية**، **علم نفس الطفل**. «م».



أهملوا بالحريّ دراسة هذه المرحلة من الحياة، واختصوها بمكانة ثانوية بالقياس إلى المراحل الأخرى. وسبب هذا الإهمال واضح. فالتحليل النفسي يرى، بالفعل، أن حياة الإنسان الجنسية تبدأ قبل البلوغ بزمن طويل. وبموجب النظريات التحليلية النفسية تتم اندفاعة الجنسية على مرحلتين. فالبداية الأولى تكون في السنة الأولى من الحياة. ففي المرحلة الطفلية المبكرة، لا في مرحلة البلوغ، يتمّ التقدم الفاصل في مسار النمو، إذ يمر الفرد في تلك الفترة تحديداً بأطوار جنسية قبتناسلية مهمة، وتتكون دوافعه الغريزية الجزئية المختلفة وتبدأ بالعمل، ويتحدد سواؤه أو شذوذه، كما تتعين قدرته أو عدم قدرته على الحب. والمفروض من ثم بدراسة هذه المرحلة المبكرة أن تمدَّنا بمعرفة أصل الجنسية وتطورها، على حين لا يطلب علم النفس الأكاديمي هذه المعلومات إلا من دراسة البلوغ. فمن منظور التحليل النفسي لا يعدو البلوغ أن يكون طوراً من أطوار نمو الحياة البشرية. فهو أول تكرار للمرحلة الجنسية الطفلية؛ وفي زمن لاحق يكون التكرار الثاني، وذلك في سن الإياس[٢]. وكل واحدة من هذه المراحل الجنسية هي بمثابة تجديد وإحياء للمرحلة السابقة لها، وكل واحدة منها تضيف شيئاً خاصاً إلى الجنسية البشرية. وبحكم النضوج الجنسي البدني فإن التناسلية هي التي تتبوأ، في زمن البلوغ مكانة الصدارة، فتكتب الغلبة للميول التناسلية على الدوافع الغريزية الجزئية القبتناسلية. وفي سن الإياس، ومع الأفول البدني للوظائف الجنسية، تعرف الدوافع الغريزية التناسلية اندفاعاتها الأخيرة، وتسترد الدوافع الغريزية القبتناسلية حقوقها القديمة.

لقد اهتمت الأدبيات التحليلية النفسية حتى الآن، وفي المقام الأول، بالتشابهات بين هذه المراحل الثلاث من الجنسية الهائجة. وهذه التشابهات تكون ظاهرة بوجه خاص في العلاقات الكمية بين قوى الأنا والدوافع الغريزية. ففي الطفولة الأولى، وفي البلوغ، وفي سن الإياس، يقف «هذا» قوي نسبياً في مواجهة «أنا» ضعيف نسبياً. وبناء عليه نقول إن الهذا يكون في بعض المراحل عاتياً والأنا موهناً. وفضلاً عن ذلك، توجد تشابهات كبيرة من طبيعة كيفية في

٢ ـ من الواضح أن آنا فرويد تحصر كلامها هنا بالمرأة نظراً إلى أن سنّ الإياس، أي سنّ انقطاع الطمث، سيرورة لا تطرأ إلا لدى النساء. «م».



ما يتصل بالعلاقة بين الأنا والهذا في تلك المراحل الثلاث. فالهذا البشري يبقى هو هو إلى حدّ كبير في جميع أطوار الحياة. صحيح أن الدوافع الغريزية قابلة لأن تتحور عندما تصطدم بالأنا وبمتطلبات العالم الخارجي، لكن التغيرات داخل الهذا نفسه تكون طفيفة أو حتى معدومة، خلا ما اتصل منها بالأهداف الغريزية التي تصير تناسلية بعد أن تكون في الأصل قبتناسلية. وبالمثل، إن الرغبات الجنسية، المتهيئة على الدوام لتخطي حاجز الكبت حالما يتعزز الليبيدو، وكذلك توظيفاتها الموضوعانية وتخييلاتها، تبقى بلا تغيير يذكر في مختلف مراحل الطفولة والبلوغ وسن الإياس. والتشابهات الكيفية بين هذه الأطوار الثلاثة من تعزيز الليبيدو يفسرها الثبات النسبي للهذا.

إذاً فالاختلافات الملحوظة بين مختلف المراحل، تلك الاختلافات التي أهملتها بصفة عامة حتى الآن أدبيات التحليل النفسي، إنما مردها إلى العامل الثاني في العلاقات بين الهذا والأنا، أي إلى قابلية الأنا البشري الهائلة للتحوُّر والتحوُّل. فبقدر ما يبقى الهذا هو هو، يقبل الأنا بالقدر نفسه التغيُّر. فلندرس على سبيل المثال الأنا في الطفولة الأولى والأنا في البلوغ. فهما يختلفان من حيث الاتساع والمضامين والمعارف والقدرات، ولا تكون روابطهما ولا ضروب حصرهما واحدة. ومن ثم إن الأنا، في صراعه ضد الدوافع الغريزية، يستخدم آليات دفاع مختلفة في المراحل المختلفة. ونحن نعتقد أن دراسة أكثر تقصياً للاختلافات الملحوظة بين الطفولة الأولى وبين البلوغ قمينة بتنويرنا بصدد تكوُّن الأنا، مثلما كانت دراسة التشابهات بين تلك المراحل الثلاث قد زوَّدتنا بالمعلومات عن الحياة الغريزية.

وكما في حالة السيرورات الغريزية، فإن دراسة النمو اللاحق للأنا لا يمكن أن تكون مثمرة إلا بالاستناد إلى الفهم الجيد للنمو الأولي. فقبل أن نتطلع إلى تفسير الاضطرابات التي تصيب الأنا في مرحلة البلوغ، يخلق بنا أن نعرف ما كانه، في الطفولة الأولى، موقف هذا الأنا نفسه. فلدى الطفل الصغير يخضع الصراع بين الأنا والهذا لبعض الشروط الخاصة. ففي تلك الفترة يكون الطفل، الذي تتناهشه الرغبات المميِّزة لكل من الطور الفموي والشرجي والقضيبي، بحاجة ملحة إلى



أقصى حدٍّ إلى الإشباع، وتكون الانفعالات العاطفية والتخييلات المرتبطة بعقدتي أوديب والخصاء بالغة الحيوية. والحال أن الأنا، المكره على مجابهة هذه التظاهرات كلها، يكون في سبيله إلى التكوُّن ليس إلا، ويكون من ثم ضعيفاً وغير مكتمل النمو بعد. على أن الطفل الصغير ليس مخلوقاً منفلت الغرائز، كما أنه لا يستشعر في الظروف العادية الضغط الداخلي لضروب الحصر الغريزي. فهو يجد في العالم الخارجي، أي في التأثيرات التربوية التي تُمارس عليه، سنداً قوياً ضد حياته الغريزية. وهو لا يجد نفسه أبداً مكرهاً على أن يقيس قواه الضعيفة بالحفزات الغريزية الأقوى بكثير والتي لا محالة من أن يستسلم الأنا لها فيما لو ترك وحيداً في مواجهتها. والحق أن محيط الطفل يكاد لا يترك له أية فسحة من الوقت ليدرك رغباته الخاصة وليعي مدى قوته أو ضعفه بالقياس إلى دوافعه الغريزية. وموقف الطفل من الهذا العائد إليه إنما يمليه عليه ببساطة الأشخاص الذين يتولونه بالرعاية، متوسلين إلى ذلك سبيل الترغيب والترهيب، مجزلين له الوعود بالحبّ وموجهين إليه بالتهديدات بالعقاب.

بفضل هذه المؤثرات الخارجية، وفي خلال سنوات قليلة، يكتسب الطفل قدرة كبيرة على ضبط دوافعه الغريزية، ولكن من المتعذر علينا أن نحدد ما كانه، في هذا التطور، دور الأنا من جهة أولى، ودور الضغط المباشر للعناصر الخارجية من الجهة الثانية. وإنما بقدر ما يخضع الأنا، في مجرى هذا الصراع، للتأثيرات الخارجية يوصف الطفل بأنه «عاقل». وبالمقابل، إنه ينعت بأنه «سفيه» عندما ينحاز أناه إلى الهذا، ويتمرد على جميع التقييدات التي تفرضها التربية على الملذات الغريزية. وقد أُطلق اسم البيداغوجيا على العلم الذي جعل هدفه الدراسة الخاصة لتأرجحات الأنا الطفلي هذه بين الهذا والعالم الخارجي. فهذا العلم يبحث عن الوسائل التي من شأنها أن توثّق أكثر فأكثر رابطة التحالف بين التربية والأنا بأن تجعل كفاحهما المشترك ضد قوة الدوافع الغريزية أكثر فأكثر نجعاً وفعالية.

على أنه تدور في الحياة النفسية للطفل الصغير رحى صراع داخلي يقع بعيداً عن متناول التربية. ففي وقت مبكر يعتمد العالم الخارجي ممثلاً عنه في داخل



نفس الطفل، وهذا الممثل هو الخوف الفعلي. ووجود هذا الحصر لا ينهض بذاته دليلاً على أنه قد تكونت في الأنا هيئة أعلى مقاماً، هي الضمير أو الأنا الأعلى، ولكنه يكون بمثابة علامة بشيرة به. فالحصر الواقعي يستبق المعاناة التي يمكن أن يعاني منها الطفل من جراء العقوبات التي قد ينزلها به العالم الخارجي؛ فهو ضرب من كدر تمهيدي يحكم سلوك الأنا، بصرف النظر عن التحقيق الفعلي أو عدمه للعقوبة المتوقعة. وتتناسب شدة الحصر الواقعي من جهة أولى مع مدى ما يتبدى عليه محيط الطفل من خطورة وتهديد؛ ونحن نعلم من جهة ثانية أن الحصر الواقعي يعززه انقلاب السيرورات الغريزية ضد الذات، وغالباً ما يرتبط بتخييلات مولِّدة للحصر ولا تقيم اعتباراً لتغييرات الواقع. ومن هنا تتراخى أكثر فأكثر روابطه بهذا الواقع. ومن المؤكد أن المطالب الغريزية الجامحة هي التي تدخل، في نفس الطفل الصغير، في صراع مع حصر واقعي جارف، وأن أعراض العصاب الطفلي تمثل محاولة لتصفية هذا الصراع. فما الفرع العلمي الذي تعود إليه في هذه الحال دراسة هذه الصراعات الداخلية ووصفها؟ هذا السؤال هو محل نزاع شديد، إذ يدَّعي بعضهم أن هذه الصراعات تدخل في اختصاص علم التربية (البيداغوجيا)، بينما نعتقد نحن المحلِّلين النفسيين أنها تدخل في مجال علم الأعصبة.

يتسم موقف الأنا الطفلي بسمة خاصة أخرى، لا تعود أبداً إلى الظهور في الأطوار اللاحقة من الحياة. ففي كل موقف دفاعي لاحق سيتواجه خصمان، إذ إن الدافع الغريزي سيجد في قبالته أنا اكتملت صلابته بقدر أو بآخر ولن يكون أمامه مندوحة عن التفاهم معه. أما لدى الطفل الصغير، على العكس، فإن الأنا يتولد من الصراع بالذات. وذلك الشطر من الأنا الذي سيتوجب عليه، على مدى الحياة، أن يواجه الدوافع الغريزية إنما يتكون في ذلك الزمن المبكر تحت الضغط المتواقت لكل من المطالب الغريزية للهذا من جهة أولى، وللحصر الواقعي الخارجي المصدر من الجهة الثانية. ويمكن القول إن الأنا «مصنوع على المقاس»[٣]، أي مفصَّل على نحو يستطيع معه أن يقيم توازناً بين القوتين كلتيهما:

٣ ـ تنزع البيداغوجيا العصرية المتطرفة جداً إلى أن تفصِّل العالم الخارجي أيضاً على مقاس «الطفل».



الاندفاعة الغريزية وضغط العالم الخارجي. وفي تقديرنا أن المرحلة الطفلية الأولى تبلغ نهايتها متى ما بلغ هذا الشطر من تكوُّن الأنا مستوى معيناً. فالأنا يكون قد قرر ما المواقع التي سيحتلها في حربه مع الهذا. ويكون قد قرر تناسباً كمياً معيَّناً بين الإشباع الغريزي والعزوف عن هذا الإشباع، والتوازن المتحصِّل له على هذا النحو يتيح له أن يجد الحل لصراعات جزئية مختلفة. وبما أنه يكون اعتاد على تحمل بعض التأجيل في تحقيق رغباته، فإنه يفضل، بين جملة طرائقه الدفاعية، تلك التي تكون ممهورة بخاتم الحصر الواقعي. فلكأن ضرباً من تسوية مُرْضية لكلا الطرفين قد قام بين الأنا والهذا، فصار التعايش بينهما ممكناً.

لا يلبث الموقف، في السنوات القليلة التالية، أن يتعدل. فمرحلة الكمون، المترافقة بتقلص في القوى الغريزية مشروطٍ فيزيولوجياً، تتيح للأنا هدنة في حربه الدفاعية. وعندئذ ينفسح أمامه المجال ليكرس نفسه لمهام أخرى وليزيد معارفه وقدراته، فيصير على هذا النحو أقدر من ذي قبل على مواجهة العالم الخارجي وأقل ضعفاً وخضوعاً. ثم إن هذا العالم نفسه لا يعود يبدو له كلي القدرة كما من قبل. ورويداً رويداً، وطرداً مع اقتدار الأنا على تصفية موقفه الأوديبي، يتعدل موقفه إزاء المواضيع الخارجية. فالطفل لا يعود يتبع مطلق التبعية لوالديه، ويطفق التماهي يحلّ أكثر فأكثر محل الحب الموضوعاني. وكل ما لقَّنه الوالدان والمربون للطفل: رغباتهم، مطالبهم، مثلهم العليا، كل ذلك يتم استدخاله أكثر فأكثر. والعالم الخارجي لا يعود يتبدى في الحياة الداخلية للكائن الغضّ العود على أنه مجرد مولِّد للحصر الواقعي. ويكون الطفل قد أقام في داخل أناه هيئة دائمة تمثِّل مطالب المحيط، وهي ما نسميه الأنا الأعلى. وطرداً مع حدوث هذا التحول، يتغيَّر أيضاً الحصر الطفلي. فالخوف من العالم الخارجي يقلّ ويضؤل، ويخلي مكانه تدريجياً للخوف من القوى الجديدة التي نابت مناب القوى القديمة: الأنا الأعلى أو الضمير والشعور بالذنب. هكذا يجد الأنا، في مرحلة الكمون، حليفاً جديداً له في الكفاح الذي يخوض غماره ضد السيرورات الغريزية. وفي أثناء هذه المرحلة يضطلع الحصر الأخلاقي بالدور الذي كان يضطلع به الحصر الواقعي في الطفولة الأولى، فيقوم هو بتحريك آليات الدفاع ضد الدوافع



الغريزية. وهنا أيضاً لا يكون من اليسير علينا أن نحدد مقدار ما يسهم به كل من الأنا والتأثير القوي للأنا الأعلى في عملية السيطرة هذه على الدوافع الغريزية.

على أن فترة الهدنة التي تتيحها مرحلة الكمون لا تدوم طويلاً. فما إن يتوقف الصراع الناشب بين الخصمين، الأنا والهذا، حتى يطرأ تعديل جوهري، من جراء تدعيم أحد الطرفين، على أسس الاتفاق بالذات. فالسيرورة الفيزيولوجية المتمثلة بالنضوج البدني الجنسي تقترن بإحياء للسيرورات الغريزية يأخذ صورة تدفق واندفاع لليبيدو إلى مسرح الحياة النفسية. فيتبدل من ثم توازن القوى بين الأنا والهذا بعد كل العناء الذي تكلفه قيامه، ويتقوَّض، وتدبّ الحياة من جديد في الصراعات الداخلية بين الهيئتين.

في أول الأمر لا يحدث شيء ذو أهمية في جانب الهذا. فالفترة الفاصلة بين الكمون والبلوغ، وهي التي تُعرف بما قبل البلوغ، ما هي إلا مرحلة تمهيدية يتهيأ في أثنائها النضوج الجنسي. ومن وجهة النظر الكيفية لا يطرأ أي تبدل على الحياة الغريزية؛ وإنما وحدها كمية الحفزات الغريزية تتزايد، وهذا حتى في خارج نطاق الجنسية. وبالنظر إلى أن كمية الليبيدو المتاح تكون أكبر، فإن جميع دوافع الهذا الغريزية تُشحن به بغير تمييز. ومن جراء ذلك تتزايد شدة الدوافع العدوانية لتصل إلى حدّ القساوة والفظاظة غير المكبوحة، وتنقلب الشهية نهماً، وتتحول «شقاوة» مرحلة الكمون إلى جنوح الشباب. وتعاود النزعات الفموية والشرجية، التي طال انطمارها، انبجاسها على نحو مباغت. فإذا بعادات النظافة، التي تكلف اكتسابها ما تكلفه من عناء في مرحلة الكمون، تخلي مكانها للتلذذ بالقذارة والفوضى. ومحل الحياء والشفقة تحلّ النزعات الاستعرائية، والفظاظة، والقساوة حيال الحيوانات. وتمسي التشكيلات الارتجاعية، التي كانت تبدو مندمجة أحسن اندماج بالأنا، مهددة من جديد بالزوال. وفي الوقت نفسه تعاود بعض النزعات القديمة المتوارية ظهورها في الشعور. فالرغبات الأوديبية، التي لم يصبها تحريف يذكر، تتحقق في صورة أخاييل وأحلام يقظة؛ وأفكار الخصاء لدى الصبيان، والحسد القضيبي لدى البنات، تغدو من جديد محور اهتمامهم. بيد أن هذه الاندفاعة لا تحتوي إلا نزراً يسيراً من العناصر الجديدة ولا تزيد على أن تُظهر



للنور ما كانت دراسة الجنسية الطفلية المبكرة قد أتاحت لنا استكشافه.

غير أن انبعاث الجنسية الطفلية هذا يكون خاضعاً لشروط مغايرة تماماً للشروط السابقة. فعلى حين أن الأنا في الطفولة الأولى كان ولا يزال غير مكتمل، غير موطد الأركان، عظيم الطواعية والقابلية للتأثر، شديد الخضوع لتأثير الهذا، فإن الأنا في فترة ما قبل البلوغ يكون، على العكس من ذلك، جامداً، راسخ الأسس، وعارفاً تماماً بما يريد. وقد كان في وسع الأنا الطفلي، حينما يتمرد بصورة مباغتة على العالم الخارجي، أن يتحالف مع الهذا بحثاً عن بعض الإشباع الغريزي. أما الأنا المراهق فلا يتأتى له أن يسلك مثل هذا المسلك إلا لقاء صراعات داخلية مع الأنا الأعلى. وعلاقاته التي استقرت مع الهذا من جهة أولى، ومع الأنا الأعلى من الجهة الثانية ـ وذلك ما نسميه إجمالاً بطبع الفرد ـ تجعل الأنا صلباً عادم المرونة. فهذا الأخير لا تعود له غير أمنية واحدة: أن يحافظ على الطبع الذي تكوَّن في إبان مرحلة الكمون، وأن يعيد التوازن السابق بين القوى، وأن يقابل المطالب الغريزية المتزايدة بجهود دفاعية متزايدة هي أيضاً. وفي الصراع الذي يخوض غماره على هذا النحو ليتفادى أي تبديل في وجوده وكيانه، يكون الأنا مدفوعاً أيضاً بالحصر الواقعي وبالحصر الأخلاقي، ولا يتوانى عن أن يستخدم، بلا مفاضلة، جميع الأساليب الدفاعية التي سبق له اللجوء إليها في مرحلتي الطفولة والكمون. فهو يكبت، وينقل وينكر، ويعكس، ويقلب الحفزات الغريزية ضد ذاته، ويستحدث أرهبة وأعراضاً هستيرية، ويكبح أخيراً الحصر بأفكار وأفعال قهرية. وعندما ندرس بالتفصيل الصراع بين الأنا والهذا على الغلبة والسيادة، نرى بوضوح أن جميع التظاهرات الباعثة على القلق في فترة ما قبل البلوغ، أو جميعها تقريباً، تناظرها مراحل مختلفة في هذا الصراع. فتجدد النشاط التخييلي، والاندفاعات نحو الإشباعات الجنسية القبتناسلية، أي الانحرافات، والعدوانية، والجنوح، كل ذلك يمثِّل انتصارات جزئية للهذا. أما ظهور الضروب المختلفة من الحصر، وتظاهرات النزعة الزهدية، وتزايد شدة الأعراض العصابية وضروب الكفّ، فذلك كله ينمّ عن تعزيز للدفاع، أي عن انتصارات جزئية للأنا.



عند النضج البدني، في مطلع البلوغ بحق معنى الكلمة، ينضاف إلى التغير الكمي تغير كيفي أيضاً. فحتى الآن كان لتزايد التوظيف الغريزي طابع عام، غير متمايز. ولكن الآن يحدث تغيُّر، فيما يخص بلوغ الذكور على الأقل، إذ تحتل الدوافع الغريزية التناسلية مكانة الصدارة. وفي المجال النفسي ينسحب التوظيف الليبيدوي من الحفزات التي من طبيعة قبتناسلية ليتركز على العواطف والأهداف والتمثلات الموضوعانية التي من طبيعة تناسلية. على هذا النحو تكتسب التناسلية أهمية نفسية متعاظمة، بينما تتراجع النزعات القبتناسلية إلى منزلة ثانوية. ويحمل كل شيء في البداية على الاعتقاد بأن تحسناً قد طرأ. فأولئك الذين يضطلعون بمهمة تربية المراهق، والذين كانوا لاحظوا في قلق وفي تحيُّر التظاهرات الغريزية ذات الطابع القبتناسلي لمرحلة ما قبل البلوغ، يعاينون الآن، في انفراج وتخفف، أن كل تلك التظاهرات المتفجرة لمشاعر القساوة والعدوانية والانحراف الجنسي قد تلاشت كما يتلاشى الكابوس. والذكورة التناسلية التي تحلّ محلها تلقى استقبالاً أكثر تسامحاً وترحيباً، حتى حينما تسعى إلى تخطي حدود ما هو مباح اجتماعياً. غير أن هذا الشفاء الفيزيولوجي التلقائي من القبتناسلية، الذي يأتي نتيجة لنمو البلوغ، هو إلى حدّ كبير خادع. ومن غير الممكن أن يعدّ بمثابة تعويض مفيد إلا في الحالات التي كانت الغلبة فيها لتثبيتات قبتناسلية سافرة. ومن أمثلة ذلك، الصبي الذي كان اتجاهه إلى ذلك الحين سلبياً ومؤنثاً، فإذ به يتبنى على نحو مباغت سلوكاً إيجابياً ومذكراً حالما يتركز توظيفه الليبيدوي على الأعضاء التناسلية. على أنه ليس من المباح لنا في مثل هذه الحال أن نستنتج أن خوف الخصاء والصراعات التي تأدت بالغلام إلى الأخذ بالاتجاه المؤنث قد وجدت حلاً لها أو زالت. فكل ما في الأمر أنها احتجبت وراء ذلك الاضطرام المؤقت لتوظيف الطاقة الجنسية. ومتى ما عاد ضغط الاندفاعة الغريزية الكبرى لمرحلة البلوغ إلى مستواه العادي في الحياة الراشدة، عادت إلى الظهور أيضاً في أرجح الاحتمال تلك المخاوف وتلك الصراعات على ما كانت عليه من قبل، وأربكت من جديد تطور الذكورة. وأغلب الظن أن ذلك يصدق أيضاً على حالة التثبيتات الفموية والشرجية التي كانت قد فقدت، مع أزمة البلوغ، وبصورة

مكتبة الفكر الجديد

مؤقتة، قدراً من أهميتها؛ فهي تظل محتفظة في الواقع بقوتها، ولا تلبث القوة الجاذبة المُمْرِضة لهذه التشكيلات القبتناسلية أن تمارس تأثيرها من جديد في طور لاحق من العمر وبشدة تضاهي شدتها السابقة. ومن نافل القول أننا لا نلحظ في البلوغ أي أثر تعويضي عندما تكون الاهتمامات القضيبية هي التي انتزعت الغلبة في مرحلتي الطفولة وما قبل البلوغ على الاهتمامات الفموية والشرجية؛ وتلك هي الحال، مثلاً، عند الصبيان من أصحاب الميل إلى الاستعراء. ففي مثل هذه الحال لا تساعد الاندفاعة التناسلية للبلوغ على التخفف من الانحراف، بل تنزع على العكس إلى تيسير تقدمه. وعلى هذا، لا يحدث أي برء تلقائي من الانحراف الجنسي الطفلي، وإنما استفحال يبعث على أشدّ القلق لجميع التظاهرات المَرَضية. فالنزعات القضيبية تتزايد شدة إلى درجة تقدِّم معها صورة سريرية لذكورة تناسلية مفرطة التضخم يتعذر التحكم بها.

غير أن هذا التقييم للطابع السويّ أو غير السويّ للأهداف الغريزية الخاصة يتوقف بتمامه على القيمة التي يعزوها إليه الراشدون ولا يمتّ بصلة على الإطلاق، أو لا يمتّ إلا بصلة واهية، إلى أنا المراهق نفسه. فالمساجلة الداخلية تستمر دونما كبيرِ اعتبارٍ لذلك التقييم. وموقف أنا المراهق من الهذا عنده يتعيَّن قبل كل شيء باعتبارات من طبيعة كمية أكثر منها كيفية. ولا يكون بيت القصيد إشباع رغبة غريزية بعينها ولا الحرمان منها، وإنما موضوع الصراع هو بنية الفرد النفسية في الطفولة وفي مرحلة ما قبل البلوغ، جملة وتفصيلاً. ومن الممكن أن يكون لهذا الصراع مآلان أقصيان: فإما أن الهذا تقوى سطوته فيسحق الأنا، وفي هذه الحال يتغيَّر طبع المراهق بكليته وتصاحب الدخول إلى الحياة الراشدة عاصفة مسعورة من الإشباعات الغريزية، وإما أن تكون الغلبة للأنا، وفي هذه الحال يتثبت بصفة نهائية الطبع السابق للمراهق، ذلك الطبع الذي اكتسبه في مرحلة الكمون، وتبقى دوافع الهذا الغريزية لدى الفرد المعني محصورة ضمن الحدود الضيقة المرسومة للحياة الغريزية عند الطفل. ولا يعود الليبيدو المتعاظم يجد من متصرَّف له، ويضطر المراهق، كيما يكبحه، إلى اللجوء بلا انقطاع إلى التوظيفات المضادة، وإلى الآليات الدفاعية، وإلى الأعراض. وهذا كله ليس من



شأنه أن يحدّ من اندفاع الحياة الغريزية ويقلّص نطاقها فحسب، بل إن تصلُّب الأنا المنتصر وتجمُّده يسبِّبان للفرد أذى دائماً. فهيئات الأنا، التي أفلحت في مقاومة اندفاعات البلوغ، تبقى بصفة عامة على مدى الحياة جامدة، ممتنعة على جميع التعديلات والتحويرات التي قد يتطلبها واقع متغيِّر.

ما العامل الذي يتوقف عليه إذاً انتهاء الصراع إلى هذا المآل الأقصى أو ذاك؟ وإلامَ نعزو الحلول السعيدة من قبيل التفاهم بين مختلف الهيئات، مثلاً؟ وما العوامل المحدِّدة لجميع تلك المراحل الوسيطة المتقلبة؟ قد يبدو من الطبيعي أن نضع التبعة في ذلك كله على عامل كمّي، وأن نردّه إلى تنوع في القوة المطلقة للدوافع الغريزية؛ لكن المشاهدة التحليلية لظاهرات البلوغ تناقض هذا الفرض المفرط في تبسيطه. فمن الخطأ الواضح أن ندَّعي أن زيادة في قوة الدوافع الغريزية، مردُّها إلى أسباب فيزيولوجية، تجعل الفرد لا محالة خاضعاً بدرجة أكبر لتلك الدوافع الغريزية، أو أن ندَّعي، من جهة أخرى، أن كسوفاً في قوة الدوافع الغريزية يدفع إلى مقدمة المسرح بتلك الظاهرات النفسية التي يضطلع فيها الأنا والأنا الأعلى بالدور الرئيسي. وكما بيَّنت لنا دراسة الأعراض العصابية وحالات ما قبل الطمث، فإن المطالب الغريزية كلما اشتدّ إلحاحها تحدو بالأنا إلى مضاعفة جهوده الدفاعية. وعلى العكس من ذلك، إن كل تناقض في الحاجات الغريزية يقلِّص الخطر الذي تستتبعه، ويخفِّف بالتالي من حصر الأنا الواقعي وحصره الأخلاقي وحصره الغريزي. وعلى هذا، وفيما عدا الحالات التي يجتاح الهذا فيها الأنا اجتياحاً تاماً، فإن العلاقات المفترضة تكون معكوسة في الواقع. فكل تعزيز للمطالب الغريزية يزيد من مقاومة الأنا للدافع الغريزي، ويزيد من شدة الأعراض وضروب الكفّ، إلخ، القائمة على أساس هذه المقاومة. وعلى العكس من ذلك، إن التناقض في إلحاح المطالب الغريزية يجعل الأنا أكثر تسامحاً وأكثر استعداداً للسماح ببعض الإشباعات. وهذا كله يدلنا أن القوة المطلقة للدوافع الغريزية في وقت البلوغ، تلك القوة التي يتعذر أصلاً قياسها وتقييمها، لا يمكن أن تمدَّنا بأي تشخيص استباقي لمآل البلوغ. فالعوامل التي تحدِّد هذا المآل نسبية: أولاً، قوة دوافع الهذا الغريزية المشروطة بالسيرورة الفيزيولوجية للبلوغ؛ ثانياً،

مكتبة الفكر الجديد

تسامح الأنا أو عدم تسامحه حيال الدوافع الغريزية، وهو ما يتوقف على الطبع الذي يكون قد تكوَّن في مرحلة الكمون؛ ثالثاً وأخيراً، العامل الكيفي الذي يتّ في نتيجة الصراع الكمي، أي طبيعة وفعالية الآليات الدفاعية المتاحة للأنا، تلك الآليات التي تتنوع تبعاً لجبلّة الفرد، وتبعاً لاستعداداته للهستيريا أو للعصاب الوسواسي، وتبعاً أيضاً لمسار نموه ولنمطه.



مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني عشر

الحصر الغريزي عند البلوغ

لقد عزونا على الدوام، نحن المحلِّلين النفسيين، إلى مراحل الحياة التي تحدث فيها اندفاعات الليبيدو أهمية قصوى في ما يتصل بالدراسة التحليلية للهذا. فالرغبات والتخييلات والسيرورات الغريزية التي لا تستلفت النظر في مراحل أخرى من الحياة، أو تبقى لاشعورية، تنبجس آنئذ في الشعور من جراء تزايد توظيفها، فتتخطى، حيثما توجَّب ذلك، العوائق التي ينصبها في طريقها الكبت، وتغدو متاحة للملاحظة وهي تشقّ طريقها إلى النور.

غير أن مراحل اندفاعات الليبيدو هذه لا تقل أهمية على الإطلاق في ما يتصل بدراسة الأنا أيضاً. وكما كان تسنى لنا أن نرى، فإن تزايد شدة المطالب الغريزية في تلك المراحل يكون من نتيجته إرغام الفرد على مضاعفة جهوده للسيطرة على دوافعه الغريزية. فبعض ميول الأنا ونوازعه العامة، التي لا تكاد تكون متاحة للملاحظة في مراحل الهدوء الغريزي، تغدو آنئذ ألفت للنظر، كما أن آليات الأنا، التي تكون بارزة للعيان أصلاً في مرحلتي الكمون والحياة الراشدة، تتزايد أحياناً شدتها في زمن البلوغ إلى حدٍّ تحدِث معها تشويهاً مرَضياً في الطبع. وثمة تدبيران، من جملة التدابير التي يتخذها الأنا في مواجهة الحياة الغريزية، يمكن أن يسترعيا بوجه خاص انتباه الملاحظ بحكم القوة الجديدة التي يكتسبانها من جراء اشتدادهما في زمن البلوغ. ومن شأن هذين التدبيرين أن يعينانا أيضاً على فهم بعض خصائص مرحلة النضوج الجنسي، وأقصد بهما النزعة الزهدية والنزعة العقلانية لدى المراهقين.

النزعة الزهدية في البلوغ

كثيراً ما يستشعر المراهق كراهية عامة تجاه لدوافع الغريزية، وهذا في الوقت



نفسه الذي يكون فيه منفتحاً أكثر الانفتاح للشطط الغريزي، ولطفحات الهذا وتفجراته، وكذلك لظاهرات أخرى مسايرة على نحو ظاهر للدوافع الغريزية. وهذا الموقف العدائي يتخطى بكثير في شدَّته كل ما اعتدنا أن نلحظه من كبت أو ما يشابهه في الظروف العادية أو في الأعصبة المتفاوتة في درجة خطورتها. إن هذا العداء لا يشبه، سواء أفي تظاهراته أم في اتساع نطاقه، الأعراض العصابية السافرة بقدر ما يشبه النزعة الزهدية لدى بعض المتزمتين من المتدينين. ففي الأعصبة نلاحظ أن التنكر لدافع من الدوافع الغريزية عن طريق الكبت يبقى على الدوام مرتبطاً بطبيعة هذا الدافع أو بنوعيته. ومن ذلك أن الهستيري يكبت الدوافع الغريزية التناسلية المرتبطة بالرغبات الموضوعانية من النمط الأوديبي، ولكنه يبدي بالمقابل بعض التسامح إزاء رغبات غريزية أخرى، كالحفزات العدوانية أو الشرجية مثلاً. كما أن العصابي الوسواسي يكبت الرغبات السادية ـ الشرجية التي تتمحور حولها، من جراء النكوص، حياته الجنسية، ولكنه يغضّ النظر، مثلاً، عن الإشباعات الفموية ولا يبدي أي ارتياب خاص إزاء بعض الرغبات الاستعرائية عندما لا تكون مرتبطة ارتباطاً مباشراً ببؤرة عصابه. والميول والنزعات الفموية هي التي تُكبت أيضاً، وبوجه خاص لدى السوداوي. بينما تنتظر المصير نفسه لدى الرهابي الحفزات المرتبطة بعقدة الخصاء. ولكن التنكر للدوافع الغريزية لا يتمّ في أية حالة من هذه الحالات خبط عشواء، بل من الممكن دوماً، في أثناء تحليلنا لهذه الحالات، أن نكتشف علاقة محددة بين طبيعة الدافع الغريزي المكبوت وبين حوافز المريض إلى طرده خارج نطاق الشعور.

لكن التنكر للدوافع الغريزية يطالعنا بصورة مغايرة تماماً عندما نتخذه موضوعاً لملاحظتنا لدى المراهقين. والحق أن نقطة انطلاق هذا الانتباذ تكمن هي الأخرى في المناطق المضروب عليها حظر شديد من الحياة الغريزية، وعلى سبيل المثال في الأخاييل المحرمية لمرحلة ما قبل البلوغ أو في تجدد الممارسات الاستمنائية التي تفيد في تفريغ هذه الرغبات. لكن السيرورة تأخذ ابتداء من هذه النقطة بالتكاثر والامتداد لتشمل الحياة كلها بغير ما تمييز تقريباً. وكما سبق لنا التنويه آنفاً، لا يهتم المراهق بإشباع رغبة خاصة بعينها أو بانتباذها بقدر ما يشغله الإشباع أو

مكتبة الفكر الجديد

الانتباذ بحدّ ذاته. فالمراهقون الذين يجتازون هذا الطور من النزعة الزهدية لا يخشون فيما يبدو نوع الدافع الغريزي بقدر ما يخشون كمَّه. إنهم يرتابون بصفة عامة بكل ضرب من ضروب المتعة، ويتراءى لهم أنهم واجدون الملجأ والملاذ الأمين بمجرد مجابهتهم تزايد الرغبة بحظر متزايد هو الآخر. فكلما قال الدافع الغريزي: «أريد»، أجابه الأنا: «ليس ذلك من حقك»، مثله في ذلك مثل الوالدين الصارمين حينما يُخضعان الطفل الصغير للدروس الأولى في التربية. وهذا الخوف الذي يستشعره المراهق إزاء الدافع الغريزي ذو طابع قابل على نحو خطِر للانتشار، ومن الممكن أن يمتدّ، بدءاً من الرغبات الغريزية بالمعنى الدقيق للكلمة، ليشمل حتى الحاجات البدنية العادية للغاية. ولا بدّ أن كل واحد منا عرف مراهقين يعزفون بلا تردد عن كل حاجة ذات صبغة جنسية، ويتحاشون عشرة من هم في سنهم من الفتيان، ويرفضون كل تسلية وترويح، ويشيحون، مثلهم مثل الطهرانيين، عن كل ما له صلة بالمسرح والموسيقى والرقص. وإلى هذا الحظر ينضاف أيضاً بطبيعة الحال ازدراء الأناقة والتبرج، بالنظر إلى ما يشوبهما من طابع جنسي. ولكن لا يلبث أن ينتابنا التحير والقلق عندما نلاحظ امتداد الرفض إلى بعض الموضوعات البريئة أو الضرورية، كما عندما يتأبى المراهق مثلاً عن اللجوء إلى الوسائل الشائعة لاتقاء البرد، أو عندما يميت جسده بشتى الطرق، ويعرِّض صحته للخطر، ويحرم نفسه لا من بعض الملذات الفموية فحسب، بل يقلص أيضاً إلى الحدّ الأدنى «وعن مبدأ» قوته اليومي، ويكرِه نفسه على الاستيقاظ المبكر برغم حاجته إلى الاستغراق في النوم وإطالته، ويتحاشى الضحك أو حتى الابتسام، وفي الحالات القصوى لا يقضي حاجته إلى التبول والتغوط إلا بعد أن تلحّ عليه إلحاحاً لا يطاق، محتجاً بأنه لا يجوز للمرء أن يلبي حالاً كل ما يعرض له من حاجات بدنه.

على أن هذا الضرب من رفض الدوافع الغريزية يختلف من ناحية أخرى بعد عن الكبت العادي. فعندما ندرس الأعصبة نُلاحظ في العادة أنه حيثما وقع تحت الكبت إشباع غريزي ما ناب منابه إشباع بديل. وعلى هذا النحو يلجأ الهستيري إلى التبدين، أي تحويل التنبيه الجنسي إلى أجزاء أخرى من البدن أو تصريفه من

مكتبة الفكر الجديد

خلال سيرورات بدنية أخرى مصبوغة بصبغة جنسية. ويصطنع العصابي الوسواسي لنفسه إشباعاً بديلاً من طراز نكوصي، كما يستمد الرهابي من مرضه ربحاً ولو ثانوياً. وفضلاً عن ذلك تظهر، عوضاً عن المتع المحظورة، إشباعات مُزاحة وتشكيلات ارتجاعية. ونحن نعرف أن الأعراض العصابية الحقة، من قبيل النوبات الهستيرية والعرّات والأفعال الاستحواذية والاجترارات الذهنية القهرية، إلخ، تمثِّل تسويات أو حلولاً توفيقية تتحقق فيها مطالب الهذا الغريزية بصورة لا تقل مضاءً عن تنفيذ أوامر الأنا والأنا الأعلى. لكن تنكر المراهق لدوافعه الغريزية لا يفسح مجالاً لمثل هذه الإشباعات البديلة، بل يتمّ، فيما يبدو وفق آلية مختلفة. فبدلاً من التسويات والحلول التوفيقية، المناظرة للأعراض العصابية، وبدلاً من الظاهرات المعتادة من قبيل النقل والنكوص والارتداد ضد الذات، يحدث بصورة شبه مطردة، وفي وقت بعينه، تحوُّل مفاجئ ينقلب معه زهد المراهق إلى طفح غريزي، فإذا بكل ما كان محظوراً يغدو على حين غرة مباحاً، ولا يعود المراهق يولي أي اعتبار للتقييدات التي يفرضها العالم الخارجي. ومهما بدا هذا الشطط مستهجناً في نظر محيط المراهق، بسبب طابعه اللااجتماعي، فإنه يظل يمثِّل، عندما ننظر فيه من وجهة نظر التحليل النفسي، ضرباً من شفاء تلقائي، مؤقت، من حالة الزهد. وعندما لا يحدث مثل هذا الشفاء، وعندما يكون الأنا، خلافاً للمألوف، قوياً بما فيه الكفاية ليمضي إلى النهاية، بدون أي حيدان، في انتباذ الدوافع الغريزية، تتمخض هذه السيرورة في جملتها عن شلل للأنشطة الحيوية، عن ضرب من غيبوبة تخشبية[1] لا يعود في الإمكان اعتبارها ظاهرة عادية من ظاهرات البلوغ، بل ينبغي أن نرى فيها إصابة ذهانية.

لكن أيحلّ لنا حقاً أن نقيم تمييزاً بين العزوف عن الدوافع الغريزية كما يُلحظ في طور اندفاعة البلوغ وبين ظاهرة الكبت المألوفة للدوافع الغريزية؟ ثمة مشاهدتان قد تأدتا بنا إلى إجراء هذه التفرقة النظرية. ففي مستهل السيرورة يستشعر المراهق إزاء كمّ الدوافع الغريزية حصراً أشدَّ من ذاك الذي يستشعره إزاء نوع المطلب الغريزي، وتنتهي السيرورة لا بإشباعات بديلة أو بتسويات وحلول

١ ـ كتاتونيا CATATONIE.



توفيقية، وإنما بتزامن أو بتعاقب فجائيين، وبتعبير أصح، بتناوب بين الشطط والعزوف الغريزيين. ونحن نعرف من جهة أخرى أن التوظيف الكمي للدافع الغريزي المطلوب كبته يضطلع، حتى في الكبت العصابي الشائع، بدور كبير، وأنه من المألوف أن نلحظ، حتى في الصعاب الوسواسي، تناوباً بين التحظير والإباحة. ومهما يكن من أمر، فإن الانطباع الذي يساورنا هو أن زهد المراهق يمثل سيرورة أكثر بدائية، وإنما أقل تعقيداً، من الكبت بحصر المعنى؛ وربما كنا نواجه هنا حالة خاصة أو مرحلة تمهيدية بالأحرى من الكبت.

لقد أباحت لنا الدراسة التحليلية النفسية منذ وقت طويل أن نفترض أنه يوجد لدى الإنسان، حتى قبل أن يكتسب أية تجربة، وحتى قبل أن يتسنى له القيام باختيار، ميل إلى انتباذ بعض الدوافع الغريزية المحددة، وبالأخص الدوافع الغريزية الجنسية. والأمر فيما يبدو أمر ميراث سلالي، ضرب من رسابة متخلفة عن أجيال عدة، لا يخلقها الفرد خلقاً، بل يقتصر على مواصلتها. وإنما على موقف الإنسان الموسوم بميسم الثنائية هذا في مواجهة الحياة الجنسية ـ نفور جِبلّي وشهوة متأججة في آن معاً ـ طبق بلولر[٢] مفهومه عن الازدواجية العاطفية.

في الفترات الهادئة من الحياة لا يعدو العداء الأولي من جانب الأنا حيال الدوافع الغريزية، أو خوفه من قوتها كما نقول، أن يكون أكثر من محض مفهوم نظري. وإننا لنفترض أن هذا العداء قائم في أساس كل حصر غريزي. ولكنه لا يكون متاحاً للملاحظة بالنظر إلى احتجابه خلف استجابات أكثر بروزاً واستلفاتاً للنظر منه، وأعني بها استجابات الحصر الواقعي والحصر الأخلاقي، تلك التي تتولد من بعض الصدمات الرضيّة التي يتعرض لها الفرد.

وأرجح الظن أن التزايد الكمي في ضغط الدوافع الغريزية في زمن البلوغ وبعض الاندفاعات الغريزية في مراحل أخرى من الحياة هي التي تزيد في شدة ذلك العداء الأولي من جانب الأنا وتجعل منه آلية دفاعية نوعية وفعالة. وفي هذه

٢ ـ يوجين بلولر: طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩). عمل في عيادة بور غوزلي وأدخل إلى القاموس الطبي النفسي مصطلحي الفصام والتوحد. التقى فرويد عام ١٩٠٤ وأسهم في إنشاء **الجمعية التحليلية النفسية** الدولية عام ١٩١٠. «م».



الحال لا يعود يجوز لنا أن نعتبر الظاهرات التي نلاحظها في زهد البلوغ سلسلة من سيرورات كبتية مشروطة نوعياً، بل ينبغي أن نرى فيها تعبيراً عن عداء فطري، لامتمايز، أولي وبدائي، بين الأنا والدوافع الغريزية.

النزعة العقلانية في البلوغ

هكذا يتضح لنا أن التوجهات العامة للأنا قابلة لأن تتحول، في زمن اندفاع الليبيدو، إلى طرائق دفاعية بملء معنى الكلمة. وإذا صحّ استنتاجنا هذا، كان له أن يفسّر أيضاً تحوّرات وتغيرّات أخرى تعتري الأنا وقت البلوغ.

إننا نتبين أن هذه التحورات والتغيرات تطال في المقام الأول الحياة الغريزية والعاطفية. ونعلم أيضاً أن الأنا يتحول ويتغير ثانوياً كلما جاهد للسيطرة على الدوافع الغريزية والانفعالات العاطفية. لكن من الواضح أن حقل التغيرات يكون أوسع بكثير بعد في زمن البلوغ. فالمراهق، إذ يخضع لاندفاعة البلوغ، يغدو أكثر انقياداً للدوافع الغريزية، وهذا أمر مفهوم ولا يحتاج إلى تفسير. كما أن نزعته الأخلاقية ونزعته الزهدية تتزايدان بدورهما، من جراء الصراع الذي يحتدم بين الأنا والهذا. ولكن المراهق يمسي أيضاً أكثر ذكاء، وتتعاظم حاجاته واهتماماته العقلية. وللوهلة الأولى لا نستطيع أن نفهم كيف يمكن أن يرتبط هذا التقدم العقلي بالنمو المتعاظم للدوافع الغريزية وبتعزيز الأنا وباقتداره على مقاومة هجمات هذه الدوافع.

قد نميل بصفة عامة إلى الافتراض بأن عواصف الدوافع الغريزية والعواطف متناسبة عكساً مع النشاط العقلي للفرد. أفليس من شأن حالة الحب العادية والبسيطة أن تحدّ من نطاق النشاط العقلي للإنسان؟ أفلا تتضاءل صلابة ملكة العقل والفهم عنده؟ ثم ألا يجنح الإنسان، كلما صبا إلى تحقيق رغباته الغريزية، إلى الامتناع عن تمحيصها على ضوء العقل، وإلى الإمساك عن التحقق منطقياً من سلامة الأسس التي تنهض عليها؟

للوهلة الأولى قد يبدو أن الوضع مختلف تماماً بالنسبة إلى المراهق. فثمة فئة من الشبان لا تكون قفزتهم إلى الأمام في المضمار العقلي أقل استلفاتاً للنظر



وإثارة للدهشة من طفراتهم في ميادين أخرى. وغالباً ما نلتقي فتياناً يتركز اهتمامهم بكامله، في أثناء مرحلة الكمون، على أشياء ذات وجود فعلي وموضوعي. فهذا لا يطالع سوى قصص الاكتشافات والمغامرات أو المؤلفات التي تبحث في الأعداد والنسب، أو تلك التي تعنى بوصف الحيوانات والأشياء الغريبة، وذاك لا تثير اهتمامه سوى المحركات والآلات، من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً. والسمة المشتركة بين هذين النمطين من الشبان هي أن إيثارهم يذهب عموماً إلى العيني المحسوس لا إلى الخيالي؛ فهم يشيحون عن الحكايات الخرافية وقصص الجن التي طالما أمتعتهم في طفولتهم، ويتوجهون نحو الأشياء التي لها وجود فعلي وموضوعي. هذا الميل إلى العيني والملموس، الذي تبدأ تباشيره في مرحلة الكمون، يمكن في زمن لاحق، وتحديداً في فترة ما قبل البلوغ، أن يخلي مكانه لانجذاب متزايد نحو التجريدات. والمراهقون الذين يتَّسمون بـ «طول فترة البلوغ» عندهم على حدّ ما وصفهم برنفلد هم بوجه خاص الذين تعتريهم رغبة لا ترتوي في التفكير بالأمور المجردة وفي اتخاذها موضوعاً لمناقشاتهم ولاجتراراتهم الذهنية. وما أكثر صلات الصداقة التي تنعقد أواصرها بين الفتيان وتدوم على أساس رغبتهم المتبادلة في التأمل في تلك الموضوعات وفي مناقشتها معاً. والقضايا التي تشغل هؤلاء الفتيان والمشكلات التي يبحثون لها عن حل وسيعة للغاية، وهي تتعلق عموماً بعلاقات الحب الحر أو الزواج وتأسيس الأسرة، أو بالاستقلال بالنفس واختيار المهنة، أو التسفار والحياة المستقرة. إنهم يتناقشون في مسائل فلسفية ذات أهمية عامة من قبيل الدين والفكر الإلحادي، أو في اختلاف الأنظمة السياسية والثورة أو الخضوع للسلطة، وكذلك في شؤون الصداقة بمختلف أشكالها وصورها. وعندما يتفق لنا في التحليل أن نستمع إلى وصف أمين للمناقشات والسجالات التي تدور بين هؤلاء الشبان، أو عندما نقرأ، على نحو ما يفعله الكثيرون من دارسي هذه المرحلة من العمر، يومياتهم ومذكراتهم، فإننا لا ندهش لسعة تفكيرهم واستقلاليته فحسب، بل كذلك لدرجة تعاطفهم الإنساني وتفهمهم وتفوقهم الظاهر، وأحياناً للحكمة التي يعالجون بها المشكلات الأكثر عسراً.



لكن رأينا لا يعتم أن يتبدل حينما نتحول عن دراسة العمليات العقلية لدى المراهق إلى تفحص كيفية التحامها بحياته بالذات. فعندئذ نكتشف، على دهش منا، أن كل ذلك النشاط العقلي الرفيع لا يترك من أثر في سلوك المراهق الفعلي. فتعاطفه المتفهم مع الغير لا يمنعه من أن يعامل الناس المقربين منه بفجاجة وغلظة وعدم اعتبار. وتصوره السامي للحب وللواجبات التي تقع على عاتق العاشقين لا يخفف من خيانته ومن ضروب القسوة التي يقترفها في تقلباته العشقية. وبالرغم من اهتمامه بالمسائل الاجتماعية ـ وهو يفوق في كثير من الأحيان كل اهتمام مماثل قد يبديه مستقبلاً ـ فإنه لا يدلّل على تكيُّف مع الحياة المجتمعية. وتنوع اهتماماته لا يمنعه من تركيز انتباهه كله على نقطة يتيمة: انشغاله بشخصيته الخاصة.

والحق أننا عندما ندرس، في أثناء التحليل، كل تلك الأنشطة العقلية ننتهي إلى أن نتبيَّن أننا نواجه هنا شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن العقلانية بحصر معنى الكلمة. ومن ذلك أن المراهق حينما يتأمل في مختلف مواقف الحب أو عندما يمعن النظر في اختيار مهنة دون سواها، نراه لا يسعى البتة إلى أن يستخلص من تأملاته وتفكراته خطاً موجِّهاً لأفعاله على نحو ما يفعل الراشد أو على نحو ما يفعل الغلام حين يدرس، وهو في أوج مرحلة الكمون، محركاً بغية فكه وإعادة تركيبه بعد ذلك من جديد. فعقلانية المراهق لا تمدّه، فيما يبدو، إلا بمادة لأحلام يقظته. وحتى تخييلاته الطموحة لا تكون برسم الترجمة إلى الواقع. فحينما يحلم المراهق بأنه صار فاتحاً عظيماً، فإن ذلك لا يلزمه بأن يقدم الدليل على شجاعته وجلَده في الحياة الواقعية؛ فالتأمل والاجترار الذهني والمناقشات تكفيه وترضيه على ما هو بادٍ للعيان، وسلوكه، المتعيِّن بعوامل أخرى، لا يتأثر بالضرورة بتلك التمارين العقلية.

شيء آخر يسترعي انتباهنا حينما ندرس لدى المراهق العمليات العقلية. فالملاحظة المتأنية تكشف لنا عن أن الموضوعات التي تشغل اهتمام الفتى هي في المقام الأول تلك التي كانت أشعلت فتيل الصراع فيما سلف بين هيئاته النفسية. فهذه الموضوعات تدور، مرة أخرى، إما حول دمج العناصر الغريزية في جملة

مكتبة الفكر الجديد

الحياة، وإما حول ممارسة الجنس أو العزوف عنه، وإما حول الحرية وحدودها، والتمرد على السلطة أو الإذعان لها. وقد تسنى لنا أن نرى أن الزهد، بطوق التحريم الذي يضربه حول الدوافع الغريزية، لا يحقق للمراهق كل ما كان يتأمله منه؛ وبما أن الخطر يترصده في كل خطوة يخطوها، فحتم عليه أن يتدبر لنفسه الوسائل للظهور على هذا الخطر. وهنا يبدو أن الاجترار الذهني بصدد الصراع الغريزي، أي العقلنة[٣]، يزوِّده بوسيلة ملائمة للنجاح في ذلك. ففي مثل هذه الحال، وبدلاً من الهرب من الدوافع الغريزية، كما في الزهد، يوجِّه المراهق إليها اهتمامه كله، ولكن على نحو مجرد وعقلي محض؛ وإذ يسلك هذا المسلك لا يسعى البتة إلى حلّ المشكلات أو أداء المهام التي يفرضها عليه الواقع. بل إن نشاطه العقلي يخفي بالأحرى انشغالاً جارفاً بسيروراته الغريزية الخاصة وترجمة لما يستشعره إلى محض أفكار مجردة. وهكذا، إن التصور الذي يصطنعه لنفسه عن العالم، وعلى سبيل المثال رغبته في أن تشتعل ثورة في العالم الخارجي، يستجيب لتحسسه بالمطالب الجديدة للهذا عنده، تلك المطالب التي تهدد بأن تقلب حياته كلها رأساً على عقب. والمثل العليا للصبي المراهق في الصداقة والإخلاص الأبدي لا تزيد على أن تكون انعكاساً لاهتمامات أناه الذي يشعر بالطابع العابر والسريع الزوال لعلاقاته الموضوعانية الجديدة الصاخبة[٤]. وقد تتحول أحياناً حاجة المراهق إلى الإرشاد والحماية في صراعه الميئوس منه في غالب من الأحيان ضد دوافعه الغريزية الخاصة إلى مماحكات أريبة يبتغي بها أن يثبت عدم استقلال الإنسان في قراراته السياسية. وهكذا نجد أنفسنا أمام ترجمة للسيرورات الغريزية إلى لغة العقل. ولكن إذا كان الانتباه يتركز على الدوافع

٣ ـ العقلنة RATIONALISATION : التبرير أو التفسير الذي يكون له ظاهر من العقلانية بدون أن يكون عقلانياً البتة. «م».

٤ ـ لفتت مارغيت دوبوفيتز[*]، من بودابست، انتباهي إلى أن تأملات المراهق وتفكراته بصدد الحياة والموت إنما تعكس العمل التدميري الذي يتمّ في داخل ذاته.

(*) مارغيت دوبوفيتز: محللة نفسية مجرية مختصة بتحليل الأطفال. تولى تحليلها لأول مرة ساندور فيرنزي، ومن بعده فرويد نفسه. تولت إدارة عيادة تحليلية نفسية في بودابست، وتعاونت مع آنا فرويد في عيادتها الفييناوية. «م».



الغريزية، فإنما ذلك لأن المراهق يحاول أن ينتقل بها إلى مستوى مغاير بغية كبحها والسيطرة عليها.

لنستذكر أن عملية ربط الانفعالات العاطفية والسيرورات الغريزية بالتمثلات اللفظية تُعتبر، من منظور الميتاسيكولوجيا[٥] التحليلية النفسية، أول وأهم خطوة يخطوها الفرد، في مسار نموه، ليتوصل إلى السيطرة على دوافعه الغريزية. ويُعرَّف التفكير، من هذا المنظور، بأنه «عملية اختبارية تُستخدم فيها أقلّ الكميات الممكنة من الدوافع الغريزية». وهذه العقلنة للحياة الغريزية، هذه المحاولة للسيطرة على الدوافع الغريزية عن طريق ربطها بأفكار تمكن مداورتها شعورياً، تمثّل واحدة من أعم القدرات المكتسبة من قبل الأنا البشري ومن أقدمها وأكثرها لزوماً. ونحن لا نعتبرها من ثم نشاطاً للأنا، بل واحداً من عناصره المكوِّنة التي لا غنى له عنها.

مرة أخرى يساورنا انطباع بأن الظاهرات التي تؤلف في جملتها ما أسميناه بـ«العقلنة في زمن البلوغ» لا تمثّل إلا مغالاة في التوجه العام للأنا في أعقاب الاندفاعة الليبيدوية المباغتة. فالتعزيز الكمي لليبيدو هو ببساطة ما يشدّ انتباه الملاحظ إلى وظيفة من وظائف الأنا، وظيفة تؤدَّى بصورة طبيعية تماماً وفي غير ضجيج أو جلبة في أوقات أخرى. وإذا صحّ ذلك، كان معناه أن اشتداد ميل المراهق إلى العقلنة ـ وربما أيضاً ذلك الاستبصار المتزايد بالسيرورات النفسية الداخلية الذي تتميز به بداية كل اندفاعة ذهانية ـ لا يؤلف إلا جزءاً من جهود الأنا المعتادة للسيطرة على الدوافع الغريزية عن طريق الفكر.

ربما جاز لنا الآن أن نتكلم عن كشف ثانوي بسيط توحي إلينا به تأملاتنا هذه. فإذا صحّ أن كل تعزيز للتوظيف الليبيدوي يتأدى لا محالة في كل مرة إلى مضاعفة الجهود التي يبذلها الأنا ليسيطر عقلياً على السيرورة الغريزية، كان ذلك معناه أن الأخطار الغريزية تجعل الناس أذكياء. ففي فترات الهدوء الغريزي، أي عندما لا يكون الفرد مهدداً بأي خطر، يكون هذا الفرد في حِلٍّ من أن يسمح لنفسه بدرجة معيَّنة من البلاهة. ومن هذا المنظور يضطلع الحصر الغريزي بالدور

٥ ـ يعرِّف فرويد وجهة النظر الميتاسيكولوجية في التحليل النفسي في كتابه **ما بعد علم النفس** بأنها تلك التي تصف السيرورة النفسية في علاقاتها الدينامية والطبوغرافية والاقتصادية.«م».



عينه الذي يضطلع به الحصر الواقعي. فضروب الحرمان والأخطار الفعلية تشحذ الإنسان، وتدفع به إلى إنجازات عقلية ومحاولات فذة لتدبر مخرج لنفسه، بينما يجنح به الأمان المستتب والوفرة إلى التراخي والتباله. وعلى هذا لا تكون مجابهة السيروورات الغريزية بسيروورات عقلية إلا شكلاً من أشكال التيقظ في مواجهة واقع محفوف بالأخطار، وهو تيقظ يدرك الأنا البشري ضرورته.

لقد كنا نفسّر حتى الآن كسوف ذكاء الطفل هذا في مستهل مرحلة الكمون بكيفية مغايرة تماماً. فالإنجازات العقلية الباهرة للصبي الصغير ترتبط بوثيق العرى بفضوله الجنسي. فإذا ما ضُرب الحظر في وقت لاحق على كل تقصٍّ من هذا القبيل، انتشر الحظر والتقييد كبقعة الزيت وامتدا إلى مضامير أخرى من الفكر. فلا غرو والحال هذه أن تعاود ملكات الفرد العقلية ظهورها في فترة ما قبل البلوغ، عندما ينهار حاجز الكبت الجنسي الطفلي تحت ضغط الاندفاعة الجنسية الجديدة.

إلى هذا التفسير المألوف نستطيع أن نضيف ما يلي: إذا كان الطفل في مرحلة الكمون لا يفكر تفكيراً مجرداً، فقد لا يكون السبب عدم اجترائه على ذلك، وإنما لكون ذلك لا طائل فيه. فالطفل يكون عرضة، في طفولته المبكرة وعند البلوغ، لأخطار غريزية كبيرة يعينه «الذكاء»، إلى حدٍّ ما على الأقل، على تفاديها. ومن جهة أخرى، وفي مرحلتي الكمون والحياة الراشدة، يستطيع الأنا، وقد اشتدّ ساعده نسبياً، أن يتراخى قليلاً في جهوده للسيطرة على الدوافع الغريزية بدون أن يتأذى الفرد من جراء ذلك. ولا يغرب عنا في الوقت نفسه أن الأنشطة العقلية مهما تكن باهرة ولافتة للنظر، عند البلوغ على الأخص، تظل إلى حدٍّ بعيد عقيمة. ويكاد يكون في مستطاعنا أن نقول الشيء عينه عن الإنجازات العقلية الفذة والمثيرة للإعجاب في الطفولة الأولى. وحسبنا أن نتذكر أن استقصاءات الطفل الجنسية، التي يعدّها التحليل النفسي أبلغ تعبير عن النشاط العقلي لدى الكائن الصغير، لا تتأدى به أبداً أو نادراً ما تتأدى به إلى كشف حقائق الحياة الجنسية عند الراشدين. فالطفل لا يستخلص من أبحاثه بصدد الجنسية رؤية صحيحة للوقائع، بل فقط نظريات جنسية طفلية بعيدة بعداً يكثر أو



يقلّ عن الواقع الفعلي. واستنتاجاته إنما تعكس السيرورات الغريزية التي تدور في داخل ذاته.

أما العمل العقلي الذي ينجزه الأنا في مرحلة الكمون وفي الحياة الراشدة فهو أمتن بما لا يقاس، وأثبت أسساً، وعلى الأخص أوثق ارتباطاً بكثير بالأفعال.

الحب الموضوعاني والتماهي عند البلوغ

لننظر الآن كيف يمكن للنزعة الزهدية وللنزعة إلى العقلنة في البلوغ أن تلتئما ضمن عرضنا هذا لمسارب السيرورات الدفاعية المتعيِّنة بالحصر وبالخطر. وإننا لنلاحظ حالاً أن الأسلوبين المشار إليهما يدخلان في باب الطراز الثالث من الدفاع. فالخطر الذي يتهدد الأنا هو خطر انطماره تحت مدّ الدوافع الغريزية، وما يخشاه الأنا في المقام الأول هو كمّ هذه الدوافع. ويكون نشوء هذا الخوف لدى الفرد في مرحلة مبكرة من مسار نموه. فهو يتمخض ساعة يشرع الأنا بالانسلاخ تدريجياً على الهذا اللاامتمايز. والتدابير الدفاعية التي يمليها على الأنا خوفه من قوة الدوافع الغريزية إنما الهدف منها تثبيت انفصال الأنا عن الهذا وتأمين التنظيم الجديد للأنا. فالنزعة الزهدية تأخذ على عاتقها أن تكبح الهذا متوسلة إلى ذلك سبيل الحظر لا غير. أما العقلنة فمهمتها أن تربط ربطاً وثيقاً السيرورات الغريزية بمضامين فكرية كيما تجعل هذه السيرورات متاحة للشعور، وبالتالي قابلة للتحكم بها.

على أن الفرد، ساعة يحدث ذلك الطفح الليبيدوي المفاجئ، يرتدّ نحو الطور البدائي من الحصر إزاء قوة الدوافع الغريزية، مما ينعكس أثره لا محالة على السيرورات الغريزية الأخرى وعلى أنشطة الأنا. وسأحاول في الصفحات التي ستلي أن أدرس ظاهرتين رئيسيتين بين جملة الظاهرات التي يتفتق عنها البلوغ، وسأبذل جهدي للكشف عن الصلة التي تربطها بنكوص الأنا ذاك.

إن أكثر الظواهر استلفاتاً للنظر في حياة كل مراهق هي تلك التي تتصل بعلاقاته الموضوعانية. فهنا تحديداً يكون الصراع بين ميلين متضادين على أوضح ما يكون. فالكبت، الذي يحركه النفور العام من الدوافع الغريزية، يطال أول ما



يطال في العادة، كما رأينا، التخييلات المحرمية لفترة ما قبل البلوغ، وارتياب الأنا وزهده يستهدفان، في المقام الأول، علاقات المحبة والحنو التي انعقدت من قبل لدى الطفل. وعندئذ يسعى المراهق إلى عزل نفسه والانفراد بها، وينتهي به الأمر إلى أن يحيا بين ظهراني أسرته وكأنه غريب. ومن جهة أخرى، إن النفور الذي توحي به إليه دوافعه الغريزية لا يمتدّ إلى علاقاته الموضوعانية وحدها، بل كذلك إلى علاقاته بأناه الأعلى. فبقدر ما يبقى الأنا الأعلى في ذلك الطور من العمر مشحوناً بعد بالليبيدو المنبثق عن العلاقة بالوالدين، يُعامَل هو نفسه وكأنه موضوع محرمي، الريبة إزاءه واجبة، فيقع من ثم ضحية الزهد. وهكذا ينسلخ الأنا عن الأنا الأعلى أيضاً. هذا الكبت الجزئي للأنا الأعلى، وهذا الانسلاخ عن بعض مضامين الأنا الأعلى، يتأديان بالمراهق إلى التخبط في أشد متاعب ذلك الطور من العمر إرهاقاً له. فتصدّع العلاقات بين الأنا والأنا الأعلى يفضي إلى تعاظم الخطر الغريزي. فينزع المراهق إلى أن يصير لااجتماعياً. وبالفعل، وقبل حدوث هذا الانقلاب، كانت الهواجس الأخلاقية ومشاعر الإثم، المنبجسة عن العلاقات بين الأنا والأنا الأعلى، هي آمن حليف للأنا في كفاحه ضد الدوافع الغريزية. والحق أنه كثيراً ما تُلحظ، في بدايات البلوغ، محاولة مكشوفة ولكن عابرة لمضاعفة توظيف جميع مضامين الأنا الأعلى، وأغلب الظن أن هذه العملية هي التي تفسّر «مثالية» المراهق المزعومة. فما الذي سيحدث عندئذ؟ إن الزهد، الذي حرّكه خطر غريزي مستفحل، يصدِّع العلاقات بين الأنا والأنا الأعلى، معطلاً على هذا النحو فعالية الإجراءات الدفاعية التي أملاها الخوف من الأنا الأعلى، وينجم عن ذلك أن الأنا يتقهقر، بمزيد من العنف بعد، إلى طور الحصر الغريزي الصرف، فلا يعود في مستطاعه أن يستخدم سوى الآليات الحمائية البدائية المميِّزة لهذا الطور.

على أن اللجوء إلى العزلة والتنائي عن المواضيع المحبوبة ليسا الميلين الوحيدين اللذين يعلنان عن نفسهما في علاقات المراهقين الموضوعانية. فكثرة من التعلقات الجديدة تأتي لتنوب مناب التثبيتات العاطفية الطفلية المكبوتة. فأحياناً يعقد المراهق علاقة صداقة مشبوبة أو حتى حب كبير مع فتيان في مثل سنه، وفي بعض

الأحيان مع شخص يكبره سناً، فيتخذه قائداً له وقدوة، ويكون من الواضح في هذه الحال أنه بديل عن المواضيع الأبوية المهجورة. ومشاعر الحب هذه مشبوبة ومانعة لسواها، لكنها قصيرة الأجل أيضاً. فالموضوع الذي وقع عليه الاختيار يُهجر ويُستبدل سريعاً بغيره بدون أن يقيم المراهق أي اعتبار للحزن الذي قد يتسبب فيه على هذا النحو. فهو ينسى الأشخاص الذين كان يحبهم ويكون نسيانه لهم سريعاً وتاماً؛ ولا يستمر لديه، في أدق تفاصيله، سوى شكل علاقات الحب الماضية، وهذا الشكل يتكرر في العلاقات الجديدة بأمانة صارمة، بل قهرية إن جاز القول.

فإلى جانب عدم الوفاء السافر هذا للمواضيع المحبوبة نلحظ في علاقات المراهق الموضوعانية خاصية غريبة أخرى. فالمراهق لا يصبو إلى امتلاك الشخص المحبوب، بالمعنى الجسدي المألوف لكلمة امتلاك، بقدر ما يرمي إلى مماثلة نفسه به إلى أقصى حدٍّ ممكن.

تبيِّن لنا التجربة اليومية مدى تقلب المراهق. فطريقته في الكتابة والكلام، وتسريحة شعره، وأسلوبه في اللباس وعاداته على مختلف ضروبها، تكون آنئذ أكثر مما في أي طور آخر من أطوار الحياة قابلة للتكيف مع الظروف. وكثيراً ما تكون نظرة واحدة نلقيها على المراهق كافية لنتعرف من هو الصديق الذي يكبره سناً والذي يكنّ له الإعجاب في حينه. لكن قابليته للتقلب يمكن أن تذهب إلى أبعد من ذلك بعد: فهو يكيِّف في بعض الأحيان مع آراء الشخص الذي يحبه في حينه تصوره للعالم وأفكاره الدينية والسياسية؛ وعلى الرغم من كثرة تقلباته هذه فإنه يكون في كل مرة مقتنعاً اقتناعاً راسخاً ومشبوباً بصحة الأفكار التي تبنّاها بكل تلك الحماسة. وهو يشبه، من هذا المنظور، ذلك الطراز من المرضى الذي وصفته هيلينا دويتش في دراسة سريرية لها حول سيكولوجيا الراشدين المعصوبين الذين هم قاب قوسين من الذهان. فهي تدرج هؤلاء المرضى في عداد الفئة التي تسميها «طراز كأن» (ALS OB TYPUS)[٦]. وبالفعل، إن المراهق

٦ ـ هيلينا دويتش: **حول طراز خاص من العاطفية الكاذبة «كأن»، في المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م ٢٠، ١٩٣٤، ص ٣٢٣ وما يليها.



كلما عقد صلة موضوعانية جديدة يسلك و«كأنه» يحيا حياته الخاصة، وكأنه يعبّر عن مشاعره الخاصة وآرائه الخاصة ووجهات نظره الخاصة.

لقد أتاح لي تحليل فتاة مراهقة أن أعاين في جلاء الآلية التي ترتكز إليها سيرورات التبدل والتقلب تلك. فخلال عام واحد حدثت لديها جميع التبدلات المشار إليها. فقد انتقلت بعاطفتها من بعض البنات إلى بعض الصبيان، ومن الصبيان إلى نساء أكبر سناً منها. وما كانت في كل مرة تبدي لامبالاة تامة بالموضوع الذي هجرته فحسب، بل كانت تستشعر إزاءه أيضاً نفوراً متأججاً يقارب أن يكون احتقاراً. وكان كل لقاء لها به، أبالمصادفة كان أم محتوماً، يبدو لها لا يطاق. وبعد تحليل مطوَّل اتضح لنا في نهاية المطاف أن المشاعر التي كانت تفصح عنها على هذا النحو ليست هي على الإطلاق مشاعرها إزاء أصدقائها القدامى. ففي كل مرة كانت تغيِّر فيها موضوع افتتانها، كانت تشعر أنها ملزمة بأن توفِّق سلوكها مع اتجاه صديقها الجديد، وبأن تتبنى وجهات نظره وجميع آرائه في كل ما يتصل بحياتها الخارجية أو حياتها الداخلية. وهكذا كانت تحيا عواطف معبوديها الجدد لا عواطفها هي. ولم يكن كرهها حيال الأشخاص الذين كانوا محبوبين عندها من قبل هو كرهها حقاً؛ فعن طريق ضرب من التعاطف الغيريّ كانت تشاطر أحدث أصدقائها مشاعره، وإذ تبدي عن غيرتها المتخيَّلة كانت تعبِّر عن الشعور الذي كانت تتصور أنه لا بدّ مساور صديقها هو حيال المواضيع التي حظيت بحبّها يوماً. وعلى هذا لم يكن الاحتقار الذي توحي به إليها هذه المواضيع احتقارها هي، وإنما احتقار صديقها الجديد إزاء كل منافس ممكن.

إن الظاهرات النفسية في هذا الطور من مرحلة البلوغ وظاهرات أخرى مماثلة يمكن وصفها بسهولة: فتلك التعلقات العاطفيةالمشبوبة والسريعة الزوال ليست على الإطلاق بعلاقات موضوعانية بالمعنى الذي يعطيه الراشدون لهذه الكلمة، وإنما هي فقط تماهيات من النوع الأكثر بدائية، تماهيات مشابهة لتلك التي نستطيع كشفها في المرحلة الأولى من نمو الطفل الصغير، قبل أن يتظاهر لديه أي حب موضوعاني. وعلى كل، إن التقلب الذي يميِّز البلوغ لا ينمّ لدى المراهق عن



تغيُّر في الحب أو في الاقتناع بقدر ما ينمّ عن فقدان للشخصية من جراء تماهٍ جديد.

ربما كان تحليلنا لفتاة أخرى في الخامسة عشرة من العمر يتيح لنا أن نقطع شوطاً آخر على طريق تفهم الدور الذي يضطلع به هذا الميل إلى التماهي. كانت هذه المريضة جميلة وجذابة إلى حدٍّ كبير، وكان لها معجبون ومغرمون كثُر في الوسط الاجتماعي الذي تعيش بين ظهرانيه، ولكن ما كان ذلك يمنعها من أن تغار من أختها الصغيرة غيرةً مسعورة. وعند البلوغ فقدت فتاتنا اهتمامها بكل ما كان يعني لها شيئاً في السابق، وأمسى دأبها الوحيد مذّاك فصاعداً أن تكسب إعجاب أصدقائها وحبّهم، أفتياناً كانوا أم رجالاً. وقد تولعت بقوة وعنف، وعن بعد، بفتى يكبرها سناً بقليل، كانت تلتقيه أحياناً في حفلات وسهرات راقصة. وقد خطّت إليّ يومئذ رسالة تروي لي فيها شكوكها وهواجسها بصدد هذا الحب. كتبت تقول: «أسدي إليَّ نصيحة من فضلك: كيف لي أن أتصرف عندما ألتقيه؟ أينبغي أن أكون رصينة أم مرحة؟ أتراه يحبني ذكية أم بلهاء؟ أيحسن بي أن أكلِّمه كل الوقت عن نفسه أم عن نفسي أيضاً قليلاً؟...». وفي الجلسة التالية أجبت شفهياً عن أسئلتها هذه. قلت لها: إنه ليس من الضروري أن ترسم لنفسها سلفاً الخطط. أفليس في مستطاعها، متى حان الوقت، أن تتصرف وفق ما تكون عليه من حالة نفسية ومشاعر؟ أكدت لي أن لا، وأن ذلك مستحيل، وألقت عليّ محاضرة طويلة لتشرح لي ضرورة تكيُّف المرء مع ما يفضِّله الناس ومع ما يتوقعونه منك. فعلى هذا النحو وحده يمكن لك أن تفوزي، بكل تأكيد، بحبهم. ثم أنى لها أن تطيق الحياة بدون حب ذلك الفتى؟

بعد ذلك للحال روت لي المريضة أخيولة تصورت فيها نهاية العالم. تساءلت: «ماذا سيحدث فيما لو قضى الناس جميعاً نحبهم؟». وراحت تستعرض أصدقاءها وأهلها واحداً تلو الآخر، إلى أن تصورت نفسها في خاتمة المطاف وقد أمست وحيدة فوق سطح الأرض. كان صوتها ونبرتها والكيفية التي تصف بها جميع تفاصيل الكارثة يدلّ أن أخيولتها هذه لم تكن إلا تحقيقاً لرغبة. فقد كان ما تستشعره، وهي تقصّ أخيولتها ، متعة لا حصَراً.



عند هذه النقطة ذكّرتها برغبتها الحارة في أن تكون محبوبة. كان مجرد تفكيرها في احتمال ألا تقع من نفس صديق من أصدقائها موقع الاستحسان، أو في احتمال أن تفقد حبه، كافياً في الأيام السابقة ليغرقها في حالة من اليأس والقنوط. فلو بقيت بمفردها على الأرض، فمن سيحبّها؟ ردّت في هدوء تذكرتي لها بهواجسها في الأمس، وقالت لي، وهي تتنفس الصعداء وكأنها انعتقت من كل حصر: «حسناً، في هذه الحالة سأحبّ نفسي».

هذه الملاحظة التحليلية المقتضبة عن حالة مفردة تقدِّم تمثيلاً جيداً، فيما يلوح لي، على بعض العلاقات الموضوعانية في زمن البلوغ. فقطع أواصر الصلات الموضوعانية القديمة، والنفور من الدوافع الغريزية، والنزوع إلى الزهد، كل ذلك يكون من شأنه سلخ الليبيدو عن العالم الخارجي. فالمراهق مهدَّد بخطر ارتداد الليبيدو إلى ذاته وتركُّزه عليه، وبخطر النكوص في حياته الليبيدوية من الحب الموضوعاني إلى النرجسية، مثلما نكص من قبل في أناه. وهو لا يفلت من هذا الخطر إلا بما يبذله من جهود مستميتة ليتعلق بمواضيع خارجية، حتى وإن كان لا يستطيع الوصول إليها إلا عن طريق النرجسية، أي من خلال سلسلة من التماهيات. هكذا تمثل علاقات المراهق الموضوعانية المشبوبة محاولات للشفاء، مشْبِهة في ذلك، مرة أخرى، الحالات الابتدائية للاندفاعات الذهانية.

لقد قارنت تكراراً في الصفحات السابقة بين الخصائص اللافتة للنظر لمرحلة البلوغ وبين التظاهرات الباتولوجية الخطيرة، بحيث أراني مضطرة - بدون أن أزعم أن دراستي كانت كاملة - إلى أن أضيف كلمة أخرى بعد بصدد الطابع السوي أو اللاسوي للسيرورات التي تحدث في ذلك الطور من العمر.

إن ملاحظتنا للدور الذي تضطلع به التغيرات الكمية في التوظيف الليبيدوي هي التي أتاحت لنا أن نقيم موازاة بين البلوغ والحالات الابتدائية للنوبات الذهانية. ففي الحالتين كلتيهما يتأدى تزايد التوظيف الليبيدوي، من جهة أولى، إلى زيادة في الخطر الغريزي، ومن الجهة الثانية، إلى زيادة في شدة جميع الجهود التي يبذلها الأنا للدفاع عن نفسه. ولقد اتضح دوماً للتحليل النفسي أن أي



مرحلة من مراحل الحياة يتزايد فيها الليبيدو يمكن أن تغدو، من جراء السيرورات الكمية، نقطة انطلاق للأعصبة أو للأذهنة.

ثانياً، إن البلوغ يمكن أن يشابه أيضاً الاندفاعات الذهانية من جراء تبني بعض المسالك الدفاعية البدائية التي نعزوها إلى الحصر الذي يستشعره الأنا حيال قوة الدوافع الغريزية، وهو حصر أقدم عهداً من الحصر الواقعي أو الأخلاقي.

إن الانطباع الذي يمكن أن تولّده فينا سيرورة البلوغ، والطابع السوي أو اللاسوي الذي نعزوه إليها، يتوقفان في أغلب الظن على غلبة إحدى الخصائص التي تكلمت عنها، أو أحياناً غلبة عدة خصائص معاً في اللوحة السريرية. فالمراهق الزاهد يبدو لنا سوياً ما دام عقله يعمل في حرية، وما دام يحتفظ بعدد كافٍ من العلاقات الموضوعانية. وهذا يصدق أيضاً على الفتى الذي يجنح إلى العقلنة، وكذلك على الفتى الذي ينتقل من صداقة مشبوبة إلى أخرى. لكن عندما تستفحل النزعة الزهدية الغريزية، وعندما تهدد العقلنة بخنق جميع الأنشطة العقلية الأخرى، وعندما لا تقوم العلاقات مع العالم الخارجي إلا على أساس التماهيات المتقلبة، فإنه يكون من العسير على المربّي أو المحلِّل النفسي أن يقرر، استناداً إلى الملاحظة، ما الجوانب من سلوك المراهق التي تدخل ضمن نطاق النمو السوي وما الجوانب التي تكون بحدّ ذاتها باتولوجية.



خاتمة

حاولت، في الفصول السابقة، وبالاستناد إلى بعض الأمثلة السريرية، تصنيف مختلف الآليات الدفاعية المتعيّنة بمواقف الحصر النوعية. وربما كان في إمكاننا، طرداً مع تحسن معرفتنا بنشاط الأنا اللاشعوري، أن نجري تصنيفاً أكثر دقة. فالعلاقة التاريخية بين بعض الخبرات المعاشة والنمطية التي تطرأ في أثناء نمو الفرد وبين تحريك أنظمة بعينها من أنظمة الدفاع لا يزال يحوطها الإبهام إلى حدّ بعيد. بيد أن الأمثلة التي سقتها هنا تتيح لنا مع ذلك أن نفترض أن الأنا يحرك آلية الإنكار في المواقف ذات الصلة بأفكار الخصاء وفقدان المواضيع المحبوبة. ومن ناحية أخرى، يبدو أن التنازل الغيريّ عن الحفزات الغريزية هو الوسيلة المفضلة، في بعض الشروط المحددة، للتغلب على الإذلالات النرجسية.

إن المعارف التي باتت متوفرة لنا اليوم تتيح لنا أن نقيم بدرجة أكبر من اليقين مقاربات بين أنشطة الأنا الدفاعية في مواجهة الأخطار التي تتهدده سواء من الداخل أو من الخارج. **فالكبت** يفيد في تنحية مشتقات الهذا، مثلما يفيد **الإنكار** في استبعاد التنبيهات الخارجية. **والتشكيل الارتجاعي** يصون الأنا من معاودة انبجاس ما كان كُبت من الداخل، بينما تحول **الأخاييل التي يُقلب فيها الموقف الواقعي إلى ضده** دون انهيار الإنكار تحت ضغط المحيط الخارجي. ويناظر **كفّ** الحفزة الغريزية **انكماشَ** الأنا بغية تحاشي الكدر الناجم عن العالم الخارجي. وتفعل **عقلنة** السيرورات الغريزية فعلها كوسيلة حماية ضد خطر داخلي وتكافئ **تيقُّظاً** دائماً من جانب الأنا في مواجهة الأخطار الخارجية. وجميع الآليات الدفاعية الأخرى ـ من نظير القلب إلى الضد أو الارتداد ضد الذات ـ التي تستتبع تعديلاً في السيرورات الغريزية ذاتها لها ما يناظرها في المحاولات التي يبذلها الأنا ليتقي الخطر الخارجي بتدخله الإيجابي والفعال لتغيير



الظروف المحيطة. بيد أنه لا يسعني أن أفيض هنا أكثر من ذلك في الكلام عن هذه الجوانب من أنشطة الأنا.

إننا نتساءل، حال مقارنتنا بين مختلف هذه السيرورات، عن الأسباب التي يمكن أن تحدو بالأنا إلى أن يختار هذا الشكل من أشكال الدفاع بدلاً من ذاك. فهل يتقولب الكفاح ضد العالم الخارجي بقالب الكفاح ضد الدوافع الغريزية، أم أن الإجراءات الدفاعية المتخذة في الصراع ضد الدوافع الغريزية تتشكل، على العكس، بشكل الإجراءات المتخذة في الصراع الخارجي؟ إن البتّ القاطع بين هذين الفرضين المخيَّر بينهما أمر مستحيل. فالأنا الطفلي يرزح تحت وطأة هجمة التنبيهات الغريزية والتنبيهات الخارجية في آن معاً. وكيما يتاح له الاستمرار في الوجود، يتحتم عليه أن يحارب على الجبهتين في وقت واحد. وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن الأنا، في كفاحه هذا ضد التنبيهات والمثيرات المتباينة، يكيّف تدابيره الدفاعية مع الأخطار التي تتهدده من الداخل ومن الخارج.

إن مقارنة هذه السيرورة بسيرورة أخرى مشابهة لها، ونعني بها التحريف في الحلم، هي التي تتيح لنا أن نتبيّن على خير وجه ممكن إلى أي حدّ يخضع الأنا، في دفاعه عن نفسه ضد الدوافع الغريزية، لقوانينه الخاصة وإلى أي حدّ يتأثر في ذلك بطبيعة الدوافع الغريزية نفسها. فترجمة أفكار الحلم الكامنة إلى مضمون الحلم الظاهر تتوقف على الرقابة التي تنوب في أثناء النوم مناب الأنا. بيد أن عمل الحلم ذاته ليس من فعل الأنا. فالتكثيف والنقل وطرائق التعبير والتمثيل الغريبة المتنوعة في الحلم هي من اختصاص الهذا، وهي تفيد بوجه خاص في تحقيق التحريف. وبالمثل، إن آليات الدفاع لا تعود بكليّتها إلى الأنا. فخصائص الدوافع الغريزية يجري استخدامها بقدر ما تتعدل السيرورات الغريزية ذاتها. ومن قبيل ذلك أن الأنا، إذ يحاول أن ينقل الهدف الغريزي من مضمار الجنسية الخالصة إلى مضمار يعتبره المجتمع أرفع وأسمى، يشغِّل آلية **الإسماء**، وهذا بفضل حركية السيرورات الغريزية. وتأميناً للكبت عن طريق التشكيلات الارتجاعية يستغل الأنا قابلية الدوافع الغريزية **للانقلاب إلى الضد**. وفي مقدورنا الافتراض أن النظام



الدفاعي لا يصمد للهجمات إلا إذا كان أساسه مزدوجاً: الأنا من جهة، والسيرورة الغريزية نفسها من الجهة الأخرى.

وعلى الرغم من أن الأنا لا يملك حرية مطلقة في اختيار الآليات الدفاعية، فإن أهمية الدور الذي يضطلع به تدهشنا عندما ندرس هذه الآليات. فوجود الأعراض العصابية ذاته يثبت أن الأنا قد غُلب على أمره. وكل رجوع للدوافع الغريزية المكبوتة، وكل تكوين لاحق للتسوية من ثم، يشهدان على إخفاق الإجراء الدفاعي، وبالتالي على اندحار الأنا. وبالمقابل، يكون الظفر للأنا عندما تثبت تدابيره الدفاعية نجعها وفعاليتها، أي عندما يتمكن، بوساطة هذه التدابير، من الحدّ من تمخُّض الحصر والكدر، ومن تأمين قدر معيَّن من الاستمتاع الغريزي، حتى في الظروف الصعبة، عن طريق تحوير الدوافع الغريزية. وعلى هذا النحو تقوم، بقدر المستطاع، علاقات متناغمة بين الهذا والأنا الأعلى وقوى العالم الخارجي.



ما وراء مبدأ اللذة

نصوص هذا المجلد السادس من المؤلفات شبه الكاملة تتميز بأهمية خاصة من حيث أنها تسجل التطور الذي أصابته النظرية التحليلية النفسية من خلال النقلة الإبستمولوجية النوعية من الطبوغرافيا الفرويدية الأولى، القائمة على الثلاثي: الشعور/ ما قبل الشعور/ اللاشعور، إلى الطبوغرفيا الثانية التي شادها فرويد على أساس الثلاثي: الهذا/ الأنا/ الأنا الأعلى الذي يشتغل وفق مبدأ اللذة ومبدأ الواقع ومبدأ المثال. وهذا بالإضافة إلى الكشف عن وجود غريزة جديدة فاعلة في الإنسان والكائن الحيّ هي غريزة الموت.





